السيد محمد الكثيري

السلفية

بين أهل السنة والإمامية



الغدير
بيروت - لبنان



السلفية

بين أهل السنة والإمامية

السيد محمد الكثيري

الغدير
بيروت - لبنان

«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالاً، على غير دين الله. فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق، لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل، إنقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

الامام علي بن ابي طالب

[نهج البلاغة، الخطبة ٤٩]



السلفية

بين أهل السنة والإمامية

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م



حارة حريك - بناية البنك اللبناني السويسري
هاتف: ٠٣/٦٤٤٦٦٢ - تلفاكس: ٠١/٢٧٣٦٠٤ - ص.ب ٥٠/ ٢٤
بيروت - لبنان

قائمة منشورات الغدير

- ☐ ابن تيمية ، حياته وعقائده — الأستاذ صائب عبد الحميد
- ☐ ابن تيمية في صورته الحقيقية — الأستاذ صائب عبد الحميد
- ☐ الاجتهاد والحياة (حوار على الورق) — السيد محمد الحسيني
- ☐ الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي — السيد حسن الأمين
- ☐ الإمام الحسين (قبس من نبوة) — د. حسن عباس نصر الله
- ☐ الإمام علي (ع) ومشكلة نظام الحكم — د. محمد طي
- ☐ الانتظار الموجه (دراسة في علاقة الانتظار بالحركة وفي علاقتها به) — الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ☐ بحث حول المهدي (ع) — الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر
- ☐ تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي (مسار الإسلام بعد الرسول ونشأة المذاهب) — الأستاذ صائب عبد الحميد
- ☐ تاريخ السنة النبوية (ثلاثون عاماً بعد الرسول) — الأستاذ صائب عبد الحميد
- ☐ التشيع ، نشأته ـ معالمه — الأستاذ هاشم الموسوي
- ☐ الجسور الثلاثة (قصة الغارة الحضارية على العالم الإسلامي) — الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ☐ الحب الإلهي في أدعية أهل البيت (ع) — الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ☐ الحقائق الخفية عن الشيعة الإمامية الأثني عشرية — محمد حسن الأعظمي
- ☐ حوار في العمق من أجل التقريب الحقيقي — الأستاذ صائب عبد الحميد
- ☐ دراسة تحليلية في السيرة النبوية (عصر ما قبل الهجرة) — عباس زرياب خوئي، ترجمة : علي السيد هادي
- ☐ دعاء كميل
- ☐ دفاع عن الحقيقة — د. أحمد الوائلي
- ☐ دور علماء الشيعة في مواجهة الاستعمار — الأستاذ سليم الحسني
- ☐ روائع نهج البلاغة — الأستاذ جورج جرداق
- ☐ زيد بن علي ومشروعية الثورة عند أهل البيت (ع) — الشيخ نوري حاتم
- ☐ السلفية بين أهل السنة والإمامية — السيد محمد الكَثيري
- ☐ الصبر في الإسلام (رؤية تحليلية شاملة) — البروفسور طلال طرفة
- ☐ الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين (ع) — شرح وتقديم : عز الدين الجزائري
- ☐ الطريق إلى مذهب أهل البيت (ع) — د. أحمد راسم النفيس
- ☐ على خطى أهل البيت (ع) — الأستاذ هاشم الموسوي

□ على خطى الحسين — د. أحمد راسم النفيس
□ كربلاء، المأساة والثورة — المحامي أحمد حسين يعقوب
□ لماذا أنا شيعي؟ — الشيخ محمد حسين الفقيه
□ المؤسسات الدينية الإسلامية والكيان الصهيوني — د. زهير غزاوي
□ مذهب الإمامية (بحث في النشأة وأصول العقيدة والتشريع) — د. عبد الهادي الفضلي
□ مسائل الخلاف بين فخر الدين الرازي ونصير الدين الطوسي — د. هاني نعمان فرحات
□ مساحة للحوار من أجل الوفاق ومعرفة الحقيقة — المحامي أحمد حسين يعقوب
□ مع ذي النون في رحلة العودة إلى الله — الشيخ محمد مهدي الآصفي
□ مع د. موسى الموسوي في كتابه الشيعة والتصحيح — د. علاء الدين القزويني
□ معجم فقه الجواهر
معجم فقهي ألفبائي وملخص منهجي مفهرس لكتاب جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام
إعداد: مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي
□ مفهوم البداء في الفكر الإسلامي — الأستاذ هاشم الموسوي
□ مفهوم التقية في الفكر الإسلامي — الأستاذ هاشم الموسوي
□ مقالات فقهية — السيد محمود الهاشمي
□ منتخب فضائل النبي(ص) وأهل بيته (ع) — انتخاب وتحقيق: لجنة من المحققين
تقديم: د. محمد بيومي مهران
□ المواجهة مع رسول الله(ص) وآله (القصة الكاملة) — المحامي أحمد حسين يعقوب
□ نشأة الشيعة والتشيع — الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر
□ الوجيز في الإمامة والولاية — المحامي أحمد حسين يعقوب
□ الوطن الإسلامي بين السلاجقة والصليبيين — السيد حسن الأمين
□ وركبت السفينة — الأستاذ مروان خليفات
□ الوهابية في صورتها الحقيقية

AL-GHADEER FOR PUBLICATION & STUDIES IN ENGLISH LANGUAGE:

1 - The Shia Their Origin and Beliefs - Hashim al-musawi
2 - Legacy of The Prophet Household - Hashim al-musawi
3 - Ibn Taimia: The True Image
4 - The Wahabia Movement: The True Image
5 - The Imamya sect: A Study Of Its Origin, Beliefs, And Laws

كلمة المركز

اكتوى المؤلِّف، وهو باحث مغربي مختَّص في علم الاجتماع الديني، بنار الاختلافات التي شغلت أبناء الصحوة الإسلامية، وأدَّت إلى تخبط عقيدي وفقهي، تمثَّل في أزمةٍ من مظاهرها الانقسام وتكاثر الفرق والتكفير. فعقد العزم على مواصلة مسيرة البحث لمعرفة أسباب هذه الأزمة ونتائجها، وقرَّر السفر إلى الشرق حيث يجد المراجع والمصادر الخاصَّة بالمذاهب الإسلاميَّة.

وكشف سَفَرُ المعرفة حقائق منها أن في العالم الإسلامي حدوداً مذهبية أيديولوجية يتمُّ الحفاظ عليها أكثر من الحفاظ على الحدود الجغرافية ـ السياسيَّة، وأن فيه «أصناماً ذهبيَّة برَّاقة» ينبغي أن تُعرف حقيقتها. وأثار هذا السَّفر أسئلة كثيرة تتعلَّق بدعاة سلفيَّة جديدة يقفون وراء الفتن المذهبية التي تمزِّق وحدة المسلمين.

في سبيل الإجابة عن هذه الأسئلة كان لا بد من متابعة تاريخيَّة تتبيَّن نشوء المذاهب وتكوّنها، وتوضح طبيعة آراء السلفيين التي تصنِّف المسلمين بين «سلفي» مؤمن و «بدعي» كافر، بوصف هذه الآراء اختيارات مجتزأة محرَّفة، واجتهادات حَرْفيَّة ظاهريَّة لا تمثل الحقيقة الإسلامية أو آراء السلف الصالح وأعماله، إضافة إلى أنها كانت، ولا تزال، نتاج سياق تاريخي: سياسي، اجتماعي، أخرجها إلى الوجود لتحقيق أهداف معيَّنة.

تركَّزت الإجابات في هذا الكتاب الموسوم بعنوان: «السلفية بين أهل السنَّة والإماميَّة»، وهو يتألف من قسمين كبيرين:

القسم الأول يبحث في «السَّلفيَّة: الخلفيات التاريخيَّة والمذهبيَّة»، ويتضمن بحث عدة قضايا: أولاها تعريف السلفية والحشوية وأهل السنة والجماعة والشيعة الإمامية، وثانيتها تعريف المذهب الحنبلي (رحم الحشوية)، ودور السياسة في انتشار المذاهب الفقهية، وأحمد بن حنبل وعصره والمذهب الفقهي والأصولي المنسوب إليه، وثالثتها تقي الدين، أبو العباس بن تيمية الحراني الحنبلي ودوره في «عقلنة الحشو» وفي إثارة الحروب والفتن بين المسلمين وعلاقته بالتصوُّف،

ورابعتها محمد بن عبد الوهاب النُجدي الحنبلي وقيام الدعوة السلفية الحشوية في بلاد نجد؛ حيث عضد السيف القلم فانتشرت الدعوة وظهرت للوجود دولةٌ تتَّخذ السلفية الجديدة مذهباً في الدين وأساساً للشرعية السياسية، ومن يطلع على ما كتبه مؤرخها «ابن بشر» يجد أن قوامها مجموعة من البدو يتزعمهم فقيه حنبلي حكم على باقي المسلمين بالكفر والارتداد وأباح دماءهم وأموالهم. وقد أتيح لهذه الدولة الدعم الغربي ومال النفط، فعملت على أن تجعل السلفية دعوة عالمية، مستخدمة القوة العسكرية والمال وتحريف التراث والكذب وإشعال الفتن.

والقسم الثاني يبحث في «أهل السنة والإمامية في مواجهة السلفية»، ويتضمن بحث عدة قضايا منها: مواقف أهل السنة والشيعة الإمامية من السلفية، والجديدة منها بخاصة، وآراؤهم في ما تذهب إليه في مختلف الأمور.

ويبدو واضحاً، منذ البداية، أن أتباع هذه السلفية لا يقتنعون بالحجة الساطعة لأنَّ سلطانهم له حجتان قاطعتان عليهما يعتمد، وهما: الحسام البتار والدرهم والدينار.

ويعود المؤلف في بيان ذلك إلى جذور الصراع وتاريخيته منذ «فَدَكَ» المغتصبة إلى محنة التشيع في أيام الأمويين والعباسيين، ويتوقف عند يوميات الصراع السلفي مع الشيعة الإمامية، ومنها بخاصة فتاوى ابن تيمية وما آلت إليه من فتن ومذابح، وصولاً إلى ما يعانيه شيعة المنطقة الشرقية في نجد، وإلى أكاذيب السلفية وهجمتهم الإعلامية الشرسة على الجمهورية الإسلامية وإلى محاربة الكتاب الشيعي. ثم يورد ردودالمستبصرين المسلمين على دعاة السلفية في ما يتعلق بإمامة أهل البيت والشيعة والصحابة، إضافة إلى أن الكتاب يتضمن ثبتاً بالمؤلفات التي ترد دعاوى السلفيين.

يهدف هذا الكتاب، كما يبدو، إلى تحصيل معرفة تضيءُ وتكشف، وتبيِّن، فيميز المسلم ويختار، وهو على بيِّنة من أمره، وبهذا يسهم في الجهد الرامي إلى تجاوز الأزمة القائمة في العالم الإسلامي.

مركز الغدير للدراسات الإسلامية

المقدمة

قبل عقد ونصف من الزمن كنت في زيارة لأحد أقاربي، شيخ طاعن في السن و «مقدم» في الطريقة التيجانية، يقيم في منزله حلقات الذكر والدعاء، فكان أتباع هذه الطريقة يؤمون بيته في كل وقت للذكر والزيارة. وقد صادف يوم زيارتي أن جاءه رجل في الخمسينات من عمره، وبعد أن سلم وجلس بجوار الشيخ بدأ يحدثه عن زيارته للأماكن المقدسة. قال الرجل أنه زار مكة والمدينة وقد إلتقى بالشيخ أبو بكر الجزائري الواعظ السلفي المشهور. حيث دار بينهما نقاش طويل حول زيارة القبور والتوسل بالأولياء. قال الرجل إنه أفحم الواعظ السلفي فلم يجد ما يرد به عليه إلا اعتراضه على حلق اللحية وقد كان الرجل حليقاً. فقال له، إنك لو تترك لحيتك فستكون مسلماً جيداً. لكن هذا المريد التيجاني رد عليه بقوة قائلا: إن الله سبحانه وتعالى لم يقل أنه ينظر الى لحاكم بل قال إنه ينظر الى قلوبكم، فحار الشيخ أبو بكر الجزائري في جوابه وإنتهى الحوار.

كان الرجل يحدث أصحابه بفخر وإعتزاز وقد ظهرت الغبطة والسرور على وجوه الحاضرين ومنهم شيخ الطريقة، وكأنه يحدثهم عن إنتصار مهم في معركة حامية الوطيس. إنتقل الحاضرون بعد ذلك لنقاش بعض القضايا، فسمعت إسم إبن تيمية يتردد على ألسنتهم، قال أحدهم إن الرحالة إبن بطوطة ذكر في رحلاته أن إبن تيمية ذكر حديث النزول، نزول الله الى سماء

الدنيا، وأنه ــ أي إبن تيمية ــ نزل درجة من على المنبر قائلاً كنزولي هذا. وتابع الحاضرون نقاشاتهم بين مستنكر لما قاله إبن تيمية وبين معلق عليه...

لم أكن أعرف وقتها أن هناك صراعاً عقائدياً مريراً بين هؤلاء الطرقيين وبين المذهب الفقهي والأصولي المنتشر في جزء كبير من شبه الجزيرة العربية، لأنني كنت في بدايات تحصيلي العلوم الدينية. كما أن الكتب التي كانت تغزو الساحة آنذاك ومن بينها فتاوى إبن تيمية لم تكن تدعو لمذهب فقهي أو أصولي معين، أو معروف لدى أبناء الصحوة الإسلامية. وإنما هي دعوة للتشبث بالسنة النبوية والعمل بمقتضاها ورفض التقليد في الدين. وقد واكب ذلك إنتشار كبير لآراء وفتاوى تخالف المذهب المالكي وأشهرها القبض في الصلاة بدل الاسبال.

أما الحوارات الفقهية والأصولية التي كانت تدور في ساحات الجامعة وداخل الفصول، فكانت تثير الكثير من التساؤلات، وذلك لوجود طلبة ممن لديهم إطلاع جيد على العلوم الإسلامية. فالآراء الجديدة كانت تجد معارضة قوية ويتحول النقاش في أحيان كثيرة الى خصام وإتهام الطرف الآخر بالجهل وقلة الإطلاع. وبعد ذلك ينقسم الطلبة الى تيارين مختلفين ومتنافسين، ويبدأ كلا الفريقين في الدعوة لإختياراته الفقهية بالخصوص وتكثير الأتباع.

لقد شاركت في الكثير من هذه الحوارات والنقاشات الساخنة، وإنتصرت لبعض الآراء الفقهية معتمداً على ما تجود به المكتبات من كتب حديثة طبعت في بيروت والقاهرة وفي بعض الأحيان في السعودية، ولم نكن نعرف عن أصحابها شيئاً اللهم إلا إبتدائها ببسم الله الرحمان الرحيم، وإحتضانها عشرات الأحاديث النبوية والآيات القرآنية!؟.

كنا نعتقد ونحن نناقش ونجادل أن حججنا قوية بما فيه الكفاية، وأن المخالف لنا إنما هو معاند ومكابر، متشبث بتقليد الآباء والأجداد دون علم أو تحقيق. لكن أحداً منا لم يكن يخطر بباله أن حقائقه الجديدة التي يدعو لها

إنما هي إنتصار لمذهب فقهي وأصولي تجتاح كتبه الساحة الإسلامية في غفلة من باقي المذاهب الإسلامية الأخرى. كل ما هنالك أن هذه الآراء التي نقرأها هي جديدة بالنسبة لنا. فمثلاً عندما قرأنا عن صفة صلاة النبي(ص) وجدنا أنه عليه السلام كان يضع يده اليمنى على اليسرى، لكننا وآباءنا نسدل أيدينا في الصلاة. وقد ورثنا ذلك خلف عن سلف دون أن نعرف الأدلة على ذلك، وعندما قرأنا كتباً تخالف ما نحن عليه وتنتصر بقول الرسول(ص) لم نجد بدأ من إعتناق الرأي الجديد وضربنا بغيره عرض الحائط.

لكن السؤال الكبير الذي لم نكن نجد له جواباً شافياً، كان في حل هذا التناقض والإختلاف العلمي والنظري الذي بدأ يقسم الساحة الى تيارين مختلفين ومتصارعين. فأغلب الفقهاء المالكية على سبيل المثال لا يقبضون في الصلاة بل يسدلون أيديهم. كما يؤيدون ما تقوم به الزوايا من مراسيم وإحتفالات سنوية بالأولياء. بل إن الكثير منهم يشارك مشايخ الطرق الصوفية مجمل عقائدهم في التوسل والشفاعة ودعاء الأولياء وبناء القبور والأضرحة، هذه العقائد والإختيارات الفقهية درج الجميع عليها منذ قرون خلت.

وإذن كيف لم تصلهم هذه الأحاديث التي اكتشفناها نحن مؤخراً وعملنا بها؟!! في التوحيد والشرك ومحاربة البدع وصولاً الى القبض في الصلاة وغير ذلك من المسائل الفروعية؟!.

لن أكون مجانباً للصواب اذا قلت بأن مسألة التمذهب والمذهبية أو الإختيارات الفقهية والأصولية. كانت قضايا مبهمة لدينا ولدى غالبية الملتزمين الشباب من جيلنا. أولاً لندرة الكتب التي تعالج هذه القضية الشائكة، ثانياً لعدم معرفتنا بتفاصيلها وخلفياتها التاريخية ونحن في بداية التحصيل العلمي الديني. زد على ذلك خلو الساحة من أي تعدد مذهبي فقهي أو أصولي، لأن منطقة المغرب العربي هي منطقة نفوذ تاريخي للمذهب المالكي. لذلك كانت معرفتنا بباقي المذاهب الفقهية والأصولية الأخرى

هزيلة، بل نكاد لا نعرف شيئاً عن المذاهب الإسلامية خارج إطار أهل السنة والجماعة.

إن هذه الإختلافات الفروعية والأصولية التي شغلت أبناء الصحوة الإسلامية مبكراً، كانت تبشر بأزمة خطيرة بدأت ملامحها تظهر وتتعمق، ليس فقط على مستوى التعدد الحركي أو الإنتماءات السياسية، ولكن في التمزق الفكري الديني. كل شاب يختار الإلتزام بتعاليم الدين عليه أن يقرأ الكتب الإسلامية في العقائد والفقه بمفرده، أن يدرس ويفهم ثم يختار ويطبق ما توصل إليه من مفاهيم وآراء في العقيدة وفي الإسلام ككل. ويهون الخطب لو كان الأمر ليقف عند هذا الحد، بل يتجاوزه في أغلب الأحيان، لأن ما سيتوصل إليه هذا الشاب الملتزم سيتحول الى ميزان وقانون يحاكم به المجتمع والأفراد من حوله. فمن قبل بما توصل إليه من آراء وفتاوى فهو على الحق، ومن خالفه فهو بالتأكيد على الباطل؟!.

من هنا بدأ التمزق يغزو كيان الصحوة الإسلامية داخل كل بلد، وتعددت الخلافات وكثرت الأحكام الفقهية المتناقضة والمتضاربة. وفُتح باب الإجتهاد على مصراعيه أمام أبناء الصحوة دون شرط أو قيد، سوى إمتلاك كتب الحديث النبوي والقدرة على القراءة والفهم. وبين عشية وضحاها يصبح الشاب المراهق فقيهاً مجتهداً، يقضي في الدماء والأعراض والأموال. ولنا أن نتصور ماذا كانت النتيجة، ظهور مذاهب فقهية وأصولية بعدد أبناء الصحوة، لأن كل ملتزم أو متدين يلتحق بصفوف الصحوة هو مشروع فقيه مجتهد، ومفكر إسلامي يحمل هموم الأمة الإسلامية ويفكر في إيجاد الحلول لمشاكلها المستعصية!!.

هذا التخبط والإختلاف العقائدي والفقهي العقيم الذي بدأ يمزق جسد الصحوة الإسلامية كان سبباً في إنتشار موجة من القلق الفكري والروحي داخل صفوف أبناء الصحوة، دفع البعض الى التحرر تدريجياً من الإلتزام

الديني والتوجه نحو الإنشغالات الدنيوية، والنظر الى «الإسلام الجديد» بنوع من الحذر والريبة. ومنهم من هرب قاصداً الطرق الصوفية على إعتبار أن التعبد هو الحقيقة الوحيدة التي لا يمكن أن يُختلف حولها مع تجنب بعض مظاهر الشرك. وبقيت فئات عريضة داخل هذه البؤرة تتخبط في الإختلاف والتناقض وتتوزعها كيانات فكرية وحركية لا تتوقف عن الإنقسام والتكاثر، كل كيان يسفه أحلام خصومه، بل يكفرهم ويرمي بهم بعيداً عن جماعة المسلمين.

الواقع أنني كنت ممن إكتوى بنار هذا الإختلاف وأصابه شرر من لهيبها المتطاير، أيام بل شهور وشهور من القلق الفكري والعقائدي كادت أن تعصف بكياني الإيماني والإلتزامي. لكن العناية الإلهية أدركتني في الوقت المناسب فانتشلتني من هذا التخبط الذي حُشرت فيه، وأمدتني بالقوة والعزم الكافيين لمواصلة مسيرة البحث والدراسة لمعرفة أسباب الخلاف وعوامله ومن يقف وراءه. فعقدت العزم لدراسة المذاهب الإسلامية المتعددة والتعرف على رجالاتها وكتبهم والبحث عن الدراسات المهمة التي تعالج قضية المذهبية وتاريخ المذاهب. ولما لم يكن ذلك متيسراً في وطني لقلة المراجع والمصادر الخاصة بالمذاهب الإسلامية المختلفة قررت السفر الى الشرق لتحقيق هذا الغرض.

لن أسترسل في ذكر تفاصيل أسفاري وقراءاتي وتخصصي في علم الإجتماع الديني، لكنني قد أكون إكتشفت حقائق كثيرة كانت غائبة عني وعن أبناء جيلي من أبناء الصحوة. منها أن العالم الإسلامي لا تتوزعه جغرافية سياسية فقط، وإنما هناك جغرافية مذهبية وأيديولجية كذلك. حدود خفية ودقيقة يتم الحفاظ عليها وحراستها أكثر من الحدود السياسية الجغرافية. فالجزائر مثلاً كان أُريد لها أن تصبح سلفية؟!. فكان ذلك وأُغرقت الأسواق بالمنتجات الفكرية السلفية التي غذت نهم أبناء الصحوة للمعرفة. ولبست

الحقيقة رداء السلفية في الجزائر، وحوربت الحقائق الأخرى بضراوة وشراسة.

إن البحث والدراسة العميقة لتاريخ الإسلام بشكل عام وتاريخ المذاهب الفقهية والأصولية بشكل خاص وعلاقة ذلك بالإجتماع والسياسة، يكشف عن حقائق مهمة وخطيرة تُنزل أصناماً ذهبية براقة من عليائها لترمي بها في مزابل التاريخ، لأنها العار الأبدي على جبين الإنسانية، ورمز للإنحراف والظلم اللذين شيدا صروح النفاق والكفر.

أما هذا الكتاب وفصوله الستة فيأتي كمساهمة في إيجاد إجابات لمئات التساؤلات التي تطرحها مسيرة الصحوة الإسلامية اليوم على المستوى العقائدي والمذهبي، ومحاولة لتسليط الضوء على أسباب وعلل الإختلاف الديني، ومن يقف وراء الفتن المذهبية والحروب الطائفية التي تمزق وحدة المسلمين في الوقت الراهن. كل ذلك من خلال متابعة تاريخية شاملة لنشوء المذهب الحنبلي في الفقه والعقائد، ورصد ليومياته في الدعوة والإنتشار وعلاقته بخصومه ومخالفيه من المذاهب الإسلامية الأخرى، مع عرض لبعض خصوصياته العقائدية والفقهية.

هذا المذهب الذي إنبعث فجأة من مقبرة التاريخ، نافضاً غبار السنين، مستفيداً من الظروف المؤاتية، ليكتسح الساحة الإسلامية. ليس كمذهب إجتهادي في الفقه والأصول، ولكن كحقيقة إسلامية مطلقة تقسم جماعة المسلمين الى «سلفي» مؤمن و «بدعي» كافر!!.

سيجد القارىء أن هذه المتابعة التاريخية الطويلة والضرورية هي جديد هذا الكتاب، وتجاوز للنقص الذي شكت منه الكتب والدراسات التي عالجت هذا الموضوع، من زاوية أن الفكر الوهابي أو السلفي يقف مباشرة وراء هذا التمزق العقائدي والفقهي العميق الذي تعيشه الساحة الإسلامية السنية خصوصاً. فالتركيز على معالجة قضايا التوحيد والشرك وحصرها في إطار مسائل التوسل والشفاعة وبناء القبور، والدخول في مناقشات عقيمة مع أتباع

المذهب الحنبلي المعاصرين «السلفية»، من خلال تجميع وحشد الأحاديث المخالفة والمناقضة لما يذهبون إليه، لم يؤدِ الى وضوح قضايا التوحيد الشائكة أمام أعين أبناء الصحوة الإسلامية، مما ساعد على إنتشار الفكر العقائدي السلفي الذي يرفع شعار التوحيد ويدعو للإبتعاد عن الشرك ومظاهره.

والسبب كما قلت يرجع الى إهمال وعدم إعتبار الخلفية التاريخية والمذهبية للآراء والأفكار. فلو علم أبناء الصحوة أن مجمل ما يصلهم اليوم وبشكل عام ويقرأونه ويؤمنون به على أنه رأي الصحابة وعمل السلف الصالح، ليس سوى إختيارات المذهب الحنبلي في العقائد والفقه، وإجتهادات رجالاته عبر التاريخ؟! في مقابل آراء وإجتهادات وإختيارات المذاهب الأخرى التي ظهرت للوجود قبل المذهب الحنبلي، بل قبل أن يولد مجتهدوه الكبار بقرون عدة. والكل يدعي إرتباطه بالسلف الصالح والصحابة ويسند أقواله وأفعاله لهم؟!!

ولو أتيح لغالبية أبناء الصحوة سبيل الإطلاع ومعرفة آراء وأفكار مذاهب أخرى لا يعرفون عنها شيئاً، فمما لا شك فيه أنهم سيراجعون عدداً لابأس به من أفكار قُدمت لهم على أنها عمل السلف الصالح ومعتقد صحابة رسول الله(ص)، وبالتالي الحقيقة الإسلامية.

لذلك وتأكيداً لهذه الحقيقة إرتأيت في الفصل الأخير وأنا أرد على إتهامات السلفية للشيعة الإمامية أن أترك المجال لمجموعة من أبناء أهل السنة والسلفية لترد على هرطقات دعاة السلفية، إنطلاقا من إطلاعهم الجديد على مذهب التشيع، وإقتناعهم بحقائقه التي كانت غائبة عنهم أو لنقل غُيبت عنهم، فاعتنقوا عقائد التشيع بعدما عرفوها وأصبحوا دعاتها والمدافعين عنها بكل حزم وقوة.

إن الخلفيات التاريخية والمذهبية والسياسية وكذا الإجتماعية هي التي تعطي للفكرة أو منظومة الأفكار الأبعاد الداخلية العميقة، والصورة الشكلية

الخارجية. فتظهر الحقيقة من خلال هذا العمق وهذه الصورة واضحة جلية ليس فيها لبس أو إشكال. وهذا هو الذي يساعد الإنسان على حسن الإختيار والتمييز بين الحق والباطل ليعيش ويموت على بينة. إن هذا الكتاب الذي جعل هدفه توضيح مجموعة من المغالطات وعلى رأسها الحقيقة السلفية التي ليست هي الحقيقة الإسلامية المطلقة كما يُدّعى وإنما مجرد «حقيقة؟!» مذهبية محكومة بنمط إجتهادي حنبلي متميز، وتسبح في فضاء سياسي وإجتماعي وجغرافي هو المسؤول عن إخراجها للوجود ونشرها في الآفاق البعيدة.

جهد كذلك ولو بشكل غير مباشر على إزاحة بعض الأقنعة عن وجوه ورجالات وكيانات مذهبية وسياسية مختلفة، حيث تتشابك المصالح المادية مع الأهواء الشيطانية وصراع الإرادات الشريرة، لتصنع تاريخاً مزيفاً وديناً محرفاً، وواقعاً تتخبط فيه الأنفس والأرواح من شدة الحيرة والقلق.



السيد محمد الكثيري

بيروت ١٩٩٦/٣/٦م

* * *

الباب الأول



السلفية:
الخلفيات التاريخية
والمذهبية



الفصل الأول

التعاريـــف :



- السلفية
- الحشوية
- أهل السنة والجماعة
- الشيعة الامامية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

السلف والسلفية في اللغة والإصطلاح

□ **تعريف السلفية :**

يقول ابن منظور في مادة سلف:

سلف: سَلف يسلف سلفا وسلوفا: تقدم، والسالف: المتقدم. والسلف والسليف والسلفة الجماعة المتقدمون وقوله عزوجل: فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين. وقال الفراء: يقول جعلناهم سلفا متقدمين ليتعظ بهم الآخرون. ويقول الجوهري: سَلَفَ يَسلفُ سَلَفاً مثال طلب يطلب طلبا، أي مضى. والقوم السلاف: المتقدمون. وسلف الرجل: آباءه المتقدمون، والجمع أسلاف وسلاف... والسلف أيضا: من تقدم من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل، وأحدهم سالف. وقيل، سلف الانسان من تقدمه بالموت من آبائه وذوي قرابته، ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح[1].

قال ابن فارس: «سلف: س ل ف، أصل يدل على تقدم وسبق فالسلف. الذين مضوا والقوم السلاف: المتقدمون»[2]. وفي أنساب السمعاني: السلفي: بفتح السين واللام وفي آخرها الفاء. هذه النسبة الى السلف، وانتحال مذهبهم» حتى «عرفت به جماعة»[3]. قال ابن الاثير في النهاية: سمي الصدر

(١) إبن منظور ، لسان العرب ، ج٦ ص٣٣٠ ــ ٣٣١ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط١ ١٩٨٨م.

(٢) إبن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، مادة سلف.

(٣) علي حسين الجابري ، الفكر السلفي عند الشيعة الإثنا عشرية ، ص١٥ ــ ١٦ .

الأول من التابعين، السلف الصالح»[٤]. والسلف شرعا: كل من يقلد ويقتفي أثره في الدين كأبي حنيفة وأصحابه فإنهم سلفنا، وأما الصحابة فإنهم سلفهم، وأبوحنيفة من أجلاء التابعين[٥]. والسلفية فرقة من الامامية. وهم الإخبارية[٦].

من خلال هذه التعاريف يظهر ان السلف لغة، تعني التقدم الزمني «فكل زمن من الأزمان سالف بالنسبة الى الأزمنة الآتية في أعقابه وخلف بالنسبة الى الأزمنة التي سبقته ومرت من قبله»[٧]. لكن الإختلاف ظهر في تحديد مفهومه الإصطلاحي وربط ذلك بفترة زمنية محددة أطلق عليها إسم «السلف». والمعنى الإصطلاحي المستقر لهذه الكلمة كما ذهب إليه البوطي: «هو القرون الثلاث الأولى من عمر هذه الأمة الإسلامية»[٨]. وذهب غيره الى «اتفاق رأي العلماء بأن السلف يراد بهم الصحابة رضي الله عنهم والتابعون عليهم رحمة الله، وتابعوا التابعين رحمهم الله»[٩]. وقيل ماقبل الخمسمائة[١٠].

أما المراد بمذهب السلف فيقول احمد بن حجر: ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم وماكان عليه أعيان التابعين لهم بإحسان وماكان عليه أتباعهم وأئمة الدين ممن شُهد له بالإمامة. وعرف عظيم شأنه في الدين وتلقى الناس لكلامهم خلفا عن سلف. كالائمة الأربعة والسفيانيين والليث بن سعد

(٤) إبن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ٢ / ١٩٠ ، المطبعة الخيرية القاهرة ١٣٢٣هـ .
(٥) التهانوي ، الكشاف ، مادة سلف.
(٦) الفكر السلفي ، مصدر سابق ، ص١٦.
(٧) محمد سعيد رمضان البوطي ، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب اسلامي ، دار الفكر ـــ دمشق ، ص٩ .
(٨) نفس المصدر.
(٩) د . عبد الحليم محمود ، السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص٩ ـــ ١٠ .
(١٠) الفكر السلفي ، مصدر سابق ، ص١٧ .

وابن المبارك النخعي، والبخاري ومسلم وسائر اصحاب السنن دون من رمي بيدعة أو شهر بلقب غير مرضي مثل الخوارج والروافض والمرجئة والجبرية، والجهمية، و المعتزلة وسائر الفرق الضالة[11].

وعليه فمفهوم السلف في أغلب التعاريف التي ذكرنا لايشير فقط الى مرحلة زمنية معينة اختلف في تحديدها. وانما إرتبطت هذه الفترة الزمنية بمفهوم آخر هو الذي أعطى للفظ «السلف» و «السلفية» مفهومه الإصطلاحي وهو «الخيرية». وهذا المفهوم انما استنبط من حديث رواه كل من البخاري ومسلم، فعن عبدالله بن مسعود قال رسول الله(ص): «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته».

□ السلف والخيرية :

انطلاقا من مضمون هذا الحديث – بصرف النظر عن صحته أو ضعفه – نرى ان الرسول(ص) جعل خير الناس وأفضلهم، معاصريه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، دون تحديد سبب لهذه الافضلية أو الخيرية، سوى ما هو متبادر من ظاهر الحديث، قرب هؤلاء الناس من الرسول وتواجده بين ظهرانيهم، فأفضلهم من عايشوا الرسول(ص) وهم الصحابة، ثم من عايش الصحابة وهم «التابعون»، ثم من عايش «التابعين». وقد سمي هؤلاء التابعين - كما مر معنا في التعاريف - بالسلف الصالح.

لكن الملاحظ ان هذه «الأفضلية» و«الخيرية» التي ذكرها الحديث مطلقة وتشمل كل من عاصر الرسول وأصحابه والتابعين، دون تحديد. فهل يشير الحديث ضمنا الى فئة أو شريحة متميزة من الناس لها مواصفات معينة وهي

(١١) السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب . نقلاً عن العقائد السلفية ، لأحمد بن حجر آل أبو طامي . ص١١ .

التي تستحق الأفضلية وتُنسب الى الخيرية؟.

أما الجمهور فيرون ان الخيرية ثابتة لأفراد هذه القرون الثلاث جميعا، على اختلاف درجاتهم وتفاوتهم في الصلاح والإستقامة. وذهب ابن عبد البر الى أنها ثابتة لمجموع المسلمين في تلك العصور الثلاث، أما الأفراد فقد لاتنطبق الخيرية على بعضهم، بل قد يأتي فيمن بعدهم من هو أفضل منهم[١٢].

وعليه فقد تبين من خلال هذه التعاريف أن عصر الرسول أو قرنه والقرنين اللذين تلياه، هي أفضل القرون في تاريخ الإسلام والمسلمين[١٣].

وان الخيرية قد استوعبت مجموعهم إما افرادا أو مجموعات. وهذه النتيجة هي التي اعتمدها الخلف الذين جاؤوا بعد هذه القرون الثلاث، حيث تم تقديس هذه المرحلة الزمنية واحترم أصحابها واعتبروا سلف هذه الأمة الصالح الذين يجب علينا اتباعهم واقتفاء أثرهم حذو النعل بالنعل.

على ان مفهوم «السلف» ـ والى حدود القرن الرابع الهجري ـ لم يكن له سمات واضحة، جلية ومحددة في العقائد والسلوك، من التزم بها نسب الى السلف. وانما إرتبط مفهوم السلف وازداد استخدامه والإشارة إليه عندما بدأت معالم الحياة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والدينية تتغير عما عُرف أو كان عليه مجتمع الرسول وصحابته.

لقد انطلق العرب المسلمون من الجزيرة العربية مبشرين بالإسلام وفاتحين الدول، حيث تم القضاء على امبراطوريتين عريقتين في الحضارة والتمدن، وقد انتقل إرثهما الكامل لهؤلاء الفاتحين اللذين لم يتطبعوا بمدنية من قبل وانما كان سكن أغلبهم الخيام، وأكلهم التمر ولحوم الابل. فماكاد القرن الأول يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى أصبح العرب الفاتحون، الزعماء الجدد لعدد كبير من المجتمعات والقوميات المختلفة الاعراف والاديان، فكان ان بدأ التغير ينساب

(١٢) السلفية للبوطي ، مرجع سابق ، ص١٠ .

(١٣) روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك «لايأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه».

بسرعة الى حياة ذلك العربي المؤمن، البسيط في لباسه وسكنه ومعيشته. فظهرت معالم التحول واضحة في المدن الجديدة التي اختارتها القيادات الإسلامية والعربية لتكون حواضر المدنية الجديدة.

لقد بدا هذا التحول الشامل وكأنه انسلاخ عما ألفه العرب المسلمون الاوائل من أساليب الحياة، والتي ربط البعض بينها وبين تعاليم الدين الجديد، فشكل اللباس وطريقة الاكل والمسكن التي كان عليها الرسول وأصحابه الأول، بدأت تنحصر وتتراجع لتنسخها طرق وأساليب حياة جديدة ومختلفة، مستوحات من طرائق الحياة لدى الأمم المفتوحة، والتي اعتنق أغلب سكانها الإسلام. وأصبحوا مع مناطقهم الجغرافية يشكلون المجتمع الإسلامي الكبير.

لقد انطلقت منذ ذاك الحين دعوات ونداءات من طرف بعض الناس، تنبه لهذا التحول وتحذر منه، وتدعو للرجوع الى ماكان عليه الرسول ومجتمع الصحابة الأول.

فأمام حركة الترف والتنعم بملذات الدنيا وخيراتها، من امتلاك للمزارع الكبيرة، وبناء الدور والقصور الفخمة، واقتناء الجواري والعبيد والخدم والحشم الخ.. ظهر تيار مناهض لهذه المظاهر ونندد بها، داعيا للتقشف والزهد في الحياة الدنيا. على ان ذلك من صميم الدين و سيرة السلف الصالح، وهناك محاورة بين الامام الصادق وسفيان الثوري وكلاهما ينتسب لعصر التابعين، تُظهر لنا عدم تقبل الكثير من الملتزمين بالدين الجديد ـ خصوصا من العرب ـ بعض العادات الجديدة في الملبس والمأكل والمسكن. فقد دخل سفيان الثوري على الامام الصادق عليه السلام وكان عليه جبة خز دكناء، قال سفيان: فجعلت انظر إليها متعجبا. فقال لي: ياثوري. مالك تنظر الينا، لعلك مما رأيت؟ قال فقلت: يابن رسول الله ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك. فقال لي: ياثوري، كان ذلك الزمان مقفراً مقتراً، ثم حسر عن ردن جبته واذا

تحتها جبة صوف بيضاء، وقال، ياثوري لبسنا هذا لله (وأشار الى جبة الصوف) وهذا لكم (وأشار الى الخز) فما كان له اخفيناه، وماكان لكم أبديناه[١٤]. وفي رواية اخرى قال أخبرك ان الرسول الله(ص) كان في زمان مقفر جشب، فإذا أقبلت الدنيا فأحق بها أبرارها لا فجارها، مؤمنوها لا منافقوها ومسلموها لا كفارها»[١٥].

من خلال هذه المحاورة التاريخية بين اثنين من اقطاب السلف وهما الامام الصادق وسفيان الثوري وهو من كبار الزهاد في عصره، يتبين لنا مدى التحول الذي بدأ يتجلى في الحياة الاجتماعية العامة لدى المسلمين. فلبس الخز من طرف الامام الصادق انما هو مسايرة لما عليه الأغلبية في لباسهم، ونحن نعلم ان من الصحابة من لم يكن يلبس الا المرقع من خشن اللباس، وذلك للفقر الذي عاشه المسلمون الأوائل قبل الانتصار الكبير للاسلام. لذلك استنكر سفيان هذا اللباس وقال للامام الصادق ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك.

لقد شهد عدد من المحدثين والفقهاء الإختلاف الذي سرى وتعمق في الحياة العامة للمسلمين والعرب منهم بالخصوص. وانهم ابتعدوا كثيرا عما كان عليه السلف (والمقصود به في ذلك الزمن الصحابة) وكانت جل الملاحظات والانتقادات لاتعدو كما ذكرنا: طرائق الحياة من ملبس و مسكن، وان كان هناك تغير وتحول ان لم نقل انحراف عقائدي تزعمه ملوك بني أمية، الذين حولوا الخلافة الى ملك عضوض. لكن مع مرور الزمن وماعرفه المجتمع الإسلامي من أحداث جسام، خصوصا على الصعيد السياسي ومانجم عنه من تقاتل وسفك للدماء. ونشوء الفرق السياسية بادىء الأمر، والكلامية بعد ذلك، وبداية التأسيس الحضاري في مجالات العلوم الدينية والعلمية، والذي اكتمل بنيانه مع

(١٤) أسد حيدر ، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ، م٢ ص٣٠٢ .

(١٥) بداية الفرق نهاية الملوك ، الشيخ محمد رضا الحكيمي ، ص٧٦ .

نهاية القرن الرابع.

كل ذلك وغيره جعل الدعوة الى اقتفاء أثر السلف الصالح من (الصحابة والتابعين) تأخذ بعداً آخر، أكثر عمقا وأبعد أثراً. لقد خطى المجتمع الإسلامي أشواطا بعيدة في المدنية، جعل الدعوة لتقليد السلف في ملبسهم وسلوكياتهم العامة، خطاً أو تياراً خاصا متميزا في الوسط الإسلامي بجانب التيارات الاخرى. لكن هذه الدعوة ستأخذ ابتداءً من القرن الرابع الهجري بُعدا فكريا ونظريا، بالإضافة للدعوة الى الالتزام بما كان عليه الصحابة من مظاهر خارجية تمس الحياة اليومية الاعتيادية من ملبس ومأكل، الى اقتناء وتقليد آرائهم ومذاهبهم الفكرية والاعتقادية.

لقد كانت هذه الحركة بداية تفجر الإختلاف الكبير حول مفهوم السلف وتحديد الفترة الزمنية التي يمكن ان يطلق عليها لغة وإصطلاحا «السلف»، ومن هم رجالات السلف الذين سنقتفي أثرهم ونعتنق آراءهم ومذاهبهم؟. وهل يعتبر العلماء والفقهاء ممن ظهر مؤخرا ولم يلتقي بالتابعين، «سلف» لنا يمكن الاقتداء بهم، وقد أصبح للكثير منهم مكانة علمية مرموقة، سواء في الفقه أو الحديث، وباقي العلوم الإسلامية. كما حازوا إحترام العامة فقلدوهم في كل مايذهبون إليه من أفكار وفتاوى فقهية؟. واذا كانت الخيرية قد اعتبرت في القرون الأولى خاصة، بنص الحديث النبوي. فما قولنا فيمن جاء بعد تلك القرون؟.

□ الاختلاف حول مفهوم السلف والخيرية وتحديد الفترة الزمنية :

إن تحول التقليد والاقتداء بالسلف وتطوره من مفهوم المتابعة السلوكية الى المتابعة في الاعتقادات النظرية والفكرية، قد فجر عدة مشاكل نظرية وعملية. خصوصا مع ظهور تيار خاص، إتخذ من هذه المتابعة أو التقليد مذهباً مميزاً عن باقي التيارات والفرق التي كانت تموج بها الساحة الفكرية الإسلامية.

ومن بين الأسئلة الأكثر حرجاً والتي لم تجد لها جوابا متكاملا ومقنعاً، واحتار زعماء هذا التيار في الماضي والحاضر في أن يجدوا لها حلاً شافياً أو جواباً علمياً. نذكر منها مايخص تحديد مفهوم مصطلح «سلف» ودلالاته العملية والواقعية.

ماالمقصود بالخيرية التي ذكرها الحديث، على فرض صحته؟ وهل هذه الخيرية قصد بها بيان المنزلة الخاصة للذين عايشوا الرسول من الصحابة، ومن عايشهم من التابعين، الذين أتوا بعدهم، لتوجيه الأنظار والتدليل على اتباعهم واقتفاء أثرهم في كل ماراموه من فعل أو قول؟. لقد كان في الصحابة والتابعين المنافقون والفسقة، ومنهم من إنحرف زمن الرسول، ومنهم من إنحرف بعده، واشتهر من بينهم الوضاعون والكذبة، وارتد البعض منهم عن الإسلام وأصبح كافراً معلناً العداوة للإسلام وأهله!؟.

وقد توزع الصحابة في الأمصار وأحدثوا كثيراً من القضايا التي إختلف حولها المسلمون. وحارب بعضهم بعضاً؟! وعليه فمفهوم السلف هنا إذا قصد به الصحابة أو التابعون لهم. لابد وأن يختص به جماعة أو أفراداً متميزين منهم، من إستقام على الإسلام ولم يبدل تبديلا حتى لقي ربه. ومعرفة هؤلاء ونعتهم بالأسماء مما اختلفت الامة قاطبة حوله، وافترقت الفرق من جراء الفصل فيه!؟.

لقد أختلف في تحديد الفترة الزمنية التي وجد فيها هؤلاء «السلف» الواجبي الإقتفاء والتقليد. فإن كان البعض قد حصرهم في التابعين وهؤلاء لم يكن أحد منهم حياً أواخر القرن الثالث، فقد ذهب البعض الآخر الى اعتبار السلف ماقبل القرن الخامس. ومنهم من أعطى مفهوم السلف بعداً نظرياً لاعلاقة له بالزمن أو فترة زمنية محددة، فكل من سلك طريقا معينا في الأصول أو الفروع وبرع فيه حتى أصبح رائداً واتبعه الناس وقلدته العوام فهو من السلف، وينتسب إليهم، وان كان هؤلاء قد وضعوا له محددات خاصة

لاعلاقة لها بالمفهوم الحقيقي للإقتداء السلفي. وإنما لها علاقة وارتباط بالصراعات السياسية والمذهبية، وأثر ذلك على نشوء الفرق والحركات.

وإذا كان السلف هم المسلمون الذين عاشوا في القرون الثلاثة الأولى، واننا ملزمون باقتفاء أثرهم واتباع سبلهم وطرائق حياتهم الفكرية والعملية، فإن ذلك لن ينجم عنه إلا الايمان بكل الفرق والمذاهب والحركات التي ذكرها الشهرستاني في ملله ونحله. والتي حاول جهده ان يوصلها الى ثلاثة وسبعين فرقة، ليخرج منها فرقة «أهل السنة والجماعة». باعتبارهم الفرقة الناجية، التي ذكرها الحديث[16]، والباقون في النار؟!.

وهذا المفهوم لن يستقيم لما يذهب اليه من اعتبروا ان السلف تيار أو فرقة مخصوصة من ضمن الفرق الإسلامية، وأنهم المقصودون بالفرقة الناجية؟!.

وعليه فإدعاء كون «السلفية» فرقة متميزة، يعني تحديد مفهوم السلف في أشخاص معينين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم الى يومنا هذا. لقد ظهرت جل الفرق والحركات والمذاهب التي عرفها المجتمع الإسلامي، خلال القرون الثلاثة الأولى. وكان فيما بينها من الإختلافات الأصولية والفروعية ماأباح تجريد السيف وسفك الدماء واباحتها، وكفرت كل فرقة من ناوءها أو خالفها الرأي والمعتقد.

لقد افترق المجتمع الإسلامي الأول مباشرة بعد وفاة الرسول(ص) الى فرقتين، فمن الصحابة من آمن بولاية علي بن ابي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة، لاعلى أساس القرابة وفضل الجهاد. وانما على أساس النص والتعيين النبوي[17]، بالاضافة الى ادعائه عليه السلام نفسه بكونه الولي الشرعي المنصوص عليه من طرف الله ورسوله.

---

(١٦) فقد روى عن الرسول (ص): «تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها في النار حاشا واحدة فهي في الجنة».

(١٧) انظر تعريف «الإمامية الاثنا عشرية» ضمن هذا الفصل .

وناصر جمع من المهاجرين والأنصار استخلاف ابي بكر وعمر وعثمان وانكروا النص على خلافة علي بن ابي طالب، وظهرت للوجود آنذاك فرقة الشيعة متميزة، وهم أتباع علي من الصحابة وغيرهم من التابعين وتابع التابعين. وبعد الحروب التي خاضها الإمام علي إبان خلافته. ظهرت فرقة الخوارج، وبعدها بقليل ظهرت فرقة المرجئة. وقد تحولت هذه الفرق السياسية الى فرق كلامية ودينية. تدافع عن معتقداتها السياسية والفكرية بنص الكتاب والسنة، وغيرهما مما اختلق من مصادر وأساليب الحجاج والجدال، فظهرت بذلك الفرق الدينية الكبرى التي أثرت في تاريخ الأمة الإسلامية جمعاء. منذ ذاك العهد والى يوم الناس هذا.

ظهر التيار الجبري الأموي، وفي مقابله وضده انطلق القدريون دعاة للحرية الإنسانية بشكل متطرف. والى جانب الفرق التي جادلت في بعض القضايا الخاصة بمشكلات عقائدية[١٨] لها جذور في النص القرآني والحديثي، أو كانت محل إثارة وجدال لدى الأديان والمذاهب السابقة على الإسلام، مثل التشبيه والتجسيم. وقامت فرق أخرى للرد على تلك الفرق، كالمعتزلة والاشاعرة وأهل الحديث بفرقهم من معتدلين وحشوية، كما ظهرت المذاهب الفقهية الأربعة وغيرها مما إندثر وعفى عنه الزمن.

إن هذه الفرق وغيرها كثير، والتي حاولنا ذكرها باجمال في هذه العجالة، قد سجل ظهورها في القرن الأول أو الثاني والثالث. بالإضافة الى احداث أليمة متمثلة في حروب دامية أكلت الأخضر واليابس، شارك فيها الصحابة والتابعون وتابعوا التابعين، أي قامت في عهد السلف، وتحت إمرة من يعتبرون من أعاظم السلف، وسفكت فيها دماء الكثير من السلف الصالح، فقد قتل الخليفة الثاني على يد مولى لأحد الصحابة، وقتل الصحابة وبعض التابعين عثمان بن عفان

---

(١٨) مثل مشكل الصفات الخبرية ، والمتشابه والمحكم في القرآن.

الخليفة الثالث، وقتل الإمام علي على يد الخوارج، وحارب معاوية وهو صحابي ـ كما يعتبره السلفية ـ الإمام الشرعي، واغتصب الخلافة من ابنه الحسن. وسفكت الدماء أنهاراً، وهتكت الاعراض، ونهبت الأموال بسبب ذلك. وقتل معاوية بن ابي سفيان الحسن بن علي، وعدداً من كبار الصحابة كحجر بن عدي. وقتل ابنه يزيد بن معاوية الحسين بن علي، وسبى أهله. وتوالى القتل والنهب والتشريد والظلم الفظيع بعدذلك على يد ملوك بني أمية وأمرائهم. فغزيت مدينة رسول الله واستباحها الجيش الأموي ثلاثة أيام، قُتل فيها عدد من الصحابة والتابعين، وولدت نساؤهم وبناتهم من الزنا. حيث هتكت اعراض الكثيرات منهن. كما هدمت الكعبة. وغير ذلك من الأحداث الجسام، التي سطرها التاريخ ونسبها لهذه الفترة التي يقول فيها الحديث المروى عن الرسول(ص) خير القرون قرني ثم الذي يليه، ثم الذي يليه؟!.

إن اعتبار السلف الواجب الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم هم من عايش هذه الفترة. لايستقيم إلا بالانتقاء الشديد والخاص، يغدو معه مفهوم «السلف» ضيقاً جداً ومنحصراً في عدة أسماء، لايقبل به من يدعو نفسه اليوم أو في الماضي بأنه من أتباع السلف، أو من حاول إعطاء «السلف» مفهوماً مرتبطاً بحقبة زمنية أعطيت ميزة الأفضلية والخيرية لمن عايشها أو وجد حياً أثناءها، لقد ماجت القرون الثلاث الأولى بفرق ومذاهب كفرت بعضها بعضاً واستحل كل فريق دم ومال وعرض الآخر، وادعت كل فرقة أنها على ماكان عليه الرسول(ص) وأصحابه[١٩]، وأن غيرها منحرف ضال.

لذلك نرى أن عدداً من التعاريف التي ذكرناها لتحديد مفهوم «السلفية» و «السلف» لاتستقيم بحال. نذكر منها على سبيل المثال ـ وإن كنا سنفصل في هذه المواضيع وغيرها في البحوث القادمة، إنشاء الله.

(١٩) اشارة للحديث الذي يقول فيه الرسول «ما أنا عليه وأصحابي» عندما سئل بعد قوله: عليكم بالجماعة فقيل من هم يارسول الله؟ قال : « . . . الحديث».

□ **تعاريف متناقضة :**

فقد جاء في تعريف الدكتور السلفي المعاصر علي عبدالحليم محمود حول مذهب السلف قوله: «ماكان عليه الصحابة رضوان الله عليهم» وقد قلنا سابقاً بأن الصحابة انقسموا في مسألة الخلافة الى علويين «شيعة» يؤمنون بالنص والتعيين النبوي المباشر لعلي بن أبي طالب، وآخرون انتصروا لأبي بكر وعمر وعثمان وآمنوا بشرعية خلافتهم، وغيرهم رام الحياد. وإن تطور هذا التيار فيما بعد ليصبح ماعرف بالعثمانية. وهذا الخلاف ليس بالهين لأن السيف قد جرد فيه. وتبادل الفريقين التكفير والتضليل، فمن تبع الفريقين إذن، يكون متبعاً للسلف غير منحرف عن نهجهم. أما أعيان التابعين فقد ذهبوا مذاهب شتى متنافرة ومتناحرة، وكتب تاريخ الفرق تدل بوضوح على ذلك. فليس صاحب نحلة أو مذهب في الدين أو السياسة، إلا ويرجع أصل مقولته لهؤلاء السلف من الصحابة والتابعين.

أنظر مايقوله إبن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام: «ماأقول في رجل تعزى اليه كل فضيلة، وتنتهي اليه كل فرقة، وتتجاذبه كل طائفة... فإن المعتزلة ـ الذين هم أهل التوحيد والعدل وأرباب النظر، ومنهم تعلم الناس هذا الفن ـ تلامذته وأصحابه... وأما الأشعرية فينتهون بأخرة الى استاذ المعتزلة ومعلمهم، وهو علي بن أبي طالب... وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر... ومن العلوم علم الفقه، وهو عليه السلام أصله وأساسه. وكل فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه، «وأبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل» هؤلاء الفقهاء الأربعة. واما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر... ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أُخذ... ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام اليه ينتهون، وعنده يقفون، وقد صرح بذلك الشبلي والجنيد وسري، وأبو يزيد البسطامي، وأبو محفوظ

معروف الكرخي وغيرهم. ويكفيك دلالة على ذلك، الخرقة التي هي شعارهم الى اليوم. وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام[٢٠].

أما قوله أي الدكتور السلفي «الأئمة الأربعة والسفيانيين والليث بن سعد وابن المبارك و النخعي والبخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن».. فالمحقق والمطلع المقتصد على آثار هؤلاء وسيرهم في كتب التاريخ يجد بينهم من الاختلاف أكثر من عدد اللغات في القارة الهندية اليوم، وكل يدعي وصلا بليلى؟!.

وقد كان يهون الاختلاف لو لم يكفر بعضهم بعضاً ويعتبر ذلك دينا له وأصلاً من أصوله. فالإمام أبو حنيفة في نظر الإمام أحمد بن حنبل مرجئي، والمرجئي ضال منحرف. وقد كفرته باقي الفرق، وهو يقول بخلق القرآن، وعليه فقد لزمه الكفر لأن كل من قال بخلق القرآن فهو جهمي وكل جهمي في نظر الحنابلة وإمامهم كافر. وهذه مسألة متعلقة بالعقائد وأصول الدين و ليست من الفروع حتى يقال لايضر الاختلاف فيها. وكان أبوحنيفة على بيعة محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ومن جملة شيعته، حتى رُفع الأمر الى المنصور فحبسه حبس الأبد حتى مات في السجن[٢١].

ومحمد بن عبدالله هذا كان أحد رجالات الشيعة الأوائل. ومناصرة ابي حنيفة له تعني خروجه على طاعة إمام زمانه، وإمام السلفية أحمد بن حنبل يؤمن بخلافة بني العباس ولايجوز الخروج عليهم ولا على غيرهم، وهو موقف أصحاب الحديث بشكل عام. وهذا العمل لاشك أنه أخرج أبو حنيفة من مفهوم السلف المتشبثين بالجماعة الخاضعين لطاعة السلاطين وان فجروا وظلموا.

---

(٢٠) إبن أبي الحديد المدائني، شرح نهج البلاغة ،ج١ ـ ١٧/٢ ـ ١٨ ـ ١٩، باختصار.

(٢١) الشهرستاني، الملل والنحل، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، ج١ ص١٥٨.

أما أصحاب الحديث وجامعي السنن فحدث ولاحرج، فمذاهبهم الأصولية والإعتقادية بعدد الأحاديث التي رووها ودونوها في كتبهم.

ففيهم المنزهة، وفيهم المشبهة المعتدلين، والمشبهة الغلاة، وفيهم المجسمة المعتدلين والغلاة، وفيهم الجبرية والقدرية، والمرجئة بكل فرقهم والخوارج والشيعة كذلك. وانتشر بينهم التكفير والطعن على بعضهم البعض، يقول ابن قتيبة وهو محدث يصف حالهم: «وكان آخر ماوقع من الإختلاف أمراً خص بأصحاب الحديث الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين وبالأتباع قاهرين يداجون بكل بلد ولايداجون ويستتر منهم بالنعل ولايستترون، ويصدعون بحقهم الناس ولايستغشون، لايرتفع بالعلم إلا من رفعوا ولايتضع فيه إلا من وضعوا ولاتسير الركبان الا بذكر من ذكروا الى أن كادهم الشيطان بمسألة لم يجعلها الله تعالى أصلاً في الدين ولافرعاً. في جهلها سعة وفي العلم بها فضيلة، فنمى شرها وعظم شأنها. حتى فرقت جماعتهم وشتتت كلمتهم ووهنت أمرهم وأشمتت حاسديهم، وكفت عدوهم مؤنتهم بألسنتهم وعلى أيديهم فهو دائب يضحك منهم ويستهزىء بهم حين رأى بعضهم يكفر بعضاً وبعضهم يلعن بعضا. ورآهم مختلفين وهم كالمتفقين ومتباينين وهم كالمجتمعين[٢٢].

قد يتأول بعضهم هذا الإسترسال في الإكفار بأنه من قبيل كفر دون كفر، لا الكفر الناقل من الملة، وفاته أن الوارد في الأثر من كفر دون كفر هو مايكون من قبيل كفران العشير ونكران الجميل وظاهر عدم تمشي ذلك في أمثال هذه المواضع، على أن بعضهم يصرح بأن مراده بالكفر الكفر الناقل. فهذا يقطع قول كل خطيب، وإن كان الكفر الناقل متفاوت الدركات[٢٣]. وهناك نص آخر أورده عبدالله ابن حنبل في كتابه «السنة» يلقي الضوء على عقائد أهل الحديث

---

(٢٢) الإختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص١٢ .

(٢٣) نفس المصدر ، الهامش ص١٢ .

وماأصابها من تهافت وتناقض وانتقائية. يقول: «حدثني يحيى بن أيوب أملاه سنة ٢٣٥هـ، حدثنا أبو حفص الأبار حدثني شيخ من قريش عن الشعبي قال: إرجىء الأمور الى الله ولاتكن مرجئاً. وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر ولاتكن حرورياً، وأعلم أن الخير والشر من الله ولاتكن قدرياً. قال يحيى بن أيوب وحدثني رجل كان الى جنب الأبار أن الشعبي قال: مع هذا واثبت صلاح بني هاشم ولاتكن شيعياً[٢٤].

هذا الخليط العجيب من الأفكار والمعتقدات المتناقضة والمتضاربة يسميه الدكتور السلفي «مذهب السلف». واذا كان كذلك فكل الفرق والمذاهب والملل والنحل اليوم، وفي الماضي سلفيون وأتباع للسلف. وإذن لاحاجة لفرقة تدعي اليوم لنفسها أنها هي الوحيدة التي تمثل نهج السلف، وأن غيرها قد استقى تعاليمه من اليهود والنصارى والمجوس ومن الغرب والشرق؟!

إن المفهوم الإصطلاحي للسلف أو «السلفية» كتيار ظهر قديماً تدعي تمثيله اليوم فرقة من المسلمين، مفهوم إنتقائي محدد جدا. وهذا الإطلاق الذي ذكره الدكتور السلفي انما هو للتمويه على العامة وأنصاف المتعلمين والمطلعين على التراث الإسلامي، ولايثبت أمام التحليل التاريخي. وهذا ماسنحاول تبيينه للقارىء فيما بعد.

واذا كان مذهب السلف ما كان عليه الإمام مالك فلماذا يُرفض المذهب المالكي وينهى السلفيون المعاصرون عن تقليده؟! ولماذا كفر أسلافهم من «الحنابلة» فيما مضى أتباع المذهب الشافعي، وسبوا صاحبه وطعنوا في إمامته؟ ووقفوا للشوافع في الطرقات وترصدوا لهم وقتلوهم. ولماذا نهى إمام الحنابلة كما يدعون عن تقليد الشافعي وأبو حنيفة ومالك؟! واذا لم يقلد هؤلاء الأئمة فيما اجتهدوا فيه ورأوه فماذا يبقى منهم ياترى؟. وكيف سنتخذهم

---

(٢٤) عبد الله بن أحمد بن حنبل، السنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٩٨٥م، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

قدوة وسلفاً لنا، ان لم نأخذ بأقوالهم وأفعالهم كما نأخذ اقوال وأفعال غيرهم عند الاقتداء والتقليد؟.

إن مفهوم «السلف» كما قلنا، مفهوم إنتقائي جداً وقد حاول الدكتور السلفي أن يشير الى ذلك في آخر التعريف الذي نقله عن سلفي آخر وهو أحمد بن حجر آل بو طامي. حيث استثنى من مذهب السلف «دون مارمي ببدعة أو شهر بلقب غير مرضي مثل الخوارج والروافض والمرجئة والجهمية والمعتزلة، وسائر الفرق الضالة»، وهذا التحديد بدوره عام ومبهم وغير مفصل. وعند التحليل سينقض عروة عروة. أولاً لأن القرون الثلاث الموسومة بالخيرية تشمل كل هذه الفرق التي ذكرها وأخرجها من مذهب السلف.

فإذا كان يقصد بالروافض من رفض خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، فعدد من الصحابة والتابعين ومن تبعهم رفض هذه الخلافة، منهم علي بن أبي طالب والحسن والحسين وسلمان الفارسي والمقداد وأبوذر الغفاري، وغيرهم كثير يتجاوز المائة صحابي، ومئات التابعين منهم: زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق أستاذ الأئمة وشيخ السلف بالإجماع. وهؤلاء وغيرهم من كبار التابعين والسلف باتفاق جل المؤرخين المسلمين.

أما المرجئة فقد عرف لفيف من الصحابة والتابعين بالإرجاء ويكفي ماذكرناه سابقاً من أن أبو حنيفة عرف بالإرجاء هو وتلامذته. وقد انتشر الإرجاء في العهد الأموي الأول، حتى قيل ليس هناك كور في الإسلام إلا وغلب عليه الإرجاء. أما الجبر فقد فشا في أهل الحديث. واعتبر العقيدة الرسمية للدولة الأموية. ولا نظن أن سلفياً قديماً أو معاصراً، يشك في سلفية معاوية ابن أبي سفيان والبيت الأموي الحاكم من بعده. وللسلفيين اعتقادات خاصة في معاوية وابنه يزيد وقد ألفوا الكتب في فضائلهما وتنزيههما وجاؤوا بالغرائب في ذلك، كما يقول ابن كثير المؤرخ.

أما قوله «الجهمية والمعتزلة» فالآراء التي أخرج بها الدكتور السلفي هاتين

الفرقتين من مذهب السلف، قد اعتنقها بعض الائمة الأربعة وكثير من الفقهاء وأصحاب الحديث، وقد كان أبوالوفاء إبن عقيل وهو أحد كبار المحدثين والفقهاء الحنابلة السلفيين يعظم المعتزلة ويترحم على الحلاج وقد درس علم الكلام سرا على يد بعض شيوخ الإعتزال، فاكتشفه الحنابلة فطلبوا أذاه فاختفى في دار السلطان. ولم يغفر الحنابلة له ذلك حتى كتب بخطه كتابا يقر على نفسه بالخطأ ويبرأ منه ويعطي إمام المسلمين الحق في التنكيل به إذا ظهر منه فيما بعد شيء مماثل لما كان عليه[٢٥].

ونعتقد ان هذا الالتزام الخطي الذي كتبه هذا المحدث السلفي الكبير على نفسه تحت الإكراه والخوف من بطش أصحابه الحنابلة لم يكن ليغير في معتقداته بهذه السهولة ولا أدل على ذلك من أنه هو الذي تكفل بتغسيل الفقيه الأشعري الشافعي أبو إسحاق الشيرازي لما توفي وصلى عليه بباب الفردوس[٢٦].

والحنابلة كما هو معلوم يكفرون الأشاعرة والشوافع، وعمل ابن عقيل هذا هو خلاف لما عليه أصحابه. وهذا دليل على أنه يختلف عنهم في المعتقد ولو حسب منهم. والأمثلة على ماذكرنا كثيرة، وايرادنا لهذا المثال هو فقط للتدليل على عدم صحة التعميم لأنه خلاف الحق.

وقد سئل الحسن البصري وهو تابعي ومن أقطاب السلف لدى «السلفيين» عن عمرو بن عبيد رأس المعتزلة فأجاب سائله قائلاً: «لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربّته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له،

---

(٢٥) مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي ، النهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد، عالم الكتب ، ط٢ ١٩٨٤م ، بيروت ، ص٣٧ .

(٢٦) أبو إسحاق الشيرازي الشافعي ، طبقات الفقهاء ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٧٠م، ص١٥ .

مارأيت ظاهرا أشبه بباطن منه، ولاباطناً أشبه بظاهر منه. ان عالماً جليلاً – كما يقول الدكتور الشكعة – مثل الحسن البصري لايمكنه ان يصف عمرو بن عبيد بهذه الاوصاف لو كان فيه قيد شعرة من إنحراف في مذهبه واعتقاده[٢٧].

بالإضافة الى أن عدداً من خلفاء بني العباس كانوا على مذهب الاعتزال ولم يقل أحد من أئمة الفقه أو الحديث بأنهم كفار. بل كانوا يصلون وراءهم ويحجون معهم ويغزون. وقد كان الإمام أحمد ابن حنبل عباسي الميل السياسي، ولعله الوحيد بين الائمة الاربعة الذي يرى هذا الرأي[٢٨]. فكيف بزعيم السلفية –كما سيدعي أصحابه فيما بعد– يوالي المنحرفين والكفرة إن كان المعتزلة فعلاً كذلك.

□ من هم السلفية :

بعد هذه المتابعة التاريخية لمفهوم السلف، وتحليل بعض التعاريف التي وضعها السلفيون وغيرهم، نستطيع أن نجيب على السؤال الثالث وهو: من هم حقيقة دعاة الانتساب لمذهب السلف أو «السلفية» في الماضي والحاضر؟ وهل لهؤلاء «السلفية» مذهب خاص في الأصول والفروع يميزهم عن باقي الفرق الإسلامية المعروفة.

المقصود بالسلفية هم أولئك الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري. وكانوا من الحنابلة، وزعموا أن جملة آرائهم تنتهي الى الإمام أحمد بن حنبل الذي أحيى عقيدة السلف، وحارب دونها، ثم تجدد ظهورهم في القرن

(٢٧) اسلام بلا مذاهب ، الدار المصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، ص٤٩٧ .

(٢٨) المرجع نفسه ، ص٤٣٤ ، «كان أحمد يقول: الأئمة من قريش ، ويعين على إمامة ولد العباس ويقول العباس أبو الخلفاء» وقد كان أبوه محمد والي سرخس، وكان من أبناء الدعوة العباسية . أنظر مختصر طبقات الحنابلة لإبن الشطي ، ص٨ .

السابع الهجري، أحياه شيخ الإسلام (ابن تيمية) وشدد في الدعوة إليه، وأضاف إليه أموراً أخرى قد بعثت الى التفكير فيها أحوال عصره، ثم ظهرت تلك الآراء في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر الهجري، أحياها «محمد بن عبدالوهاب» ـ في الجزيرة العربية ـ ومازال الوهابيون ينادون بها[٢٩].

يتبين من خلال هذا التعريف الذي وضعه أبو زهرة، بأن دعاة السلفية أو مذهب السلف هم شريحة من أتباع المذهب الحنبلي ونقول «شريحة»، وليس جميع أتباع هذا المذهب. لأن هذه الفئة التي سمت نفسها بـ «السلفية»، لها آراء وأفكار ومذهب خاص في «الأصول والعقائد». وأحمد بن حنبل يعتبر أحد الائمة الأربعة المقلدين في الفقه، وليس له في العقائد أو الأصول مذهب خاص به. لذلك كان أغلب مقلدي هؤلاء الأئمة الأربعة وأحمد بن حنبل من ضمنهم، ينتمون عقائدياً الى المذهب الكلامي الممثل بشقيه «الأشعري، والماتريدي» مذهب «أهل السنة والجماعة» في الأصول.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كان جل الحنابلة في الأصول، على عقيدة مذاهب أهل السنة والجماعة من أشاعرة وماتريدية؟.

الجواب بالنفي، فقد كان الحنابلة دون باقي المذاهب الفقهية الأخرى، موزعين على عقائد شتى ومذاهب أصولية مختلفة، فمنهم من كان أشعريا، ومنهم من كان صوفياً، يؤمن بعقائد وحدة الوجود وغيرها من عقائد الصوفية، ومنهم مفوضة يتبعون بعض السلف في مواقفهم وآرائهم العقائدية. ومنهم وهم الأغلبية كانوا – كما أجمعت عليه كتب علم الكلام والعقائد والتاريخ – «حشوية». حيث كثر فيهم وفي غالبية أصحاب الحديث الإعتقاد بالتشبيه والتجسيم والقول بالجبر وغيرها من الآراء والمعتقدات، التي تجند المعتزلة أولاً لمحاربتها، ثم تصدى لهم فيما بعد «أهل السنة والجماعة» من

(٢٩) محمد أبو زهرة، المذاهب الإسلامية، ص٣١١.

علماء الكلام، الأشاعرة والماتريدية وغيرهم ممن يذهب مذاهب التنزيه.

واذا رجعنا الى المذهب الأصولي والعقائدي لابن تيمية، محيي وباعث مذهب السلف في القرن السابع الهجري، كما ذكر الشيخ محمد أبو زهرة في تعريفه، نجد أن الرجل ـ أي ابن تيمية ـ قد اشتهر بالتشبيه والتجسيم وكان يذهب مذاهب الحشوية في العقائد. وقد قام بمجهود جبار في الدفاع عن هذه العقائد والانتصار لها.

جعلت الدكتور علي سامي النشار يصفه بـ«الفيلسوف المجسم النادر المثال»(٣٠). وإذا كان محمد بن عبدالوهاب تلميذ ابن تيمية وزعيم «السلفية» وباعثها المعاصر، فسيفهم من ذلك أن الدعوة السلفية المعاصرة والنابتة من آراء ابن تيمية خصوصاً والمذهب الحنبلي عموماً، ماهي إلا «الحشوية الحنبلية». التي عرفت في تاريخ الفرق الكلامية، كمذهب أو تيار له آراؤه الخاصة في العقائد والأصول. وعرفت غالبية أتباعه بالإنتساب الى مذهب أحمد بن حنبل الفقهي. لذلك قال الصفدي: «والغالب في الحنابلة الحشوية»(٣١).

ان القارئ والمطلع على مايكتبه رجالات السلفية المعاصرون من كتب، في الأصول والفروع، وما ينشرونه من كتب التراث التي تدعم مذهبهم، ومايدعون اليه صباح مساء، سيجد بأن الدعوة «الحشوية الحنبلية» قد قامت من رقادها الطويل تنفض عنها غبار الزمن، مستعيرة لقب «السلفية» للتضليل والتمويه على عامة الناس عموماً وأبناء الصحوة الإسلامية خصوصاً. وقد تنبه لذلك طائفة من علماء أهل السنة، فبادروا لاعلان ذلك. وتنبيه المسلمين كافة من خطر إنتشار عقائد وأفكار هذه الفئة المخربة والمشاغبة. والتي سطر لها التاريخ الإسلامي صفحات سوداء في الماضي، من إشاعة الفتن المذهبية وتحريف وتشويش العقائد الإسلامية. وماتبع ذلك من إنحصار وتقهقر

(٣٠) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج١ ص٣١٢.
(٣١) بهاء الدين العاملي، الكشكول، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ج٢ ص١٥١.

للحضار والمدنية الإسلامية بشكل عام. يقول ابن خليفة عليوي وهو عالم أزهري:

«لقد ظهرت في بلادنا الشامية طائفة تدعو الى «السلفية» ونهجها إعتناق العقيدة «الحشوية الحنبلية» وتبديع أهل السنة والجماعة[٣٢]. ويضيف: «ولنحذر جميعاً من وساوس الشياطين أن تزين لنا نزعات الضالين من اليهود والنصارى المجسمين الذين اتبعتهم في ذلك «الحشوية الحنبلية». فقد أصيب بهم المسلمون بأكبر بلية. تركوا العقل والنظر وأخذوا بظاهر الخبر. ولامستند لهم من شرع سيد البشر محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. فليت شعري كيف يدعون «السلفية» ويزعمون أنهم يدعون الى التوحيد الخالص والأعمال الصالحات، وهم مجسمون ومتمسكون بأذناب الضلالات!! فاخلق بهم أن يأخذوا بعقيدة أهل السنة والجماعة لرشدوا الى طريق الإسلام»[٣٣].

ويقول أيضا: «أما انتم أيها (الحشوية الحنبلية) في البلاد الشامية كفاكم شن الغارات على أهل السنة والجماعة بعاديات الأهواء، وكفاكم شموخاً بأنوفكم حتى السماء، مع أنكم لاتملكون حتى ولادليلاً واحداً يؤيد مدعاكم فيما تبدعوننا فيه. ونحن نملك كل دليل كان عليه السلف ونسير عليه»[٣٤].

إن هذه النصوص وغيرها تنقلنا الى أجواء القرن الرابع الهجري ومابعده حيث كان الصراع مستعرا وعلى أشده، بين أهل السنة «أشاعرة وماتريدية» وبين هذه الفرقة التي عرفت بـ«الحشوية الحنبلية» والتي تبرأ منها علماء الإسلام عامة، «وناقشهم في هذه النسبة (أي الانتساب للامام أحمد بن حنبل) بعض الفضلاء الحنابلة»[٣٥] كما يقول الشيخ أبو زهرة.

---

(٣٢) إبن خليفة عليوي، هذه عقيدة السلف والخلف في ذات الله تعالى، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق ١٩٧٩م، ص٧.

(٣٣) المرجع نفسه، ص٥.

(٣٤) المرجع نفسه، ص٦.

(٣٥) المذاهب الإسلامية، م س، ص٣١١.

لكن هذه النصوص قد كشفت لنا وبما لامجال للشك فيه على أن «السلفية الوهابية» اليوم، والتي تتخذ من أرض الجزيرة والحرمين الشريفين منطلقاً لها ولدعوتها، هي في حقيقة الأمر، بعث لعقائد فرقة «الحشوية الحنبلية» والتي عرفت تاريخياً بهذا الإسم. وسنحاول تسليط الضوء على تاريخ هذه الفرقة، نشوؤها وتطورها، وعلاقتها بـ«السلف» وبـ«مذهب الإمام أحمد بن حنبل» الفقهي والأصولي.

□ السلفية التنويرية :

ان مصطلح «السلفية» قد انتشر انتشاراً واسعاً مع بداية هذا القرن والى الآن، في كتب الذين تابعوا وأرخوا لظاهرة الإحياء الإسلامي العام، ونهضة الشعوب الإسلامية للتحرر من الإستعمار وتقاليد التخلف. وقد استعمل الكثير من المؤرخين والمفكرين خصوصاً العلمانيين و القوميين بشقيهم «الماركسي والليبرالي» هذا المصطلح في كتاباتهم، ينعتون به مفكري عصر النهضة، وزعماء الحركات الإسلامية الكبرى التي ظهرت في العالم الإسلامي. مثل محمد عبده المصري وأستاذه جمال الدين الأفغاني. ومن سار على نهجهما كأبو شعيب الدكالي والعربي العلوي والزعيم علال الفاسي، وهؤلاء من المغرب الأقصى. أما في الجزائر فعرف الشيخ ابن باديس كداعية سلفي، وفي تونس نشر تعاليم السلفية سالم بوحاجب وطاهر بن عاشور. أما حركة الإخوان المسلمين التي ظهرت بدءاً في مصر فيمكن القول بأنها قامت على أساس تبني المبادىء السلفية الكبرى وإعادة التفكير فيها قصد بلورتها وتجذيرها[٣٦].

والسلفية التي دعا لها هؤلاء المصلحون الكبار، ومن تبعهم بعد ذلك أمثال محمد إقبال في الهند، وعلي شريعتي في ايران والمودودي في باكستان، تعتبر

---

(٣٦) الموسوعة الفلسفية العربية ، المجلد الثاني ، مادة السلفية ، ص٧٣٧ .

سلفية تنويرية تدعو المجتمع الإسلامي للأخذ بقيم الرسالة الإسلامية في جميع مناحي الحياة الإجتماعية والمدنية، كشرط للنهوض العام والشامل، ومواجهة الإستعمار، ومعالجة التراث الفكري والديني الإسلامي معالجة علمية. والإستفادة من أحسن وأفضل ماأنتجه العقل الإسلامي في الماضي، والإنفتاح ومعرفة مقومات الحضارة الغربية المعاصرة. للاستفادة من إيجابياتها، خصوصا على مستوى العلوم الحديثة ومبتكرات التقنية. ومحاولة إعادة الحياة للعقل الإسلامي وتفعيله ليستعيد نشاطه وقدرته على الإبداع، الذي فقدهما في غمرة قرون من الركود والتخلف الحضاري العام.

ولاشك أن الدعوة لهذه القيم الفكرية والحضارية وغيرها، والتي عرفت بها السلفية التنويرية هي على النقيض تماما لما تدعو له سلفية هؤلاء «الحشوية الحنابلة» المتسمين بالوهابية.

فقضايا المجتمع الإسلامي الدينية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية ستختزل كلها في نظر هؤلاء الحشوية، وترتبط بقضية هدم قبور الأنبياء والأولياء ومسألة التوسل بهم. ومحاربة بدعة زيارة قبر الرسول(ص) والدعوة الى عقائد التجسيم والجبر، وإطاعة السلطان الظالم والجائر. كما سيتبين لنا خلال الفصول القادمة. لذلك قال محمد عبده زعيم السلفية التنويرية: «.... اللهم إلا فئة زعمت أنها نفضت غبار التقليد وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الأحاديث لتفهم أحكام الله منها، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صدرا من المقلدين، وإن انكرت كثيراً من البدع، ونحت عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس منه. فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من اللفظ الوارد والتقيد به، بدون إلتفات الى ماتقتضيه الأصول التي قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء ولا للمدنية أحباء»[٣٧].

(٣٧) محمد عبده ، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، دار الحداثة ، ط٣ ١٩٨٨م ص١٢٧ - ١٢٨.

يقول رشيد رضا في الهامش: «يعني بهذه الفئة أهل الحديث ومن يسمون الوهابية فقد كان يحمد منهم ترك البدع والإهتداء بالسنن وتقديم الأثر[٣٨] على آراء البشر، وينكر عليهم ضيق العطن دون ماأرشدت إليه النصوص من علوم الأكوان ومقدمات المدنية والعمران التي تعتني بها الأمة وتعلو كلمة الملة.

وبذلك وضع زعيم السلفية التنويرية الحد الفاصل بين مفهوم السلفيتين، حتى لايصار الى الخلط في مضمونهما ودعوتهما. على أن الكتاب المعاصرين عندما يصفون هؤلاء الأعلام مثل الأفغاني وعبده بالسلفية، لايقصدون مذهباً خاصاً وفرقة بعينها، وإنما يقصدون دعوتهم للرجوع إلى الأخذ بقيم الإسلام ونبذ القيم الفاسدة للحضارة الغربية. فهم بذلك يأخذون قيمهم عن الاجداد «أي السلف». أما السلفية الوهابية أو «الحشوية الحنبلية» فإنها تيار متميز في تاريخ الإسلام له أصوله وفروعه واجتهاداته الخاصة. وهذا ماسنعرفه في البحوث القادمة.

* * *

(٣٨) هذا اذا كان ذلك الأثر مما قاله رسول الإسلام (ص) حقاً ، وليس هرطقات البدو من الأعراب أو إعتقادات مردة أهل الكتاب من يهود ونصارى ، والتي حُشيت بها أحاديث الرسول.

الحشوية والمذهب الحشوي

□ **تعريـــف :**
الحشو لغة مايملأ به الوسادة أو الحشية أو الخضر وغيرذلك. و «الحشوية» بتسكين الشين وفتحها أو أهل الحشو: لقب تحقير أطلق على أولائك الفريق من أصحاب الحديث الذين اعتقدوا بصحة الأحاديث المسرفة في التجسيم من غير نقد. بل فضلوها على غيرها وأخذوها بظاهر لفظها. ومن هؤلاء أيضا السالمية. وقد إزدرى المعتزلة أصحاب الحديث جميعا وعدوهم من الحشوية. لأنهم قبلوا التفاسير المنطوية على التجسيم، وإن كانوا تحفظوا في التجسيم فقالوا «بلاكيف» ولم يفسد ذوقهم كما فسد ذوق الحشوية الخلص[39].

وقالوا إن الإيمان قول وعمل ومعرفة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وجوز قوم منهم على الأنبياء الكبائر كالزنى واللواط وغيرهما. الى غيره من الأقوال الواضحة البطلان[40].

أما ابن رشد الفيلسوف فيقول: «الحشوية فإنهم قالوا ان طريقة معرفة وجود الله تعالى هو السمع لا العقل: أعني أن الإيمان بوجوده الذي كلف الناس التصديق به يكفي فيه أن يتلقى من صاحب الشرع ويؤمن به إيمانا كما تتلقى منه أحوال المعاد، وغير ذلك مما لامدخل للعقل فيه، وهذه الفرقة الضالة، الظاهر من أمرها أنها مقصرة عن مقصود الشارع في الطريق التي نصبها للجميع مفضية الى معرفة وجود الله تعالى... وذلك يظهر من غير ما

(٣٩) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الحشو ، دار المعرفة ، بيروت ، ج٧ ص٤٣٩ .
(٤٠) معجم الفرق الإسلامية ، ص٤٩ .

آية من كتاب الله تعالى أنه دعى الناس الى التصديق بوجود الباري سبحانه بأدلة عقلية منصوص عليها»[٤١].

ويمكن أن نستخلص عناصر الموقف الحشوي كما يفهم من النص السابق وغيره على النحو التالي:

١ ـ الإعتماد على النص وحده طريقاً الى المعرفة الإعتقادية خاصة والدينية بصفة عامة، ورفض العقل وأدلته.

٢ ـ سوء الفهم للنصوص الدينية نفسها «أو الإعتماد على الأحاديث الضعيفة أو المدسوسة في السنة للإستدلال بها في العقائد» حيث أن هذه النصوص كما سبق بيانه وكما يشير إبن رشد في نصه الآنف الذكر، تعتمد العقل وتتضمن براهين عقلية لإثبات العقائد الدينية الواجب اعتناقها، ولاتكتفي بتقرير هذه العقائد عارية عن البرهنة والإستدلال.

٣ ـ النزوع الى الفهم الحرفي لتلك النصوص مما يؤدي الى التجسيم و التشبيه. أي تشبيه صفات المخلوقات والأشياء المادية الجسمية الى الله سبحانه[٤٢].

□ سلبيات عدم تدوين الحديث النبوي :

لقد ظهرت أولى سلبيات منع تدوين الحديث النبوي الذي نهى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عن جمعه وكتابته، في كثرة الرواية عن رسول الله(ص) في عصر التابعين. وانتشر الرواة في الآفاق يبحثون عن الصحابة ومن عاصرهم، للأخذ عنهم. وكان من بين هؤلاء «عدة من أحبار اليهود ورهبان النصارى ومرابذة المجوس، أظهروا الإسلام في عهد الراشدين، ثم

---

(٤١) إبن رشد ، الكشف عن مناهج الأدلة ، ص١٣٤، بتوسط المدخل الى دراسة علم الكلام

(٤٢) د . حسن محمود الشافعي ، المدخل الى دراسة علم الكلام ، مكتبة وهبة ، القاهرة ط٢ ١٩٩١م ، ص٧٦ .

أخذوا بعدهم في بث ماعندهم من الأساطير، بين من تروج عليهم، ممن لم يتهذب بالعلم من أعراب الرواة وبسطاء مواليهم. فتلقفوها منهم ورددها الآخرون بسلامة باطن، معتقدين مافي أخبارهم في جانب الله من التجسيم والتشبيه، ومستأنسين بما كانوا عليه من الإعتقاد في جاهليتهم، وقد يرفعونها افتراءً الى الرسول صلى الله عليه وسلم أو خطأ، فأخذ التشبيه يتسرب الى معتقدات الطوائف ويشيع شيوع الفاحشة[٤٣]. وهنا نشأ الحشو[٤٤]، وترعرع ونما، حيث تم إدخال الكثير من عقائد أهل الكتاب خاصة، الى الإسلام عن طريق الحديث النبوي، وتلقفها بسطاء الرواة وغيرهم على أنها عقائد الإسلام جاءت على لسان الرسول محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم.

واذا عرفنا أن هذه الحركة كانت ملازمة لظهور الفتن السياسية في المجتمع الإسلامي الناشيء، وانتصار الأمويين في نهاية المطاف، وتسلمهم لسدة الحكم. يتبين لنا مدى انتشار هذه الظاهرة وتغلغلها في تفكير المسلمين آنذاك.

وملوك بني أمية بدءاً من معاوية بن ابي سفيان والى آخرهم[٤٥]، لم يولوا أي اهتمام للدفاع عن عقائد المسلمين، أو محاولة الوقوف أمام خصومها من يهود ونصارى، فما كان يهم بني أمية هو الجانب السياسي، وتثبيت الملك العضوض بأي وسيلة، بل كان فسح المجال لأحبار اليهود والنصارى وغيرهم من دعاة الملل والنحل السالفة، إحدى الوسائل التي ركبها ملوك بني أمية لتوطيد ملكهم. فتزعموا القول بالجبر وشجعوا الأعراب من الرواة على التحديث بذلك، فاختلق هؤلاء من الأحاديث والروايات التي نسبوها للرسول(ص) الشيء الكثير. سيكون فيما بعد معتمد الحشوية من أهل

---

(٤٣) إبن عساكر ، تبيين كذب المفتري ، مقدمة الشيخ محمد زاهد الكوثري ، ص١٠ .
(٤٤) نشأة الفكر الفلسفي ، مرجع سابق ، ص٢٨٦ .
(٤٥) إلا ما كان من فعل عمر بن عبد العزيز الذي أمر بتدوين السنة وأوقف لعن الإمام علي على المنابر وارجع فدك «نحلة فاطمة» الى بنيها.

الحديث والحنابلة، وللدعوة الى هذه النحلة وترسيخها كعقيدة إسلامية جعلت الحبر النصراني يوحنا الدمشقي الذي عاش في قصور الامويين وخدمهم، يقول بأن الإسلام ليس الا العقيدة الجبرية.

أما التشبيه والتجسيم فقد أطلق ملوك بني أمية العنان ـ ومن قبلهم الخليفتان عمر وعثمان ـ لهؤلاء المتأسلمة من أهل الكتاب. فنقلوا ونشروا مافي التوارة والإنجيل من عقائد الى المسلمين، سواء كأحاديث مستقلة منسوبة للرسول(ص)، أو كشروح لآيات الذكر الحكيم. وقد كان كعب الأحبار[٤٦]، وهو من يهود اليمن يقرأ التوراة في مسجد رسول الله على عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ولم يتعرض لأي نهي! في الوقت الذي كان الخليفة نفسه ينهى الصحابة عن الرواية عن رسول الله(ص)، ويتوعدهم العقاب إنهم حدثوا أو أكثروا الرواية عنه(ص).

وتبعه وهب بن منبه وكان عالما بالتوراة فجلس يحدث في المدينة وغيرها من حواضر الإسلام بما يجده في كتب الأولين، فنقل عنه المسلمون الكثير من الأحاديث والروايات في تفسير قصص الأنبياء وتواريخهم من لدن آدم عليه السلام والى خاتم الرسل(ص). ودخلت مع تلك التفاسير والشروح عقائد أهل الكتاب المحرفة وكثر تداولها وتناقلها بين الرواة. حتى تكلموا في مجلس الحسن البصري بالسقط عنده وضاق صدر الرجل بهم، فصاح: ردوا هؤلاء الى حشا الحلقة – أي جانبها –.

ويرى الشيخ الكوثري أنهم سموا لأجل هذا «الحشوية». وأن الى هؤلاء ينسب أصناف المشبهة والمجسمة[٤٧]. ويرى البعض الآخر أن هذه التسمية

---

(٤٦) يقول إبن كثير: «أسلم كعب في الدولة العمرية وجعل يحدث عمر عن كتبه قديماً ، فربما استمع له عمر ، فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها . وليس لهذه الأمة ــ والله اعلم ــ حاجة الى حرف واحد مما عنده» انظر تفسير إبن كثير، ج٤ ص١٧.

(٤٧) نشأة الفكر الفلسفين ، مرجع سابق ، ص٢٨٧ .

مرتبطة «بما يذهب اليه رأي هؤلاء القوم، من القول بأن الله تعالى ذو مكان أي أنه سيصبح في حشو العالم أي داخله»[٤٨].

إن حشو الأحاديث والروايات التي لا أصل لها في أحاديث الرسول(ص). كان أغلبه من الإسرائيليات، خصوصا لما توجه المسلمون لتفسير الآيات المتشابهة. وقد إعتمد على هذه الأحاديث بالذات واعتقد بصحتها وقدمها على غيرها مجموعة من رجالات الحديث الأوائل مثل: مضر بن محمد بن خالد بن الوليد وأبو محمد الضبي الأسدي الكوفي، وكهمس بن الحسن ابوعبدالله البصري (توفي عام ١٤٩هـ) وأحمد بن عطاء الهجمي البصري ورقبة بن مصقلة. وقد مثل هؤلاء الحشو الهائل في أحاديثهم الضعيفة، فأجازوا على الله الملامسة والمصافحة والمزاورة، وأن المخلصين من المسلمين يعاينونه في الدنيا والآخرة إذا بلغوا من الرياضة والإجتهاد الى حد الإخلاص»[٤٩].

لقد فسر هؤلاء المحدثون الأوائل وغيرهم آيات «الوجه والرؤية واليد والمجيء والجنب» تفسيرا ظاهريا ماديا. ودعموا ذلك بما رووه من إسرائليات وعقائد أهل الكتاب. فسقطوا في التجسيم والتشبيه. وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم المعتزلة لقب الحشوية من أهل الحديث وقاموا بالرد عليهم.

أما بقية عقائد هذه الطائفة الأولى من الحشوية: فهو قولهم بقدم القرآن، حروفه أصواته ورقومه المكتوبة، وإنها كلها قديمة أزلية. ويستدلون على هذا، بأنه لايعقل كلام ليس بحرف ولا كلمة ولا كتابة له. ومادام الكلام قديما أزليا فلابد أن حروفه وكلماته وكتابته أزلية. وقد إستندوا فيما يرى الشهرستاني على مارأوه من اجماع المسلمين على قدم القرآن[٥٠].

---

(٤٨) المدخل لدراسة علم الكلام ، ص٧٨ .

(٤٩) نشأة الفكر الفلسفي ، ص٢٨٨ .

(٥٠) نفسه ، ص٢٨٨ .

والقول باجماع المسلمين على قدم القرآن لايصح. لأن هذه المسألة مما اختلفت طوائف الأمة الإسلامية حولها. فذهب المعتزلة الى القول بخلق القرآن كما هو معروف لديهم، وللشيعة الإمامية قول بالخلق. وأما أهل السنة من أشاعرة وماتريدية، فلهم تفصيل في ذلك يبعدهم كثيراً عن قول الحشوية الحنبلية أو «السلفية» النابتة منها، وأهل الحديث بشكل عام. لذلك فإطلاق القول باجماع المسلمين على قدم القرآن فيه نظر. على أن مسألة قدم القرآن قد تكون تسربت للمسلمين من اليهود لأنهم يقولون بقدم التوراة أو من النصارى حينما قالوا بقدم الكلمة التي هي المسيح(٥١). ولنا عودة لتفصيل القول في عقائد «الحشوية السلفية» في الفصول القادمة انشاء الله.

□ الحشو يؤسس للتشبيه والتجسيم :

لقد ظلت عقائد التجسيم والتشبيه متناثرة هنا وهناك، في أقوال المحدثين ورواياتهم، حتى ظهر مقاتل بن سليمان (المتوفي سنة ١٥٠هـ) وهو أحد كبار المفسرين، الذي ملأ تفسيره حشواً من الإسرائيليات. لذلك، فقد أجمعت المصادر كما يقول الدكتور علي سامي النشار على كونه مشبها ومجسما، و«أنه أخذ من علم اليهود والنصارى مايوافقه لتدعيم تفسيره المشبهي والمجسمي... يقول ابن حيان: «كان يأخذ من اليهود والنصارى ومن علم القرآن الذي يوافقه وكان يكذب في الحديث. فتأثر الرجل باليهود والمزدكية ظاهر»(٥٢).

وجاء بعده مجاهد بن جبر المحدث، ونشر حديث «المقام المحمود»(٥٣)

---

(٥١) الشيخ جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج١ ص١٠٠ .

(٥٢) نشأة الفكر الفلسفي، ص٢٨٩ .

(٥٣) عن مجاهد: «عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً»، قال: يجلسه أو يقعده على العرش. يقول الذهبي لهذا القول طرق خمسة . وأخرجه إبن جرير في تفسيره ، وعمل فيه المروزي مصنفاً . أنظر العلو للعلي الغفار ، ص٩٤ .

الذي قام سلف «الحشوية الحنبلية» بمعارك طاحنة لأجل إثباته، في كل من بغداد و دمشق والقاهرة. حيث أبوا إلا أن يجلسوا النبي(ص) مع ربه على العرش سبحانه وتعالى عما يصفون.

ومقاتل بن سليمان هذا وغيره من أصحاب الحديث، غلوا كثيراً في التجسيم والتشبيه، فالله سبحانه وتعالى عما يصفون «جسم على صورة لحم ودم له شعر وعظم وجوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان وعينين ووجه وأضراس ولهوات. وقال بعضهم ماسمعنا بذكر الرأس!! وقال آخر لاتسألوني عن الفرج واللحية. وغير ذلك من الهرطقات التي سيحاول إبن تيمية - إمام السلفية المعاصرة - الدفاع عن بعضها، في محاولة لعقلنة هذا الحشو العقائدي الفظيع.

لقد أصبح التجسيم والتشبيه بعد هذا المحدث والمفسر الكبير مدرسة متكاملة إعتنق أفكارها بعض ممن جاء بعده من المحدثين والفقهاء، أمثال أبي عاصم حشيش بن صرم (المتوفي سنة ٢٥٤هـ)، صاحب كتاب «الإستقامة» الذي دعم فيه القول بالتجسيم والتشبيه مستنداً للكم الهائل من الإسرائيليات، سواء ماوجد في تفسير مقاتل بن سليمان أو مايتداوله الرواة من أحاديث في هذا المجال، وعلى رأسها حديث المقام المحمود الذي انكره المعتزلة وأهل السنة والجماعة من أشاعرة وماتريدية وقالوا إن المقصود به الشفاعة.

أما الملطي صاحب كتاب «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» فإنه لم ينحرف قيد أنملة عمن سبقه في التجسيم والتشبيه.

لقد إندمج العوام مع هذه العقائد إندماجا كليا، لأن التجسيم والتشبيه أقرب لأفهامهم ومخيلاتهم من التنزيه. فالتفوا حول دعاة هذه العقائد وآزروهم وعظموا شأنهم، كما سيعتبرهم السلفيون سلفهم الخاص فيمابعد. وإلى هؤلاء «الحشوية الأوائل» سيرجع الفضل في قيام تيار وحركة حشوية تجسيمية وتشبيهية كبرى في القرن الرابع مع أحد كبار المحدثين الحنابلة وهو

بحر محمد بن الحسن إبن كوثر بن علي البربهاري - وهو شيخ الحنابلة ببغداد - والذي قدم عليه أبو الحسن الأشعري فكلمه حول إنتقاله من الإعتزال ورده على المعتزلة والفرق المنحرفة، فقال له البربهاري لاأفهم مما قلت شيئا. يقول المقدسي: أما البربهارية فإنهم يجهرون بالتشبيه والمكان ويرون الحكم بالخاطر ويكفرون من خالفهم ويتمسكون بحديث المقام المحمود(٥٤).

لقد تطورت فكرة التشبيه والتجسيم لدى أصحاب الحديث كما يرى الدكتور النشار. لتصل الى الكشف عن إحدى الأفكار الهدامة التي راجت في الساحة الفكرية والدينية الإسلامية. وهي فكرة الحلول والإتحاد حيث جوزوا ظهور الله سبحانه وتعالى في صور الأشخاص. وخصوصا الصور الحسنة منها، كما ذهب الى ذلك سلمان الدمشقي. ولما جاء الحلاج المقتول بسيف الشرع(٥٥) (سنة ٣٠٩هـ) وتكلم في الحلول، إختلف الفقهاء والصوفية فيه «ولكن أجمع المتكلمون جميعا على تكفيره. اللهم إلا طائفة كبرى حشوية ومشبهة من الحنابلة، ثم فريق من السالمية فقد قبلوه.

يقول البغدادي «وقبله قوم من متكلمي السالمية بالبصرة ونسبوه الى حقائق معاني الصوفية ولعل هذا يفسر تعصب السالمية له من ناحية والحنابلة من ناحية أخرى في بغداد وقيامهم بالشغب(٥٦). ومع ظهور فرقة السالمية ـ نسبة الى أبي عبدالله محمد بن سالم البصري المتوفي (سنة ٢٩٧هـ) ـ عرفت هذه الفكرة ـ أي الإتحاد والحلول ـ انتشاراً واسعا، ولاشك أنها وليدة التجسيم والتشبيه كما أسلفنا.

والى جانب «السالمية» ظهرت فرقة أخرى تسمى «الكرامية» نسبة لمؤسسها

(٥٤) المقدسي، البدء والتاريخ ، ج٥ ص١٥٠، بتوسط نشأة الفكر الفلسفي للنشار.

(٥٥) ذهب بعض المحققين قديماً وحديثاً الى أن الحلاج قتل لأسباب سياسية متعلقة بمناصرته أو مشاركته في ثورة القرامطة .

(٥٦) نشأة الفكر الفلسفي ، م س ، ص٢٩٣ .

محمد بن كرام (المتوفي سنة ٢٥٥هـ) حيث أينعت فكرة التجسيم من جديد، و عرفت إزدهارا لامثيل له. وقد بشر محمد بن كرام بجانب مذهبه في التجسيم، بروح الزهد والتنسك فكانت مدرسته مدرسة زهد بلاشك... وان كانت قد ملأت الدنيا ضجيجاً إذ قدمت الى العالم الإسلامي مذهبا فلسفيا، لايتفق في أصوله وجزئياته مع عقيدة أهل السنة والجماعة (الأشاعرة والماتريدية)، بل لايتفق مع عقائد فرق المسلمين الأخرى من شيعة ومعتزلة... ولكن المذهب عاش في عهد مؤسسه في قلوب الألوف من البشر. وتناولته القرون من بعده، إما قبولا أو إنكاراً، ثم إنه مازال يعيش حتى الآن في دوائر سلف المتأخرين ـ الحنابلة ـ وهم يعدون بالملايين في عالمنا المعاصر الآن[٥٧].

لقد كانت الكرامية مجسمة غالى صاحبها في إثبات العرشية والفوقية. وأكد على أن الله جسم، لكن ليس كالأجسام. وإنه مستقر على العرش ومماس له، كما قال الكرامية بقيام الحوادث بذات الله. وجاءت بآراء ومعتقدات خالفت فيها الفرق الإسلامية جميعا وعلى رأسهم أهل السنة والجماعة.

إلا أن لهم رأيا متميزا يخص النبوة والنبي والرسول والمرسل. وقد قام الدكتور النشار بتخريج لطيف له. يربط بينه وبين عقيدة السلفية المعاصرة في موقفها من الرسول(ص) وقبره وشد الرحال إليه.

لقد ذهبت الكرامية الى أن النبوة والرسالة عرضان حالان في النبي و الرسول، منفصلتان تمام الإنفصال عن الوحي إليه، وعن ظهور المعجزات على يديه، وعن عصمته عن الخطأ والمعصية، فمن فعل الله فيه تلك الصفة وجب على الله تعالى إرساله... وتضع الكرامية تمييزا بين الرسول و المرسل، فالرسول من حصل فيه «ذلك المعنى» وأنه يجب على الله أن يرسله إلى الناس رسولا

---

(٥٧) نفسه ، ص٢٩٧ .

بهذا المعنى، فإذا أرسل يكون مرسلا ولم يكن قبله من المرسلين بل رسولا فقط، ولهذا يقولون «إن النبي صلى الله عليه وسلم في قبره رسول وليس بمرسل... وقد عارض أهل السنة والجماعة هذا التمييز الدقيق بين الرسول والمرسل، وقرروا أن الرسول صلى الله عليه وسلم في القبر رسول ومرسل... ولكن ماهو السر الحقيقي في هذا التمييز عند الكرامية؟.

أما التفسير الذي أراه أقرب للحقيقة - يقول النشار - فهو أن الكرامية كانت ترمي الى غرض بعيد، وهو عدم إسباغ القداسة على الرسول في قبره، وعدم شد الرحال إليه، مخالفة في هذا رأي أهل السنة والجماعة، فقررت الكرامية أن النبوة والرسالة كانتا عرضين أو معنيين ألقاهما الله فيه أزلا، ثم أدى رسالته بمفهوم المرسل عند الكرامية، ثم إنتهى عمله هو... إنتهى الرسول والمرسل والرسالة باقية، فلا إسباغ للقداسة عليه. ويتضح هذا من موقف خلف الكرامية من حقيقة الرسول ووقوفهم أمام قبره. فهم إن تصادف وقوفهم أمامه يسلمون عليه ويقولون: «لقد أديت الرسالة»، ومن عدم إعتبار زيارة الرسول فرضا أو نفلا...

إن الغرض فقط هو حج الكعبة المقدسة، والنفل هل العمرة، ان الكلام كما نعلم أوثق اتصال بالفقه. وقد أثرت الكرامية في سلف المتأخرين، ونادى إبن تيمية بما نادى به الكرامية. واحتضن الحنابلة المتأخرون هذه الآراء، وظهرت على أقوى صورة لدى الوهابيين بعد وأصبحت جزءاً من عقائدهم[٥٨].

لقد عاشت الكرامية بعد موت مؤسسها، ثم تلقى المذهب عالم من أكبر علماء السلف وصوفي من أرق الصوفية، هو «الهروي الأنصاري» ثم إحتضنها سلفي متأخر ومفكر من أكبر مفكري الإسلام وهو «تقي الدين بن

---

(٥٨) نفسه، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ - ٣١٠ .

تيمية»، أو بمعنى أدق سار الحشو في طريقه يدعم فكرة التشبيه والتجسيم ويجتذب إليه مجموعة من أذكى رجالات الفكر الإسلامي(٥٩). وان كان ابن تيمية سيتجه بهذا الحشو اتجاها نحو عقلنته بجمع متناقضاته وآرائه المختلفة المشارب والإتجاهات وصبها في قالب، قال عنه أنه مذهب أهل الحق من السلف والخلف. وتبعه في ذلك تلميذه إبن قيم الجوزية، وحمل راية الدعوة إلى ذلك بالسيف محمد بن عبدالوهاب النجدي الحنبلي وأتباعه. حيث السعي الجاد اليوم لنشر هذه المعتقدات والآراء في العالم الإسلامي ومحاربة غيرها.

لقد كانت البذرة الأولى للتشبيه إما وافدة على البيئة الإسلامية ضمن مؤامرة على عقيدة التوحيد الخالص. أو وليدة هذه البيئة نفسها، نتيجة سوء الفهم لبعض النصوص الإسلامية. لذلك فالحشو والتشبيه وماينتهيان إليه من تجسيم، قد نبتا في صفوف المسلمين وصار لهما ممثلون بين الفرق المختلفة، فهناك حشوية بين أهل السنة وبين غلاة الشيعة، يظهرون في عصور مختلفة. وهناك «حشوية مشبهة» تنتمي إلى الحنابلة وإن تبرأ منها محققوا الحنابلة أنفسهم(٦٠). وهؤلاء هم الذين يطلقون على أنفسهم اليوم إسم «السلفية»، وهم في الحقيقة «حشوية الحنابلة». ونسبتهم للحنابلة لأنهم يدعون أنهم على ماكان عليه الإمام أحمد بن حنبل في الأصول والفروع. وسنناقشهم في الفصول القادمة حول هذه النسبة لنعرف حقيقة ومدى إرتباطهم بفكر ومنهج هذا المحدث الكبير.

يُلاحظ القارىء أننا إنتهينا إلى حقيقة مفادها، أن فرقة «السلفية المعاصرة» اليوم هي تيار حشوي له جذور عميقة في التاريخ الفكري للحشو وعقائده.

---

(٥٩) نفسه ، ص ٣١١ .

(٦٠) المدخل الى علم الكلام ، ص ٧٧ ، مثل إبن الجوزي الذي ذم أصحابه الحنابلة لإعتقادهم الحشو والتشبيه والتجسيم ، انظر الفصول القادمة.

وأنه مذهب إنتقائي تكاد ترجع أغلب آرائه في العقائد إلى الإسرائيليات، التي حشا بها الرواة من الأعراب ومتأسلمة اليهود والنصارى أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ولنا عودة لنقاش هذه العقائد بالتفصيل في محله إنشاء الله.

على أن مصطلح «الحشوية الحنبلية» ليس من مبتكرات خصوم «السلفية» اليوم، وإنما ورد في كثير من كتب التاريخ وكان يقصد به سلف «السلفية الوهابية المعاصرة». فقد ذكر إبن عساكر في كتابه «تبيين كذب المفتري عن الإمام أبي الحسن الأشعري» قوله: «وفي منتصف القرن الخامس استفحل أمر هؤلاء الحشوية ببغداد حتى (أخطر) أمثال أبي إسحاق الشيرازي وأبي بكر الشاشي وغيرهما من أئمة الشافعية أن يكتبوا محضراً عليه خطوطهم ورفعوه إلى نظام الملك، ومن جملة مافيه. «إن جماعة الحشوية والأوباش الرعاع المتسمين بالحنبلية أظهروا ببغداد من البدع الفظيعة والمخازي الشنيعة مالم يتسمع به ملحد فضلا عن موحد»[٦١]. والبدع الفظيعة التي ذكرها النص ليست سوى قولهم واعتقادهم مذاهب التشبيه والتجسيم، مما أخذ عن أهل الكتاب من يهود ونصارى وغيرهم.



(٦١) هذه عقيدة السلف، ص٨٩، أنظر دفع شبه التشبيه والرد على المجسمة ممن ينتحل مذهب الإمام أحمد، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، المتوفي سنة ٥٩٧هـ.

أهل السنة والجماعة

□ تعـــريف :

السنة في اللغة: «الطريقة المسلوكة وأصلها من قولهم سننت الشيء بالمسن إذا أمررته عليه حتى يؤثر فيه سنا أي طريقا». وقيل هي الطريقة المعتادة سواء كانت حسنة أو سيئة، كما في الحديث الصحيح: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». وتطلق في عرف الفقهاء على ما يقابل البدعة، ويراد بها كل حكم يستند إلى أصول الشريعة. في مقابل البدعة فإنها تطلق على «ماخالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة».

أما عند الأصوليين فهم متفقون على صدقها على «ماصدر عن النبي(ص) من قول أو فعل أو تقرير»[٦٢].

من خلال هذه التعاريف يتبين أن لـ«السنة» في الإصطلاح مفهومين أو معنيين: الأول مايقابل البدعة أو ما ليس له أساس في الشرع. الثاني: قول الرسول وفعله وتقريره. أما قولنا «أهل السنة» فيه إضافة «لأهل» أي أصحاب أو أتباع أو المقتدون بسنة الرسول(ص) من فعل وقول وتقرير. وسمي رواة الحديث وطالبيه بعلماء السنة أو السنن، أو جامعي السنة. ومن خالف السنة سقط في البدعة أو الإبتداع في دين الله ماليس منه.

(٦٢) العلامة محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص١٢١ ــ ١٢٢ .

□ تطـور مفهوم أهل السنة :

لكن مصطلح «أهل السنة» سيعرف تطوراً في المفهوم، حيث ستتعدد مصاديقه. فأهل السنة أو أصحاب الحديث والأثر سيقابلهم أهل الرأي. وعندما ظهرت المدارس اللغوية والفقهية والكلامية فيما بعد انقسمت إلى اتجاهين اثنين، (الرأي والقياس، وأصحاب الحديث والأثر). تيار يعتبر الرأي والقياس ويعتمده فيما يصل إليه من نتائج، وتيار يقدم الحديث أو النص ولايتركه إلى غيره. وظهر عند كلا التيارين إفراط وتفريط. لقد أطلق مصطلح «أهل السنة» قبل ظهور الأشعري على جميع المحدثين ولم يكن يعني لدى أصحابه والملقبين به، سوى أنهم أصحاب الحديث النبوي، رواته وجامعوه والمدافعون عنه والعاملين بمضمونه. كما اختص جماعة آخرون بهذا اللقب كعبدالله بن سعيد الكلاب وأبو العباس أحمد بن عبدالرحمن القلانسي والحارث بن أسد المحاسبي. وذلك لقيامهم بالرد على عقائد المعتزلة وتفنيد آرائهم. وقد كون هؤلاء الثلاثة وبالخصوص إبن كلاب مدرسة فكرية في العقائد، سيكون لها أبلغ الأثر في مدرسة الأشعري الكلامية والتي سترث عنها لقب «أهل السنة».

كما سيعرف هذا اللقب مفهوما اصطلاحيا جديداً لايحيد عنه ابتداءً من القرن الرابع الهجري وإلى الآن. يقول أحمد أمين: سمي الأشعري وأتباعه والماتريدي وأتباعه بـ «أهل السنة» وقد استعملت كلمة «أهل» بدل النسبة فقالوا: أهل السنة أي السنيين... وسمي المعتزلة أنفسهم أهل العدل والتوحيد، وسُمي المبتدعة أهل الأهواء...

والسنة في «أهل السنة» تحتمل أحد معنيين: إما أن تكون السنة بمعنى الطريقة أي أن أهل السنة إتبعوا طريقة الصحابة والتابعين في تسليمهم بالمتشابهات من غير خوض دقيق في معانيها. بل تركوا علمها إلى الله، وإما أن تكون السنة بمعنى الحديث. أي أنهم يؤمنون بصحيح الحديث ويقرونه من

غير تحرز كثير وتأويل كثير كما يفعل المعتزلة... وإسم أهل السنة كان يطلق على جماعة قبل الأشعري والماتريدي. وقد حكي لنا أن جماعة كان يطلق عليها «أهل السنة» وكانت تناهض المعتزلة قبل الأشعري. ولما جاء الأشعري وتعلم على المعتزلة، إطلع أيضا على مذهب «أهل السنة» وتردد كثيراً في أي الفريقين أصبح ثم أعلن انضمامه إلى «أهل السنة» وخروجه على المعتزلة[٦٣].

وأهل السنة الذين سبقوا الأشعري هم كما ذكرنا مدرسة ابن كلاب ومناصريها أبوالعباس القلانسي والمحاسبي، فهم الذين اشتهروا بالرد على المعتزلة. وأطلق الباحثون عليهم لقب «أوائل أهل السنة»[٦٤]. وعليه فإن لقب «أهل السنة» قد عرف فعلا تطوراً في مفهومه الإصطلاحي وإنطباقه. فلم يعد يعني «أصحاب الحديث والأثر» ومن حدا حدوهم بالتحديد، ولكنه أصبح يختص بمجموعة من العلماء قد لايكونون ممن يشتغل بعلوم الحديث ويقفون عندها. بل ممن اشتغلوا بالكلام والرد على المعتزلة. ونحن نعلم نفور المحدثين كافة من علم الكلام وتضليل أصحابه والنهي عن الإشتغال به[٦٥].

إن الإشتغال بعلم الكلام والرد على عقائد الإعتزال بالحجج العقلية مدعومة بالأدلة النقلية كما فعلت ذلك مدرسة إبن كلاب وأتباعها سيفجر الصراع مبكرا بين «أصحاب الحديث» و «أهل السنة الأوائل». الممثلين في ابن كلاب والقلانسي والمحاسبي. لكن هل كان كل علماء الحديث وأصحابه على هذا الرأي، أي محاربة وذم الكلام وأصحابه؟.

ان مدرسة ابـن كلاب أو «أوائل أهل السنة» إنما اشتغلوا بعلم الكلام للدفاع عن عقائد أهل الحديث والإنتصار لها. وإعتمادهم العقل بجانب النقل

---

(٦٣) أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج٤ ص٩٧ .

(٦٤) أنظر نشأة الفكر الفلسفي ، مصدر سابق ، الجزء الأول.

(٦٥) سيدفع هذا الموقف الأشعري الى تأليف رسالة في الدفاع عن الكلام وجواز الإشتغال به . أنظر رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام للأشعري ، طبعت في حيدر أباد بالهند الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣هـ.

فلكون خصومهم المعتزلة يعتمدون العقـل، أمـا النقل فيلجأون إليه في حدود ضيقة لخوفهم ـ أي المعتزلة ـ من السقوط في الحشو، ومأأدخل في الحديث النبوي من عقائد فاسدة. وإذا لماذا خاصمهم أصحاب الحديث وشنعوا عليهم ورموهم بالإنحراف؟.

الحقيقة أن فريقا مخصوصا من أهل الحديث هم من حمل راية الهجوم على «أوائل أهل السنة» ووصفوهم بالإبتداع. هذا الفريق هم «حشوية أهل الحديث»، وهم سلف « السلفية الحشوية» كما ذكرنا سابقا. والنصوص التي تدعم هذا الرأي كثيرة.

يرى أهل السلف أو بمعنى أدق «الحنابلة» وخاصة المتأخرين منهم، انه ضاق بابن كلاب والقلانسي واضرابهما النفس بضآلة معرفتهم بالسنن وتركهم قبولها، وإلتجائهم إلى العقل، وهذا خطأ كبير من الحنابلة، لأن ابن كلاب والقلانسي كانا من أعمق المحدثين، ولكنهما إعتبرا الآثار الواردة في أن كلام الله حروف وأصوات قديمة، أخبار آحاد لاتوجب علما. والحنابلة لايرون هذا، ويرون ان ابن كلاب والقلانسي وغيرهما «التزموا ماقالته المعتزلة، وركبوا مكابرة العيان وخرقوا الإجماع المنعقد بين الكافة المسلم والكافر[٦٦]. وقول النشار «الحنابلة» ليس دقيقا لأن من قال بأن كلام الله حرف وصوت وهو قديم، انما هم «حشوية الحنابلة». أما باقي الحنابلة فقد كانوا على رأي الأشاعرة «أهل السنة» في الأصول. أو مفوضة متوقفين عن الخوض في هذه المسائل. ومما يؤكد هذا القول أن ابن خزيمة صاحب كتاب «التوحيد» يعتبر من أهم رجالات «الحشوية السلفية» قديما وحديثا وقد كان من أعداء مدرسة ابن كلاب ومن تبعه من الأشاعرة متقدمين ومتأخرين.

ان المفهوم الإصطلاحي الجديد «لأهل السنة» سيعني بعد ظهور الأشعري

---

(٦٦) نشأة الفكر الفلسفي ، م س ، ج١ ص٢٨٢ .

وإنتشار مذهبه في الآفاق، مدرسة كلامية في العقائد تقابل مدرسة الإعتزال. وسيكون لها منهجها الخاص في تناول العقائد وترتيبها و تفريعها والدفاع عنها. ولم يكن لأهل الحديث مدرسة فكرية عقائدية متكاملة أو مدونة يجتمعون عليها قبل الأشعري وتلامذته. وإنما تشاطرتهم عدة آراء وأفكار ومعتقدات متضاربة سيتميز فيها تيار الحشو السلفي، الذي سيكون لنفسه فيما بعد مذهبا خاصا في الأصول بعد ظهور المحدث الكبير أحمد بن حنبل على الساحة الدينية الإسلامية واشتهاره.

وأتباع أبي الحسن الأشعري عندما يعرضون لمنهج أستاذهم وطريقته الجديدة التي أتى بها، لايعتبرونه مجرد عالم بالعقائد يتبع أصحاب الحديث وعلى رأسهم أحمد بن حنبل، بل أكدوا على أن منهجه هو التوفيق بين طرفين متقابلين. ولدينا شاهد واضح على ذلك هو نص طويل للجويني يذكره ابن عساكر في «تبيينه». فالقاضي المشهور بين كيف اتبع إمامه، في أمهات المسائل طريقا وسطا بين إفراط المعتزلة وتفريط الحشوية، وهم في الحقيقة من غلاة الحنابلة[٦٧].

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أن الإمام أبا الحسن الأشعري قد استطاع أن يصدر أحكاما في قضايا العقائد في جو من الإعتدال والصفاء بعيداً عن التهور والإندفاع، بالرغم من أن بعض الفقهاء إرتابوا في عقيدته وأن «الحنابلة» رموه بالكفر، فإن ذلك لم ينهض دليلا على زيغه[٦٨] بل نصره كبار العلماء كأبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين الجويني والإسفرائيني وغيرهم من الأعلام الذين تبنوا أفكاره بعد موته. وقد سمي هؤلاء الأعلام رأي الأشعري بمذهب «أهل السنة والجماعة»[٦٩]. ويعزز إبن خلدون المؤرخ هذا الرأي كذلك،

(٦٧) لويس غرديه ، و ج قنواتي ، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية ، ج١ ص١٠٢.

(٦٨) الدكتور مصطفى الشكعة ، إسلام بلا مذاهب ، الدار المصرية للطباعة والنشر ببيروت ص٤٦٢ .

(٦٩) فلسفة الفكر الديني ، م س ، ج١ ص٩٢.

حينما يعلن بأن منهج الأشعري توسط بين الطرق. وقد ذهب الدكتور الشكعة وغيره من المؤرخين إلى أن أول من لقب «بأهل السنة» هم الأشاعرة. حيث أصبح المذهب الذي خرج به أستاذهم هو بالذات «مذهب أهل السنة» في الإسلام[٧٠].

وبعد ظهور أبو منصور الماتريدي وتصنيفه في العقائد «قرر الكثير من علماء المذهب الحنفي أن النتائج التي وصل إليها تتفق تمام الإتفاق مع ماقرره أبو حنيفة في العقائد. كما قرروا أن آراء أبي حنيفة في العقائد هي الأصل الذي تفرعت منه آراء الماتريدي». وقد خالف الماتريدي أصحاب الحديث جميعا لأنه اعتمد على العقل بارشاد الشرع، كما أوجب النظر العقلي.

ولذلك اعتبر هذان المذهبان في العقائد والأصول هما «مذهب أهل السنة الكلامي» في مقابل المعتزلة وحشوية الحنابلة. لقد سلكت مدرسة الأشعري والماتريدي ـ كما يقول المؤرخون من أهل السنة ـ سبيل التوسط والتوفيق، الأشعري توسط بين أهل الحديث والمعتزلة، والماتريدية توسطوا بين الأشاعرة والمعتزلة، ينتصرون لأهل الحديث حيناً، ولبعض آراء المعتزلة حيناً آخر.

وقد عرفت مدرسة الأشعري الكلامية خصوصا، شهرة واسعة وانتشاراً كبيراً، غطت معه أو كادت على مدرسة الماتريدي الكلامية. وعلل بعض المؤرخين ذلك الى إنطلاقة هذه المدرسة من بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، وتبني بعض الحكومات لمذهبها العقائدي بالخصوص. ومهما يكن فقد نال الأشعري بذلك منزلة عظيمة وصار له أنصار – كما يقول الشيخ أبو زهرة – فتعقب خصومه من المعتزلة وأهل الأهواء والكفار، وبث أنصاره في الأقاليم يحاربون خصوم

---

(٧٠) المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب ، العميد عبدالرزاق محمد أسود ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ط١ ــ ١٩٨٠م ، ج٣ ص٢٢١ .

الجماعة[٧١]، ومخالفيها ولقبه أكثر علماء عصره بإمام «أهل السنة والجماعة»[٧٢]. لكن حشوية الحنابلة ومن تبعهم من السلفية لم يرتضوه إماما لهم. فشكّوا أولا في حقيقة توبته من الإعتزال، ثم كفروه وأصحابه. ودارت بين الفئتين حروب دامية، وفتن ومساجلات فكرية على طول التاريخ الإسلامي والى يوم الناس هذا. كلا المدرستين تدعي لنفسها إتباع السلف، وتعتبر نفسها دون غيرها المستحق للقب «أهل السنة» لكن المحقق في عقائد الفريقين، الأشاعرة والماتريدية «أهل السنة» و «حشوية الحنابلة» السلفية، يجد تباينا واضحا واختلافا كبيرا ينطلق من المنهج ويتعمق من خلال النتائج وتفريعاتها.

وهذه الإختلافات العقائدية، وماجرى بين الفريقين من تطاحن واقتتال على مدى أكثر من عشرة قرون يوضح بما لامجال للشك أن مدرسة «أهل السنة» الكلامية ممثلة بـ «الأشاعرة والماتريدية» وخصومهم «حشوية الحنابلة» أو «السلفية» وعلى رأسهم زعيمهم ابن تيمية الحنبلي. فرقتان أو مدرستان مختلفتان تماما عن بعضهما البعض في المنطلقات وفي النتائج. وأن أي محاولة لدمج المنهجين، واعتبار الفريقين يمثلان تيارا واحداً يسمى تارة بأهل السنة والجماعة، وتارة بالسلف أو السلفية، إنما هي محاولة قاصرة ينقصها التحقيق والمعرفة الدقيقة بكلا المدرستين. وإن وجد بعض الكتاب قديما وحديثا يخلطون في إيراد هذين المصطلحين ويقصدون بهما مفهوما معينا واحداً فيقولون: «السلف أو مذهب السلف» ويقصدون به «أهل السنة» من أشاعرة وماتريدية وكذلك يوردون مصطلح «أهل السنة» ويقصدون به «الحشوية الحنبلية».

(٧١) سمي العام الذي أخذ فيه معاوية بن أبي سفيان الخلافة من الحسن بن علي بعام الجماعة، وما كان عام جماعة بل كان عام فرقة وقهر وجبر وغلبة، أنظر الصراع بين الأمويين ومبادىء الإسلام، دكتور نوري جعفر، ص٤٧.

(٧٢) المذاهب الإسلامية، ص٢٧٨.

وقد كثر استعمال هذا المصطلح «أهل السنة» لدى «السلفية الوهابية» المعاصرة في كتبهم وبحوثهم. وليس يعني عندهم سوى منهج ابن تيمية بالخصوص، وتلميذه إبن القيم الجوزية. الصادرين عن الإطار العام لمذهب الإمام أحمد بن حنبل، وباقي السلف من الحشوية الحنبلية وأهل الحديث.



❋ ❋ ❋

الصراع على لقب «أهل السنة» أو «السلفية»

أجمع علماء المدرسة الأشعرية ومن تبعهم قديما وحديثا على اعتبار انفسهم أصحاب لقب «أهل السنة والجماعة» وأتباع السلف المستحقين لذلك دون غيرهم. «لأنهم لم يأتوا بشيء جديد، وانما اتبعوا في مذاهبهم مذهب السلف الذي يعني مذهب الصحابة والتابعين»[٧٣]. وعندما يناقش الدكتور علي سامي النشار - وهو من المعاصرين والمدافعين عن الأشاعرة - ابن تيمية الزعيم السلفي في مسألة الأسباب والعلل يقول: «لقد أعمت عداوة ابن تيمية لأهل السنة والجماعة بصيرته وأغلقت فكره فأثبت الأسباب[٧٤]». وأهل السنة والجماعة هنا لاتعدو كونها اللقب التاريخي للأشاعرة على الخصوص. كما درج كبار الأشاعرة على تلقيب أنفسهم بـ«أهل السنة والجماعة» دون لقب السلف أو السلفية، بل تميزا عنهم وعن غيرهم.

وبين يدي الآن رسالة شكوى قدمها علماء الأشاعرة الى الوزير نظام الملك منتصرين للشيخ أبي نصر بن القشيري رئيس الأشاعرة في عصره وقد هاله ماينشره حشوية الحنابلة من عقائد التجسيم و التشبيه فقام ضدهم فشغبوا عليه. ومما جاء في الرسالة[٧٥]. «... ولم أسمع منه (أي القشيري) غير مذهب أهل الحق من «أهل السنة والجماعة» وبه أدين الله عزوجل وإياه أعتقد وهو الذي أدركت أئمة أصحابنا عليه واهتدى به خلق كثير من المجسمة

---

(٧٣) المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب، مرجع سابق، ج٢ ص٩٣.

(٧٤) د. سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت ط٣ ــ ١٩٨٤م، ص٢١٠.

(٧٥) تجد نص الرسالة كاملا في فصل السلفية وأهل السنة.

وصاروا كلهم على مذهب أهل الحق...

«الإمام الشيخ الأوحد أبي نصر عبدالرحيم بن عبد الكريم القشيري جمل الله الإسلام به وكثر في أئمة الدين مثله من عقد المجالس وذكر الله عزوجل بما وصف به نفسه من التنزيه ونفي التشبيه عنه وقمع المبتدعة من المجسمة والقدرية وغيرهم ولم نسمع منه غير مذهب أهل الحق من (أهل السنة والجماعة) وبه ندين الله عزوجل...».

«... ونفى التشبيه عنه واستوفى في الإعتقاد ماهو معتقد أهل السنة بأوضح الحجج وأقوى البراهين رفع هذا المحضر الإمام أبو اسحاق الشيرازي وأصحابه الى نظام الملك فعاد جوابه لهم بانكار مايقع والتشديد على الحشوية.. فسكن الحال ثم أخذ الشريف أبو جعفر بن أبي موسى، وهو شيخ الحنابلة اذ ذلك وجماعته يتكلمون في الشيخ أبي إسحاق ويبلغونه الأذى بألسنتهم فأمر الخليفة بجمعهم والصلح بينهم بعدما ثارت بينهم فتنة هائلة قتل فيها نحو من عشرين قتيلا فلما وقع الصلح وسكن الأمر. أخذ الحنابلة يشيعون أن الشيخ أبا إسحاق تبرأ من مذهب الأشعري فغضب الشيخ غضبا لم يصل أحد الى تسكينه... وانقمعت الحشوية وتنفس «أهل السنة» الصعداء والى الله عاقبة الأمور»[٧٦].

وقال ابن عساكر مستنداً الى أبي القاسم القشيري: «اتفق أصحاب الحديث أن الأشعري كان إماما من أئمة الحديث ومذهبه هو مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدع، وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين على الملة سيفا مسلولا. ومن طعن فيه أو لعنه أو سبه فقد بسط

---

(٧٦) جعفر السبحاني ، بحوث في الملل والنحل ، ج١ ص٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩ الى ٣٢٣ .

لسان السوء في جميع أهل السنة»[٧٧].

أما الحنابلة فقد كفروه ولم يكتفوا بسبه أو لعنه فقط. وأما ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، فقد اعتبراه في مسألة الأفعال جبريا. ولاشك أن أتباع الأشعري هم الذين أفتوا بسجن ابن تيمية، لأنه خالف عقائدهم ودعى للتجسيم والتشبيه، الى أن مات في سجنه. وانتشرت فتوى في دمشق أنه من كان على دين ابن تيمية فقد حل دمه. ان حشوية الحنابلة أو «السلفية» لم يعترفوا يوما ما بإمامة الأشعري في الأصول، ولم يأخذوا بأقواله أو أقوال أصحابه. يقول الدكتور علي عبدالحليم محمود وهو سلفي معاصر:

«كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ إماما لجميع أهل السنة في الأصول والفروع، باستمساكه في أصول الدين والعبادات بنصوص الكتاب والسنة وما صح عن علماء الصحابة من فهم وهدى وعمل مفسر لهما[٧٨]. كما اعترض على اعتبار الشهرستاني ـ كما ذكرنا ـ عبدالله بن سعيد الكلاب، وأبي العباس القلانسي والحارث بن أسد المحاسبي «أوائل أهل السنة»، من جملة السلف. فهو لايعتبرهم من السلف، لأنهم باشروا الكلام، ولأن المتكلمين في عرف «السلفية» ليسوا من السلف. فهؤلاء ومن جاء بعدهم كالأشعري وأتباعه ليسوا من أهل السنة بهذا الإصطلاح في نظر الدكتور السلفي.

ولايلبث هذا السلفي المعاصر أن تزل قدمه في تناقض غير مستغرب منه ولامن أصحابه وهو قوله: في محاولة لإخراج مذهبه من شرنقة الحشو الحنبلي، «ومذهب السلف هذا ليس مذهب الحنابلة فقط، أو الإمام إبن تيمية أو الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ وحدهم ـ بل هو مذهب أئمة الإسلام

---

(٧٧) عبده الشمالي ، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها ، دار صادر ، بيروت ط٥ ــ ١٩٧٩م ، ص٢١٠ .

(٧٨) السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، م س ، ص٤٥ .

قاطبة ـ الإمساك عن التأويل مطلقا، مع نفي التشبيه والتجسيم ـ فالأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعي و أحمد، ومحمد بن الحسن وسعيد بن معاذ المروزي، وعبدالله بن المبارك، وسفيان الثوري والإمام البخاري و أبو داود السجستاني وغيرهم كلهم كانوا على هذا المسلك»(٧٩).

والحقيقة التي ينكشف عنها هذا الخلط والجمع لعدد من أسماء الفقهاء والمحدثين، أن الدكتور يتجنى على التاريخ ويحرفه ليموّه على القارىء. والذي يكشف تناقضه هو عدم اعتباره المتكلمين من السلف في الوقت الذي نجد أن مدرسة أبي منصور الماتريدي في علم الكلام ـ كما ذكرنا سابقا ـ قد انبثقت عن أقوال الإمام أبي حنيفة وصدرت عن أقواله. كما يقول محققوا هذه المدرسة. وسيتبعهم غيرهم في الإقرار بذلك، فالبغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق» وهو يضع الخطوط العريضة «لمذهب أهل السنة والجماعة» يجعل «أول متكلمي أهل السنة وأرباب المذاهب»: أبو حنيفة والشافعي. فأبو حنيفة له كتاب في الرد على القدرية سماه «الفقه الأكبر» وله رسالة أملاها في نصرة قول أهل السنة أن الإستطاعة مع الفعل... وللشافعي كتابان في الكلام..»(٨٠). وقد اشتهر عدد من الصحابة والتابعين بردودهم على تساؤلات بعض الأفراد أو الفرق. مما يعتبر من صلب القضايا الكلامية كالقدر والجبر والصفات الإلهية. منهم الإمام علي إبن أبي طالب وإبن عباس والحسن البصري وجعفر بن محمد الصادق وغيرهم كثير.

وأبو حنيفة والشافعي ومالك، اذا كانوا حقا من السلف ومطلوب الإقتداء بهم لماذا يرفض السلفيون الوهابيون اليوم إنتاجهم الفقهي والأصولي جملة وتفصيلا، بل يعتبرون مذاهبهم الفقهية مقابلا لما جاء به الرسول(ص). وبذلك لاينفون على أصحابها صفة «السلف» ولكن يعتبرونهم دخلاء على الإسلام.

---

(٧٩) المرجع السابق ، ص٤٢ .

(٨٠) الدكتور عبد الرحمن بدوي ، مذاهب الإسلاميين ، دار العلم للملايين ، ج١ ص٦٧٥.

وقد أفصح الشيخ ناصر الدين الألباني وهو من دعاة (السلفية الوهابية المعاصرة وأحد محققيها) عن موقف فرقته من المذاهب الإسلامية الفقهية، حينما إعتبر الفقه الحنفي صنواً للإنجيل المزيف. وانه خلاف الشرع المحمدي الأصيل. وابن تيمية عندما قسم طرائق العلماء في فهم العقائد الإسلامية الى أربعة أقسام: جعل القسمين الأول والثاني من نصيب الفلاسفة والمعتزلة وبين طريقتهم، أما القسمين الأخيرين فهما ماسلكه الأشعري والماتريدي في فهم العقائد. «وبعد هذا التقسيم قرر ابن تيمية ان منهاج السلف ليس واحداً من هذه الأربعة بل هو غيرها»[٨١]. والمحصلة المنطقية لهذا الكلام وغيره مما يعتقد به السلفية المعاصرون هو أن مذاهب «أهل السنة والجماعة» في الأصول والفروع ليست من السلف الصالح في شيء. وهذا حكم على إسلام وإيمان ملايين من المسلمين في الماضي والحاضر بالضلال والإنحراف الكامل!!؟.

والحقيقة أن مايستفاد من كلام الدكتور السلفي الأخير هو التعريف الدقيق الذي يضعه لنا «للسلفية» والذي تضمنه النص دون قصد منه: فالسلفية: هي «مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب» لاغير.

على أن انتساب السلفية لمذهب أحمد بن حنبل مما لايقرهم عليه «بعض فضلاء الحنابلة»[٨٢] كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة، وعلى رأسهم الذهبي المعاصر لإبن تيمية والمحقق الكبير. وكذلك ابن الجوزي الخطيب والفقيه الحنبلي، الذي أنكر ان يكون مايذهب إليه «حشوية السلفية» في العقائد هو رأي الإمام أحمد بن حنبل. لكن محمد بن عبد الوهاب باعث السلفية المعاصرة ومحيي عقائدها في شبه الجزيرة العربية سيحسم النقاش لصالح حقيقة واضحة يتحرج بعض السلفيين اليوم من اعلانها، وذلك عندما أفتى بجواز قتل من يعتقد «عقيدة أهل السنة والجماعة» من الأشاعرة خصوصا.

(٨١) المذاهب الإسلامية ، مرجع سابق ، ص٣١٥ .

(٨٢) نفسه ، ص٣١١ .

وبذلك فصل بين التيارين، ووضع حدا بين الطريقتين. وهو ليس أول حنبلي يكفر «أهل السنة» الأشاعرة، بل سبقه الى ذلك كثير من مشايخ الحشوية الحنبلية.

لقد إحتدم الصراع المذهبي بين حشوية السلفية والأشاعرة «أهل السنة» وسالت من جراء ذلك دماء غزيرة. كان الحنابلة باعتراف المؤرخين هم السباقون لسفكها. يثيرون القلاقل والفتن لأتفه الأسباب، ثم يتعقبون أهل السنة في الطرقات ويقتلونهم ويحرقون منازل علمائهم، وقد سطر التاريخ هذه الأحداث كشهادات واقعية على مدى الإختلاف بين هذين الفرقتين ومدى بعد بعضهما عن البعض. لحد سفك الدماء والتقاتل وإعلان التكفير المتبادل. ان مفهوم «أهل السنة» كما ثبت تاريخيا وعليه المحققون المعاصرون يطلق ويقصد به «المدرسة الكلامية للأشعري والماتريدي» ومن تبعها وارتضى ماتوصلت اليه من عقائد وأفكار. أما «السلفية» فهم بالتحديد أتباع إبن تيمية وتلميذيه ابن قيم الجوزية ومحمد بن عبدالوهاب النجدي. والجامع بين هؤلاء هو انتسابهم وصدورهم عن المذهب الحنبلي. أما الصفة أو النعت الذي عرفوا به تاريخيا فهو: «الحشوية الحنبلية». للتمييز بينهم وبين غيرهم ممن ينتسب لهذا المذهب دون أن يعتقد بما تذهب إليه هذه الفرقة الموسومة بالحشوية.

□ أهل السنة: مفهوم فضفاض وواسع :

طبعا تبقى هناك إشكالات أخرى يطرحها مفهوم «أهل السنة» : منها إضافة لفظ «الجماعة» فيقال «أهل السنة والجماعة»، ولفظ «الجماعة» هذا ظهر عندما إغتصب معاوية بن أبي سفيان الخلافة من الحسن بن علي وتصالح مع الإمام الحسن بشروط، وقد سميت تلك السنة بـ «عام الجماعة». وقد يقصد به مفهوم الأغلبية التابعة أو المقلدة وجماهير الناس بشكل عام. والمعنى الأول يظلفي على مصطلح «أهل السنة والجماعة» بعداً سياسيا، وقد نجد لذلك

مصداقا وتحققا بمراجعة أصول أهل السنة والجماعة.

فهم يعترفون بشرعية خلافة الخلفاء الأربعة. وبعدم وجود النص التعييني على الإمامة أو الخلافة، عكس مايذهب اليه الشيعة وخصوصا الإمامية منهم، كما ويعتبرون مقياس الأفضلية بين هؤلاء الخلفاء، تبعاً لتوليهم منصب الخلافة. فالأول أفضل ويليه في الأفضلية الخليفة الثاني تم الذي يليه فالخليفة الرابع.

ومفهوم «أهل السنة والجماعة» بهذا اللحاظ سيصبح عند الإطلاق، شعاراً ورمزا يدل على كل من قال بشرعية خلافة أبي بكر وعمر وعثمان. ورفض النص أو التعيين الذي قال به الشيعة بخصوص الإمام علي. وعليه أصبح «أهل السنة والجماعة» شعاراً لكل من يؤمن ليس فقط بشرعية الخلفاء الأربعة، بل جميع الخلفاء الذين جاؤوا بعدهم من أمويين و عباسيين. كما أصبح لفظ الشيعة يستوعب كل من قال بوجود النص النبوي على ولاية الإمام علي وأهل بيته، وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم.

وحتى هذه المسألة التي يلتقي فيها «السلفية» بأهل السنة والجماعة» فإن تطرف السلفية في موالاة ملوك بني أمية والدفاع عن فسقهم و فجورهم، قد باعد الشقة بينهم وبين بعض العقلاء المنصفين من «أهل السنة والجماعة»، وخصوصا المتأخرين منهم. لذلك أصبح مصطلح «أهل السنة والجماعة يطلق ويقصد به في كتب التاريخ والأدب والسياسة غير الشيعة والعكس صحيح كذلك». إن المفهوم اللغوي لمصطلح «أهل السنة» يفيد كما ذكرنا سابقا «أصحاب الحديث والأثر» على اعتبار أن السنة مرادف للحديث النبوي، وبإضافة (أهل) سيصبح المعنى أصحاب سنة الرسول أوالمنتسبون إليها العاملون بها، دون غيرهم من أصحاب الرأي أو البدع. وهذا المفهوم وان كان متضمنا لمصطلح «أهل السنة»، فقد أوضحنا التطور الإصطلاحي الذي خضع له هذا الشعار. والمفاهيم العقائدية والسياسية التي شحن بها، حتى جعلته

عنواناً على إتجاه ومدرسة في تاريخ الفكر الإسلامي، وهي مدرسة أبي الحسن الأشعري، وأبي منصور الماتريدي على الخصوص. بالإضافة الى المذاهب الفقهية الأربعة، الرديف والمكمل للإتجاه العام لهاتين المدرستين.

أما محاولة اطلاق هذا المصطلح «أهل السنة والجماعة»، وجعله يختص بأهل الحديث أو الأثر وأصحابه والمشتغلين به والملتزمين بالسنة والحديث النبوي في عقائدهم وفقههم. فإن جميع الطوائف والفرق الإسلامية سيشملها حينئذ هذا الشعار «أهل السنة». فما من فرقة إلا وقد ادعت اعتمادها على الحديث النبوي الشريف، وسيصبح الترجيح بينهم صعبا، ودون مرجح متفق عليه. فقد اختلف في مقاييس صحة الحديث وشروط قبوله. وعليه سيصبح «حشوية الحنابلة» أولى الناس بهذه التسمية لإعتمادهم على عدد كبير من الأحاديث. خصوصا المكذوبة على الرسول وماحشئت به أحاديثه(ص).

وكذا جميع الفرق الأخرى، مما دفع الدكتور التيجاني السماوي وهو متشيع معاصر الى اعتبار «الشيعة الإمامية» هم أهل السنة[٨٣] الحقيقيون وليس غيرهم، وأنهم أولى الفرق الإسلامية بهذه التسمية. لأنهم أخذوا بما روي عن الرسول من أحاديث كثيرة ومتواترة في ولاية الإمام علي وأهل بيته، والتزموا القول بمضمونها. في حين رفضها غيرهم وضرب عنها كشحا.

وننهي بحثنا بتقرير ماتوصلنا إليه، وهو أن مصطلح «أهل السنة والجماعة»

---

(٨٣) يقول التيجاني: «وقد بهرتهم هذه التسمية البراقة (أهل السنة والجماعة) ولم يعرفوا خفاياها ودسائسها التي وضعها دهاة العرب ولو علموا يوماً بأن علي بن أبي طالب هو محض السنة المحمدية وهو بابها الذي يؤتى منه للدخول إليها، قد خالفوه في كل شيء وخالفهم ، لتراجعوا عن موقفهم ولبحثوا الموضوع بجد ، ولما وجدت (أهل السنة) إلا شيعة لعلي وللرسول (ص) . ولكل ذلك لابد من كشف حقيقي لتلك المؤامرة الكبرى التي لعبت أخطر الأدوار في إقصاء السنة المحمدية وإبدالها ببدع جاهلية سببت نكسة المسلمين وارتدادهم عن الصراط المستقيم وتفرقهم واختلافهم، ثم تكفير ومقاتلة بعضهم البعض». أنظر الشيعة هم أهل السنة ، ص٢٥ وما بعدها.

اذا أطلق فانما يراد به «المدرسة الكلامية والفقهية» لأتباع أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي، وأئمة الإجتهاد الفقهي الأربعة بالتحديد. وقد وقع الإختلاف حول الإمام الرابع أحمد بن حنبل، هل له مدرسة خاصة في الأصول أم لا؟ وهل يعتبر فقيها؟ لأن بعضهم أثار غباراً كثيفا حول نسبة هذا الفقه المدون الآن اليه. كما ان الصراع قد احتدم قديما والى الآن بين أتباعه. فمن اعتقد بإمامة الأشعري أو الماتريدي فقد عد من «أهل السنة والجماعة»، أما من قال بغير ذلك فقد نسب نفسه الى «السلفية» أو مذهب «الحشوية الحنبلية» بالتحديد العلمي.





الشيعة الإمامية

□ تعـــريـــف :

يقول إبن دريد (المتوفي سنة ٣٢١هـ): «فلان من شيعة فلان، أي: ممن يرى رأيه، وشيعت الرجل على الأمر تشييعا اذا أعنته عليه، ومشايعة الرجل على الأمر مشايعة، وشياعا اذا مالأته عليه»[٨٤].

ويقول ابن منظور: «وأصل الشيعة الفرقة من الناس، ويقع على الواحد والإثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد. وقد غلب هذا الإسم على من يتوالى علياً وأهل بيته، رضوان الله عليهم أجمعين، حتى صار لهم اسما خاصا، فإذا قيل، فلان من الشيعة عرف انه منهم. وفي مذهب الشيعة كذا أي عندهم. وأصل ذلك من المشايعة وهي المتابعة والمطاوعة، قال الأزهري: والشيعة قوم يهوون هوى عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويواليهم[٨٥].

فالشيعة والتشيع، والمشايعة في اللغة تدور حول معنى المتابعة، والمناصرة والموافقة بالرأي والإجتماع على الأمر، أو الممالأة عليه[٨٦].

يقول الشهرستاني: «الشيعة هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية، إما جليا، وإما خفيا، واعتقدوا أن الإمامة لاتخرج من أولاده، وان خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية

(٨٤) إبن دريد ، جمهرة اللغة ، ج٣ ص٦٣ .

(٨٥) إبن منظور ، لسان العرب ، مادة شيع ، ج٧ ص٢٥٨ .

(٨٦) ناصر بن عبد الله الغفاري ، أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية ، ج١ ط١/ ١٩٩٣.

من عنده. وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لايجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله، ولاتفويضه إلى العامة وإرساله... وهم خمس فرق، كيسانية، و زيدية وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية، وبعضهم يميل في الأصول الى الإعتزال، وبعضهم الى السنة، وبعضهم الى التشبيه[٨٧]...

وقال ابن حزم الأندلسي: «ومن وافق الشيعة في أن عليا أفضل الناس بعد رسول الله وأحقهم بالإمامة وولده من بعده، فهو شيعي. وإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا»[٨٨].

□ الفرق الشيعية والاختلاف بينها :

ومن يراجع كتب الفرق يجد أن لقب «الشيعة» قد اطلق على عدد كبير من الفرق، المختلفة المشارب والمتعددة الإتجاهات. وانما استحقت هذا اللقب كما قال ابن حزم لإجماعها على القول بأفضلية علي إبن أبي طالب، على سائر الصحابة بعد رسول الله وأحقيته في الخلافة.

على أن أغلب هذه الفرق قد ارتبطت في بداية نشأتها بشخص صنعته الأحداث المتتالية التي عرفها المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول(ص) ومن ثم نمت أفكاره وترعرعت وأصبح لها أتباع، وتكونت لها مدرسة مستقلة. كما حدث لباقي الفرق الإسلامية. لذلك ظهر الإختلاف بين هذه الفرق وتوسعت شقته، جعلت مؤرخي الفرق الكلامية والمذهبية يفردون لكل واحدة منها فصلا خاصا بها يعرضون فيه لآراء أصحابها و مذاهبهم الإعتقادية

(٨٧) بحوث في الملل والنحل ، ج١ ص١٤٦ ــ ١٤٧ . من خلال تعريف الشهرستاني للشيعة يظهر أنه ذكر ثلاث فرق كبيرة في الأصول ، المعتزلة وأهل السنة والمشبهة . وهذا يعني أن التشبيه ليس من أصول أهل السنة وانما عرف بذلك «حشوية الحنابلة» فهم مشبهة هذه الأمة ، وهم بذلك حسب الشهرستاني ليسوا من أهل السنة.

(٨٨) الفصل في الملل والنحل ، ج٢ ص١١٣ .

والسياسية. ويعتبر هذا العمل في الحقيقة منهجا علميا، كان من نتائجه أن عُرفت عقائد الفرق وتميزت عن بعضها البعض، وعُرفت نقاط التقائها وإختلافها. كما فعلنا نحن فيما يخص بيان الفرق بين مفهومي «السلفية» و «أهل السنة».

والذي يقرأ ماكتبه الشهرستاني - بغض النظر عن صحة كل ماجاء فيه أو العكس - يجد أن الإختلافات كبيرة ومتعددة بين الفرق الخمسة التي ذكرها تحت عنوان «الشيعة» لدرجة أن لقب «الشيعة» يضيق عن إستيعابها كلها. فإذا كان «التشيع»، حب علي بن أبي طالب و القول بأفضليته بعد رسول الله(ص) وأحقيته في الإمامة والخلافة. فإن الإدعاء بكونه رضي الله عنه «إلها» أو حل فيه الله، يخرج صاحبه عن هذا المفهوم الإصطلاحي للتشيع بل يخرجه عن الإسلام ويصبح كافراً بالرسالة المحمدية عموما.

وهكذا تتعدد الإختلافات الفكرية والعقائدية بالخصوص. فمنها مايخرج عن الإسلام أصلا، ومنها مايخرج عن المفهوم المصطلح عليه للعنوان الكبير، الذي تنضوي تحته هذه الفرق المتعددة وهو هنا «التشيع».

لذلك لابد من وجود مرجع واضح المعالم يكون بمثابة الفيصل عند التفرقة والتمييز، نعرف به مدى بُعد الفرق والأشخاص عن هذا «المرجع» أو قربها منه. وهذا «المرجع» سيتمثل في الفرقة الأم التي إليها ترجع التسمية بالشيعة. ومنها ومن غيرها انبثقت الفرق المتعددة الأخرى التي أطلق عليها مؤرخوا الفرق إسم «الفرق الشيعية».



الإمامية الإثنا عشرية

اذا كان لقب الإمامية قد أطلق على مجموعة من الفرق الشيعية بادىء الأمر، فإنه سيطلق فيما بعد ويقصد به «الإثنا عشرية» خصوصا، «ولعل أول من ذهب الى ذلك شيخ الإثنا عشرية في زمنه «المفيد» في كتابه أوائل المقالات، وأشار السمعاني الى أن ذلك هو المعروف في عصره فقال: «وعلى هذه الطائفة - يشير الى الإثنا عشرية - يطلق الآن الإمامية».

وقال ابن خلدون «وأما الإثنا عشرية فربما خصوا باسم الإمامية عند المتأخرين منهم». وأشار صاحب مختصر التحفة الإثنا عشرية، الى ان الإثنا عشرية هي المتبادر عند إطلاق لفظ الإمامية. ويقول الشيخ زاهد الكوثري «والمعروف أن الإمامية هم، الإثنا عشرية»[89].

والإثنا عشرية هم الطائفة الشيعية التي ساقت الإمامة بعد جعفر الصادق الى ابنه موسى الكاظم، ثم الى علي الرضا، ثم الى محمد الجواد، ثم الى علي الجواد، ثم الى علي الهادي، ثم الى الحسن العسكري، ثم الى محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر...»[90]. وتعريفهم بـ «الإثني عشرية» تمييزا لهم عن باقي الفرق التي توقفت عند أحد الأئمة وانحرفت على غيره.

لقد تمسك الإمامية الإثنا عشرية بالنص أو التعيين، وقالوا بمضمون وصية الرسول(ص) للإمام علي بالخلافة والإمامة. وبقيت تلك الجماعة تسير على المنهاج الأول. وتتمسك بالوصية بعد أن تفرقت بالشيعة السبل وتقطعت

---

(٨٩) أصول مذهب الشيعة الإمامية ، مرجع سابق ، ج١ ص١٠٠ .

(٩٠) المدخل الى دراسة علم الكلام ، مصدر سابق ، ص١٠٢ .

بينهم الأسباب، وانفصلت عنهم مع الزمن مجموعة الفرق غير الإسلامية. وهم الغلاة أمثال الكيسانية والهاشمية والمغفيرية وغيرها، ثم انبثقت عنهم الفرق الشيعية الأخرى كالزيدية والإسماعيلية وفروعهما... وبعد أن حصلت الغيبة بعد منتصف القرن الثالث للهجرة بقليل سميت الفرقة الشيعية المذكورة بـ«الإمامية» أو الإثني عشرية[٩١].

لقد تشبث الإمامية بالنص والتعيين على خلافة الإمام علي بن أبي طالب وآمنوا بإمامة أحد عشر إماما من بعده. الحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين آخرهم محمد بن الحسن الحجة المهدي، الذي يعتقد الإمامية وغيرهم من الفرق الإسلامية بظهوره آخر الزمان، ليملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً، وأحاديثه وأخباره تملأ الموسوعات الحديثية، وسائر كتب السنن لدى كل من أهل السنة والجماعة والشيعة الإمامية.

□ أسباب ظهور التشيع :

أما متى ظهر التشيع فإن الباحثين من الشيعة وغيرهم قد افترقوا في الإجابة على ذلك ثلاث فرق: منهم من يرى أن التشيع، أي حب علي و موالاته ظهر زمن النبي(ص). وقد كان جملة من الصحابة يصدرون عن معاملة الرسول الخاصة له، وحبه إياه ومؤاخاته مع نفسه، لذلك يذهب النوبختي: بأن أول الفرق الشيعية وهم فرقة علي بن ابي طالب(ع)، المسمون شيعة علي(ع) في زمان النبي وبعده معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته»[٩٢].

ويعضد قول النوبختي ماذكره محمد كرد علي في كتابه «خطط الشام». قال: عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله(ص)

---

(٩١) د. عبد الله فياض، تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، مؤسسة الأعلمي، بيروت ط٣ ــ ١٩٦٨م، ص٢٧ .

(٩٢) فرق الشيعة، ص١٥ .

مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والإئتمام بعلي بن أبي طالب والموالاة له. ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أُمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة، ولما سئل عن الأربع، قال: الصلاة، والزكاة، وصوم شهر رمضان، والحج، قيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب، قيل له: وإنها لمفروضة معهن؟ قال: نعم هي مفروضة معهن، ومثل أبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وذو الشهادتين خزيمة بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، وخالد بن سعيد وقيس ابن سعد إبن عبادة»(٩٣)...

وقد عد السيد شرف الدين الموسوي(٩٤)، الصحابة ممن كانوا يتشيعون لعلي بن أبي طالب فذكر أكثر من مائتين. أما الشيخ أحمد الوائلي(٩٥)، فقد ذكر مائة وثلاثين صحابيا بأسمائهم ممن كانوا يوالون عليا ويؤمنون بأحقيته في الخلافة وأنه معين من طرف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ويظهر أن الروايات التي أشارت الى ظهور التشيع في عهد النبي(ص) كثيرة، الى حد أن السيد حامد حسين اللكناهوري، وهو من الكتاب المحدثين ملأ بها صفحات كتابه الموسوم بـ«عبقات الأنوار» وهو يزيد على عشر مجلدات»(٩٦)...

أما الرأي الثاني فهو القول بأن التشيع لعلي، إنما ظهر زمن السقيفة حين اعتزل الإمام علي(ع) ولم يبايع أبابكر. وإعتزل معه مجموعة من الصحابة منهم العباس بن عبدالمطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام وباقي الصحابة الذين أدرج المؤرخ محمد كرد علي أسمائهم في «خططه».

---

(٩٣) خطط الشام، ج٥ / ٢٥١، بتوسط السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج٦ ص١١١.

(٩٤) أنظر الفصول المهمة.

(٩٥) أنظر هوية التشيع.

(٩٦) تاريخ الإمامية، مرجع سابق، ص٣٦.

وهذا الرأي إنما يعضد الرأي الأول ويسير في إتجاهه، خصوصا إذا علمنا ان هؤلا الصحابة لم يتراجعوا عن القول بأحقية علي في الخلافة بعدما استتب أمر الحكم لأبي بكر، وكذا في خلافة عمر. وهذا يعني أنهم كانوا يؤمنون بالنص والتعيين النبوي.

ويذهب القول الثالث وهو ماعليه أغلب خصوم الشيعة. بأن التشيع وموالاة الإمام علي، إنما ظهر مع توليه عليه السلام الخلافة بعد عثمان. وإنفجار الحروب بينه وبين خصومه «الناكثين، والقاسطين، والمارقين» كما وصفهم عليه السلام، طلحة والزبير وعائشة، ومعاوية بن ابي سفيان.

ويرى أصحاب هذا الرأي أن من تبع الإمام علي ونصره في حروبه التي خاضها في زمن خلافته، كانوا هم نواة وسلف الشيعة الذين جاؤوا بعدهم، إبتداءاً بحركة التوابين التي جاءت كرد فعل على مقتل الإمام الحسين بن علي في كربلاء على يد يزيد بن معاوية، ويقولون بأن مع هذه الحركة الثورية التي إنطلقت مباشرة بعد حادثة كربلاء، سيبدأ خط التشيع العام في التبلور، ليضع لنفسه طريقا عرف به بين باقي الفرق الإسلامية.

إن الآراء في تحديد ظهور التشيع مختلفة، وان كان رأي المحققين من الشيعة الإمامية وغيرهم قد توصلوا الى أن التشيع بمعنى موالاة الإمام علي والقول بالنص على تعيينه إنما ظهر في عهدالرسول، لأنه(ص) نص فعلا على ولايته وذكر ذلك في مواقف متعددة. كان من أهمها حادثة البيعة العامة في «غدير خم» حين جمع الرسول(ص) الناس وأوقفهم في طريق عودته من حجة الوداع، وأعلن فيهم قائلا:

«أيها الناس ان الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بكم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا ـ يعني عليا ـ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد

من عاداه»[٩٧].

وهذه الحادثة ذكرها اليعقوبي في تاريخه، وبين أن النبي أوصى فيها لعلي بالخلافة[٩٨].

والصحابة الذين تولوا عليا إبن أبي طالب يذكرون هذه الحادثة ـ أي بيعة غدير خم ـ ويحتجون بها. وسيأتي تفصيل ذلك في فصل الشيعة إن شاء الله تعالى. وعليه فالتشيع أصيل أصالة الإسلام، انبثق من أحاديث الرسول، ودعمته سيرة الإمام علي بجهاده المتميز في نشر الدعوة الجديدة وبناء صرح الدولة الإسلامية. وبادعائه كذلك الولاية، قولا وعملا. واشتهار خصوصيته العلمية وتفوقه، وإحتياج الناس لعلمه واستغنائه عنهم. ومنهم الخلفاء الثلاثة، حيث إشتهر عن عمر بن الخطاب الخليفة الثاني قوله: «لولا علي لهلك عمر» وكذا قوله: «لاأبقاني الله لمعضلة ليس لها أبوالحسن».

هذا من حيث النشأة والجذور أما إكتمال التشيع كمدرسة متميزة في الأصول والفروع فقد جاء ذلك متأخرا عن عصر الرسالة. مثله في ذلك مثل المدارس الإسلامية الأخرى الأصولية منها والفقهية.

□ مذهب الإمامية في الأصول :

أما مذهب الإمامية فهو كما ذكر الشيخ المفيد في أوائل المقالات من أنهم دانوا بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان مع وجوب النص الجلي والعصمة لكل إمام وهم علي بن ابي طالب والحسن والحسين وتسعة أئمة من ولد الحسين.

---

(٩٧) مصادر الحديث متعددة ، أنظر: الصواعق المحرقة ، ومسند الإمام أحمد ومستدرك الصحيحين للحاكم ، وقد صرح الذهبي بصحته ، انظر مزيد من التفصيل فصل «السلفية والشيعة الإمامية» من هذا الكتاب.

(٩٨) تاريخ الإمامية ، مرجع سابق ، ص٣٩ .

والإمامية الإثني عشرية يبرأون من المقالات التي جاءت على لسان بعض الفرق، و يعدونها كفرا وضلالا. وهم كما يقول الشيخ كاشف الغطاء أحد الفقهاء الإمامية المعاصرين: «ليس دينهم إلا التوحيد المحض وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق أو ملابسة لهم في صفة النقص والإمكان والتغير والحدوث وما ينافي وجوب الوجود والقدم والأزلية الى غير ذلك من التنزيه والتقديس، وبطلان التناسخ والإتحاد والحلول والتجسيم»(٩٩)...

يقول الدكتور مصطفى الشكعة: «وتسمى هذه الفرقة بالجعفرية حينا والإثنا عشرية حينا آخر والإمامية حينا ثالثا. ولعلها من غير شك أبعد الفرق الإمامية عموما عن الإتصاف بالغلو وأقربهم الى التعقل في أمور دينها، ومن أقرب فرق الشيعة عامة الى جمهور أهل السنة. واذا كانت سميت بالجعفرية من باب تسمية العام باسم الخاص، كما مر بنا قبل قليل، فإنها سميت بذلك لأمر أهم وهي أنها تستمد أمور دينها من الإمام جعفر الصادق. فلقد كان إماما لجميع المسلمين بالمعنى العام كأبي حنيفة والشافعي والأوزاعي ومالك وابن حنبل، وكان من ذوي الرأي الصائب والفتوى الصالحة في أمور الدين. فضلا انه كان إماما لدى الإمامية، له ما لبقية أئمتهم من الولاية والوصاية...

ويضيف الدكتور الشكعة قائلا: «وهم جمهور الشيعة الذين يعيشون بيننا هذه الأيام وتربطهم بنا نحن أهل السنة روابط التسامح والسعي الى تقريب المذاهب. لأن جوهر الدين واحد ولبه أصيل لايسمح بالتباعد.

والشيعة يمثلون كل سكان إيران تقريبا ونصف سكان العراق وعشرات الآلاف من سكان لبنان وبضعة ملايين في الهند»(١٠٠)...

(٩٩) إسلام بلا مذاهب، مصدر سابق ص١٨٧ .

(١٠٠) نفسه ،ص١٨٣ ــ ١٨٦. يشكل الشيعة قرابة نصف عدد سكان المسلمين في العالم إذ يبلغ تعدادهم ٧٥٠ مليون نسمة أنظر «شورى الفقهاء» . أما ما ذكره المؤلف بخصوص الشيعة الإمامية في لبنان فليس دقيقاً فهم ليسوا بالآلاف لأنهم يشكلون أغلبية سكان لبنان . فإذا كانت الأغلبية السكانية في لبنان للمسلمين فإن أغلبية المسلمين من الشيعة.

ويوجد الشيعة الإمامية في مناطق أخرى من العالم غير التي ذكرها الدكتور، في تركيا وسورية، أما في المملكة العربية السعودية فيشكلون نسبة ٢٥٪ من حجم السكان. ويتركزون في المنطقة الشرقية والمدينة المنورة. وفي الكويت نسبة كبيرة منهم، وفي البحرين يمثلون الأغلبية، وفي باقي دول الخليج العربي، بنسب متفاوتة بين الأغلبية والوسط، في الإمارات العربية وعمان وقطر واليمن. كما توجد أقليات شيعية إمامية، في كل من مصر والسودان وتنزانيا وجزر القمر ومدغشقر، والكثير من الدول الإفريقية الأخرى ومن بينها دول شمال افريقيا والمغرب العربي.

كما يتواجد الإمامية في باكستان بنسبة كبيرة وفي أفغانستان. والكثير من دول جنوب آسيا المسلمة والصين، والجمهوريات الإسلامية في الإتحاد السوفياتي السابق. وبعد انتصار الثورة الإسلامية في ايران انتشرت موجة إعتناق أو الإنتقال للتشيع. فأقبلت قطاعات من المثقفين والعلماء من باقي الطوائف الإسلامية الأخرى على اعتناق عقائد التشيع ومذهبه الفقهي.

لقد حاولنا في هذا التعريف المقتضب «للشيعة الإمامية» أن نميز هذه الفرقة عن باقي الفرق، ممن سمي أو أطلق عليه لقب «الشيعة». أولا لخصوصية هذه الفرقة الأم، ثانيا لبيان أن هناك اختلافات عقائدية مهمة بين هذه الفرق. يصل بعضها الى إخراج الفرقة عن الإسلام بشكل عام. كإدعاء ألوهية الإمام علي أو غير ذلك من الهرطقات و الغلو.

وتمييز الإمامية الإثنا عشرية عن غيرها من الفرق هو المنهج العلمي الموضوعي، كي لا يصار الى التداخل في الأفكار والمعتقدات. ونسب ذلك الى فرقة هي من ذلك براء، كما هو حاصل الآن. حيث جرى خصوم الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، على إلحاق عدد كبير من عقائد الفرق المنحرفة وإلصاقها بالإمامية. والإدعاء كذبا وعن سوء نية، إن ذلك يشكل جزءاً من عقائدهم. نرى ذلك واضحا في المملكة العربية السعودية حيث يكفر السلفية

الوهابية مواطنيهم من الشيعة الإمامية. رغم أنهم يمثلون كما قلنا سابقاً نسبة ٢٥٪ من مجموع السكان. وإذا سألت علماء السلفية عن سبب هذا التكفير سيجيبونك بأن الشيعة الإمامية، يقولون ويعتقدون بأن جبريل قد أخطأ في تبليغ الرسالة، فبدل أن ينزل على علي إبن أبي طالب نزل على محمد بن عبد الله(ص). وأنهم يقولون بأن عليا أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام. والحقيقة أن من يقول مثل هذا القول لا يكون شيعيا فقط، وانما سيكون غير عاقل بالمرة. لأن الشيعة والسنة على السواء يؤمنون بأن جبريل لما نزل بالرسالة على محمد بن عبدالله في مكة، لم يكن علي بن أبي طالب قد تجاوز سنه العاشرة في بعض الروايات، وأخرى تقول كان سنه تسع سنوات. فهل يمكن أن يرسل الله سبحانه وتعالى جبريل بالرسالة لطفل في العاشرة من عمره، ويطلب منه أن يبلغها. انها الخرافات التي عشعشت في خيالات العوام، وروج لها بعض أدعياء العلم، ممن يُنسب الى الفضيلة والمعرفة.

□ **الإمامية وتسميتهم بالروافض:**

قد درج خصوم الشيعة الإمامية وخصوصا «السلفيين»، على نعتهم واطلاق اسم الرافضة والروافض عليهم. وهذا الوصف كان يطلق في الماضي ويقصد به مجموع من يوصف بالتشيع ويدخل ضمنهم الإمامية. أما اليوم فإنه إذا اطلقه السلفيون يقصدون به «الشيعة الإمامية» فقط. وسنحاول في عجالة تتبع تاريخ هذا المصطلح ومدلولاته المعرفية والسياسية بالخصوص، لنعرف حده وخلفيته السياسية والتاريخية.

الرفض بمعنى الترك، قال ابن منظور في اللسان: «الرفض ترك الشيء، تقول: رفضني فرفضته، رفضت الشيء أرفضه رفضا، تركته وفرقته والرفض: الشيء المقترف والجمع أرفاض»[١٠١]. هذا هو المعنى اللغوي، أما حسب

(١٠١) لسان العرب ج٧ ص١٥٧ مادة رفض.

الإصطلاح في الأعصار المتأخرة، فهو يطلق على مطلق محبي أهل البيت تارة، أو على شيعتهم جميعا أخرى. أو على طائفة خاصة منهم ثالثة.

وعلى كل تقدير فهذا الإصطلاح، إصطلاح سياسي أطلق على هذه الطائفة وهو موضوع لاكلام فيه. انما الكلام في وجه التسمية ومبدأ نشوئها، فإننا نرى إبن منظور يقول في وجه التسمية: «الروافض، جنود تركوا قائدهم وانصرفوا، فكل طائفة منهم رافضة. والنسبة إليهم رافضي، والروافض قوم من الشيعة سموا بذلك لأنهم تركوا زيد بن علي، قال الأصمعي: كانوا قد بايعوا زيد بن علي ثم قالوا: إبرأ من الشيخين نقاتل معك فأبى وقال: كانا وزيري جدي فلا أبرأ منهما فرفضوه وأرفضوا عنه. فسموا رافضة، وقالوا الروافض ولم يقولوا: الرفاض لأنهم عنوا الجماعات.

غير أن إبن منظور، وإن أصاب الحق في صدر كلامه وجعل للفظ معنى وسيعا يطلق على المسلم والكافر، والمسلم شيعيه وسنيه، لكن استشهد على وجه تسمية قسم من شيعة علي عليه السلام بما يقول الأصمعي، وهو منحرف عن علي وشيعته فكيف يمكن الإعتماد على قوله، خصوصا اذا تضمن تنقيصا وازدراء بهم.

يقول الشيخ جعفر السبحاني لا أظن الأصمعي وهو خبير في اللغة يجهل بحقيقة الحال، ولكن عداءه قد جره الى هذا التفسير. فإن الحق أن الرافضة كلمة سياسية كانت تستعمل قبل أن يولد زيد بن علي ومن بايعه من أهل الكوفة، فالكلمة تطلق على كل جماعة لم تقبل الحكومة القائمة، سواء أكانت حقا أو باطلا. هذا هو معاوية بن أبي سفيان يصف شيعة عثمان الذين لم يخضعوا لحكومة علي بن أبي طالب عليه السلام وسلطته بالرافضة. و يكتب في كتابه الى عمرو بن العاص وهو في البيع في فلسطين: «أما بعد: فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ماقد بلغك، وقد سقط الينا (نزل إلينا) مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبدالله في بيعة

علي وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني، أقبل أذاكرك أمراً»[١٠٢].

إن معاوية يصف من جاء مع مروان بن الحكم بالرافضة وهؤلاء كانوا أعداء علي ومخالفيه. وماهذا إلا لأن هؤلاء الجماعة كانوا غير خاضعين للحكومة القائمة آنذاك. وعلى ذلك فتلك لفظة سياسية تطلق على القاعدين عن نصرة الحكومة والإلتفات حولها... ان كلمة الرفض والرافضة ليستا من خصائص الشيعة، بل هي لغة عامة تستعمل في كل جماعة غير خاضعة للحكومة القائمة. وبما أن الشيعة منذ تكونها لم تخضع للحكومات القائمة بعد رسول الله (ص)، فكانت رافضة حسب الإصطلاح الذي عرضت، ولم يكن ذلك الإصطلاح موهوبا من طرف زيد بن علي لشيعة جده. كيف وقد ورد ذلك المصطلح على لسان أخيه محمد الباقر عليه السلام. الذي توفي قبل زيد بن علي وثورته بست سنوات.

روى أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: «أن رجلا يقول إن فلانا سمانا باسم قال وما ذاك الإسم؟ قال: سمانا الرافضة. فقال أبو جعفر مشيراً بيده الى صدره: وأنا من الرافضة وهو مني، قالها ثلاثا[١٠٣].

وروى أبو بصير فقال: قلت لأبي جعفر عليه السلام جعلت فداك، إسم سمينا به استحلت به الولاة دماءنا وأموالنا وعذابنا. قال: وماهو؟ قال: الرافضة، فقال أبو جعفر عليه السلام: إن سبعين رجلا من عسكر فرعون رفضوا فرعون فأتوا موسى عليه السلام فلم يكن في قوم موسى أحد أشد إجتهادا وأشد حبا لهارون منهم، فسماهم قوم موسى الرافضة»[١٠٤]. وهذه التعابير عن أبي جعفر باقر العلوم عليه السلام أصدق شاهد على أن مصطلح الرفض ليس وليد فكرة زيد، وأجله عن هذه النسبة والفكرة، بل كان

(١٠٢) نصر بن مزاحم المنقري، توفي سنة ٢١٢هـ، وقعة صفين، ص٢٩.

(١٠٣) بحار الأنوار، ج٦٥ ص٩٧ الحديث٢، نقلاً عن المحاسن للبرقي، المتوفي سنة ٢٧٤.

(١٠٤) نفسه، ج٦٥ ص٩٧، الحديث ٣.

مصطلحا سائدا في أقوام، فكل من لم يخضع للحاكم القائم، والحكومة السائدة وصار يعيش بلا إمام ولا حاكم سمي رافضيا والجماعة رافضة أو رفضة[١٠٥].

إلا أن هذا المصطلح سيتطور عند الإستعمال ليشمل ليس فقط المعارضين للحكومات من الشيعة، ولكن سيلصق بكل من يعرف عنه حب أهل بيت النبي عليهم السلام. مثل الإمام الشافعي فقد اشتهر عنه أنه أنشد:

يآل بيت رسول الله حبكموا ... فرض من الله في القرآن أنزله

يكفيكموا من عظيم الذكر أنكموا ... من لم يصل عليكم لاصلاة له

ويوضح الإمام الشافعي بواعث إتهامه بالرفض والتشيع فيقول:

قالوا ترفضت قلت كلا ... ما الرفض ديني ولا إعتقادي

لكن توليت دون شك ... خير إمام وخير هادي

ان كان حب الوصي رفضا ... فانني أرفض العباد

والشافعي لما أظهر حب علي بن أبي طالب ـ والذي سماه «الوصي» وهذه الكلمة إشارة الى النص ـ اتهم بالرفض، لكنه لم يبالِ بهذا الاتهام، واستمر على موالاته لأهل البيت عليهم السلام. يقول منشداً:

ياراكبا قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد فيها والناهض

سحراً اذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضا كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي[١٠٦]

---

(١٠٥) بحوث في الملل والنحل، م س، ج١، صفحات ١٢٠ و١٢١ و١٢٢ و١٢٣ بتصرفه

(١٠٦) انظر مناقب الشافعي للفخر الرازي، وكذا الإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر المجلد الثاني ص٢٤٩. والغريب في الأمر أن كل من عرف بحب علي وأهل بيته كان يتهم بالتشيع والرفض. وقد السقت هذه التهمة بكل من يروي حديثاً أو مجموعة روايات في فضائل علي بن أبي طالب أو أهل بيت النبوة. وقد أتهم بالتشيع رجال لم يكونوا في واقع الأمر شيعة بالمعنى الإصطلاحي للكلمة مثل خيثمة بن سليمان العابد الذي ألف في فضائل الصحابة وذكر بعض فضائل الإمام علي. والحاكم النيسابوري صاحب =

وهذا الإمام أحمد بن حنبل وقد كان يغشاه عبد الرحمن بن صالح الشيعي، فاعترض عليه أصحابه بقولهم إنه رافضي فكان جواب أحمد بن حنبل انه: «رجل أحب قوما من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، نقول له لاتحبهم، هو ثقة»(١٠٧).

وعليه فإن كان حب أهل البيت ومودتهم رفضا، فالحق أن جميع المسلمين رافضة، لأن حب أهل بيت النبي من الدين. أما إذا كان الرفض يعني المعارضة السياسية، فالحركات الإسلامية اليوم وأبناء الصحوة الإسلامية يصح ان يطلق عليهم روافض ورفضة، لأنهم جميعا في خانة من يعارضة الحكومات القائمة في بلدانهم. ولايعترفون لها بأي شرعية دينية أو حتى قانونية ودستورية.



= المستدرك حيث ذكر فيه فضائل الإمام علي، وعبد الرزاق بن همام الحافظ الكبير ومن رجال الصحاح قال الذهبي في «تذكرة الحفاظ»: انه صاحب تصانيف، وثقه غير واحد، وحديثه مخرج في الصحاح، وله ما ينفرد به، ونقموا عليه التشيع وما كان يغلو به بل كان يحب علياً ويبغض قاتله . وهذا الإعتراف من الذهبي وهو من هو عند أصحابه في الجرح والتعديل يبين مدى انحراف هؤلاء الذين نقموا على هذا الحافظ فهل ينقم مسلم على مسلم آخر لأنه يحب علياً وأهل بيت النبي وقد كان الرسول يحبهم؟!
ومنهم جعفر بن سليمان الضبعي ومحمد بن عثمان أبو الحسن النعالي وقاضي القضاة محيي الدين الأموي المتوفي سنة ٦٦٨هـ ، ومحمد بن جرير الطبري المؤرخ الشهير المتوفي سنة ٣١٠هـ . ومن اعجب الأمور كما يقول أسد حيدر ان إبن عبد البر قد أتهم بالتشيع على ما فيه من النصب والعداء لأهل البيت، فقد وصفه إبن كثير في تاريخه بأنه شيعي لرواية نقلها تمس كرامة الأمويين . بل ان أبا حنيفة قد اتهم هو كذلك بالتشيع لأنه كان يفضل الإمام علي على عثمان.

(١٠٧) تاريخ بغداد ، ج١٠ ، ص٢٦١ ، بتوسط أسد حيدر ، ج٢ ص٥٠٤ .

خاتمة المطاف

إرتأيت في مقدمة بحثي أن اعرض لهذه المجموعة من التعاريف المقتضبة كي أسلط الضوء بموضوعية علمية على حقيقة كل فرقة من الفرق المذكورة. وأن أُفرد لها بحثا خاصا بها من المصادر المعتبرة قديما وحديثا، دون حيف أو إجحاف. لقد كُتب تاريخ الفرق الإسلامية الدينية والسياسية، بمداد التزوير والتحريف، ووقفت السلطات السياسية المتعاقبة عبر أزمنة التاريخ الإسلامي مواقف مختلفة ومتناقضة من الفرق والمذاهب الإسلامية.

فالمعتزلة أهل التوحيد والعدل، وأكثر من وقف مدافعا عن الإسلام أمام خصومه من علماء وفلاسفة الملل الأخرى ـ حسب إدعاء بعضهم ـ واعتنق الكثير من علماء وفقهاء الإسلام أفكارهم وعقائدهم، في أوج وازدهار الحضارة الإسلامية على عهد العباسيين وبالخصوص الخليفة المأمون، سيصبحون كفرة مباحوا الدم مع وصول المتوكل العباسي للحكم، الذي نكل بهم ـ أي المعتزلة ـ وظاهر في مقابل ذلك فريقا مخصوصا من أهل السنة (الحديث)، وهم فريق الحشوية الذين كانوا يحسبون من أهل السنة في ذلك العهد[١٠٨]، كما يقول عبد المتعال الصعيدي.

ومع هذا التحول السياسي بدأ تأريخ جديد لهذه الفرقة ـ المعتزلة ـ شوّه معتقداتها، وطعن في روادها ونسب إليهم الكثير من الشذوذ الفكري والعقائدي. ومع ظهور مدرسة أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي الكلامية وتمثيلهما لمذهب أهل السنة والجماعة في العقائد والأصول، واجازتها

(١٠٨)مجلة رسالة الإسلام ، ج٣ ، عدد ١ السنة الثالثة ، ص٦٠ .

من طرف السلطات السياسية المتتالية، أعطيت لها بجانب إجتهادات الأئمة الأربعة في الفقه، الشرعية الكاملة. وهكذا انتشرت آراء مدرستي الأشعري والماتريدي في العقائد معضدة بالمذاهب الفقهية المشهورة. حيث أصبح إسلام الجمهور الأعم من المسلمين موسوما ومرتبطا بآراء هذه المدارس في الفقه والأصول، ولم تكن الظروف الموضوعية لتتيح نشر غيرها أو الدعوة اليه، بل اعتبر ذلك شذوذا وخروجا على عقائد الجمهور وديانتهم بل تعدى الإنتصار لآراء هذه المدارس، الى وصم من يخالفها بالكفر والخروج عن الإسلام ومحاربة المسلمين ونقض بيضة الإسلام، لذلك نجد المقريزي في خططه بعدما تعرض لإنتشار المذهب الأشعري «أهل السنة» في العقائد وإعتناق الأغلبية له، يؤكد على أن من خالف ذلك أريق دمه.

كما اكتفي في الفقه بآراء واجتهاد الأئمة الأربعة ومن تبعهم من الفقهاء وحجب مادون ذلك. وإن كان قد سُمح بما سمي الإجتهاد الجزئي المحدود، أي الإجتهاد داخل المذهب. فالغزالي مجتهد لكنه ظل شافعيا في تقليده الفقهي العام. وكذلك غيره من مجتهدي المذاهب الأخرى.

المهم هو أن السلطات السياسية الحاكمة للمجتمع الإسلامي، خصوصا مع بداية القرن الرابع قد أضفت الشرعية المطلوبة على بعض المدارس الأصولية والفقهية. وتلقاها عامة الجمهور بالقبول وأضفوا عليها مع مرور الزمن القداسة والإحترام، حتى أضحت تمثل الإسلام في شكله ومضمونه، وعُد الخارج عنها مارقاً عن الإسلام، كافراً ضالاً وفي أحسن الظروف مبتدعاً، لذلك أحلّوا دمه وماله.

في المقابل عاشت فرق ومذاهب أخرى في الظل، ليس فقط لشذوذها الفكري أو العقائدي، وركوبها الغلو الذي تنفر منه فطرة أغلبية الناس. ولكن لمعاداتها السلطات السياسية القائمة. وأفضل مثال على ذلك الفرق الشيعية بعامة والإمامية الإثنا عشرية بخاصة، فإذا كانت هذه الفرق لم تعترف

بشرعية أغلب السلطات السياسية التي قامت على طول التاريخ الإسلامي، فإن رد فعل تلك السلطات كان مماثلا وزيادة بعض الشيء. فشوهت أفكار الفرق المعارضة وحُرفت عقائدها وقتل دعاتها ورجالات دعوتها وأرباب مدارسها. ولم يُسمح لها بنشر مذاهبها إلاّ بطرق سرية وخفية. لذلك لم تُعرف حقيقة الكثير من المدارس الكلامية إلاّ بعد فترة طويلة من إنتهاء هذا الصراع.

ولكن هذا النمو في الظل والخفاء لبعض الفرق، قد جعل قطاعات واسعة لاتعرف عنها شيئا، ولما كانت تظهر على الساحة بعض عقائدها وأفكارها بين الحين والآخر، كانت تلقى استهجانا ونفوراً من الأغلبية، عامة وعلماء.

وهكذا بدأ عصر النهضة العربية والإسلامية في العصور الحديثة بالتنقيب في التراث ومحاولة بعثه ودراسته وتحقيقه بطرق علمية موضوعية الى حد ما، فتم اكتشاف كتب جل الفرق، خصوصا التي قاومت الزمن وسجل لها حضور في العصر الحاضر. وبذلك بدأت مرحلة التعرف الحقيقي على آراء القوم ومعتقداتهم من كتبهم الخاصة وتراثهم المتميز وأقوال علمائهم. وإذا اشتكى بعض الفرق اليوم من أن ـ الآخر ـ الخصم قد جنى عليه وشوه أفكاره، فإن فرقة الإمامية الإثنا عشرية من دون الفرق الشيعية الأخرى قد خصها ـ الآخر ـ الخصم بالنصيب الأكبر من التشويه والتحريف والتحامل، وليس السبيب في ذلك سوى تاريخ هذه الفرقة التي عاشت بموازات السلطات السياسية المتعاقبة على الحكم الإسلامي.

فلم يسجل التاريخ انتصاراً سياسيا لهذه الفرقة بالذات ـ إلا ماكان من تبني الدولة الصفوية للتشيع الإمامي(١٠٩) ـ انتصاراً يجعل العالم الإسلامي

---

(١٠٩) ناصرت بعض الحكومات في فترات متقطعة من التاريخ الإسلامي التشيع بشكل عام، مثل الدولة البويهية، والحمدانية، وقامت الدولة الفاطمية في مصر وشمال افريقيا إنطلاقاً من الدعوة الشيعة الإسماعيلية، كما تعاقبت على حكم اليمن دول شيعية على ==

يتعرف على حقيقة ماتدعو له من عقائد وأفكار. لذلك نجد الدراسات التحقيقية المتعددة والتي ظهرت في العالم العربي والإسلامي والخاصة بتاريخ الفرق الإسلامية قد أنصفت الكثير من الفرق، وعلى رأسهم المعتزلة حيث أعيد لها إعتبارها. ولم يقبل رأي خصومها فيها، فبدل تكفيرها وذمها نجد أحمد أمين وهو من المؤرخين المعاصرين مثلا يقول: كانت المعتزلة أكثر دفاعا عن الإسلام، وربط كثير من المفكرين والمثقفين المعاصرين بين العصر الذهبي للدولة الإسلامية، وبين إنتشار عقائد وأفكار المذهب الإعتزالي ، وعلى رأسها الدعوة الى حرية الإنسان. كما قرنوا بداية التدهور الحضاري بانتصار المحدثين والحشوية منهم على الخصوص، وإنتشار عقائد الجبر والتفويض.

أما عقائد الإمامية ومذاهب رجالها فقد ظلت كما هي عليه في كتب خصومها وأصحابها على السواء، محرومة من النشر والإنتشار، إلاّ في حدود ضيقة، جعلت المؤرخ أحمد أمين عندما كتب حول الشيعة يستقي مادته مما كتبه خصومها. ولما زار العراق والتقى بعلماء الشيعة الإمامية وسألوه عن ذلك، إعتذر لهم بقلة المصادر.

وعليه فأغلب ماكتب عن الشيعة الإمامية ويكتب الآن إنما يستقى من الكتب والموسوعات التي أرخت للفرق الإسلامية، وأغلب أصحاب هذه الموسوعات كانوا ممن يعتنق مذاهب أهل السنة والجماعة. فكان عرضهم لعقائد وأفكار الفرق المخالفة لما عليه الأشعري، فيه الكثير من التساهل في النقل والرواية. بالإضافة الى التحامل وعدم الموضوعية إلا ماندر. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن التأريخ أو الكلام في تاريخ الفرق الكلامية والسياسية، يحتاج الى الإطلاع الواسع والدقيق، حتى يتمكن الباحث من الكشف

= المذهب الزيدي . أما اليوم فتنفرد دولة إيران الإسلامية بكون المذهب الإمامي الأثنا عشري هو مذهب الدولة الرسمي لأن أغلبية الشعب هناك من الشيعة الإمامية الإثنا عشرية.

الحقيقي عن عقائد القوم ومذاهبهم. فقلة البضاعة في هذا الباب تعني الخلط والخبط والتجني، ومايسببه ذلك من إرباك لدى القارىء المتوسط الاطلاع.

وقد وقفت يوما مندهشا وأنا أقرأ كتابا لأحدهم يتكلم عن فرقة إسلامية ويذكر لها كتبا ومحافل دولية، ولما راجعت عناوين تلك الكتب وأسماء تلك المحافل وجدتها لفرقة مسيحية ـ يهودية مشبوهة تدعى «شهود يهوه». إن عدم الإطلاع المتكامل على موضوع البحث ونشدان الحق في كل مايكتب، يؤدي الى إنتشار معلومات خاطئة لدى الناس عن بعضهم البعض مما يعمق الكراهية والأحقاد. ويكون سببا في الحروب المذهبية والطائفية.

لذلك حرصنا في بداية بحثنا على تحديد المفاهيم الموضوعية لمصطلحات «السلفية»، «أهل السنة والجماعة» «الشيعة الإمامية». وبيان مدلولاتها ومصاديقها العقائدية والفكرية، في إيجاز نرجو أن لايكون قد أخل بالمطلوب، لأن الإطناب في ذلك يخرجنا على خطة البحث، ولأننا سنناقش عقائد هذه الفرق وماتدعوا له في الفصول التالية.

والنتيجة التي توصلنا إليها وأردناها، هي تحديد مفهوم كل من «السلفية» أولا، وأنه تيار أو فرقة متميزة في التاريخ الإسلامي. كما بينا أن مصطلح «أهل السنة» قد عرف تطوراً في مدلوله، فهو كان يقصد به أولا المشتغلين بجمع الحديث النبوي وروايته والإهتمام به. أما المدلول الإصطلاحي الجديد الذي سيعرفه وسينتهي عنده، فهو كونه أصبح شعاراً لمدرسة كلامية في الأصول، ومنحصرة في ما توصل اليه كل من أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي وأتباعهما من العلماء.

فإذا أطلق لفظ أو مصطلح «أهل السنة والجماعة» فإنه يعني تحديداً، هذه المدرسة وأتباعها. وبهذا التحديد ظهر الفرق بين هذه المدرسة وعقائدها والمدرسة «السلفية» وعقائدها، التي كشف البحث والتحقيق أنها ـ أي السلفية ـ ليست سوى مجمل آراء ابن تيمية خاصة وشروح تلميذه ابن قيم

الجوزية. وما أضافه الشيخ محمد بن عبدالوهاب النجدي ـ عند التطبيق ـ على هذه العقائد. وما خصه بالعمل والدعوة دون غيره من عقائد أستاذيه. كل ذلك مدعوما وفي إطار النهج العام للمذهب الحنبلي.

ومع تباين نتائج هاتين المدرستين وخصوصا في الأصول والعقائد، لم يعد هناك مجال لدمجهما أو الإدعاء بأنهما تياراً واحداً منسجما، فإن هذه المحاولة التي يروج لها بعض «السلفية» تمويها على أبناء الصحوة الإسلامية، ليست صحيحة ولاتمت الى الحقيقة العلمية بصلة. أما ما يوجد في الكتب المعاصرة خصوصا كتب التيار السلفي الوهابي من إدعاء بأن ما هم عليه هو مذهب «أهل السنة والجماعة». أو قول بعض الأشاعرة المعاصرين من أن طريقة إمامهم هي ماكان عليه السلف الصالح. وبذلك تختلط المفاهيم، ويصبح أتباع المدرستين يتنازعان نفس الألقاب «السلفية وأهل السنة والجماعة». أقول إن هذا الخلط لايعني أن منهج المدرستين واحد أو أنهما جسد برأسين. ولكن الحقيقة التي لايود بعضهم الإفصاح عنها ـ السلفية الوهابية ـ، هي أنهم عندما يطلقون على أنفسهم لقب «أهل السنة» فإنما يعنون أنهم المستحقون وحدهم دون غيرهم لهذا اللقب. ولايقصدون إطلاقا بأنهم ينتمون أو يعتقدون بآراء وعقائد مدرستي الأشعري والماتريدي، التي تبين لنا عبر التحقيق أنهما أول من تسمى تاريخيا بهذا اللقب بمفهومه المتطور. واعتمدوه صفة دالة عليهم فيما بعد، ومميزاً لهم عن غيرهم.

وكذلك اذا وجد من الأشاعرة من يقول بأنه سلفي أو على مذهب السلف، فإنما يعني إتباعه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من الأئمة. وأن لاخلاف بين مذهب إمامه الأشعري، وبين ماكان عليه هؤلاء الصفوة. وقد أشرنا الى ذلك الصراع الذي احتدم بين الفريقين حول الإستفراد بهذا اللقب أوذاك. والمهم هو أن المفهوم الإصطلاحي الخاص «للسلفية» و «لأهل السنة والجماعة» كما ظهر عند التحقيق، يعني مدرستين

مختلفتين في المنهج والنتائج. وأن الشقة متباعدة بينهما، ومازالت تتباعد. خصوصا مع السلفية الوهابية المعاصرة، حيث تبادل القوم التكفير والتبديع ومخالفة السنة والسلف الصالح معا. والفصل الذي خصصناه للسلفية وأهل السنة يظهر بالتفصيل مدى الخلاف الواسع بين هذين المنهجين وبين أتباعهما.

ومن خلال تتبعنا للجذور التاريخية لمصطلح «السلفية» تبين واضحا أن أتباع هذه المدرسة اليوم، ليسوا سوى «خلف حشوية أهل الحديث» المتوسمين بالحنابلة. وأن مصطلح «السلفية» سيضيق مفهومه ليصبح علما متميزا لما توصل إليه ابن تيمية الحراني «شيخ الإسلام» من آراء في العقائد خصوصا، بعدما تصدى للكم الهائل من أحاديث التشبيه والتجسيم ورام الدفاع عنها، وسلك منهجا وطريقة في اثباتها وجعلها أساسا لعقائد السلف.

والسلفية أو الوهابية اليوم هي دعوة متميزة لبعث هذه العقائد، مدعومة بمخزون أهل الحشو من أحاديث وروايات. لذلك كثرت الطبعات والتحقيقات لكتب مثل «السنة» لعبدالله بن الإمام أحمد، و «التوحيد» لإبن خزيمة، وغيرهما من المصادر المعتمدة لدى الحشوية الأوائل.

واذا كان أهل السنة الأوائل ممثلين بـ «مدرسة ابن كلاب وأتباعها» قد خاضوا صراعا مريراً مع أوائل الحشوية وعلى رأسهم ابن خزيمة(١١٠)، فإن خلف كلا المدرستين سيرثان هذا الصراع والتناقض، الذي سيبلغ ذروته مع ابن تيمية في القرن السابع، والذي أحيى عقائد «الحشوية» بعدما كادت تندرس ـ لانتشار عقائد أهل السنة من الأشاعرة خصوصا في أغلب المدارس التعليمية الإسلامية ـ وهاجم خصومها. وقامت بين القوم معارك ضارية أريقت فيها دماء غزيرة، وراح ضحيتها مئات القتلى من الطرفين.

كما استطعنا بإيجاز كذلك أن نبين للقارىء بأن مصطلح «التشيع» قد

---

(١١٠)الذي افتى بتكفير بعضهم وحمل العامة على التعرض لهم والنيل منهم.

إستوعب كثيراً من الفرق ذات العقائد والآراء المختلفة والمتناقضة، وأن الفرقة الأم وهي «الإمامية الإثنا عشرية» تختلف عن باقي الفرق الأخرى نهجا وسلوكا. وأنها مدرسة متكاملة في الأصول والفروع، تقابل جميع الفرق الأخرى سواء «أهل السنة والجماعة» أو «السلفية». وكذا باقي الفرق الأخرى المحسوبة على «التشيع»، وإن الخلط وعدم التمييز لدى الكتاب المعاصرين ـ والخصوم منهم على الخصوص ـ بين هذه الفرقة الأم وغيرها، قد أتاح الفرصة لنشر الكثير من المغالطات والخرافات والإنحرافات الدينية، ونسبها لهذه الفرقة ـ الإمامية الإثني عشرية ـ. والفصل الأخير الذي عقدناه في هذا البحث بعنوان «السلفية والشيعة الإمامية» يلقي الضوء واضحا على هذه الفرقة من حيث عقائدها وفقهها وتاريخ أئمتها وأتباعهم، ومدى اقترابها أو ابتعادها عن باقي الفرق الإسلامية الأخرى بعامة، وموضعها الحقيقي في تاريخ الإسلام ومدى قرب أو بعد عقائدها عن القرآن وماجمع من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

***

الفصل الثاني

المذهب الحنبلي

«رحم الحشوية»



«وكان أهل الحق يلقبونهم بألقاب تكشفهم لمن لايعرفهم: بالمشبهة لتشبيههم الحق تبارك وتعالى بخلقه في وصفه بما هو من خواص الخلق. وبالمجسمة لقولهم في الله تعالى بالإتصاف بما هو من لوازم الجسم لزوماً بيناً.. وبالحشوية نسبة الى الحشو بسكون الشين، وهو اللغو الذي لا إعتبار له، فضلاً عن أن يكون منسوباً الى الله والى رسوله، أو مذهباً يدان الله تعالى به....»

[الشيخ محمد زاهد الكوثري]


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تمهيد

إن البحث في المذاهب الفقهية والأصولية التي ظهرت في تاريخ الاسلام والمسلمين، يحتاج الى دراسات تاريخية معمقة وعلمية، بعيداً عن كل تعصب أو انحياز مسبق لجهة ما. على إعتبار أنها الحق، أو انها الميزان الذي يوزن به غيرها. واذا كان البحث الموضوعي هو حب الوصول للحقيقة، فلابدّ أن يكون بصدق وموضوعية بعيداً عن التأثر بعوامل اخرى، وبذلك يكون الباحث فقد نال شرف خدمة الحق واتباعه..

ولابدّ لنا أن نلمس خطورة البحث وأهميته. لهذا يلزمنا أن نتجرد عما يخالف الحقيقة، بل يجب أن نخوضه بروح هادفة، ونيّة خالصة لمعالجة هذا الموضوع الذي له دخل بواقع المسلمين الحاضر والماضي. فالحوادث المؤلمة التي توالت على مسرح حياتنا في جميع الأدوار وماأدت إليه من نتائج سيئة في المجتمع الاسلامي، وان كانت نتيجة عوامل كثيرة متداخلة، إنما يعود الى التعصب المذهبي. فهو المؤثر الأكبر والعامل القوي في تفرق المسلمين شِيعاً وأحزاباً، وقد انقسموا على أنفسهم انقساماً شائناً. فكل يتهم الآخر بالإنحراف عن الدين، وكل طائفة اعتزلت الأخرى[1].

والحقيقة التي يجمع عليها جلّ المؤرخين، والمحققين منهم بالخصوص، هي أن ظهور هذه المذاهب لم تكن بمعزل عن الصراعات السياسية، وقيام الأسر الحاكمة، وانهيار الأنظمة السياسية التي تعاقبت على الحكم طوال التاريخ

---

(١) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، م٣ ص١١ .

الاسلامي. كما ان أول قضية اختلف حولها المسلمون الأوائل من الصحابة كانت مسألة الخلافة أو الامارة. واذا كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها كما أعلن الخليفة الثاني «عمر بن الخطاب»، فإن خلافة عثمان قد جلبت الفتن للمجتمع الاسلامي. فانتثر عقد الوحدة الاسلامية الذي لم يستطع الإمام علي بن أبي طالب أن يعيده الى ماكان عليه، فاستشهد عليه السلام وقلبه تملأه الحسرة والألم. ومع موته تولى زمن ماسمي بـ«الخلافة الراشدة» الى غير رجعة. ونط القردة على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وامتلكوا مقدرات الأمة الفتية بعدما سالت أنهار من الدماء. وراحوا يوجهون الامة الاسلامية عكس ما أراد لها الرسول وأصحابه الذين تحملوا في سبيل الدين الجديد المحن والشدائد العظيمة.

ولقد صدق ذلك الصحابي أو التابعي عندما قال: ـ في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، والي الأمويين على العراق ـ وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا...﴾ قال: كان ذلك على زمن رسول الله، أما الآن فإنهم يخرجون منه أفواجاً.

لقد بدأ عصر الإنحراف الكبير مع وصول الأمويين الى سدة الحكم. واذا كان بعض المتدينين و العلماء قد شكك في شرعية حكمهم ـ أي الأمويين ـ. فانهم قد حاولوا تجاوز هذا التشكيك بتحريف وتزوير كل النصوص والأحاديث التى تقدح فى حكمهم، أو تنفي الشرعية عنهم. وبذلك أخفيت نصوص وأحاديث تؤيد هذا الاتجاه. وأعلن الأمويون البراءة ممن يحدث بها، وأن دَمَهُ وماله حلال إن هو تكلم بها أو رواها.

في المقابل تقدم عدد من الأعراب وأُعطوا المال الجزيل للرواية عن الرسول ووضع الأحاديث على لسانه، دعما لرغبات ملوك بني أمية وأهوائهم. وشارك في ذلك عدد ممن عُرفوا بصحبتهم للرسول، حيث باعوا دينهم بأبخس الأثمان. فانتشرت حركة الوضع، وكثر الرواة الكذبة، ودخل الحديث النبوي

سوق المزايدة، فهذا حديث يروى بألف درهم، وآخر يروى مقابل مائة ألف درهم. لذلك ذهب المحققون من علماء الحديث الى أن أغلب ماروي في فضائل الصحابة وخصوصا الخلفاء الثلاثة وبني أمية، انما صُنع واختلق في تلك الحقبة. وأن أغلبه لايصح ولايثبت أمام الجرح والتعديل، لأن مضامينه مختلفة ومتناقضة. كما أن صبغة المبالغة والتطرف في الخيال بارزة في عدد كبير من هذه الأحاديث والروايات.

لكن - ومع كامل الأسف والحسرة - فإن حركة الوضع لم تقتصر على القضايا السياسية وما يرتبط بها، بل ستتعداها لتشمل جل القضايا الدينية، الفرعية منها والأصولية. وكثرت بذلك الروايات المختلفة والمتناقضة عن الرسول في المسألة الواحدة. فبعضهم يروي بأنه(ص) مسح على رجليه عند الوضوء، والآخر يختلف معه ويأتي برواية تفيد بأن الرسول(ص) قد غسل رجليه. والبعض الآخر يقول كان الرسول يصلي واضعا يده اليمنى على اليسرى، وغيره ينفي ذلك ويقول انما شوهد عليه الصلاة والسلام مسبلاً يديه في الصلاة.

اجتمع الأوزاعي بأبي حنيفة بمكة فقال الأوزاعي ما بالكم ترفعون أيديكم عند الركوع والرفع منه؟ فقال أبوحنيفة لم يصح عن رسول الله في ذلك شيء. فقال الأوزاعي كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه اذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع منه، فقال أبو حنيفة حدثنا حماد عن ابراهيم عن علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لايرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ولايعود لشيء من ذلك فقال الأوزاعي: أحدثك عن الزهري عن سالم عن أبيه وتقول حدثني حماد عن ابراهيم؟ فقال له أبوحنيفة: كان حماد أفقه من الزهري وكان إبراهيم أفقه من سالم وعلقمة ليس بدون إبن عمر ان كان لإبن عمر صحبة أو له فضل صحبة، فالأسود له فضل كثير

وعبدالله هو عبدالله، فَسكت الأوزاعي[٢].

وغير ذلك من الاختلافات التي تبدأ من تفاصيل الوضوء الجزئية وتنتهي الى أعقد المسائل العقائدية الخاصة بصفات الله ومشكلات القدر وخلق العالم وغيرها من القضايا المهمة. فليس هناك مسألة إلا وفيها مئات الأحاديث المتضاربة والمتناقضة. طبعاً قد يعزو البعض هذه النتيجة الى إجتهاد الخليفة الثاني «عمر بن الخطاب» الذي نهى عن كتابة وتدوين الحديث على عهده. وإن كان ذلك صحيحا الى حد ما، فإن الأمويين سيستغلون النتائج السلبية لهذا الإجتهاد أفضع إستغلال. وبذلك تكون لبنات التحريف في الاسلام قد وضعت، وقام بنيانها في هذا العهد بالذات. ومع أن جملة من العلماء وخيار المسلمين ومن أخذتهم الغيرة على دين التوحيد الجديد، قاموا في وجه هذا التيار ونددوا به وحاولوا إيقافه، إلا أن الخرق قد اتسع على الراقع. فحركة الوضع أصبحت ظاهرة خطيرة لايمكن التحكم فيها أو مواجهتها، خصوصا وهؤلاء الرواة يلقون الدعم المالي والمعنوي من السلطة الحاكمة. لذلك كانت النتائج وخيمة جداً على الاسلام والمسلمين. فعندما سيلقى القبض بعد ذلك على ابن أبي العوجاء الراوي الكبير وأحد الوضاعين المشهورين، سيعترف قبل قتله بأنه وضع أربعة آلاف حديث يحرم فيها الحلال ويحلل فيها الحرام. وانظر مايقوله ابن لهيعة: قال سمعت شيخا من الخوارج تاب فجعل يقول ان هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإنا كنا اذا هوينا أمراً صيرناه حديثاً[٣].

وهكذا كان الحال عند أغلب الفرق. حتى قال بعض المتصوفة والزهاد لما عيب عليهم نسبهم بعض الأحاديث في الرقائق الى الرسول(ص)، فكان

---

(٢) محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة . ج١ ص٣٢١

(٣) الفكر السامي، ص٣٠٧ .

ردهم نحن نكذب له لاعليه، وانما نأتي بهذه الأحاديث ترغيبا للعامة في الزهد والتدين ليس إلاّ.

لقد أثمرت جهود بعض العلماء والفقهاء بعد انطلاق حركة تدوين الحديث في إيجاد مناهج ووسائل شبه علمية لكشف صحيح الحديث من سقيمه، وبيان مراتبه من الضعف والصحة. لكن نتائج هذه المناهج قد بولغ في ايجابياتها كثيرا، لأنها لم تستطع أن تكشف كل ماوضع عن الرسول(ص) ولم يقله. وبقيت أغلب المسانيد وكتب الحديث تحتوي على الضعيف والموضوع. وإن قال أصحابها أنهم لم يجمعوا في بعضها إلا ماصح لديهم. إلا أن هذه المشكلة ستظل قائمة. وقد خبر علماء هذا الميدان حجم المشاكل التي تعترضهم في هذا التحقيق.

فقد يستطيع المحدث والعالم بالجرح والتعديل ان يثبت صحة الحديث من عدمه، وذلك عندما يقطع بصحة سنده، وأن الحديث لاشك مروي عن الرسول، سمعه منه الثقات وحمله الثقات الى ان وصل إلينا لكن الفقيه أو المفكر، وخصوصا المختص في العقائد قد لايأخذ بمتن ومحتوى هذا الحديث. بل يضرب به عرض الحائط ويجزم بأنه مكذوب على الرسول لامحالة لأن مضمونه مخالف لأبسط المبادىء العقلية الثابتة، أو مخالف لنواميس الطبيعة بشكل واضح وصريح. ولو كان من عند الرسول فهو من عند الله طبعا. ومايقوله الله سبحانه وتعالى لايخالف بالضرورة نواميس الطبيعة وما اتفق العقلاء على أنه حق. مثلا أحاديث التجسيم والتشبيه الصريح فقد يدعي بعض المحدثين صحة سندها. لكن مضمونها يخالف آية محكمة من كتاب الله تعالى. وعليه يحكم على الحديث بالوضع، لأن لا اختلاف في الوحي فالقرآن وحي والسنة وحي وكل من عند الله سبحانه وتعالى.

إن هذا المبحث عميق ومشكل وقد ألفت فيه المؤلفات الكثيرة، وتناوله العلماء بالأخذ والرد. ولسنا الآن بصدد مناقشة تفاصيله، وانما عرجنا عليه

لإعطاء فكرة بسيطة عما خلفته حركة الوضع والكذب على الرسول(ص)، والتي انطلقت مبكرة وعرفت أوج ازدهارها في العصر الاموي بالذات. وانما ذكرنا ذلك لان هذه الحركة التحريفية الكبرى ستكون بمثابة الخلفية الاولى لظهور المذاهب الفقهية والأصولية، والمبرر الأهم لإختلاف هذه المذاهب في الأصول والفروع.

واذا كانت للسلطة اليد الطولى في خلق مادة الإختلاف وجعله ضرورة لامحيد عنها، فإن هذه السلطة سيكون لها دور آخر أشد خطورة من الأول. انه التشجيع على صنع المذاهب والمدارس ودعم دعاتها والقائمين عليها ودعوة الجماهير المسلمة العامة الى الانخراط فيها والالتفاف حول أصحابها، شريطة أن تحافظ السلطة على خيوط قوية ومتينة تربطها برؤساء هذه المذاهب أو المدارس الاصولية و الفقهية.

واذا قال قائل لماذا تتحمل السلطة كل هذا العناء، فإن التاريخ الاسلامي سيجيبه بأن جل الحكومات التي تعاقبت على الخلافة الاسلامية لم تكن تمتلك الشرعية الكافية. فلم يكن الأميون ولا العباسيون يمتلكون الشرعية الدينية. وكانت المعارضة لهما في الغالب دينية أصيلة، ممثلة في أئمة أهل البيت الذين عاشوا بين ظهراني الحكومتين، ولم يستطع ملوك بني أمية أو بني العباس ان يزحزحوهم عن مطالبتهم بحقهم قيد أنملة رغم القتل والتهجير.

ومعارضة أخرى مزيفة ومسلحة ينشد أصحابها الملك حينا، والعدالة الاجتماعية حينا آخر. وكلاً من المعارضتين يحمل الى جانب السيف سلاح الدين ونصوصه المقدّسة، سواء ماصح منها أو ماوضع لهذا الغرض بالذات.

لذلك كانت الحرب التي خاضها الأمويون والعباسيون حرباً ذات شقين أو واجهتين: الحرب العسكرية التي تلتقي فيها الجيوش وتنتهي بمنتصرٍ و منهزمٍ. والحرب كانت سجالا بين جميع الأطراف. وحرب أخرى لاتقل خطورة عن الأولى وهي الحرب الايديولوجية أو النظرية. فمن أثبت بنص المنقول عن

النبي(ص): أن «أقتلوا معاوية اذا رأيتموه على منبري» سيعتبر محاربة معاوية جهاداً في سبيل الله وطاعة لرسوله.

ومن وجد أن معاوية هو أميرالمؤمنين و من أهل بيت النبي وطاعته واجبة، كما كان يعتقد أهل الشام، فإنه سيدافع عن حكم معاوية بدمه ويستشهد بين يديه، لانه انما ينتصر للحق ويدافع عنه. وقد شهد عدد من كبراء أهل الشام عندما انتصر العباسيون على الأمويين، أنهم لم يكونوا ـ وأقسموا على ذلك ـ يعلمون للنبي من ابن عم أو أهل سوى معاوية وأهل بيته.

إن الصراع على عقول الأغلبية، أو محاولة تجييش الجماهير لدعم السلطات القائمة كان من أكبر الهموم والمهمات التي أولتها الحكومات العربية الأهمية الكبرى. كما اجتهدت المعارضة في كسب الناس اليها بدعوى كونها على حق، وأن خصومها على الباطل. واذا انتخبت المعارضة قوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[٤]. وأن لابد من اعلان الجهاد في وجه الكافر. فإن السلطة القائمة قد اختارت من القرآن قوله تعالى: ﴿أطيعوا الله ورسوله وأولي الامر منكم...﴾[٥].

أما الإستشهاد بالحديث النبوي فحدث ولاحرج. وهذا الأسلوب في الصراع التاريخي بين الحكومة والمعارضة الدينية بالخصوص، سيبقى هو هو، لم ولن يتغير في عالمنا الاسلامي المعاصر، ونحن نشرف على نهاية القرن العشرين.

لذلك لانعدو الحقيقة اذا قلنا بأن الحكومات الاسلامية قد اصطنعت لها مذاهب فقهية وأصولية، كما أن المعارضة انتجت لها مذاهب فقهية وأصولية كذلك. فللحكومة مذهبها الإسلامي الذي يدعمها ويؤمّن لها الشرعية في الماضي والحاضر، وللمعارضة كذلك عقائدها التي تنطلق منها وتبرر تصرفها.

---

(٤) سورة المائدة ، الآية : ٤٤ .

(٥) سورة النساء ، الآية : ٥٩ .

وقد ظهر أخيراً اختلال عجيب ومثير للجدل، عندما ظهرت معارضة سياسية خلفيتها الفقهية والاصولية المذاهب نفسها التي كانت تدعم السلطة فيما مضى، وبينهما علاقة أبوة وبنوة شرعية لايشك أحد من المطلعين في ذلك. والسبب في ذلك، دخول عناصر جديدة في الصراع لم تكن شاخصة للعيان فيما مضى.

□ السياسة وانتشار المذاهب الفقهية :

نرجع لنقول ولنأكد حقيقة تاريخية وهي أن المذاهب الفقهية المحصورة اليوم عند أهل السنة والجماعة في مذاهب أربعة، قد نمت وترعرعت في ظل السلطة وتغذت بطعامها وشربت من مائها حد الإرتواء. وسبب إنتشارها وفرضها على الجماهير المسلمة انما يرجع الى تولي دعاتها والمؤمنين باجتهاد أصحابها لمناصب حكومية كان أهمها منصب القضاء. يقول الباحث أسد حيدر: «لقد اتضح لنا أن للحكومات دخلا في نصرة المذاهب وانتشارها. فإذا كانت الحكومة قوية وأيدت مذهبا من المذاهب تبعه الناس بالتقليد، وظل سائداً الى أن تزول الدولة. وانتشار المذاهب وعظيم الاقبال عليها لايدل على قوتها الروحية وعواملها الذاتية. فقد رأينا أن قوة الدعاة وتدخل السلطة أقوى العوامل لنشر المذاهب، يقول شاه ولي الدهلوي: «وأي مذهب كان أصحابه مشهورين، وأسند اليهم القضاء والإفتاء واشتهرت تصانيفهم في الناس، ودرسوا درسا ظاهرا، انتشر في أقطار الارض، ولم يزل ينتشر كل حين. وأي مذهب كان أصحابه خاملين. ولم يولوا القضاء والافتاء، ولم يرغب فيهم الناس إندرس بعد حين»[٦].

والمذاهب الأربعة نفسها كانت تختلف في القوة والإنتشار. فقد رأينا أن

(٦) أسد حيدر ، م س ، ج١ ، ص ١٦٧، نقلاً عن : حجة الله البالغة ، الدهلوي ، ج١ ص١٥١ .

المذهب الحنفي هو أكثر المذاهب انتشاراً وأعظمها إقبالاً، لقوة أنصاره وكثرة دعاته في البداية والنهاية. اذ كانت نواة شهرته من غرس أبي يوسف قاضي قضاة الدولة العباسية. فهو ناشر المذهب أو مؤسسه ـ إن صح لنا ان نقول ذلك ـ وقد كان أبو يوسف وجيها في الدولة، مقبولا عند الخلفاء له منزلة لايشاركه فيها أي أحد. فكان لايولي قاضياً إلا من انتسب لمدرسة أبي حنيفة. واستمر القضاة في نشر المذهب في جميع الأقطار، مستمدين قوتهم من السلطة التنفيذية، حتى أصبح مذهب أبي حنيفة هو المذهب الرسمي للدولة...

وقد رأينا انتصار العباسيين لمالك بن أنس ـ بعد غضبهم عليه ـ فقد أمروا بقصر الفتوى عليه، وأعلن ذلك بأمر الدولة، ونودي ـ غير مرة علناً ـ ألا يفتي الناس إلا مالك[7]. وأمروا عمالهم باستشارته في الأمر وعدم القطع دونه، فهذا المنصور يقول لمالك: ان رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة، أو أحد عمال الحجاز، في ذاتك، أو ذات غيرك. أو سوء سيرة في الرعية، فاكتب إلي بذلك. أنزل بهم مايستحقون، وقد أكتب الى عمالي بها ان يسمعوا منك ويطيعوك في كل ماتعهد إليهم، فانههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف تؤجر على ذلك. وأنت خليق أن تطاع ويسمع منك[8]... وعلى أي حال فإن مالك بن أنس قد لحظته الدولة وقربته، اذ وجدت منه عونا ومؤازرة[9]، فقربوه وأحسنوا إليه، ورفعوا مجلسه، ونشروا علمه وأجزلوا له العطاء، وأصاب منهم ثروة طائلة ومع هذا فهم مدينون لمالك في مؤازرتهم

(٧) المرجع السابق، ج٣ ص١١، نقلا عن تذكرة الحفاظ، ج١ ص٣٠٦.

(٨) نفسه، ج٣ ص١١، نقلا عن مالك بن أنس، للخولي، ص٣١٨.

(٩) أنظر فتاوى مالك في أهل الأهواء والبدع، فكلهم في نظره كفار، وأشدهم الروافض، وهؤلاء: أصحاب الأهواء والبدع، والروافض كانوا في أغلبهم حركات سياسية ودينية مناهضة للحكم العباسي. مطالبة بالحكم نفسه (الروافض)، أو داعية الى العدالة الإجتماعية والثورة على الإجحاف الإقتصادي والحرمان المادي.

ومعاونتهم والركون إليهم[10].

أما مذهب الشافعي فيكفينا قول السبكي وهو من فقهاء الشافعية، في طبقاته عن مصر والشام: «هذان الإقليمان مركز ملك الشافعية، منذ ظهر المذهب الشافعي، اليد العالية لأصحابه في هذه البلاد، لايكون القضاء والخطابة في غيرهم. أما الشام فقد كان مذهب الأوزاعي حتى ولي القضاء أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي الشافعي. ويقول: كان (محمد بن عثمان) رجلاً رئيساً، يقال انه هو الذي أدخل مذهب الشافعي الى دمشق، وانه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني منه مائة دينار»[11]. كما نجد أن مذهب الشافعي ارتبط بكثير من المدارس الحكومية التي بنيت لتدريسه وأشهرها نظامية بغداد، وقد تخرج منها كبار فقهاء وعلماء الشافعية.

أما المذهب الحنبلي، وهو موضوع هذه الدراسة فإنه كان الأقل انتشارا بين المذاهب الفقهية لعوامل كثيرة سنعرض لها لاحقاً. يمكن تلخيصها في خشونة أصحابه وإفراطهم في إشعال الفتن المذهبية، وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كما يرون ويعتقدون. كما ان المذهب الحنبلي جاء متأخراً في تكوينه وتكامله، كما لم يعترف كثير من العلماء بكون أحمد بن حنبل فقيها، وإنما عرف لديهم كمحدث فقط. لذلك لم يتقدم أصحابه للقضاء ولم تعرض الحكومات عليهم هذا المنصب الا في سنين متأخرة. كانت المذاهب الفقهية الأخرى قد انتشرت واستحوذ تقليدها على أغلب فئات العامة.

يقول ابن خلدون: أما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الإجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية والأخبار بعضها ببعض. وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية للحديث

---

(١٠) أسد حيدر ، م س ، ج٣ ، ص١٢ .

(١١) المرجع نفسه ، ج٣ ، ص٢٥٣ .

وميلاً بالاستنباط إليه عن القياس ما أمكن[١٢].

لذلك كان قليل الأتباع وكاد أن يندرس لولا أن تداركه ابن تيمية في القرن السابع. ومع محمد بن عبدالوهاب النجدي سيعرف هذا المذهب عصره الذهبي الآن، لكن ليس بعنوان المذهب الحنبلي وانما تحت عنوان آخر هو «السلفية» حيث خصصت السلطات الحاكمة في نجد أموالا طائلة لنشر هذا المذهب وبعث كتبه والدعوة اليه.

ومهما يكن فقد استطاعت المذاهب الأربعة أن تخطو خطوات في ساحة الرقي وتكتسب قيمتها المعنوية، لانها كانت موضع عناية الخلفاء والولاة المتعاقبين. بالرغم مما رافقها من خلافات ومنافرات، فعناية السلطة تكسب الشيء لونا من الاعتبار والعظمة حسب نظام السياسة لا النظام الطبيعي. فعوامل الترغيب و وسيلة القوة جعلتها تأخذ بالتوسع شيئا فشيئا، ولولا ذلك لما استطاعت البقاء حتى تصبح قادرة على مزاحمة غيرها[١٣].

إن السلطات الحاكمة على طول التاريخ الاسلامي لم تكتف بصناعة المذاهب ودعمها وتقويتها وفرض إتباعها على الجماهير المسلمة، ولكن حددت هذه المذاهب وحصرتها في أربعة ومنعت العامة من تقليد غيرها، وحذرت الخاصة من تجاوزها أو انشاء مذاهب أخرى جديدة. أي منعت الإجتهاد وأغلقت بابه وجعلته حكراً على من مضى من «السلف» وفرضت على «الخلف» التقليد والإمتثال، وحفظ مسائل وأجوبة هؤلاء الأئمة من السلف.

قال شهاب الدين الزنجاني الشافعي وأقضى القضاة عبدالرحمن بن اللمغاني الحنفي: إن المشايخ كانوا رجالا، ونحن رجال. فأوصل الوزير ماأجابوا به الى المستعصم، وكان قد تولى الملك بعد أبيه المستنصر فأحضرهم أمامه، وطلب منهم جميعا أن يلتزموا ذكر كلام المشايخ ويحترموهم، فأجابوه

---

(١٢) تاريخ العلامة بن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م، ج٣، ص٨٠٣.

(١٣) أسد حيدر، ج١ ص ١٧١.

جميعا بالسمع والطاعة، ورجع مدرسا الشافعية والحنفية عن اعتدادهما بأنفسهما..

وقال المقريزي: فلما كانت سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري ولى بمصر أربعة قضاة وهم: شافعي، ومالكي، وحنفي، وحنبلي، فاستمر ذلك من (سنة ٦٦٥هـ) حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الاسلام سوى هذه الاربعة. وعملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الاسلام، وعودي من تمذهب بغيرها. وأنكر عليه ولم يول قاضٍ ولا قبلت شهادة أحد ولا قدّم للخطابة والإمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب، وأفتى فقهاء الامصار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ماعداها[١٤]...

وهكذا أخذ الشباب والكهول يواصلون الدراسة على المذاهب الأربعة في مثل هذه المدارس. ويسمعون في خلال دراستهم طعونا على أي مذهب آخر فيمتلئون حقداً على من لم يترك مذهبه لينتسب الى أحد هذه المذاهب الأربعة[١٥].

---

(١٤) يقول الدكتور عبد الدائم البقري الأنصاري: «منع الإجتهاد هو سر تأخر المسلمين. وهذا هو الباب المرن الذي عندما قفل تأخر المسلمون بقدر ما تقدم العالم. فأضحى ما وضعه السابقون لا يمكن أن يغير أو يبدل لأنه لإعتبارات سياسيةً منع الولاة والسلاطين الإجتهاد حتى يحفظوا ملكهم، ويطمئنوا الى أنهم لن يعارضهم معارض، وإذا عارضهم أحد لأنه لا تخلو أمة من الأمم إلا وفيها المعلم النزيه والزعيم الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، فلن يسمع قوله لأن باب الإجتهاد قد أغلق. بهذا جمد التشريع الإسلامي الآن، وما التشريع إلا روح الجماعة وحياة الأمة». أنظر الفلسفة السياسية للإسلام، ص٣١.
ويقول أسد حيدر: هذه بعض الشواهد على عدم شرعية غلق باب الإجتهاد الذي حدث في ظروف خاصة ولمآرب سياسية، ولم تخضع الشيعة لحكم تلك الظروف، بل ساروا على طريق أهل البيت وأخذوا أحكام الإسلام عنهم وبقي الإجتهاد مفتوحاً عندهم.

(١٥) المصدر السابق، ص١٧١ ــ ١٧٣.

□ أحمد بن حنبل وعصره:

عرف النصف الثاني من القرن الثاني، والنصف الأول من القرن الثالث أحداثاً كثيرة ومتعاقبة، وهذه الفترة هي التي ولد فيها الامام أحمد بن حنبل وتوفي فيها، حيث تبدأ بعصر خلافة المهدي وتنتهي عند المتوكل العباسي. وما يميز هذه الفترة أنها كانت فترة ازدهار واستقرار للسلطة العباسية، وتبعها إنتشار واسع للعلوم، حيث نشطت حركة التأليف والترجمة نشاطا متميزا. وكثرت المناظرات في الأصول والفروع وصنفت في هذه الفترة أمهات المصادر في العلوم الدينية والطبيعية.

وقد واكب هذا الاستقرار السياسي ـ خصوصا بعدما إستقر الحكم للمأمون بعد انتصاره على أخيه الأمين ـ ازدهار في العمران، وامتدت الحضارة وتنعم أرباب المناصب والمقربون للسلطان بمباهج الحياة. ونعموا بخيرات البلاد وكانت لهم الثروات الطائلة. وعمرت مجالس العلم والأدب، وأمست دور الكبراء مدارس يغشاها أرباب الفكر وحملة الآثار والأشعار وقادة الفكر، وأمراء البلاغة والبيان، كما وقد تفنن أرباب النعيم وذوي الثراء في اتخاذ مجالس اللهو، ـ وتباروا في اقتناء المغنيات، وتنافسوا في شرائها بأغلى الأثمان ـ كما كانت بيوت الخلفاء مجالس للغناء والشراب، يتبارى فيها المغنون في إطراب الخلفاء وفي اتحافهم بكل صوت.

وقد إحتفظت كتب الأدب بكثير من أخبارهم، فهم يتذوقون الغناء ويطربون عليه، ويُجيزون المغنين ويصلونهم بأسنى الصلات. وكان معظمهم ـ أي الخلفاء ـ يُحسن الغناء و يعرف أصوله. ويصنع أصواتا يغنيها هو أو يلقيها على جواريه أو على المغنين، كما كان هارون والواثق أكثر ماكان في حاشيتهما من المغنين[١٦]. واذا كانت قصور الخلفاء وبيوتات ذوي الحضوة

---

(١٦) أسد حيدر ، م س ، ج٢ ص٤٨٥ .

تنعم في الترف والتنعم بملذات الدنيا، فإن ذلك كان يتم على حساب ملايين المحرومين والضعفاء ممن كان يرزح تحت ظلم الولاة والجباة الذين جعلوا من تلفيق التهم السياسية وسيلة لقتل الناس وأخذ أموالهم[١٧].

الاّ أن ما ميز عصر أحمد بن حنبل هو ظهور فتن الشعوبية أو العنصرية، فإذا كان الفرس قد تغلبوا على العرب واستحوذوا على أغلب المناصب المهمة في الدولة بعد انتصار العباسيين، فإن عنصرا آخر سيدخل حلبة المنافسة ممثلا في العنصر التركي الذي استقدمه المعتصم[١٨]. وسلمهم مقاليد الجيش فنما عددهم وقويت شوكتهم، فاشتدت محنة أهل بغداد وضايقوا أهلها. يقول المسعودي: «كانت الأتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها بالخيول في الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لإمرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير، فعزم المعتصم على النقلة معهم... فلم يزل يتخير الأماكن من دجلة وغيرها حتى انتهى الى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموضع[١٩].

لقد كره أهل بغداد مجيئهم اذ كانوا شؤما عليهم في حلهم وترحالهم، فلما أقاموا بينهم كانت خيولهم تصيب الضعفاء والمرضى، ولما رحلوا عنهم الى القاطول ثم سامراء أثّر ذلك أثراً سيئا في بغداد من حيث تجارتها وحضارتها... وأخذ المحدثون يضعون الأحاديث في ذم الترك تعبيراً عن شعورهم وشعور الناس، فرووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الترك أول من يسلب أمتي ماخولوا» وعن ابن عباس انه قال: «ليكونن الملك ــ أو

---

(١٧) مازالت هذه الوسيلة يعمل بها في بعض الدول العربية وخصوصاً في العراق، حيث يعدم بعض التجار وتستحوذ الدولة على ممتلكاتهم بمبررات سياسية واهية.

(١٨) يقال أن سبب استقدام المعتصم للأتراك هو أن أمه كانت من تلك الأصقاع التركية ، فقد كانت من السغد واسمها ماردة ، وكان في طباعه كثير من طباع هؤلاء الأتراك .

(١٩) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٨٣م ، ج٤ ص٥٣ .

الخلافة ــ في ولدي حتى يغلب على عزهم الحمر الوجوه، الذين كأن وجوههم المجان المطرقة»... وكان مما فعله المعتصم متمما لإعتماده على الأتراك أن كتب الى واليه على مصر كيدر، واسمه نصر بن عبدالله، يأمره باسقاط من في الديوان من العرب، وقطع أعطياتهم[٢٠].

وهذا الصراع القومي العنصري الذي عرفته الساحة الاسلامية في عصر أحمد سيكون له تأثيره الكبير على القضايا العلمية. كما أن شعور العرب بشكل عام بتراجع دورهم السياسي والاجتماعي والعسكري سيدفع البعض للقيام بحركة مناهضة، خصوصا على مستوى الفكر. حيث نشرت أحاديث متعددة في مدح العرب ونُسبت ا لى الرسول(ص) منها، قوله(ص): «أحب العرب لثلاث، لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان الجنة عربي». وغيرها من الأحاديث التي تمجد العرب وترفع من شأنهم. وقد اعتبرت عروبة أحمد بن حنبل فيما بعد منقبة نشرها أصحابه واعتزوا بها، بل جعلها بعضهم إحدى المرجحات الأساسية لإتباع مذهبه.

ومن الأحداث المهمة الأخرى التي عايشها أحمد بن حنبل، بل وارتبط إسمه بها هذه المرة أكثر من غيرها. قضية أو فتنة «خلق القرآن» التي استطاع المعتزلة ان يقنعوا بها المأمون، فتبناها وحاول فرضها على الفقهاء والعلماء، خصوصا من كان منهم ضمن السلك القضائي أو في مدارس الدولة أو تحت إشرافها. ومسألة القول بخلق القرآن ليست وليدة عصر المأمون، فقد أعلنها أول مرة كما تقول كتب علم الكلام، الجعد بن درهم وقتل بسببها على يد خالد بن عبدالله القسري والي العراق في عهد الامويين. وبقيت هذه الفكرة بعد مبتدعها في طي الكتمان حتى ازدهر الفكر الإعتزالي ونشطت حركته في العهد العباسي.

---

(٢٠) أحمد أمين، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥، ١٩٦٩م، ج١ ، ص٧ - ٨.

والمعتزلة وإن كانوا يؤمنون بخلق القرآن ويعتقدون ذلك، فإن عدم مؤازرة خلفاء بني العباس قبل المأمون لهم كانت حاجزا يمنعهم من نشرها. كانت مسألة صفة كلام الله وارتباطها بخلق القرآن من أهم المسائل التي فجرها المعتزلة وعضدهم الخليفة المأمون، فدعوا الفقهاء وعلماء أهل الحديث الى اعتناقها، فكانت المحنة التي أودت بحياة بعض الفقهاء والمحدثين. وتعرض البعض الآخر منهم للضرب والتنكيل والسجن، كان من بينهم أحمد بن حنبل الذي سيكشف زوال هذه المحنة زمن المتوكل على شهرته وزعامته لطائفة أهل الحديث.

وهناك قضايا أخرى أثارها المأمون وتبعه فيها من جاء بعده لكنها لم تشتهر عنه كما اشتهرت مسألة خلق القرآن. من هذه القضايا انتصاره للعلويين بعدما نكل بهم آباؤه وأجداده. فكان يحن إليهم ويصلهم بالعطايا، وسبب ذلك يرجع لحبه الإمام علي بن أبي طالب. فقد كان يحبه ويفضله على جميع الصحابة، وقد أمَرَ مناديه أن ينادي بأن أفضل الخلق بعد رسول الله(ص) علي بن أبي طالب. وأن لايذكر معاوية بخير[21]. بل إن حبه للعلويين سيدفعه الى محاولة إرجاع الخلافة لهم. فقد أخذ البيعة للإمام الرضا ثامن أئمة الشيعة الامامية من بعده، رغم رفض الامام(ع) لها. ومهما تكن الأسباب والدوافع الحقيقية لهذا الفعل، لكن أثره سيكون عميقا فيمابعد لأنه سيعضد فكرة إغتصاب الخلافة ودعوى الإمامية بأحقيتهم في الولاية والإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وفي (سنة ٢١٠هـ) أمر المأمون برد فدك الى أولاد فاطمة عليها السلام وكتب بذلك الى قثم بن جعفر عامله على المدينة كتاب

(٢١) أسد حيدر، ج٣ ص٤٩٠. وفي سنة ٣١٣هـ نادى منادي المأمون برأت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأمر بلعنه على المنابر فأعظم الناس ذلك وأكبروه واضطربت العامة منه فأشير عليه بترك ذلك فأعرض عما كان هم به. أنظر مروج الذهب، ج٤.

يقول فيه:

«أما بعد فإن أمير المؤمنين بمكانته من دين الله وخلافة رسول الله، والقرابة به أولى من إستن ونفذ أمره وسلم لمن منحه منحة وتصدق عليه بصدقة، منحته وصدقته بالله توفيق أميرالمؤمنين وعصمته وإليه في العمل بما يقربه إليه رغبته، وكان رسول الله(ص) أعطى فاطمة بنت رسول الله فدكا وتصدق بها عليها، وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفاً لا اختلاف فيه بين آل رسول الله(ص) ولم تدعي منه ماهو أولى به من صدق عليه، فرأي أمير المؤمنين أن يردها الى ورثتها، ويُسلمها اليهم تقربا الى الله بإقامة حقه وعدله، والى رسول الله بتنفيذ أمره وصدقته، فأمر بإثبات ذلك في دواوينه والكتاب به الى عماله، فلئن كان ينادي في كل موسم بعد أن قبض الله نبيه ان يذكر كل من كانت له صدقة أو هبة أو عدة فيقبل قوله وتنفذ عدته. ان فاطمة لأولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله لها، وقد كتب أميرالمؤمنين (أي المأمون) الى المبارك الطبري مولاه، برد فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة اليها من الرقيق والغلاة...»[٢٢].

وهذا الفعل من المأمون انما هو طعن مباشر في ما رواه أبو بكر الصديق الخليفة الاول وصدقه عمر بن الخطاب عندما روى عن الرسول(ص) «نحن معاشر الانبياء لانورث وماتركناه صدقة» فأخذا من فاطمة فدكا فخاصمتهما وماتت وهي غضبانة عليهما وأوصت بأن لايحضرا جنازتها، فعمل الإمام

---

(٢٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤٦ ، بتوسط أسد حيدر . وقد سبقه في ذلك الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، فقد رد فدك الى أبناء فاطمة ، وهذا العمل والفعل من الخليفتين إنما هو رد على أبي بكر وعمر ورفض لإدعائهما بورود حديث نبوي جاء به أبو بكر من أن الأنبياء لايورثون وما تركوه صدقة . ولا شك أن فعلهما طعن مباشر في صدق الصحابيين وعدلهما، وهذا يؤكد ويعضد دعوى الإمام علي وفاطمة والشيعة الإمامية كافة في حق فاطمة واغتصاب الخليفتين فدكاً منها ظلماً وعدوانا أو اجتهاداً خاطئاً كما يحلو للبعض أن يعبر عنه .

علي بوصيتها ودفنها ليلاً.

إن الإنتصار لأبناء علي واحترامهم من طرف المأمون والمعتصم والواثق سيغير من نظرة المجتمع نحوهم وهذا سيظهر جليا عندما سيعلن الامام أحمد بن حنبل التربيع بعلي، أي كونه الخليفة الرابع، فقد كان جل أهل الحديث قبله عثمانية لايعترفون بخلافة الإمام علي. وهذه من عقائد الأمويين التي تسربت لأهل الحديث فاعتنقوها ودافعوا عنها حتى نقضها أحمد، يقول وزيرة بن محمد الحمصي: دخلت على أبي عبدالله أحمد بن حنبل حين أظهر التربيع بعلي رضي الله عنه فقلت: يا أبا عبدالله إن هذه اللفظة توجب الطعن على طلحة والزبير فقال: بئس ماقلت ومانحن وحرب القوم وذكرها؟ فقلت أصلحك الله انما ذكرناها حين ربعت بعلي وأوجبت له الخلافة وما يجب للأئمة قبله. فقال لي: وما يمنعنا من ذلك؟ قال: قلت: حديث ابن عمر: فقال لي: عمر خير من ابنه قد رضي عليا للخلافة على المسلمين و أدخله في الشورى. وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قد سمى نفسه أمير المؤمنين فأقول أنا ليس بأمير المؤمنين؟ فانصرفت عنه.[٢٣].

وهذا الحوار الذي دار بين أحمد وبين أحد أصحابه من أهل الحديث، يظهر لنا مدى الانحراف الذي أصاب الاسلام، حتى يعترف رجال الحديث بخلافة إبن الطليق معاوية بن أبي سفيان الذي يشك أهل التحقيق في إيمانه. وقد أمر المأمون بلعنه لما وصل عنه من أخبار تنم عن كفره. لكنه الحشو وعقائده التي جعلت من الكافر مؤمنا ومن المؤمن فاسقا، لذلك نعتقد أن حركة المأمون هذه لرد الاعتبار للعلويين ولأئمتهم ولفاطمة الزهراء عليها السلام قد جعلت بعضا من رجال الحديث يعيدون النظر في معتقداتهم ومايروره في مدح خصوم أهل البيت وتقديمهم. وقد قام أحمد بن حنبل

(٢٣) ابن أبي يعلى الفراء، طبقات الحنابلة، المكتبة العربية. دمشق ط١، ص٣٥٩.

بنصرة القول بخلافة الإمام علي وصحتها. بل انه ذهب الى أبعد من ذلك حين قال: من لم يربع بعلي بن أبي طالب في الخلافة فلاتكلموه ولاتناكحوه[٢٤].

واذا كان أحمد قد اشتهر أمره بعد ذلك وعلت مكانته، حتى ان من أنكر عليه أحمد نبذه الناس، ومن مدحه أقبل عليه الناس وعظموه، فإن قوله بالتربيع واعتقاده به جعل بقية المحدثين يهابون معارضته في ذلك. فقل القول بخلاف ذلك، وتراجع مع الزمن حتى ساد القول بالتربيع لدى أغلب المحدثين بعد ذلك، والى يومنا هذا.

واذا كان ا لمأمون قد أعاد الإعتبار للعلويين وقربهم ورفع بعض الظلم عنهم فإن المتوكل، قد عرف ببغضه لأهل البيت ومطاردته لمحبيهم، وقتل زعمائهم. وكان لاتأخذه في ذلك رحمة، ولايمنعه خوف من الله. ومن يتهم بميله للعلويين فإن مصيره القتل أو السجن المؤبد. حتى ظهر النصب في عصره وانتشر بغض أهل البيت في أيامه، وتقرب الكثير بذم أهل البيت ومحبيهم، طلباً لرفده وطمعاً في صلته[٢٥].

وقد سعي بأبي الحسن علي بن محمد ـ الإمام العاشر(ع) ـ الى المتوكل، وقيل له: إن في منزله سلاحا وكتبا وغيرها من شيعته، فوجه إليه ليلا من الأتراك وغيرهم من هجم عليه في منزله على غفلة ممن في داره، فوجده في بيت وحده مغلق عليه وعليه مدرعة من شعر، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى وعلى رأسه ملحفة من الصوف متوجها الى ربه يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد، فأخذ على ما وجد عليه، وحمل الى المتوكل في جوف الليل، فمثل بين يديه والمتوكل يشرب وفي يده كأس، فلما رآه أعظمه وأجلسه الى جنبه، ولم يكن في منزله شيء مما قيل فيه. ولاحالة يتعلل عليه

(٢٤) المرجع نفسه ، ص٢٢ .

(٢٥) أسد حيدر ، ج٢ ص٤٩٧ .

بها، فناوله المتوكل الكأس الذي في يده، فقال: ياأمير المؤمنين، ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني منه، فعافاه. وقال: انشدني شعراً أستحسنه. فقال: إني لقليل الرواية للأشعار، فقال: لابدّ أن تنشدني فأنشده:

باتوا على قلل الجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم ... فأودعوا حفراً يابئس مانزلوا
ناداهم صارخ من بعد ماقبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحضنهم ... ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا ... فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة ... وساكنوها الى الأجداث قد رحلوا

قال: فأشفق كل من حضر على عليّ، وظن أن بادرة تبدو منه إليه[٢٦].

في هذا العصر ولد أحمد بن حنبل وشب واشتغل بالعلم وطلب الحديث. ولما انفجرت فتنة خلق القرآن كان أحد أبطالها الذين صبروا علىماابتلوا به، ولما انفرجت الأزمة، اشتهر أمره وعقدت له زعامة أهل الحديث. ولما توفي إصْطنع له مذهب في الأصول والفروع ودعي العامة الى تقليده، وانتصر له بعض العلماء ممن سينسبون الى مذهبه، وسيسمون بـ «الحنابلة». وأضيف مذهبه الى باقي المذاهب الفقهية التي انتشر تقليدها بين الجماهير المسلمة طيلة قرون خلت والى الآن.

***

(٢٦) مروج الذهب، ج٤ ص ٩٣ - ٩٤.

أحمد بن حنبل حياته ونبوغه العلمي

□ مولده ووفاته :

هو الإمام أحمد بن حنبل أبوعبدالله الشيباني ثم المروزي ثم البغدادي، حملت به أمه بمرو وقدمت بغداد وهي حامل به فولدته في ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة وكان أبوه محمد والي سرخس، وكان من أبناء الدعوة العباسية(٢٧). توفي أبوه وهو ابن ثلاث سنين فكفلته أمه. قال صالح عن أبيه: فثقبت أذني وجعلت فيها لؤلؤتين فلما كبرت دفعتهما إلي فبعتهما بثلاثين درهما.

توفي أبوعبدالله أحمد بن حنبل يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين و مائتين وله من العمر سبع وسبعين سنة رحمه الله(٢٨). ودفن بباب حرب في الجانب الغربي، وصلى عليه محمد بن طاهر. وقبره ظاهر مشهور يزار ويتبرك به(٢٩). وقد حضر جنازته خلق من الناس لم يرَ مثل ذلك اليوم و الإجتماع في جنازته من سلف قبله. وكان للعامة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس والضد في الأمور: منها أن رجلا منهم كان ينادي: إلعنوا الواقف عند الشبهات، وهذا بالضد عما جاء عن صاحب الشريعة عليه السلام في ذلك. وكان عظيم من عظمائهم ومقدم فيهم يقف موقفا بعد موقف أمام الجنازة وينادي بأعلى صوته:

(٢٧) الشيخ محمد جميل المعروف بابن الشطي ، مختصر طبقات الحنابلة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ط١ ١٩٨٦م ، ص٨ .

(٢٨) إبن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٠ ص٣٤٠ .

(٢٩) مختصر طبقات الحنابلة ، ص١٤ .

وأظلمت الدنيا لفقد محمد   وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

يريد بذلك أن الدنيا اظلمت عند وفاة محمد عليه الصلاة والسلام، وأنها أظلمت عند موت بن حنبل. كظلمتها عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم[٣٠] وقال رجل يكنى بأبي جعفر: دفنا اليوم سادس خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبدالعزيز وأحمد بن حنبل[٣١].

أما الوركاني جار أحمد فقد ادعى أنه: أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألف من اليهود والنصارى والمجوس. قال السبكي في طبقاته الكبرى وذكر هذه الرواية وفي لفظ عشرة آلاف قال شيخنا الذهبي: وهي حكاية منكرة تفرد بها الوركاني والراوي عنه، قال والعقل يحيل أن يقع مثل هذا الحادث في بغداد ولا يرويه جماعة تتوفر دواعيهم على نقل ما هو دونه بكثير. وكيف يقع مثل هذا الأمر ولا يذكره المروذي ولا صالح بن أحمد ولا عبدالله ولا حنبل الذين حكوا من أخبار أبي عبدالله جزئيات كثيرة. قال فوالله لو أسلم يوم موته عشرة أنفس لكان عظيماً ينبغي أن يرويه نحو من عشرة أنفس[٣٢].

وكثير من مثل هذه الأساطير والمبالغات سينسجها العوام حول حياة أحمد بن حنبل وورعه وعلمه ومذهبه، في الأصول والفروع مما لم يعرف مثله باقي الأئمة قبله. وسنعرض لها لاحقاً، لأن بعضها سيصبح معتمد الحنابلة ليس فقط في ترجيح المذهب على غيره ولكن في الحكم على من خالف أصول المذهب أو فروعه بالخروج عن الإسلام ككل.

---

(٣٠) مروج الذهب، ج٤ ص١٠٢.

(٣١) المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب، ص١٩٨. نقلا عن حلية الأولياء.

(٣٢) طبقات الحنابلة، ص٩، الهامش.

□ رحلته العلمية وشيوخه:

ذكر المؤرخون ان بداية طلب أحمد للعلوم ترجع الى سنة ١٧٩هـ. وقد كان في حداثته يختلف الى مجلس القاضي أبي يوسف، ثم ترك ذلك واقبل على سماع الحديث(٣٣). يقول عباس الدوري: سمعت أحمد يقول: أول ما طلبت إختلفت الى أبي يوسف القاضي(٣٤). أما أول شيخ تلقى عليه العلم فهو هشيم بن بشير السلمي(٣٥). المتوفي سنة ١٨٣هـ، أبو معاوية الواسطي نزل بغداد وكان مدلسا. استغرقت دراسة أحمد على هشيم ثلاث سنوات أو أكثر. وقد رحل أحمد في طلب الحديث الى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والعراق، وممن تلقى عليهم: سفيان بن عيينة، وإبراهيم بن سعيد، ويحيى بن سعيد القطان المتوفي سنة ١٩٨هـ. ووكيع المتوفي سنة ١٩٦هـ. وابن علية المتوفي سنة ١٩٣هـ. وابن مهدي المتوفي سنة ١٩٨هـ. وعبدالرزاق ابن همام المتوفي سنة ٢١١هـ، وجرير بن عبدالحميد المتوفي سنة ١٨٨هـ، وغيرهم. واجتمع أحمد بالشافعي وأخذ عنه الفقه وأصوله، وبدأت علاقاته به في سنة ١٩٠هـ، حين قدم الشافعي بغداد. ودام هذا الإتصال الى سنة ١٩٧هـ. وهي السنة التي توجه فيها الشافعي الى مكة(٣٦).

واذا كان القاضي أبو يوسف أول شخصية تلقى أحمد على يديها دروسه الأولى، فإن شيخه هشيم بن بشير هو الذي تولى الإهتمام به ووجهه نحو

---

(٣٣) البداية والنهاية، ج١٠ ص٣٤٠.

(٣٤) محمد بن إبراهيم اليماني، العواصم والقواصم، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢، ١٩٩٢م ص٢٣٤.

(٣٥) كان هشيم بخاري الأصل، وقد أقام أبوه في واسط، وكان طباخاً للحجاج بن يوسف، ولما انتقلت أسرته الى بغداد كان يصطنع هذه الصناعة. فلما نزع ابنه منزع العلم لم يكن ذلك مألوفاً في أسرته. وقد تلقى هشيم عن بعض التابعين كعمر بن دينار والزهري والمغيرة بن المقسم وغيرهم. وقد اختص به أحمد مدة طويلة قبل ان يتصل بالشافعي.

(٣٦) أسد حيدر، ج٤، ص٤٧٣.

السنة وجعله أحد طلابها. ومؤرخو الحنابلة يخلطون في ذكر شيوخ أحمد، ويجعلون بعضهم من تلامذته كالشافعي ويزيد بن هارون والحسن بن موسى الأشيب وغيرهم. وأغلب هؤلاء المشايخ كانوا من رجال الحديث. إلاّ أبو يوسف فهو من أهل الفقه والقياس، وصاحب أبي جنيفة ومؤسس مذهبه وناشره. وقد كان لأحمد بن حنبل مشايخ وأساتذة آخرون من الشيعة، حيث كانت له صلة يبعضهم فأخذ عنهم رغم أن الجو العام كان مشبعاً بالعداء للشيعة أو الروافض كما كان يطلق على بعضهم.

يحدثنا الخطيب البغدادي، أن عبدالرحمان بن صالح الشيعي(٣٧) كان يغشى أحمد بن حنبل فيقربه أحمد ويدينه، فقيل له: ياأبا عبدالله عبدالرحمان رافضي. فقال سبحان الله؟ رجل أحب قوماً من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله نقول له لا تحبهم: هو ثقة(٣٨).

أما العلماء الذين أخذ عنهم أحمد، فقد ذكر علماء الرجال كثيراً من رجال الشيعة كانوا من شيوخ أحمد، وكذلك ذكرهم ابن الجوزي في مناقب أحمد منهم.

١ـ أسماعيل بن ابان الأزدي أبو أسحاق الكوفي، المتوفي سنة٢٠٥هـ. وهو من شيوخ البخاري وابن معين أيضا.

٢ـ إسحاق بن منصور السلوي أبو عبدالرحمان الكوفي، المتوفي سنة٢٠٥هـ، وقد خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

٣ـ تليد بن سليمان المحاربي أبو سليمان الكوفي، المتوفي سنة١٩٠هـ. روى

(٣٧) هو عبد الرحمن بن صالح أبو محمد الأزدي ، المتوفي سنة ٢٣٠هـ . كان من أهل العلم . سكن بغداد وكتب عنه أهلها ، قال محمد بن موسى : رأيت يحيى بن معين جالساً في دهليز عبد الرحمن غير مرة، يخرج إليه أجزاء يكتب منها عنه . وقال يحيى : عبد الرحمن بن صالح ثقة صدوق شيعي ، لأن يخر من السماء أحب إليه من أن يكذب في نصف حرف .

(٣٨) تاريخ بغداد ، ج١٠ ، ص ٢٦٠.

له الترمذي في صحيحه وقال أحمد: ان مذهبه التشيع ولم أرَ به بأساً.

٤ـ الحسين بن الحسن الفزاري أبو عبدالله الأشقر الكوفي، المتوفي سنة٢٠٨هـ، خرج حديثه النسائي.

٥ـ خالد بن مخلد القطواني أبو الهيثم، المتوفي سنة٢١٣هـ، كان من كبار شيوخ البخاري وخرج حديثه في صحيحه، ومسلم والنسائي ومالك بن أنس في مسنده.

٦ـ سعيد بن هيثم بن رشد الهلالي ابو معمر الكوفي، المتوفي سنة١٨٠هـ، خرج حديثه الترمذي والنسائي وابن ماجة.

٧ـ عبدالله بن داود أبو عبدالرحمان الهمداني، المتوفي سنة٢١٢هـ، خرج حديثه البخاري وأبو داود والترمذي وقال فيه أحمد، هو أثبت من شريك وقال ابن سعد: كان ثقة يرحل إليه.

٨ـ عبيدالله بن موسى العبسي أبو محمد الكوفي، المتوفي سنة٢١٣هـ، صاحب المسند خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

٩ـ عبدالرزاق بن همام الصنعاني المتوفي سنة٢١١هـ، من كبار شيوخ أحمد والبخاري خرج حديثه أصحاب الصحاح.

١٠ـ عباد بن العوام بن عمر بن عبدالله بن المنذر الواسطي، المتوفي سنة١٨٥هـ، قال ابن سعد: كان يتشيع وكان من نبلاء الرجال. وقد حبسه الرشيد زماناً ثم خلى عنه وأقام ببغداد وسمع منه البغداديون وهو من رجال الصحاح الستة.

١١ـ محمد بن فضيل بن غزوان الضبي، أبو عبدالرحمان الكوفي، المتوفي سنة١٩٥هـ، وهو مصنف كتاب الزهد والدعاء، قال أحمد بن حنبل: محمد بن فضيل حسن الحديث شيعي. وخرج حديثه أصحاب الصحاح.

١٢ـ عائذ بن حبيب الملاحي، المتوفي سنة١٩٠هـ، بياع الأقمشة الهروي خرج له النسائي وابن ماجة.

١٣- علي بن غراب الفزاري أبو الحسن الكوفي، المتوفي سنة١٨٤هـ، سُئِلَ عنه أحمد بن حنبل فقال: حديثه حديث أهل الصدق. وخرج حديثه النسائي وابن ماجة.

١٤- علي بن هاشم بن البريد العابدي، مولاهم أبو الحسن الكوفي المتوفي سنة١٨٠هـ، خرج حديثه البخاري في الأدب المفرد. ومسلم في صحيحه والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو داود.

١٥- علي بن الجعد أبو الحسن الهاشمي مولاهم البغدادي الجوهري المتوفي سنة٢٣٠هـ، روى له البخاري وغيره.

١٦- الفضل بن دكين المعروف بأبي نعيم، المتوفي سنة٢١٩هـ، من رجال الصحاح الستة، وهو شيخ البخاري وأحمد وابن معين واسحاق قال فيه أحمد: الفضل ثقة يقضان عارف بالحديث.

١٧- محمد بن عبدالله بن الزبير بن عمر ابو احمد الأسدي الزبيري مولاهم المكي، المتوفي سنة٢٠٢هـ.

وقد نص ابن قتيبة في معارفه على تشيع جماعة هم من كبار شيوخ أحمد أمثال: يحيى بن سعيد القطان المتوفي سنة١٩٨هـ، ووكيع بن الجراح المتوفي سنة ١٩٧هـ وحميد بن عبد الرحمن الرواسي المتوفي سنة١٩٠هـ وهيثم بن بشير الواسطي المتوفي سنة١٨٣هـ، وغيرهم[٣٩].

كما أن الإمام أحمد أخذ العلم عن جماعة من تلامذة الإمام الصادق عليه

---

(٣٩) ابن قتيبة ، المعارف ، ص٣٢٥ . أنظر هذا العدد من مشايخ الإمام أحمد من الشيعة وهو يعرفهم ، ويأتي بعده الحشوية ممن يدعي الإنتساب إليه ليقول بأن الشيعة يهود سبئيون فكيف غاب عن أحمد ذلك؟ وكيف اتخذ شيوخاً وأساتذة ممن يأخذ عقائده من اليهود وابن سبأ ، وقد ذكر أحمد حينما عيب عليه تقريبه لعبد الرحمن بن صالح الشيعي كونه رافضي فرد أحمد قائلاً كما يروي البغدادي : أنه رجل أحب قوماً من أهل بيت النبي وهو ثقة . وهذا يلقي الضوء على عقائد هؤلاء المحدثين وأنهم كانوا يطلقون لقب الرافض على كل من أحب أهل البيت فلسنا ندري هل كانوا هم يبغضونهم أم ماذا !.

السلام والمنتمين لمدرسته، أمثال إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن الزهري المتوفي سنة١٨٣هـ، وإبراهيم بن زياد المتوفي سنة٢٢٨هـ، وجرير بن عبد الحميد المتوفي سنة١٨٨هـ، ومكي بن إبراهيم المتوفي سنة٢١٥هـ، والضحاك بن مخلد الشيباني أبو عاصم النبيل المتوفي سنة٢٣١هـ، وغير هؤلاء، عدد كبير من الذين عُرفوا بالتشيع وانتسبوا لمدرسة أهل البيت(٤٠).

ومعرفة أحمد بن حنبل وأخذه عن هؤلاء الأعلام من محدثي الشيعة وأعلامهم، قد يكون السبب في معرفة أحمد بالتشيع واطلاعه على فضائل الإمام علي ومظلوميته، فكان أن إتخذ موقفاً متميزاً بخصوصه حيث أعلن التربيع، أي الإعتراف بالإمام علي كخليفة شرعي رابع بعد الخلفاء الثلاثة. وهذا الكلام قد لا يفهمه بعض أبناء الصحوة اليوم فإنهم درجوا على معرفة الخلفاء الأربعة، وأنهم الخلفاء الراشدون، ولم يعلموا أن أغلب المحدثين من غير الشيعة كانوا لا يرونه خليفة، وذلك تماشياً مع عقائد ملوك بني أمية، وبعض ملوك بني العباس الذين رفضوا خلافته عليه السلام.

أولاً لأن الإيمان بخلافته يدعم ما تذهب اليه طوائف الشيعة المعارضة للحكم الأموي والعباسي، ثانيا الإيمان بخلافته يفتح الباب واسعاً للطعن على معاوية، وسحب الشرعية منه ومن جميع ملوك بني أمية والعباسيين من بعدهم. مما قد يفتح الباب على مصراعيه، ليس لنقاش مشكلة الشرعية الدينية لدى الأسرتين الأموية والعباسية. وإنما قد تطال خيوط هذه المشكلة خلافة الخلفاء الثلاث الأُول. لذلك كان أغلب المحدثين عثمانيّة وأموية، وخصوصاً الحشوية منهم. ولمّا جاء أحمد بن حنبل واشتهر أمره وعُرفت عقيدته تمكن بذلك أن يعلن التربيع، وأن يعتبر الإمام علي الخليفة الرابع، ولم يستطع أحد أن يقف في وجهه فانتشر ذلك وعم. حتى أصبح جزءاً من عقائد القوم بعدما

---

(٤٠) أسد حيدر، ج ٢، صفحات ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦.

كان هذا الإعتراف محسوباً من عقائد طوائف الشيعة فقط.

بل إن أحمد بن حنبل قد اتخذ موقفا صارما ممن لا يرى خلافة الإمام علي، عندما قال: من لم يربع بعلي بن أبي طالب في الخلافة فلاتكلموه ولاتناكحوه. وبذلك انقمع كثير من أهل الحديث عن مقالتهم التي كانوا يعتقدونها. فطمس ذلك واندثر ونُسي، حتى لقد جاء بعدهم من اعتبر القول بشرعية وصحة خلافة الخلفاء الأربعة من أصول أهل السنة والجماعة. مبتدع من خالفها، يُخاف عليه أن يسقط في الكفر وتلفظه جماعة المسلمين.

ولأحمد بن حنبل موقف آخر يخص الإمام علي وأهل بيته، عندما روى لهم في مسنده، وتتبع فضائلهم، بل خصهم بتأليف خاص بهم سماه مسند أهل البيت. كما أنه تجرأ في رواية فضائل الإمام علي وأعلنها... فعن محمد بن منصور الطوسي قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول ما روي في فضائل أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأسانيد الصحاح ماروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٤١].

وقد أثارت رواياته عن علي بن أبي طالب بعض الاعتراضات لدى من كان متشبعا بعقائد الأمويين. قال محمد بن منصور الطوسي: كنا عند أحمد بن حنبل فقال له رجل يا أبا عبدالله ماتقول في الحديث الذي روي أن عليا قال: أنا قسيم النار فقال: وما تنكرون من ذا؟ أليس روينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: لايحبك الاّ مؤمن ولا يبغضك الاّ منافق؟ قلنا: بلى قال: فأين المؤمن؟ قلنا: في الجنة قال: فأين المنافق؟ قلنا في النار قال: فعلي قسيم النار[٤٢].

إن هذا الكلام له خطورته التي سيلتفت اليها البعض. فإن القول بصحة هذا الحديث يعني الطعن على معاوية بن أبي سفيان مباشرة، وهو أحد كبار

---

(٤١) طبقات الحنابلة، ص٣٣٥.

(٤٢) المرجع نفسه، ص٢٣٢.

المبغضين لعلي وقد أمر بلعنه، ولعنه الأمويون (٨٠ سنة) باستثناء عمر بن عبد العزيز الذي أبطل في عهده هذا التقليد.

كما ويتم الطعن في عدد من الصحابة الذين حاربهم الإمام علي واشتهروا ببغضهم إياه، وأهل بيته. ولاننسى ان المتوكل نفسه كان يُعلن بغضه للامام علي، واعتبره بعض المؤرخين ناصبياً خالصاً وهو في حكم الكافر.

وقد روي عن أحمد بن حنبل غير ذلك بخصوص الإمام علي، قال عبدالله: قلت لأبي (أحمد بن حنبل) ماتقول في التفضيل؟ قال في الخلافة: أبوبكر وعمر وعثمان، فقلت: فعلي؟ قال: يابني علي بن أبي طالب من أهل البيت لايقاس بهم أحد. وعنه أيضا قال: كنت بين يدي أبي جالسا ذات يوم فجاءت طائفة من الكرخية، فذكروا خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، وخلافة علي بن أبي طالب، فزادوا وأطالوا، فرفع أبي رأسه اليهم فقال، ياهؤلاء قد أكثرتم القول في علي والخلافة. إن الخلافة لم تزين عليا بل علي زينها[٤٣].

ليس معنى هذا أن أحمد بن حنبل كان علويا، أو يرى أحقية علي بن أبي طالب في الخلافة دون غيره، أو مثل أبي حنيفة الذي كان هواه مع الثوار العلويين في عصره. لقد كان أحمد عباسي الميل السياسي، ويرى أن العباس

---

(٤٣) مناقب أحمد لأبن الجوزي، ص١٦٣. يقول صاحب العواصم والقواصم: «هذا دليل على شدة موالاته لأهل البيت وقيامه بحق القرابة. وقد وصفه بذلك الإمام المنصور بالله، فقال في المجموع المنصوري في الدعوة العامة الى جيلان وديلمان ما لفظه: وأما أحمد بن حنبل، فيكفيك في الإستقصاء عن أمره أنه ذكر له الحديث المطرق بعلي بن موسى بن جعفر، قال: أخبرني موسى العبد الصالح عن أبيه جعفر بن محمد الصادق باقر علم الأنبياء، عن أبيه علي بن الحسين زين العابدين، عن أبيه الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة، عن أبيه علي بن أبي طالب سيد العرب، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيد الأولين والآخرين، أنه قال: «الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح». فذكر هذا السند لأحمد بن حنبل فقال: «لو قُرِيء هذا على مجنون لبرء من جنونه» انظر ج٤ ص٢٥٩.

أبو الخلفاء ولم يخلع طاعتهم رغم ما تعرض له من تنكيل ومضايقة من طرف ثلاثة ملوك منهم، (المأمون والمعتصم و الواثق). لكن موقفه من المتوكل كان فيه بعض التناقض فهو وإن كان يؤمن بشرعية خلافته وضرورة اطاعته والتسليم له، إلا أنه كان يرفض صلاته ويفر منها فراره من الأسد. بل كان ينهى أهله وأقاربه وخصوصا ابنه عبدالله عن أخذ ما يبعثه المتوكل من أموال، ولقد اعتبر ذلك شدة ورع منه وتجنبا للحرام؟!.

إن هذا الموقف لأحمد من علي بن أبي طالب عليه السلام وأهل بيته والذي بدا معتدلا ومتميزا في تلك الفترة، التي كان بغض علي وأهل بيته رائجا فيها ومما يتقرب به الى الخلفاء، قد جعل بعضا من علماء الشيعة وعامتهم ينظرون اليه بنوع من الإحترام. وقد ذكر لنا التاريخ أن بعضا من الهاشميين قد شارك في جنازته وتغسيله وتشيعه حتى قال بعضهم: لقد غلبنا على تغسيل أحمد الهاشميون.

طبعا يجب الإنتباه الى شيء مهم، وهو أن مواقف أحمد بن حنبل جاءت بعد شهرته وانتشار صيته، وبعدما أصبحت له مكانة خاصة لدى السلطان والعامة. فلم يكن لأحمد شهرة تذكر قبل انفراج الأزمة، لوجود عدد من كبار المحدثين، من هم شيوخه وأساتذته. كما أن محنة خلق القرآن التي تورط فيها المعتزلة لم تكن لتخص أحمد بن حنبل بل طالت عدداً كبيراً من الفقهاء والمحدثين، ومنهم من قدم حياته جراء موقفه المخالف. ومنهم من نكل به وضرب وسجن ومات في السجن، ومنهم من لم يفرج عنه إلا زمن المتوكل. وبما ان اسم أحمد وشهرته قد ارتبطت بهذه المحنة، وغالى الحنابلة في وصفها وانشأوا القصص والأساطير حولها، وكثرت المبالغات، صبوا جلها في رافد مذهب إمامهم، وجعلوا ذلك مقياسا للأفضلية والإتباع. فسنعرض لهذه المحنة حتى نعرف مكانة أحمد بن حنبل فيها. كما دونتها وقائع التاريخ العام بعيدا عن الغلو والزيادات التي عرف بها أتباع المذهب الحنبلي ماضيا وحاضراً.

□ أحمد بن حنبل ومحنة خلق القرآن :

قلنا سابقا أن مسألة خلق القرآن ظهرت أواخر العهد الأموي على يد الجعد بن درهم الذي قُتل من أجلها. ولما تأسس مذهب الإعتزال كانت مسألة خلق القرآن إحدى عقائد المعتزلة، لكنهم لم يجرؤوا على نشرها. إلى أن جاء عصر المأمون، الذي كان يميل الى الفلسفة والفكر الحر. فقرب المعتزلة وجعل علماءهم أصحاب مشورته وبطانته، واقتنع بالكثير من عقائدهم. ومنها مسألة خلق القرآن.

واذا كان المعتزلة يرون أن القرآن مخلوق، فقد أمر المأمون بحمل العلماء والفقهاء على القول بذلك. فتحرك ولاته واستدعوا كل من عرف لديهم من الفقهاء والمحدثين والعلماء وعرضوا عليهم اعتناق فكرة خلق القرآن. لقد أرسل المأمون كتابا الى والي بغداد إسحاق بن ابراهيم يأمره بامتحان الفقهاء والمحدثين، وأن يعرض عليهم الايمان والقول بخلق القرآن وأن يحملهم على ذلك ويرغمهم عليه.

□ رسائل المأمون لامتحان الفقهاء والعلماء :

يقول المأمون في كتابه الأول، يشرح فيه سبب حمله الناس على القول بخلق القرآن: «أما بعد: فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الإجتهاد في إقامة دين الله الذي إستحفظهم، ومواريث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيتهم، والتشهير لطاعة الله فيهم... وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لانظر له ولا روية ولا إستدلال له بدلالة الله وهدايته، والإستضاء بنور العلم وبرهانه في جميع الأخطار والآفات أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوا كنه معرفته ويفرقوا

بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكر والتذكر، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ماأنزل من القرآن فاطبقوا مجتمعين واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه...

وقد قال الله عزوجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء وللمؤمنين رحمة وهدى ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا...﴾ [الزخرف: آية٣]. فكل ما جعله الله فقد خلقه. وقال: ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور...﴾ [الأنعام: آية١]. وقال عزوجل: ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾ [طه: آية٤٩]. فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا به متقدمها. وقال تعالى: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [فصلت: آية١ـ٢]. وكل محكم مفصل فله مُحكم ومفصل والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه. ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا الى قولهم ونسبوا أنفسهم الى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة. وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله والتقشف لغير دين الله الى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سيء آرائهم تزيناً بذلك عندهم وتصنعاً للرئاسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق الى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة الى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهاداتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمهم وفساد نياتهم ويقينهم، وكان ذلك غايتهم التي إليها أجروا واياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه، أولائك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب

أقفالها.

فرأى أميرالمؤمنين أن أولائك شر الأمة، ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد حظاً والمخسوسون من الإيمان نصيبا، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق في أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين الله. وحق على من يتهم في صدقه وتطرح شهادته ولايوثق بقوله ولاعمله، فإنه لاعمل إلا بعد يقين، ولايقين إلا بعد إستكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد... الى أن يقول: فأجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أميرالمؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلم أن أميرالمؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لايوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه. فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره، والإمتناع من توقيعها عنده. واكتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك، ثم اشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لاتنفذ أحكام الله الا بشهادة أهل البصائر في الدين والاخلاص للتوحيد، واكتب الى أميرالمؤمنين بما يكون في ذلك ان شاء الله... وكتب في شهر ربيع الأول (سنة ٢١٨هـ)[٤٤].

وجاء في رسالته الثانية لنفس الوالي: «... وكان كل شيء دونه خلقا من خلقه وحدثا هو المحدث له وان كان القرآن ناطقا به ودالا عليه وقاطعا للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى في إدعائهم في عيسى بن مريم أنه

---

(٤٤) محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٢، ١٩٨١م، الكتاب ٢: ص٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧.

ليس بمخلوق اذ كان كلمة الله[٤٥] والله عزوجل يقول: ﴿انا جعلناه قرآنا عربيا﴾ [الزخرف: آية٣] وتأويل ذلك انا خلقناه، كما قال جل جلاله: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن اليها﴾ [الأعراف: آية١٨٩]. وقال: ﴿وجعلنا الليل لباسا والنهار معاشا﴾ [النبأ: آية١٠]. ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾: [الأنبياء: آية٣]. فسوى عزوجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في مشيئة الصنعة، وأخبر أنه جاعله وحده فقال: ﴿وانه لقرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ [البروج: ٢٢] وقال لنبيه محمد(ص) ﴿ولاتحرك به لسانك لتعجل به﴾ [القيامة: آية١٦]. وقال: ﴿ومايأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ [الأنبياء: آية٢]، وقال: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته﴾ [الانعام: آية٢١]. وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا: ﴿وما أنزل الله على بشر من شيء﴾ [الانعام: آية٩١]. ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ [الانعام آية: ٩١] فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكراً وإيمانا ونوراً وهدى ومباركا وعربيا وقصصاً...

فأقرأ على جعفر بن عيسى وعبدالرحمان بن اسحاق القاضي كتاب أميرالمؤمنين بما كتب به اليك وانصحهما من علمهما في القرآن واعلمهما أن أمير المؤمنين لايستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق باخلاصه

(٤٥) يقول محمد أبو زهرة: «والمعتزلة مع ذلك يعتقدون أن الحق الذي لا شك فيه هو ما يقررون، ومن قال مقالة المحدثين فقوله يؤدي الى ما يضاهي قول النصارى في المسيح، والى الحكم بتعدد القدماء». ويقول أيضاً: «ولعله مما جال بخاطر أولائك المعتزلة أن ترويج فكرة قدم القرآن أو القول بعدم خلقه التي تؤدي الى القول بالقدم باعتباره كلام الله تعالى فكرة مسيحية، دست بين جماهير المسلمين فيما كان يدس فيهم من أفكار. وقد تلقاها الجمهور بالقبول لما فيها من تقديس للقرآن الكريم». ويضيف قائلاً: «ولقد قال الحافظ في رسالته التي تسمى النصارى - وهو معتزلي - أن الكائدين للإسلام يرتضون القول بعدم خلق القرآن، ويرحبون بمقالة الفقهاء والمحدثين، ويتمنون ان تروج عند العامة الذين يسيرون وراء أولئك المحدثين». أنظر المذاهب الإسلامية، ص٢٦١ ـ ٢٦٢.

وتوحيده وأنه لاتوحيد لمن لايقر أن القرآن مخلوق...

وفي رسالة جوابية من المأمون الى إسحاق بن إبراهيم بعد أن نفذ أوامره وامتحن القضاة وأرسل له محضراً عن اجابتهم. تكلم المأمون فيما وصله من اسحاق وذكر عرضه بعض الفقهاء والعلماء على الامتحان وامساك بعضهم عن الخوض في هذه المسألة. مثل بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدي، فأمر المأمون واليه أن يستتيبهم وأن يعرضهم على السيف إن هم أبوا القول بخلق القرآن.

«... وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوام وقوله انه لايُحسن الجواب في القرآن فاعلمه أنه صبي في عقله لا في سنه جاهل وأنه إن كان لايحسن الجواب في القرآن فسيحسنه اذا أخذه التأديب، ثم ان يفعل كان السيف من وراء ذلك ان شاء الله. وأما أحمد بن حنبل وماتكتب عنه فاعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها واستدل على جهله وآفته بها[٤٦].

لقد تعمدنا ايراد هذه النصوص على طولها وذلك لإعتبارها وثائق تاريخية يمكن الإعتماد عليها في تجلية الموقف بكل وضوح، فمن خلال الرسالة الاولى للمأمون يظهر أن حمله الفقهاء والمحدثين على القول بخلق القرآن هو انتشار مقولة كونه ـ أي القرآن ـ قديما. وهو يصف فئة ماتنشر هذه الفكرة ويصفهم بأنهم يضاهون قول النصارى بادعائهم أن عيسى قديم لانه كلمة الله. وعليه تصبح دعوة المأمون هذه انما هي دفاع عن عقائد الإسلام تجاه هذه الشرذمة. والواقع ان المخاطبين لايعدو ان يكونوا أهل الحديث خاصة الحشوية منهم. وسيظهر ذلك بعد انفراج المحنة وانتصار هذه الفئة بالذات وغلوها في هذه المسألة، لدرجة اعتبار الكتابة والجلد الذي يكتب عليه القرآن أزليان.

(٤٦) المرجع السابق ، ص٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ٣٣٤ .

كما تضمنت هذه الرسائل التاريخية مجمل حجج القول بخلق القرآن وأغلبها نقلية. وإن كان للمعتزلة آراء عقلية للدفاع عن خلق القرآن فإن ذلك لايظهر في هذه الرسائل، ولربما كان ذلك متعمداً وخصوصاً وأن المخاطبين بهذه الحجج لايعترفون للعقل بأي سلطان في فهم الدين أو تقريره، لذلك جاءت الحجج، مجموعة من الآيات القرآنية التي يُفهم منها ان القرآن مخلوق. وليس قديماً كما كان يعتقد أصحاب الحديث وغيرهم من العامة. وقد جاء الخطاب موجها لهذه الفئة شديد اللهجة متهما إياهم بالضلال والشرك والكفر وانهم منحرفون عقائدياً. فإما التوبة والرجوع الى الحق، أي القول بخلق القرآن، وإما السيف؟!.

واذا كانت الرسائل قد ذكرت بعضا من أسماء الممتحنين، فقد جاء ذكر أحمد بن حنبل من ضمنهم، حيث وصفته الرسالة بأنه جاهل، وأن المأمون سمع مقالته التي اعتذر بها. وفي الأخير أمر المأمون واليه أن يشخص إليه من أبى من المحدثين والفقهاء أن يعترف بخلق القرآن.

لقد اعترف مجموعة من المحدثين والعلماء بخلق القرآن سواء اعتقاداً منهم بصحة ذلك، أو خوفا من السيف أو مصانعة كما ذهب ابن كثير لذلك، خوفا على مناصبهم أو مكانتهم العلمية. لان وكما جاء في رسالة المأمون، فقد أمر واليه أن يمنع أي فقيه أو عالم من الإفتاء أو التحديث في المساجد أو إمتهان القضاء، اذا لم يكن ممن يؤمن بخلق القرآن. وهذا القول لابن كثير فيه بعض من الصحة، والمأمون نفسه انتبه لذلك فهو يقول عن سعدويه الواسطي الذي اعترف بخلق القرآن: «قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرئاسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب منها متى امتحن فيجلس للحديث[٤٧].

ومن الذين اعترفوا بخلق القرآن نذكر المحدث الكبير وشيخ أحمد

(٤٧) نفسه ، ص٣٣٣ .

والبخاري يحيى بن معين، ولم يكن ذلك الإعتراف إعتقاداً منه كما يقول أصحابه من أهل الحديث. حيث قالوا لم يرتد يحيى بن معين ولكنه خاف[٤٨]. واسماعيل بن أبي مسعود البصري، وعلي بن الجعد الهاشمي، وأبو حسان الزيادي وعلي بن مقاتل، وأبو معمر القطيفي وأحمد بن الجواري، ومحمد بن سعد الواقدي صاحب الطبقات، وغيرهم كثير.

ولما جمع ابراهيم بن اسحاق كافة الفقهاء والمحدثين وقرأ عليهم كتاب المأمون أجابه أغلبهم، إلا أحمد بن حنبل وسجادة والقواريري، ومحمد بن نوح، فأمر بهم اسحاق بن ابراهيم فشدوا في الحديد، فلما أصبحوا أعاد امتحانهم، فاعترف سجادة بخلق القرآن فأطلقه. وبعد يوم آخر أجاب القواريري بأن القرآن مخلوق فأخلى سبيله. ولم يبق الاّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح. فكتب حاكم بغداد الى المأمون بذلك فأمره بأن يشخص إليه أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح موثقين في الأغلال، ولمّا وصلا في طريقهما الى قرب الأنبار، وفي أثناء الطريق جاءهم نعي المأمون[٤٩].

وبذلك تنتهي أولى فصول المحنة لدى إبن حنبل وغيره. إلاّ ان المأمون وهو يجود بنفسه أوصى أخاه المعتصم بأن يتابع مسيرة الإمتحان وأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن، فامتثل المعتصم للوصية واستمرت فصول المحنة كأشد ماتكون، واستدعي أحمد بن حنبل من السجن ومثل أمام المعتصم وابن أبي دؤاد المعتزلي ومجموعة من الفقهاء والعلماء وبدأ امتحانه. لكن أحمد لم يُجب الخليفة فأعيد الى السجن وبقي ثلاثة أيام كل يوم يؤتى به فيمتحن فيرجع دون أن يقر بخلق القرآن. يقول المؤرخون ان المعتصم لما يئس منه، أمر بضربه بالسياط فضربه ثمانية وثلاثين وقيل أقل من ذلك. وبعد ذلك أطلق المعتصم سراحه ووصله. وقد اختلف في سبب ذلك بين قائل بأن أحمد

---

(٤٨) العواصم والقواصم، ج٤ ص٢٤٦ .

(٤٩) أسد حيدر، م ٢، ص٤٥٧ .

أجاب المعتصم واعترف بخلق القرآن لما قطعه إبن أبي داود وحار جوابا. ومنهم من ادعى ان العامة اجتمعوا على دار السلطان وشغبوا، فخاف المعتصم من الفتنة فأطلق سراحه. وهذا الإدعاء بعيد عن الواقع لقوة الدولة في عهد المعتصم. وقد امتُحن كبار العلماء ومن كانت لهم مكانة خاصة لدى العامة وقُتل بعضهم.

وسنعرض فيما بعد لبعض من امتحنوا مع أحمد ولم يستجيبوا لدعوة الخليفة فتعرضوا للضرب والتنكيل والقتل. وهذا لم يتعرض اليه أحمد الاّ قليلا. واذا اعتمدنا رسالة الجاحظ التي خاطب فيها أهل الحديث وذكر المحنة، وأحمد بن حنبل، فسنرى ان الرواية تختلف إختلافا كبيرا جدا. يقول الجاحظ:

وقد كان صاحبكم هذا (الامام أحمد) يقول: لاتقية الّا في دار الشرك، فلو كان ما أقرّ به من خلق القرآن، كان منه على وجه التقية، فلقد أعملها في دار الاسلام، وقد أكذب نفسه، وان كان مأقر به على الصحة والحقيقة فلستم منه وليس منكم، على أنه لم ير سيفا مشهوراً، ولاضرب ضرباً كثيراً، ولاضرب إلا بثلاثين سوطا مقطوعة الثمار، مشبعة الأطراف. حتى أفصح بالإقرار مراراً، ولاكان في مجلس ضيق ولاكانت حاله مؤيسة، ولاكان مثقلا بالحديد، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد.

ولقد كان ينازع بألين الكلام ويجيب بأغلظ الجواب، ويرزنون ويخف ويحلمون ويطيش(٥٠).

(٥٠) قال ابن خلكان : «ودعي الى القول بخلق القرآن أيام المعتصم وكان أميا لايقرأ ولايكتب فقال أحمد : «أنا رجل علمت علماً ولم أعلم فيه بهذا». فأحضر له الفقهاء فناظروه فلم يجب . فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع . وكان ضربه في العشر الأخيرة من شهر رمضان سنة ٢٢٠هـ ، وكانت مدة حبسه الى أن خلي عنه ثمانية وعشرين يوماً، وبقي الى أن مات المعتصم . فلما ولي الواثق منعه من الخروج من داره الى أن أخرجه المتوكل وخلع عليه ورفع المحنة في خلق القرآن» . أنظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ==

هذا ما أردنا إثباته من هذه الرسالة التي تعتبر وثيقة معاصرة نجت مما أتلفه أهل السنة من مؤلفات المعتزلة، وهي تدلنا على إقرار أحمد واعترافه بأن القرآن مخلوق، مؤيدة بما ذكره اليعقوبي في تاريخه:

وامتحن المعتصم أحمد بن حنبل في خلق القرآن، فقال أحمد: أنا رجل علمت علما ولم أعلم فيه بهذا، فأحضر الفقهاء وناظره عبدالرحمان بن اسحاق وغيره، فامتنع أن يقول أن القرآن مخلوق، فضرب عدة سياط، فقال إسحاق إبن ابراهيم: ولني ياأمير المؤمنين مناظرته، فقال: شأنك به فقال إسحاق:

هذا العلم الذي علمته نزل به عليك ملك أو علمته من الرجال؟.

فقال أحمد: بل علمته من الرجال.

فقال إسحاق، شيئا بعد شيء أو جملة.

قال: علمته شيئا بعد شيء.

قال إسحاق: فبقي عليك شيء لم تعلمه؟.

قال أحمد: بقي علي شيء لم أعلمه.

قال إسحاق: فهذا مما لم تعلمه، وعلمكه أمير المؤمنين.

قال أحمد: فإني أقول بقول أميرالمؤمنين.

قال إسحاق: في خلق القرآن.

قال أحمد: في خلق القرآن، فأشهد عليه وخلع عليه وأطلقه الى منزله.

هذا مايُستدل به على إجابة أحمد للمعتصم، من أقوال رجال هم أقرب الناس من عهده وأطلعهم على حوادثه(٥١).

لاشك أن القارىء قد لاحظ أن اسم ابن حنبل في رسالة المأمون كما في رسالة الجاحظ وماكتبه اليعقوبي، يُظهره شخصية ليست ذات شأن خطير،

== دار صادر ، بيروت ، ج١ ص٦٤ .

(٥١) أسد حيدر ، ج٤ ، ص٤٥٩ .

وأنه أمتحن كما أمتحن غيره، وان عذابه كان أقل من غيره خلافا لما يدعيه الحنابلة. كما لم يكن أحمد وحيد المحنة بل شاركه فيها جملة من شيوخه وعلماء عصره.

لقد أوذي كثير من العلماء في محنة القول بخلق القرآن، ولقي كثير منهم عنتا كثيرا. يقول صاحب النهج الاحمد: وقد يكون مالقيه بعض العلماء أكثر مما لقيه الامام أحمد بن حنبل، فالتاريخ يحدثنا أن قوما من العلماء امتحنوا بهذه المقالة فثبتوا على رأي أهل الحق، فأمر بادخالهم السجن، ويحدثنا التاريخ أنهم بقوا في السجن حتى إنتهى زمن المحنة كله ثم أطلق سراحهم، والتاريخ يحدثنا أن قوما آخرين ماتوا في السجن. والتاريخ يحدثنا أن إماما من هؤلاء الأئمة الأبرار دخل على الخليفة فامتحنه فتشدد في الإستمساك بالعروة الوثقى (؟) وأغلظ القول للخليفة ونال منه، فقتله الخليفة بيده...

كما يحدثنا الذهبي وغيره أن أبا نعيم الفضل بن دكني امتحن في هذه المحنة، وأنه وقف من الدعاة إليها موقفا عجيبا. وأنه قال حين سألوه عن رأيه: والله إن عنقي لأهون من زري هذا، ثم قطع زره ورماه، وقال عنه أحمد: لقد قام في أمر الإمتحان بما لم يقم به غيره[٥٢].

ويحدثنا الذهبي وغيره أن أبا عمر الحارث بن مسكين أخذ في المحنة وحبس دهراً طويلا، ولم يخرج من السجن حتى مات القائمون بها وأفضى الأمر الى المتوكل على الله فعرف له موقفه فأخرجه من السجن وولاه قضاء مصر[٥٣].

لذلك من الخطأ ان تقترن محنة خلق القرآن باسم أحمد بن حنبل فقط، ويغض الطرف عن غيره، وقد أصاب مقدم كتاب «النهج الأحمد» عندما

---

(٥٢) مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي ، النهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد ، عالم الكتب بيروت ، ط٢ ١٩٨٤م ، ج١ ص٢٥ .
(٥٣) المرجع السابق ، ج١ ص٢٦ .

قال: «لقد أنسي الناس قوما كان موقفهم مثل موقف أحمد أو قريبا منه فلم يعد هؤلاء يذكرون إلا في بطون التواريخ وعلى ألسنة الخاصة أو خاصة الخاصة من العلماء»(٥٤).

لكن ماسبب شهرة الامام أحمد دون غيره ممن امتحن ووقف مثل موقفه؟.

الحقيقة ان شهرة أحمد قد ارتبطت أولاً بانتصار المحدثين وأصحاب الأثر. ولما تولى المتوكل الخلافة أوقف الإمتحان، وأبعد المعتزلة من بطانته وقرب المحدثين وانتصر لهم وأغدق المال والجوائز على عدد كبير منهم، وأمر أن يجلس المحدثون في المساجد وينتصروا لمجمل عقائدهم، ليس فقط في مسألة خلق القرآن ولكن في الرؤية كذلك، والتي كانت المعتزلة تنكرها. (أي رؤية الله بالأبصار يوم القيامة)، لذلك فقد أدى الأمر الى تكبير المضطهدين، ونشر تفكيرهم ومبالغة الناس في أقوالهم(٥٥) فانطلقوا ينقضون عقائد الإعتزال، ويحاربون أصحابه بكل ما أوتوا من قوة ونفوذ، فانتشر القول بتكفير من قال بخلق القرآن واستحلال دمه. وبدأ عصر المعتزلة في الأفول شيئا فشيئا، ونجم المحدثين في الصعود والإشتهار، فالتف حولهم العامة ونصروهم واعتنقوا عقائدهم.

يقول أحمد أمين: ان السلطات الحكومية من عهد المتوكل قد تخلت عن نصرة المعتزلة وأغلب الناس يمالئون الحكومة أينما كانت ويخافون أن يعتنقوا مذهبا لاترضاه فهربوا من الإعتزال الى من يهاجم الإعتزال(٥٦).

وإذا كان وضع أحمد في المحنة كما ذكرنا، لم تكن له خصوصية تفرده عن غيره وتميزه. فلا حقيقة لتلك المبالغات والأساطير التي حاكها الحنابلة حول محنة أحمد وخطورة شأنها. قال محمد بن اسحاق: سمعت أبي

---

(٥٤) نفسه ، ص٢٧ .

(٥٥) المذاهب الإسلامية ، ص٢٦٣ .

(٥٦) ظهر الإسلام ، ج٤ ص٦٥ .

يقول: لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها لذهب الإسلام[٥٧]. ويرى علي بن المديني بأن الله أيد هذا الدين باثنين لاثالث لهما أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة... ثم لايلبث ابن المديني أن يقطع في الحماس لنفس الموضوع شوطا أبعد من ذلك حين يروي الميموني على لسانه أنه: ماقام أحد بأمر الاسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقام أحمد بن حنبل فقال له: يا أبا الحسن ولا أبو بكر؟ قال: ولا أبو بكر الصديق. إن أبا بكر كان له أعوان وأصحاب، وأحمد لم يكن له أعوان وأصحاب[٥٨].

ونختتم الكلام عن المحنة بقول محمد بن الحسن الثعالبي يقول:

فالمسألة (أي خلق القرآن) كانت سياسية أكثر منها دينية بدليل أن الخلاف الذي هولوا به في مسألة الكلام تبين أنه لفظي، اذ الصفات القائمة بذاته تعالى قديمة والمعتزلة لايقرون بقيام الصفات بالقديم فراراً من تعدد القدماء. والحروف والأصوات التي ننطق بها نحن حادثة وان تعصب بعض المنتسبين لإبن حنبل، فقالوا بقدمها، بل قالوا: ان الجلد وغلاف المصحف أزليان وهو جهل وعناد ومثله لايعد في آراء أهل العلم، فتبين أن لاخلاف إلاّ في إثبات قيام الصفات به تعالى...

ومن أعجب مايراه الناظر المتبصر في هذه المسألة أن ابن حنبل وحزبه تحرجوا أن يقولوا، أن القرآن مخلوق، لأنه لم يرد على النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن السلف الصالح وأنعم وأكرم بالوقوف عند حد ماورد. لكنهم أنفسهم لم يقفوا عند حد ماورد، بل قالوا: إنه غير مخلوق، وأنه قديم. وكلا اللفظين لم يردا أيضا، فكان الاعتراض مشترك الإلزام، بل ورد في القرآن ﴿مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾. ولعمري أنه لافرق بين محدث ومخلوق، بل إن الذي يقول إنه قديم، وأنه غير مخلوق هو الذي بظاهر

(٥٧) طبقات الحنابلة، ص٧.

(٥٨) مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص٤٣٢، نقلاً عن الطبقات ١ / ١٧.

كلامه يناقض الوارد وأن كان قصده صحيحا، لانه يريد المعنى القديم الذي هو صفة الحق سبحانه وهي قديمة كما ان من قال: مخلوق ومحدث يريد الأصوات والحروف، وعلى كل حال من كان حر الضمير واللسان يقف باهتا كيف وقع هذا الخلاف، وسفكت لأجله دماء. واستبيحت أعراض في لاشيء ماذاك إلا أنها مسائل سياسية طليت بطلاء الدين تمويها على المغفلين(٥٩).

وإذا علمنا أن سيرة أحمد الخاصة في ملبسه ومأكله، كانت دون شك سيرة رجل زاهد متقشف يتورع عن قبول جوائز الخليفة المتوكل ولايقبلها بحال، وينهى أهله عن أخذ شيء منها. اذا علمنا ذلك، فلاشك ان حلقات الريادة تكون قد اكتملت في شخصه، وفي الواقع الموضوعي المحيط به، ومن ثم كان أحمد بن حنبل وكان تلامذته وأتباعه فلم يبق الا أن يظهر لهذا المحدث مذهب في الفقه والأصول، صنع بعد وفاته من مواد فتاويه وآرائه وأقواله التي صحت عنه أو نسبت إليه.

قلنا إن أحمد بن حنبل لم يكن في زمانه وقبل المحنة متفرداً عن باقي أقرانه خصوصا في علم الحديث وروايته، بل كان في زمانه من كبار المحدثين وعلماء الحديث من كانوا شيوخا له، ويعترف لهم هو بالمكانة العلمية والسبق العلمي. وقد قيل لأبي داود: أحمد أعلم أم علي بن المديني؟ قال علي أعلم باختلاف الحديث من أحمد.

وقال أحمد بن حامد، سمعت رجاء بن جابر المرجي يقول: رأيت ابن حنبل وإسحاق، وابن المديني والشاذكوني، فما رأيت احفظ من عبدالله يعني عبدالله بن عبدالرحمان الدارمي المتوفي سنة ٢٥٠هـ، والذي كان يسميه أحمد بالسيد. وقال فيه ابن أبي حاتم انه إمام أهل زمانه(٦٠).

---

(٥٩) الفكر السامي، ج٢ ص ٢٠، ٢١.
(٦٠) تاريخ بغداد، ج١٠ ص٣١.

وقال أحمد: يحيى بن معين أعلمنا بالرجال. وقال ابن المديني: لانعلم أحداً كتب من الحديث ماكتب يحيى بن معين[٦١].

وقال أبوزرعة: مارأيت أحفظ من أبي بكر بن شيبة. فقال له ابن خداش: يا أبا زرعة فأصحابنا البغداديون؟ قال: دع أصحابك انهم أصحاب مخاريق مارأيت أحفظ من أبي بكر[٦٢]. وفي ترجمة عبدالله بن أحمد بن حنبل أن بعضهم قدمه على أبيه في الحفظ والسماع وعلل الحديث[٦٣].

وقال ابن المديني غير مرة، والله لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت بالله اني لم أر أحداً قط أعلم بالحديث من عبدالرحمان[٦٤].

وقال ابن المديني: أعلم الناس لقول الفقهاء السبعة الزهري ثم بعده مالك ثم بعده ابن مهدي[٦٥]. وقال أحمد في أبي الوليد الطيالسي: أبوالوليد اليوم شيخ الاسلام ما أقدم عليه من المحدثين أحداً. وقال أبو عمران الطرسوسي في أبي مسعود الرازي وماتحت أديم السماء أحفظ لأخبار رسول الله من أبي مسعود[٦٦]. وقال أبو الخصيب في البخاري، أنه أفقه وأبصر من ابن حنبل، وقال ابو عمر الخفاق: هو (أي البخاري) أعلم بالحديث من اسحاق وأحمد وغيرهما بعشرين درجة[٦٧].

وقال صالح بن محمد: أعلم من أدركت بالحديث وعلله علي بن المديني وأعلمهم بتصحيف المشايخ يحيى بن معين، وأحفظهم عند المذاكرة أبو بكر ابن شيبة[٦٨].

---

(٦١) تذكرة الحفاظ، ج٢ ص١٧ .
(٦٢) المرجع السابق، ص١٩ .
(٦٣) تاريخ بغداد، ج١ ص١٢٥ .
(٦٤) تذكرة الحفاظ، ج٢ ص١٩ .
(٦٥) نفس المرجع، ج١ ص٣٠٣ .
(٦٦) طبقات الحنابلة، ج١ ص٥٣ .
(٦٧) تهذيب التهذيب، ج٩ ص٦٧ .
(٦٨) تاريخ بغداد، ج١٠ ص٧٠ .

وقال إسحاق بن إبراهيم: إن الله لايستحي من الحق، أبو عبيد أعلم مني ومن أحمد والشافعي!.

وأبو عبيد هذا من طبقة أحمد وأقرانه، فإن وفاته سنة ٢٢٤هـ، وأما أبو اسحاق فهو المعروف بإبن راهويه المتولد سنة ١٦٤هـ، والمتوفي سنة ٢٣٨هـ، وهو في سن أحمد ومن أقرانه، وسئل أحمد عنه فقال: من مثل اسحاق. وقال النسائي: ابن راهويه أحد الأئمة، وقال ابن خزيمة: لو أن اسحاق بن ابراهيم كان في التابعين لأقروا له بحفظه وعلمه وفقهه. وقال محمد بن يحيى الذهبي إن اسحاق اجتمع بالرصافة مع أعلام الحديث منهم أحمد بن حنبل، ويحيى ابن معين وغيرهما فكان صدر المجلس لإسحاق[٦٩].

وقال ابراهيم بن أبي طالب سألت أبا قدامة عن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد، فقال: الشافعي أفهمهم الاّ انه قليل الحديث، وأحمد أورعهم، واسحاق أحفظهم وأبو عبيد أعلمهم بلغات العرب[٧٠]. وقال أحمد بن حنبل: لاأعلم لإسحاق بالعراق نظيراً[٧١].

من خلال آراء العلماء والمحدثين في بعضهم البعض ورأيهم في بعض الأئمة وكذا أحمد بن حنبل. نرى أن شخصية إبن حنبل لم تكن ذات شأن كبير بالمقارنة مع أقرانه من مشايخ وعلماء الحديث. فهناك من هو أعلم منه وأفهم، وكذا أحفظ منه للحديث ومعرفة بعلله وكذا جمعه وفقهه. ونحن ليس غرضنا التقليل من شأن الرجل أو الحط من مكانته العلمية، ولكن بيان حقيقة هذه المكانة العلمية. لأن الإختلاف حولها سينفجر في الأوساط العلمية عندما سيحاول أصحابه تأسيس مذهب فقهي وأصولي، ومحاولة نسبته إليه. فكان الخلاف يدور بين العلماء وأصحابه أولا حول مكانة أحمد الفقهية، حيث

(٦٩) تاريخ بغداد، ج٦ ص٣٥٣.

(٧٠) تهذيب التهذيب، ج٨ ص٣١٦.

(٧١) تذكرة الحفاظ، ج٢ ص٢٠، بتوسط أسد حيدر، ص٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ بتصرف.

اعترف أغلبهم بكونه محدثاً، ورفضوا أن يكون أحمد فقيها كمالك وأبو حنيفة والشافعي.

كما وأثيرت الشكوك الكثيرة حول الآراء والأفكار والفتاوى التي نسبها أصحاب أحمد له، وجعلوها لبنات مذهبه، فقد شكك المحققون ومايزالون في صحة هذه النسبة. ولم يكن هذا التشكيك نابعا من عداء مذهبي لأحمد بن حنبل. فأغلب من طرح تلك الشكوك واعتمدها يلتقي مع أحمد في الكثير من العقائد والأصول، وانما جاء تشكيكهم كبحث علمي أثارته بعض العقائد المنسوبة لأحمد. وكذا الإختلاف الكبير في فقهه الذي دوّنه أصحابه.

لقد انحصرت تلك الشكوك في مسألتين رئيسيتين:

الأولى: إن أحمد بن حنبل ليس فقيها.

الثانية: عدم صحة كل مانسب اليه من تراث فقهي.وعقائدي، وذلك لتناقضه وتضارب الأفكار والآراء فيه تضاربا واختلافا كبيراً.

□ أحمد بن حنبل ليس فقيها:

لم يعتبر كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين أحمد بن حنبل فقيها. وليس ذلك لكونهم يعادون الرجل أو يقللون من مكانته العلمية، ولكن الحقيقة التي عرفها أغلبهم، ان أحمد بن حنبل طلب الحديث وجَمَعَهُ ورواه، وكان مشهورا بروايته والتحديث به. كما أَلّفَ فيه كتبا. وهذا لا خلاف فيه بينهم. أما كونه من الفقهاء وأن له مذهبا فقهيا خاصا به كما يذهب أصحابه، فهذا مالم يوافقوا عليه.

يقول الثعالبي، لم يعتبر ابن جرير الطبري في الخلافيات مذهب ابن حنبل، وكان يقول انما هو رجل حديث لا رجل فقه، وامتحن في ذلك. وقد أهمل مذهبه كثير ممن صنفوا في الخلافيات كالطحاوي والدبوسي والنسفي في منظومته. والعلاء السمرقندي والفراهي (المتوفي سنة ٦٤٠) الحنفي أحد علماء

المائة السابعة في منظومته ذات العقدين وكذلك أبو محمد عبدالله ابن ابراهيم الأصيلي المالكي في كتابه «الدلائل» والغزالي في «الوجيز» وأبو البركات النسفي في «الوافي»، ولم يذكره ابن قتيبة في «المعارف» وذكره المقدسي في «أحسن التقاسيم» في أصحاب الحديث فقط مع ذكر داود الظاهري في الفقهاء، واعتبره كثير من المتقدمين كالإمام الترمذي في جامعه، فإنه مع عدم ذكره لأبي حنيفة و صاحبه الاّ نادراً أو في جملة عموم الكوفيين ينص على مذهبه بالخصوص، واعتبره كثير من المتأخرين أيضا منهم ابن هبيرة الحنبلي في كتابه «مذاهب الأشراف» الذي ألّفه في مسائل الخلاف بين الأئمة الأربعة وغيره. وقال في المدارك انه دون الأصالة في الفقه وجودة النظر في مأخذه عكس أستاذه الشافعي[٧٢].

اذاً من خلال هذا النص نرى أن جملة من العلماء لم يعترفوا لأحمد بالإمامة في الفقه، وأغلبهم ممن جاء بعده مثل الطحاوي والدبوسي والنسفي والعلاء السمرقندي و الفراهي وكذا الغزالي وابن قتيبة. وعدم اعتراف هؤلاء العلماء بكونه فقيها، فيه إشارة واضحة ليس لكون أحمد فعلا لم يشتهر بالفقه، ولكن اشارة الى أن المذهب الحنبلي الذي سيعترف به المتأخرون. لم يكن له في عهد هؤلاء الأعلام شأن يذكر، كما هو الوضع بالنسبة لباقي المذاهب الفقهية الثلاثة الأخرى.

نحن نعلم ان أصحاب أحمد وعلى رأسهم الخلال[٧٣] باشروا في تأسيس

---

(٧٢) الفكر السامي ، ص٢٥ ، ٢٦ .

(٧٣) جمع الخلال سائر ما عند هؤلاء من أقوال أحمد وفتاويه وكلامه في العلل والرجال والفقه والفروع حتى حصل عنده من ذلك ما لايوصف كثرة ورحل الى النواحي في تحصيله . وكتب عن نحو من مائة نفس من أصحاب الإمام . ثم كتب كثيراً من ذلك عن أصحاب أصحابه وبعضه عن رجل عن آخر عن آخر عن الإمام أحمد . ثم أخذ في ترتيب ذلك وتهذيبه وتبويبه . وعمل كتاب «العلم» وكتاب «العلل» وكتاب «السنة» كل أحد من الثلاثة في ثلاث مجلدات» . أنظر العواصم والقواصم ، م ٤ ص٢٥٢ ، ٢٥٣ . =

المذهب وجمع فتاوى صاحبه من أفواه الناس، بعد وفاة أحمد بفترة. ولكن المذهب احتاج لمدة أطول بكثير حتى تثبتت أركانه وهذبت فروعه ورتبت أبوابه، وجد الدعاة اليه في وضعه ضمن صف المذاهب الفقهية الأخرى لتقليد العامة، لذلك عندما ألف الطبري كتابه «اختلاف الفقهاء» ذكر فيه اختلاف مالك والأوزاعي والثوري والشافعي وأبي حنيفة مع أبي يوسف ومحمد ابن الحسن ثم أبي ثور، وذكر بعض فقهاء الصحابة والتابعين وأتباعهم الى أبناء المائة الثانية. ولم يذكر أحمد بن حنبل، فقصده الحنابلة وسألوه في ذلك فقال: لم يكن أحمد فقيها، انما كان محدثا، فأساء ذلك الحنابلة(٧٤).

ولما لم يعجبهم قوله هذا فقد وثبوا عليه ورموه بمحابرهم، ثم قذفوا داره بالحجارة الى أن تدخلت الشرطة واضطر الرجل حفاظا على نفسه أن يعتذر لهم. وعندما مات الطبري منع الاحتفال به ودفن في داره ليلا(٧٥). والطبري

= وإذا كان الحشوية قد كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و رووا الأحاديث الموضوعة عليه، فحدث ولا حرج كم أضيف لأحمد من كلام وأقوال، في العقائد خصوصاً، وهو منها بريء، وقد كان الرجل يجد شرفاً في ذلك أن يقول سألت أبا عبدالله وأجابني بكذا، لما عرفه أحمد من الشهرة .

(٧٤) مجلة «رسالة الإسلام» ، ج٣ ، السنة الثالثة ، ص : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٧٥) إسلام بلا مذاهب ، ص٤٣١ . يقول ياقوت الحموي في معجمه عن ابن جرير الطبري : «هو المحدث الفقيه المقريء . كان أحد أئمة العلماء ، يحكم بقوله ويرجع الى رأيه ، لمعرفته وفضله . وكان حافظاً لكتاب الله عزوجل ، عارفاً بالقرآن ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً بأحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها ، حتى قال فيه أبو حامد الإسفرايني الفقيه : «لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيراً» . رجل هذه منزلته ، ماذا كانت خاتمته؟ لقد دفن ليلاً خوفاً من العامة ، لأنه كان يتهم بالتشيع . كانت الحنابلة لا تترك أحداً يسمع عليه ، ولا ذنب له إلا أنه عندما ألف كتابه «اختلاف الفقهاء» لم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فأساء ذلك الحنابلة فرموه بالرفض وأهاجوا عليه العامة يوم وفاته . وعَدُّوا عليه هذه واحدة . أما الثانية فهي كما ذكر «كرن» في مقدمته لكتاب «اختلاف الفقهاء» واتجاهات المفسرين لجولد سيهر ، إذ يقول هذا: =

لم يكن عدوا لأحمد انما أرخ لواقع قد اطلع عليه، فأحمد كان راويا للحديث، وكان إذا سئل يُجيب بما يروي من أحاديث الرسول أو أقوال الصحابة والتابعين، ولم يشتهر أمره كفقيه. ولم يكن له أصحاب يدونون أقواله ويأخذون عنه مبانيه الفقهية وطرقه في الإستنباط، كما فعل غيره من أئمة الفقه.

لقد كان اعتراض الطبري وجيها، لم يجد معه الحنابلة جوابا سوى ارهابه والشغب عليه، حتى تدخلت الشرطة. لذلك نجد أن ابن خزيمة وهو أحد أئمة الحديث يقول عنه: ما أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة(٧٦).

واذا كان الطبري أعلم من على الأرض في عصره، فلا نظن أنه خفي عليه أمر أحمد، والحقيقة إذن أن أحمد لم يكن فقيها كما سيدعي أصحابه، لصناعة مذهب فقهي له. وإنما كان محدثا يجيب برواية الحديث والآية إذا سئل.

يقول المحقق جعفر السبحاني بعدما ذكر ان أحمد كان محدثا كبيراً ولم

= في الأقاليم التي تسود فيها آراء السنة ويعترف بها منهباً رسمياً تعتمد على جماهير الشعب الساذجة في محاربة الأقليات من أهل العقل مستغلة لهم في مناهضة هؤلاء الذين يحدثون الضوضاء حول تعاليم أهل السنة، وفي غالب الأحيان تصاحب حركات الجماهير القسوة والغلظة وأحياناً يأتون باعمال وحشية تذهب فيها أرواح الناس، فأية مسألة في تفسيره القرآن لاتجعل خاصة العلماء فقط فرقا ، بل تجعل الشعب الجاهل كذلك شيعاً وأحزاباً ، تتشاجر في الطرقات . وقد فهم الحنابلة المتعصبون هذه الغريزة في الجماهير التي لاتحسنُ النظر ، وعرفوا كيف يثيرونها ضد الثائرين من أهل البدع الدينية ، ويجعلون من ذلك نزاعاً يمس العقيدة . وقد كانت من نتيجة حملاتهم هذه ، الفتنة التي وقعت في بغداد . يقول ابن الأثير : «في هذه السنة توفي محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ ببغداد ، ودفن ليلاً بداره ، لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً ، وادعوا عليه الرفض ، ثم ادعوا عليه الإلحاد ، وكان علي بن عيسى يقول : «والله لو سئل هؤلاء عن الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه» . أنظر النهج الأحمد ، ج١ ، ص٣٨ .

(٧٦) النهج الأحمد ، ج١ ص٣٩ ، عن العبر للذهبي ، ج٢ ص ١٤٦ .

يكن فقيها مجتهداً: لأن «الإجتهاد بالمعنى المصطلح الذي كان يتمتع به سائر الأئمة لم يكن متوفرا فيه، إلا ببعض مراتبه الضئيلة التي لايصح عده معها أحد الأئمة الفقهاء، فإن للإجتهاد مؤهلات وشرائط محررة في محلها، أعظمها وجود ملكة قدسية يقتدر معها الانسان على استخراج الفروع عن الأصول. وأما الافتاء بالحكم في ضوء النص الصريح الوارد فيه فليس إلا مرتبة ضعيفة من الإجتهاد. والإجتهاد المطلق يستدعي ذهنا وقاداً مشققاً للفروع ومستخرجا إياها من الأصول، الى غير ذلك مما يقوم به أئمة الفقه.

والمعروف من الإمام أحمد غيرذلك فإن اجتهاده كان أشبه باجتهاد الإخباريين والمحدثين الذين يفتون بنص الحديث ويتوقفون في غير مورده[٧٧].

ومهما يكن فقد تداولت الأجيال هذه التهمة ـ كون أحمد ليس فقيها ـ وحاول الحنابلة جهدهم تفنيدها والدفاع عن فقاهة إمامهم. ومما يجعل الأمر أكثر تعقيدا بالنسبة لهم، أن هذا الكلام لايقول به أعداؤهم أو ممن هم خارج دائرة أهل السنة والجماعة، وانما قال به علماء وفقهاء هذا الفريق، وانتشر بين الطلبة والمدرسين. يقول ابن عقيل وهو فقيه حنبلي: جاء بعد عصر الامام أحمد ابن حنبل: «عجيب ماسمعته عن هؤلاء الأحداث الجهال إنهم يقولون: أحمد ليس فقيه، لكنه محدث. قال وهذا غاية الجهل، لأن له اختيارات بناها على الأحاديث بناء لايعرفه أكثرهم، وربما زاد على كبارهم... قلت: ما أحسبهم يظنونه محدثا وبس، بل يتخيلونه من بابة محدثي زماننا، والله لقد بلغ في الفقه خاصة رتبة الليث ومالك والشافعي، وأبي يوسف[٧٨].

أما نحن فلا نعتقد أن القسم بالله سيفيد الحنابلة في إثبات إمامة صاحبهم في الفقه، لأن القسم قد يكون كاذبا كما يكون صادقا. وهذه مسألة علمية لها واقعها الموضوعي، وهو تراث أحمد الفقهي وحصيلته العلمية. ولأن أصحاب

(٧٧) بحوث في الملل والنحل، ج١ ص٣١٣.

(٧٨) العواصم والقواصم، ج٤ ص٢٤٢، ٢٤٤.

المذاهب الفقهية الأخرى لم يحتاجوا الى القسم بالله العظيم لاثبات أن أئمتهم فقهاء. وانما اعتمدوا على تراثهم الفقهي والإجتهادي وسيرتهم التاريخية التي اشتهرت بين الناس.

اذا كانت هذه الشبهة لازمة لأحمد وسيرته العلمية وليس في مقدور الحنابلة أن يزحزحوها عنه بالطرق العلمية الموضوعية. فإن التراث الفقهي المنسوب له والذي تشكل منه مذهبه، سيعمق الأزمة من جديد. حيث عرض المحققون الكثير من الشبهات حول نسبة هذا الفقه لأحمد بن حنبل. وكثرت الاعتراضات قديما وحديثا حول هذا الكم الهائل من الآراء والاختيارات الفقهية والأصولية المضمنة فيما سمي «المذهب الحنبلي». وهذه الشكوك الجديدة والمختلفة عضدت ودعمت فكرة أن الإمام أحمد بن حنبل إنما كان محدثا مشهوراً ولم يكن فقيها أو مجتهداً بالمعنى الإصطلاحي لكلمة فقه وإجتهاد.

أما مذهبه الفقهي فإن مؤرخي الفكر الإسلامي العام عندما يتعرضون لمذهبه الفقهي فإنهم يتكلمون عن مجموعة فقهية منسوبة للإمام أحمد. وهذا التعبير لاتجده دارجا في وصفهم لباقي المذاهب الفقهية الاخرى[٧٩]. يقول الشيخ أبو زهرة: «ومهما يكن حكم العلماء على أحمد من حيث كونه فقيها فإن بين أيدينا مجموعة فقهية تنسب اليه. وروايات مختلفة ومتعددة ذات سند مرفوع تحكى عنه، وقد تلقاها العلماء بالقبول. وان كان بعضهم منذ القدم قد أثار حولها غباراً وان لم يحجبها، ولم يطمسها، فإن العين عند الدراسة تواجهه في كشف الحقيقة من ورائه[٨٠].

---

(٧٩) ممن ذكر مثل هذه العبارة الشيخ أبو زهرة ، وقد أكثر من إيرادها وهو يناقش فقه أحمد ، وإن كان قد إنتهى الى القول بأن هذه المجموعة الفقهية المنسوبة لأحمد قد انتهى العلماء والمتأخرون بقبولها . وكأن الموضوع قد إنتهى وطويت المشكلة بمجرد قبول المتأخرين لها. والحقيقة أن الدراسة لتاريخ المذاهب الإسلامية عامة ، الفقهية والأصولية ، يفجر الكثير من الإشكاليات المغضوض عنها طرفاً .

(٨٠) أبو زهرة ، أحمد بن حنبل : حياته وعصره ، ص١٥٥ .

المذهب الفقهي والأصولي المنسوب لأحمد بن حنبل

□ في الفقـــه:

أجمع المؤرخون على أن أحمد بن حنبل لم يصنف كتابا في الفقه يعد أصلا يؤخذ منه مذهبه، فلم يكتب إلا الحديث، وقد ذكر العلماء ان له بعض كتابات في موضوعات فقهية، منها المناسك الكبير، والمناسك الصغير، ورسالة صغيرة في الصلاة، كتبها الى إمام صلى هو وراءه فأساء في صلاته.

وهذه الكتابة هي أبواب قد توافر فيها الأثر، وليس فيها رأي أو قياس أو استنباط فقهي، بل إتباع لعمل، وفهم لنصوص، فرسالته في الصلاة، والمناسك الكبير والصغير، هي كتب حديث، وإن كانت في موضوعات مما تناولها الفقه بالبسط والشرح والتوضيح، ولكنها كأكثر العبادات أعمال نصوص صريحة، أو إتباع عمل مروي.

واذا كان أحمد لم يدون في الفقه كتابا ولم ينشر آراءه، ولم يملها على تلاميذه، كما كان يفعل أبو حنيفة، فإن الإعتماد في نقل فقهه كان على عمل تلامذته فقط، وهنا نجد كما نوهنا، الغبار يثار حول ذلك النقل من نواح عدة:

أولها: ان أحمد كان طول حياته يكره أن تنقل عنه الفتاوى أو تدون، أو تنشر باسمه كما أشرنا من قبل، ويروى في هذا أن أحمد بن الحسين بن حسان قال: «قال رجل لأبي عبدالله أريد أن اكتب هذه المسائل، فإني أخاف النسيان، فقال أحمد بن حنبل لاتكتب، فإني أكره أن أكتب رأيي، وأحس مرة بإنسان يكتب، ومعه ألواح في كمه، فقال: لاتكتب رأيا لعلي أقول

الساعة بمسألة، ثم أرجع غداً عنها»[٨١] واذا كان أحمد يكره أن تنقل عنه مسائل، وأن ماكتب كان بكراهة منه، أو خفية عنه، فإن المنقول لابدَّ أن يكون قليلا. واذا كان كثيرا، فالخطأ قريب راجع في العقل، وقد رويت عنه مسائل كثيرة لاتقل عما روى عن أبي حنيفة ومالك، فكانت تلك الكثرة مع هذا النص ذريعة الخطأ والرد.

ثانيها: أن بعض الصحابة الذين اكثروا من النقل عنه، والذين قد أثرت عنهم عبارات تدل على أنهم نشروا عن أحمد مسائل قبل أن يروه، فحرب الكرماني وهو ممن أكثر الرواية عن أحمد، ذكر انه نشر أربعة آلاف مسألة بالسماع قبل أن يراه، بل إن الذي روى هذا الفقه وهو أبو بكر الخلال يحكي أن المسائل التي رواها عن حرب، وهي أربعة آلاف هذه قد رواها حرب من غير تلق عن أحمد، وإليك نص مايقول الخلال: «قال لي: كنت أتصوف قديما، فلم أتقدم في السماع، وقال لي: هذه المسائل حفظتها قبل أن أقدم إلى أبي عبدالله، وقبل أن أقدم الى اسحاق بن راهويه، وقال لي: هي أربع آلاف عن أبي عبدالله، واسحاق بن راهويه، ولم أعدها»[٨٢].

واذا كان الخلال كما يقول الشيخ أبو زهرة وهو يعد كأسد بن الفرات وسحنون في رواية المذهب المالكي، قد روى مسائل لم يتلقها عن صاحبها وهو حي وأن عددها كبير جداً فمن حق العلم ان يتظنن في النقل، وألا يسلم من غير أن يزيل ذلك الريب.

ثالثها: إن المروي عن ذلك الامام الأثري الذي كان يتحفظ في الفتيا، فيقيد نفسه بالأثر، ويتوقف حيث لا أثر ولانص بشكل عام ـ ولايلجأ الى رأي إلاّ في الضرورة القصوى التي تلجئه الى الافتاء ـ كان المروي كثيراً جداً والأقوال المروية عنه متضاربة. وذلك لايتفق مع ماعرف عنه من عدم الفتوى

---

(٨١) طبقات الحنابلة ، ابن أبي يعلى ، ص١٧ .

(٨٢) نفس المرجع ، ص١٠٣ .

الا فيما يقع من المسائل، ولايفرض الفروض، ويشقق الفروع ويطرد العلل، ولقد كان يكثر من لا أدري ويقتدي بذلك بمالك وابن عيينة.

رابعها: ان أحمد قد اشتهر أنه رجع عن مسائل كثيرة نشرت عنه بخراسان فجردها من نسبتها اليه، فكيف ينسب إليه ما جرد نفسه منه، ونفاه، وأعلن انه ليس برأي له، وانه لايصح نقله عنه.

خامسها: ان الفقه المنقول عن أحمد قد تضاربت أقواله فيه تضاربا يصعب على العقل أن يقبل نسبة كل هذه الاقوال اليه! وافتح أي كتاب من كتب الحنابلة، واعمد الى أي باب من أبوابه تجده لايخلو من عدة مسائل اختلفت فيه الرواية بين لا ونعم، أي بين النفي المجرد، والاثبات المجرد - كما يقول الشيخ أبو زهرة -، ولنفتح مثلا كتاب الفروع. في باب من أبوابه، وقد وقع نظرنا على باب من أبواب الزكاة، وهو حكم الزيادة التي يأخذها جامع الزكاة. أتحتسب من زكاة العام المقبل أم لاتحتسب، ثم أتحتسب الهدايا للعامل من الزكاة أم لاتحتسب؟ فقال: «وإن أخذ الساعي فوق حقه اعتد بالزيادة من سنة ثانية، نص عليه، وقال أحمد رحمه الله يحسب ماأهداه للعامل من الزيادة، وعنه لايعتد بذلك...وان زاد في الخرص (اي التقدير بالظن) هل يحتسب بالزيادة من الزكاة؟ فيه روايتان»[٨٣].

وهكذا كلما سرت مطمئنا قليلا عثرت باختلاف الروايات كثيرا ثم محاولة التوفيق بتوفيق مقبول، وقريب أو بعيد، وأن ذلك من شأنه أن يثير الريب حول النسبة[٨٤]. إن هذه النقاط الخمس التي ذكرها الشيخ أبو زهرة بخصوص الفقه المنسوب لأحمد تعتبر من الاشكالات الوجيهة والتي لم يستطع الحنابلة الاجابة عنها بأجوبة علمية.

أما في مايخص الإختلاف وكثرة التناقض في الروايات المنسوبة لأحمد

(٨٣) الفروع ، ج١ ص٩٢٥ .

(٨٤) أحمد بن حنبل ، لأبي زهرة ، ص١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .

فيقول بعض الكتاب أن سبب ذلك يرجع الى أن أصحابه أخذوا آراءه الفقهية من أقواله وأفعاله وأجوبته ورواياته. وقد يكون أحمد بن حنبل قد أفتى في احدى الواقعات بما يتفق مع الأثر، ثم أفتى في أخرى تقارب الأولى ولكن اقترنت بأحوال وملابسات جعلت الأنسب أن يفتي فيها بما يخالف الأولى، وعندها يرى الرواة الإثنين وهم يحسبون أن بينهم تضاربا...

وقد يضطر (أحمد) الى القياس أي الرأي وأوجه الرأي مختلفة ومتضاربة، وقد يتعارض في نظره وجهان من أوجه الرأي ويذكر الإحتمالين فينسب الرواة اليه قولين. من أجل هذا اختلفت الآراء الفقهية المنسوبة اليه[٨٥].

والحقيقة ان هذا التخريج لأسباب الإختلاف والتناقض، فيه بعضا من الصواب كما ان فيه الكثير من التهافت والتلفيق، ويجعل من أحمد أحد الفقهاء المشتغلين بكثرة الفتوى والردود، والواقع التاريخي عكس ذلك تماما. فأحمد بن حنبل كان يبتعد كثيرا عن الافتاء. وانما أغلب أجوبته روايات ونقل للأخبار والأحاديث. وهذه لاينطبق عليها الاختلاف الكثير عند النقل كما هو موجود في الفتوى الفقهيه المبنية على الإجتهاد.

أما المعضلة الأخرى التي حيرت أرباب هذا المذهب والقيمين عليه. فتمثلت في إختلافهم في تفسير عبارات وردت على لسان أحمد في إجابته عن مسائل سئل عنها. فكانت عباراته ليست صريحة في اثبات الحرمة، أو في بيان أن الحكم هو الطلب على سبيل الوجوب أو على سبيل الندب، فمثلا كلمة «لاينبغي» في كثير من إجاباته، فقد ذكروا أنه يستحب فراق غير العفيفة واحتجوا بقول أحمد: لاينبغي أن يمسكها، فحملوا ذلك على الكراهة. ومسألة أبو طالب: عن الرجل يصلي الى القبر والحمام والحش.فقال أحمد: لاينبغي. قال أبوطالب، فإن كان؟ قال: يجزيه.

---

(٨٥) المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب، ج٣ ص ١٩٥، ١٩٦.

وسأله أبو طالب فيمن يقرأ في الأربع كلها بالحمد وسورة؟ قال: لاينبغي أن يفعل. فحملوا هذا على الكراهة، وكذلك قوله: أكره، أولا يعجبني، أو لا أحبه، أو استحسنه، حملوا ذلك كله على الكراهة، ومنهم من يحمله على الحرمة، وقد نقل ابن القيم الجوزية روايات كثيرة عن أحمد جاءت بلفظ الكراهة، والمقصود التحريم.

قال ابن أبي يعلي: وليست جوابات إمامنا في الأزمنة والأعصار إلا بمثابة مايروى عن النبي(ص) من الآثار، لايسقط نهايتها موجبات بدايتها إلا بأمر صريح بالنسخ أو التخفيف، فإذا عدم ذلك كان على موجبات رعايته، فكذلك في جواباته اذ العلماء انكروا على أصحاب الشافعي من حيث الجديد والعتيق، وانه اذا ثبت القول فلايرد إلا باليقين، فكذلك في جوابات إمامنا[٨٦].

إن وجود ألفاظ مثل: «يعجبني ولايعجبني وأكره ولاينبغي» بشكل غامض وغير محدد في أجوبة أحمد يدعم القول بكونه ليس فقيها متمرسا كباقي الأئمة، وإلا لاستخدم مصطلحات فقهية واضحة في فتاويه. ولكنه كان محدثا يحفظ مئات بل الألوف من الأحاديث. ولما اشتهر أمره بعد المحنة إنهال عليه العامة وقصدوه بأسألتهم فكان يجيب بطريقته الخاصة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى إذا كان أحمد كما يقول أصحابه كان لايفتي إلا اعتماداً على الأثر. لماذا وضع الحنابلة في حيرة عند ترجيح أقواله ومعرفة مايقصد به من قوله: يُعجبني ولاينبغي، لماذا لايرجع إلى الأثر لمعرفة حقيقة الأمر؟.

والواقع أن المطلع على سيرة هذا الرجل بتمعن وتأمل، يلاحظ أنه كان مجرد محدث يطلب العلم عبر حفظ الحديث ونشره وروايته. وأنه أُقحم في محنة خلق القرآن إقحاما، وقد إنفرجت هذه المحنة على إشتهاره، فوجد الخليفة

---

(٨٦) أسد حيدر، م ٢، ص ٥١١ ــ ٥١٢.

على بابه يبجله ويرفع مكانه ويعتمده وأصحابه كبديل عن المعتزلة الذين أثاروا تلك الفتنة. وتبعه العامة وطرقوا بابه واحتشدوا حوله، فوجد نفسه في زحمة الأحداث وقد أحاطت به الأسئلة من كل جانب فكان لابدّ أن يجيب عن بعضها، ومشت الأمور على عكس ما كان يرغب فيه هذا المحدث.

لذلك يمكننا أن نرجح أن ابن حنبل لربما جاء كضرورة تاريخية، خاصة بأهل الحديث الذين كانت تتجاذبهم مذاهب فقهية وأصولية شتى متفرقة ومتناقضة. فكان يراودهم حلم ما بظهور وبروز شخصية منهم تتوفر فيها الشروط الذاتية والموضوعية، لجمع شملهم ووضعهم تحت قيادة واحدة، وتنظيمهم في تيار موحد، يشبه مثلا مذهب الاعتزال. فكان أحمد بن حنبل وكان السعي الحثيث من طرف أهل الحديث لتحقيق هذا الهدف والتمني.

لقد كان أحمد محدثا وحافظا تستوعب ذاكرته آلاف الروايات، وكان لا يختلف في عقائده الأساسية مع أهل الحديث إلا ماكان من إيمانه بخلافة الإمام علي، وحب أهل بيته. فإن أصحاب الحديث كانت لهم مذاهب مختلفة في الامام علي، أكثرها اعتناقا عدم القول بإمامته. واذا كان تيار الحشو سائدا، بل غلب على أهل الحديث ومذاهبهم، وكانوا يتعرضون لغمز العلماء وانتقادهم، فقد ظهرت الفرصة سانحة مع أحمد بن حنبل، فبدأت أفواجهم بالإنضواء تحت مذهبه وإعلان انتسابها له، بعدما صُنع له مذهب في الأصول والفروع، ولم يعد الحشوية بعدها فرقة أو تيار ضمن أهل الحديث ولكن أصبح كل حنبلي موسوما بالحشوية، كما عرف كل حشوي بانتمائه لهذا المذهب.

□ في الأصـــول:

اذا كان العلماء قد ناقشوا نسبة أحمد الى الفقه ونفوا عنه أن يكون فقيها مجتهدا، كما شككوا في معظم مانسب اليه من فقه، فإن الصراع سيحتدم من جديد حول عقائد أحمد وماكان يؤمن به ويعتقده، فقد تضاربت الأقوال

المنسوبة اليه في العقائد. وكذلك هل كان أحمد مشبها ومجسما؟.

بعض العلماء من خارج المذهب الحنبلي وبعضهم من داخله ينفون نفيا قاطعا أن يكون أحمد على عقائد التشبيه أو التجسيم، كما هو الحال لدى الحشوية أتباع مذهبه. ويتذرعون بأن أحمد كان متبعا للسلف في عقائده، ولم يكن السلف مشبهة أو مجسمة. بل كان أغلبهم متوقفون مفوضة فيما يخص تأويل آيات الصفات الخبرية، التي قد يفهم من ظاهرها نوع ما من التشبيه أو التجسيم تعالى الله عن ذلك.

ولكن مابال هذه الأحاديث والأقوال التي يتداولها الحنابلة في كتبهم المعتمدة في العقائد. وهي تنضح بهذه الاسرائليات والموضوعات، وكيف تنسب لأحمد ومن ثم للسلف. الواقع أن انضواء جماهير المحدثين تحت لواء أحمد بن حنبل واحتمائهم أو تسترهم وراء مذهبه الذي صنعوه له قد جعلهم يحملون تراثهم الحديثي معهم، ومن ضمنه الحجم الهائل للروايات المحشوة فيه من عقائد التجسيم والتشبيه المتسربة اليهم من أهل الكتاب.

واذا علمنا أن أحمد بن حنبل نفسه قد روى كثيراً منها أو رويت عنه فلايبقى هناك مجال للشك في ان تراث الحشوية قد ضُم بالكامل الى مصادر المذهب الحنبلي وأصبح معتمد المقلدين. لذلك تعرض الحنابلة على طول التاريخ لتهمة التشبيه والتجسيم، ولم تنفك عنهم. ليس فقط من خصومهم. ولكن كذلك من بعض علماء هذا المذهب الذين اعتبروا تقليده في الفروع وتبنوا عقائد أهل السنة والجماعة من الأشاعرة في الأصول، أو تتلمذوا على عقائد الاعتزال والتصوف.

□ ابن حنبل وعقيدة التجسيم :

يقول صاحب الفكر السامي: قد رموه هو (أي ابن حنبل) وأصحابه بالحلول والتجسيم وبالجهة حيث قال بالفوقية والعلو الواردين في النصوص

وللإستواء، ونسبوا اليه القول بقدم الحروف والأصوات[٨٧]. والى تلك المعتقدات أشار الزمخشري في نظمه وهو يعرض لوصف المذاهب الاربعة. يقول عن المذهب الحنبلي:

وان حنبليا قلت قالوا بأنني ثقيل حلولي بغيض مجسم[٨٨]

ويقول الذهبي في كتابه «زغل العلوم» وقد ذكر الحنابلة وماينقم عليهم مالفظه: والعلماء يتكلمون في عقيدتهم ويرمونهم بالتجسيم، وبأنه يلزمهم، وهم بريئون من ذلك إلا نادراً[٨٩].

والحقيقة انهم كذلك إلا قليلا منهم، وقد عكس الذهبي الحقيقة والعلماء الذين ذكروهم لايفترون عليهم. ومنهم ابن الجوزي الحنبلي كما سيأتي.

ولقد انبرى كما قلت سابقا بعض العلماء لنفي هذه التهمة عن أحمد باعتباره رابع الأئمة المعترف بتقليدهم. ولكن محاولاتهم راحت أدراج الرياح. يقول الحشوية ان أحمد بن حنبل يقول كذا أو روي عنه كذا، ويقول غيرهم ان مايقولونه منكر من القول، لايصح أن ينسب لهذا الامام السلفي الأثري، لكنهم أصحابه وأقرب الناس إليه كما يدعون وأعلم بمذهبه من غيره. أليسوا هم من صنعه وأقام صرحه.

يقول الشيخ أبوزهرة: إن ابن تيمية يقرر أن مذهب السلف هو إثبات كل ماجاء في القرآن من فوقية وتحتية واستواء على العرش. ووجه ويد ومحبة وبغض. وماجاء في السنة من ذلك أيضا من غير تأويل، وبالظاهر الحرفي. فهل هذا مذهب السلف حقا؟.

ونقول في الإجابة عن ذلك: لقد سبقه بهذا الحنابلة في القرن الرابع الهجري كما بينا. وادعوا ان ذلك مذهب السلف، وناقشهم العلماء في ذلك

---

(٨٧) الفكر السامي، ج٢ ص٢٢.

(٨٨) المرجع نفس، ص٢٣.

(٨٩) العواصم والقواصم، ج٤ ــ ص٣٢٥.

الوقت وأثبتوا أن اعتقادهم هذا يؤدي الى التشبيه والجسمية لامحالة، وكيف لايؤدي إليهما، والإشارة الحسية إليه جائزة، ولذلك تصدى لهم الفقيه الحنبلي «ابن الجوزي» ونفى أن يكون ذلك مذهب السلف، ونفى أيضا أن يكون ذلك رأي «الإمام أحمد». يقول إبن الجوزي في ذلك:

رأيت من أصحابنا من تكلم في الأصول بما لايصح، فصنعوا كتبا شانوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا الى مرتبة العوام، فحملوا الصفات على مقتضى الحس، فسمعوا أن الله خلق آدم على صورته، فأثبتوا له صورة ووجهاً زائداً على الذات، وفماً ولهوات وأضراساً، وأضواء لوجه، ويدين واصبعين وكفا وخنصراً وإبهاما، وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين، وقالوا ماسمعنا بذكر الرأس، وقد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات، فسموها بالصفات تسمية مبتدعة، ولادليل لهم في ذلك من النقل ولا من العقل. ولم يلتفتوا الى النصوص الصارفة عن الظواهر من صفات الحدث. ولم يقنعوا ان يقولوا صفة فعل، حتى قالوا صفة ذات، ثم لما أثبتوا أنها صفات قالوا لانحملها على توجيه اللغة، مثل يد على نعمة وقدرة، ولامجيء وإتيان على معنى بر ولطف. ولاساق على شدة، بل قالوا نحملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو المعهود من نعوت الآدميين، والشيء إنما يحمل على حقيقته إن أمكن، فإن صرف صارف حمل على المجاز، ثم يتحرجون من التشبيه، ويأنفون من إضافته اليهم، ويقولون: نحن أهل السنة، وكلامهم صريح في التشبيه. وقد تبعهم خلق من العوام، وقد نصحت التابع والمتبوع، وقلت لهم يا أصحابنا، أنتم أصحاب نقل وإتباع، وإمامكم الأكبر «أحمد بن حنبل» رحمه الله يقول وهو تحت السياط: كيف أقول مالم يقل، فإياكم ان تبتدعوا من مذهبه ماليس منه، ثم قلتم في الأحاديث، تحمل على ظاهرها، فظاهر القدم الجارحة، ومن قال إستوى بذاته المقدسة فقد أجراه سبحانه مجرى الحسيات، وينبغي ألا يهمل مايثبت به الأصل، وهو العقل، فإنا به عرفنا الله تعالى، وحكمنا له

بالقدم، فلو أنكم قلتم نقرأ الأحاديث ونسكت ماأنكر أحد عليكم، وإنما حملكم إياه على الظاهر قبيح، فلاتدخلوا في مذهب هذا الرجل السلفي ماليس فيه»[٩٠].

لم يستمع الحشوية لنصيحة ابن الجوزي أو غيره من العلماء، بل أكثروا الكذب على أحمد بن حنبل ورووا عنه مجمل عقائدهم وأدخلوا كل ماجمعوه من أحاديث أهل الكتاب من اليهود والنصارى وجعلوها أسس وقواعد مذهبه الأصولي. فاعتقدوها ودعوا العامة للايمان بها، وكفروا من خالفهم في ذلك، سواء كان حنبليا أم لا.

وعليه يحق لنا ان نؤكد، ان مايعرف بالمذهب الحنبلي أو مايوصف اليوم بالمذهب السلفي، ماهو الا عقائد الحشوية وآراؤهم، جمعت ودونت ونسبت لهذا المحدث الذي اختارته الظروف التاريخية ليتبوأ الزعامة داخل تيار أصحاب الحديث. فليس لإبن حنبل في مذهبه إلا الإسم، ونزر قليل إن وجد من آرائه واختياراته، وقد اختلط وضاع ضمن الكم الهائل لآراء هؤلاء الحشوية وخصوصا في العقائد.

□ مسند ابن حنبل: الزيادة والتحريف :

لم يسلم «المسند» الكتاب الذي اشتهرت نسبته لأحمد من التحريف والزيادة فهذا ابن تيمية يقول في كتابه منهاج السنة عن المسند، إن عبد الله قد زاد فيه زياداته ثم زاد أبو بكر القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة فظن الجهال[٩١] ان ذلك من رواية أحمد رواها في المسند...

---

(٩٠) أبو زهرة، ابن تيمية، ص٣٢٢ ــ ٣٢٣ ــ ٣٢٤ .

(٩١) إن قول ابن تيمية «فظن الجهال» فيه سوء أدب من الشيخ كما لا يخفى . فكيف يتسنى لطالب العلم أو عالم ان يقرأ كتاب المسند ويطالع مروياته ثم يقول : هذه رواها أحمد ، هذه زيادة إبنه عبد الله أو غيره ، وليس هناك ما يشير الى ذلك . ونعتقد أن قوله هذا =

وهذا خطأ (٩٢).

وقول إبن تيمية هذا فيه الكثير من المغالطة وقد خالفه العراقي في هذا، وقرر أن في المسند أحاديث ضعيفة كثيرة، وأحاديث موضوعة قليلة، وناقض إبن تيمية في قوله، إن الموضوع من زيادات القطيعي لا من رواية أحمد أو إبنه. وأيد مناقضته بدليل مادي. فأورد عدداً محدوداً من الأحاديث التي قال أهل الشأن إنها من الأحاديث الموضوعة وهي من رواية أحمد ورواية إبنه(٩٣).

وقد رد إبن الجوزي دعوى الذين يزعمون أن المسند ليس فيه ضعيف، وهم ليسوا من علية العلماء، فقال: «سألني بعض أصحاب الحديث هل في مسند أحمد ماليس بصحيح، فقلت نعم، فعظم ذلك على جماعة ينسبون الى المذهب فحملت أمرهم على أنهم عوام، وأهملت فكر ذلك، وإذا بهم قد كتبوا فتاوى، فكتب فيها جماعة من أهل خراسان، منهم أبو العلاء الهمداني، يعظمون هذا القول، ويردونه، ويقبحون قول من قاله، فبقيت دهشا متعجبا وقلت في نفسي: واعجبا!! صار المنتسبون الى العلم عامة أيضا، وماذاك إلا أنهم سمعوا الحديث. ولم يبحثوا عن صحيحه من سقيمه، وظنوا أن من قال ماقلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه أحمد، و ليس كذلك، فإن أحمد روى المشهور والجيد والرديء، ثم هو قد رد كثيرا مما روي، ولم يقل به ولم يجعله مذهباً له»(٩٤).

= واعترافه الصريح بالزيادة في المسند ليس مرده البحث الموضوع أو الإنصاف ، وإنما ليتسنى له تضعيف ورفض ما روي في المسند من فضائل علي بن أبي طالب واهل بيته ، فإنه كان لايجد حديثاً يخصهم إلا ورام تضعيفه، أو بحث له عن علة تجرحه . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . لقد ورث الأمويون بغضهم علياً وآل بيته المجتمع الإسلامي عامة ، وبعضاً ممن ينتسب لأهل العلم .

(٩٢) المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب ، ج٣ ص١٩٠ .

(٩٣) أحمد بن حنبل ، ص١٦٦ .

(٩٤) المرجع نفسه ، ص١٦٦ ــ ١٦٧ .

والزيادة في مسند أحمد من الأمور التي ذكرها أكثر من واحد ممن تعرضوا للمسند. فقد الحق إبنه مايشاكله وضم اليه من مسموعاته مايشابهه ويماثله. والمعتقد ان ما أضافه إبن أحمد هو ماسبق ان سمعه من أبيه ولكن لم يكن مما أملاه أحمد عليهم عند إملاء المسند[٩٥].

وأحمد بن حنبل عندما عمل المسند وأمر بكتابته مع أنه كان يكره الكتابة، قام بهذا العمل، ليجعل من المسند للناس إماما[٩٦]، إذا ما أُختلف في سنة الرسول. بل انه ذهب الى أبعد من ذلك، حين اعتبر ان الحديث ـ كما يروي عنه أصحابه ـ إذا لم يوجد في المسند فلا عبرة به.

أما كتاب «الرد على الجهمية» (المعتزلة)، والمنسوب اليه ايضا فقد أكد العلماء أن هذه النسبة لاتصح، يقول الشيخ زاهد الكوثري: وفي كتاب الرد على الجهمية المنسوب الى أحمد ان هذه الآية ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ من المتشابه وهي كلمة خبيثة تبرأ منها عهدة الإمام أحمد، بل هذه الآية من المحكمات التي ترد إليها المتشابهات، ونسبة الكتاب اليه نسبة كاذبة كما دللنا على ذلك فيما علقناه على السيف السقيل، وإلا ففيه

---

(٩٥) المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب، ج٣ ص١٨٩، نقلاً عن أحمد محنة الدين والدنيا.

(٩٦) ولكن السلفيين لم يتخذوه إماماً، وهم مع غيرهم من باقي المسلمين يقدمون عليه صحيحي البخاري ومسلم. بل إن غيره من مجامع السنة أكثر شهرة منه في التداول، مثل جامع الترمذي. والحقيقة أن هذا طعن عملي في إمامة صاحبهم حتى على مستوى المجال الذي عرف واشتهر به، وهو علم الحديث. أما بخصوص المسند فهو ليس بمستوى صحيح البخاري مثلاً في شروط القبول أو الرفض للراوي. قال عبد الله سألت ابي عن حديث ربعي بن خراش عن حذيفة قال: الذي يرويه عبد العزيز بن داووده قلت: نعم. قال: الأحاديث بخلافه. قلت: فقد ذكرته في المسند. قال: قصدت في المسند المشهور، ولو اردت أن أقصد ما صح عندي لم أرو في هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء اليسير، ولكن يابني تعرف طريقتي في الحديث، لست أخالف ما ضعف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه. أنظر المصدر السابق، ص١٩٠.

كثير مما يسقط قائله، ككتاب السنة المنسوب الى إبنه[٩٧].

والحقيقة ان هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي شيوع وانتشار الكذب في كل مايتعلق بالمذهب الحنبلي، فأقواله الفقهية والأصولية أغلبها مكذوب عليه، والكتب التي نسبت له ثبت عند التحقيق أنها ليست له، والكتب التي اشتهرت له زيد فيها وربما نقص كذلك، لذلك أشار أكثر من واحد الى أن من مميزات هؤلاء الحشوية الذين صنعوا مذهب أحمد أنهم لايتورعون عن الكذب. يقول الكوثري ولهذه الفئة (الحشوية) ولع شديد بافتراء الأباطيل ونسبتها الى أكابر أئمة هذه الأمة، ولو استقريت القرون منذ نجمت هذه البدعة، لرأيت في كل قرن الى زمانك هذا من هذه الطائفة فلولا تشاغب وتموه وبإزائهم جيوشا من أهل السنة بحق تدافع وتبين[٩٨].

ويصرخ الشيخ الأزهري إبن خليفة في وجوه خلفهم، ويتهممهم بالإفتراء والكذب. يقول: «وماسمعناه من أفواه الحشوية الحنبلية في البلاد الشامية، الداعين للسلفية، وماقرأناه في كتب أسلافهم القدامى، فكم من باطل سربلتموه بلباس الحق، وكم فرية ألصقتموها بالصحابة وأتباعهم مضادة للصدق وكم حذرتم وأنذرتم وكفرتم وتوعدتم المسلمين الآمنين المسالمين. الذين لم يقولوا ببدعتكم. ولم يمالقوا سفهاءكم[٩٩]...».

وإذن ماذا يبقى من المذهب الحنبلي، وهل غابت عن المحققين كل هاته الحقائق؟ كيف وجد هذا المذهب طريقه نحو التقليد فاعتنقته العامة؟ وماهي الاغراءات التي عرضها أصحابه حتى زين في أعين البعض فقلدوه؟.

أعتقد أن الاجابة عن السؤال الأول يجدها القارىء مبثوثه في طيات

---

(٩٧) الأسماء والصفات، للبيهقي، تعليق الشيخ محمد زاهد الكوثري الحنفي وكيل مشيخة الإسلام بالإستانة سابقا. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص٢٧٧ الهامش.

(٩٨) نفس المرجع، ص١٧ ــ ١٨.

(٩٩) هذه عقيدة السلف، م س، ص٧.

البحوث السالفة حول قيام وظهور المذاهب وطريقة إنتشارها، إما تصريحا أو تلميحا. أما المغريات التي عرضها هؤلاء الحشوية لتزيين صورة إمامهم ومذهبه المختلق له فهي كثرة الكذب حول شخصه. فقد بولغ في وصف ورعه وتقواه. وتناول العامة فضائله ومزاياه، وأضافوا لها من الخرافات والأساطير الشيء الكثير.

ونحن هنا لانستهين بشخصه ولاننتقصه. فالله سبحانه وتعالى أعلم وأخبر بورعه وتقواه، ولايستطيع أحد منا أن يقول فلان أتقى وأورع من الآخر إنطلاقا من بعض المظاهر والسلوكيات العملية، فنحن لانعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وهو سبحانه أعلم بسرائر خلقه ومكانتهم عنده. أقول إن الحشوية بالغوا حقا في وصف هذا الإمام، ويظهر ذلك مما رووه في فضائله. وكان غرضهم إبرازه وجعله متميزا في الساحة العلمية والعملية، حتى يتسنى لهم اعتماده كإمام، فينضوون تحت لوائه. وإلا فقد رأينا أقوال العلماء فيه ووصفهم إياه، وأنه كان من جملة المحدثين، حافظا معتدل الحفظ. وإذا كان غيره قد حكمت الظروف التاريخية عليهم بالخمول فقد إبتلى هو بالشهرة، وكان كارها لها غير راغب فيها. قال الخلال: أخبرنا المروذي: سمعت أبا عبدالله، يقول الخوف منعني أكل الطعام والشراب، فما أشتهيه وما أبالي أن لايراني أحد ولا أراه، واني لأشتهي أن أرى عبدالوهاب. قل لعبد الوهاب أخمل ذكرك. فإني قد بليت بالشهرة[100]

□ الرؤى والمنامات للدعوة الى تقليد المذهب الحنبلي :

لقد بدأت حركت الوضع عن أحمد بعد وفاته مواكبة أولا، إنتصار

---

(١٠٠) العواصم والقواصم ، ج٤ ص٢٣٣ .

حشوية أهل الحديث[١٠١] وانتشار معتقداتهم بين العامة، وبداية التأسيس لخلق المذهب الحنبلي. فجاءت الروايات الموضوعة متضمنة لمجمل القضايا المتعلقة بهاته المسألتين. وأهم ماعرف به الحنابلة في الإنتصار لإمامهم والدعوة لتقليده وترجيح مذهبه، كانت الرؤى والمنامات التي وضعت بكثرة ملفته للنظر.

أما سهولة نقدها و التأكد من وضعها فبسبب إحتوائها على بعض القضايا العقائدية التي كان المحدثون يخوضون صراعا مريراً مع خصومهم حول إثباتها مثل مسألة رؤية الله.

حدث إبراهيم الحربي قال: رأيت بشر بن الحارث الحافي في المنام كأنه خارج من باب مسجد الرصافة وفي كمه شيء يتحرك، فقلت: مافعل الله بك؟ فقال غفر لي وأكرمني، فقلت: ماهذا الذي في كمك؟ قال: قدم علينا البارحة روح أحمد بن حنبل فنثر عليه الدر والياقوت: فهذا مما إلتقطت. قلت: مافعل يحيى بن معين وأحمد بن حنبل؟ قال: تركتهما وقد زارا رب العالمين ووضعت لهما الموائد، قلت فلما لم تأكل معهما؟ قال: قد عرف هوان الطعام علي فأباحني النظر الى وجهه الكريم»[١٠٢].

أنظر أباحه النظر الى وجهه الكريم، ولاندري سبب إلتقاطه للدر والياقوت وهل يحتاج الناس إليهما في الجنة لغرض ما؟!.

وقال أحمد بن محمد الكندي: رأيت أحمد بن حنبل في المنام فقلت: يا أباعبدالله ماصنع الله بك؟ قال غفر لي ثم قال: يأأحمد ضربت في؟ قال: قلت نعم يارب قال: يأأحمد هذا وجهي فانظر اليه فقد أبحتك النظر

---

(١٠١) يقول عبد المتعال الصعيدي : «يقال إنه (أي المتوكل) كان يظاهر فريقاً مخصوصاً من أهل السنة وهو فريق الحشوية الذين كانوا يحسبون من أهل السنة في ذلك العهد» مجلة رسالة الإسلام ، ج٣ السنة٣ ، العدد ١ ، ص٦٠ .

(١٠٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لإبن خلكان ، دار صادر ، بيروت ، ج١ ، ص٦٥ .

اليه[١٠٣]، والغريب هنا أن أحمد يرى الله ليس يوم القيامة كما هي عقائد أهل الحديث ولكنه يراه في البرزخ.

أما ماوضع وقيل في تفضيل أحمد والدعوة الى تقليد مذهبه في الفروع والأصول، فهو كثير. وقد إستدل به على ترجيح مذهبه. يشهد لذلك قول أبي الخطاب المتوفي سنة ٤٧٦هـ:

وعن مذهبي إن تسألوا فإبن حنبل ... به أقتدي مادمت حيا أمتع
وذلك لأني في المنام رأيته ... يروح ويغدو في الجنان ويرتع[١٠٤]

ويقول بعضهم: رأيت أبا الخطاب في المنام فقلت: مافعل الله بك؟ فأنشد:

أتيت ربي بمثل هذا ... فقال ذا المذهب السديد
محفوظ ثم في الجنان حتى ... ينقلك السائق الشهيد

ومحفوظ هو اسمه وهو كلواذ، وكان من شيوخ الحنابلة وأعيانهم، لما مات دفن الى جنب قبر أحمد. وكثرت المنامات التي تعطي مؤداها صورة عن عظمة شخصية أحمد وتعلق العامة به[١٠٥].

وقال عبدالوهاب الوراق: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أقبل فقال لي: مالي أراك محزونا فقلت: وكيف لا أكون محزونا وقد حل بأمتك ما قد ترى؟ فقال لي: لينتهين الناس الى مذهب أحمد بن حنبل، لينتهين الناس الى مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله[١٠٦].

ونقل إبن الجوزي عن علي بن اسماعيل أنه قال: رأيت أن القيامة قد قامت وكان الناس قد جاؤوا الى موضع عند قنطرة، لايترك أحد يجوز حتى يجيء بخاتم، ورجل ناحية يختم للناس ويعطيهم. فمن جاء بخاتم جاز، فقلت، من

---

(١٠٣) طبقات الحنابلة ، ص١١ .
(١٠٤) أسد حيدر ، ج٤ ص٤٦٩ ، نقلاً عن طبقات الحنابلة ، ج١ ، ص٤٧ .
(١٠٥) المرجع نفسه ، ص٤٦٩ .
(١٠٦) طبقات الحنابلة ، ص ١٥٤ .

هذا الذي يعطي الخواتيم؟ فقالوا: هذا أحمد بن حنبل(١٠٧).

وقد سبقتهم الحنفية لهذه المنقبة في الإختراع، فقد ذكر المكي في المناقب أن أبا حنيفة رؤي على سرير في بستان، ومعه رق يكتب جوائز قوم فسئل عن ذلك فقال: إن الله قبل عملي ومذهبي وشفعني في أمتي، وأنا أكتب جوائزهم فقيل له: الى أي غاية يكون علمه حتى تكتب جائزته؟ فقال أبوحنيفة: إذا علم ان التيمم لايجوز بالرماد. كما أن المالكية يدعون ان مالك يمنع منكراً ونكيراً عن مسائلة أصحابه في القبر.

وعن يحيى الحماني قال: رأيت في المنام كأني في صفة لي إذ جاء النبي(ص) فأخذ بعضادتي الباب، ثم أذن وأقام: وقال: نجا الناجون وهلك الهالكون فقلت: من الناجون؟ قال: أحمد ين حنبل وأصحابه(١٠٨). ويحيى الحماني معروف بالكذب والوضع.

الى غير ذلك من المنامات والأطياف التي وضعها أنصار المذهب الحنبلي ليوجهوا الناس اليه في عصر طغى فيه تيار التعصب، وجعلت الطائفية أداة لأغراض الولاة. وستاراً تعمل من ورائه الأيدي العابثة التي تحمل معول الهدم وأداة التخريب.

وقد استخدموا القصاصين في استثمار هذه الوسائل تحقيقا للهدف، ونيلاً للغرض الذي يحصل من وراء ذلك، فتراهم يقومون في الأندية، والمساجد والطرقات، يحدثون بما يعضد المذهب وانتشاره، فهذا يقص عمن لايعرفه: بأنه رأى في المنام بعض الصالحين في النوم فقيل له: مافعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قيل: من وجدت أكثر أهل الجنة؟ قال: أصحاب الشافعي: فقال له: فأين أصحاب أحمد بن حنبل، فأجابه: إنك سألتني عن أكثر أهل الجنة وماسألتني عن أعلى عليين، أصحاب أحمد في أعلى أهل الجنة، وأصحاب

(١٠٧) مناقب أحمد لإبن الجوزي ، ص٤٤٦ ، أنظر أسد حيدر ، ج٤ ص٤٧٠.

(١٠٨) المناقب لإبن الجوزي ، ص٥٠٤ .

الشافعي أكثر أهل الجنة[109].

ويظهر ان هذه الرؤية وضعت أيام الوئام بين الشافعية و حشوية الحنابلة، أما بعد إنفجار الصراع بينهما فلم يكن الحشوية يكتفون بتكفير الشوافع، وإنما ترصدوا لهم في الطرقات وقتلوهم واعتدوا عليهم.

ومع كثرة هذه الرؤى والمنامات التي ترغّب في مذهبهم، بدأ التصعيد نحو الغلو والمتطرف، الغرض منه التقليل من شأن باقي العلماء والحط من مكانتهم، وجعل إمامة أحمد بن حنبل وكأنها واجبة الإتباع دون غيره. روى بعض الحنابلة، قال الشافعي رضي الله عنه: أحمد إمام في ثمان خصال: إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنة[110].

والغريب أن من كانت هذه حقيقته، كيف لم يذكر العلماء ذلك منه. و لماذا لم يعترفوا بإمامته في الفقه ولا في الحديث، فنحن لانعلم أحداً أطلق عليه اسم أميرالمؤمنين في الحديث الا البخاري، كما أطلق على غيره لقب الحافظ، ولم نسمع أحداً اطلق على أحمد بن حنبل لقبا من هاته الألقاب.

ويقولون أنه انعقد الاجماع على أصوله التي اعتقدها والأخذ بصحة الأخبار التي اعتمدها حتى من زاغ عن هذا الأصل كفروه، وحذروا منه وهجروه[111]. وقالوا «من أبغض أحمد بن حنبل فقد كفر»[112]. ويبلغ الغلو مداه البعيد حين يقول أحمد بن حسين: سمعت رجلا من خراسان يقول: عندنا أحمد بن حنبل يرونه أنه لايشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة. وقال رجل: نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة[113].

---

(١٠٩) أسد حيدر ، ص٤٧٠ ـ ٤٧١ .

(١١٠) طبقات الحنابلة ، ص٣ .

(١١١) المرجع نفسه ، ص ٨ .

(١١٢) نفسه .

(١١٣) أسد حيدر ، م ٤ ، ص٤٧١ .

وقال إسماعيل بن الخليل لو كان أحمد في بني اسرائيل لكان نبيا[١١٤].

وهذا الغلو والتطرف لم تقل به بعض طوائف الشيعة، التي تتهمها الحشوية بالغلو في أئمتها، يقول الساجي وهو زكريا بن يحيى: أحمد بن حنبل أفضل عندي من مالك والأوزاعي والثوري والشافعي، وذلك أن هؤلاء لهم نظراء، وأحمد بن حنبل لانظير له[١١٥]. لم يكتف الحنابلة بالدعوة لتقليد مذهبهم بطرق غير مباشرة كتمجيد إمامهم وبيان فضله بل دعوا الى ذلك مباشرة، يقول عبدالله الأنصاري الهروي، أحد شيوخ الحنابله الكبار.

أنا حنبلي ماحييت وان مت فوصيتي للناس أن يتحنبلوا[١١٦]

قلنا سابقا إن أصحاب الحديث لم يكن لهم مذهب خاص يجمعهم أو إمام ينضوون تحت لوائه. ولما ظهر أحمد بن حنبل واجتمعت له المكانة العلمية في مجتمعهم والشهرة الإجتماعية، لملم أصحاب الحديث أمرهم وبدأت حركة الإنتساب الى مذهبه، ونقل على إثرها أهل الحديث والحشوية منهم خاصة تراثهم الحديثي وعقائدهم وضموها لآراء ومواقف هذا الإمام. ومن هذا الخليط، مما نسب لأحمد ومايرويه المحدثون ويعتقدونه تكون المذهب الحنبلي.

واذا كان للحشوية عقائدهم الخاصة وكتبهم المعتمدة عندهم، فإن ذلك التراث سيصبح المصدر الذي سيستقي منه الحنابلة أفكارهم وعقائدهم، وسيصبح المذهب الحنبلي فيما بعد رحم الحشوية الجديد الذي منه يصدرون، والعش الذي يحتضن كبارهم وعلماءهم. وسنقوم بحول الله برصد بعض من هذه المصادر، ومعرفة ما إحتوته من عقائد الحشو. لانها نفسها مصادر المذهب الحنبلي الخاصة. ليتبين لنا كما قلنا سابقا بأن المذهب الحنبلي قد صُنع ليكون رحم الحشوية الجديد.

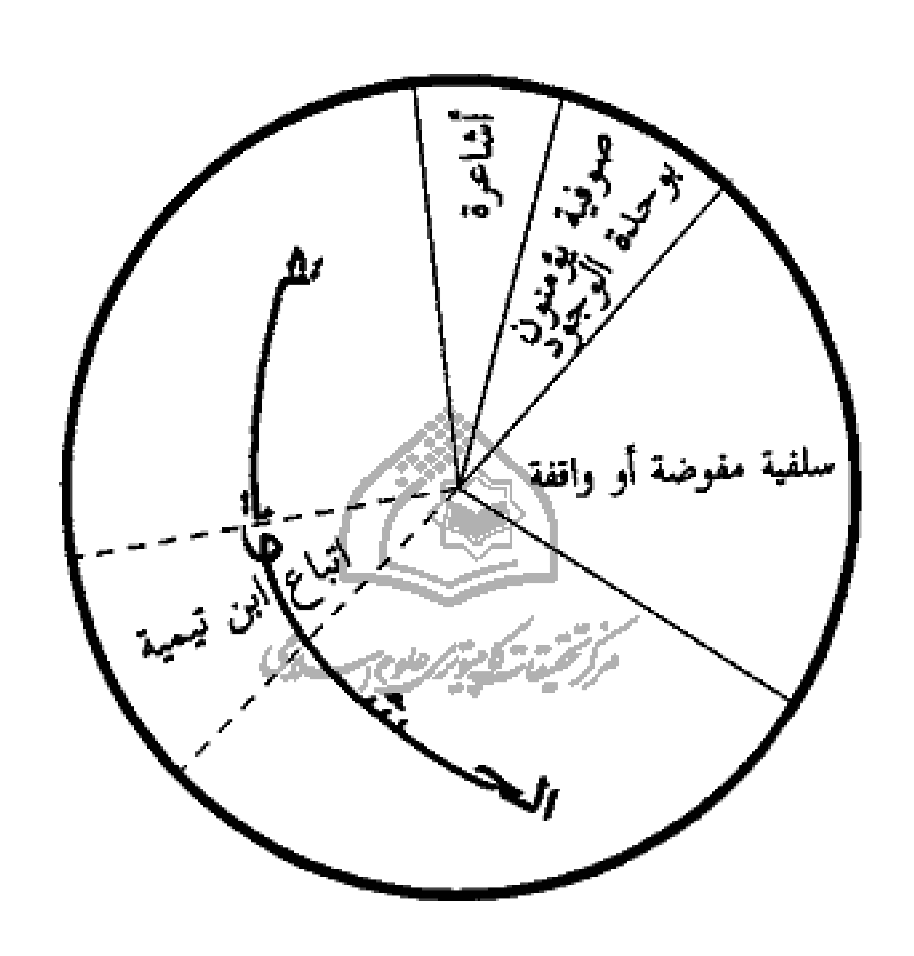
---

(١١٤) البداية والنهاية ، ج١٠ ص٣٥٠ .

(١١٥) طبقات الحنابلة ، ص١٠ .

(١١٦) مختصر طبقات الحنابلة ، ص٦٨ .

الوضع العام للمذهب الحنبلي في العقائد



يقول الصفدي: «والغالب في الحنابلة الحشوية»(١١٧).

(١١٧) الغيث المنسجم للصفدي ، ج٢ ص٤٧ . وراجع ضحى الإسلام لأحمد أمين ، ج٣ ص٧١. أنظر بحوث في الملل والنحل للسبحاني ، ج١ ص١٢٤ .

المذهب الحنبلي رحم الحشوية الجديد

□ حركة الوضع في الحديث ونتائجها:

يقول الجرجاني: «وسميت الحشوية حشوية لأنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله (ص) قال: وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه، وتوصيفه تعالى بالنفس واليد والسمع والبصر، وقالوا، ان كل حديث يأتي به الثقة من العلماء فهو حجة أياً كانت الواسطة»(١١٨).

لاشك أن الحديث النبوي يعتبر الدعامة الثانية للإسلام، بحيث لاتكتمل الشريعة بدونه. فهو الذي شرح مجملات القرآن وفسرها، وعن طريق الحديث إكتمل التشريع في الأمور التي لم يذكرها القرآن مفصلاً. وإذا كان الرسول لا ينطق عن الهوى وإنما هو وحي يوحى فكل ماقاله أو سُمع عنه، سيأخذ طابعا إلزاميا تعبديا، مثله مثل القرآن الحكيم. لذلك اهتم الصحابة الأوائل بحديث رسول الله وحفظوه وكتبه بعضهم في حياة الرسول. لكن نهى الخليفة الثاني عن كتابة الحديث بعد وفاة رسول الله ستكون له سلبيات كبيرة. حيث كثر الوضع والكذب على رسول الله بعد ذلك. واختلط مع ما صح عنه(ص) ورواه عنه أصحابه. وإذا كان الصحابة قد توزعوا في الأمصار فإن معرفة صحيح الحديث من ضعيفه قد أصبحت صعبة المنال. فاغتنم رواة

---

(١١٨) التعريفات، للجرجاني، ص٣٤١، والحور العين، ص٢٠٤. ومعرفة المذاهب ص١٥. أنظر بحوث في الملل والنحل، ج١ ص١٢٤. يقول ابن الجوزي الحنبلي يصف أصحابه من ينتسبون للمذهب الحنبلي: «قد غمني في هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم في العلم صاروا كالعامة، وإذا مر بهم حديث موضوع قالوا: قد روي. والبكاء ينبغي ان يكون على خساسة الهمم ولاحول ولا قوة إلا بالله».

الأعراب بدعم من ملوك بني أمية وعلى رأسهم معاوية الفرصة فرووا العجائب والغرائب ونسبوا كل ذلك الى «حبيبي رسول الله» كما كانوا يدعون.

كما أن متأسلمة اليهود والنصارى لما فُسح لهم المجال على عهد الخليفتين[١١٩] عمر وعثمان وخلال الحكم الاموي، فإنهم لم يألوا جهداً في إدخال مجمل عقائدهم المنحرفة الى الاسلام عبر الحديث. والكتب الحديثية المعتمدة لدى الحشوية «السلفية» والتي سنعرفها بعد قليل، تزخر بهذه الروايات الاسرائيلية، وبالحشو المنكر والفظيع. الذي شوه عقائد الإسلام الأصيلة والصافية من كل شائبة تخالف التوحيد الحقيقي.

□ عقائد «الحشوية السلفية» من خلال مصادرهم الحديثية:

قلنا سابقا في تعريفنا للحشوية، بأنهم كانوا يحشون الأحاديث التي لا أصل لها، أو من مرويات أهل الكتاب في أحاديث النبي(ص). وأن أغلب هذه الأحاديث في التشبيه والتجسيم، وذلك بوصف الذات الإلهية باليد والرجل والنفس والذراع والحقو، وكذا وصفها بما يخص الحوادث من النزول والصعود والتحيز والمكانية، وعندهم أن ذلك إثبات للصفات. وسنعرض لبعض هذه الروايات من كتبهم المعتمدة، حتى يتبين للقارىء مدى الإنحراف الذي أصاب عقيدة التوحيد والتنزيه على يد هؤلاء الحشوية «السلفيه» وأهل الحديث.

---

(١١٩) ذكر ابن سعد صاحب الطبقات أن رجلاً دخل المسجد فإذا عامر بن عبدالله بن القيس جالس الى كتب وبينها سفر من أسفار التوارة وكعب يقرأ. الطبقات ج٧ ص٧٩ . وهذا لعمري مخالفة صريحة لنهي الرسول عن قراءة كتب أهل الكتاب وخصوصاً اليهود . فكيف سمح لهذا الحبر المعتنق للإسلام أن يحدث في مسجد رسول الله بأحاديث بني إسرائيل المحرفة ؟ .

□ في التشبيه والتجسيم:

جاء في مجموعة التوحيد: «والنصوص الدالة على إثبات الصفات كثيرة جداً. وقد صنف أهل السنة من المحدثين والعلماء مصنفات كباراً، ومن ذلك كتاب «السنة» لعبد الله ابن أحمد، ذكر فيه أقوال الصحابة والتابعين والأئمة. وكتاب «التوحيد» لإمام الأئمة محمد بن خزيمة وكتاب «السنة» للأثرم صاحب الإمام أحمد وكتاب عثمان بن سعيد الدارمي في رده على المريسي. وكتاب «السنة» للخلال، وكتاب «العلو» للذهبي وغيرذلك مما لايحصى كثرة ولله الحمد والمنة[١٢٠].

ونحن سننتخب من هذه المصادر المذكورة قليلا من كثير، مما روى أصحابها ويخص التشبيه والتجسيم، وسنبدأ بكتاب «السنة» لعبدالله بن أحمد[١٢١] لخصوصيته عندهم ومكانة أبيه لديهم.

□ كتاب «السنة» لعبد الله بن أحمد :

يقول عبدالله ابن أحمد في صفة الإستواء والجلوس على العرش:

حدثني أحمد بن سعيد أبو جعفر الدارمي، سمعت أبي خارجة يقول: الجهمية[١٢٢] كفار بلغوا نساءهم أنهن طوالق. وأنهن لايحللن لأزواجهن،

(١٢٠) مجموعة التوحيد ، رسائل لإبن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهما . تحقيق بشير محمد عيون ، مكتبة دار البيان ، ط١ ١٩٨٧م ، ج١ ص٥٩ .

(١٢١) هو عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ولد عام ٢١٣هـ . وتوفي عام ٢٩٠هـ . روى أحاديث أبيه . وكان ملازماً له . وكان أبوه لا يأكل من طعامه لأنه كان يقبل جوائز المتوكل وعطاياه والتي كان أحمد يرفضها ويقول : لو كنت أعلم أنها جلبت من حلال لأخذتها . وكتابه السنة طبعته أول مرة المطبعة السلفية سنة ١٣٤٩ ، وهو أحد الكتب المهمة في روايات التجسيم والتشبيه وكذا الإسرائيليات . وقد طبع ونشر ووزع من طرف «السلفية الوهابية» هو وغيره من المصادر الحشوية.

(١٢٢) يقصد المحدثون بكلمة جهمية «المعتزلة» لأن جهم كان معطلاً في نظرهم ، والمعتزلة يلتقون معه في التعطيل أو التنزيه ؟!.

لاتعودوا مرضاهم، ولاتشهدوا جنائزهم ثم تلا ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾ الى قوله: ﴿الرحمن على العرش إستوى﴾ فهل يكون الإستواء إلا الجلوس[١٢٣]. وموقف بعض السلف هنا التفويض، انظر مالك.

«... حدثني أحمد بن ابراهيم الدورقي، حدثنا علي بن الحسين بن سقيف سألت عبدالله بن المبارك كيف ينبغي لنا أن نعرف ربنا قال: على السماء السابعة على عرشه ولانقول كما تقول الجهمية انه هنا في الأرض»[١٢٤].

ولسنا ندري مايقصدون بالجهمية فإنهم يوردونها ويقصدون بها المعتزلة حينا وغيرهم حينا آخر، ولانعرف للمعتزلة قولا بأن الله هنا في الأرض وهم أصحاب التنزيه وفرسانه؟!.

«... وحدثني أبي حدثنا عبدالرحمان عن أبي اسحاق عن عبدالله بن خليفة عن عمر قال:

اذا جلس على الكرسي سمع له أطيط كأطيط الرحل الجديد[١٢٥]. قال الذهبي في «العلو للعلي الغفار»: «الأطيط الواقع بذات العرش من جنس الأطيط الحاصل في الرحل فذلك صفة للرحل وللعرش ومعاذ الله أن نعده صفة لله عزوجل، ثم لفظ الأطيط لم يأت به نص ثابت»[١٢٦].

وعن عبدالله ابن خليفة عن عمر قال اذا جلس الرب على الكرسي، فاقشعر رجل سماه أبي عند وكيع فغضب وكيع وقال أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث لاينكرونها[١٢٧]. انظر التجسيم الصريح

---

(١٢٣) السنة لعبد الله بن احمد ، تحقيق أبو هاجر محمد زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط١ ١٩٨٥م ، ص١٣.

(١٢٤) المصدر السابق ، ص١٣.

(١٢٥) المرجع نفسه، ص٧٩.

(١٢٦) العلو للعلي الغفار ، ص٣٩.

(١٢٧) السنة ، ص٧٩.

حتى إن الرجل إرتعش لما سمع ذلك، ولكن المحدثين من الحشوية دربوا على رواية مثل هذه المناكير.

«... وعن أبي موسى قال: الكرسي موضع القدمين وله أطيط كأطيط الرحل»[128]. سبحانه وتعالى عما يصفون.

«... وعن عبدالله بن خليفة قال: جاءت امرأة الى النبي فقالت : أدع الله أن يدخلني الجنة قال: فعظم الرب وقال وسع كرسيه السماوات والأرض إنه ليقعد عليه فما يفضل منه إلا قيد أربع أصابع وإن له أطيطا كأطيط الرحل اذا ركب»[129]. انظر قوله «ليقعد عليه» فهل هناك حشو أخطر من هذا الذي يجعل الله جسما يقعد ويحدث صوتا عند قعوده، وهذا العرش تصوروه وكأنه كرسي ملك كما هو معروف لدى الملوك والأباطرة، والحقيقة أن هذه الرؤية وهذا التصور لايوجد له نظير سوى لدى اليهود خاصة.

وهناك أحاديث أخرى صارخة في التجسيم منها:

«... عن أبي عطاف قال: كتب الله التوراة لموسى بيده وهو مسند ظهره الى الصخرة في الألواح من در يسمع صريف القلم ليس بينه وبينه إلا الحجاب»[130]. والأحاديث في كتابة الله التوراة بيده كثيره جداً والغرض واضح من ذلك، وهو أعطاء خصوصية للتوراة اليهودية المحرفة. وكذلك ذكر الحديث الصخرة وهي من معتقداتهم المهمة.

«... وعن خالد بن معدان أنه كان يقول: إن الرحمان ليثقل على حملة العرش من أول النهار اذا قام المشركون حتى اذا قام المسبحون خفف عن حملة العرش»[131]. ولسنا ندري ماذا يقصد الراوي بقيام المشركين،

---

(١٢٨) السنة ، ص٧٩ .

(١٢٩) السنة ، ص٨٠ .

(١٣٠) السنة ، ص٧٦ .

(١٣١)السنة ، ص١٦١ .

فالمعروف أن أول الناس استيقاظاً المؤمنون للصلاة؟ والحقيقة أن الحشو لايناقش إنما يعرض ليتأمله القارىء ويستعيذ بالله من الكذب والإفتراء والتحريف لدين الله.

وروى في نزوله سماء الدنيا قال: عن كعب قال: ان الله ينزل كل عشية مابين العصر الى صلاة المغرب ينظر الى أعمال بني آدم[١٣٢]. وسئل النبي عن الوتر فقال «أحب أن أوتر نصف الليل، ان الله يهبط من السماء العليا الى السماء الدنيا فيقول: هل من مذنب؟ هل من مستغفر؟ هل من داع؟ حتى اذا طلع الفجر إرتفع»[١٣٣].

انظر الى قوله «إرتفع» سبحانه وتعالى وتنزه عن الحركة والإنتقال. والأحاديث في النزول كثيرة جداً في كتب القوم وغيرهم، وإن كان المنزهون من أهل السنة أولوا ماصح لديهم منها، فإن الحشوية أبوا إلاّ فهمها على ظاهرها.

أما رؤية الله يوم القيامة فقد أكثروا من وضع الأحاديث للإنتصار لها لأنها كانت من عقائدهم المتميزة.

«... حدثني أبي عن أسلم العجلي عن أبي مرية عن أبي موسى، وكان يعلمهم من سنتهم قال:

«فبينما يحدثهم إذ شخصت أبصارهم قال ما أشخص أبصاركم عني؟ قالوا القمر قال فكيف اذا رأيتم الله جهرة؟»[١٣٤].

أما ماروراه عبدالله بن أحمد في باقي الصفات مثل الكف واليمين والذراع والفم والقدم والعينين فنورد منه مايلي:

في صفة الكف «.. عن بعض أصحاب النبي(ص) أن النبي(ص) خرج

---

(١٣٢) السنة ، ص١٧٠ .

(١٣٣) السنة ، ص١٧٢ .

(١٣٤) السنة ، ص١٧٣ .

عليهم ذات غذاة وهو طيب النفس مسفر الوجه أو مشرق الوجه، فقلنا يانبي الله والله إنا نراك طيب النفس مسفر الوجه أو مشرق الوجه فقال «ومايمنعني وأتاني ربي الليلة في أحسن صورة فقال: يامحمد قلت لبيك وسعديك فقال فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا أدري أي رب، قال ذلك مرتين أو ثلاثا قال: فوضع كفيه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي حتى تجلى لي بما في السماوات وما في الأرض ثم تلا هذه الآية ﴿وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض﴾[١٣٥].

وفي صفة اليمين عن ربيعة الجرشي في قول الله ﴿والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾ قال ويده الأخرى خلو ليس فيها شيء[١٣٦].

وعن صفة الذراع، عن عبدالله بن عمرو قال: خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر[١٣٧]. انظر! جعلوا لله ذراعين وصدراً كذلك.

أما الفم فروى ابن أحمد: «... حدثني أبومعمر حدثنا وكيع عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرضي قال: كأن الناس اذا سمعوا القرآن من في الرحمان يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه، من قبل ذلك»[١٣٨].

وفي صفة القدم أو الرجل يقول: «...عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله(ص)، «يلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه أو رجله عليها فتقول قط قط»[١٣٩].

ولإمامهم ابن خزيمة كلام لطيف في هذا المقام سنورده عند ذكر مروياته وحشوه في التجسيم والتشبيه.

---

(١٣٥) السنة ، ص١٧٩ .
(١٣٦) السنة ، ص١٨٥ .
(١٣٧) السنة ، ص١٧٢ .
(١٣٨) السنة ، ص٢٨ .
(١٣٩) السنة ، ص١٨٤ .

وأما العينين: «عن عقبة بن عامر أنه قال رأيت رسول الله(ص) وهو يقرأ الآية في خاتمة النور وهو جاعل أصابعه تحت عينيه يقول ﴿بكل شيء بصير﴾»[١٤٠].

وقبل أن ننتقل الى عرض ما إحتوته مصادر الحشوية «السلفية» الأخرى، من روايات التشبيه والتجسيم، لابأس من ايراد بعض ماتضمنه كتاب «السنة» لعبدالله بن أحمد من روايات إسرائلية خالصة وخرافات منكرة، كل ذلك الخليط العجيب والحشو الفظيع سيسمى «سنة» وستنسب مضامينه العقائدية للسلف. وستتخذه السلفية المعاصرة مذهبا وأصلا.

«... عن جرير بن جابر الخثعمي أنه سمع كعبا يقول: لما كلم الله موسى كلمه بالألسن كلها قبل لسانه فطفق موسى يقول: يارب والله مأأفقه هذا حتى كلمه آخر ذلك بلسانه مثل صوته، فقال موسى هذا يارب كلامك فقال الله: (لو كلمتك كلامي لم تكن شيئا) أو قال (لم تستقم له) قال أي رب فهل من خلقك شيء يشبه كلامك قال لا وأقرب خلقي شبها بكلامي أشد مايسمع الناس من الصواعق»[١٤١].

وروى، سمعت وهبا يقول وذكر من عظمة الله فقال: إن السماوات السبع والبحار لفي هيكل وإن الهيكل لفي الكرسي وإن قدميه لعلى الكرسي وهو كمل الكرسي وقد عاد الكرسي كالنعل في قدمه. وسئل وهب ما الهيكل؟ قال شيء من أطراف السماء محدق بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط. وسئل وهب عن الأرضين كيف هي؟ قال هي سبع أرضين ممهدة بين كل أرضين بحر والبحر الأخضر محيط بذلك و الهيكل من وراء البحر»[١٤٢]. انه عالم خيالي عجيب يتكلم عنه وهب بن منبه وهو من

(١٤٠) السنة ، ص٢١٣ .
(١٤١) السنة ، ص٧٢ .
(١٤٢) السنة ، ص١٧٢ ــ ١٧٣ .

مسلمة اليهود وكان مطلعا على كتب أهل الكتاب فحدث بما شاء له هواه واستقبل أقواله ومروياته رعاع الرواة والمحدثين فحشو بها أحاديث رسول الله(ص). وانظر في الحديث الكلام حول الهيكل، ولاشك أن للهيكل رمزية خاصة لدى اليهود من قديم الأزمان والى الآن[١٤٣].

أما اذا تصفحنا كتاب «التوحيد وإثبات صفات الرب» لابن خزيمة[١٤٤]، فسيأخذنا العجب من كثرة مافيه، ليس فقط من روايات التجسيم والتشبيه، ولكن في الدفاع عنها وشرحها وجعلها عقائد السلف. مما أثار عليه العلماء من أهل السنة والجماعة فانتقدوه انتقادا لاذعا. يقول الشيخ الكوثري: ألف ابن خزيمة «كتاب التوحيد» وليته اقتصر فيه على جمع الأحاديث المتشابهة ولكنه فسرها بما لايصح أن يعتقد في الله تعالى، ولايقول به المحققون من سلف ولاخلف، وقد طعنه الإمام فخر الدين الرازي طعنة أرداه قتيلا[١٤٥].

يقول الرازي في شرحه لقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ احتج علماء التوحيد قديما وحديثا بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسما مركبا من الأعضاء والأجزاء وحاصلا في المكان والجهة، وقالوا لو كان جسما لكان مثلا لسائر الأجسام، فيلزم حصول الأمثال والأشباه له. وذلك باطل بصريح قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾. ويقول بعدذلك: واعلم أن محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سماه بالتوحيد وهو في الحقيقة كتاب شرك. واعترض عليها، وأنا اذكر حاصل

---

(١٤٣) انظر عقيدة اليهود في الهيكل وعلاقته بملك سليمان في المصادر الخاصة .

(١٤٤) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة ، توفي سنة ٣٢١ . وكتابه هذا يعتبر أهم مصدر لدى المشبهة والمجسمة . وقد أولاه حشوية الحنابلة اهتماماً خاصاً ، وخصوصاً الوهابية «السلفية» . فقاموا بطباعته ونشره على نطاق واسع كسابقه كتاب «السنة» لعبد الله بن أحمد بن حنبل . وسيجد القارىء بعض الأحاديث التي نقلناها عنه ليتبين الحشو الذي انطوى عليه هذا الكتاب .

(١٤٥) الأسماء والصفات ، بتعليق الكوثري ، ص١٨ .

كلامه بعد حذف التطويلات. لأنه كان رجلا مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل[١٤٦]. ثم ساق كلامه وهو كلام لايقوله محقق نافذ البصيرة في معرفة ربه[١٤٧].

ويقول أحد أصحابه: «وهذا محمد بن اسحاق بن خزيمة المتوفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، له الإمامة في الحفظ والعلم بالعلل في المتون والأسانيد وفنون سوى علم الكلام. قال فيه الأستاذ الأجل أبوسهل الصعلوكي المجمع على إمامته في الحديث وأصول الدين وفروعه المتوفي سنة تسع وستين وثلاثمائة. وهو أحد الرواة عنه ـ حين ألف كتابه الذي سماه التوحيد ـ: إن شيخنا تكلم في مالا يعنيه»[١٤٨]. وكلامه هذا فيما لايعنيه ولايحسنه تلقفه الحشوية السلفية و ادعوا أنه قول السلف واعتقادهم وآمنوا به وكفروا من خالفه.

والغريب ان هذا الرجل شعر بزلته وعرف مقدار ورطته فهو يقول عن نفسه: «اذا كان العطار لايحسن غير ماهو فيه فما تنكرون على فقيه راوي حديث أنه لايحسن الكلام»[١٤٩]. وعلق الشيخ الكوثري على كلامه هذا بقوله: وقد أنصف من نفسه حيث اعترف أنه يجهل علم الكلام، وكان الواجب على مثله ان لايخوض في الكلام فتزل له قدم، ومع هذا الجهل ألف كتاب التوحيد فأساء الى نفسه. ومن أهل العلم من قال عنه إنه كتاب الشرك. ومن جملة مخازيه فيه استدلاله على إثبات الرجل له تعالى بقوله سبحانه ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾ وهذا غاية في السقوط، وأسقط منه من

---

(١٤٦) التفسير الكبير ، للإمام الفخر الرازي ، ص٢٧ - ٢٨ ، ص١٥٠، تفسير قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ . سورة الشورى : الآية ١١ .

(١٤٧) الأسماء والصفات ، ص١٨ .

(١٤٨) الأسماء والصفات ، ص١٣ .

(١٤٩) الأسماء والصفات ، ص٢٦٧ .

يسعى في إذاعة كتابه هذا[١٥٠].

بعد أن رأينا أقوال أهل العلم في هذا الرجل، سنعرض لبعض مارواه وقال به في كتاب التوحيد هذا، لتكتمل الصورة لدى القارىء وليتحقق من صدق قول العلماء فيه.

روى بطرق مختلفة عنه(ص) قال: «يتجلى لنا ربنا عزوجل يوم القيامة ضاحكا»[١٥١].

قال ابن خزيمة «باب ذكر إثبات ضحك ربنا عزوجل»: بلاصفة تصف ضحكه ـ جل ثناؤه ـ لا ولايشبه ضحكه بضحك المخلوقين وضحكهم كذلك. بل نؤمن بأنه يضحك كما أعلم النبي صلى الله عليه وسلم ونسكت عن صفة ضحكه جل وعلى، اذ الله استأثر بصفة ضحكه لم يطلعنا على ذلك، فنحن قائلون بما قال النبي صلى الله عليه وسلم مصدقون بذلك بقلوبنا، منصتون عما لم يبين لنا، مما استأثر الله تعالى بعلمه[١٥٢].

والمشكل هنا أن كلامه الذي أورده تعليقا على حديث الضحك انما يقنع به العامة وجماهير الحشوية منهم. لأن المسألة في كون هذا الكلام هل يصح عن الرسول أم لا؟ وليست المسألة في التصديق بما ورد عنه(ص). فإن جميع طوائف المسلمين والمنزهة منهم يؤمنون بما صح عنه(ص) ولايمكنهم رفضه بحال، اذ رفضه أو رده يخرجهم عن الملة. أما قوله لانعلم كيفية ضحك ربنا، فإنه تمويه على العوام أيضا. اذ المتبادر عند وصف الضحك لغة وعرفا وجود فم وأضراس ولهوات، وابن خزيمة وحزبه من الحشوية يعتقدون بأن لله مثل هذه الصفات. ولما حاول بعض علماء أهل السنة من الأشاعرة البحث عن

(١٥٠) الأسماء والصفات، ص٢٦٧ ـ ٢٦٨ الهامش. ولا شك أن الذي يسعى اليوم في نشره هم «الحشوية السلفية» أو ما يطلق عليهم البعض «الوهابية».

(١٥١) التوحيد، ص٢٣٦.

(١٥٢) التوحيد، ص٢٣٠ ـ ٢٣١، بتوسط بحوث في الملل والنحل، ج١ ص١٣٦.

تأويل لهذه الصفة وغيرها يليق بتقديسه سبحانه وتنزيهه عن مشابهة خلقه، رفض الحشوية ذلك التأويل ووصفوا أصحابه بالجهمية المعطلة. يقول الشيخ الكوثري: والمجسمة يحملون الضحك والعجب والتبشيش على إبداء الاضراس واللهوات وفغر الفم وكشر الأسنان و نحو ذلك جريا على الوثنية الأولى بعد الإسلام(١٥٣).

واستدل إبن خزيمة بما ورد من أن الله بصير، على أن له عينين، قال: «نحن نقول: لربنا الخالق عينان يبصر بهما ماتحت الثرى وتحت الأرض السابعة السفلى ومافي السماوات العلى ومابينهما من صغير وكبير. إلى أن قال: كما يرى الله عرشه الذي هو مستو عليه.

وبنو آدم وان كانت لهم عيون يُبصرون بها فإنهم إنما يرون ماقرب من أبصارهم مما لاحجب ولاستر بين المرئي وبين أبصارهم... واستطرد في ذكر نواقص عيون بني آدم ثم قال:

فما الذي يشبه ـ ياذي الحجا ـ عين الله الموصوفة بما ذكرنا، عيون بني آدم التي وصفناها بعد(١٥٤). والحقيقة أن الإنسان ليصاب بغم شديد وحزن طويل، عندما ينسب مثل هؤلاء الى العلم ويعتبرون من الأئمة. ولقد صدق من قال إن الاعور في بلد العميان ملك.

ويذكر كذلك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله(ص): «لما تجلى ربه للجبل رفع خنصره وقبض على مفصل منها، فانساخ الجبل، فقال حميد: أتحدث بهذا؟ فقال: حدثنا أنس عن النبي(ص) وتقول: لاتحدث به»(١٥٥).

لقد كانت في هذا الإمام الحشوي غفلة بالغة، ولم يتجنب الحقيقة من وصفه «بالجاهل كما مر معنا فهو يرد على من استنكر عليه حديثه، وفيه ذكر ليس

(١٥٣) الأسماء والصفات ، م . س ، ص٤٧٨ ، أنظر الهامش .
(١٥٤) المرجع نفسه ، ص٥٠ ـ ٥١ ، بتوسط السبحاني ، ج١ ص١٣٨ .
(١٥٥) نفسه ، ص١١٣ .

لليـد أو الكـف بـل «الخنصر» - وليس بعـد هذا التجسيم والتشبيه مبلغ آخر - يرد عليـه بأن الحديث رواه أنس بن مالك وهو صحابي، ولكن من حدث ابن خزيمة بهذا الحديث وهل سمعه مـن أنس مباشرة. «إنه يقول» حدثنا عبدالوارث بن عبدالصمد قال حدثنا حماد بن سلمة، قال حدثنا ثابت عن أنس بن مالك وأورد الحديث. ولكنه الحشو المرادف للحمق فهل يستطيع عاقل أن يناقش أحمقا. نعوذ بالله من كل شر.

وقد روى ابن خزيمة مثل هذه الأحاديث وغيرها في إثبات صفات الرب، وأن له كلاما وصوتا. أما حديث الرجل أو القدم فقد رواه ابن خزيمة كذلك عن أبي هريرة، عن رسول الله(ص) قال: «وأما النار فلاتمتلىء حتى يضع الله رجله فيها فتقول قط قط، فهنالك تمتلىء، الحديث». وهو حديث اختصام الجنة والنار وأشار الى أنه مستفيض[١٥٦].

والأخبار في وضع الله رجله في النار كثيرة جداً وقد اعتمدها الحشوية الحنبلية في عقائدهم وفسروها بظاهرها. يقول إبن الزاغوني الحنبلي: إنما وضع قدمه في النار ليخبرهم أن أصنامهم تحترق وأنا لاأحترق. قال ابن الجوزي: وهو حنبلي كذلك مخالف للحشوية «وهذا تبعيض وهو من أقبح الاعتقادات.. وقد صرح بتكذيبهم فقال: «لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها» فكيف يظن بالخالق أن يردها! تعالى الله عن تجاهل المجسمة[١٥٧].

وكلمة ابن خزيمة في التوحيد «باب إثبات الرجل لله عزوجل» وان رغمت أنوف المعطلة الجهمية، مما يفضي بمحو إسمه من ديوان العلماء، قال إبن الجوزي: رأيت أبا بكر بن خزيمة قد جمع كتابا في الصفات وبوبه فقال: باب إثبات اليد، باب إمساك السماوات على أصابعه، باب إثبات الرجل، إن رغمت المعتزلة. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد

(١٥٦) التوحيد ص٩٣ ــ ٩٥ . بتوسط السبحاني (ج١ ص١٤١) .
(١٥٧) ابن الجوزي، دفع شبه التشبيه، ص٦٠ .

يبطشون بها﴾ فأعلمنا أن مالا يد له ولارجل كالأنعام. قال: ابن عقيل وهو حنبلي مخالف للحشوية تعالى الله أن يكون له صفة تشغل الأمكنة وليس الحق تعالى بذي أجزاء وأبعاض فيعالج بها. ثم إنه أليس يعمل في النار أمره وتكوينه حتى يستعين بشيء من ذاته، ويعالجها بصفة من صفاته. وهو القائل «كوني بردا وسلاما» فما أسخف هذا الإعتقاد، وأبعده عن مكون الأملاك والأفلاك.

ولأهل السنة والجماعة تأويلات كثيرة لصفة القدم التي وردت في الأحاديث، توقفوا في رفضها ـ لأن كبار الحفاظ وعلماء الحديث عندهم أثبتوها في كتبهم ـ وصرفها عن معنى الحسية الظاهرة نوع من أنواع الرفض لأن غرضهم التنزيه وهذه الأحاديث صريحة في التجسيم[١٥٨].

ومن الخرافات العجيبة ماذكر في الكتابين «السنة» و «التوحيد»: أن حملة العرش أربعة ملائكة، أحدهم على صورة إنسان والثاني على صورة ثور، والثالث على صورة نسر، والرابع على صورة أسد[١٥٩]. وعلق عليه في الحاشية بأن هذا لم يرد في حديث صحيح، ولعل الراوي أخذه من كعب الأحبار أو غيره من مسلمة أهل الكتاب[١٦٠]. ومع ذلك فقد ورد في الكتابين وأخرجه إبن حنبل في مسنده[١٦١] بالاسناد الى عكرمة مولى ابن عباس: ان رسول الله(ص) أنشد قول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

رجل وثور تحت رجل يمينه | والنسر للأخرى وليث مرصد[١٦٢]

ورواه في كتاب السنة[١٦٣] بزيادة: «فقال رسول الله(ص): صدق

(١٥٨) انظر فصل السلفية وأهل السنة ففيه بعض التأويلات لهذه الصفة .
(١٥٩) السنة ، ص١٦١ والتوحيد ص٩٢ .
(١٦٠) التوحيد ، ص٦٢ .
(١٦١) مسند أحمد بن حنبل ، ج١ ص٢٥٦ .
(١٦٢) التوحيد ، ص٩٠ ، مع أبيات أخر .
(١٦٣) السنة ، ص١٨٧ .

صدق»[١٦٤].

□ كتاب «العلو للعلي الغفار» للذهبي :

أما كتاب «العلو للعلي الغفار» للذهبي والذي ذكره النص الخاص بمصادر الحشوية في إثبات الصفات، فقد جاء كما أراد له صاحبه، أراد أن يثبت لله صفة العلو وانه في السماء، فكان له ذلك وزيادة. وأمد عقائد التشبيه والتجسيم بحبل طويل ينتهي آخره عند مصادر أهل الكتاب. ولقد صدق فيه قول الكوثري لما اتهمه بالسقوط في التشبيه والتجسيم والتبعية لشيخ الاسلام بن تيمية[١٦٥]. خصوصا في كتابه هذا الذي أثبت فيه هذه الصفة له سبحانه ومما جاء فيه:

«... عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الميت يحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشري بروح و ريحان، ورب غير غضبان، فلايزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها الى السماء، فيستفتح لها فيقال من هذا؟ فيقال فلان، فيقال مرحبا بالنفس الطيبة، فلايزال يقال لها ذلك حتى تنتهي بها الى السماء التي فيها الله تعالى»[١٦٦]. انظر قوله السماء التي فيها الله؟!.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله(ص): «ان الله تعالى اذا جمع الأولين والآخرين يوم القيامة جاء الرب تبارك وتعالى الى المؤمنين فوقف عليهم على كور. فقالوا لعقبة ما الكور؟ قال المكان المرتفع. فيقول هل تعرفون

---

(١٦٤) بحوث في الملل والنحل ، ج١ ص١٤٣ .

(١٦٥) ابن ناصرالدين الدمشقي ، الرد الوافر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٣٩٣هـ ، ص٢٠.

(١٦٦) الذهبي ، العلو للعلي الغفار ، ص٢٢ ، ذكر الحديث وقال: رواه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه وقال هو على شرط البخاري ومسلم . ورواه أئمة عن أبي ذئب .

ربكم؟ قالوا إن عرّفنا نفسه عرفناه، فيتجلى لهم ضاحكا في وجوههم فيخرون له سجداً. نقول هذا حديث حسن أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد عن الفلاس عن الحنفي وعنده (على كوم)»[١٦٧]. ولاندري كيف ان الله سبحانه وتعالى يقف على كور أو كوم و لماذا؟! إن من يفعل ذلك من الناس إنما يطلع على القوم المخاطبين ليرونه؟!.

وجاء فيه كذلك «...سمعت رسول الله يقول: «إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولافخر، وآتي باب الجنة فآخذ حلقته فيقول من هذا؟ فأقول أنا محمد فيفتحون لي، فأدخل فأجد الجبار مستقبلي فاسجد له»[١٦٨]. وهذا الحديث يجعل الله في الجنة يوم القيامة وليس على عرشه.

وعن إبن مسعود قال: قال رجل يارسول الله ما المقام المحمود؟ قال: ذلك يوم ينزل الله على عرشه[١٦٩]. وفي أحاديث اخرى خاصة بمشكلة تفسير المقام المحمود، ادعى الحشوية أن ذلك يعني، أن الله يُجلس نبيه(ص) معه على عرشه. وفي هذا الحديث ينزل، فلاندري هل يُجلس الرسول على العرش وينزل سبحانه عنه أم ماذا؟. نعوذ بالله من الخرف والجهالة.

وقد وقعت بسبب تفسير قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ فتنة كبيرة بين الحشوية وأهل السنة من الأشاعرة. يقول إبن الأثير عن سنة (٣١٧) «وفيها وقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أصحاب أبي بكر المروذي الحنبلي وبين غيرهم من العامة. ودخل كثير من الجند فيها، وسبب ذلك أن أصحاب المروذي قالوا في تفسير قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ هو أن الله يقعد النبي صلى الله عليه وسلم معه على العرش،

---

(١٦٧) المرجع السابق ، ص٢٥ .

(١٦٨) نفسه ، ص٨٣ .

(١٦٩) رواه أبو الشيخ الحافظ في كتابه «العظمة» ، وعثمان ضعيف . راجع سنده ، وقد حذفنا سند معظم الأحاديث اختصاراً للتطويل .

وقالت الطائفة الأخرى: إنها الشفاعة فوقعت الفتنة، واقتتلوا فقتل بينهم قتلى كثيرة(١٧٠).

وهذا الحديث وهذه الحادثة التاريخية لاتترك مجالا للشك أو الإنكار، فالتشبيه والتجسيم يلزم الحنابلة أو الحشوية السلفية ولايمكنهم التنصل منه. لذلك نَفَرَ منهم العلماء من أهل السنة والجماعة وناصبوهم العداء وردوا على إنحرافهم.

ومن الأحاديث العجيبة في التجسيم والتي رواها الذهبي في كتابه: العلو:

«... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تدرون ماهذه التي فوقكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: فإنها الرفيع، سقف محفوظ وموج مكفوف، هل تدرون كم بينكم وبينها؟ قالوا الله ورسوله أعلم؟ قال بينكم وبينها مسيرة خمسمائة عام. وبينها وبين السماء الأخرى مثل ذلك. حتى عد سبع سماوات وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام. ثم قال: هل تدرون مافوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: فإن فوق ذلك العرش، وبينه وبين السماء السابعة مسيرة خمسمائة عام. ثم قال: هل تدرون ماهذه التي تحتكم قالوا الله ورسوله أعلم قال: فإنها الأرض وبينها والأرض التي تليها مسيرة خمسمائة عام، حتى عد سبع أرضين، وغلظ كل أرض خمسمائة عام، ثم قال: والذي نفسي بيده لو أنكم دليتم بحبل الى الأرض السابعة لهبط على الله، ثم قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾».

يقول الذهبي رواته ثقات وقد رواه أحمد في مسنده. ولا أعرف وجه قوله: لهبط على الله يريد معنى الباطن. ألا ترى النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث كيف تلا ذلك مطابقا لقوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾

(١٧٠) الكامل ، ج ٨ ص٧٣ ، انظر النهج الأحمد ، م س ، ص٣٨ .

أي بالعلم.. وهذه بلية تحير السامع كتبتها استطرادا للتعجب، وهو من قبيل إسمع واسكت[١٧١].

لقد تعمدت إيراد تعليق الذهبي على حديثه الذي رواه ولاشك أن القارىء قد إرتسمت على محياه علامات التعجب والإستفسار من الحديث الذي يقول راويه بعدما ذكر عوالم غريبة جداً ولكنها محدودة بالكم والزمن. وكذا التصور العام لشكل العالم والكون الدائري بحيث لو دلي بعض الحشوية حبلا عبر الأراضي السبع وقطع مسافة خمسمائة عام بين الأرض، والأرض لنزل حبله على «الله» ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ. وهذا الحديث جعل الله ضمن هذا العالم وعند تقاطع السماوات والأرض، أي محدداً ضمن زمان ومكان معين، وهذا مبلغ علم الحشوية. ولكن العجب والاستغراب ليس فقط في الحديث ولكن في تعليق من كتبه وجاء به ليثبت صفة العلو للعلي الغفار، وأنا شخصياً لم أفهم ماذا يعني بقوله: رواه الثقات وأحمد بن حنبل، فهل هي إشارة لكونه صحيحا. وماعلاقة ذلك بقوله تعالى ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ الذي ادعى أن الرسول(ص) تلاها. إن في تعليقه خبط وخلط غير مفهوم، جعلني أشك في نصه، فلربما كان له تعليق آخر وطالته يد الحشوية فحرفته عندما نقلوه فجاء تحريفهم مضطربا، يجوز!؟

ولكن ما معنى قوله وهو يوجه «لهبط على الله» يريد معنى الباطن، أي باطن هذا؟! إنها تساؤلات لن توجد لها أجوبة مقنعة، إلا كما قال هو بنفسه، في الأخير، إسمع واسكت! أي لاتقول هذا إفتراء على الله ورسوله والحقيقة، لاتقول ذلك؟ وإلا إتهمك الحشوية بالتعطيل والجهمية، والحقيقة أن علينا عندما نقرأ مثل هاته الأساطير المنسوبة لدين التوحيد، أن نقول سبحانك هذا إفتراء وكذب على دينك، وإنا نعوذ بك أن نضل أو ننحرف عن جادة التوحيد الخالص والتنزيه الذي يليق بذاتك المقدسة سبحانك؟!.

---

(١٧١) العلو للعلي الغفار، ص٦٠ ــ ٦١.

وينقل الذهبي من حديث الأعمش: عن سالم بن أبي الجعد ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال وراء الصراط جسور. جسر عليه الأمانة، وجسر عليه الرحم، وجسر عليه الرب عزوجل» يقول الذهبي رواه العسال باسناد صحيح(١٧٢). واذا كان إسناده صحيحا فمعناه أن متنه صحيح أيضا، واذا كان كذلك فإنه التجسيم بعينه ولاحول ولاقوة الاّ بالله العلي العظيم من جسارة الحشو وأهله وإفترائهم على الله جل وعلا وتنزهه عما يصفونه به.

□ كتاب «رد الامام الدارمي على عثمان المريسي» :

أما من يطلع على ماكتبه الدارمي رداً على بشر المريسي فسيجده انتصاراً مبالغاً فيه، لعقائد هؤلاء الحشوية ليس إلا. وان كان رده هذا قد عمق مشكلة الإختلاف حول اللفظ التي انتبه لها ابن قتيبة وألف فيها كتابا. كما يجد القارىء في الكتاب رواية كل ماذكرناه من أحاديث التشبيه والتجسيم وشرحها والدفاع عن فهم الحشوية لها واعتقادهم فيها. نذكر منها:

«حدثنا عبدالله بن رجاء اخبرنا إسرائيل عن ابي اسحاق عن عبدالله بن خليفة قال:

«أتت امرأة الى النبي(ص) فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فعظم الرب. فقال: إن كرسيه وسع السماوات والأرض، وإنه ليقعد عليه، فما يفضل منه إلا قدر أربع أصابع، ومد أصابعه الأربع، وأن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد اذا ركبه من ثقله»(١٧٣). أنظر قوله وأنه ليقعد عليه؟!.

---

(١٧٢) المرجع نفسه، ص٩٦ .

(١٧٣) رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشير المريسي العنيد . صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي . دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ــ ١٣٥٨هـ ، ص٧٤ . قارن بين هذا الحديث والحديث الآخر الذي رواه الذهبي في كتابه «العلو للعلي الغفار» ليتضح لك مدى تسرب فكر أهل الكتاب الى عقائد أهل الحديث ومروياتهم . يقول الذهبي : «أتى كعب رجل وهو في نفر فقال : ياأبا إسحاق ! حدثني عن الجبار عز وعلا . فأعظم القوم ، =

وفيه أيضا: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا عن النبي(ص) قال: «آتي باب الجنة فيفتح لي، فأرى ربي وهو على كرسيه، تارة بذاته على العرش، وتارة يكون بذاته على الكرسي، فيتجلى لي فأخر له ساجداً»[174].

ومن الخرافات العجيبة ماوراه في اختصام الجنة والنار. «فعن عبيدالله بن عتبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه» أن النبي(ص) قال «إفتخرت الجنة والنار فقالت النار: يارب يدخلني الجبارون والملوك والأشراف، وقالت الجنة يدخلني الفقراء والضعفاء والمساكين . فقال الله للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتي وسعت كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما النار فيلقي فيها وتقول هل من مزيد، ثلاث مرات، حتى يأتيها فيضع قدمه عليها. فتقول: قدِ، قدِ، ثلاثا»[175].

لست أدري كيف تختصم الجنة والنار وكيف ان الجنة تقول آسفة «مالي لايدخلني الا سفلة الناس وسقطهم..» كما جاء في حديث آخر رواه. وهل الأنبياء والأولياء من سفلة الناس؟ وهل للجنة ميزان غير الميزان الإلهي الذي يرفع المؤمن مهما كان فقيراً من الذهب والفضة، ويسقط وينزل الكافر مهما

= فقال كعب : دعوا الرجل . فإنه إن كان جاهلا تعلم ، وإن كان عالماً ازداد علماً . أخبرك أن الله عزوجل خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ، ثم جعل بين كل سماءين كما بين السماء والأرض وجعل كثفها مثل ذلك ، ثم رفع العرش فاستوى عليه فما من السماوات والأرض إلا لها أطيط كأطيط الرحل في أول ما يرتحل . . يقول الذهبي: «وذكر كلمة منكرة لاتسوغ لنا، والإسناد نظيف ، ابو صالح لينوه وما هو بمتهم بل سيء الإتقان». ص٩٣. انظر لهؤلاء المتأسلمة من اليهود والنصارى كيف سنحت لهم الفرصة ليعلموا المجتمع الاسلامي عقائد التوحيد ، وحقائق الوحي في الوقت الذي كان فيه علماء أهل البيت وورثة علم الرسول (ص) تفرض عليهم الإقامة الجبرية . ومن ثم ترسل لهم ، وتحت جنح الظلام ، جنود من عسل لتسممهم وتقضي عليهم . وبذلك تطوى صفحات العلم والحقيقة ، فتجد غربان الجهل الفرصة مواتية لتبيض وتفرخ الإنحراف العقائدي من تشبيه وتجسيم .

(١٧٤) المرجع السابق ، ص٧١ ــ ٧٢ .

(١٧٥) المرجع السابق ، ص٧٠ .

امتلك من مال وجاه؟! ونحن نعجب كيف جسدوا وجسموا الجنة والنار وجعلوا لهما لسانا يختصمان به؟! وكيف ان النار تفتخر على الجنة بالكفار، وهم في ميزان الحق نجس، لايستحقون كرم الله وعطفه، و قد أخرجهم من رحمته بكفرهم وظلمهم وأدخلهم دار ابتلائه. فهو معرض عنهم غير راض بما كسبوه من الكفر. ولكنه الحشو الذي يصعب على العاقل فهمه أو إدراكه.

ومن الأحاديث الغريبة والتي يشتم منها رائحة أهل الكتاب من اليهود خصوصا مانقله: حدثنا موسى بن اسماعيل حدثنا أبوعوانة عن عطاء بن السائب عن ميسرة قال «ان الله لم يمس شيئا من خلقه غير ثلاث: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده»[١٧٦]. والحديث كما ذكرنا سابقا ان كانت فيه ميزة فإنها لاشك تخص التوراة اليهودية المحرفة بنص التنزيل المحكم.

ولايدع الدارمي مجالا للشك في أنه يعتقد الجسمية، عندما يذكر في «باب الحد والعرش» قال: قال: أبوسعيد: والله تعالى له حد لايعلمه أحد غيره. ولايجوز أن يتوهم لحده غاية في نفسه. ولكن نؤمن بالحد. ونكل علم ذلك الى الله. والمكانة أيضا حد، وهو على عرشه فوق سماواته. فهذان حدان اثنان[١٧٧].

يقول المحقق في الهامش: كلمة حد لم ترد في الكتاب ولا السنة. ونحن لاننسب الى الله صفة ولا لفظ الا ماورد نصاً عن الله ورسوله، مع اننا لانقول فيها بالرأي ولا القياس. وإنما نرد علم حقيقتها الى الله على مايليق بجلاله سبحانه وتعالى.

واذا كان لفظ «الحد» لم يرد لافي الكتاب ولا في السنة فكيف قال به هؤلاء الذين يدعون أنهم متمسكون بالآثار لايحيدون عنها، وأنهم على

---

(١٧٦) المرجع السابق ، ص٣٥ .

(١٧٧) المرجع السابق ، ص٢٣ .

ماكان عليه سلف هذه الأمة بخلاف باقي الفرق والطوائف الاسلامية؟!.

ويبلغ التشبيه والتجسيم في روايات الدارمي مداه، وهو يناقش المريسي ومن سلك مسلكه في نفي الرؤية الحسية. يقول: فمن ذلك: ماحدثنا موسى بن اسماعيل عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبن عباس قال: قال رسول الله(ص) « آتي يوم القيامة باب الجنة، فيفتح لي، فأرى ربي وهو على كرسيه، أو سريره، فيتجلى لي، فأخر له ساجداً » فهذا أحد الحواس وهو النظر بالعين والتجلي، رواه هؤلاء المشهورون عن ابن عباس، على رغم بشر[١٧٨].

كانت هذه مقتطفات من كتب ومصادر الحشوية «السلفية» المعتمدة، أوردناها للتدليل على معتقدات القوم، وان عقيدة التشبيه والتجسيم تلزمهم وأن وصف العلماء لهم بالمجسمة صحيح وهو عين الحقيقة.

وهاهو القاضي أبو يعلى أحد كبراء الحنابلة وابن الزاغوني الفقيه الحنبلي يكشفان عن حقيقة معتقدهما مما لايدع مجالا للشك في حقيقة عقائد هؤلاء الحشوية الحنبلية المتسمين بالسلفية. جعلت العلماء من أهل السنة والجماعة يردون عليهما وينقضون عقائدهما.

□ ابن الجوزي يرد على أصحابه الحنابلة :

وإذا كان أتباع المذهب الحنبلي قد توزعوا عقائديا بين مذاهب شتى، فإن من تأثر منهم بمناهج أهل السنة والجماعة وارتضاها بدل الحشو المفضي الى التشبيه والتجسيم، سيقوم بالرد على هؤلاء المشبهة، أولا لدفع شبههم الإعتقادية، ولنفي إنتسابهم ثانيا لمذهب الإمام أحمد. حيث أكد إبن الجوزي ان مايقوله الحشوية ليس من اعتقاد أحمد بن حنبل، وأن كل ما يخالف التنزيه أو التفويض إنما هو إفتراء هؤلاء المنتسبين للمذهب على إمامهم. وهو

(١٧٨) المرجع السابق ، ص١٤ .

براء مما ينسبونه له من عقائد التجسيم والتشبيه. لذلك ألف ابن الجوزي[179] رسالة في هذا المجال سمّاها بـ«الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب» وقد طبع تحت عنوان آخر هو «دفع شبه التشبيه»، ولكن محقق النسخة التي بين أيدينا وهو محمد منير الإمام يقول:

«ولكنني لما عرضته على الأصول المخطوطة وجدت النص نفسه ولكن باسم: الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب» الذين خالفوا مذهب ومعتقد الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ونسبوا له مالايعتقده، وافتروا عليه بما لايقله أدنى مسلم فكيف بهذا الإمام العظيم[180].

ويقول أيضا في تقدمته للكتاب: «رأيت كتاب ابن الجوزي هذا قاصما لظهور المشبهة، مشتتاً لبدع المجسمة، ضاربا حججهم الواهية بسيف الشرع، طاعنا أفكارهم برمح العقل السليم الذي هو شاهد للشرع، قاذفاً آرائهم بمقلاع الحجج والبراهين. كاشفاً ستار الجهل والضلال، مبينا للعامة أضاليلهم وتمويهاتهم»[181].

والذي يتصفح هذا الكتاب الذي تحول الى وثيقة تاريخية، ثم حفظها من أيدي التحريف أو الإعدام. يجد أن إبن الجوزي يرد كثيراً قول وفهم القاضي أبي يعلى بخصوص مسألة الصفات. كما ويعضد قوله بأقوال ابن عقيل الحنبلي، الذي خالف الحشوية ونادى بالتنزيه، وذلك لأنه تتلمذ على يد المعتزلة في العقائد وأخذ عنهم. ومن خلال ذلك يظهر جليا أن هناك تياران يمثلان المذهب الحنبلي في العقائد، وبالخصوص في مسألة الصفات. وكل يدعي أن معتقده ورأيه هو قول الإمام أحمد بن حنبل ومذهبه. وسوف نورد

---

(١٧٩) هو ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، إمام الحنابلة في عصره، توفي في بغداد سنة ٥٩٧هـ.

(١٨٠) ابن الجوزي، الباز الأشهب المنقض على مخالف المذهب، دار الجنان، ص٦.

(١٨١) نفسه، ص٥.

بعض الفقرات من رد ابن الجوزي على المشبهة والحشوية ممن يدعي انتسابه لأحمد، ليتبين للقارىء حجم الإدعاء، ومدى الإختلاف بين التيارين والمعتقدين.

يقول ابن الجوزي: الحديث الثالث عشر، روى القاضي عن مجاهد انه قال: اذا كان يوم القيامة يذكر داود ذنبه فيقول الله: «كن أمامي، فيقول: يارب ذنبي، فيقول: كن خلفي، فيقول: يارب ذنبي. فيقول: خذ بقدمي».

قال: وفي لفظ عن ابن سيرين قال الله تعالى: «ليقرب داود حتى يضع يده على فخذه».

قلت: والعجب من إثبات صفات الحق سبحانه وتعالى بأقوال التابعين، وماتصح عنهم. ولو صحت فإنما يذكرونها عن أهل الكتاب، كما يذكر وهب بن منبه.

قال القاضي (أبو يعلى): نحمله على ظاهره، لأننا لانثبت قدما ولا فخذاً هو جارحة وكذلك لانثبت الأمام. قلت: واعجبا لقد كملوا هيئة البدن بإثبات فخذ وساق، وقدم، ووجه، ويدين وأصابع، وخنصر وإبهام وجنب، و حقو وصعود ونزول، ويقولون تحمل على ظاهرها وليست جوارح، وهل يجوز لعاقل أن يثبت لله تعالى خلفا وأماما وفخذاً...؟ ماينبغي أن يحدث هؤلاء.

ولأنا قد عرفنا الفخذ فيقال: ليس بفخذ، والخلف ليس بخلف، ومثل هؤلاء لايحدثون، فانهم يكابرون العقول، وكأنهم يحدثون الأطفال[١٨٢].

الحديث الثامن: روى سليمان قال: «وإن الله تعالى لما خمر طينة آدم ضرب بيده فيه، فخرج كل طيب في يمينه، وكل خبيث في يده الأخرى، ثم خلط بينهما، فمن ثم يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي».

---

(١٨٢) نفسه، ص٨٧ ــ ٨٨ .

قلت: وهذا مرسل وقد ثبت بالدليل أن الله سبحانه وتعالى لايوصف بمس شيء، فإن صح فضرب مثل لما جرت به الأقدار.

وقال القاضي: تخمير الطين وخلط بعضه ببعض مضاف الى اليد التي خلق بها آدم.

قلت: وهذا التشبيه المحض..؟[183].

الحديث الخامس عشر، روى القاضي أبو يعلى: عن عبدالله بن عمر موقوفا أنه قال: «لما خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر».

قلت: وقد أثبت به القاضي ذراعين وصدراً لله عزوجل... وقال: ليس بجوارح، وهذا قبيح، لانه حديث ليس بمرفوع ولايصح، وهل يجوز أن يخلق مخلوق من ذات الله القديم..؟ هذا أقبح مما ادعاه النصارى..؟[184].

ويقول ابن الجوزي بعد ذكر حديث النزول:

قال ابن حامد: هو على العرش بذاته، مماس له، وينزل من مكانه الذي هو فيه فيزول وينتقل.

قلت: وهذا رجل لايعرف مايجوز على الله تعالى.

وقال القاضي: النزول صفة ذاتية، ولانقول نزوله إنتقال. قلت: وهذا مغالطة، ومنهم من قال: يتحرك إذا نزل، ولايدري أن الحركة لاتجوز على الخالق. وقد حكوا عن أحمد ذلك وهو كذب عليه. ولو كان النزول صفة لذاته، لكانت صفاته كل ليلة تتجدد وصفاته قديمة[185].

الحديث السابع والعشرون: روى القاضي عن عكرمة انه قال: «اذا أراد الله عزوجل أن يخوف عباده أبدى عن بعضه الى الأرض فعند ذلك تتزلزل، واذا أراد أن يدمدم على قوم تجلى لها».

---

(١٨٣) المرجع السابق، ص٧٨.

(١٨٤) نفسه، ص٩١ ـ ٩٢.

(١٨٥) نفسه، ص٩٧.

قال القاضي: أبدى عن بعضه، هو على ظاهره، وهو راجع الى الذات على وجه لايفضي الى التبعيض.

قلت: ومن يقول أبدى عن بعض ذاته، وماهو بعض لايكلم، ثم اثبات البعض بكلام تابعي لو صح يخالف إجماع المسلمين فإنهم أجمعوا أن الخالق لايتبعض وإنما المراد أبدى عن آياته(١٨٦).

الحديث التاسع والثلاثون: روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سئل رسول الله(ص) عن المقام المحمود قال: «وعدني ربي بالقعود على العرش».

قلت: هذا حديث مكذوب لايصح عن رسول الله(ص). قال ابن حامد: يجب الايمان بما ورد من المماسة والقرب من الحق لنبيه في إقعاده على العرش. قال: و قال ابن عمر: «وان له عندنا لزلفى».

قال: ذكر الله الدنو منه حتى يمس بعضه.

قلت: وهذا كذب على إبن عمر ومن ذكر تبعيض الذات كفر بالإجماع.

قال القاضي: يقعد نبيه على عرشه بمعنى يدنيه من ذاته ويقربه منها ويشهد له قوله «فكان قاب قوسين أو أدنى». وقال ابن عباس: كان بينه وبينه مقدار قوسين.

قلت: هذا عن جبريل لا عن الله سبحانه ومن أجاز القرب من الذات أجاز الملاصقة وماذهب إليه القاضي صريح في التجسيم(١٨٧).

الحديث الستون: روى جابر رضي الله عنه عن النبي(ص) انه قال: «اذا رأيتم الريح فلاتسبوها فإنها من نفس الرحمان، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فاسألوا الله خيرها واستعيذوا من شرها».

قلت: النفس بمعنى التنفيس عن المكروب، ومثله مارواه أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي(ص) انه قال: «إني لأجد نفس ربكم من قبل اليمن».

---

(١٨٦) نفسه، ص١٠٩ .

(١٨٧) نفسه، ص١٢٤ ــ ١٢٥ .

يعني تنفيسه عن المكروب بنصرة أهل المدينة (إياي والمدينة) من جانب اليمن، وهذا شيء لايختلف فيه المسلمون.

وقال ابوحامد: رأيت بعض أصحابنا يثبتون لله وصفاً في ذاته بأنه يتنفس. قال: وقالوا الرياح الهفافة مثل الرياح العاصفة، والعقيم والجنوب والشمال والصبا والدبور مخلوقة، إلاّ ريحاً من صفاته هي نسيم حياتي، وهي من نفس الرحمان.

قلت (أي ابن الجوزي): على من يعتقد هذا اللعنة، لانه يثبت جسداً مخلوقا وماهؤلاء بمسلمين(١٨٨).

بعد استعراض هذه المقتطفات من كتاب ابن الجوزي في رده على الحشوية «السلفية» ممن يعلنون انتسابهم لمذهب الإمام أحمد بن حنبل، يظهر جلياً أن هؤلاء القوم يمثلون فعلا تيار أهل التشبيه والتجسيم بشكله الواضح خصوصا مع القاضي الحنبلي أبي يعلى و ابن الزاغوني وابن حامد الذي تولى ابن الجوزي الرد عليهم، ونقض أوهامهم ونسف أحلامهم وماعتمدوه من أحاديث أهل الكتاب من يهود ونصارى، وما اختلقه أعراب الرواة ونسبوه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو براء منه. كما يكشف هذا الكتاب الذي أضحى وثيقة تاريخية، زيف إدعاء هؤلاء الحشوية إنتسابهم للإمام

(١٨٨) نفس المصدر، ص١٤٠ ـ ١٤١ . يقول بن الجوزي في خاتمة الكتاب: «قال المصنف: ولما علم بكتابي هذا جماعة من الجهال لم يعجبهم لأنهم ألفوا كلام رؤسائهم المجسمة، فقالوا: ليس هذا المذهب، قلت: ليس بمذهبكم ولا مذهب من قلدتم من أشياخكم، فقد نزهت مذهب الإمام أحمد رحمه الله، ونفيت عنه كذب المنقولات وهذيان المعقولات..» يقول الشيخ مختار المعتزلي في كتابه المجتبى، في المسألة التاسعة من التكفير في المشبهة ما لفظه: «كفرهم شيوخنا وأكثر أهل السنة والأشعرية لأنهم شبهوا الله تعالى بخلقه في الجلوس والقعود والصعود والنزول وذلك كفر..» ولم يكفرهم صاحب «المعتمد» المعتزلي، وهو اختيار الرازي من الأشعرية، قال: لأنهم عالمون بذات الصانع القديم على الجملة وبصفاته، ومقرون به وبصفاته وبكافة الأنبياء والكتب، فجاز أن لا يبلغ عقابهم عقاب الكافر..» انظر العواصم والقواصم ج٤ ص١٩٣ .

أحمد بن حنبل، وأن مايعتقدونه ويؤمنون به هو إعتقاد أحمد.

فقد أثبت ابن الجوزي بطلان هذا الإدعاء. وهذا يعضد ما ذهبنا إليه من أن الحشوية من أهل الحديث إنما صنعوا لهذا الامام مذهبا خاصا في الأصول والفروع ليتستروا وراءه، ومن ثم نقلوا تراثهم العقائدي لهذا المذهب، فأصبح لهم إمام ومذهب يجمع شملهم بعدما تقطعتهم كثرة المذاهب والإتجاهات، ولم يجدوا ملجأً يحميهم من ضربات أهل التنزيه الأوائل - أي المعتزلة - كما تعرضوا لضربات متلاحقة من أهل السنة والجماعة من أشاعرة وماتريدية بعد ذلك.

إن الحشوية الحنبلية أو السلفية كما يحبون أن يطلق عليهم ليسوا فرسان التشبيه والتجسيم فقط. وانما اطلع العلماء والمحققون على معتقدات أخرى أضافوها الى اعتقاداتهم هذه. والتي جاءت كثمار لهذا الحشو الحديثي الهائل، ثم قطفها والإيمان بها و ترويج إعتقادها بين جماهير العامة.

وإذا كانت معتقدات التجسيم والتشبيه تمثل الإنحراف الذي أصاب عقيدة الإسلام التوحيدية وحجم المؤامرات التي تعرض لها الإسلام، خصوصا من طرف أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود الذين استطاعوا عبر المتأسلمة منهم أن يرفدوا تراث الإسلام بزخم هائل من الإسرائيليات، انتظمت في عقائد الحشو وأصبحت مدرسة وتياراً إسلاميا له أتباعه ومقلدوه. فإن الترويج لعقائد اخرى مثل الجبر وطاعة السلطان الجائر، قد كان لها من الوقع السيء والتأثير السلبي ما ظهرت معالمه واضحة في العالم الإسلامي. خصوصا في قرونه الأخيرة، حيث لعبت عقائد الجبر خصوصاً دوراً بارزا في تكريس حالة الجمود والتخلف والإنحطاط الحضاري الذي أصاب المجتمعات الإسلامية.

ومسألة الجبر من المباحث التي تناولتها أقلام العلماء والمفكرين المعاصرين بالتحليل والنقد، وبينت جذورها وآثارها السلبية. ونحن لانستطيع في هذا البحث أن نعرض لهذه المسألة بالشرح والتفصيل، فقد أفردت لها كما قلت

بحوثاً وكتباً أشبعها أصحابها بحثا وتحليلاً ونقداً، ولكننا سنعرض لها لبيان جذورها في تراث الحشو السلفي، باعتباره أهم المصادر التي تغذي اليوم هاته العقائد. لذلك فالحشوية في الماضي والحاضر يعتبرون الجبر من عقائدهم التي يتشبثون بها ولايحيدون عنها قيد أنملة.

□ الجبـر ونفي الإختيار :

تزخر مصادر الحشوية بكم هائل من أحاديث الجبر ونفي الإختيار وأن الإنسان يولد مسلوب الإرادة لاعلاقة له بتحديد مصيره. ولو صحت هذه الأحاديث لما بقي لبعث الأنبياء وتكليف العباد بالواجبات والمحرمات وغيرها معنى معقول[١٨٩].

جاء في كتاب السنة لعبدالله بن أحمد، قال: حدثني أبي، حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي، حدثنا خالد بن صبيح المري، حدثنا اسماعيل بن عبيدالله انه سمع أم الدرداء تحدث عن أبي الدرداء، انه قال: سمعت النبي(ص) يقول: «فرغ الله الى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره، وشقي أم سعيد»[١٩٠].

وعنه أيضا، قال حدثني أبي، حدثنا هشيم، حدثنا علي بن زيد، سمعت أبا عبيد بن عبدالله يحدث قال: قال عبدالله: قال رسول الله(ص): «إن النطفة تكون في الرحم أربعين يوما على حالها لاتغير، فإذا مضت الأربعون صار علقة ومضغة كذلك، ثم عظاماً كذلك، فإذا أراد الله أن يسوي خلقه بعث إليها ملكاً فيقول الملك الذي يليه: أي رب أذكر أم أنثى؟، أشقي أم سعيد؟ قصير أم طويل؟ أناقص أم زائد؟، قوته وأجله، أصحيح أم سقيم؟، قال فيكتب ذلك كله. فقال رجل من القوم: فيم العمل اذا وقد فرغ من هذا

---

(١٨٩) بحوث في الملل والنحل ، ج١ ص١٥٧ .
(١٩٠) السنة ، ص١٢٥ .

كله؟ فقال: اعملوا فكل سيؤخذ لما خلق له»[191].

وعنه أيضا: قيل لرسول الله(ص): «يارسول الله: العمل على مافرغ منه أو على أمر مؤتنف؟ قال بل على أمر قد فرغ منه. قال: قلت: يارسول الله ففيم العمل؟ قال: إنّ كلا ميسر لما خلق له»[192].

وروي... عن طاووس اليماني، قال: «أدركت ناسا من أصحاب النبي(ص) يقولون كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبدالله بن عمر يقول: قال رسول الله(ص) كل شيء بقدر حتى العجز والكسل»[193].

وروى... حدثنا سفيان عن عمرو بن محمد، قال: «كنت عند سالم بن عبدالله فجاءه رجل فقال: الزنى بقدر؟ فقال: نعم. قال: كتبه علي؟ قال: نعم، قال: كتبه علي؟ قال: نعم ويعذبني عليه؟ قال: فأخذ له الحصا»[194].

وبناء على هذه الأحاديث وغيرها نجد أن أحمد بن حنبل كما ينقل عنه أصحابه يقرر - ويجعل ذلك من عقائد السلف - بأن «القدر خيره وشره، وقليله وكثيره، و ظاهره وباطنه، وحلوه ومره، ومحبوبه ومكروهه، وحسنه وسيئه، وأوله وآخره، من الله قضاء قضاه، وقدر قدره عليهم، لايعدو واحد منهم مشيئة الله عزوجل، ولايجاوز قضاءه، بل هم كلهم صائرون الى ماخلقهم له، واقفون فيما قدر عليهم لأفعاله، وهو عدل منه عز ربنا وجل، والزنى والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشرك بالله والمعاصي كلها بقضاء وقدر، من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة، بل لله الحجة البالغة على خلقه، ﴿لايسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ وعلم الله عزوجل ماض في خلقه بمشيئة منه، قد علم من إبليس ومن غيره

---

(١٩١) السنة ، ص١٢٦ .

(١٩٢) السنة ، ص١٣٥ .

(١٩٣) السنة ، ص١٣٩ .

(١٩٤) السنة ، ص١٤٣ .

ممن عصاه ـ من لدن أن عصى تبارك وتعالى الى أن تقوم الساعة ـ المعصية وخلقهم لها، وعلم الطاعة من أهل الطاعة وخلقهم لها. وكل يعمل لما خلق له،وصائر لما قضى عليه وعلم منه، لايعدو واحد منهم قدر الله ومشيئته. والله الفاعل لما يريد، الفعال لما يشاء...

ومن زعم أن الزنى ليس بقدر، قيل له: أرأيت هذه المرأة، حملت من الزنى وجاءت بولد، هل شاء الله عزوجل أن يخلق هذا الولد؟ وهل مضى في سابق علمه؟ فإن قال: لا، فقد زعم ان مع الله خالقاً وهذا هو الشرك صراحاً.

ومن زعم ان السرقة وشرب الخمر وأكل المال الحرام، ليس بقضاء وقدر، فقد زعم أن هذا الانسان قادر أن يأكل رزق غيره، وهذا صراح قول المجوسية. بل أكل رزقه وقضى الله أن يأكله من الوجه الذي أكله.

ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عزوجل، وأن ذلك (ليس) بمشيئته في خلقه، فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله. وأي كفر أوضح من هذا. بل ذلك بقضاء الله عزوجل وذلك بمشيئته في خلقه، وتدبيره فيهم. وماجرى من سابق علمه فيهم. وهو العدل الحق الذي يفعل مايريد، ومن أقر بالعلم لزمه الإقرار بالقدر والمشيئة على الصغر والقماءة»[195].

مما لاشك فيه أن هذه العقائد لو تشبع بها العوام، واعتقدتها الجماهير، فإن مآل المجتمع ككل للإنحلال والتفسخ والإنحطاط الحضاري العام، لذلك نجد ابن تيمية الحراني الحنبلي يرد على مثل هكذا اعتقاد حين يقول: «ومنهم من يتكيء على القدر حتى يظن أن المعاصي والذنوب جارية عليه بمشيئة الله وقدره، فيسلم لها ظاناً أن هذا هو حق المعرفة والرضا! وهذا جهل كبير فلو كان هذا عذراً لأحد لكان عذراً لإبليس ولكل كافر»[196].

واذا كانت مصادر الحشوية قد احتوت على زخم هائل من أحاديث الجبر

(١٩٥) طبقات الحنابلة ، ج١ ص٢٥ ــ ٢٦ ، بتوسط بحوث في الملل والنحل ، ج١ ص١٦٠ .
(١٩٦) العبادة وحقيقة العبودية ، عن ابن تيمية لصائب عبدالحميد ، ص١٥٤ .

فإن المصادر الحديثية لدى أهل السنة والجماعة لم تخلُ من هذه الأحاديث التي تدعو للجبر صراحة، منها مارواه الترمذي عن عبدالله بن عمر بن العاص قال: «خرج علينا رسول الله(ص) وفي يده كتابان فقال: أتدرون ماهذان الكتابان؟ قلنا: لا يارسول الله إلاّ ان تخبرنا. فقال للذي بيده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلايزاد فيهم ولاينقص منهم أبداً. وقال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلايزاد فيهم ولاينقص منهم أبداً. قال أصحابه: ففيم العمل يارسول الله ان كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار، وان عمل أي عمل، ثم قال رسول الله(ص) بيده فنبذهما ثم قال: فرغ ربكم من عمل العباد. فريق في الجنة وفريق في السعير»[١٩٧].

□ الأمويون وعقيدة الجبر:

ان هذه الأحاديث التي تدعو الى عقيدة الجبر وتجعلها عقيدة إسلامية يرجع المحققون وضع أغلبها زمن الأمويين، لأنهم وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان كانوا فرسان هذه العقيدة والداعين لها. فالجبر كما قيل أموي والدليل على ذلك ماتمتلىء به بطون الكتب التاريخية من أن ملوك بني أمية هم أول من دعى الى عقيدة الجبر، ونشرها بين العامة. وشجعوا أعراب الرواة على الكذب على رسول الله ووضع الأحاديث في الجبر.

يقول الدكتور علي سامي النشار: «كان معاوية يعلن الجبر في الشام. ثم حدث رأي المجبرة من معاوية، لما تولى على الأمر ورآهم لايأتمرون بأمره،

---

(١٩٧) جامع الأصول، ج١٠ ص٥١٣، رقم الحديث ٧٥٥٥، بتوسط السبحاني، ج١ ص١٥٧.

فجعل لايمكنه حجة عليهم وأوهم أن المنكر لفعله، قد ظلمه فقال أو لم يرني ربي أني أهلا لهذا الأمر، ماتركني وإياه. ولو كره الله مانحن فيه لغيره. ومرة ثانية لايجد حجة لسلبه الخلافة من بني هاشم، فيضيف الأمر الى الله تعالى وإرادته «أنا خازن من خزان الله تعالى، أعطي من أعطاه الله، وأمنع من منعه الله تعالى، ولو كره الله أمراً لغيره...

ومرة اخرى يقول: «إنما أقاتلكم على أن أتأمر عليكم. وقد أمّرني الله عليكم»، وحدث من ملوك بني أمية مثل هذا القول[198]. وعليه فكل مافعله معاوية من سفك للدماء المحرمة، وقتل الأبرياء من الصحابة وغيرهم، والظلم الإجتماعي الفظيع الذي ساد فترة حكمه. كان قدراً من الله وليس لمعاوية دخل فيه ولا إرادة. بل إن الله سبحانه وتعالى حسب قول معاوية، راضٍ عن هذا الظلم ـ سبحانه ـ اذ لو لم يرضاه لغيره. أنظر الى قوله: «لو كره الله أمراً لغيره»؟ وهو سبحانه لم يغيره إذاً وحسب عقيدة الجبر فإنه فعله وإرادته؟! وهل يستطيع أحد أن يعترض على ارادة الله ومشيئته.

لقد قتل بنو أمية الألوف من المسلمين ظلماً وعدواناً، ونهبوا وسرقوا أموال المسلمين، كل ذلك تحت مظلة الجبر، والحق ان هذه العقيدة الفاسدة لم تكن سوى «دعوة سياسية إستخدمها بنو أمية ضد العلويين وضد جمهور المسلمين كله»[199]. وفي هذه الفترة بالذات وضعت أحاديث الجبر، والتي تلقفها الحشوية وملأوا بها مصادرهم، ليعتبر أئمتهم من بعد واعتماداً عليها، ان الجبر هو عقيدة الاسلام فيقررونه ويعتمدونه.

والأدلة على انتشار القول بالجبر في عهد الأمويين وتشجيعهم له كثيرة جداً، لدرجة ان الأمر استفحل وأوجد فتنة كبيرة بين العامة والخاصة. والمؤرخون للفرق الاسلامية يعزون ظهور فرقة المعتزلة عندما دخل رجل الى

---

(١٩٨) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، م س، ج١ ص٢٣١ - ٢٣٢.

(١٩٩) المرجع السابق، ص٢٣٢.

حلقة الحسن البصري وخاطبه بأن هؤلاء ـ ويقصد ملوك بني أمية ـ يقتلون المسلمين ويقولون ان الله كتب علينا ذلك. فهل من يفعل ذلك يعتبر مؤمناً أم كافراً؟. تقول الرواية إن واصل ابن عطاء وكان من تلامذة الحسن قد استبق شيخه في الإجابة، وقال إن مَن يرتكب ذلك ـ أي كبيرة القتل ـ لايعد مؤمناً ولاكافراً انما هو في منزلة بين المنزلتين. وقام واعتزل حلقة الحسن البصري(٢٠٠).

كما أن يوحنا الدمشقي الفيلسوف المسيحي الذي اعتزل خدمة الأمويين – وقد كان محاسبا لمعاوية – كان يقول ويدعي أن الإسلام ليس إلا عقيدة الجبر. ولاشك أن هذه العقيدة المنحرفة أخذها وسمع بها في بلاط معاوية أثناء خدمته، فمعاوية كان يعتقده ـ أي الجبر ـ فعلا ويعتبره من عقائد الإسلام، لذلك لما سألته أم المؤمنين عائشة عن سبب تنصيب ولده يزيد خليفة على رقاب المسلمين أجابها: «ان أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم».(٢٠١).

إن الكمّ الهائل من أحاديث الجبر التي وضعها أتباع الأمويين وبتشجيع منهم، لم تجد طريقها فقط نحو متون الأحاديث وموسوعاته. بل تحولت مع مرور الأيام وبعد أن تلقاها الفقهاء والمحدثون بالقبول الى عقيدة الجماهير

(٢٠٠) ويروى أن عطاء بن يسار ومعبد الجهني قالا للحسن البصري: «هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم، ويقولون: «إنما تجري أعمالنا على قدر الله»؟!.

(٢٠١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج١ ص١٦٧، بتوسط السبحاني، ج١ ص٢٤٠، ويذهب الشيخ أبو زهرة الى أن الجبر قد شاع في أول العصر الأموي وكثر حتى صار مذهباً في آخره. وبين أيدينا رسالتان لعالمين جليلين عاشا في أول العصر الأموي ذكرهما المرتضى في كتابه «المنية والأمل». إحداهما لعبد الله بن عباس يخاطب جبرية أهل الشام وينهاهم عن هذا القول ويقول فيها: «أما بعد أتامرون الناس بالتقوى وبكم ضل المتقون، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون، يا أبناء سلف المنافقين، وأعوان الظالمين وخزان مساجد الفاسقين، هل منكم إلا مفتر على الله يجعل إجرامه عليه سبحانه وينسبه علانية إليه . . .» أنظر المذاهب الإسلامية، ص١٧٢ .

العامة من المسلمين، حيث ملأت عليهم وجدانهم لقرون متعددة. ولقد بدأ صبح هذا الليل الجبري الطويل ينبلج شيئاً فشيئاً مع رفض بعض العلماء والفقهاء والمفكرين من أهل السنة والجماعة تقليد الآباء في هذه المسألة، والدعوة الى عقيدة الاختيار والمسؤولية، وتبيان الحد الفاصل بين الجبر والإختيار في الحياة الانسانية.

يقول محمد الغزالي المفكر الاسلامي المعاصر: «لقد شاء الله ـ لحكمة لانعلمها ـ ان يخلقنا ويكلفنا، وقال في وضوح: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾» فجاء من يزعم أن الحياة رواية تمثيلية خادعة! وان التكليف أكذوبة! وأن الناس مسوقون الى مصايرهم المعروفة أزلاً طوعا أو كرها! وأن المرسلين لم يبعثوا لقطع أعذار الجهل، ومنع الإحتجاج المرفوض، بل المرسلون خدعة تتم بها فصول الرواية أو فصول المأساة.!.

والغريب ان جمهوراً كبيراً من المسلمين يجنح الى هذه الفرية، بل إن عامة المسلمين يطوون أنفسهم على مايشبه عقيدة الجبر، ولكنهم حياء من الله يسترون الجبر باختيار خافت موهوم.

وقد أسهمت بعض المرويات في تكوين هذه الشبهة وتمكينها، وكانت بالتالي سبباً في إفساد الفكر الإسلامي، وانهيار الحضارة والمجتمع.

إن العلم الإلهي الذي ذكرنا شموله وإحاطته وصاف كشاف. يصف ماكان ويكشف مايكون، والكتاب الدال عليه يسجل للواقع وحسب! لا يجعل السماء أرضا ولا الجماد حيوانا، انه صورة تطابق الأصل بلازيادة ولانقص، ولا أثر لها في سلب أو إيجاب.

وعندما يذكرنا ربنا بهذا كله فلكي يكشف لنا جانبا من عظمته حتى نقدره حق قدره.

وعندما نتعلم منه أن مانجهل من مستقبل، هو مكشوف لديه فليس معنى هذا أن الإمتحان الذي نتعرض له صوري وأننا مسوقون الى هذا المستقبل

برغم أنوفنا. إن هذه الأوهام تكذيب للقرآن والسنة، فنحن بجهدنا وكدحنا ننجو أو نهلك. والقول بأن كتابا سبق علينا بذلك، وأنه لاحيلة لنا بإزاء ماكتب أزلا... هذا كله تضليل وإفك لقوله تعالى: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها..﴾. ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

والواقع ان عقيدة الجبر تطويح بالوحي كله. وتزييف للنشاط الإنساني من بدء الخلق إلى قيام الساعة. بل هي تكذيب لله والمرسلين قاطبة»[٢٠٢].



(٢٠٢) محمد الغزالي ، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ، دار الشروق ، ط ٥ - ١٩٨٩م ، ص١٤٤ - ١٤٥ .

وأخيــــراً

إن هذا التراث العقائدي الحشوي الموغل في التشبيه والتجسيم والذي جمع في مصادر وكتب، سيكتب له البقاء والحياة الى يوم الناس هذا، بفضل عناية رجال تولوا حراسته وحفظه والدفاع عنه. بعدما احتضنته رحم المذهب الحنبلي، واعترفت السلطات في العالم الاسلامي بشرعية هذا المذهب وأحقيته في البقاء والإنتشار. فكان ان ظهر ابن تيمية الحراني وهو أحد الأبناء الشرعيين لهذا المذهب، فاطلع على ذلك التراث وفحصه وآمن به، ومن ثم طفق يدعو له ويجادل خصومه ويدافع عنه بكل الوسائل المشروعة والغير المشروعة، حتى تمكن من بعثه من جديد و قد كاد يندرس، فنفخ فيه من روحه وتولاه بعنايته.

واذا كان هذا الحشو يفتقر الى العقلانية في أكثر جوانبه فإنه سيقوم بمحاولة عقلنته، أي الدفاع عنه في إطار جدلي يوهم المؤمن به أن لهذا الحشو بناءات شرعية وعقلية، وأن المضامين النهائية لما احتواه هذا التراث الضخم من الحشو، هي ماكان عليه الصحابة وسلف الأمة الصالح، فهو الحق وغيره الباطل لامحالة.

واذا كانت هذه الحركة البعثية والتجديدية التي عرفها الحشو على يد ابن تيمية الحراني وتلميذه ابن قيم الجوزية، قد أحيط بها وأخمدت أنفاسها بعيد موت هذين الشيخين بالذات، فإن تراث الحشو كان له موعد آخر مع القدر وذلك على يد حنبلي آخر هـو محمد بـن عبدالوهاب النجدي الذي سيتخـذ مـن هذا التراث ـ وخصوصا في قالبه الجديد الذي صنعه له أستاذه ابن تيمية ـ منطلقا للدعوة الى التجديد العام في الجزيرة العربية.

الفصل الثالث

تقي الدين أبو العباس ابن تيمية الحراني الحنبلي و «عقلنة الحشو»



«وقد إستمرت فتن المخدوعين من الرواة على طول القرون مجلبة لسخط الله تعالى، ولإستخفاف العقلاء، من غير أن يخطر ببال عاقل أن يناضل عن سخافات هؤلاء، إلى أن نبغ في أواخر القرن السابع بدمشق. حراني تجرد للدعوة إلى مذهب هؤلاء الحشوية السخفاء. متظاهراً بالجمع بين العقل والنقل على حسب فهمه من الكتب، بدون أستاذ يرشده في مواطن الزلل، وحاشا العقل الناهض والنقل الصحيح أن يتظافرا في الدفاع عن تحريف السخفاء إلا إذا كان العقل عقل صابئي والنقل نقل صبي».

[الشيخ محمد الكوثري المصري مقدمة «السيف الصقيل»]


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تمهيـــــد

من ذا الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن ذا الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني، وياليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسيا[١]. كلمات تكاد تنفطر حزناً وكمداً ابتدأ بها المؤرخ إبن الأثير حديثه عن هجمة التتار على الدولة الإسلامية وما أحدثوه من خراب ودمار، كان له أبلغ الأثر في تقهقر الحضارة الإسلامية وانتكاستها.

إنطلق الهجوم التتري على شرق الدولة الإسلامية أبتداء من (سنة ٦٠٣هـ)، وفي جمادى الأولى من (سنة ٦٦٦هـ) كان هولاكو خان القائد التتري يستعد لمغادرة بغداد بعد أن دخلها وخرب عمرانها وقتل عشرات الألوف من أبنائها. إن سقوط بغداد دار الخلافة وعاصمتها بيد هؤلاء الهمج المتوحشين قد أشاع الرعب والجزع في قلوب المسلمين في باقي الحواضر الإسلامية والتي لم يصل التتر إليها بعد، مثل الشام ومصر. ولربما كان لهذا الخوف والهلع وما تناقله الهاربون من أخبار عن شراسة ودموية التتر أثره في إثارة الهمم وإيقاظ العزائم الخائره، كي تهب ليس فقط دفاعاً عن الأرض، ولكن لمواجهة موت شبه محتوم على أيدي هؤلاء الوحوش.

لقد بدأت طلائع الجيش التتري تشرف على مداخل الشامات بعد سقوط بغداد، بل إنهم وصلوا فعلاً الى عين جالوت وغزة في فلسطين. حيث كان في نيتهم الإستيلاء على بلاد الشام، لكن يد القدر تدخلت هذه المرة لصالح المسلمين، لإنقاذ ما يمكن انقاذه. فالتفت الجماهير الخائفة من الموت حول

(١) إبن الأثير ، الكامل في التاريخ . ج١٢ ص٣٥٨ ، بتوسط الملل والنحل ، ج٤ ص١٦.

الملك المظفَّر قطز (٦٥٩ - ٦٧٦هـ)، حيث كان الدفاع مستميتاً، لقي معه التتر الهزيمة تلو الهزيمة، بدأ معها هذا الطوفان الوحشي في الأنحسار الى أن توقف نهائياً، بموت تيمورلنك الذي أعلن إسلامه. وعليه فقد إستمر الهجوم التتري قرابة المائتي سنة تقريباً. حيث إنطلق الغزو سنة (٦٠٣هـ) وانتهى سنة (٨٠٧هـ).

أما الحروب الصليبية فقد بدأت سنة (٤٨٩هـ) ولم تنتهي إلا سنة (٦٦٠هـ) عندما إستطاع المسلمون إسترداد كل ما استعمره الصليبيون من مدن وجيوب بحرية في فلسطين وشمال مصر. في الوقت نفسه الذي كان المسلمون في الأندلس يتعرضون لموجة الطرد والإبادة على يد الإسبان وجحافل الجيش الصلبي الأوربي. لقد مني الإسلام والمسلمون بين سنة (٥٠٠هـ - ٩٠٠هـ) بهزائم فظيعة وتكاثفت عليهم المحن والفتن كقطع الليل المظلم.

إنها بحق كما يقول المحقق السبحاني: شر القرون بالنسبة الى المسلمين، فقد حلت بهم عقوبات وضحايا لم يسجل التاريخ لواحد من الأمم مثلها[٢].

❋ ❋ ❋

(٢) بحوث في الملل والنحل، ج٤، ص٢٢.

ابن تيمية حياته وتحصيله العلمي

□ المولد والهجرة :

في جو الهزيمة الشاملة وتكالب أمم الأرض على الأمة الإسلامية، وفي ظل الفتن والمحن واختلال الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية والدينية بشكل عام، ولد أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية الحراني[٣] ثم الدمشقي، الحنبلي. يوم الأثنين عاشر ربيع الأول بحران سنة أحدى وستين وستمائة (٦٦١هـ)[٤]. أي بعد خمس سنوات من سقوط بغداد في يد المغول.

تعتبر مدينة حران[٥] مولد ومنشأ أحمد ابن تيمية موطن الصابئة منذ أقدم

(٣) يلقب إبن تيمية بالحراني نسبة الى حران ، واعترض صاحب القاموس على ذلك لأن النسبة الى حران هي حرناني وهي نسبة سماعية ، ويخطيء من يقول حراني وهي للنسبة القياسية. يقول الدكتور السيد الجميلي : «وقد لفت الأنظار الى أنه ليس عربي الأصل نسبة الى القبيلة لأن العرب تنتسب عادة الى القبيلة، ولكن هذا لا يقدح في كرامة الرجل ولايقلل من شأنه وعلمه بحال؟! سبحان الله تراهم عند ذكر أحمد بن حنبل يعتبرون كونه عربياً إحدى المميزات التي تنضاف الى شخصه ولو كان الكلام عن خصم مذهبي لغمز في نسبه وعرقه!؟ .

(٤) البداية والنهاية ، ج١٤ ص١٤٢ ، كان سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ .

(٥) تقع حران في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات وقد كانت موطن الصابئة قبل الاسلام فيها سدنتهم السبعة عشر ، وبها تل عليه مصلاهم الكبير يعظمونه وينسبونه الى إبراهيم الخليل عليه السلام . فتحها المسلمون على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، وبقيت في حوزة المسلمين يتولاها أمراء الدولة التي حكمت المنطقة خصوصا السلاجقة والأيوبين والماليك وقد احتلها الروم أكثر من مرة ولما أستولى المغول على بغداد وعقدوا العزم على غزو الشام كانت حران اولى المحطات في طريقهم لأنها بوابة الشام من ==

العصور. وقد أستمر وجودهم بها بعد الفتح الإسلامي بالإضافة الى الوجود المسيحي لقربها من مدينة الرها ذات الأغلبية النصرانية. حيث ولد هرقل إمبراطور الروم.

تقع هذه المدنية في صحراء الجزيرة بين دجلة والفرات زارها الرحالة ابن جبير سنة (٥٨٠هـ) فوصف أجواءها وطبيعتها بعبارته المسجوعة. فقال: بلد لاحسن لديه، ولا ظل يتوسط برديه[٦] فلا يألف البرد ماؤه، ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه ولاتجد فيها مقيلا، ولا تتنفس فيها إلا نفسا ثقيلاً، قد نبذ بالعراء. ووضع في وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة وتعرت أعطافه من ملابس النضارة[٧].

واذا كانت الصراعات السياسية والمذهبية قد أوجدت لها مناطق نفوذ جغرافية عرفت عبر تاريخ الإسلام، حتى أضحت من مسلمات التاريخ. فإن منطقة حران قد إشتهرت بولائها الشديد لبني أمية، وتوارث أبناؤها هذا الولاء جيلا بعد جيل، الى عصر ابن تيمية. هذا الولاء الذي تترجمه حادثة تاريخية مهمة وعميقة ذلك عندما أمر عمر بن عبدالعزيز بوقف لعن الإمام علي بن أبي طالب على المنابر، فقد ساء أهالي حران هذا المنع وقالوا: «لاصلاة إلا بلعن أبي تراب»[٨].

وأما مذاهب أهلها فمنذ ان تقسم الناس على المذاهب كانت حران موطن الحنابلة لا ينازعهم فيها أحد. وتخرج منها علماء كثيرون فقهاء ومحدثون لا

= جانب الموصل لذلك لم تسلم من التخريب والنهب مما دفع بسكانها الى الهجرة والهروب عنها خوفاً من القتل والنهب ومنهم أسرة إبن تيمية . أنظر للمزيد من التفصيل . معجم البلدان وأحسن التقاسيم.

(٦) أي برد الصباح وبرد المساء .

(٧) إبن تيمية حياته عقائده ، موقفه من الشيعة وأهل البيت . صائب عبد الحميد مركز الغدير للدراسات الإسلامية ، ط١ ـــ ١٩٩٤م ، ص٢٥ .

(٨) د . علي الوردي ، وعاظ السلاطين ، دار كوفان ، لندن ط٢ ، ١٩٩٥م ، ص١٦٣ .

تجد بينهم غير الحنبلي الا أن يكون مولده ونشأته بعيداً عنها[٩].

وإذا كان تقي الدين ابن تيمية ولد ونشأ في حران، المدينة التي وصفنا جغرافيتها الطبيعية والسياسية والمذهبية. فإنه سينتقل هو وعائلته للإستقرار في دمشق. وذلك سنة (٦٦٧هـ) فراراً من طلائع الجيش المغولي. التي أضحت على أبواب حران والمناطق المجاورة لها. في دمشق إستقرت الأسرة الهاربة من بطش المغول، لتبدأ مرحلة جديدة من حياة الطفل الحراني نحو التحصيل العلمي والمطالعة في كتب التراث الإسلامي، وصولا الى مرحلة الإستاذية والتدريس في مدارس دمشق وجوامعها.

□ التحصيل العلمي :

لقد ولد تقي الدين بن تيمية في بيت المشيخة الحنبلية حيث حمل لواء هذا المذهب أفراد هذه الأسرة الواحد تلو الآخر. عرف منهم محمد بن الخضر بن تيمية وقد كان شيخ الحنابلة وخطيب حران طيلة حياته. ثم جاء بعده إبنه عبدالغني وابن عمه عبدالسلام بن عبدالله بن الخضر المتوفي سنة (٦٥٢هـ) وهو جد تقي الدين بن تيمية. وقد توالت سلسلة المشايخ الذين تعاقبوا على رئاسة هذا المذهب بحران الى أن تولى الخطابة والمشيخة بها والد أحمد ابن تيمية. عبدالحليم بن عبدالسلام (٦٢٧ ــ ٦٨٢هـ) والذي سيغادرها الى دمشق فراراً من الغزو المغولي كما أسلفنا.

إستقرت أسرة ابن تيمية في رحاب دمشق واستطاع أبوه أن يحصل على كرسي التدريس بجامعها. وما لبث أن أسندت اليه مشيخة دار الحديث السكرية في القصاعين محل سكناه[١٠].

تلقى ابن تيمية تعليمه الأول في حلقات أبيه الدراسية لينتقل بعدها متتلمذاً

(٩) إبن تيمية ، مرجع سابق ، ص٢٥ .

(١٠) إبن تيمية ، مرجع سابق ، ص٥٥ .

على يد مجموعة من المشايخ والأساتذة، على رأسهم أحمد بن عبدالدائم المقدسي المحدث الحنبلي، وابن أبي اليسر التنوخي وعبد الرحمن بن أبي عمر ابن قدامة المقدسي الحنبلي المتوفي سنة (٦٨٢هـ). وغيرهم من المشايخ. كما تتلمذ على يد مجموعة من النساء المحدثات مثل زينب بنت أحمد المقدسية، وزينب بنت مكي الحرانية. درس على هؤلاء جميعاً وآخرين: علوم الحديث والرجال واللغة والتفسير والفقه والأصول. وقرأ بنفسه، ونسخ كتباً بيده منها سنن أبي داود. وكان حاد الطبع حديد الذهن، قوي الحافظة، برز على أقرانه ولما يجاوز العشرين من عمره وكان أبوه يعلمه الإفتاء ويدربه عليه ليعده لخلافته بعد موته[١١].

إرتقى ابن تيمية كرسي التدريس في جامع دمشق مباشرة بعد وفاة والده وكان أول درس ألقاه في التفسير حيث حضر جمع من الطلبة والعلماء فشرح وفصل وأطال وأظهر محفوظاته وتخريجاته ومدى إطلاعه الواسع. جعل الحاضرين يستحسنون طريقته ويثنون عليه. وبذلك خطا أولى خطواته نحو الشهرة والصيت الذائع.

إستمر ابن تيمية في التدريس وإلقاء الدروس بالجامع، ولم يعد درسه يقتصر على التفسير بل تعداه، الى الفقه الذي سيخوض ميدانه ليس كمقلد ناقل لفتاوي المذهب الحنبلي، ولكن كمجتهد له الحق في إبداء رأيه والتفرد بفتاوى جديدة لم يخالف بها المذهب الحنبلي فقط، بل خالف بها ما أجمعت عليه المذاهب الفقهية الأربعة. واذا كانت تلك الفتاوى الجديدة التي أعلنها السبب الرئيسي في شهرته، فإنها كانت كذلك سببا في محنته،

(١١) المرجع السابق، ص٥٧ . إشترك إبن تيمية في تدوين كتاب في الفقه الحنبلي بدأه جده وعمل فيه أبوه وأتمه هو. لذلك يعده أكثر العلماء حنبلياً خالصاً وكان يدافع عن الحنابلة. وآراؤه مشتقة أصلاً من المذهب الحنبلي. وهو يعتبر مذهب أحمد أمثل المذاهب الإسلامية واقربها الى السنة وابعدها عن الغريب. أنظر «المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب» عبدالرزاق محمد أسود ، ج٢ ص٢٣٣.

والشرارة التي أشعلت نار الصراع المرير الذي خاضه مع مخالفيه من أتباع المذاهب الأصولية والفقهية المتواجدة على الساحة الفكرية والدينية.

وإذا كانت الفتاوى الفقهية التي تفرد بها وخالف بها جمهور الفقهاء والمقلدين للمذاهب سببا لما تعرض له من محن فإن إعتقاداته الخاصة وآراؤه الكلامية، خصوصاً فيما يتعلق بالتوحيد والعدل. قد فجرت الصراع مبكراً بينه وبين خصومه من أهل السنة بالخصوص، الذين إعتبروا ما جاء به وما يدعو له لا يعدو الهرطقة والخروج عن التوحيد والتنزيه والسقوط في شراك التشبيه والتجسيم.



الفتوى الحموية وانفجار الصراع

□ الصفات الخبرية والنص على التجسيم :

في سنة (٦٩٨هـ) وردت على ابن تيمية رسالة من أهل حماة يسألونه: «ما قول السادة العلماء أئمة الدين أحسن الله إليهم أجمعين في آيات الصفات، كقوله تعالى ﴿الرحمان على العرش استوى﴾ وقوله: ﴿ثم استوى الى السماء﴾ الى غير ذلك من الآيات وأحاديث الصفات. وأيضاً كقوله(صلى الله عليه وآله وسلم): «ان قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمان» وقوله: «يضع الجبار قدمه في النار» الى غير ذلك، وما قالته العلماء فيه، وليبسطوا القول في ذلك مأجورين ان شاء الله[١٢] فكان أن فأجاب بما هو نص في التجسيم[١٣].

أي بما تعتقده الحشوية في مسألة الصفات الخبرية. سواء ما صح منها أي ما ورد في القرآن، وما صح من سنة الرسول(ص) أو ما جاء في الأحاديث التي إختلقها الوضاعون أو مرويات أهل الكتاب وعلى الخصوص مجسمة اليهود. وقد أوردنا في حديثنا السابق[١٤] حول هؤلاء الحشوية مجموعة الأحاديث، معتمدهم في أعتقاد التجسيم والتشبيه، والتي سيعتمدها ابن تيمية عقيدة سلفية وسينافح عنها بكل ما أوتي من قوة بيان وحجج عقلية. وناصر فيها عقيدتهم حيث نسبوا الى الله تعالى صفات هي من صفات الأجسام،

---

(١٢) الرسالة الحموية ، ص٤٢٥ ، طبعت ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ، ج١.

(١٣) بحوث في الملل والنحل ، ج٤ ، ص٣٢.

(١٤) أنظر تعريف الحشوية في الفصل الأول ، وابن تيمية ،مرجع سابق ، ص٥٩ ــ ٦٠.

كالوجود في جهة واحدة والإستواء على العرش حقيقة. والحركة والإنتقال، وأن الوجه والأيدي والأعين والأرجل المذكورة في بعض الآيات والأحاديث انما هي على الحقيقة دون المجاز(١٥).

لقد كانت الفتوى الحموية السبب الرئيسي لمحنته وشهرته معاً. وذلك لأن ابن تيمية سيبدأ بعرض هذه العقيدة على العامة ومن على منبر الجامع في دمشق. يقول إبن بطوطة في رحلته تحت عنوان «الفقيه ذي اللوثة»(١٦) كان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية. كبير الشام يتكلم في الفنون، إلا أن في عقله شيئاً..الى أن قال: وكنت إذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم. فكان من جملة كلامه أن قال: «إن الله ينزل الى السماء الدنيا كنزولي هذا ونزل درجة من المنبر»(١٧).

وهذه الحادثة ذكرها أكثر من واحد. إلا أنها ليست المأخذ الوحيد لدى خصومه من أهل السنة، لأن أغلبهم سيعتمد على ماورد في الفتوى الحموية وكذا ما يتناقله الطلبة والعامة من مستمعيه في المسجد الجامع.

لقد وصلت عقيدة ابن تيمية وفتاواه مسامع العلماء المعاصرين له فقاموا للرد عليه ولبيان أن مذهبه في الصفات الخبرية، يفضي الى التجسيم والتشبيه، وهو خلاف التنزيه الذي يعتقده أهل السنة والجماعة من الأشاعرة. كما ردوا على فتاويه الفقهية، إما لمخالفتها الإجماع ـ أي إجماع فقهاء المذاهب الأربعة ـ أو لخطئها وعدم صحتها بالمرة.

إن اعلان ابن تيمية لعقيدة التجسيم وغيرها من الآراء الفقهية المخالفة وما

---

(١٥) إبن تيمية ، مرجع سابق ، ص٥٩ ـــ ٦٠

(١٦) اللّـوثة بالضم : مس جنون.

(١٧) رحلة إبن بطوطة ، ص٩٥ ، ذكر القصة إبن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة ، ج٦، ص١٥٤. أنظر ابن تيمية ، صائب عبد الحميد ، م س.

تبع ذلك من ردود كتابية وفتاوى مناهضة ومناقضة لما ذهب له. قد اثارت الرأي العام حوله فوقعت معها بعض الفتن، تدخلت على إثرها السلطات السياسية آنذاك فعقدت لهذا الفقيه الحنبلي عدة مناظرات ومحاورات، بحضور علماء المذاهب الفقهية والأصولية وباشراف السلطات السياسية. يقول إبن كثير في حوادث سنة (٦٩٨هـ): «قام عليه ـ أي على ابن تيمية ـ جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره الى مجلس القاضي «جلال الدين الحنفي» فلم يحضر. فنودي في البلد في العقيدة التي كان قد سأله عنها أهل حماة المسمى بالحموية[١٨].

□ علماء أهل السنة يردون على ابن تيمية :

لم تهدأ ثائرة الفقهاء، مع كثرة الردود والتعرض والنقض لعقيدة هذا المجتهد الحنبلي. وذلك لأن ابن تيمية لم يتوانَ ولم يتراجع عن إفشاء وعرض ما يراه من آراء، وإن كانت خلاف ما تراه الأغلبية من علماء أهل السنة وفقهائهم. ففي سنة (٧٠٥هـ) أُحضر ابن تيمية عند نائب السلطنة بالقصر واجتمع القضاة لمناقشة «عقيدته الواسطية» توالت بعدها عدة مجالس وناظره علماء أهل السنة مثل الشيخ تقي الدين الهندي والشيخ كمال الدين الزملكاني، وقد إنتهت هذه المساجلات الكلامية والمناظرات العقائدية والفقهية بين ابن تيمية وخصومه كما يقول ابن كثير «بأن إدعي عليه عند ابن مخلوف المالكي بأنه يقول: ان الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت. فحكم عليه القاضي بالحبس في برج أياما، ثم نقل منه الى الحبس المعروف بالجب. وكتب كتاب نودي به في البلاد الشامية والمصرية، وفيه الحط على الشيخ تقي الدين. فانضم الى صفه جماعة كثيرة من الفقهاء والفقراء. وجرت فتن كثيرة منتشرة وحصل للحنابلة بالديار المصرية إهانة عظيمة[١٩].

---

(١٨) البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص٤ ــ ٢٦ .

(١٩) البداية والنهاية ، ج١٤ ص٤٠ .

ظل الشيخ مسجوناً في قلعة الجبل بمصر قرابة السنة والنصف، الى أن أفرج عنه في ربيع الأول من (سنة ٧٠٧هـ) لكنه لم يبرح أن أدخل سجن القضاة مرة ثانية، بدعوى ان في آرائه قلة أدب بساحة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ولما أُفرج عنه في مستهل (سنة ٧٠٨هـ) أخذ للإقامة في مدينة الإسكندرية حيث وقعت بينه وبين طوائف من الصوفية مساجلات وفتن كثيرة.

عاد ابن تيمية الى موطنه دمشق (سنة ٧١٢هـ) فاشتغل بالتدريس والإفتاء، وبقي على حاله من إصدار الفتاوى والآراء الجديدة المخالفة لما عليه المذاهب الأربعة، سواء في الأصول أو الفروع، فعقدت له مجالس أخرى للمناظرة حبس على أثرها بالقلعة خمسة أشهر ليطلق سراحه بعد ذلك.

وفي سنة (٧٢٦هـ) حدثت فتن كبيرة في دمشق بسبب فتواه بتحريم شد الرحال الى قبور الأنبياء والأولياء، فأمر السلطان بادخاله القلعة. حيث تفرغ للتأليف والرد على خصومه ومراسلة أتباعه ومحبيه. مما جعل الفتنه غير قابلة للإخماد، حتى مُنع الورق والدواة وأخرجت كل كتبه من عنده.

وفي ليلة الإثنين (٢٠ذي القعدة من سنة ٧٢٨هـ) لفظ الشيخ أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية آخر أنفاسه في قلعة دمشق عن عمر يناهز الثامنة والستين عاماً. ودفن بمقابر الصوفية. يقول ابن كثير: وكثير من الفقهاء والفقراء يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة، مما ينفر منها طباع أهل الأديان فضلا عن أهل الإسلام[٢٠].

□ الفتاوى الجديدة لابن تيمية في الفقه :

لم تكن الفتوى الحموية أو القول بالجهة وما يتبع ذلك من التجسيم والتشبيه، الخلاف العقائدي الوحيد بين الشيخ ابن تيمية ومخالفيه من أهل

(٢٠) المرجع السابق ، ج١٤ ، ص١٤٣.

السنة. ولكن يضاف الى ذلك مجموعة آراء أخرى جريئة في العقائد والفقه وكذا في التاريخ. أما فيما يخص الفقه فقد ذكر إبن العماد الحنبلي أهم هذه الفتاوي المخالفة وهي خمسة عشر مسألة نذكر منها.

١ ــ إرتفاع الحدث بالماء المعتصر، كماء الورد ونحوه.

٢ ــ المائع القليل لاينجس بوقوع النجاسة فيه حتى يتغير. حكمه حكم الكثير.

٣ ــ جواز التيمم خشية فوات الوقت مع توفر الماء .

٤ ــ تارك الصلاة عمدا لايجب عليه القضاء ولايشرع له .

٥ ــ جواز القصر في مسمى السفر طويلا كان أو قصيراً.

٦ ــ من أكل في شهر رمضان معتقداً أنه ليل، وكان نهاراً فلا قضاء عليه.

٧ ــ جواز طواف الحائض ولا شيء عليها.

٨ ــ الحلف بالطلاق لا يقع وعليه كفارة.

٩ ــ الطلاق المحرم لا يقع.

١٠ ــ الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة.

وهذه الفتاوى التي تفرد بها عن مذهبه أو خالف بها إجماع المذاهب الفقهية الأخرى لم تكن لتثير عليه ما أثارته عليه فتواه الخاصة بالعقيدة. بالإضافة الى مسألة الطلاق الثلاث. والتي قال بأنها لا تقع إلا واحدة خلافا لعمر بن الخطاب، الذي أخذ الجمهور عنه هذا الإجتهاد واعتمدوه.

ومن القضايا المهمة التي وقع الإختلاف حولها بينه وبين خصومه. والتي ستبعث من جديد على أيدي أتباعه وأتباع تلميذه محمد بن عبدالوهاب نذكر.

ــ تحديد مفهوم العبادة والشرك.

ــ تحديد مفهوم البدعة والإبتداع في الدين وحدّهما.

ـ التوسل والتبرك بالنبي وآثاره.
ـ التوسل بالأولياء والأئمة.
ـ شد الرحال لزيارة قبر النبي أو قبور الأولياء.
ـ البناء على القبور والصلاة عندها سواء قبور الأنبياء أو الأولياء، وكذا النذر لأهلها، بالإضافة الى مواضيع أخرى متفرعة عما ذكرناه من عناوين. أو قضايا أخرى تمس تاريخ الإسلام كرأيه في الصحابة ورأيه المتميز في ملوك بني أمية ودفاعه المستميت عن يزيد بن معاوية قاتل الحسين بن علي رضي الله عنه.

بالإضافة الى قضايا أخرى فلسفية وكلامية هاجم فيها أهل السنة وغيرهم، مثل خلق القرآن والجبر والإيمان بالعلل وغيرها من المسائل الدقيقه في أبواب التوحيد والعدل. وكذا إعتراضه على بعض معتقدات الصوفية. الى جانب حربه وهجومه على الشيعة بشكل عام والإمامية بالخصوص.

أهم هذه المعتقدات والآراء لإبن تيمية، وكذا ردود خصومه أفردنا لها فصولاً خاصة. أما فيما يتعلق بآرائه ومعتقداته الأصولية والفقهية التي خالف بها أهل السنة والجماعة، فإنا بعون الله سنفصل القول فيها، وذلك في الباب الذي عقدناه تحت عنوان السلفية وأهل السنة، على اعتبار أن أتباعه الجدد يرددون أقواله وفتاواه ويعتمدونها كفيصل بين الحق الذي معهم، وبين الضلال الذي بين يدي خصومهم أهل السنة والجماعة.

أما موقفه من الشيعة فإن باب «السلفية والإمامية» قد خصص لمعالجة هذا الموضوع الشائك، والذي تطرح قضاياه اليوم بإلحاح، حيث اختلط الحق فيه بالباطل، وصعب على ذوي الحجا فهم خباياه.

أما الآن فسنحاول أن نتتبع الخلفيات الفكرية التي جعلت هذا الشيخ الحنبلي يفتي بما أفتاه في «حمويته» أو عقيدته الواسطية والذي أثار عليه علماء أهل السنة والجماعة فاتهموه بانتجسبم والتشبيه. وكذا تسليط الضوء على محاولته لمعالجة ذلك الكم الهائل من أحاديث الحشو الذي صدر عنه، وهو

الحنبلي العريق في حنبليته. وكيف توصل الى إضفاء نوع من العقلنة على هذا التراث الحشوي، والخروج بنتائج ومعتقدات، وضعها في قوالب نسبها الى السلف الصالح واعتمدها من جاء بعده من (تلاميذه) على أنها مذهب السلف في العقائد، الواجب إتباعه، ضال من تنكب عن طريقه.

كنا قد تتبعنا آراء المعاصرين من فقهاء علماء المذاهب الإسلامية في هذا الرجل لمعرفة القضايا المهمة التي اختلفوا معه فيها من خلال ردودهم العامة. أما تفصيل القضايا فقد أفردنا له مكاناً خاصاً كما ذكرنا سابقاً. وأخيراً اذا كان البحث العلمي قد أوصلنا في الفصول السابقة الى تحديد ومعرفة الجذور التاريخية والنظرية لإتجاه الحشو، وأن ما يطلق عليه اليوم «مذهب السلف» ما هو إلا نسخة معدلة مطورة لهذا الإتجاه. إكتسب شرعيته من انتسابه لمحدث مشهور، وتوالت عليه مجموعة من المحدثين ورجال الفقه، تؤسس بنيانه وتدعم صرحه.

وإذا أطلق على ذلك البناء أسم «المذهب الحنبلي» فإن النسخة المعدلة منه، مع إبن تيمية واتباعه سيختار لها عنوان أشد جاذبية وأكثر غموضاً وصعوبة عند التعريف: إنه «مذهب السلف».

لقد ثبت أن الإمام أحمد إبن حنبل لم يكن فقيها بالمعنى الاصطلاحي لدى أهل السنة والجماعة، فهل كان شيخ الإسلام ابن تيمية سلفياً كما ادعى هو وادُّعي له؟.

أم أننا سنصل الى نفس النتيجة التي وصلنا إليها أثناء بحثنا في تعريف مصطلح السلف؟! وهي أن «مذهب السلف» ليس سوى مذهب شيخ الإسلام إبن تيمية، سواء أكان في العقائد أم في الفروع. أما محاولة الجمع بين ما يمكن أن يسمى مذهب السلف أي ما اعتقده ورآه الصحابة والتابعون وجملة علماء القرون الثلاثة الأولى وما أفصح عنه لسان وقلم ابن تيمية الحنبلي؟! فنعتقد أنها محاولة فاشلة وسطحية لا يمكنها أن تعبر نهر الحقيقة إلا على جسر الكذب والتحريف والإفتراء على التاريخ الإسلامي وشخصياته جملة وتفصيلاً.

عقلنة الحشو

قلنا سابقاً في تعريف «الحشوية» أو أهل الحشو: لقب تحقير أطلق على أولائك الفريق من أصحاب الحديث الذين اعتقدوا بصحة الأحاديث المسرفة في التجسيم من غير نقد، بل فضلوها على غيرها وأخذوها بظاهر لفظها[٢١] كما نزعوا الى الفهم الحرفي لتلك الأحاديث مما أدى بهم الى الوقوع في التجسيم الصريح، والتشبيه أي تشبيه صفات المخلوقات والأشياء المادية الجسمية الى الله سبحانه وتعالى[٢٢].

كان هؤلاء المحدثين وبسطاء الرواة الذين استهوتهم تلك الأحاديث، بادىء الأمر شرذمة مختلفة المشارب والنزعات تتقاذفهم المذاهب والتيارات. الى أن إلتأم شملهم مع ظهور المذهب الحنبلي للوجود. حيث سينضمون إليه زرافات، جعلت هذا المذهب المختلق لا يُعرف إلا بهم. بل أصبح الإطار المذهبي الذي يستظلون به ويصدرون عنه. لذلك نجد المؤرخ الصفدي عندما تعرض لهذا المذهب ـ أي الحنبلي ـ يقول في أتباعه «والغالب في الحنابلة الحشوية». كما أن جل المؤرخين متسالمون على وصف غالبية أتباع هذا المذهب بأنهم حشوية مجسمه[٢٣].

وقد احتضن هذا المذهب بالفعل، مجموعة المصادر التي احتفظت وجمع فيها تراث الحشو بكامله تقريباً وهي كما ذكرنا سابقا وأوردنا بعضاً من

(٢١) دائرة المعارف الإسلامية ، دار المعرفة ، بيروت ، مادة الحشو ، ج٧ ، ص٤٣٩ .
(٢٢) المدخل الى دراسة علم الكلام ، مرجع سابق ، ص٧٦ .
(٢٣) أنظر التعاريف «الحشوية».

مروياتها: كتاب السنة لعبد الله بن أحمد، وكتاب التوحيد لأبن خزيمة، وكتاب «السنة» للأثرم صاحب أحمد[٢٤]، وكتاب «السنة» للخلال، وكتاب «العلو للعلي الغفار» للذهبي المحدث، والنقض لعثمان بن سعيد الدارمي السجزي[٢٥]. بالإضافة الى ما أعتقدوه من فتاوي وتفاسير وآراء قال بها رؤساء المذهب وفقهاؤه. مثل ابن الزاغوني وابن حامد والقاضي أبو يعلى[٢٦]، وغيرهم من الحشوية الحنبلية الذين تكفل ابن الجوزي الحنبلي بالرد عليهم وتسفيه أحلامهم.

إن هذا التراث العقائدي الحشوي الموغل في التشبيه والتجسيم والذي جمع في كتب ومصادر سيكتب له البقاء والحياة بفضل عناية رجال تولوا حرسه وحفظه خصوصاً لما أعتبر كتراث نظري للمذهب الحنبلي. على رغم الهجومات التي تعرض لها من طرف علماء أهل السنة وفقهائهم.

لقد وُلد إبن تيمية إبناً شرعياً للمذهب الحنبلي، فنشأ وترعرع متشبعاً بأجوائه العقائدية والفروعية. فكان أن إطلع على هذا الكم الهائل من الحشو وغيره من تراث المذهب الحنبلي. فدرسه وآمن به وطفق من ثم يدعو له وينافح عنه مجادلاً خصومه، بفضل ما أوتي من إطلاع واسع على الكثير من مجالات المعرفة العربية والإسلامية، ليتمكن من إعطائه بعض الإعتبار الجديد،

(٢٤) هو أحمد بن محمد الأثرم ، كان من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل . كان معه تيقظ حتى نسبه يحي بن معين ويحي بن ايوب المقابري فقال: أحد أبوي الأثرم جني» أنظر إبن أبي يعلى. طبقات الحنابلة ، ص٣٨.

(٢٥) إن السجزي أول من إجترأ بالقول: «أن الله لو شاء لإستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته. فكيف على عرش عظيم» أنظر مقدمة الأسماء والصفات للبيهقي.

(٢٦) أغرق القاضي أبو يعلى في التشبيه عند كلامه في الصفات حتى قيل في شأنه: «لقد شان أبو يعلى الحنابلة شيئاً لا يغسله ماء البحار» ؟.
أما إبن الزاغوني الفقيه الحنبلي المتوفي سنة ٥٢٧هـ ، فقد ألف كتاباً في أصول الإعتقاد سماه «الإيضاح» قال فيه بعض العلماء : «ان فيه من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه». أنظر بحوث في الملل والنحل ، ج٤ ، ص١٢٤ .

حيث كاد أن يندرس. فنفخ فيه من روحه وتولاه بعنايته.

واذا كان مجمل ذلك التراث الحشوي يفتقر الى العقلانية فإن ما سيقوم به ابن تيمية ليس إلا محاولة لعقلنته ووضعه في إطار يمكن ان يجادل به عنه لإثبات شرعيته أولا، وتزويده بمنهج ينهض به ثانياً.

فكانت المحاولة وجاءت النتائج مخيبة للآمال، غارقة في الضبابية والغموض. لم يستطع فهمها أو استيعابها أتباع الرجل فضلاً عن خصومه. ولم يشفع لتلك الآراء التي صدرت عن هذه المحاولة ـ محاولة العقلنة ـ نسبتها الى السلف الصالح صدقاً أو كذباً، كما لم يُعضدها حسم الرجل وجرأته على الفعل وإدعاؤه «إجماع السلف» أو «مذهب الجمهور»، وقول «الأئمة قاطبة» أضف الى ذلك ترسانته الإرهابية، من تكفير وتضليل وتبديع لمن رام مخالفته أورد عليه بحجة شرعية أو عقلية.

□ ابن تيمية واثبات الجهة :

جاءت الفتوى الحموية التي امتحن بسببها ابن تيمية ونوظر وسجن، بمثابة إعلان عن اعتقاد الرجل الصريح والواضح بالجهة. وذلك بإثبات ان الله جل وعلى في جهة من الجهات. وهي جهة العلو. وهو معتقد الحشوية قبله، وقد ألف الذهبي كتاب العلو للعلي الغفار وأورد جملة من الأحاديث تنتصر لهذا المعتقد. يقول ابن تيمية في جواب أهل حماة. المسمى «بالعقيدة الحموية».

«فهذا كتاب الله من أوله الى آخره. وسنة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) من أولها الى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء وعلى كل شيء، وانه فوق السماء، مثل قوله تعالى. ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾، ﴿إني متوفيك ورافعك إلي﴾.... ﴿ثم استوى على العرش﴾ في ستة مواضع ﴿الرحمان على العرش استوى﴾...

وفي الأحاديث الصحاح والحسان مالا يحصى، مثل قصة معراج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ونزول الملائكة من عند الله وصعودهم إليه... ثم استرسل في ذكر الآيات والأحاديث وبعض أشعار العرب وأقوال السلف.

ليجزم قائلاً في تحد وجرأة قل نظيرها «... ثم ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله، ولا عن أحد من سلف الأمة ولا من الصحابة والتابعين، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والإختلاف حرف واحد يخالف ذلك لا نصاً ولا ظاهراً، ولم يقل أحد منهم قط أن الله ليس في السماء، ولا أنه ليس على العرش، ولا أنه ليس في كل مكان. ولا ان جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل. ولا أنه لاتجوز الإشارة الحسية اليه بالأصابع ونحوها، بل قد ثبت في الصحيح عن جابر أن النبي لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات في اعظم مجمع حضره رسول الله. جعل يقول: ألا هل بلغت؟ فيقولون: نعم، فيرفع إصبعه الى السماء وينكبها إليهم فيقول: اللهم إشهد، غير مرة، وأمثال ذلك كثيرة[٢٧].

وبذلك يكون قد أثبت لله جهة هي جهة العلو. والذي يقرأ كلامه في حمويته، يخيل إليه أن الحق كل الحق هو ما نطق به، وان على خصومه التسليم. لأن كل القرآن وكل السنة وكل علماء السلف وأئمة المذاهب يذهبون مذهبه. لكن الحقيقة انك ستجد نفسك مندهشاً لجرأة هذا الرجل على قول ذلك، وهاهي كتب خصومه تزخر طافحة بما تضمنته من نقول عن المصادر الحديثية وأقوال الصحابة ورجال السلف والأئمة بما يخالف ماذهب إليه جملة وتفصيلاً!.

فقد ذهب كثير من علماء السلف والخلف الى تنزيه الله تعالى عن الجهات الست، بمعنى أنه لا تحويه جهة منها، بل كلها متساوية عنده تعالى. فالجهات

(٢٧) العقيدة الحموية الكبرى ، الرسالة الحادية عشرة ، من مجموع الرسائل الكبرى لأبن تيمية ، ص٤٢٩ ــ ٤٣٢ ، بتوسط بحوث في الملل والنحل ، ج٤ ص١١٦ .

الست يتصف بها المخلوق وهي «أمام وخلف ويمين وشمال وفوق وتحت» وهذه جميعها في قبضته تعالى لقوله ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ وقد نزه الله تعالى ذاته العلية عن المكان فقال: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾.

وجاء في صحيح البخاري عنه عليه الصلاة والسلام: «إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصقن قبل وجهه. فإن الله قبل وجهه اذا صلى»، ومعنى هذا أن الله ليس في جهة الفوقية.. وقوله عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون العبد الى الله تعالى في سجوده» فلو كان الله في جهة العلو لكان الإنسان في سجوده أبعد، فعلم من هذا أن الجهات كلها متساوية عند الله تعالى. قال علي رضي الله عنه في هذا المعنى:

«إن الله قريب في بعده بعيد في قربه، فوق كل شيء، ولا يقال شيء تحته وتحت كل شيء ولا يقال شيء فوقه تعالى جنابه أن يوصف بالإستقرار على العرش أو التمكن أو المماسة، فهو مستغن عن الكون والمكان.. ولما سئل الإمام أبو حنيفة وهو من التابعين عن قوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ قال: من حصر الله في الجهات الفوقية، أو التحتية فقد كفر، بل الإستواء معلوم والإيمان به فرض والكيف مجهول»[٢٨]، وغير ذلك من النصوص القرآنية والحديثية وآراء علماء السلف مما سنذكره مفصلاً في محله.

وإذن فقول ابن تيمية بأن نصوص القرآن والسنة وآراء جميع علماء السلف والصحابة والتابعين تؤيد اعتقاده بالجهة ليس له تفسير إلا ما قاله ابن جهبل[٢٩] المعاصر له: «وفي هذا الفريق «الحشوية السلفية» من يكذب على

(٢٨) هذه عقيدة السلف والخلف في ذات الله تعالى، م س، ص١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠، بتصرف.

(٢٩) هو الشيخ شهاب الدين بن جهبل الحلبي الأصل ثم الدمشقي. درس فقه الشافعية وتضلع فيه وامتحنه فيه كثير من المؤرخين كالذهبي وغيره. كان معاصر لإبن تيمية يقوم بالتدريس في مدارس دمشق ولما أعلن إبن تيمية عقيدته في الجهة وامتحنه الفقهاء، قام إبن جهبل بكتابة رسالة في الرد عليه سماها. «الحقائق الجلية في الرد على إبن تيمية فيما أورده في الفتوى الحموية»، ولد إبن جهبل سنة ٦٧٠ وتوفي سنة ٧٣٣هـ.

السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ويزعم أنهم يقولون بمقالته. ولو أنفق ملء الأرض ذهبا ما استطاع أن يروج عليهم كلمة تصدق دعواه، وتستر هذا الفريق بالسلف حفظاً لرياسته والحطام الذي يجتلبه «يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم»، وهؤلاء يتحلون بالرياء والتقشف فيجعلون الروث مفضضا والكنيف مبيضاً ويزهدون في الذرة ليحصلوا الدرة[٣٠].

لقد تضمنت الفتوى الحموية بالإضافة الى القول بالجهة، إعتقاد ابن تيمية الخاص فيما يتعلق بالصفات الخبرية. فكل ما جاء فيها من نُقول واستدلالات من القرآن والنصوص الحديثية وآراء العلماء والفقهاء المختارة إنما يهدف إلى أن هذه الصفات يجب أن تجري على الله سبحانه بحرفيتها وظهورها التصوري دون تفصيل وتأويل، بارجاعها الى المعاني المجازية أو الكنائية[٣١].

لقد إختلف علماء الكلام والمحدثون في تفسير الصفات الخبرية وبالخصوص ما ورد منها في القرآن الكريم وذهبوا مذاهب مختلفة منها:

الفريق الأول: يرى عدم البحث في تفسير لها باعتبارها آيات متشابهة، يجب إيكال علمها لله سبحانه وتعالى وهؤلاء هم المفوضة ولم يُعرف عنهم تجاوز لهذا الموقف. إلا أنهم يعتقدون بتنزيه الله عزوجل وتقديسه عن التشبيه أو الجسمية.

الفريق الثاني: يرى أن هذه الآيات والأحاديث يجب أن تحمل على معاني تليق بتنزيه الذات الإلهية، سواء عن الحوادث أو الأجسام أو صفات المخلوقين بشكل عام. لأنه ﴿ليس كمثله شيء﴾ فالإستواء مثلا المذكور في الآية يمكن أن نحمله على الإستيلاء، وهذا المعنى تؤيده لغة العرب. وكذا «صفة اليد» فهي كناية عن القدرة. وهذا مذهب أغلب علماء الكلام وخصوصاً مدرسة

---

(٣٠) الحقائق الجلية في الرد على إبن تيمية، شهاب الدين أحمد بن جهبل الحلبي، ص٣٢.
(٣١) السبحاني، م س، ص ١١٨.

أهل السنة، ممثلة في الأشعري وأصحابه والماتريدي ومن تبعه.

أما الفريق الثالث: وهم حشوية أهل الحديث، فإنهم يذهبون الى أن آيات الصفات وجل الأحاديث الواردة في هذا الباب يجب أن تفهم على حقيقتها بغير تأويل. على أساس أن الكلمة المستعملة اذا كانت تحتوي على معنيين تصلح للدلالة على كل منها: أحدهما قريب للذهن والآخر بعيد، يجب أن نحمل اللفظ على معناه القريب المتبادر الى الذهن على سبيل المثال فإن الإستواء يطلق على التمكن من الشيء والجلوس عليه ويطلق كذلك على الإستيلاء. لكن دلالة الإستواء على الجلوس أقرب، فيحمل اللفظ على معناه القريب. ويلزم هذا المذهب القول بالتجسيم ما دام لا يحتمل التأويل. وأقر به بعضهم كابن الزاغوني وابن حامد وابن مسنده ممن ينتسبون الى المذهب الحنبلي ولم يخالفوا في أن يتصف الله بالجسمية[٣٢].

ولما كان ابن تيمية صادراً عن هذا المذهب متشبعاً بآرائه، فإنه سيحاول الإلتفاف على هذا القول الصريح في التجسيم. يقول في الفتوى الحموية: «ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، فيعطلون أسماءه الحسنى يحرفون الكلم عن مواضعه. أما المعطلون، ـ لا يقصد بهم المعتزلة أو الجهمية فقط بل كذلك كل من أوّل تلك الصفات من أهل السنة ـ فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو لائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل، مثلوا أولا وعطلوا آخراً..[٣٣].

(٣٢) الحقائق الجلية ، م س ، أنظر الهامش ص٥٥ ـ ٥٦ .
(٣٣) العقيدة الحموية ، ص٤٤٠ ، بتوسط السبحاني ، ج٤ ص١١٩ .

□ نفي التكييف أو «البفلكة» :

واذا كان المجسمة من حشوية الحنابلة يؤمنون بجري تلك الصفات على الله عزوجل بنفس حقيقتها اللغوية، لكنهم يضيفون أن صفاته تعالى لا تشبه صفة خلقه، فإن إبن تيمية سينحو في ذلك الإتجاه. إلا أنه سيبتدع فكرة نفي التكييف أو ما أصطلح عليه بـ«البفلكة» أي بلا كيف. فالإستواء عند أسلاف ابن تيمية هو الجلوس والإستقرار على العرش والمماسة له، وما يتبع ذلك من نزول وصعود كما جاء في الروايات التي يعتقدونها.

أما عند ابن تيمية فإن ذلك الجلوس والإستقرار حقيقة، لكنه جلوس واستقرار يليق بالذات الإلهية من غير تكييف ولا تمثيل.

واذا كانت هذه هي عقيدة السلف من الصحابة والأئمة وقد حكاها عنهم فإنه سيدعمها. بأدلة عقلية تمثلت في إستدلاله بالقياس. فإذا كنا نقول في سائر الصفات كالحياة والعلم والقدرة، بأن له سبحانه علم ليس كعلم البشر وحياة ليست كحياتهم، فلماذا لا نقول أنه له عزوجل يداً ليست كاليد البشرية ووجها ليس يشبه وجه البشر.

وهذا القياس الذي استند إليه ابن تيمية يشكل خطراً على العقائد فضلاً عما أحدثه في الفقه من خلاف ومنازعات. بالإضافة الى أن هذا القياس لا يقوم عند الإستدلال، لأنه قياس مع وجود الفارق. فالصفات كالعلم والقدرة والحياة، موضوعة لمعاني غير مقيدة بالجسمية أو المادة. أما الصفات التي وردت في الخبر كالوجه واليد والقدم فإنها موضوعة لكيفيات مادية محسوسة ومتجسدة، في وجه الإنسان أو الحيوان وما أشبه. الا أن تؤوّل أو تأخذ مفهوماً مجازيا آخر ليس غريباً على لغة العرب بل درجوا على استعماله، فاليد تأتي بمعنى الجارحة وتأتي بمعنى النعمة وكلا المعنيين جائز لغة، والقرآن نزل بلغة العرب واستخدم الكثير من مجازاتهم وكناياتهم. لذلك فسر أهل التنزيه اليد وغيرها من الصفات الخبرية بما وجدوه في استخدام العرب، أولاً لأنه

وجه من وجوه التفسير الجائز، ثانياً لسد الباب أمام كل تفسير يفهم منه ان صفات الحق تشبه أو تماثل صفات الخلق. أما أن نقول أن له يداً حقيقية لكنها لاتشبه أيدينا فإنه ركوب الصعب والخوض في غمار لجج مظلمة لا يُعرف أولها من آخرها.

إن هذا المذهب الجديد في قراءة الحشو سيبدو غريباً وغامضاً وغير مفهوم لدى علماء أهل السنة القدماء والمعاصرين، فالقدماء يصمونه بالتجسيم والتشبيه وإن تستر بـ «بلا كيف» أو البفلكة[٣٤].

لأن صفات كاليد والرجل والنزول والجلوس موضوعة لغة على معانيها المتكيفة بكيفيات جسمانية، فاليد هي الجارحة المعروفة من الإنسان والحيوان، وهكذا الرجل والقدم، ومثلها النزول، فإنها موضوعة للحركة من العالي الى السافل، والحركة من صفات الجسم، فالكيفية مقومة لمعاني هذه الالفاظ والصفات فاليد والرجل بلا كيفية ليستا يداً ورجلاً بالمعنى اللغوي المتبادر عرفاً، وعلى ضوء ذلك فليس هنا إلا سلوك أحد طريقين.

١ ــ جريها بنفس معانيها اللغوية التي تتبادر منها المفاهيم المتكيفة، وهو نفس القول بالتجسيم.

٢ ــ جريها بمفاهيمها المجازية، ككون اليد كناية عن القدرة، كما في قوله سبحانه:

﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ فهذا هو قول المؤولة، أو المعطلة باصطلاح ابن تيمية، وليس هنا معنى ثالث ينطبق على ما يتبناه ابن تيمية، وهو إجراؤها على الله بنفس مفاهيمها، لكن من غير تكييف، وذلك لما

---

(٣٤) يقول الزمخشري في كشافه يهجو من يتستر بالبفلكة:

لجماعة سموا هواهم سنة	وجماعة حمر لعمري موكفة
قد شبهوه بخلقه فتخوفوا	شنع الورى فتستروا بالبفلكة

أنظر : شرح جوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم اللقاني ، ص١١٥ .

عرفت أن مفاهيمها متقومة بالتكييف والتمثيل، فلو حذفنا الهيئة والكيفية من اليد، فلا يبقى منها شيء. كما أنا حذفنا الحركة الحسية من النزول لا يبقى منه شيء. إلا اذا حملا على الكناية والتأويل...

وهو مالا يقبله ابن تيمية وأتباعه. ولو صح حمل هذه المفاهيم عليه سبحانه بالتذرع بـ «بلا كيف» و «لاتمثيل» لصح توصيفه سبحانه بكل شيء فيه أدنى كمال ونقول: إنه جسم لا كالأجسام، وله قلب لا كهذه القلوب، وله لسان ناطق لا كهذه الألسنة(٣٥).

□ تهافت البفلكة :

إن ما سيصل اليه هذا المجتهد الحنبلي هـوالتشبيه بعينه، فهو يثبت الأعضاء والأجزاء كالتي للإنسان إلا أنه يقول: «هذا لا يشبه هذا! فهل ياترى وجد أحد يقول بأن الله تعالى كبعض خلقه؟ إن أكثر من قال بالتجسيم لم يقل بهذا. بل يكرر دائماً ﴿ليس كمثله شيء﴾، ثم يثبت له تعالى ما اثبته ابن تيمية من الأعضاء والحالات. ثم يعود فيقول: ليست هي كأعضاء المخلوقات، ولا كحالاتهم. لكن ابن تيمية لا يرى هذا من التشبيه بل هو عنده الإعتقاد الصحيح، ويقول أن السلف إنما كانوا يذمون المشبهة الذين يقولون: بصر كبصري، ويد كيدي، وقدم كقدمي(٣٦).

لقد أعلن ابن تيمية مذهبه هذا ليس فقط في فتوى أهل حماه. بل نشر تفاصيله من على منبر الجامع وأثناء تدريسه. ولم يفهم منه العامة إلا التجسيم الذي هو أقرب الى أذهانهم. فعندما قال: «إن الله ينزل الى سماء الدنيا، كنزولي هذا ونزل درجة على المنبر لم يقل بلا كيف، أو بلا تمثيل، لأنه كيّف ومثّل. وحتى لو قال ذلك فإن العامة لن تفهم ما يقصده من بفلكته تلك

---

(٣٥) السبحاني ، م س ، ج٤ ، ص١٢١ ـــ ١٢٢ .

(٣٦) إبن تيمية ، م س ، ص١٣٠ ، انظر الفرقان بين الحق والباطل لإبن تيمية.

شيئاً.

أما تلميذه ابن قيم الجوزية، فقد كان صريحاً في نقله عقيدة إستاذه في أوضح صورة: يقول صاحب أشرف الوسائل الى فهم الشمائل في بيان إرخاء العمامة بين الكتفين. قال ابن القيم عن شيخه ابن تيمية انه ذكر شيئاً بديعاً وهو أنه(ص) لما رأى ربه واضعاً يده بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة، قال العراقي ولم نجد لذلك أصلا. أقول بل هذا من قبيل رأيهما وضلالها إذ هو مبني على ما ذهبا إليه وأطالا في الإستدلال له والحط على أهل السنة في نفيهم له وهو اثبات الجهة والجسمية لله تعالى عما يقول الظالمون والجاهدون علوا كبيراً[٣٧].

والحقيقة أن العوام معذورن في أخذهم عنه عقائد التجسيم لأن مذهبه قد استعصى فهمه على العلماء فكيف بالعوام. يقول الدكتور طه الدسوقي: وهذا مذهب في الحقيقة غير مفهوم إذ المعنى القريب من الإستواء الجلوس المادي والبفلكة تنفيه. وهضم هذه المسألة على هذا النحو صعب[٣٨].

أما الشيخ أبو زهرة الذي ألف كتاباً حول ابن تيمية ورام الدفاع عنه في أكثر من موضع، فإنه عندما يعرض لعقيدته في الصفات يصاب بالحيرة والإرتباك. يقول الشيخ: «ولا تتسع عقولنا لإدراك الجمع بين الإشارة الحسية بالأصابع، وللإقرار بأنه في السماء، وأنه يستوي على العرش، وبين تنزيهه المطلق عن الجسمية والمشابهة للحوادث. وأن التأويل (حملها على المجاز والكناية) بلا شك في هذا يقرب العقيدة الى المدارك البشرية، ولا يصح أن

(٣٧) السيد محسن الأمين، كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب، ص١٣١. ويتابع المؤلف قوله: «ولهما ــ أي إبن تيمية وإبن القيم ــ في هذا المقام من القبائح وسوء الإعتقاد ما يصم عنه الأذان ويقضي عليه بالزور والكذب والضلال والبهتان قبحهما الله وقبح من قال بقولهما والإمام أحمد وأجلاء مذهبه مبرؤون عن هذه الوصمة القبيحة وهي كفر عند كثيرين» إنتهى.

(٣٨) الحقائق الجلية، م س، أنظر الهامش ص٥٦.

يكلف الناس مالا يطيقون، وإن كان ابن تيمية قد اتسع عقله للجمع بين الإشارة الحسية وعدم الحلول في مكان والتنزيه المطلق، فعقول الناس لا تصل الى سعة أفقه إن كان كلامه مستقيما»[٣٩].

وخلاصة القول أن ابن تيمية فيما بذله من جهد كبير لعقلنة الحشو أو تراث التجسيم والتشبيه، سيصل في تحقيقه ومعالجته للصفات الخبرية إلا أن: المذهب الحق الذي عليه السلف الصالح إزاء هذه الصفات هو إثباتها إثباتاً حقيقياً لله تبارك وتعالى[٤٠]، وأن هذا الإثبات الحقيقي بلا كيف ولا تمثيل ولا يؤدي الى التجسيم أو التشبيه كما يتوهم خصومه من أهل السنة والجماعة.

لقد نوقش ابن تيمية في عقيدته هذه، كما نوظر في غيرها من الفتاوي التي خالف فيها إجماع المذاهب الأربعة. بالإضافة الى ما انفرد به عن جميع طوائف الأمة، وذلك بخصوص تحريمه شد الرحال لزيارة قبر الرسول(ص).

لقد كانت الردود سريعة ومتنوعة من طرف علماء المذاهب السنية، فمنهم من ألف كتباً ورسائل نقضت ما جاء به ابن تيمية، ومنهم من أصدر فتاوى تدينه ولا تعترف له بأي أعلمية أو إجتهاد. بل وصل الحال ببعضهم الى تكفيره أو اتهامه بالزندقة. سنحاول تتبع بعض آراء علماء أهل السنة في الرجل سواء من عاصره أو ممن جاء بعده واطلع على عقائده.

* * *

(٣٩) إبن تيمية حياته وعصره ، م س ، ص٢٧٠ .

(٤٠) الدكتور أحمد بن عطية الغامدي ، البيهقي وموقفه من الإلهيات ، المجلس العلمي لإحياء التراث الإسلامي ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ص٢٥٩ .

آراء علماء أهل السنة في ابن تيمية

□ ابن جهبل: ابن تيمية يخالف الكتاب والسنة :

يقول ابن جهبل في مقدمة رده على ابن تيمية: «مذهب الحشوية في اثبات الجهة واهٍ ساقط، يظهر فساده من مجرد تصوره، حتى قالت الأئمة: لولا اغترار العامة بهم لما صرف إليهم عنان الفكر ولاخط القلم في الرد عليهم، وهم فريقان:

فريق لا يتحاش في اظهار الحشو ﴿يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾ (المجادلة ١٧)، وفريق يتستر بمذهب السلف لسحت يأكله، أو حطام يأخذه أو هوى يجمع عليه الطغام الجهلة، والرعاع السفلة، لعلمه ان ابليس ليس له دأب إلا خذلان أمة محمد(ص).

ولذلك لا يجمع قلوب العامة إلا على بدعة وضلالة يهدم بها الدين، ويفسد بها اليقين.. الى أن يقول: «ادعى ــ أي ابن تيمية ــ أنه يقول بما قاله الله ورسوله(ص) والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم. ثم أنه قال مالم يقله الله ولا رسوله ولا السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ولا شيئاً منه. فأما الكتاب والسنة فسنبين مخالفته لهما. وأما السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار فذكره لهم في هذا الموضوع استعارة للتهويل، وإلا فهو لم يورد من أقوالهم كلمة واحدة. لا نفياً ولا إثباتاً، وإذا تصفحت كلامه (أنظر العقيدة الحموية) عرفت ذلك. اللهم إلا أن يكون مراده بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار مشايخ عقيدته دون الصحابة[41].

(٤١) الحقائق الجلية، ص٣١ ــ ٣٢ و ٤٧ ــ ٤٨ .

□ **الحافظ السبكي: ابن تيمية نقض دعائم الاسلام :**

ثم يستطرد عارضا رأي السلف وعقيدة أهل السنة، بما يخالف ماذهب إليه ابن تيمية ومن تبعه من الحشوية.

أما الحافظ السبكي فيقول في خطبة كتابه «الدرة المضيئة في الرد على ابن تيمية» ما هذا لفظه: «أما بعد فإنه لما أحدث ابن تيمية في أصول العقائد، ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاقد. بعد أن كان متستراً بتبعية الكتاب والسنة، مظهراً أنه داع الى الحق، هاد الى الجنة، فخرج عن الإتباع الى الإبتداع، وشذ عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع، وقال بما يقتضي الجسمية والتركيب في الذات المقدسة، وإن الإفتقار الى الجزء ليس بمحال، وقال بحلول الحوادث بذات الله تعالى، وأن القرآن محدث تكلم الله به بعد أن لم يكن، وأنه يتكلم ويسكت، ويحدث في ذاته الإرادات بحسب المخلوقات وتعدى في ذلك الى إستلزام قدم العالم، وإلتزم بالقول بأنه لا أول للمخلوقات فقال بحوادث لا أول لها، فأثبت الصفة القديمة حادثة، والمخلوق الحادث قديماً، ولم يجمع أحد هذين القولين في ملة من الملل، ولا نحلة من النحل، فلم يدخل في فرقة من الفرق الثلاث والسبعين التي افترقت عليها الأمة، ولا وقفت به مع أمة من الأمم همة وكل ذلك وان كان كفراً شنيعاً، لكنه تقل جملته بالنسبة الى ما أحدث في الفروع[٤٢].

يلاحظ في هذه المقدمة جرد لجل الآراء التي نادى بها ابن تيمية وخالف بها عقائد أهل السنة قاطبة. جعلت السبكي لا يجد حرجاً في تكفيره، دون ما أحدثه في الفروع.

□ **اليافعي: من كان على عقيدة ابن تيمية حل ماله ودمه :**

ويقول اليافعي في مرآة الجنان: كان ابن تيمية يقول: (إن الله على العرش

(٤٢) بحوث في الملل والنحل ، م س ، ج٤ ص٤٢ .

استوى) استواء حقيقة. وأنه يتكلم بحرف وصوت، وقد نودي في دمشق وغيرها: من كان على عقيدة ابن تيمية حل ماله ودمه. وقال في حوادث (سنة ٧٢٨هـ) : وله مسائل غريبة أنكر عليها وحبس بسببها مُبَايَنتها لمذهب (أهل السنة) ثم (عد له) قبائح، قال: ومن أقبحها نهيه عن زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٤٣].

□ أبو بكر الحصيني: ابن تيمية يتبع المتشابه ويبتغي الفتن :

أما أبو بكر الحصيني الدمشقي فيقول: «فاعلم أني نظرت في كلام هذا الخبيث الذي في قلبه مرض الزيغ، المتتبع ما تشابه من الكتاب والسنة ابتغاء الفتنة، وتبعه على ذلك خلق من العوام وغيرهم ممن أراد الله عزوجل إهلاكه، فوجدت فيه مالا أقدر على النطق به، ولا لي أنامل تطاوعني على رسمه وتسطيره، لما فيه من تكذيب رب العالمين، في تنزيهه لنفسه في كتابه المبين، وكذا الإزدراء بأصفيائه المنتخبين وخلفائهم الراشدين، وأتباعهم الموفقين، فعدلت عن ذلك الى ذكر ما ذكره الأئمة المتقون، وما إتفقوا عليه من تبعيده وإخراجه ببغضه من الدين[٤٤].

□ ابن حجر العسقلاني: من العلماء من ينسبه الى النفاق :

أما شيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلاني فيقول في ترجمته في كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»: ومنهم من ينسبه الى الزندقة، لقوله: إن النبي لا يستغاث به، وان في ذلك تنقيصاً ومنعا من تعظيم النبي، ومنهم من ينسبه الى النفاق لقوله في علي ما تقدم، ولقوله أنه كان مخذولاً حيثما توجه، وأنه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها، إنما قاتل للرئاسة لا للديانة، ولقوله

(٤٣) مرآة الجنان ، ج٤ ص٢٧٧ ، انظر المرجع السابق ، ج٤ ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤٤) دفع شبه من شبه وتمرد ، بتوسط بحوث في الملل والنحل ، م س ، ج٤ ص٤٥ - ٤٦.

أنه كان يحب الرئاسة، وأن عثمان كان يحب المال، ولقوله أبو بكر أسلم شيخا يدري ما يقول، وعلي أسلم صبيا والصبي لا يصح إسلامه على قول(٤٥).

□ الشيخ المولوي الهندي: لقد تجاوز ابن تيمية الحد :

وقد أجمل الشيخ المولوي عبدالحليم الهندي في «حل المعاقد حاشية شرح العقائد» كل الإعتراضات حول الشيخ قائلاً: «كان تقي الدين ابن تيمية حنبليا لكنه تجاوز عن الحد وحاول إثبات ما ينافي عظمة الحق تعالى وجلاله فأثبت له الجهة والجسم. وله هفوات أخر. كما يقول، أن أمير المؤمنين سيدنا عثمان(رض) كان يحب المال وان أمير المؤمنين سيدنا عليا(رض) ما صح إيمانه فإنه آمن في حال صباه. وتفوه في حق أهل بيت النبي صلى الله عليه وعليهم مالا يتفوه به المؤمن المحقق وقد وردت الأحاديث الصحاح في مناقبهم. وانعقد مجلس في قلعة الجبل وحضر العلماء الأعلام والفقهاء العظام ورئيسهم قاضي القضاة زين الدين المالكي وحضر ابن تيمية فبعد القيل والقال بهت ابن تيمية وحكم قاضي القضاة بحبسه سنة ٧٠٥هـ ثم نودي بدمشق وغيرها من كان على عقيدة ابن تيمية حل ماله ودمه...

كذا في مرآة الجنان للإمام أبي محمد عبدالله اليافعي، ثم تاب وتخلص من السجن (سنة ٧٠٧هـ) وقال إني أشعري ثم نكث عهده وأظهر مرموزه فحبس حبساً شديداً. ثم تاب وتخلص من السجن، وأقام في الشام، وله هناك واقعات كتبت في كتب التواريخ ورد أقاويله وبين أحواله الشيخ ابن حجر في المجلد الأول من الدرر الكامنة والذهبي في تاريخه وغيرهما من المحققين. والمرام ان ابن تيمية لما كان قائلاً بكونه تعالى جسما قال بأنه ذو مكان، فإن كل جسم لابد له من مكان على ماثبت ولما ورد في الفرقان

(٤٥) بحوث في الملل والنحل ، م س ، ج٤ ص٤٧ ـ ٤٨ .

الحميد ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ قال إن العرش مكانه. ولما كان الواجب أزليا عنده واجزاء العالم حوادث عنده اضطر الى القول بأزلية جنس العرش وقدمه وتعاقب أشخاصه الغير المتناهية فمطلق التمكن له تعالى أزلي، والتمكنات المخصوصة حوادث عنده كما ذهب المتكلمون الى حدوث التعلقات[٤٦]، الى غير ذلك من الأقوال، التي تتبع بعضها المحقق السبحاني وعرضها في موسوعته بحوث في الملل والنحل فليراجع من أراد الزيادة.

□ **الحافظ الذهبي: لقد بلع ابن تيمية سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم :**

واذا كانت الأقوال التي عرضناها هي لخصوم الرجل من «أهل السنة والجماعة» فإن التاريخ قد حفظ لنا اعتراضا قويا لأحد المحبين له، إنه الحافظ شمس الدين الذهبي مؤرخ الشام ومحدثها الكبير. المتوفي سنة (٧٤٨هـ) والذي بعث لإبن تيمية رسالة ينصحه فيها ومما جاء فيها:

«الحمد لله على ذلتي يارب إرحمني واقلني عثرتي، واحفظ علي إيماني واحزناه على قلة حزني، وأسفاه على السنة وذهاب أهلها...

الى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك؟ الى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعبارتك وتذم العلماء وتتبع عورات الناس؟ مع علمك بنهي الرسول(ص): «لاتذكروا موتاكم إلا بخير، فانهم قد افضوا الى ما قدموا» بل أعرف أنك تقول لي لتنصر نفسك... يارجل بالله عليك كف عنا، فإنك محجاج عليم اللسان لا تقر ولا تنام، إياكم والغلوطات في الدين، كره نبيك(صلى الله عليه وآله) المسائل وعابها ونهى عن كثرة السؤال وقال: «إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان» وكثرة الكلام بغير زلل، تقسي القلب إذا كان في الحلال والحرام فكيف اذا كان في عبارات اليونسية والفلاسفة وتلك الكفريات التي تعمي القلوب، والله قد صرنا

(٤٦) كشف الإرتياب في اتباع محمد بن عبدالوهاب ، م س ، ص١٣٢ .

ضحكة في الوجود، فإلى كم تنبش دقائق الكفريات الفلسفية؟ لنرد عليها بعقولنا، يارجل! قد بلعت سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم مرات، وكثرة استعمال السموم يدمن عليه الجسم، وتكمن والله في البدن، واشوقاه الى مجلس فيه تلاوة بتدبر وخشية بتذكر وصمت بتفكر...

ياخيبة من اتبعك فإنه معرض للزندقه والإنحلال، ولا سيما اذا كان قليل العلم والدين باطوليا شهوانياً، لكنه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه، وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه.

فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل! أو عامي كذاب بليد الذهن، أو غريب واجم قوي المكر؟ أو ناشف صالح عديم الفهم؟ فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل، يامسلم أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك، الى كم تصادقها وتعادي الأخيار؟ الى كم تصادقها وتزدري الأبرار؟ الى كم تعظمها وتصغر العباد؟ الى متى تخاللها وتمقت الزهاد؟ الى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح ـ والله ـ بها أحاديث الصحيحين؟ ياليت أحاديث الصحيحين تسلم منك. بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار أو التأويل والإنكار أما آن لك أن ترعوي؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟ بلى ـ والله ـ ما أذكر أنك تذكر الموت، بل تزدري بمن يذكر الموت...

فما أظنك تقبل على قولي ولاتصغي الى وعظي، بل لك همة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلدات، وتقطع لي أذناب الكلام، ولا تزال تنتصر حتى أقول البتة سكت، فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشفوق المحب الواد، فكيف حالك عند أعدائك؟ وأعداؤك ـ والله ـ فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء، كما أن أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر، قد رضيت منك بان تسبني علانية، وتنتفع بمقالتي سراً فرحم الله أمرءاً أهدى إلي عيوبي، فإني كثير العيوب، غزير الذنب، الويل لي ان أنا لا أتوب، وافضيحتي من علاّم

الغيوب! ودوائي عفو الله ومسامحته وتوفيقه وهدايته والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين[٤٧].

إن المتتبع لمجمل آراء علماء أهل السنة والجماعة وغيرهم في ابن تيمية يمكن ان يستنتج التالي:

١ ــ لم يكن ابن تيمية إلا حشوياً متستراً بتبعيته للسلف الذين جعل لهم مذهباً موحداً يرجع إليه.

٢ ــ سقط في أخطاء عقائدية وأصولية نتيجة دراسته للفلسفة، خالف بها ما أجمعت عليه الأمة وخصوصاً علماء أهل السنة والجماعة من أشاعرة وماتريدية.

٣ ــ كان كثير الكذب على السلف في نقله أقوالهم وآرائهم وإجماعهم في بعض المسائل العقائدية. مع تعمده التحريف وعدم الضبط في نقل النصوص.

٤ ــ لم يكن أتباعه من عقلاء الأمة أو علمائها وانما جلهم من العوام الجهلة، وقد انتصر بهم وبالسلطان فحقن دمه واكتفي فقط بسجنه الى أن مات فيه.

٥ ــ عدم الإعتراف له بالأعلمية التي تؤهله للإجتهاد، فقد كان سطحياً في فهمه للنصوص، مؤمنا بظواهرها الإبتدائية. وهذا خلاف ما عليه المحققون من رجال الشريعة.

٦ ــ إن آراءه العقائدية الشاذة ترمي به بعيداً عن الجماعة، واذا أضفنا ما ابتدعه من فتاوي ضالة في الفقه وآرائه في الصحابة فهو إن لم يحكم عليه بالكفر الصراح فلا شك في زندقته ونفاقه[٤٨].

---

(٤٧) بحوث في الملل والنحل ، م س ، ص٣٩ ــ ٤٠ ، نقلاً عن تكملة السيف الصقيل ، للمحقق المعاصر الكوثري ، ص١٩٠ ــ ١٩٢ .

(٤٨) رد العلاء البخاري الحنفي على إبن تيمية ، وقال في حقه: «أن من سمى إبن تيمية =

٧ ــ لم يكن سلفياً أبداً فهو الى الإبتداع أقرب منه إلى الإتباع، فلم يخض السلف فيما خاض فيه، ولم يقل السلف ما قاله أو اعتقده.



= شيخ الإسلام فهو كافر» وذهب غيره» الى ان «من سمى إبن تيمية شيخ الإسلام كان كافراً» . لاتصح الصلاة وراء» . أنظر كتاب «الرد الوافر للإمام إبن ناصر الدين الدمشقي، ص٦٠و ٢١ ، كما إعترض الشيخ زاهد الكوثري على هذه التسمية.

إبن تيمية والتصوف

□ بداية الصراع :

إحتدم الصراع بين ابن تيمية وخصومه من أهل السنة والجماعة ومقلدي المذاهب الأربعة في الشام ومصر حول قضايا التوحيد وبالخصوص الصفات الخبرية، بالإضافة الى إجتهاداته الفقهية التي خالف فيها إجماع المذاهب الأربعة كفتواه بأن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة. وإذا كان قد أدخل بسبب ذلك السجن ومكث فيه مدة. فإنه سيخوض صراعاً جديداًومتواتراً مع طائفة إسلامية أخرى، لها جذورها الفكرية وامتداداتها الإجتماعية وقوتها التي يحسب لها الحساب.

وذلك عندما نفي الى الإسكندرية حيث سيركز حملاته على الصوفية ناسباً بعضهم الى الكفر، متهماً الآخرين بالضلال وركوب البدع مما أثار عليه الشيوخ والعامة. ووقعت هناك فتن كثيرة استمرت مدة اقامته وبعدها.

□ موقف ابن تيمية من التصوف والحياة الروحية :

لقد إختلف الباحثون في موقف ابن تيمية من الصوفية إختلافاً كبيراً فالمستشرق ماكدونالد يرى أنه العدو اللدود للصوفية والحياة الروحية سواء(٤٩).

والبعض الآخر يذهب مذهبا مناقضا يثبت فيه إنتساب الشيخ لإحدى

---

(٤٩) موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية ، عبد الحفيظ بن ملك المكي ، دار السلام للطباعة والنشر ، ط١ ١٩٨٨م ، ص١٩٦ .

الطرق الصوفية، فقد استند جورج مقدسي إلى سلسلة شيوخ ابن تيمية التي تبدأ بموفق الدين بن قدامة تلميذ عبدالقادر المباشر وخريج المدرسة القادرية في بغداد[٥٠]، ليثبت أن ابن تيمية كان قادريا، ومما يعضده ويدعم رأيه ما يوجد في كتابات ابن تيمية من تعظيم وإجلال للشيخ عبدالقادر. وهو من أعمدة التصوف والصوفية، وذكره لأقواله واعترافه بكراماته والإيمان بها على إعتبار أن أخبارها وصلتنا متواترة كما يدعي الشيخ. بالإضافة الى ذكره بعض اقطاب التصوف والإستشهاد بأقوالهم وسيرهم.

لكن الباحث في كلامه بشكل عام سيجد إلى جانب ذلك قدحه في الغزالي وإبن الفارض، وتعرضه لإبن عربي بالسب والتضليل والتبديع بل الى درجة إتهامه بالكفر الصريح. كما تهجم على كثير من رجالات الصوفية وذم طريقتهم ووصفها بالإبتداع في الدين، وأن الكثير مما درج عليه هؤلاء - أي الصوفية - من ذكر وحلقات وطرق مخصوصة في الدعاء والعبادة ليس له أصل في الشرع - أي القرآن والسنة -.

□ رأيان متناقضان :

وهذا الإدعاء هو الذي أثار عليه زعماء هذا الطريق ودارت بينهم مساجلات ومخاصمات كثيرة. واذا حاولنا تلخيص رأيه من خلال كتاباته التي بين أيدينا فسنصل الى رأيين مختلفين ومتناقضين بل ربما وصلنا الى آراء متعددة وغير واضحة تماماً. فهو كما يرى عبد الحفيظ المكي قد تعامل بنفس الإسلوب الذي تعامل به مع الفقهاء والمذاهب الفقهية وعلماء الكلام، إذ يرى ان شيوخ التصوف الأوائل قيدوا علومهم وتربيتهم بالكتاب والسنة. اما المتأخرون فقد ضل كثير منهم بتأثير الأفلاطونية الجديدة التي تسربت الى الفكر الإسلامي عامة خلال ترجمة العلوم اليونانية وانحرفوا بعيداً عن الطريق

(٥٠) المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

الصحيح للزهد والتربية الروحية[٥١].

فابن تيمية حسب هذا الرأي لم يرفض التصوف جملة وتفصيلا وإنما انتقد ما طرأ عليه من خروج على الأهداف ومناهج التربية الإسلامية الأصيلة. يقول ابن تيمية: وما وقع في هؤلاء من فساد الإعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية حتى صار المنحرفون صنفين: صنف يقر بحقها وباطلها، وصنف ينكر حقها وباطلها. كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه. والصواب: إنما هو الإقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة[٥٢].

وهذا الرأي الذي ذكره الشيخ الحراني فيه من الوضوعية مافيه، وقد شاركه فيه عدد ممن درس التصوف وتعرض لعلاج مشكلاته العقائدية والسلوكية.

فأغلب الفقهاء يقفون موقفاً معاديا لعقائد الحلول ووحدة الوجود والإتحاد التي وُصم بها ما يسمى التصوف الفلسفي مع ابن عربي وابن سبعين والحلاج وعمر بن الفارض وغيرهم.

وان كان هؤلاء وأتباعهم قد جنحوا الى التأويل، أي صرف ما يصدر عنهم من أقوال أو كتابات عن معناها الظاهري، الذي قد يفهم منه الحلول والإتحاد أو وحدة الوجود.

قد يعتقد البعض أن ما ذمه ابن تيمية في طريقة أهل التصوف هو ما يعرف عنهم من شطحات وأحوال غريبة تطرأ على بعضهم فتخرجه عن الحال المألوف، فمنهم من يتفوه بكلمات غير مفهومة حال جذبه، وقد تكون تلك الكلمات أو العبارات تخالف بمنطوقها بعض عقائد الإسلام. كما ويصدر عن بعضهم أفعال تتعارض مع ما ندبت إليه الشريعة، كتمزيق الثياب والصياح والغيبوبة لساعات بل ربما لأيام كثيرة. بالإضافة الى طريقتهم في المآكل

---

(٥١) المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

(٥٢) المرجع السابق ، نقلاً عن الفتاوى ، ج١٠ ص٨٢ .

والمشرب. مما يجعل العوام تفتتن بهم وتروم إتخاذهم قدوة وأسوة. وما نجم عن ذلك من تعطيل لرسوم الشريعة والمدنية على حد سواء.

وحتى هذا الفعل منهم والذي قد يعزى إليه السبب في حملة الشيخ عليهم، تجد له في كتاباته وصفا وشرحاً، فيه الكثير من الفهم والتبرير. أنظر الى قوله يصف هذه الأحوال: «فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشي أو الموت أو الجنون أو السكر أو الغناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك، إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان محموداً على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان، معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله، ولكن من لم يزل عقله مع انه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو اكمل منه فهو أفضل منهم[٥٣].

ومن يقرأ هذا الكلام وغيره في فتاوى الشيخ وكتبه لا يشك في موضوعية الشيخ وأنه قد أنصف القوم وتكلم بلسانهم. فهذا الذي قاله واصفاً، هو أقصى ما يمكن أن يتفوه به من يروم الدفاع عن طريقة أهل التصوف وسلوكهم وحالاتهم. بل لقد سجل قلمه قولاً، فصلا يمكن ان نضعه حداً أو فيصلاً في الصراع المرير القائم الآن بين الصوفية أصحاب الطرق التعبدية وبين تلامذة ابن تيمية الجدد أي «السلفية» أو أتباع السلف.

يقول الشيخ: «من جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً فهو مخطىء ضال مبتدع»[٥٤]. وهذه الكلمات الثلاث الأخيرة من كلام الشيخ هي نفسها الأوصاف المتداولة بين السلفيين اليوم

---

(٥٣) مجموع الفتاوى ، جمع وترتيب عبد الرحمن العاصمي النجدي ، مطبعة الرياض ، ط١ ج١١ ص٥ . ضمن جوابه عن الصوفية أنظر عبد الحفيظ المكي ، ص٢٠٢ .

(٥٤) المرجع السابق ، نقلا عن المكي ، ص ٢٠٥.

عندما يتعرضون لأهل الطرق الصوفية، فهم في نظرهم مبتدعة ضلال مخطئون، بل انهم غارقون في الشرك وعبادة القبور.

والسلفية اليوم في إطلاقهم وصف الإبتداع والضلال على الصوفية وأهل الطرق ليسوا مجتهدين وإنما مقلدة، يقلدون رأي إمامهم ابن تيمية فهم يصدرون عن رأيه وفتاويه ويحاكمون بها هؤلاء الطرقيين، وهذا لعمري إشكال يُظهر تناقضا فظيعاً في للفصل في هذه القضية. لذلك قلنا سابقاً إن للشيخ الحراني إزاء التصوف مواقف متناقضة وأراء غامضة. فاتباعه يضللونهم ويبدعونهم ـ أي الصوفية ـ بل يكفرون قسماً كبيراً منهم، ويتهمون قسماً آخر بالوقوع في الشرك وعبادة القبور، في الوقت نفسه الذي نجد البعض من أهل الطرق والصوفية يستنجد بكلام الشيخ نفسه وفتاويه لإبراء ساحة أصحابه مما يصفهم به أتباع الشيخ «السلفية الوهابية».

ينقل عبد الحفيظ المكي نصا لإبن تيمية ينتصر فيه لطريقة أصحابه ـ الصوفية ـ وينزهم عن الإبتداع والكفر والشرك. ويطلب من المنتسبين إلى السلفية وإلى شيخ الإسلام ابن تيمية على حد تعبيره، أن يلاحظوا ويقرأوا قول إمامهم: يقول ابن تيمية في الفتاوي: فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام. وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما إجتهد غيرهم من أهل طاعة الله. ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، والمقتصد الذي هو من أهل اليمين وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطيء، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه(٥٥).

---

(٥٥) المرجع السابق، نقلاً عن المكي ، ص٢٠٦ .

وعليه فموقف السلفية اليوم الرافض للتصوف جملة وتفصيلاً مذموم قطعاً باعتراف ابن تيمية نفسه، بل إنهم مخطئون ومبتدعون وضلال. وبذلك يبلغ الموقف أقصى درجات التناقض والتخبط.

وإذا أراد الباحث أن يحقق في الأمر ليرسو على بر، سيجد أن مصدر هذا التناقض الواقعي بين الأتباع والخصوم، إنما مصدره كتابات الشيخ الحراني ومواقفه العملية. فقد ذكرنا سابقاً أنه قد دارت بينه وبين الصوفية ملاحم وفتن خصوصاً لما كان منفياً، كما أن رأيه في ابن عربي والحلاج صريح فهو يكفر ابن عربي، وهو من هو في التصوف وتاريخ القوم. كما ذم طريقة الغزالي وكان كثير التعرض له والوقوع فيه.

كل هذا الى جنب ما خطه يراعه في كتبه والتي ينبعث منها الهدوء والوصف الموضوعي والمعالجة العلمية الرصينة. ونعتقد ان ذلك مرده الى نفسية الشيخ وطبعه فقد كانت تنتابه حدة ومزاج عصيب فينزل على خصومه لا يرى لهم في الحق نصيبا يُذكر، وربما كتب أو أفتى وهو متزن المزاج هادىء البال فيكون منه خلاف ما نطق أو افتى به في حاله الأول.

هذا من جهة، من جهة أخرى فقد يلقي هذا التناقض الكبير في مواقف الشيخ وكتاباته ظلالاً من الشك في كل ما ينسب إليه من رأي وضده. على إعتبار ان التعارض يفضي الى التساقط. وعليه فإن كلا من السلفية والصوفية ليسوا على شيء في ما يدور بينهم من حرب ضروس. وإن كانت كفة أهل التصوف راجحة لأنهم في موقف من يدافع عن نفسه أمام الهجوم السلفي الذي يصدر عن فتاوى الشيخ وآرائه ليضع القوم في خانة الإبتداع والضلال أو الكفر.

□ البوطي يرد على ابن تيمية والسلفية :

وقد انتبه لهذا التناقض والخلط في كتابات ابن تيمية ومواقفه الدكتور البوطي وهو يعالج بعضاً مما اختلف فيه الشيخ مع أهل السنة في العقائد وكذا

مع الصوفية. فنراه يقول: «فالكلام الأول لإبن تيمية! وهو مثبت في أكثر من موضع في كتبه ورسائله. والكلام الثاني أيضاً لإبن تيمية! وقد تكرر هو الآخر في أكثر من موضع في مؤلفاته، وقد رأيت كيف أن كلا منهما يناقض الآخر مناقضة حادة.. فما تفسير ذلك وسببه؟ لا أدري لذلك أي تفسير ولا سبب، ولكني أعلم أنه ما منّا إلا من ردَّ ورد عليه إلا المعصوم عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم[٥٦].

ولكن الدكتور البوطي الذي يقف حائراً أمام هذا التناقض في كلام شيخ الإسلام لايجد بداً من الرد عليه وعلى تلامذته منتصراً للتصوف وطرائقه، عندما أخذ على نفسه أن يعالج جذور الصراع بين هؤلاء السلفية والمتصوفة.

يقول البوطي: «إن هناك أعمالاً ومسالك تربوية كثيرة أخرى يأخذ بها بعض الناس أنفسهم، أو يسلكون فيها تلامذتهم، إبتغاء تطهير النفس ما أمكن من هذه الرعونات، واخضاع القلب للمشاعر والمعاني الإيمانية التي أشرنا إليها، لم يتمخض فيها وجه الصحة من حيث اتفاقها مع أحكام الشرع، كما لم يتمخض فيها دلائل الحرمة أو البطلان من حيث مخالفتها لتلك المبادىء والأحكام. فكانت بذلك أموراً إجتهادية...

فهذه المسالك والأعمال الإجتهادية، التي تتخذ سبيلاً الى التحقق بجوهر الإسلام ولبه، تضل سائغة ومشروعة، شأنها كشأن سائر الفُهوم والأعمال الإجتهادية الأخرى. ولا يملك صاحب رأي فيها أن يحتج بالرأي الذي انتهى اليه على ضلال الرأي الآخر الذي انقدح في ذهن صاحبه، كما لا يملك صاحب هذا الرأي ان يبادله النظرة ذاتها...

فمن ذلك التداعي الى حلقات الذكر في أوقات محدودة، وعلى نحو معين. فإن كثيراً ممن ينتسبون الى المذهب المسمى «بالسلفية» ينكرون مثل هذا الذكر وينكرون على أصحابه، وينسبونهم الى الإبتداع والضلال، مستدلين

---

(٥٦) السلفية ، م س ، ص ١٨٦ .

بأن هذه الجلسة المحددة بهذا الشكل وعلى هذا النظام لم تكن معروفة في عصر السلف. ولا نرى شاهداً عليها في كتاب ولا سنة. غير أن الذين يتداعون الى هذه الحلقات ويحضرونها، يحتجون بالعموم الذي يدل عليه قوله عزوجل: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ (آل عمران: آية١٩١). وهو عموم بين لا يخرج من نطاقه إلا ما أخرجه نص آخر عن طريق الإستثناء والتخصيص، وذلك كأن يتلبس الذكر بعمل منهي عنه كالرقص والتثني. فهذا ممنوع وخارج من عموم النص القرآني العام استناداً الى دليل حرمة الرقص والتثني...

كما إنهم يحتجون بأحاديث كثيرة ثابتة، من مثل حديث ابي سعيد الخدري الذي رواه مسلم مرفوعاً: «لايقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[٥٧].

الى أن يقول: «ان إعتداد أحد الفريقين برأيه الى درجة تسوقه الى تضليل الفريق الثاني ونسبته الى الإبتداع والفسق، أمر لا يقره جوهر الدين، ولا يعبر الا عن أنانية نفسية بغيضة تقنعت ـ كما قلت ـ بقناع الدعوة الى الدين والانتصار للحق[٥٨].

ويستطرد الدكتور البوطي راداً على ابن تيمية الذي بدع وضلل من يذكرون الله بذكر مخصوص كذكرهم الله بالإسم المفرد (الله). وأن المنع من ان يذكر المسلمون الله بأي إسم من أسمائه لا دليل عليه، وحتى ان طرح تمت خلاف، فإن البوطي يذهب الى أن أغلب القضايا المختلف فيها بين ابن تيمية واتباعه من سلفية الوهابية وبين أهل الطرق الصوفية هي محل إجتهاد وخلاف. ولا يجوز بتاتاً أن ينسب فريق فريقاً الى الإبتداع أو الضلال فإن

(٥٧) السلفية ، صفحات ١٩٠ ـ ١٩١ ـ ١٩٢ ، بتصرف.
(٥٨) المرجع السابق ، ص١٩٣ .

ذلك غلو في الإنتصار للنفس والرأي ليس إلا.

أما فيما يخص المصطلاحات التي درج الصوفية على تداولها بينهم مثل الوجد والفناء والشهود والحضرة، والمقامات السلوكية فإن لإبن تيمية تفصيل في شرح بعضها يحسبه المرء عند قراءته أحد أقطاب التصوف، بل لسان يتكلم عن حال.

يقول عن الفناء: «وهذا الفناء لا ينافيه البقاء، بل يجتمع هو والبقاء فيكون العبد فانياً عن إرادة ماسواه وان كان شاعراً بالله وبالسوى، وترجمته: قول «لاإله إلا الله».. والأمر الثاني: فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فناء الشهادة.. ولكن عرض كثير من هذا لكثير من المتأخرين من هذه الأمة، كما عرض لهم عند تجلي بعض الحقائق: الموت والغشي والصياح والإضطراب، وذلك لضعف القلب عن شهود الحقائق على ما هي عليه وعن شهود التفرقة في الجمع والكثرة في الوحدة، حتى اختلفوا في إمكان ذلك...

وفي هذا الفناء قد يقول: أنا الحق أو سبحاني أو ما في الجبة إلا الله(٥٩)، إذا فنى بمشهوده عن شهوده وبموجوده عن وجوده وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن عرفانه. كما يحكون أن رجلاً كان مستغرقاً في محبة آخر فوقع المحبوب في اليم فألقى الآخر نفسه خلفه، فقال: ما الذي أوقعك خلفي؟ فقال: غبت بك عني فظننت أنك أني...

وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان كما يحصل بسكر الخمر وسكر عشيق الصور، وكذلك يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء، كما يحصل بحال حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق ويصدر منه قول او عمل من جنب أمور السكارى، وهي

---

(٥٩) القول الأول والثاني ينسب الى العارف أبو يزيد البسطامي، أما القول الثالث فقد إشتهر به الحلاج.

شطحات بعض المشايخ كقول بعضهم: «أنصب خيمتي على جهنم» ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة للشرع وقد يكون صاحبها غير مأثوم[٦٠].

لاشك أن القارىء لهذا الكلام سيلاحظ معي أننا لو بحثنا في كتب القوم ـ المتصوفة ـ لمعرفة كلامهم في مثل هكذا مواضيع فإننا لن نجد شيئاً يختلف عما قاله إمام السلفية وشيخها الأكبر، بل قد يعجز صغارهم على الإتيان بما جاء به من شرح وتفصيل، بل ودفاع عن حال من أصعب الأحوال التي تخبط فيه المتصوفة سلوكاً وتأليفاً، وهو حال الفناء. ونفس الكلام يمكننا قوله فيما يخص باقي موضوعات التصوف الآخرى وهذا واضح لمن قلب أوراق مجموع الفتاوى أو كتابه الإستقامة. دون ان يعني ذلك أنه لم يذكر بعض الإعتراضات الجزئية أو الكلية على عقائد القوم، ولكننا نجده يذكرها في إطار من التفهم والبعد عن التبديع أو التضليل. ففي كتابه «الإستقامة» عندما يتعرض لإعتقاد مشايخ الصوفية الوارد في رسالة القشيري يقول: أنه ذكر من متفرقات كلامهم ما يستدل به على انهم كانوا يوافقون إعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية، وذلك هو إعتقاد إبي القاسم الذي تلقاه عن أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الإسفراييني. وهذا الإعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة لكنه مقصر عنه ذلك. ومتضمن ترك بعض ما كانوا عليه وزيادة تخالف ما كانوا عليه[٦١].

وهذا النص وغيره مما ذكره في كتاب الإستقامة يُحجِّم الإختلاف بينه وبين القوم في قضايا محدودة جداً قد تكون نفسها التي اختلف بشأنها مع أهل السنة من الأشاعرة، مادام على حد قوله أنهم يعتقدون مذهب الأشعري. ولكنه سيذكر كلاماً غامضاً بعض الشيء عندما يفضل كتاب «التعرف

---

(٦٠) مجموع الفتاوى، ج١٠ ص٣٣٧، نقلاً عن م س، ص٢٣٠ ــ ٢٣١.

(٦١) الإستقامة، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ط ١٤٠٣. ج١، ص ٨١، نقلاً عن المكي، ص٢٣٣ ــ ٢٣٤.

لمذهب التصوف» للكلاباذي عن «الرسالة القشيرية» على أعتبار ان ما ذكره الكلاباذي أقرب الى مذهب السلف وأبعد عن الهوى والبدع. والحقيقة أن تحقيق هذا الكلام سيسقطنا في متاهات لا أول لها ولا آخر. فقد قال نفس الكلام عن تفسير الطبري بخصوص تأويل آيات الصفات الخبرية. ولما رجع الباحثون الى هذا التفسير وجدوا شيئاً لاقبل للشيخ به ولا يمكنه أن ينتصر لمذهبه بما جاء فيه أبداً؟!.

بالإضافة الى أن جل المشايخ الذين ذكرهم ومدحهم واثنى عليهم في كتابه الإستقامة ليسوا على خلاف أو عداء مع من ذمهم ونسبهم الى الضلال والإبتداع أو الكفر وعلى رأسهم ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين. فلا نعلم ان أحداً ممن أرخ لهم في كتب التصوف وذكر سيرهم أنه تعرض لهم بالشتم أو سب أو تضليل. وابن عربي الذي حمل عليه الشيخ الحراني حملة شعواء وكفر إعتقاده، يعتبر نفسه تلميذاً شرعياً لهؤلاء المتصوفة والعارفين، قد سلك طريقهم ونهج نهجهم ولم يحد عنه، وانه لم يقل ولم يكتب - أي إبن عربي - إلا ما رآه وشاهده في رحلته الروحية.

□ ابن تيمية يرفض التصوف الأشعري :

ونعود لنؤكد شيئاً مهما قد يكون مفتاحاً لحل ذلك التناقض العجيب في موقف ابن تيمية من الصوفية والتصوف، فإذا كان قد تكلم بلسانهم وشرح مقاماتهم ودافع عن أحوالهم وبررها كما ذكرنا من قبل في نصوص مقتطفة من فتاواه، فإن الهجوم على بعضهم والحمل عليه بالتضليل أو التكفير قد يكون سببه وجذره يعود الى عدائه القديم للأشاعرة. فالحنابلة - وبالخصوص الحشوية منهم - كانوا وما زالوا يكنون للأشاعرة - أهل السنة والجماعة - العداء والرفض، بسبب موقفهم التوحيدي. حيث رمى الأشاعرة حشوية الحنابلة بالتجسيم والتشبيه، وأنهم منحرفون في التوحيد، في الوقت الذي

كان حشوية الحنابلة ينسبون الأشاعرة للتعطيل.

وابن تيمية اذا كان من أقطاب هذا المذهب الحشوي التجسيمي فقد نصب نفسه للدفاع عنه والإنتصار له، ومما لاشك فيه أنه ورث العداوة والنفوز من الأشاعرة. وعليه فإنه ربما كان ينظر الى المتصوفة الذين صدروا عن علم الكلام الأشعري بنفس النظرة لعلماء الأشاعرة. فهو عندما يفضل الكلاباذي يثني كثيراً على أبو عبدالرحمان السلمي جامع كلام الصوفية، لأنه وعلى حسب قول ابن تيمية «كان ينكر مذهب الكلابية ويبدعهم، وهو المذهب الذي ينصره أبو القاسم» أي القشيري في رسالته. كما يثني على أبي العباس القصاب لأن له «التصانيف المشهورة في السنة ومخالفة طريقة الكلابية الأشعرية»، وهو هنا يذكر الأشاعرة صراحة.

ومما يحير الباحث ويجعله يتخبط في الآراء المتناقضة، هو قول الشيخ الحراني في أثناء كلامه عن الرسالة القشيرية لأبي القاسم: بأنه جمع فيها متفرقات كلامهم مما يستدل به على أنهم يوافقون الأشاعرة في معتقدهم. لكنه لا يفتىء يذكر بعد ذلك بأن جل من أرخ لهم أبو القاسم وذكر سيرتهم «لا يعرف عن شيخ منهم أنه كان ينصر طريقة الكلابية والأشعرية.. بل المحفوظ عنهم خلافها، ومن صرح منهم فإنما يصرح بخلافها..»[٦٢].

ولعمري إن هذا إتهام خطير جداً من إبن تيمية لأبي القاسم القشيري فكيف يجرء مؤرخ أن ينسب لطوائف من رجالات الأمة إعتقاداً لم يكونوا يؤمنون به بل كانوا بخلافه. فهل يُطمأن بعد ذلك لقول مؤرخ أو مصنف.

لقد كان أبو القاسم أشعريا على مذهب الخلف ـ خلف الأشاعرة ابن فورك والإسفراييني وغيرهم ـ فهل يحق له أن ينسب كذباً وزوراً كل من ارخ له من رجالات التصوف على أنه كان أشعريا، أو يصدر عن رأيهم أو حتى أنه لم يعرف لبعضهم انتصاره لمذهب الأشعري أو نقضه. فكيف يحق لأبي

(٦٢) المرجع السابق، ص٢٣٥.

القاسم ان يدعي ذلك كذباً وبهتاناً وتحريفاً للتاريخ والحقيقة؟!.

لقد كان القشيري صوفياً وسالكاً للطريق وبشهادة الكثير من المؤرخين، أنه كان يعرف عقائد القوم ومذاهبهم وأفضل من كتب عنهم، وأوضح مكنون سرهم ودافع عن غريب قولهم وفعلهم. كل ذلك معضداً بالكتاب والسنة ليظهر ان طريق القوم هو الإتباع وليس الإبتداع. فهل كان القشيري في كل ذلك مزوراً للحقيقة محرفاً لما عليه القوم؟! لانعتقد ذلك أبداً، وللباحثين النظر في هذه القضية للفصل فيها؟!

إننا قد لا نعدو الحقيقة اذا قلنا بأن إبن تيمية كان ينتصر للمتصوفة الحنابلة، أي من علم أنهم صدروا عن مذهب أحمد بن حنبل في العقائد خصوصا. فهو لايفتأ يذكر الشيخ عبدالقادر[٦٣] بكل خير ويعتمد أقواله وافعاله. ويؤمن بكل ما يروى من كراماته بحجة أنها وصلت بالتواتر، في الوقت نفسه الذي يرفض كرامات أخرى لبعض المتصوفة بحجة أنها قصص مكذوبة وغير صحيحة. وعبدالقادر هذا لا يشك أحد أنه كان حنبليا في بداية الطريق. كما أنه يستشهد بقوله في كتاب «الإستقامة» إنتصاراً لعقائد أحمد: فعن الشيخ علي بن إدريس انه سئل قطب العارفين أبو محمد عبدالقادر بن عبدالله الجيلي فقال: ياسيدي! هل كان لله ولي على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ فقال: ماكان ولا يكون[٦٤]. وبذلك يجزم شيخ الإسلام في غلو منقطع النظير بأن تحقيق الولاية يمر عبر عقائد الإمام أحمد بن حنبل. ولست أدري ما بال القرون الأولى حيث لم يكن لإبن حنبل وجود يذكر؟!

---

(٦٣) الشيخ عبد القادر الجيلاني او الجيلي ولد سنة ٤٧٠هـ ،وكان إمام الحنابلة وشيخهم في عصره. أخذ الخرقة الشريفة من يد شيخه القاضي أبي سعد المخزمي بالسند الى رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان كثيراً ما يخطو في الهواء في مجلسه على رؤوس الناس خطوات ثم يرجع الى الكرسي. وكان يفتي على مذهب الشافعي وأحمد. أنظر مختصر طبقات الحنابلة ، لإبن الشطي ، ص٤١ ــ ٤٢ .

(٦٤) المكي ، م س ، ص٢٣٥ .

وما هي عقائد إبن حنبل التي لابد منها ليتحقق للناس شرط الولاية من قبل ومن بعد. إننا وقد أعيانا البحث في ما نسب لهذا الرجل من عقائد، لم نجد سوى الحشو الذي تبرأ منه علماء الإسلام بل تبرأ منه من إستبصر من الحنابلة، ووصفوه بالإفتراء والكذب على هذا المحدث وعلى مذهبه.

وإبن تيمية الذي يعتقد هذا الغلو في كلام هذا المتصوف وكذا في إمامه إبن حنبل، لو نقل إليه نفس الكلام أو أقل منه في غيره من الناس، لاتهم القائل بالإبتداع والضلال والانحراف، بل لربما أوصله الى مشارف الكفر وحكم عليه بالوقوع فيها. لكنه إبن تيمية! ومن يجرء على الكلام اليوم فيه وفي أتباعه فسيجد ترسانة من الأسلحة في مواجهته قوامها «ضال، مبتدع، كافر، جهمي، زنديق» وما أمضى تلك الأسحلة وأفعلها عندما يكون المال والسلطان والعامة الى جانب هؤلاء السلفية تصديقاً وانتصاراً.

نرجع لنقول ان إبن تيمية حسب ما جاء في «الإستقامة» لم يكن يؤمن ان يكون الرجل ولياً لله وهو صادر عن معتقد الأشاعرة يقول: حدثني أيضاً الشيخ محمد بن أبي بكر بن قوام أنه سمع جده الشيخ أبا بكر بن قوام يقول: إذا بلغك عن أهل المكان الفلاني - سماه لي شيخ محمد - إذا بلغك ان فيهم رجلاً مؤمناً - أو رجلاً صالحاً - فصدق، وإذا بلغك ان فيهم ولياً لله فلا تصدق، فقلت: ولم ياسيدي؟ قال لأنهم أشعرية»[٦٥].

وقد نقل كثيراً من الأقوال في كتابه تبعد طريق الصوفية الخلص كما يراهم أو أولياء الله الكمل، عن طريق الكلام الأشعري وأصحابه. وليتفادى الحرج إذا ما سئل عن رجالات «الرسالة القشيرية» فإنه يقول: ماذكره أبو القاسم في رسالته من إعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة،ولكن فيه نقص عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين[٦٦].

---

(٦٥) المرجع السابق ، ص٢٣٦ .

(٦٦) المرجع السابق ، ص٢٣٧ .

وعليه يمكن أن يعزى أول الخلاف بين إبن تيمية الحنبلي السلفي وبين المتصوفة إلى الإنتماء المذهبي الأصولي بالخصوص، فمن لم ينطلق ممّا يسميه إبن تيمية عقيدة الإمام أحمد أو عقائد السلف، فإنه لن يصل الى درجة الولاية الكاملة، والتي أدعيت لبعض أهل التصوف ممن لم يعرف المذهب الحنبلي لا في الأصول ولا في الفروع كما يذهب الى ذلك القشيري.

وعقيدة الإمام أحمد هنا أوعقائد السلف شيئاً يختلف عما يعرفه أبو القاسم فهو يقول في رسالته مبرراً الغرض من تأليفها: «هذا ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض منه ذكرهم في هذا الموضع التنبيه على انهم كانوا مجمعين على تعظيم الشريعة متصفين بسلوك طريق الرياضة متفقين على متابعة السنة غير مخلين بشيء من أداب الديانة..»(٦٧).

إذن فرجال القشيري يعظمون الشريعة ويتبعون السنن ويتشبثون بأداب الديانة. وهذا في عرف إبن تيمية فيه من الخير والحق، لكنه لا يوصل الى درجة الولاية الكاملة. والسبب في ذلك على ما نعتقد هو عدم أخذهم بأحد الأصول المهمة وهي اعتقاد أحمد، هذا الاعتقاد الذي يمكن أن يكون مادة خصبة لمذاهب وفرق متعددة ومتناحرة؟! وبإمكان كل فرقة أن تجد السبيل النظري والواقعي لتكفير باقي الفرق الأخرى.

الشيء الثاني الذي يعزى له خلاف إبن تيمية الحراني مع رجال التصوف هو ما إعتقده بعضهم أو بالأحرى أن نقول ما ظهر في منطوق كلامهم أو كتاباتهم مما يفيد في ظاهره خلاف الشريعة وما هو معلوم من دين الإسلام بشكل عام. فعندما تعرض مثلاً لنقاش مسألة الفناء الصوفي وما جاء فيه من كلام أرباب العرفان، لم يكتف بإيراد كلامهم وشرحه بل إنتصر لقول بعضهم وقال أنه الحق ورد كلام آخرين مع أنه حشر نفسه في مقام القوم

(٦٧) المرجع السابق ، ص٢٤٠ .

أدرى به وبتفاصيله منه، لأنهم يعاينونه ذوقا ومشاهدة وليس عملاً تعقلياً، يتبع فيه المنطق أو أية أداة إجرائية أخرى. فهو عندما يحكي مثلا خلافاً وقع بين إبن عربي والشيخ شهاب الدين السهروردي حول الفناء وشهود الحقائق على ما هي عليه، وعن شهود التفرقة في الجمع والكثرة في الوحدة وهل يمكن ذلك؟! ينتصر بسرعة للشيخ السهروردي الذي جوز إجتماع الأمرين ويرفض ما نقله عن إبن عربي حكاية من أنه قال: نحن نقول عن شهود الذات وهو يخبرنا عن شهود الصفات. والصواب مع شهاب الدين ـ اي السهروردي ـ فإنه كان صحيح الإعتقاد في امتياز الرب عن العبد(٦٨). وإنما بنى إبن عربي على أصله الكفري في أن الحق هو الوجود الفائض على الممكنات. ومعلوم أن شهود هذا لايقع فيه خطاب وانما الخطاب في مقام الفعل(٦٩).

والدكتور البوطي الذي استحسن كلام إبن تيمية في تحليله معاني الفناء وموقف الشريعة منها، لايجد بداً من مخالفته والرد عليه بقوة بخصوص ما أورده في حق إبن عربي. فلا سبيل شرعي يقول البوطي لموافقة إبن تيمية على هذا الكلام. وخلاصة المشكلة أنه ـ أي إبن تيمية ـ ومن قلده في نهجه يظلون يأخذون إبن عربي وأمثالهم بلازم أقوالهم، دون أن يحملوا أنفسهم على التأكد من أنهم يعتقدون فعلا ذلك اللازم الذي تصوروه... ويضيف البوطي:

أما أن يكون في كتب إبن عربي كلام كثير يخالف العقيدة الصحيحة ويستوجب الكفر، فهذا مالارية ولانقاش فيه. وأما ان يدل ذلك دلالة قاطعة

(٦٨) الشيخ السهروردي كان صحيح الإعتقاد في نظر إبن تيمية ليس فقط لانه يميز العبد عن الرب ولكنه ممن امتنع عن الكلام الأشعري في بداية طريقه عملا بنصيحة الشيخ عبد القادر الصوفي الحنبلي لذلك فهو أثير لدى إبن تيمية، صحيح المذهب والمعتقد. وإن كان الأمر يتعلق بجزئية غارقة في الباطن ويصعب معرفة الحق فيها لتعسر الإتفاق على منهج واضح ما دام طريق القوم هو الذوق والمشاهدة الباطنية والتي لا يشاركهم فيها غيرهم

(٦٩) السلفية ، م س ، ص٢٠٤ .

على أن إبن عربي كافر، وانه ينطلق في فهم (شهود الذات الإلهية) من أصل كفري هو نظرية الفيض، فهذا مالا يملك إبن تيمية ولا غيره أي دليل قاطع عليه. فإن كتب إبن عربي تفيض بالبيانات المفصلة المكررة التي تناقض هذا الأصل الكفري. هذا بالإضافة الى انه قد بات معلوماً ومؤكداً أن طائفة معلومة من الزنادقة الباطنية دسوا ماشاؤوا أن يدسوا في كتبه. ذكر ذلك المقري في «نفح الطيب» وأكده إبن عماد في «شذرات الذهب» وأكده في قصة طويلة الإمام الشعراني في «اليواقيت والجواهر» وذكره الحاجي خليفة في «كشف الظنون» ولا نشك في أن إبن تيمية ينبغي ان يكون في مقدمة من يعلم ذلك[٧٠].

وكلام إبن عربي في الجملة قد أثار الكثير من الجدل فقد كفره الكثير من الفقهاء قبل إبن تيمية وبعده، كما اعتقد بولايته طائفة من فقهاء المذهب الحنبلي[٧١]، بل إن قاضي قضاة المذهب الحنبلي بالديار المصرية المعروف بإبن

(٧٠) المرجع السابق ، ص٢٠٤ ــ ٢٠٥ ، أنظر الهامش.

(٧١) يقول مترجم سيرة مصطفى الشطي الحنبلي «وغلب عليه حب الصوفية أصحاب وحدة الوجود والعناية بكلامهم وطريقتهم درس في المدرسة الباذرائية وانتفع به الطلبة في الفقه والنحو وغير ذلك» . ومنهم محيي الدين عبدالقادر الشيباني المزي المعروف بإبن الرجيحي، تصوف ولبس الخرقة من جماعة منهم والده «وهو شيخ الطائفة البونسية» . ومنهم الشهاب أحمد الفتوحي الشهير بإبن النجار قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية. كان في أول عمره ينكر على الصوفية. ثم لما اجتمع بسيدي علي الخواص وغيره أذعن لهم وأعتقدهم وصار بعد ذلك يتأسف على عدم إجتماعه بالقوم من أول عمره. ومنهم أبو بكر تقي الدين بن الذباح، كان يكتب كتب الصوفية. كتب (كفاية المعتقد) لليافعي و (الفتوحات) وغيرها للشيخ الإمام الأكبر محيي الدين بن عربي قدس الله تعالى سره. وكان يعتني بكلامه كثيراً ، ص١٤٩ .

والحنابلة ممن عرف بالتصوف أو الإنتساب الى الطرق الصوفية كثيراً جداً ذكرتهم كتب التراجم منهم من عاش قبل إبن تيمية ومنهم من عاصره وكثير منهم جاء بعده فلم يراعوا لمذهبه بالا وظلوا منتسبين لمذهبهم الحنبلي مع اعتناقهم عقائد التصوف وسلوك أهله بل منهم من رد عليه وفند شذوذه أنظر النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل، تأليف محمد كمال الدين العامري المتوفي سنة ١٢١٤هـ.

النجار كان ممن يحسب على الصوفية أعتقاداً وسلوكاً.

وقد كان لعدد من فقهاء هذا المذهب اعتقاد حسن في إبن عربي، وشهدوا له بالولاية وتداولوا كتبه بالنسخ والقراءة. وقد وجد مكتوباً بخط أبو بكر الذباح الحنبلي. كما أورده صاحب النعت الأكمل «بسم الله الرحمن الرحيم، سئل الإمام علامة الأنام مجد الدين الفيروز أبادي صاحب القاموس رحمه الله تعالى بما صورته: ماقول السادة العلماء شد الله بهم أزر الدين ولم بهم شعث المسلمين في الشيخ محيي الدين بن عربي وفي كتبه المنسوبة إليه كـ(الفتوحات) و (الفصوص) هل تحل قراءتها وإقراؤها؟ وهل هي من الكتب المسموعة المقروءة أم لا؟ افتونا مأجورين جوابا شافيا لتحرزوا جزيل الثواب من الكريم الوهاب. فأجاب بما صورته: اللهم انطقنا بما فيه رضاك. الذي اعتقده في حال المسؤول عنه وأدين الله تعالى به أنه شيخ الطريقة حالا وعلما وإمام التحقيق حقيقة ورسما ومحيي رسوم المعارف فعلا وإسما..»(٧٢)

كما أن جلال الدين السيوطي كان يعتقد بولايته. وعليه فحكم إبن تيمية على إبن عربي بالكفر ليس إلا رأيا خالف فيه الكثير من فقهاء مذهبه، ولا يمكن بحال ان يعتبر ذلك مصداقا للحقيقة أو هو رأي السلف برمتهم. ولكن الحقيقة أن للشيخ الحراني جرأة كبيرة على تكفير من يخالفه دون احتراز أو تريث، وقد ورَّث أتباعه هذه الصفة. فالسلفية الوهابية اليوم لايجدون أي حرج في تكفير قطاعات كبيرة من مسلمي هذه الأمة بقضايا لا تعدو آخر المطاف ان تكون في أغلبها أموراً إجتهادية، إن لم نجزم بأن الحق والصواب هو ما عليه تلك الطوائف.

= وأنظر ما يقوله صاحب الذيل على طبقات الحنابلة عند ترجمته لكبير الحنابلة عبدالله الهروي الأنصاري «ثم اذا انصرف الى بيته عاد الى المرقعة والقعود مع الصوفية في الخانقاة» ، ص٤١٠ .

(٧٢) النعت الأكمل ، م س ، ص١٥١ .

إن وجود مجموعة كبيرة من فقهاء المذهب الحنبلي وعلمائه ضمن التصوف عقيدة وسلوكا، وإنخراط كثير منهم في الطرق الصوفية ولبسهم الخرقة واعتكافهم في الزوايا وأضرحة الأولياء على الذكر واقامة الحلقات الخاصة بالدعاء. كل ذلك يصب في خانة التصوف بشكل عام. فهؤلاء أتباع المذهب الحنبلي يغرفون من نفس العين التي يشرب منها إبن تيمية. بالإضافة الى أنهم لم يشكوا لحظة في أنهم متابعون للسلف بل سلفيون أصحاب إتباع وسنة، وإن رغمت أنف الشيخ الحراني.

وعليه فكل حكم يصدر في حق المتصوفة عامة يشملهم، وكل تضليل أو تبديع أو تكفير ينالون لا محالة نصيبهم منه. بالإضافة الى ملاحظة مهمة جداً تخص المتصوفة الذين ذكرهم الشيخ وأثنى عليهم ووصفهم بأنهم أولياء كمل وأقرب للسف والإتباع وأبعد عن الإبتداع، مثل الشيخ عبدالقادر والسهروردي والجنيد وغيرهم. إن هؤلاء وإن لم يشتهر عنهم كلام مثل الذي اشتهر به إبن عربي وإبن سبعين وإبن الفارض، فإنهم لا يذهبون مذهب إبن تيمية في قضايا التوسل بالأنبياء والأولياء وكذا زيارة قبر الرسول والصالحين ومجمل القضايا الأخرى التي بدع الشيخ الحراني من يقوم بها بل نسبهم الى الشرك.

ان للصوفية اعتقاداً خاصا في الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يختلف فيه صغيرهم عن كبيرهم. ومعلوم ان تلك القضايا وغيرها كانت إحدى أهم الأسباب التي أثارت عامة أهل التصوف على إبن تيمية، فهم كباقي أهل السنة يرون ان زيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قربة من أعظم القربات، أما التوسل بذاته المقدسة لقضاء الحوائج والمهمات فإنها من عقائدهم العملية الشائعة. وعليه فالشيخ لا يختلف مع إبن عربي وابن سبعين وعمر بن الفارض لأن في كلامهم ما يفيد الكفر بل إنه يختلف مع جملة أهل التصوف سواء من مدحهم أو الذين تعرضوا لذمه ومدحه. فهو

يختلف مع هؤلاء في مسائل فيكفرهم، ويختلف مع الآخرين في مسائل فيبدعهم أو يتهمهم بالوقوع في الضلال أو الشرك.

لذلك فالمستشرق ماكدونالك كان مصيباً عندما وصفه بأنه عدو للحياة الروحية والتصوف على حد سواء. والغريب في الأمر بل من عجائب التاريخ انه وجد في أتباعه من يعتبره قطباً صوفياً بل أحد العارفين بالله، وأن مادار بينه وبين الصوفية من سجال انما كان بسبب عرضه أقوالهم وسلوكهم على الكتاب والسنة. فقد حاول تشذيب أقوالهم وتطهير اعتقاداتهم من كل ما يخالف الكتاب والسنة، وليضع قدمهم على المحجة البيضاء. والحقيقة ان هذا الأدعاء فيه الكثير من التهافت لأنه يتهم طوائف كثيرة من العلماء لقرون عدة قبل الشيخ وبعده بالجهل بالكتاب والسنة والإنحراف عنهما، إلا ان جاد الزمان في القرن السابع الهجري بنبوغ الشيخ الحنبلي، هذا الرجل الذي جعل من نفسه ورأيه مقياساً يعرف به الحق من الباطل! ولكننا في الأخير سنجد أنفسنا مضطرين لتكرار قول ماكدونالك في حقه لأنه أقرب الى واقع الأمر مما يذهب إليه هؤلاء: «ليس لديه من نفع لطريق الزهد أو الفلسفة أو الدين، ولم يقصد إلا نفع نفسه»[٧٣].

إن أتباع إبن تيمية المعاصرين من السلفية الوهابية عندما يقرأون كلام شيخهم بخصوص المتصوفة وما فيه من جزم وفصل بتبديعهم أو تكفيرهم، لا يساورهم أدنى شك من أن القوم ليس لهم حظ في العلم بالكتاب والسنة، وأن قواعدهم أوهن من بيت العنكبوت. لذلك ترى الداعي السلفي لا يحدث نفسه بركوب العناء أو المشقة عندما يحاور شخصاً ما ينتسب الى أحدى الطرق الصوفية. وتراه كشيخه سريع الحكم عليهم بالضلال والإبتداع وعبادة القبور.

---

(٧٣) موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية، م س، ص١٩٥.

ولكن أغلب دعاة السلفية لا ينتبهون الى أن أغلب محاوريهم من أتباع الطرق الصوفية من عامة الناس ممن لا شأن لهم بالجدل أو معرفة جزئيات العقائد، فهم مقلدة يقلدون طرق بعض المشايخ التعبدية ليس إلا. اما علماء الصوفية ومن وضع لهذا الطريق أركانه وبنى أسسه، فإن لهم في المعرفة حظاً واسعاً وهم وإن كانوا قلة قليلة في زمننا هذا فإن سيرة السلف وتراثهم الفكري الضخم تكفي الخلف والأتباع اليوم ليس فقط للدفاع عن عقائدهم وطريقة سلوكهم ولكن للإنتصار على خصومهم ـ السلفية ـ وبيان تهافت إعتراضاتهم وتسفيه أحلام شيخهم العلمية والإجتهادية.

□ ابن عطاء الله الصوفي يناظر ابن تيمية :

ولهؤلاء الأتباع الذين ينتصرون بابن تيمية على خصومهم الصوفية ننقل محاورة سجلتها كتب التاريخ دارت بين شيخ الإسلام وبين إبن عطاء الله الإسكندري الصوفي المعروف، وذلك لمعرفة قدرة شيخهم على المناظرة ومواجهة خصومه ومدى علمه وحجته، كي يتسنى لهؤلاء الأتباع معرفة بعضاً من الحقيقة فيقل غرورهم ويأوون الى رشدهم إن هم أرادوا ذلك.

صلى إبن تيمية المغرب في الأزهر وراء إبن عطاء الله الأسكندري ولما انقضت الصلاة دار بينهما هذا الحوار: وهذا نصه ملخصاً:

إبن عطاء الله: ماذا تعرف عني ياشيخ إبن تيمية؟.

قال: أعرف عنك الورع، وغزارة العلم، وحدة الذهن، وصدق القول، وأشهد أني ما رأيت مثلك في مصر ولا في الشام حبا لله أو فناء فيه أو إنصياعاً لأوامره ونواهيه، ولكنه الخلاف في الرأي، فماذا تعرف عني أنت؟ هل تدعي عليّ الضلال إذ أنكر استغاثة غير الله؟.

قال إبن عطاء الله الإسكندري: أما آن لك يافقيه أن تعرف إن الإستغاثة هي الوسيلة والشفاعة، وأن الرسول(ص) يستغاث ويتوسل به ويستشفع؟ قال

إبن تيمية: أنا في هذه اتبع السنة الشريفة، فقد جاء في الحديث الصحيح (أعطيت الشفاعة) وقد أجمعت الآثار[٧٤] في تفسير الآية الشريفة ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾. على أن المقام المحمود هو الشفاعة. والرسول(ص) لما ماتت أم أمير المؤمنين علي رضي الله عنهما، دعا لها الله على قبرها: «الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، إغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين»[٧٥]. فهذه هي الشفاعة، أما الإستغاثة ففيها شبهة الشرك بالله تعالى.

وقد أمر الرسول إبن عمه عبدالله بن عباس ألّا يستعين بغير الله.

قال إبن عطاء الله: أصلحك الله يافقيه، أما نصيحة الرسول(ص) لإبن عباس فقد أراد منه أن يتقرب الى الله بعلمه لا بقرابته من الرسول، وأما فهمك ان الإستغاثة إستعانة بغير الله فهي شرك، فمن من المسلمين الذين

---

(٧٤) هذا الإجماع غير متحقق لأن أصحابه من حشوية الحنابلة يفسرون المقام المحمود بأن الله جل شأنه سيقعد نبيه يوم القيامة معه على العرش ، وقد خالفهم في ذلك إبن جرير الطبري في تفسيره فهجموا على منزله وحدثت فتنة . كما ان تفسير الآية من القضايا المختلف فيها بين أهل السنة (الأشاعرة) والحنابلة لأنهم يرون أن المقام المحمود هو الشفاعة. وبذلك يعرف حقيقة قول إبن تيمية (أجمعت الآثار). أنظر «الكامل» لإبن الأثير ، حوادث سنة٣١٧هـ وما وقع بين اصحاب المروذي الحنابلة وغيرهم حول تفسير الآية.

(٧٥) وهذا الحديث رواه الطبراني بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه في كلام طويل الى ان قال عليه السلام : «الله الذي يحيي وهو حي لا يموت إغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي ، فإنك أرحم الراحمين» . وكبر عليها اربعا وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر . كما رواه غيره كالحاكم في مستدركه والذهبي في سيرة أعلام النبلاء والمتقي الهندي في كنز العمال. والغريب في الأمر أنه معتمد من يجيز التوسل بالنبي وغيره من الأنبياء لأن عبارة الحديث صريحة في ذلك وقد أنتبه اتباع إبن تيمية لذلك فلم يجدوا طريقاً للتنصل من إفادة الحديث فراموا تضعيف سنده والطعن في رواته . لكن هيهات من أن تحجب الخفافيش ضوء الشمس الساطع .

يؤمنون بالله واليوم الآخر ورسوله يحسب أن غيره تعالى يقضي، ويقدر، ويثيب ويعاقب؟! فإنما هي ألفاظ لا تُأخذ على ظاهرها ولا خوف من الشرك لنسد إليه الذريعة، فكل من إستغاث الرسول(ص)، فهو إنما يستشفع به عند الله مثلما تقول أنت أشبعني هذا الطعام، فهل الطعام هو الذي أشبعك أم أن الله تعالى هو الذي أشبعك بالطعام؟ وأما قولك ان الله نهانا أن ندعو غيره، فهل رأيت من المسلمين أحداً يدعو غير الله؟.

انما نزلت هذه الآية في المشركين الذين كانوا يدعون آلهتهم من دون الله، إنما يستغيث المسلمون محمداً(ص) بمعنى التوسل بحقه عندالله، والتشفع بما رزقه الله من شفاعة، أما تحريمك الإستغاثة لأنها ذريعة الى الشرك، فانك كمن أفتى بتحريم العنب لأنه ذريعة الى الخمر، ونخصي الذكور غير المتزوجين سداً للذريعة الى الزنا. وضحك الشيخان!! واستطرد إبن عطاء الله، وأنا أعلم ما في مذهب شيخكم الإمام أحمد من سعة، وما لنظرك الفقهي من إحاطة، وسد الذرائع يتعين على من هو في مثل حذقك، وحدة ذهنك، وعلمك باللغة ان تبحث عن المعاني المكنونة الخفية وراء ظاهر الكلمات، فالمعنى الصوفي روح، والكلمة جسد، فاستقصي ما وراء الجسد لتدرك حقيقة الروح.

ثم استطرد إبن عطاء الله يقول: ثم إنك اعتمدت في حكمك على إبن عربي، على نصوص قد دسها عليه خصومه، وأما شيخ الإسلام عزالدين بن عبد السلام فإنه لما فهم كتابات الشيخ، وحل رموزها واسرارها، وأدرك إيحاءاتها استغفر الله عما سلف منه، وأقربأن محيي الدين بن عربي إمام من أئمة الإسلام. وأما كلام الشاذلي ضد إبن عربي فليس أبو الحسن الشاذلي هو الذي قاله، بل أحد تلاميذه من الشاذلية، وهو ما قاله في الشيخ إبن عربي، بل قاله في بعض المريدين الذين فهموا كلامه على غير وجهه...

قال إبن تيمية: ولكن أين تذهبون من الله وفيكم من يزعم أنه(ص) بشر الفقراء بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء، فسقط الفقراء منجذبين ومزقوا

ملابسهم، وعندئذ نزل جبريل وقال للنبي(ص) إن الله تعالى يطلب حظه من هذه المزق فحمل جبريل واحدة منها، وعلقها على عرشه تعالى، ولهذا يلبس الصوفية المرقعات ويسمون أنفسهم الفقراء.

قال إبن عطاء الله: ما كان الصوفية يلبسون الخرق، وهأنذا أمامك فما تنكر من هيئتي؟!.

قال إبن تيمية: أنت من رجال الشريعة، وصاحب حلقة في الأزهر.

قال إبن عطاء الله: والغزالي كان إماماً في الشريعة والتصوف على السواء وقد عالج الأحكام والسنن والشريعة بروح المتصوف وبهذا المنهاج استطاع إحياء علوم الدين.

نحن نعلم الصوفية أن القذارة ليست من الدين، وإن النظافة من الإيمان، وأن الصوفي الصادق يجب أن يعمر قلبه بالإيمان الذي يعرفه أهل السنة.

لقد ظهر بين الصوفية منذ قرنين من الزمان، أشياء كالتي تنكرها الآن واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة وركضوا في ميدان الغفلات.. وادعوا أنهم تحرروا من رق الغفلات والأغلال، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا الى أغلى الحقائق والأحوال كما وصفهم القشيري الإمام الصوفي العظيم فوجه إليهم الرسالة القشيرية، ترسم طريق الصوفي الى الله، وهي تمسكه بالكتاب والسنة.

إن أئمة الصوفية يريدون الوصول الى الحقيقة، ليس فقط بالأدلة العقلية التي تقبل العكس، بل بصفاء القلب ورياضة النفس، وطرح الهموم الدنيوية، فلا ينشغل العبد بحب غير الله ورسوله. وهذا الإنشغال السامي، يجعله عبداً صالحاً، جديراً بعمارة الأرض وإصلاح ما أفسده حب المال والحرص على الجاه والجهاد في سبيل الله.

وقال إبن عطاء الله: ان الأخذ بظاهر المعنى يوقع في الغلط أحياناً يافقيه، ومن هذا رأيك في أبن عربي، وهو إمام ورع من أئمة الدين، فقد فهمت ما

كتبه على ظاهره، والصوفية أصحاب إشارات وشطحات روحية ولكلماتهم أسرار.

قال إبن تيمية: هذا الكلام عليك لا لك. فالقشيري لما رأى أتباعه يضلون الطريق قام عليهم ليصلحهم، فماذا فعل شيوخ الصوفية في زماننا؟! إنما أريد من الصوفية أن يسيروا على سنة هذا السلف العظيم من زهاد الصحابة، والتابعين وتابعيهم باحسان، اني أقدر من يفعل منهم ذلك وأراه من أئمة الدين. أما الإبتداع وإدخال أفكار الوثنيين من متفلسفة اليونان، وبوذية الهند، كادعاء الحلول والإتحاد ووحدة الوجود، ونحو ذلك مما يدعوا إليه صاحبك فهذا هو الكفر المبين.

قال إبن عطاء الله رضي الله عنه: إبن عربي رضي الله عنه كان أكبر فقهاء الظاهر بعد إبن حزم الفقيه الأندلسي المقرب إليكم يامعشر الحنابلة. كان إبن عربي ظاهرياً، ولكنه يسلك الى الحقيقة طريق الباطن، أي تطهير الباطن!! وليس كل أهل الباطن سواء!! ولكيلا تضل أو تنسى أعد قراءة إبن عربي بفهم جديد لرموزه، وإيحاءاته تجده مثل القشيري، قد اتخذ طريقة الى التصوف في ظل ظليل من الكتاب والسنة، إنه مثل حجة الإسلام الشيخ الغزالي يحمل على الخلافات المذهبية في العقائد والعبادات، ويعتبرها إنشغالا بما لاجدوى منه، ويدعو الى ان محبة الله هي طريقة العابد في الإيمان فماذا تنكر من هذا يافقيه؟ أم أنك تحب الجدل الذي يمزق أهل الفقه. لقد كان الإمام مالك رضي الله عنه يحذر من الجدل في العقائد، ويقول (كلما جاء رجل أجدل من رجل نقص الدين).

قال الغزالي: «إعلم أن الساعي الى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن، ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس، بل هو سر من أسرار الله عزوجل لا يدركه الحس..».

إن أداء التكاليف الشرعية في رأي إبن عربي وإبن الفارض، عبادة محرابها

الباطن، لاشعائر ظاهرية، فما جدوى قيامك وقعودك في الصلاة إذا كنت مشغول القلب بغير الله؟! مدح الله تعالى أقواماً بقوله تعالى ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾، وذم أقواماً بقوله: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾. وهذا هو الذي يعنيه إبن عربي بقوله ان التعبد محرابه القلب أي الباطن لا الظاهر...

الصوفي الحق ليس هو الذي يستجدي قوته ويتكفف الناس، إنما هو الصادق الذي يهب روحه وقلبه، ويغني في الله بطاعة الله، ومن هنا تنبع قوته، فلا يخاف غير الله.

ولعل إبن عربي قد أثار عليه بعض الفقهاء لأنه أزرى على إهتمامهم بالجدل في العقائد، مما يشوش على صفاء القلب، ثم في وقوع الفقه وافتراضاته فأسماهم (فقهاء الحيض) وأعيذك بالله ان تكون منهم.

ألم تقرأ قول إبن عربي (من يبني إيمانه بالبراهين والإستدلالات فقط لا يمكن الوثوق بإيمانه، فهو يتأثر بالإعتراضات، فاليقين لايستنبط بأدلة العقل إنما يعترف من أعماق القلب). ألم تقرأ هذا الكلام الصافي العذب قط؟!.

قال إبن تيمية: أحسنت والله إن كان صاحبك كما تقول فهو أبعد الناس عن الكفر، ولكن كلامه لا يحمل على هذه المعاني فيما أرى.

قال إبن عطاء الله: إن له لغة خاصة، وهي مليئة بالإشارات والرموز والإيحاءات، والأسرار والشطحات.

ولكن فلنشتغل بما هو أجدى، وبما يحقق مصلحة الأمة فلنشتغل بدفع الظلم، وحماية العدل المنتهك، أرأيت ما فعله بيبرس وسلار بالرعية منذ خلع الناصر نفسه، فانفرد بالحكم، وإن عاد السلطان الناصر وهو يؤثرك على كل الفقهاء، ويستمع لك فاسرع إليه وانصح له[٧٦].

---

(٧٦) الدكتور سيد الجميلي مناظرات إبن تيمية مع فقهاء عصره ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م ، ص١٢ الى٢٠ ، بتصرف . وقد ذكر هذه المناظرة عدد من المؤرخين ==

لقد تعمدت إيراد هذه المناظرة شبه كاملة على طولها بين إبن تيمية وخصمه الصوفي إبن عطاء الله الإسكندري وذلك لكي يتضح لأتباع الشيخ السلفي قوة حجته وشمول إطلاعه، فهو يكاد يكون تابعاً مستسلماً لهذا الشيخ الصوفي، متحيراً في إيراد الحجج الناقضة لإصول المتصوفة، فهو حسب الشيخ الإسكندري مجرد «فقيه» لا يعدو فهمه ظواهر كلام الصوفية. وقد نبه القوم كل من يطلع على كلامهم أن لا يحمله على ظاهره وان لا يأخذهم بلازمه لأنهم أهل باطن وإشارات وقد تضيق اللغة على استيعاب ما يشعرون به أو ما يشاهدونه في رحلاتهم الروحية الباطنية. فمن الحكمة اذن الإحتراز في الحكم عليهم والإستنجاد بالتأويل عند الحاجة لتحقيق حسن الظن بعقائد القوم. خصوصاً وأن أغلبهم يعتمد الكتاب والسنة منطلقاً، وإنما هو الإجتهاد في العبادة وتحقيق اليقين. أما من حسب نفسه على القوم وجاهر بمخالفة صريح الكتاب أو السنة وبالخصوص على مستوى التطبيق والسلوك فإن رؤساء القوم أول من يتبرأ منه ويلفظونه خارج جماعتهم. وقد أشار الشيخ إبن عطاء الله لذلك فضرب مثلاً بمن ينسب الى الإمام احمد بن حنبل وهو منحرف عقيدة وسلوكاً فهل يذم الإمام أحمد على ذلك.

وما ورد في هذه المناظرة يدعم قولنا بوجود تناقض صارخ في آراء الشيخ إبن تيمية تجاه التصوف وقضاياه بل يمكننا أن نجزم بأن التناقض والإختلاف لازم لمجمل أقواله وفتاويه[٧٧] في القضايا التي تناولها في كتبه. لذلك نجد الدكتور البوطي يركب ظهر هذا الاختلاف والتناقض للهروب من تكفير الشيخ الحنبلي فهو ـ أي البوطي ـ يعتقد كغيره من علماء أهل السنة والجماعة بكفر من يقول بالقدم النوعي للعالم على سبيل المثال، وقد كفر

= مثل إبن كثير وأوردها الأستاذ عبد الرحمان الشرقاوي، كما نقلتها مجلة المسلم الصادرة عن العشيرة المحمدية بالقاهرة عدد ٤ ـ ٥ الصادر في ٢٠ أغسطس ١٩٨٢م.

(٧٧) لذلك كان «اذا حوقق وألزم يقول لم أرد هذا إنما أردت كذا فيذكر إحتمالا بعيداً». كما يقول إبن حجر في الدرر الكامنة.

الغزالي الفلاسفة في ثلاث مسائل! إحداها القول بقدم العالم. وجل الباحثين ومنهم الدكتور نفسه يجدون إقراراً صريحاً من الشيخ ودفاعاً عن هذه الفكرة وعن أصحابها، لكنه ولهذا السبب كما يقول: لم نجنح الى تكفير إبن تيمية ولا الى تضليله. بل إنطلقنا الى النظر في ذلك من تحكيم القواعد الشرعية ذاتها. فلقد لاحظنا الأمر ذاته الذي لاحظناه في كتب الشيخ إبن عربي رحمه الله. اذ رأينا لإبن تيمية كلاماً آخر في أكثر من موضع يناقض كلامه الباطل الذي أيد فيه الفلاسفة في ضلالهم الذي كان من أسباب كفرهم، بحيث لو أردنا ان نرد على إبن تيمية هذا الباطل الذي تورط فيه، لما وجدنا كلاما نرد به عليه خيراً من كلام إبن تيمية ذاته الذي كرره في عدة مناسبات أخرى[٧٨].

ان دفاع الدكتور عن الشيخ الحراني، لايرجح كفته ولايضعه في مرتبة إبن عربي، وذلك لعدة إعتبارات ذكرنا بعضها سابقاً وهي أن أتباع إبن عربي وغيرهم يشككون في نسبة الكثير مما ورد مخالفاً لعقيدة الإسلام في كتب الشيخ الصوفي، ويرجحون أنه من وضع الزنادقة بالإضافة الى إحتمائهم بالتأويل، أي صرف ظواهر كلام الشيخ الصوفي عن لازمها اللغوي القريب لجعلها تتقارب مفهوماً مع ما أتفق عليه من عقائد الإسلام.

وهناك ملاحظة مهمة يمكن أن تكون فيصلاً بين موقف الشيخين. وتتمثل في أن إبن عربي لم يكن داعياً لما يكتب أو يقول، كما أنه لم يقل إن ما رآه أو كشف له عنه في تجربته الروحية هو ما يجب أن يعتقده المسلمون عامة وخاصة، وأن من لم يرى ذلك فهو ضال مبتدع كافر! بخلاف الشيخ إبن تيمية الذي جزم وفصل وإدعى أن ما يراه وما يقوله هو الحق الذي لايحيد عنه إلا منحرف، وأن على العوام معرفة ذلك واعتقاده. وقد فعل الشيخ ذلك من على منبر الجامع بدمشق كما حرر عدة مجلدات أثناء سجنه دفاعاً عن

(٧٨) السلفية ، انظر الهامش ص٢٠٥ .

عقائده وآرائه، وتعريضاً بخصومه الذين وصفهم بأنهم أنباط الفرس والروم وفروخ اليهود والنصارى والفلاسفة[٧٩]...

لقد كتب رجالات الصوفية ومحققوهم عدة ردود في الماضي والحاضر على إدعاءات إبن تيمية وإنتصروا لعقائدهم وطرائق سلوكهم بما استنبطوه من الكتاب والسنة وسيرة السلف من الصحابة والتابعين. والرأي عندهم أن الشيخ إبن تيمية: «تكلم في علم لا يعلمه. ولا يعلم أصوله ولا فروعه مخالفاً قوله تعالى ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ واتبعه آخرون فيما أخطأ فيه ولا يقف الأمر عند هذا الحد أي جهل الشيخ بموضوع حشر نفسه فيه[٨٠]، وأصدر فيه أحكاماً جازمة أثارت الكثير من المشاكل والفتن بين فرق المسلمين وما زالت، ولكن بعض من الباحثين المعاصرين يتهم الشيخ السلفي بالكذب على الصوفية وبالخصوص على إبن عربي، حيث حرف نصوصه وكلامه عند النقل والإستشهاد وكذلك أتباعه اليوم يفعلون.

□ ابن تيمية يكذب على ابن عربي:

يدعي الباحث محمود الغراب بأن «شيخ الإسلام» لم يكن أمينا على أقوال إبن عربي، ونصوصه التي نقلها جاءت محرفة. كما يُشير الى أحكامه المتناقضة بخصوص شخصيات صوفية مشهورة. ينقل محمود غراب نصاً لإبن تيمية اقتطفه من فتاويه ويرد عليه ويبرز من خلال ذلك كذب الشيخ

---

(٧٩) الحقائق الجلية ، م س ، ص١٧ ، وهذا التطرف في نسب المخالفين الى الكفر والضلال يعتبر سمة من سمات الحنابلة على طول التاريخ، أنظر لقول أحدهم: قال بنان بن أحمد: كنا عند القعيني رحمه الله فسمع رجلاً من الجهمية يقول «الرحمان على العرش إستوى» فقال القعيني، من لا يوقن ان الرحمان على العرش استوى كما يقر في قلوب العامة فهو جهمي». والجهمي عند القوم كافر لا شك في كفره. أنظر مجموعة التوحيد ، ص١٢١.

(٨٠) محمود محمود الغراب ، الرد على إبن تيمية من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، مطبعة زيد بن ثابت ، دمشق ، ١٩٨١م ، ص٩ .

وافترائه على الحقيقة.

يقول ابن تيمية: «لما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى عليهم كما يوجد في كلام صاحب الفتوحات المكية والفصوص وأشباه ذلك يمدح الكفار مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم وينتقص الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وهارون، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين كالجنيد بن محمد وسهل بن عبدالله التستري ويمدح المذمومين عند المسلمين كالحلاج ونحوه؟...»[٨١].

يقول محمود الغراب: أما أن إبن عربي قد ذم الجنيد والتستري فإنه في فتوحاته عندما يتكلم عنه أو يستشهد بأقواله يقول «رحم الله سيد هذه الطائفة أبا القاسم الجنيد». وهو عندما يتعرض لذكر العلماء الذين حفظوا على الأمة أحوال نبيها(ص) يتدرج بذكر الصحابة ثم التابعين الى ان يقول «ومن نزل عنهم بالزمان كشيبان الراعي وفرج الأسود والمعمر والفضيل بن عياض وذي النون المصري ومن نزل عنهم كالجنيد والتستري ومن جرى مجرى هؤلاء من السادة في حفظ الحال النبوي والعلم اللدني والسر الإلهي.. الى ان يقول «حتى يعلم أنا ما خرجنا فيما نذهب اليه من الإعتبار كما أشار اليه صلى الله عليه وآله وسلم قولاً وفعلاً لأن سيد هذه الطائفة أبا القاسم الجنيد يقول علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة[٨٢].

ولا ندري هل قول الشيخ إبن عربي «سيد الطائفة» مدح أم ذم في الجنيد! ومن أين جاء إبن تيمية بقوله ان إبن عربي ذمه وفي أي موضع جاء هذا الذم! ربما كما يقول محمود غراب؛ أن إبن تيمية نظر في مناقشة إبن عربي للجنيد حول المحدث والقديم، فظن أن الشيخ يرد عليه لما يعتقده هو ـ حسب إبن تيمية ـ من عدم التفريق. ومع ذلك ليس هناك أي ذم إنما هو نقاش فكري بين

---

(٨١) المرجع السابق ، ص١٣ .

(٨٢) المرجع السابق ، ص١٥ .

قطبيين صوفيين. والحق أن هذا الإستنتاج من إبن تيمية يدعم الرأي القائل بأن الشيخ تكلم في علم لا يعلم أصوله ولا فروعه إنما كان همه الرد على القوم وإن خلط أقوالهم وإدعى عليهم بما هم منه براء.

وهل يرضى إبن تيمية بعقيدة الشيخ الجنيد الذي يمدحه. أعتقد أنه لو إطلع على كل ما قال به الجنيد لوصمه بما وصم به إبن عربي وغيره، فهو القائل «لايبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق.

أما سهل بن عبدالله التستري فإن الشيخ الأكبر إذا ذكره يقول عالمنا وإمامنا ويصفه بالحبر عند مناقشته مسألة التفريق بين مقام المعرفة، ومقام العلم الإلهي. والشيخ الأكبر كثير الذكر للشيخ التستري ومدحه والإعتراف بولايته وما وصل اليه من مقام فهو عنده «عليم أواه» و «للسيادة أهل». أما الحلاج فإن إبن عربي لم يمدحه بل قال عنه انه سكران وليس من أهل الإحتجاج[83].

مع أن كثيراً من المتصوفة دافعوا عن الحلاج وأولوا كلامه وشطحاته وقد دافع عنه بعض فقهاء الحنابلة كذلك.

وإبن تيمية حسب محمود غراب لم يقدم أي دليل من كلام الشيخ إبن عربي يمدح فيه الكفار مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، كما لم يستدل على دعواه بانتقاص الشيخ الأنبياء مثل نوح وإبراهيم وموسى، والخلاصة أن كلام الشيخ الحنبلي «دعوى بلا بينة وفتوى بلا برهان»[84].

---

(٨٣) الفتوحات المكية، ج٢ ص٥٤٦، ج٤ ص٣٢٨. أنظر محمود غراب، م س، ص٤٠، اذا كان الشيخ الأكبر قد وصف الحلاج بأنه سكران فإن إبن تيمية سيدعي ان الذي قال «ما في الجبة إلا الله» وهو الحلاج، كان في مقام الفناء الذي يقع فيه السكر المسقط للتمييز. وأعتقد ان الرأيين لا يختلفان بل مقصودهما واحد ولست ادري هل هذا مدح أو ذم في الحلاج ولكن إبن تيمية مع قوله هذا يدعي ان إبن عربي يمدح الحلاج المذموم عند المسلمين وهذا من التناقض الكثير في أقوال شيخ الإسلام.

(٨٤) المرجع السابق، ص٢١.

وتزويراً للحقيقة وإفتراءاً على الشيخ إبن عربي الذي يقول في فتوحاته دفاعاً عن الأنبياء جميعاً وتنزيها لهم مما يصفهم به اليهود من نواقص: «فواجب على المذكر إقامة حرمة الأنبياء عليهم السلام والحياء من الله أن لا يقلد اليهود فيما قالوا في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من المثالب ونقلة المفسرين خذلهم الله»[٨٥].

والحقيقة أنني أقف حائراً في تحقيق كلام رجل يسميه أصحابه «شيخ الإسلام» يفتري على رجل كلامه كله مدح في الأنبياء والدعوة لإتخاذهم اسوة، وتنزيههم عن النواقص. وكتبه تطفح بهذه المعاني السامية في حقهم عليهم السلام. «وإبن تيمية يدعي على الصوفية وإبن عربي خاصة أنهم يفضلون خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء: يقول: ومنهم ـ أي الصوفية ـ من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته، كما زعم ذلك إبن عربي صاحب كتاب (الفتوحات المكية) وكتاب (الفصوص)، فخالف الشرع والعقل مع مخالفته جميع أنبياء الله وأوليائه»[٨٦].

أما إبن عربي فإنه يقول: إن شرط أهل الطريق ـ يعني مشايخ الصوفية ـ في ما يخبرون عنه من المقامات والأحوال أن يكون عن ذوق ولا ذوق لنا ولا لغيرنا ولا لمن ليس بنبي صاحب شريعة في نبوة التشريع ولا في الرسالة، فكيف نتكلم في مقام لم نصل إليه أو على حال لم نذقه لا أنا ولا غيري ممن ليس بنبي ذي شريعة من الله، ولا رسول؟! حرام علينا الكلام فيه.

وقال أيضاً: حضرت في مجلس فيه جماعة من العارفين، فسأل بعضهم بعضاً: من أي مقام سأل موسى الرؤية؟. فقال الآخر: من مقام الشوق.

فقلت له: لا تفعل، أصل الطريق نهايات الأولياء بدايات الأنبياء فلا ذوق

---

(٨٥) المرجع السابق ، ص٢٢ .

(٨٦) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ص٨٠ .

للولي في حال من أحوال أنبياء الشرائع، ومن أصولنا أنا لا نتكلم الا عن ذوق، ونحن لسنا برسل ولا أنبياء شريعة، فبأي شيء نعرف من أي مقام سأل موسى الرؤية[٨٧]؟!.

فهل رأيت الشيخ كما يقول صائب عبدالحميد، أنصف في شيء مما ذكره، أم تراه عمد الى أقوال إبن عربي فقلبها الى العكس ليتخذها ذريعة الى طعنه ورميه بالكفر والضلال[٨٨].

وهكذا هو الحال تقريباً في كل ما حكاه عن إبن عربي فهو لم ينقل عن الشيخ حرفاً واحداً بأمانة حين وجده مطابقاً للعقيدة الحقة. وربما يقال إنه لم يقرأ كتب إبن عربي ولكنه سمع من بعض من يثق به من خصوم إبن عربي، فقال ما قال ولعل هذا أحسن الأعذار[٨٩].

إن إبن عربي لم ينتقص أبداً نبيا من أنبياء الله تعالى، وحاشاه أن يفعل ذلك، ولكنه انتقص بعض الفقهاء وذم طريقة بعض المحدثين والرواة الذين ينقلون عن اليهود الأكاذيب في حق الأنبياء والرسل. كما أن إبن عربي كغيره من المتصوفة خاض بعض الصراع مع الفقهاء الذين رفضوا طريقة المتصوفة الباطنية وحاروا في فهم كلامهم وحل رموزه وإشاراته، فكانوا يتهجمون عليهم وينسبونهم الى الإنحراف والضلال.

لذلك يقول الشيخ الأكبر: وأكثر علماء الرسوم عدموا علم ذلك ذوقاً وشربا فأنكروا مثل هذا من العارفين حسداً من عند أنفسهم.. وأكثر العامة تابعون للفقهاء في هذا الإنكار تقليداً لهم لابل بحمد الله أقل العامة وأما الملوك فالغالب عليهم عدم الوصول الى مشاهدة هذه الحقائق لشغلهم بما دفعوا إليه فساعدوا علماء الرسوم فيما ذهبوا إليه إلا القليل منهم فانهم اتهموا

---

(٨٧) الفتوحات المكية ، ٢ / ٥١ ، أنظر إبن تيمية لصائب عبد الحميد ، ص١٦٠ـ١٦١ـ١٦٢.

(٨٨) إبن تيمية ، م س ، ص ١٦٦ .

(٨٩) المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

علماء الرسوم في ذلك لما رأوه من إنكبابهم على حطام الدنيا وهم في غنى عنه وحب الجاه والرياسة وتمشية أغراض الملوك فيما لا يجوز وبقي العلماء بالله تحت ذل العجز والحصر معهم، كرسول كذبه قومه وما آمن به واحد منهم ولم يزل رسول الله (ص) يُحرس حتى نزل ﴿والله يعصمك من الناس﴾. فانظر ما يقاسيه في نفسه العالم بالله، فسبحان من أعمى بصائرهم حيث أسلموا وسلموا وآمنوا بما به كفروا، فالله يجعلنا ممن عرف الرجال بالحق لا ممن عرف الحق بالرجال[٩٠].

أما قول إبن تيمية «لما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل» فإن كلام الشيخ الأكبر في فتوحاته ينسخه بل يمحوه ويعلو عليه يقول: «الداعي الى الله لايزيد على ما جاء به رسول الله(ص) من الأخبار بالأمور المغيبة إلا أن أطلعه الله على شيء من الغيب مما علمه الله فله أن يدعو به ممالايكون مزيلا لما قرره الشرع بالتواتر عندنا[٩١].

وبذلك يثبت الشيخ الأكبر تهافت آراء إبن تيمية وسطحيتها بل مخالفتها ومناقضتها لواقع النصوص كما هي موجودة في كتب أصحابها. والغريب في الأمر أن أتباع إبن تيمية اليوم «سلفية الوهابية» ينهجون نهج إمامهم في تزوير الحقائق وتحريف النصوص، مثال ذلك ما كتبه محمد حامد الفقي على هامش تحقيقه لكتاب مدارج السالكين لإبن قيم الجوزية في النسخة المطبوعة في دار الكتاب العربي بيروت عام ١٩٧٢، يقول في هامش الصفحة رقم (٦٠) من الجزء الأول ما يلي: قال إبن عربي شيخ الصوفية الناطق بلسانهم:

العبد رب والرب عبد ... ياليت شعري من المكلف
ان قلت عبد فذاك رب ... أو قلت رب أنى يكلف

وهذان البيتان موجودان في أربعة كتب من كتب الشيخ الأكبر إبن العربي

(٩٠) محمود غراب، م س، ص٣٧، نقلاً عن الفتوحات المكية.
(٩١) المرجع السابق، ص٢٧، نقلاً عن الفتوحات.

وهي: مواقع النجوم، والتنزلات الموصلية، وكتاب المسائل. وفي الصفحة الأولى من كتاب الفتوحات المكية ولكن بالنص التالي:

الرب حق والعبد حق ... ياليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك ميت ... أوقلت رب أنى يكلف[92]

وآخر يؤلف كتاباً تحت إسم «التصوف بين الحق والخلق» ويقدم نفسه بألقاب الباحث الحر والناقد المجرد، ويبني تحقيقه على عبارتين زورهما على الشيخ الأكبر، فيقول في الصفحة رقم (٨٧) من كتابه المذكور، يقول إبن عربي: «بدء الخلق الهباء وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الموصوفة بالإستواء على العرش الرحماني الإلهي ولا أين يحصرها..الخ»، ونجد هذه العبارة في الجزء الأول من الفتوحات المكية طبعة الميمنية، في الصفحة رقم (١١٨): «بدء الخلق الهباء وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية ولا أين يحصرها لعدم التحيز.. الخ».

وأما العبارة الثانية فيقول عنها في الصفحة نفسها من كتابه أن الشيخ الأكبر يقول: «وأقرب الناس إليه ـ يعني الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه إمام العالم وسر الأنبياء أجمعين»، ولكنا نجد النص في الصفحة (١١٩) من الجزء الأول من الفتوحات «وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء أجمعين».

ورغم أني ـ يقول محمد غراب ـ اطلعت المؤلف شخصياً على التحريف

---

(٩٢) يتداول الصوفية صيغ أخرى لهذين البيتين منها:

الرب رب والعبد عبد ... ياليت شعري من المكلف
ان قلت عبد فالعبد ميت ... أو قلت رب أنى يكلف

يقول الشيخ أحمد التيجاني: معناه ان الحق سبحانه وتعالى خلق العبد وأفاض عليه، فيض الوجود وأمده بأسرار صفاته السبع النفسية» أنظر إفادة التيجاني لمصطفى بن محمد بن علوي، ص٢٣ . وهذا يدعم كلام محمود غراب فليس هناك من الصوفية من يقول بأن العبد رب والرب عبد . بل إن إبن عربي يقول :« يستحيل تبدل الحقائق، فالعبد عبد والرب رب، والحق حق، والخلق خلق ». أنظر الفتوحات ج٣ ص٣٧١.

والتزوير في النص الذي بنى عليه كتابه معتمداً على نسختين مختلفتين مطبوعتين فكان رده وهو المحقق والباحث الحر في زعمه أنه وجد هاتين العبارتين في نسخة مخطوطة في حماة، وأعاد طبع الكتاب للمرة الثانية بما فيه من المثالب والإفتراءات التي أوقفته عليها..

أمثال هذين كثير، يتبعهم كل مغرور وناعق(٩٣).

نقول هنيئاً إذن لشيخ الإسلام ولأتباعه من السلفية الوهابية اليوم بما توصلوا إليه من حقائق وعقائد وآراء مبنية على فهم سطحي لنصوص القرآن والسنة وأقوال العلماء والأئمة وأرباب المدارس والفرق الكلامية والفقهية. ولم يكفهم ذلك بل راموا تحريف وتوزير أقوال القوم ـ خصومهم ـ وبهتهم بغيرما يدعون إليه.

لقد إتهم علماء أهل السنة والجماعة إبن تيمية من قبل بالكذب، وها هي شهادة محققي الصوفية بالكذب عليهم تضاف هي الأخرى في سجل الرجل، ووساماً على صدره وعلامة مميزة في منهج أتباعه عندما يتناولون الخصم بالدراسة والبحث. ولا إخالهم إلا أنهم يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة. فما دام الحق بين أيديهم وعنه يصدرون، إذن لا مانع من الإستنجاد بالكذب والتزوير لنصرته والدفاع عنه، والويل للحقيقة من هؤلاء، وياحسرة على تشرذم وضياع أبناء الصحوة الإسلامية اليوم، الذين لا يجدون إلا كتب القوم يغرفون منها ويشبعون البطون، وقد غزت الأسواق والمكتبات بفضل أموال الذهب الأسود. مع تراجع مذهل لكتابات أهل السنة والجماعة ليس فقط في العقائد ولكن في شتى المواضيع المعرفية المتعلقة بالإسلام.

نرجع لنقول إن موضوع التصوف والمتصوفة قد أثار جدالات كثيرة وعميقة تابعت تاريخه منطلقاً وتطوراً، الى أن وصل الى ما وصل إليه اليوم من

---

(٩٣) محمود غراب ، م س ، ص ٩ ــ ١٠ .

انحسار في حلقات ذكر تقوم بها طائفة من الناس في إحدى الزوايا أو التكايا، كنوع من الإجتهاد في العبادة وسلوك الطريق الى الله، وما واكب ذلك من سلوكيات وأفعال وتصرفات قد أثارت بدورها موجات متتالية من الردود المختلفة والمتباينة من القبول المطلق الى الرفض المطلق. والحق فيما نعتقد قد نطق به إبن تيمية عندما قال: «والصواب انما هو إقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة[٩٤].

شرط ألا تكون هذه الموافقة للكتاب والسنة هو ما فهمه إبن تيمية وأتباعه وحدهم من الكتاب والسنة، وإنما يتم الإحتكام الى الحق من خلال القرآن والسنة بشكل عام بعيداً عن الخلفيات المذهبية والفرق ومذاهب الرجال التي أنشأها السلطان الجائر وغذتها الأموال المغصوبة والدسائس والمكر الذي تنهد منه الجبال.

* * *

(٩٤) موقف أئمة الحركة السلفية، م س، ص٢٢٩.

إبن تيمية ليس سلفياً

كنا قد إنتهينا في الباب الأول عند تعريف «السلفية» الى أنهم ليسوا سوى حشوية الحنابلة التابعين لما استجد مع إبن تيمية من آراء وأفكار في العقائد بالخصوص، وقلنا إن ذلك المفهوم يضيق لينحصر في أتباع الشيخ بالذات وهم «السلفية الوهابية»، وخلاصة رأيهم في أنفسهم أنهم أتباع السلف الصالح من هذه الأمة، أي من عاش في القرون الثلاثة الأولى من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الفقهية ورجال الحديث، الذين شهد لهم الحديث النبوي بالخيرية.

ونحن عندما وضعنا إبن تيمية في نفس الميزان الذي كان يضع فيه خصومه وينتهي الى أنهم مبتدعة ضالون منحرفون عن السلف عقيدة وسلوكاً، لم نجد له مكان بين هؤلاء السلف الذين ما فتيء يذكرهم ويدعي انتسابه إليهم. فهو وانطلاقاً من مفهومه حول السلف ومذهبهم، ليس سلفياً بالمرة، وقد انتبه الى ذلك مجموعة من الباحثين والكتاب الذين تناولوا حياته بالدراسة والتأليف وعلى رأسهم معاصريه الذين ردوا عليه.

□ إثارة الشبهات في أذهان العامة :

فإبن جهبل الفقيه الشافعي الذي ألف رسالة في الرد على الفتوى الحموية يقول: لم ينقل عن سيد البشر(ص) ولا عن أحد الصحابة رضي الله عنهم انه جمع الناس في مجمع عام (كما فعل إبن تيمية) ثم أمرهم أن يعتقدوا في الله كذا وكذا.. إن سيد الرسل لم يقل أيها الناس، اعتقدوا ان الله تعالى في جهة

العلو، ولا قال ذلك الخلفاء الراشدون، ولا أحد من الصحابة[٩٥].

ومن فحص وفتش وبحث وجد أن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين والصدر الأول لم يكن دأبهم غير الإمساك عن الخوض في هذه الأمور وترك ذكرها في المشاهد، ولم يكونوا يدسونها الى العوام، ولا يتكلمون بها على المنابر، ولايوقعون في قلوب الناس منها هواجس كالحريق المشتعل، وهذا معلوم بالضرورة من سيرهم، وعلى ذلك بنينا عقيدتنا وأسسنا نحلتنا، وسيظهر لك ان شاء الله تعالى موافقتنا للسلف ومخالفة المخالف (أي إبن تيمية) طريقتهم وان إدعى الإتباع، فما سلك غير الإبتداع[٩٦].

ويستطرد إبن جهبل مورداً أقوال الصحابة وعلماء التابعين وسيرتهم في معالجة قضايا التوحيد الدقيقة، وأنهم كانوا يضنون بها على العوام وعلى غير أهلها، ولا يخوضون في تفاصيل ذلك إلا اضطراراً، قمعاً للبدع كما وقع للأئمة كمالك والشافعي وإبن حنبل وغيرهم.

واذن فإبن تيمية عندما أشرك العوام في معالجة دقائق التوحيد وجزئياته لم يكن سلفياً، وإنما كان مبتدعاً منحرفاً عن طريق من يعتبرهم هو نفسه رجالات السلف، مع ان الذين خاضوا في قضايا التوحيد والعدل ونشروا جزئياتها بين الناس وأثاروا الشبهات والإختلافات العقائدية لم يكونوا ـ وحسب إبن تيمية كذلك ـ من السلف الواجبي الإتباع بل من مبتدعة الأمم وبالخصوص متأسلمة اليهود والنصارى وبعض رجالات الملل والنحل المخالفة

(٩٥) الحقائق الجلية ، م س ، ص٣٤ .

(٩٦) المرجع السابق ، ص ٤١ ، وقد أشار الى ذلك إبن حجر الهيثمي صاحب الصواعق في كتابه الجوهر المنتظم حيث قال: «.. ان إبن تيمية تجاوز الجناب الاقدس وفرق سياج عظمته بما أظهره للعامة على المنابر من دعوى الجهة والتجسيم».
ويقول الشيخ محمد البرلسي في «إتحاف أهل العرفان برؤية الأنبياء والملائكة والجان. عن إبن تيمية» : وأظهر هذا الأمر على المنابر وشاع وذاع ذكره بين الأكابر والأصاغر». أنظر كشف الإرتياب، م س، ص١٣٠ ــ ١٣١ .

للإسلام، ومن تبعهم من المسلمين الذين روجوا شبهاتهم، كجهم بن صفوان ومعبد الجهني وغيرهم، الذين قام علماء السلف بالرد عليهم.

□ ابن تيمية يشتغل بالفلسفة وعلم الكلام :

لقد هاجم إبن تيمية علماء الكلام والمشتغلين به، وكذا الفلاسفة ووصف نهجهم بأنه خلاف طريقة السلف وأن القرآن قد جاء بأفضل الطرائق لتوضيح عقائد التوحيد والدفاع عنها، فلسنا في حاجة الى هذا العلم ولا إلى مصطلحاته، لذلك حمل على أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية لانشغالهم بهذا العلم ونسبهم الى الإنحراف.

وهذا الموقف في اعتداله، وكذا الدعوة الى عدم إعتماد أو مزج المنطق والفلسفة اليونانية بالفكر الإسلامي العقائدي، فيه الكثير من الحقيقة والصواب، وتدعمه النتائج التي توصل إليها من قاموا بهذه العملية الخطيرة، والتي أسفرت عن تلفيق وتشويش لعقائد الإسلام البسيطة والواضحة.

وقد دعا بعض علماء أهل السنة وغيرهم الى إبعاد الفكر اليوناني ذو الجذور الوثنية عن عقائد الإسلام بشكل عام، كما اتفقوا على إلجام العوام عن علم الكلام، أي إبعادهم عن الخوض في مسائل التوحيد إحترازاً عليهم من الإنحراف. ولكن الخلاف بين إبن تيمية وعلماء أهل السنة سينحصر في الإشتغال بعلم الكلام ذاته، ومشروعيته وجدواه. فإبن تيمية ومعه الحنابلة جملة يذمون تعلم هذا العلم والإشتغال به، أما أهل السنة فإنهم يدافعون عن هذا الإشتغال. وقد ألف شيخهم الأشعري من قبل رسالة في مشروعية تعلم هذا العلم والاشغال به، ويبررون عملهم هذا انطلاقاً من تعريفهم لهذا العلم الذي «يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الإعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة»[٩٧].

---

(٩٧) مقدمة إبن خلدون ، ص٢٢٥ ، عن السلفية ، ص١٥٣ .

فعلم الكلام في نظرهم بطرقه الإحتجاجية ومنهجه المنطقي أفضل وسيلة للدفاع عن عقائد السلف وأهل السنة أمام شبهات الخصوم من اليهود والنصارى وأصحاب الملل والنحل التي أصبح أهلها مواطنين في دولة الإسلام.

وان كان الصحابة والتابعون وأئمة المذاهب الفقهية لم يُعرف عنهم الإشتغال بهذا العلم فإنما ذلك راجع للحاجة والضرورة. فالسلف لم يكونوا في حاجة الى تعلم هذا العلم، أما الخلف فهم مضطرون لأن لا سبيل للدفاع عن عقائد الإسلام أمام شبهات الخصوم إلا به. فالخصم يعتمد الأساليب المنطقية ويستخدم إصطلاحات مستحدثة وبذلك يكثر التشويش ويتعرض عامة المسلمين وخاصتهم للإضطراب.

وإبن تيمية لما أنحى باللائمة على الغزالي بسبب خوضه في تلك المصطلحات والمقاييس(٩٨)، أو بسبب اعتماده المنطق وجعله باب العلوم ومقدمتها، كان متناقضاً في رأيه وسلوكه، فهو في فتاويه يصرح بأن «مخاطبة أهل الإصطلاح بإصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا إحتيج الى ذلك وكانت المعاني صحيحة.. فإذا عرفت المعاني التي يقصدونها بأمثال هذه العبارات، ووزنت بالكتاب والسنة بحيث يثبت الحق الذي اثبته الكتاب والسنة، وينفي الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة. كان ذلك هو الحق»(٩٩).

وهذا كما يقول الدكتور البوطي هو ما إتفق عليه سائر المشتغلين بعلم الكلام قديما وحديثاً من أهل السنة والجماعة. فإن أحدهم لم يتبن المضامين الباطلة للفلاسفة والمناطقة اليونانين، ولكنهم لم يجدوا مناصاً من إستعمال إصطلاحاتهم ومقاييسهم اللفظية في عصر انتشرت فيه هذه الإصطلاحات والمقايس(١٠٠).

---

(٩٨) السلفية ، ص١٦٠ .

(٩٩) مجموع الفتاوى ، ج٣ ص٣٠٧ ، عن السلفية ، م س .

(١٠٠) السلفية ، ص١٥٩ .

أما من حيث السلوك فلا يشك أحد في ان إبن تيمية قد اشتغل بعلم الكلام والفلسفة، وقد اعتكف على قراءة كتب الفلاسفة وعلماء الكلام. وإلا كيف تسنى له معرفة آرائهم ومن ثم رد عليها، ويظهر من مجموع كتبه تبحره في هذا الميدان ومعرفته باصطلاحات القوم وهو قد استخدمها غير ما مرة، لقد تربع على موائد الفلاسفة وعلماء الكلام فشرب منها حد الإرتواء، وملأ بطنه من أصناف مأكولاتها حتى التخمة، وقد ظهر ذلك جليا في إنتاجه وكتاباته.

ولعمري إن أحداً ممن يعتبرهم الشيخ سلفاً لم يفعل ذلك ولا عُرف عنه حتى معرفته بعناوين كتب القوم، وليس الدراسة والهضم ومن ثم الرد والمناقشة، والخوض في دقائق عبارات اليونسية والفلاسفة كما يقوله عنه الحافظ الذهبي معاصره مخاطباً: «يارجل قد بلعت سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم مرات، وكثرة إستعمال السموم يُدمن عليه الجسم، وتكمن والله في الجسد»[١٠١]. وفعلاً فقد كمن بعضها في جسد الشيخ، فتجرد للدفاع عنه ونشره ليس باعتباره من عقائد الفلاسفة وإنما من عقائد السلف من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الفقهية. الذين يتبرأون مما نسب إليهم إدعاءً وزوراً.

لقد عاب إبن تيمية على أهل السنة! اشتغالهم بعلم الكلام ونسبهم الى مخالفة السلف في ذلك لكنه تزود منه بما يكفيه وزيادة، فكان يحرم على غيره ماأباح لنفسه، وبعض السذّج ممن يطلقون على أنفسهم «سلفية»، قد يرد على ذلك بأن شيخ الإسلام اطلع على ذلك ليعرف الصواب من الخطأ ولما حصل له العلم بذلك أفتى بما وصل إليه من الحقيقة فيجب اذا اتباعه في ذلك لأنه هو الحق.

ونرد على هذا الحشو الفكري بأن إبن تيمية كان مبتدعا في دراسته

(١٠١) بحوث في الملل والنحل، ج٤، ص٣٩.

واشتغاله بعلم الكلام والفلسفة ولم يكن سلفياً، ولكنه لما وصل الى ما وصل إليه من نتائج انقلب على ابتداعه وإدعى اتباعه للسلف وحمل على باقي المشتغلين بهذه العلوم فبدعهم وضللهم. لكن أحداً لا يقول بأن شيخ الإسلام كان ضالاً مبتدعاً سنوات إشتغاله بعلم الكلام والفلسفة، فكيف ذلك؟!

يقول الدكتور البوطي: لقد انعكس هذا الإضطراب في كلام إبن تيمية، على أذهان كثير ممن يقرأون له، بسطحية ودون صبر أو استيعاب. فقد أخذوا يروون عنه مستدلين ومحتجين أنه أنكر الإشتغال بعلم الكلام وحذر منه، وسفه المشتغلين به والمؤلفين فيه، مع أنه قرر نقيض ذلك تماماً، بل أنه خاض في المباحث الكلامية، طبقاً للمقاييس الفلسفية في الجزء الثالث من مجموع فتاواه، خوضاً سبق به أساطين علم الكلام الذين ينهال عليهم (السلفيون) كل يوم بالهجوم المقذع والنسبة الى الإبتداع. فقد تحدث عن العلاقة بين الوجود والموجود، وعن القدرة الصلوحية والتنجيزية في العبد، وهل توجد القدرة عند مباشرة الفعل أم قبلها، وعن الجبر والإختيار، وعن القدم بالنوع والحدوث في الجزئيات.. وأوغل في ذلك أيما إيغال. وهو مما ينأى عنه ـ بدون ريب ـ منهج القرآن وطريقته في بيان عقائد الإسلام، على حد ما يقوله إبن تيمية، ويقرره في اكثر من مناسبة[١٠٢].

وعليه فإبن تيمية لم يكن سلفياً عندما إشتغل بعلم الكلام والفلسفة. وعندما أفتى بضلال من يشتغل بهما فإنما كان ذلك منه غرور علمي ليس إلا، وممارسة الأستاذية على الناس وطلبة العلم. وهذه الأستاذية التي إن قبل بها أتباعه من حشوية العوام، فإن باقي علماء الفرق والمذاهب رفضوها ولم يعتبروها إلا إدعاءاً جديداً يضاف الى إدعاءاته الكثيرة، وقد أوردنا سابقاً بعضاً من آراء علماء أهل السنة فيه وفي علمه واجتهاده.

(١٠٢) المذاهب الإسلامية، م س، ص٢٢٢ ــ ٢٢٣.

لقد إطلع الشيخ الحنبلي على مجمل آراء الفلاسفة وعلماء الكلام واتخذ لنفسه رأيا ومذهباً فيما اطلع عليه ودرسه. فمن يمنع باقي الناس ممن له القدرة على ذلك مثل الشيخ أو أكثر ليسلك مسلكه ويكون لنفسه رأيا ومعرفة شخصية بتلك المواضع. هذا مع حسن الظن بما وصل إليه «شيخ الإسلام» من حقائق وأحكام بخصوص عقائد الرجال والفرق، وإن كان هناك شبه إجماع على ان الشيخ الحنبلي لم يكن أميناً في نقله كلام خصومه وعقائدهم كما هي عليه حقيقة. كما أوضحنا قبل ذلك مع أهل السنة والصوفية.

وإذن هل يُطمأن الى آرائه واستنتاجاته. بل إن الأمر يزداد تعقيداً وصعوبة عندما نتفحص كتابات الشيخ فنجد له في القضية الواحدة رأيين متناقضين تماماً، أو مجموعة آراء مختلفة وغامضة. فأيهم نتبع حتى نكون بذلك سلفيين غير مبتدعين ولا ضالين؟!.

□ ابن تيمية يقول بقدم النوع الأساسي :

لقد كان بعض الحنابلة يشكوا من أن أصحابه قد انقطعو الى الرد على الملحدين انقطاعاً أداهم الى الإلحاد[١٠٣]، وقد وقع إبن تيمية بدوره في شراك الفلاسفة ومتاهاتهم وظهرت أعراض الإدمان على أفكارهم كما ذكر الحافظ الذهبي، في بعض المعتقدات الشاذة للشيخ الحنبلي. ذكر البوطي منها مسألتين: الأولى عندما كتب تعليقه على كتاب (مراتب الإجماع) فقد ذكر إبن حزم أنهم اتفقوا أن الله عزوجل وحده لا شريك له، خالق كل شيء غيره. وأنه تعالى لم يزل وحده ولاشيء غيره معه. ثم خلق الأشياء كلها كما شاء. علق إبن تيمية(رحمه الله) على كلام إبن حزم بقوله: «قلت: أما إتفاق السلف وأهل السنة والجماعة على ان الله وحده خالق كل شيء فهذا حق.

---

(١٠٣) أنظر رسالة الذهبي لإبن تيمية ، وقوله ان إبتلاع سموم الفلسفة يدمن عليه الجسد، وأنظر رد البوطي على إبن تيمية بخصوص تسلسل الحوادث وقدم النوع الأساسي.

ولكنهم لن يتفقوا على كفر من خالف ذلك. فإن القدرية الذين يقولون إن أفعال الحيوان لم يخلقها الله، أكثر من ان يمكن ذكرهم من حين ظهرت القدرية في أواخر عصر الصحابة الى هذا التاريخ، ثم قال: «وأعجب من ذلك حكاية الإجماع على كفر من نازع أنه سبحانه لم يزل وحده ولا شيء غيره معه، ثم خلق الأشياء كما شاء»(١٠٤)

لقد أنكر إبن تيمية الإجماع الذي ذكره إبن حزم والقاضي بتكفير من نازع أنه سبحانه لم يزل وحده ولا شيء غيره معه، ثم خلق الأشياء كما شاء. وبعدما أورد كلام علماء الكلام والفلاسفة في هذه المسألة. انتهى الى ما قرره الفلاسفة من أن الأشياء حادثة بالعين والجزئيات ولكنها قديمة بالنوع وسلسلة التوالدات، وأكد ذلك بقوله: «ولكن فرق بين حدوث الشيء المعين، وحدوث الحوادث شيئاً بعد شيء» أي فالأول هو الحادث بعد ان لم يكن، أما سلسلة الحوادث المتوالدة شيئاً بعد شيء ـ على حد تعبيره ـ فهي قديمة مستمرة(١٠٥).

فإبن تيمية الذي يكفر خصومه لأدنى المواقف الإجتهادية التي قد يخالفهم فيها، يرى أنه لا يوجد إجماع من السلف وأهل السنة والجماعة على كفر من زعم ان الله وحده ليس خالق كل شيء. ودليله على عدم وجود هذا الإجماع أن القدرية يعتقدون ـ على حد قول إبن تيمية ـ أن أفعال الحيوان لم يخلقها الله...

فلئن كان القدرية أو أي فئة أخرى غيرهم. يعتقدون أن ثمة خالقاً سوى الله تعالى أوجد شيئاً ما من العدم بقدرة مستقلة غير مستمدة من الله عزوجل، فهو كافر بدون أي خلاف ولا ريب. غير أني – يقول البوطي – ما سمعت وما رأيت الى هذا اليوم ان القدرية يعتقدون أن أفعال الحيوان لم

(١٠٤) السلفية ، ص١٦٤ .

(١٠٥) السلفية ، ص١٦٦ .

يخلقها الله! وها هي كتب الفرق والملل والنحل أمامنا، ولم أجد في شيء منها مثل هذا النقل عنهم[١٠٦].

وينتهي الدكتور البوطي في نقاشه لإبن تيمية الى أن الشيخ الحنبلي قد دافع عن إحدى أهم أفكار الفلاسفة، وهي القول بقدم النوع الأساسي وحدوث الأعيان الجزئية، فلنا ان نقرر مع إبن تيمية بأن المادة الأولى للمكونات كانت قديمة ولم تستحدث وانها تشترك مع الله إشتراكاً ذاتياً في صفة القدم[١٠٧].

وهذه إحدى العقائد الثلاثة التي كفر الغزالي بها الفلاسفة. وهناك نقطة جديرة بالإهتمام وهي تعليق الدكتور على الأدلة التي ساقها الشيخ الحراني من السنة لإثبات ما يذهب إليه. لأنه بذل جهداً شاقاً متكلفاً لينتقي من الروايات الثلاث الصحيحة التي وردت عن النبي في هذا الموضوع ما هو أقرب الى التناسب مع رأيه هذا، فيرجحها على الروايتين الآخرتين ويشطب عليهما بالوهم والبطلان[١٠٨]، ودون أي مسوغ لهذا الترجيح. فقد ورد في

(١٠٦) السلفية، ص١٦٧.

(١٠٧) السلفية، ص١٦٨.

(١٠٨) الحقيقة أن هذه العملية هي أصل الإختلاف بين إبن تيمية وباقي خصومه، خصوصاً من أهل السنة والصوفية. فهو كان ينتصر لجميع آرائه التي اختلف فيها معهم بترجيحه أو فهمه الخاص لحديث ومن ثم يروم تضعيف الأحاديث التي يستند إليها مخالفوه ويعتمدونها فالحديث الصحيح الذي يمكن أن يتخذه القوم عمدتهم في الأستدلال لايجد الشيخ الحراني حرجاً في الطعن فيه سنداً أو متناً. بينما يعتمد هو على أحاديث قد لا يعتد بها الجمع الكبير من العلماء ورجال الحديث فهو القائل: «كم من حديث صحيح، ومعناه فيه نزاع كثير» ولكنه كان يفصل في هذا النزاع ويدلي برأيه فيه والويل لمن خالف ما يجيء به الشيخ فإنه لا محالة ضال مبتدع أو كافر منحرف عن ملة الإسلام والسلف الصالح.

لذلك كان الحافظ الذهبي يشكو منه ذلك «الى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح والله بها أحاديث الصحيحين؟ ياليت أحاديث الصحيحين تسلم منك. بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار، أو بالتأويل والإنكار، أما آن لك أن ترعوي؟» أنظر تكملة السيف الصقيل للكوثري المعاصر، ص١٩٠ ــ ١٩٢.

البخاري في كتاب (بدء الخلق) بلفظ «كان الله تبارك وتعالى ولم يكن شيء غيره»، وورد في رواية أبي معاوية في الكتاب ذاته «كان الله تبارك وتعالى قبل كل شيء». وورد في كتاب التوحيد بلفظ «كان الله ولم يكن شيء قبله». ولما كانت الروايتان الأوليتان أصرح في الرد على الفلاسفة الذين أثبتوا حوادث لا أول لها، أي اثبتوا ما يسمونه القدم بالنوع، فقد إختار إبن تيمية ان يشطب عليهما ويرجح عليهما رواية «... ولم يكن قبله شيء»[١٠٩].

وقد أشار الى ذلك إبن حجر في فتح الباري وعلق عليه بان لامسوغ للترجيح مادام «الجمع يقدم على الترجيح»[١١٠].

والنتيجة أن «شيخ الإسلام» تطوح في هذه المسألة وتخبط وتقاذفته أمواج الفلسفة فرمت به بعيداً عن السلف إعتقاداً وسلوكا. وان كان الدكتور البوطي لم يجنح الى تكفيره صراحة كما صرح الغزالي بكفر الفلاسفة الذين يعتقدون بقدم العالم، فإن شيخ الإسلام قد كفاه تعمد ذلك عندما قال في إحدى رسائله حول معنى الإستواء وبعض آيات الصفات: «ثم يقال لهؤلاء: إن كنتم تقولون بقدم السماوات والأرض ودوامها، فهذا كفر، وهو قول بقدم العالم[١١١].

ونرجع مرة أخرى الى التناقض في كلام الشيخ وكتاباته ليتبين لنا أن الحقيقة السلفية أومذهب السلف عند الشيخ، كائن برأسين كل منهما ينطق بخلاف الآخر. ونرجو من أتباعه اليوم أن يحيلونا على الصواب في هذا الإختلاف والتباين علنا نستحق أو نظفر بالإنتساب الى مذهب السلف، هذا المذهب الذي لايحيد عنه إلا زائغ مبتدع ضال.

---

(١٠٩) السلفية ، ص١٧٠ .

(١١٠) فتح الباري ، ج١٣ ص ٣١٨ - ٣١٩ ، أنظر ، م س.

(١١١) السلفية ، ص١٧٢ .

□ الاعتقاد بالعلة الأرسطية خلافاً لأهل السنة :

أما المسألة الخلافية الثانية التي ذكرها البوطي، فهي إعتقاده . خلافا لأهل السنة من الأشاعرة بالتحديد[١١٢]، بالعلة الأرسطو طاليسية، فهو يحمل على الأشعري ومن تبعه من المالكية والشوافع والحنابلة وغيرهم الذين أنكروا الأسباب وقالوا بأن الله يفعل عند الشيء لا به. فالماء ليس سبباً في إنبات الزرع، وإنما هو فعل الله عندما يلتقي الماء بالزرع. وهذه من المسائل التي إختلف فيها علماء الإسلام ومفكروه. وإبن تيمية يقف هنا في صف فلاسفة الإسلام مثل الفارابي وإبن رشد القائلين بوجود أسباب كامنة في الأشياء كقوى أودعها الله فيها. فهي بمثابة الأسباب والعلل لمسبباتها[١١٣].

واذا كان إبن تيمية قد آمن بالأسباب والعلل وذلك انطلاقاً من عداوته لأهل السنة والجماعة كما يدعي الدكتور سامي النشار، فإن الشيخ الحنبلي سيتعبر إنكار هذه الأسباب مخالفة صريحة لما جاء به القرآن «والسنة وأجماع

---

(١١٢) للمعتزلة والشيعة الإمامية رأي آخر في هذه المسألة ، وهو الذي يرجحه إبن تيمية وينتصر له . يقول الإمامية في هذا الباب: «مما يجب الإعتقاد به هو توحيد الله في أفعاله ومعنى التوحيد الأفعالي ان جميع الأفعال صادرة منه تعالى ولا مؤثر في الوجود غيره، بل التأثير بالإستقلال له لا لغيره. إلا أن جعل التأثير لله ليس معناه سلب التأثير عن العلل الأخرى التي جعل الله لها التأثير. أن تأثير العلل الأخرى ليس بالإستقلال بل يستند الى الله تعالى، وبعبارة علمية أن تأثيرها ليس في عرض تأثير الله بل في طوله. بمعنى ان الله أجرى النظام على هذه الكيفية، وكما ورد في الحديث عنهم عليهم السلام «أي أئمة أهل البيت»: «أبى الله أن تجري الأمور إلا بأسبابها» . ولكن هذه الأسباب تستمد سببيتها منه تعالى ولذا ورد: «اللهم ياسبب من لا سبب له ياسبب كل ذي سبب ياسبب الأسباب من غير سبب». فالأسباب والعلل لها تأثير لا كما يزعم الأشاعرة أنه لا تأثير لها، لأن ذلك خلاف ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تنص على أن لهذه العلل تأثير في معلولاتها، إلا أن تأثيرها ليس من لدن نفسها بل مستمدة من الله». أنظر توحيد الصدوق وصفات الله عند المسلمين ، للشيخ حسين العايش ، ص٧٧ .

(١١٣) السلفية ، ص١٧٣ .

السلف»[114]. هذه المخالفة التي سيرفضها أهل السنة والجماعة، الذين يعتبرون أن الباء في بعض الآيات القرآنية مثل «فأنزلنا به الماء» و «فأخرجنا به من كل الثمرات» لاتفيد السببية الحقيقية، وإن إعتقاد ذلك «كفر وشرك بالله عزوجل باتفاق الملة وبدلالة النصوص القرآنية القاطعة[115].

طبعاً نحن هنا لا ننتصر لرأي الدكتور البوطي على إطلاقه وإنما أوردنا هذه المسألة الشائكة، والتي أدلى الشيخ الحراني بدلوه فيها، فقط لتأكيد ما ذهبنا إليه من أن الشيخ قد خاض غمار الفلسفة وعلم الكلام وأنه أبحر بعيداً جداً عن شاطىء السلف. على الأقل كما يفهم هو من مصطلح السلف. واصحابه اليوم عاجزون تماماً عن إيجاد مستند تاريخي يثبت أن الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الفقهية، قد اشتغلوا بهذه المواضيع الفلسفية والكلامية الدقيقة، فضلاً عن الدراسة والتحليل وترجيح الآراء والإنتصار لبعضها دون الآخر، كما فعله الشيخ الحنبلي! والحقيقة أننا لا نعيب عليه ذلك فطلب العلم ونشدان الحقيقة فرض عقلي وشرعي.

وإنما المذموم هو أن نحرم على الناس ما أبحناه لأنفسنا. وأن نمنعهم من تذوق لذة المعرفة والبحث، كما أن إحتكار الحقيقة فيه من الغرور والتطاول على الحقيقة ما فيه. ولا شك أن التعدد في الآراء والإستنتاجات يغذي ميدان المعرفة وينعشه، وإنما الحكمة ضالة المؤمن. ولا يمكن لأحد أن يصد باب المعرفة والبحث بحجة ان بعضاً من الصحابة لم يفعلو ذلك أو أن النتائج التي نتوصل إليها لم يعرفها هؤلاء أو غيرهم من السلف.

لقد أجمع الباحثون على أن «شيخ الإسلام» قد توصل في معالجته لكثير من قضايا العقائد الى ما لم يرد عن السلف. أو عرف عنهم، وكتب التاريخ

---

(١١٤) الرد على المناطقة ، لإبن تيمية ، مجموع الفتاوى ، ج٩ ص٢٨٧ ، انظر ، المرجع السابق ص١٧٤ .

(١١٥) السلفية ، ص١٧٥ .

ونصوصه شاهدة على ذلك. وهذا الكلام قد إنتبه إليه أصدقاء الشيخ قبل خصومه. أنظر الى قول الحافظ القسطلاني وهو يعالج مسألة خلق القرآن: «العجب ممن ينتمي الى أهل السنة ويتعرض للإقتداء بالسلف الصالح منهم ويعتمد على ما ورد في الكتاب والسنة كيف يخالف قوله قولهم وينتهي الى مالم يرد عن السادة المقتدى بهم، من الخوض في كيفية الكلام فيزيد فيه ـ بحرف وصوت ـ ولم يرد ذلك في كتاب ولا سنة، ويستدل على إثبات المقطوع به بالمظنون من الأحاديث المتضادة المتون»(١١٦).

أما اذا رجعنا الى القضايا الأخرى التي اختلف حولها الشيخ الحراني مع خصومه من أهل السنة والصوفية، مثل تحريمه شد الرحال لزيارة قبر الرسول أو التوسل بذاته(ص)، أو مفهومه الخاص بالشرك والتوحيد، ودعاء الأنبياء والصالحين وزيارة قبورهم والإعتكاف عندها للعبادة وغير ذلك من القضايا. فإن الباحثين يقولون بأن أحداً قبل الشيخ لم يوليها الإهتمام الذي أولاه لها الشيخ، وقد درج السلف والخلف قبل إبن تيمية على شد الرحال لزيارة قبر الرسول وقبور الأولياء والصالحين، والتوسل بذاته(ص) وبناء الأضرحة على قبور الصالحين والعبادة عندها، كما أنهم فهموا قضايا التوحيد والشرك بخلاف ماذهب إليه الشيخ. وتراث الصحابة والتابعين والأئمة كان وما زال معتمد الجمهور فيما يعتقدونه ويسلكونه، طيلة سبعة قرون خلت. الى أن بزغ نجم الشيخ الحنبلي فخالفهم وأنكر سلفيتهم.

وإنما مبلغ علم الشيخ أنه انتقى لنفسه أحاديث وروايات، ورجحها على كثير غيرها، وأضاف إليها فهمه الخاص، معضداً بأقوال منقولة عن بعض الأئمة والفقهاء، حيث شكى الكثير من الباحثين قديماً وحديثاً عدم أمانة الشيخ في نقله كلامهم. بل صرح بعضهم بكذب الشيخ وافترائه، مثل الشيخ

---

(١١٦) الأسماء والصفات للبيهقي ، تعليق الشيخ محمد زاهد الكوثري ، ص٢٠٢ .

شهاب الخفاجي والقسطلاني.

فقد إدعى إبن تيمية مثلا بأن الحكاية التي رواها أبو حسن علي بن فهر في كتابه فضائل مالك وأوردها أيضاً القاضي عياض في «الشفا» وهي: «أن مالك أمر أبو جعفر المنصور باستقبال قبر النبي(ص) والدعاء عنده»، لا تصح عن مالك وإنما هي مفتراة عليه. والذي دعى الشيخ الحنبلي لقول ذلك ليس التحقيق العلمي. لأن أصحاب مالك يقولون بأن إسناد الرواية صحيح. وليس فيه كذاب أو وضاع. ولكن الشيخ لما ابتدع له مذهباً بعدم تعظيم القبور كان يدفع كل ما يرد عن السلف من أقوال أو أفعال يفهم منها التعظيم. فهو، يقول الشيخ الزرقاني المالكي: اذا لم يجد له شبهه واهية يدفع بها زعمه انتقل الى دعوى أنه كذب على من نُسب إليه، مباهتة ومجازفة وقد أنصف من قال فيه: علمه أكبر من عقله[117]. وهكذا تتوالى الردود على الشيخ من طرف علماء وفقهاء المذاهب الأربعة لتبرئةالسلف مما يدعيه مذهباً لهم.

ان مذهب الشيخ الحراني عند التحقيق ليس إلا مجمل اجتهاداته وترجيحاته وأفكاره المتباينة، وضعت في قالب سماه واطلق عليه «مذهب السلف» أو ما كان عليه السلف وهم من عاش في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام.



(١١٧) الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، رئيس محكمة الحقوق العليا بيروت سابقا. شواهد الحق في الإستغاثة بسيد الخلق(ص) ، ضمن كتاب علماء المسلمين والوهابيون ، لحسين حلمي الإستانبولي ، ص١٨٧ .

وأخيـــراً

لقد حاولنا في هذه العجالة تسليط الضوء على حياة وسيرة هذا الرجل الذي شغل معاصريه من الفقهاء والعلماء كما شغل السلطة السياسية، وذلك لما كانت تخلق فتاواه وآراؤه من فتن وصراعات يتورط فيها العوام أغلب الأحيان، فيحدثون الشغب والقلاقل.

كما أن أفكاره التي تم إحياؤها على يد تلميذه النجدي وقامت عليها دولة في شبه الجزيرة العربية اليوم، قد جعلت التاريخ يعيد نفسه في بعض الفصول. فقد انتشرت آراء الشيخ الحنبلي في أرجاء واسعة من العالم الإسلامي بفضل الطباعة والنشر والدعم المالي الكبير، والحرص الشديد لأتباعه على إيصال كتبه وآرائه الى الأوساط المتلقية في العالم الإسلامي.

فانتشرت الفتن وعمت البلوى، وتجند علماء أهل السنة بادىء الأمر للرد على الشيخ وأتباعه. وبُعث كل ما قيل حول آرائه من نقض وردود. بالإضافة الى تأليفات جديدة. لكن الإنحصار أصاب هذه الحركة، ليس فقط بسبب طوفان الكتب التي تنشر هذا المذهب وتدعو له، والتي أغرقت سوق الكتاب الإسلامي، حيث يطبع قسم كبير منها طباعة فاخرة ويوزع بالمجان وخصوصاً «مجموع فتاوى الشيخ». ولكن بسبب الإرهاب الفكري الذي يمارسه القائمون على هـذه الدعوة ـ السلفية ـ وذلك برمي خصومهم بالإبتداع والضلال والكفر، ومحاولة تشويه سمعتهم لدى أبناء الصحوة الإسلامية الذين انجر كثير منهم لإعتناق هذه الأفكار ظناً منه أنه يتبع السلف الصالح وانه يبتعد بذلك عن الإنحراف والشرك.

أرجع لأقول بأن البحث في حياة الرجل وأفكاره ليست بالأمر الهين، لكثرة الآراء المتناقضة المسطرة حوله في كتب التاريخ.

لكن تراثه وما خطه يراعه، بالإضافة الى ما عليه أتباعه اليوم، لا يدع مجالا للشك من أن ما وصمه به خصومه هو الواقع والمطابق للحقيقة تماماً.

لقد كان الرجل واسع الإطلاع على تراث الفرق الإسلامية لكنه لم يكن دقيقاً ولا مختصاً. إنما قارئاً سطحياً، لذلك وقع في الأخطاء، سواء عندما أراد أن يجعل من نفسه حكماً وميزاناً، أو عندما إجتهد لنفسه آراءً مخالفة لما عليه جمهور العلماء وان كان قد أصاب في بعضها(١١٨).

فقد إستطاع كل فريق خاصمه إبن تيمية أن يثبت تهافت كلام الشيخ في حقه وتناقضه وعدم معرفته بكلام خصومه. لذلك اتهموه بالكذب والتزوير وعدم الأمانة في النقل، وقد أوردنا بعضاً من حججهم في ذلك. كما أجمعوا على أن الشيخ كان سطحياً وظاهرياً في معالجته لكثير من قضايا الفكر الإسلامي المختلف فيها.

أما حدة الصراع والرفع من وتيرته لدرجة إدخال الشيخ للسجن والحكم بضلاله وكفره، فإن ذلك راجع لسلوك الشيخ وموقفه الحاد من خصومه في الرأي، واعتداده بنفسه لدرجة الغرور الممقوت. يقول جلال الدين السيوطي في وصف حال الشيخ الحنبلي، «وقد تعبت في رزيته وفتنته حتى مللت في سنين متطاولة فما وجدت قد أضره في أهل مصر والشام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا بالكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والإزدراء بالكبار(١١٩). والسيوطي لم يكن عدواً لإبن تيمية، وان

---

(١١٨) كمسألة رفض حكم الطلاق الثلاث وأنه لا يقع إلا طلقة واحدة ، وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب هو الذي إجتهد هذا الحكم الذي خالف فيها النصوص وما كان عليه الرسول والصحابة.

(١١٩) علماء المسلمين الوهابيون ، مرجع سابق ، ص١٨٣ .

خالفه في كثير من القضايا[١٢٠]. لكنه كان مصيباً فيما وصف به الشيخ.

زد على ذلك حدة في الطبع وجفاء وغلظة في التعامل مع من جعلهم خصوماً له. وقد حاول البعض أن يُرجع هذه الحدة والمزاج الصعب والمتقلب الى كون الشيخ لم يتزوج طيلة حياته. ولا شك أن الكبت الجنسي كما اثبت العلم المعاصر، يضغط على الأعصاب ويؤثر عليها، فيتعرض الإنسان على أثر ذلك لموجات عصبية حادة. وهذا القول لاشك ان فيه بعضاً من الصحة ويمكن ان يكون مفتاحاً لحل لغز التناقض الحاد في أفكار الشيخ وأحكامه. فقد عثر الباحثون ـ كما أشرنا الى ذلك سابقاً ـ على أحكام وآراء متناقضة له في المسألة الواحدة. فهو حينا يعالج القضية بهدوء وتفهم وكأنه تلميذ يشرح كلام استاذه بصدق وأمانة، وتراه حينا آخر مندفعاً لا يلوي على شيء مجرداً خصومه من كل فضيلة أو علم ناسبا إياهم الى الضلال والإبتداع أو الكفر، بل ليسوا سوى تلامذة لفلاسفة اليونان الوثنيين أو أتباع بوذية الهند وأنباط الفرس.

ونحن نقول بعد متابعة شاملة لحياة الشيخ ومذهبه وسيرة أصحابه، بأن الحدة والمزاج الصعب والجاف الذي يتكلم عنه الباحثون، يجدون تفسيره في مسألتين مهمتين بالإضافة الى الكبت الجنسي أو كونه عاش وحيداً دون أهل أو زوجة.

المسألة الأولى: تتمثل في البيئة الجغرافية التي فتح الشيخ فيها عينيه وتربى ونشأ، وهي مدينة حران التي وصفها الرحالة إبن جبير بقوله: «ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه ـ أي بلد حران ـ ولاتجد فيها مقيلا، ولا تتنفس فيها إلا نفساً ثقيلاً، قد نبذ بالعراء، ووضع في وسط الصحراء فعدم رونق

(١٢٠) من بينها إحترامه لأبن الفارض الصوفي الذي ذمه إبن تيمية وعاداه لأنه يعتقد بوحدة الوجود فقد كان السيوطي يعتقده وألف جزءاً سماه «قمع المعارض لأبن الفارض». أنظر القول الجلي للصفي البخاري.

الحضارة، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة»[١٢١]. فلا شك أن هذه البيئة الصحراوية الجافة كان لها تأثير على نفسية الصبي، وهذا معلوم بالضرورة فأخلاق وسلوكيات البدو الذين يعيشون في الصحاري والقفار تكون جافة غليظة، بخلاف سكان الحواضر والبوادي الخصبة حيث الأنهار والبساتين والأشجار الكثيفة. وهذا من تأثير الطبيعة والجغرافية على الإنسان، وهي مسلمة علمية وعرفية.

وعندما هاجر الصبي من حران، إستقر به المطاف في دمشق فأكمل نشأته فيها حتى بلغ من الكبر عتيا واهل دمشق ـ بالخصوص ـ يُعرفون ببعض الجفاء والخشونة في المعاملات بخلاف أهل حلب مثلا. وربما لذلك كان للمذهب الحنبلي أتباع هناك ومدارس.

المسألة الثانية: ترجع الى المذهب الحنبلي فقد ولد الشيخ إبن تيمية في بيت المشيخة الحنبلية واستمر يرتع وينمو في أحضان هذا المذهب الى أن تولى رئاسته. والصفة المميزة والخاصة لأتباع هذا المذهب كانت ومازالت تتمثل في الجفاء والغلظة، وقد وصفهم إبن عقيل الحنبلي قائلاً: «قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المخالطة وغلظت طباعهم عن المداخلة...»[١٢٢]. ويقول صاحب النهج الأحمد: «فقد كنا في عهد الصبا نسمع الرجل يصف رجلا آخر فإذا أراد أن ينعته بضيق الصدر والتزمت وصلابة الرأي وعدم انقياده للحديث يلقى إليه قال «أنه حنبلي» ولا يزال الناس الى يومنا هذا يذكرون هذه العبارة في مثل هذا المعرض[١٢٣].

هذا الجفاء والغلظة كانت السبب في كثير من خلافاتهم مع علماء وفقهاء المذاهب الإسلامية الأخرى. فقد كان الحنابلة يرون أنفسهم بمنأى عن سائر

---

(١٢١) إبن تيمية حياته عقائده ، م س ، ص٢٥ .

(١٢٢) إسلام بلا مذاهب ، م س ، ص٤٣٦ .

(١٢٣) النهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد ، مجير الدين العليمي ، ج١ ص٢١ .

طوائف العلماء فلا هؤلاء يقبلون عليهم أو يتحدثون عنهم فيما بينهم أو فيما يؤلفون من كتبهم، حديث من يريد تجلية الحقائق العلمية ويكشف اللثام عن خباياها. ولاهم يختلطون بهؤلاء أو بغيرهم من أهل الولايات وذوي الأقدار في الدولة[١٢٤].

واذا كانت صفة الحنابلة هي كما ذكرنا، فإن «شيخ الإسلام» سيتربع على كرسي مشيختهم وسيكون محط رحال إقتدائهم وتقليدهم بعدما تشبع بأصول المذهب وفروعه وتزيا بزي أصحابه ومؤسسيه، لذلك نعتقد أن الجفاء والحدة والخشونة قد رضعهما الشيخ من ثدي المذهب فامتزج لحمه ودمه بهما وظهر ذلك واضحاً في سلوكه ومعاملاته.

ولنا أن نسأل الشيخ وهو العليم بمذاهب السلف وسيرهم، هل كان السلف الصالح جفاةً غلاظاً ذوي خشونة وحدة بالغة؟! لا شك أن الشيخ سيقلب لنا صفحات التاريخ ليأتي لنا بما يدعم رأيه وسلوكه، لكننا لن نُحشر في نقاش طويل معه ومع اتباعه حول هذه القضية وسنرد عليه بقول عمر بن الخطاب «حسبنا كتاب الله» وقد جاء فيه: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لإنفظوا من حولك﴾[١٢٥].

وأخيراً لا يمكننا أن نسترسل في نقاش الرجل والإحاطة بفكره وحياته أكثر مما أوردناه، وذلك مخافة التطويل، لكننا سنختم قولنا بعتاب مُر ورد على ألسنة الباحثين المعاصرين ممن تناولوا حياته. هذا العتاب الذي يمكن تلخيص عبارته كالتالي: لقد أشعل الرجل حروباً وفتناً داخلية بين المسلمين وشغل العلماء والسلطات السياسية في مصر والشام عن معالجة جروح هذه الأمة التي لم تكن قد التأمت بعد من خراب بغداد والشرق الأقصى الإسلامي على يد المغول وما تعرض له المسلمون من إبادة جماعية هناك. وانطلاق الحملة

(١٢٤) المرجع السابق ، ص٤١ .
(١٢٥) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

الصليبية الحاقدة في الغرب الإسلامي وتهجير أهل الأندلس وتنصيرهم.

ففي الوقت الذي كان حرياً عليه وعلى باقي العلماء، تنبيه المسلمين للملمة أوضاعهم وان يأخذوا العبرة بما وقع لهم من مآسي كان الشيخ يثير الفتن الداخلية بفتاويه الشاذة التي تصدع البنيان الداخلي للأمة، حيث يتحول الإستعداد لجهاد العدو المتربص بالإسلام والمسلمين الى إقتتال بين طوائف المسلمين وسفك دماء بعضهم البعض بفتاوي جريئة تكفر البعض وتبدع وتضلل الآخرين.

وهكذا إجتمعت سيوف المغول في الشرق ومحاكم التفتيش في الغرب معضدة بفتاوى «شيخ الإسلام» في الشام ومصر بتبديع وتضليل وتكفير المسلمين، لتجهز على ما تبقى من حضارة كان يراد لها ولدعاتها الأوائل ان يسودوا العالم وأن تسود معهم قيم الحق والعدل والإنسانية، ليكون الدين لله وحده ولكي لا يعبد على الأرض سواه عزوجل.

وكم كان إبن عطاء الله الإسكندري مصيباً ومحقاً عندما أشار على الشيخ إبن تيمية بأن يشتغل بما هو أجدى، بدفع الظلم وحماية العدل المنتهك وتقييد أيدي الحاكم الظالم عن نشر الفساد والظلم في الرعية. لكن لا حياة لمن تنادي؟!.

وهكذا ذهبت جهود الشيخ الحنبلي وفتاواه أدراج الرياح فلم ينتهِ المسلمون على شد الرحال لزيارة قبر نبيهم عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وطلب الشفاعة منه والدعاء عند قبره وقبور الأولياء، وبناء المساجد والأضرحة قرب قبور الصالحين. كما ان علماء أهل السنة لم يشكوا لحظة في توحيد إمامهم الأشعري وأنه خلاصة التنزيه والرد الوافر على من إعتقد التجسيم والتشبيه.

لكن آراء الشيخ بقيت محفوظة في بطون الكتب وعلى رفوف المكتبات،

الى أن قيض لها من أيقظها من مرقدها، وبعثها بعد قرون من الإندراس، حيث ذلَّ لها ظهر السيف والسلطان فاتخذته مطية، لتجوب بلاد نجد والحجاز وما جاورهما من بلدان، معلنة بذلك، قيام الدعوة لمذهب الحشو السلفي، وبداية إنتشاره في الآفاق، على يد فقيه حنبلي جديد، تتلمذ على كتب استاذه وشيخه إبن تيمية الحراني وتشبع بأفكاره وآرائه واعتقدها وظن أنها الحقيقة، والمحجة البيضاء التي لا يحيد عنها إلا ضال أو منحرف.

إنه الشيخ محمد بن عبدالوهاب الحنبلي النجدي زعيم الحركة السلفية المعاصرة ومؤسس دعوتها، وهو موضوع الفصل القادم إنشاء الله.



❋ ❋ ❋

الفصل الرابع

محمد بن عبدالوهاب النجدي الحنبلي
و«قيام الدعوة السلفية الحشوية»



«... زعم محمد بن عبدالوهاب أن مراده بهذا المذهب الذي إبتدعه إخلاص التوحيد والتبري من الشرك، وأن الناس كانوا على شرك منذ ستمائة سنة، وانه جدد للناس دينهم وحمل الآيات التي نزلت في المشركين على أهل التوحيد...».

[احمد بن زيني دحلان مفتي مكة].


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تمهيـــد

كان إبن قيم الجوزية[1] من تلامذة الشيخ إبن تيمية ومن أكثر الناس التصاقا به لدرجة أنه أدخل معه السجن في القلعة. ولما توفي الشيخ تحمل التلميذ المخلص مهمة جمع تراث أستاذه والحفاظ عليه، بل تنقيحه وترتيبه وتبويب مسائله وإغناء مواضيعها بالشرح والتفصيل والتأليف. كل ذلك، ضم الى تراث الحنابلة بشكل عام وحوفظ عليه من صروف الأيام، الى أن أدركته يد العناية فتلقفه طالب علم حنبلي فشرب منه حتى الثمالة وتشبع بمقاصد

(١) يقول ابن حجر في الدرر الكامنة: «غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه. واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة، بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروباً بالدرة. فلما مات أفرج عنه، وأمتحن مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه».

ويقول الشيخ محمد الكوثري المصري كان «دائباً على اذاعة شواذ شيخه، متوخيا — في غالب مؤلفاته — تلطيف لهجة أستاذه في تلك الشواذ، لتنطلي وتنفق على الضعفاء، وعمله كله التلبيس والمخادعة والنضال عن تلك الأهواء المخزية، حتى أفنى عمره بالدندنة حول مفردات الشيخ الحراني. ويظهر مبلغ تهافته لمن طالع شفاء العليل له بتبصر، ونونيته، وعزوه من الدلائل على أنه لم يكن ممن له علم بالرجال ولا بنقد الحديث، حيث أثنى فيهما على أناس، وأستدل فيها بأخبار غير صحيحة على صفات الله سبحانه. وقد ذكره الذهبي في المعجم المختص بما فيه عبرة، ولم يترجم له الحسيني ولا ابن فهد ولا السيوطي في عداد الحفاظ في ذيولهم على طبقات الحفاظ، وما يقع من القارىء بموقع الأعجاب من أبحاثه الحديثية في زاد المعاد وغيره، فمختزل مأخوذ مما عنده عن كتب قيمة لأهل العلم بالحديث، كـ «المورد الهني في شرح سير عبد الغني» للقطب الحلبي ونحوه. ولولا محلى ابن حزم و «أحكامه» و «مصنف» ابن أبي شيبه و «تمهيد» ابن عبد البر، لما تمكن من مغالطاته وتهويلاته في «أعلام الموقعين». أنظر للمزيد بحوث في الملل والنحـل، م س ، ج٤ ، ص ٥٢ — ٥٣ .

أفكاره ومعاني آرائه واتخذها لنفسه طريقاً ومذهباً، وحين استغاث بالفرصة كي يصدع بما وعى، أغاثه الزمان بها، فطفق يدعو لما إرتضاه ديناً واحتواه عقله يقينا.

فكان بدء قيام الدعوة «السلفية الجديدة» التي اتخذت من بلاد نجد منطلقاً. حيث عضد السيف القلم فانتشرت الدعوة، ولبست أفكار الشيخ الحراني حللا جديدة، ونزعت عنها أسمالها البالية، وظهرت للوجود دولة تدافع وتنافح عن أفكار الشيخ الحنبلي وتتخذها مذهباً في الدين وأساساً للشرعية السياسية.



❋ ❋ ❋

محمد بن عبدالوهاب الحنبلي
من طلب العلم الى تاسيس دولة

□ مولده وتحصيله العلمي :

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بلدة العيينة سنة (١٧٠٣/ ١٧٠٤م)، على إختلاف في سنة مولده. وتلقى دروسه الأولى على يد أبيه قاضي العيينة، حيث أخذ عنه الفقه الحنبلي. وقد كان حسب من أرخوا له كثير المطالعة لكتب التاريخ والتفسير والحديث والعقائد، خصوصاً كتب الشيخين إبن تيمية وتلميذه إبن القيم الجوزية.

غادر الشيخ بلاد نجد بعد زواجه متوجها الى الحج، ليزور المدينة بعد ذلك حيث أخذ العلم عن الشيخ عبدالله بن إبراهيم.

وفي البصرة درس على الشيخ محمد المجموعي. وبدأ في نشر بعض أفكاره في التوحيد. فتجمع عليه أناس من رؤسائها وغيرهم فآذوه أشد الأذى واخرجوه منها وقت الهجيرة ولحق شيخه منهم بعض الأذى: فلما خرج الشيخ من البصرة وتوسط في الدرب فيما بينها وبين بلد الزبير أدركه العطش وأشرف على الهلاك[٢].

لكن رجلا من أهل الزبير أدركه وعطف عليه لأنه كان يرتدي زي رجال الدين فسقاه الماء وأركبه حتى وصل به الى الزبير. أراد الشيخ مواصلة سفره الى الشام ولكنه لم يكن يملك من الزاد ما يكفي للسفر الى الشام لذلك عقد العزم على التوجه الى مدينة «الأحساء» ثم مدينة حريملة

---

(٢) عنوان المجد في تاريخ نجد ، عثمان بن بشر النجدي ، مكتبة الرياض الحديثة ، ج١، ص٨ .

التابعة لنجد[٣].

إستقر الشيخ محمد في حريملة وبدأ ينشر أفكاره المتعلقة بالتوحيد والشرك وتقديس الأولياء. فوقع بينه وبين أبيه؟ مجادلات ومعارضات. ولم يكد ينتهي من تأليفه كتاب «التوحيد» حتى كان صيته قد ذاع بين القبائل والمدن النجدية. يقول إبن غنام: «إشتهر حاله في جميع بلدان العارض في.. العيينة والدرعية ومنفوحة.. وكان الناس عند ذلك حزبين وانقسموا فيه فريقين فريق أحبه وما دعا إليه فعاهده على ذلك وبايعه وحذا حذوه وتابعه وفريق انكر عليه[٤].

□ انطلاق الدعوة :

إنطلق الشيخ محمد بعد وفاة والده الشيخ عبدالوهاب يدعو لعقيدته على نطاق واسع، مما أثار تذمر بعض سكان حريملة فهموا بقتله لكنه نجا ففر هارباً الى العيينة حيث استقبله رئيسها عثمان بن حمد بالترحاب والتكريم. فعرض الشيخ عليه «ما قام به ودعا إليه وقرر له التوحيد وحاوله على نصرته وقال:

---

(٣) مع الوهابيين في خططهم وعقائدهم العلامة جعفر السبحاني(ص١٣ ــ ١٤). يفيد «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب» ان ابن عبدالوهاب توجه في رحلته وهو في السابعة والثلاثين من العمر. أمضى ست سنوات تقريباً في البصرة وخمس سنوات في بغداد وحوالي السنة في كردستان وسنتين في همدان (إيران) وفي بداية عهد نادر شاه انتقل الى أصفهان حيث أمضى سبع سنوات. وعاش في قم ومدن إيرانية أخرى، فقضى ستة أشهر في حلب وسنة في دمشق وبعض الوقت في القدس وسنتين في القاهرة ثم وصل الى مكة وعاد الى نجد وأمضى سنة ونصفاً أو سنتين في اليمامة. وفي سنة ١١٥٠ هجرية (١٧٣٧/١٧٣٨ الميلادية) استقر في العيينة. وتوفي في سنة(١٢١٢هـ ــ (١٧٩٧/ ١٧٩٨م) ويؤكد مؤلف هذا الكتاب«مجهول» ، ان محمد بن عبدالوهاب كان يغير إسمه طوال الوقت ففي البصرة اسمه عبدالله، وفي بغداد أحمد وفي كردستان محمد وفي همدان يوسف» أنظر تاريخ العربية السعودية ، فاسيليف ، ص٧٦ .

(٤) تاريخ نجد ، ابن غنام حسين ، ج١ ص٢٩ ــ ٣٠ ، بتوسط تاريخ العربية السعودية .

إني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله تعالى وتملك نجداً وأعرابها[٥].

إستفاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب من هذا الدعم الكبير الذي منحه له رئيس العيينةومن تبعه من رجالها فأمر بقطع بعض الأشجار التي كان الأهالي يعظمونها ويعتقدون ببركتها، فزاد أمره إشتهاراً، جعل الشيخ يقصد ضريح قبر زيد بن الخطاب فهدم قبته بمساعدة عثمان بن حمد نفسه وستمائة من رجاله. وقد كادت الحرب ان تقع بينهم وبين أهل الجبيلة الذين أرادوا منع الشيخ وأصحابه من ذلك لكنهم تخلوا عن الدفاع عن القبة فهدمت.

كان لحادثة رجم المرأة الزانية التي قيل أنها اعترفت أمام الشيخ إبن عبدالوهاب، صدى واسعاً في القرى والمدن المجاورة. مما دفع برئيس الأحساء والقطيف سليمان بن محمد الحميدي لكي يبعث برسالة الى رئيس العينية يأمره بقتل الشيخ. وهدده بقطع خراجه إن لم يفعل. لكن عثمان بن حمد لم ينفذ أمر رئيس الأحساء واكتفى بالطلب من الشيخ أن يغادر الى حيث شاء قائلاً «ليس من الشيم والمروءة أن نقتلك في بلادنا فشأنك ونفسك وخل بلادنا[٦]».

وصل الشيخ إبن عبدالوهاب الدرعية بعد خروجه من العيينة، فالتقى ببعض رجالها. وقرر لهم، كما يقول «إبن بشر» التوحيد وإستقر في قلوبهم، فأرادوا أن يخبروا محمد بن سعود «أمير الدرعية» ويشيروا عليه بنصرته فهابوه فأتوا الى زوجته موضى وكانت ذات عقل ومعرفة، فأخبروها بمكان الشيخ وصفة ما يأمر به وينهي عنه. فوقر في قلبها معرفة التوحيد وقذف الله في قلبها محبة الشيخ. فلما دخل عليها زوجها محمد أخبرته بمكانه، وقالت إن هذا الرجل أتى إليك وهو غنيمة ساقها الله لك. فاكرمه وعظمه واغتنم نصرته[٧].

(٥) عنوان المجد ، م س ، ص ٩ .

(٦) نفسه ، ص١١ .

(٧) عنوان المجد ، م س ، ص ١١ .

عمل أمير الدرعية بما اشارت عليه زوجته فتوجه الى الشيخ ورحب به وأكرمه. وأمنه على نفسه وبشره بالنصرة والدفاع. يقول إبن بشر النجدي: «ثم أخبره الشيخ بما كان عليه الرسول الله(ص) وما دعا إليه وما عليه أصحابه رضي الله عنهم من بعده وما أمروا به وما نهوا عنه، وان كل بدعة بعدهم ضلالة. وما أعزهم الله به بالجهاد في سبيل الله وأغناهم به وجعلهم إخواناً. ثم أخبره بما عليه أهل نجد اليوم من مخالفتهم بالشرك بالله تعالى والبدع والإختلاف والجور والظلم.

فلما تحقق محمد «يقول إبن بشر» معرفة التوحيد وعلم ما فيه من المصالح الدينية والدنيوية قال له: ياشيخ إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه، وابشر بالنصرة لك ولما أمرت به والجهاد لمن خالف التوحيد. ولكن أريد أن أشترط عليك إثنين، نحن اذا قمنا في نصرتك والجهاد في سبيل الله وفتح الله لنا ولك البلدان أخاف أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا. والثانية: إن لي على الدرعية قانوناً آخده منهم في وقت الثمار وأخاف أن تقول لا تأخذ منهم شيئاً. فقال الشيخ: أما الأولى فابسط يدك، الدم بالدم والهدم بالهدم. وأما الثانية فلعل الله يفتح لك الفتوحات فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير منها[8].

كان لإتفاق الشيخ والأمير والبيعة السياسية التي ربطت بينهما، آثارها الواقعية والعملية، تمثلت في وضع اللبنات الأولى لقيام الدولة السعودية الأولى، وانتشار النفوذ السياسي لأسرة آل سعود على جميع قرى نجد ونواحيها. في الوقت الذي كانت فيه الدعوة «الوهابية أو السلفية» تنتشر بسرعة بين فئات واسعة من أبناء نجد خاصة، يدعمها السيف في أغلب الأحيان، وتخضع لها رقاب البدو مخافة القتل أو النهب. لأن شعار الحركة الناهضة «الدم بالدم والهدم بالهدم» الذي سيمثل على المستوى الواقعي

(٨) نفسه، ص١٢.

بالجهاد في سبيل الله، جهاد عصابة مسلمة موحدة لمن حولها من القبائل المشركة والغارقة في عبادة الأولياء والقبور والأشجار والشمس وباقي الظواهر الطبيعية؟!!.

لقد كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب إبنا شرعياً للمذهب الحنبلي، لكنه اختار طريق أستاذيه إبن تيمية وتلميذه إبن القيم. وآمن بما استجد عند هذين الشيخين من آراء وأفكار، وخصوصاً مفهومهما حول التوحيد وتصورهما لقضاياه. فلم يكن الشيخ مجدداً في هذا الميدان وإنما كان مقلداً، يتبع خطى أستاذه إبن تيمية لا يحيد عنها قيد أنملة. وإنما فضله ينحصر في بعض الشروحات والتفريعات، وإلباسه حُللاً جديدة لأفكار أستاذه القديمة وتطعيمها بحجج إضافية. فضلاً عن بعثها وإحياء ما إندرس منها. والدعوة إليها بحد السيف ومحاولة جعلها ميزاناً يُحاكم به عقائد خصومه من أهل نجد أولاً وباقي العالم الإسلامي آخر المطاف(٩).

لذلك لم يجد خصومه صعوبة بادىء الأمر في الرد عليه لأن تراث الرد على أستاذه ما زال حياً محفوظاً في أغلب جوانبه. فالشيخ حنبلي حشوي جديد يدعو إلى التجسيم والتشبيه، والأخذ بظواهر النصوص.

كما أن مجمل فتاوى أستاذه المتعلقة بالشفاعة وزيارة قبور الأنبياء والأولياء والدعاء عندها، لا تصح ولايجوز إطلاقها لوجود ما يخالفها في النصوص القرآنية والحديثية. أما تكفير من يقوم بذلك أو رميه بالشرك فإن ذلك محض

---

(٩) لكن الشيخ ادعى انفراده بمعرفة التوحيد دون غيره من العلماء بل زعم أن أحداً قبله لم يعرف معنى لا إله إلا الله. يقول: «فمن زعم من علماء «العارض» أنه عرف معنى «لا إله إلا الله» أو عرف معنى الإسلام قبل هذا الوقت او زعم عن مشايخه عن احد عرف ذلك فقد كذب وافترى، ولبس على الناس، ومدح نفسه بما ليس فيه، فاتقوا الله عباد الله ولا تكبروا على ربكم ولانبيكم واحمدوه سبحانه الذي من عليكم ويسر لكم من يعرفكم بدين نبيكم «صلى الله عليه وسلم»، أنظر، السعوديون والحل الإسلامي، ص ٩٥ – ٩٦.

غلو، ركبه الشيخ واتباعه لغزو قبائل نجد وأعرابها ونهب ممتلكاتهم وقتل رجالهم بحجة أنهم كفار حلالوا الدم والمال.

وبالجملة فقد وجدت أفكار الشيخ إبن تيمية أخيراً وبعد قرون طريقها نحو التطبيق الواقعي والإنتشار الفعلي، بفضل إيمان وعزم تلميذه إبن عبدالوهاب، وسيف محمد بن سعود أمير الدرعية الذي اعتنق هذه الأفكار وحمل على عاتقه إيصالها الى باقي بلدان نجد، باسم الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام والتوحيد.



***

إنتشار الدعوة الوهابية «السلفية»

□ إعلان الجهاد على المشركين :

إنطلقت دعوة الشيخ كما يقول صاحب «عنوان المجد» بين أبناء الدرعية الذين كانوا في غاية الجهل والشرك الأصغر والأكبر ورفض شرائع الإسلام. فعلمهم الشيخ أحوال الإسلام وأركانه وعرفهم مبادىء التوحيد والبعث. كما عرفهم برسول الإسلام محمد(ص) وبالغاية التي بعث من أجلها وهي محاربة الشرك وإفراد الألوهية والربوبية لله وحده. ثم بعث رسله وكتبه الى رؤساء البلدان وعلمائها يدعوهم الى التوحيد وينهاهم عن الشرك.

ولما إطمأن الشيخ لمسيرة الدعوة في الدرعية واقبل عليه بعض المهاجرين من القبائل المجاورة وكثر عددهم، وأمر الشيخ بالجهاد وحضهم عليه فامتثلوا. فأول جيش غزا سبع ركايب فلما ركبوها واعجلت بهم النجايب في سيرها سقطوا من أكوارها لأنهم لم يعتادوا ركوبها. فأغاروا، أظنه على بعض الأعراب، فغنموا ورجعوا سالمين[١٠].

أنطلق الغزو والجهاد في سبيل الله لمحاربة المشركين والكفار من أبناء القبائل وأعراب البادية من سكان نجد أولاً. والذين حكم الشيخ إبن عبدالوهاب بكفرهم وأقنع اتباعه «المسلمين» بذلك. يقول الشيخ في رسالة أربع قواعد ما حاصله: إن الخلاص من الشرك يكون بمعرفة أربع قواعد، الأولى: أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله(ص) مقرون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام لقوله تعالى ﴿قل من يرزقكم﴾ الآية. الثانية:

---

(١٠) المرجع السابق ، ص١٤ ــ ١٥ .

أنهم يقولون ما دعونا الأصنام وتوجهنا اليهم إلا لطلب القرب والشفاعة ﴿والذين إتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى. ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، الثالثة: أنه(ص) ظهر على قوم متفرقين في عبادتهم فبعضهم يعبد الملائكة وبعضهم الأنبياء والصالحين وبعضهم الأشجار والأحجار، وبعضهم الشمس والقمر فقاتلهم ولم يفرق بينهم. الرابعة: ان مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين لأن أولائك يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة وهؤلاء شركهم في الحالتين لقوله تعالى ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون﴾[11].

ويقول في رسالة كشف الشبهات: «... ان قصدهم الملائكة والأنبياء والأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب الى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم، وعرفت التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون وهو معنى لا إله إلا الله فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لإجل هذه الأمور ملكاً كان أو نبياً أو ولياً أو شجرة أو قبراً أو جنياً، لا الخالق الرازق المدبر فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما مر وانما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ «السيد»[12].

بهذا الفهم لمعاني التوحيد في القرآن وما جاءت به الآيات الخاصة بالمشركين، وما رآه وشاهده الشيخ في نجد وحولها من شعائر الإهتمام بقبور الصالحين والأولياء. انطلق يكفر معاصريه ويصفهم بأنهم أغلظ شركاً من الأولين. وإذا كان محمد رسول الله(ص) قد بعث لمحاربة مشركي قريش

---

(١١) كشف الإرتياب، ص١٦٣ ــ ١٦٤.

(١٢) المرجع السابق، ص ١٦٥، هناك مغالطة وتجني على الحقيقة فليس معنى (السيد) الإله، فليس في لغة العرب هذا المعنى، كما ان من يؤمن بأي «سيد» اذا سألته عنه سيقول لك «السيد» فلان ابن فلان النبي أو الولي أو العالم، وعلى هذا المفهوم درج العلماء والعامة.

وغيرهم حتى رجعوا عن غيهم، فإن الشيخ إبن عبدالوهاب سيسلك طريق الرسول نفسه، اذ لما حصلت له النصرة وعضده السيف اعلن الجهاد والغزو في سبيل الله.

◻ هل ارتد المسلمون فعلاً؟:

أما الشيء المستغرب هنا والمشكل، فليس في فهم الشيخ آيات التوحيد والشرك في القرآن، وهل ينطبق ذلك على معاصريه من أبناء نجد وقبائل البدو أم لا؟ وإنما يُطرح سؤال كبير حول الإسلام بشكل عام في عصر الشيخ. أي القرن الثاني عشر الهجري.

هل كان هناك مسلمون في الجزيرة العربية وما حولها من العراق والشام ومصر وباقي الأقطار الإسلامية الآخرى؟ لأنهم لو كانوا كما وصف الشيخ «أهل نجد». فإنهم لا محالة كفار مشركون ومرتدون. فليس هناك بلدة في ديار الإسلام تخلو من مشهد أو ضريح لولي أو نبي أو صحابي يُزار ويصلى عند قبره، وترفع الأيدي ضارعة بالدعاء الى الله عنده طالبة شفاعته. وهذا معلوم بالضرورة الواقعية ومعمول به في بلاد الإسلام باستثناء القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية الذي يحكمه الآن أتباع الشيخ، لأنهم هدموا أغلب الأضرحة والقبب التي كانت منصوبة على قبور الصحابة والأولياء.

واذن فالحكم بكفر معاصري الشيخ من المسلمين وارتدادهم وكونهم أصبحوا مشركين لا يخص بلاد نجد كما يحاول البعض أن يعلل دعوة الشيخ للجهاد، كما فعل الرسول(ص) من قبل مع مشركي مكة والقبائل العربية زمن الجاهلية.

فالناشر لكتاب «عنوان المجد» عندما يجد أن إبن بشر مؤلف الكتاب وهو وهابي سلفي يصف أهل نجد «بالجهل والضلال»، يقول محاولاً تفسير ذلك: «هذه العبارة ربما إستشكلها من لم يطلع على الحال الأولى في نجد قبل دعوة

الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، وما صاروا عليه بعد دعوته فكانت عبادة غير الله والتحاكم الى الطواغيث وإنكار ما علم من الدين بالضرورة كالبعث بعد الموت موجودة بكثرة خصوصاً في البوادي»(١٣).

فحسب هذا الناشر فإن أهل نجد كانوا قد إرتدوا عن الإسلام فعلاً، لأنهم بصريح العبارة عبدوا غير الله وانكروا البعث. ويكفي ذلك لإعلان كفرهم وارتدادهم عن الإسلام. ولكن هذا الرأي والوصف لحال نجد خصوصا، لا نجده عند غير اتباع الشيخ إبن عبدالوهاب من المؤرخين. فلم يذكر أحد ممن كتب حول أوضاع المسلمين في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر وما قبله أن الناس في نجد وما حولها قد كفروا وارتدوا عن الإسلام، اللهم إلا شرذمة من المستشرقين والرحالة الأوربيين الذين زاروا المنطقة في أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع العشر.

يقول فولني: «فالبدو القاطنون على الحدود مع العثمانين يتظاهرون بأنهم مسلمون لإعتبارات سياسية، ولكنهم ضعيفو الإيمان وتدينهم ضعيف الى درجة يعتبرون معها كفرة ليس لديهم نبي ولا قانون. وهم بأنفسهم يعترفون بأن دين محمد فوق مستواهم. فكيف نقوم بالوضوء إذا كنا لا نمتلك ماء؟ وكيف نقدم الصدقة اذا كنا لسنا أغنياء؟ وما حاجتنا الى الصيام في شهر رمضان اذا كنا صائمين طوال العام؟ ولماذا نذهب الى مكة اذا كان الله موجوداً في كل مكان؟»(١٤).

وهذا المستشرق مع أنه يصف البدو بأنهم كفرة في الواقع إلا أنه يقول انهم يتظاهرون بالإسلام. ونحن لا نعرف ماذا يقصد بهذا التظاهر. هل أنهم يشهدون الشهادتين ويعترفون بالإسلام ديناً سماوياً؟ وان كانوا كذلك فهم لا شك مسلمون. مع أن مظاهر الإحترام لقبور الأولياء والأنبياء وشد الرحال

---

(١٣) المرجع السابق، ص٢.

(١٤) تاريخ العربية السعودية، م س، ص ٨٥.

إليها تعتبر مظهراً من مظاهر الإيمان، وهذا مما لم يذكره المستشرق ولا أشار إليه.

أما اذا رجعنا الى النصوص الوهابية الكثيرة الواصفة للواقع الإجتماعي والديني آنذاك وخصوصاً في نجد، فسنجد المؤرخ إبن غنام يقول بصريح العبارة: ... كان غالب الناس في زمانه ـ أي إبن عبدالوهاب ـ متضمخين بالأرجاس متلطخين بالأنجاس... فعدلوا الى عبادة الأولياء والصالحين وخلعوا ربقة التوحيد والدين... وكثير منهم يعتقد النفع والإضرار في الجمادات كالأحجار والأشجار. ولعب بعقولهم الشيطان.. وجعلوا لغيره ما يجوز صرفه الى سواه وزادوا على أهل الجاهلية[١٥].

ومع أيراد هذه النصوص تكون الصورة قد إتضحت، فأهل نجد كباقي مسلمي المناطق الأخرى في دار الإسلام لم يكفروا بمعنى انهم إرتدوا عن دين الإسلام، ورفضوا رسالة النبي محمد بن عبد الله(ص)، أو أحد الأركان المقومة للإيمان كما ذكر مؤرخوا الوهابية.

وإنما كان كفرهم منطلقاً من إهتمامهم بأضرحة الأولياء والصالحين وإعتقادهم البركة في بعض الأماكن من أشجار وأحجار، وطلبهم الشفاعة من الأنبياء وعلى رأسهم الرسول محمد(ص)، وباقي الأولياء من الصحابة وغيرهم. وهذا لم يكن حال نجد لوحدها وإنما هو واقع الأمة الإسلامية منذ وفاة الرسول(ص) والى يوم الناس هذا. يدعم قولنا التاريخ المكتوب والسيرة العملية والواقعية للمسلمين في العالم قاطبة. ويدل على ذلك أيضاً سيرة الشيخ نفسه.

فقد روى إبن بشر أن الشيخ محمد وقف يوماً عند الحجرة النبوية عند أناس يدعون ويستغيثون عند حجرة النبي(ص) فرآه محمد حياة فأتى إليه فقال الشيخ: ما تقول في هؤلاء؟ قال: ﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما

---

(١٥) نفسه ، ص٨٣ .

كانوا يعملون»؟!.

واذن لم يكن الحال الذي وصفه الشيخ واتباعه من الشرك والكفر يخص بلاد نجد واعرابها. وإنما الواقع الإسلامي برمته انطلاقا من مكة والمدينة. وعليه فالحكم بالكفر والشرك قد شمل الجميع. واذا كان الخلف قد ورث ذلك عن السلف فإن الحكم واحد يشمل السلف والخلف جميعاً. فهم شركاء في الإرتداد عن الإسلام والإنحراف عن طريق التوحيد.

أما ما يذهب إليه مؤرخوا «السلفية» واتباع الشيخ من تهويل واقع الشرك والإنحراف العقائدي الذي كان قد أصاب نجد فإنما هو لتبرير صوت السيف والدماء التي أهرقت في بلاد نجد وغيرها، والأموال التي سلبت من أصحابها بحجة أنهم كفار مشركون! فالسيف الذي أراق دماءهم هو سيف الجهاد الإسلامي، وهو نفسه السيف الذي أراق دماء مشركي العرب في الجاهلية؟!. لقد حكم الشيخ إبن عبدالوهاب على القبائل المجاورة للدرعية بالشرك والكفر، فجهز اتباعه لغزوها وفتح بلدانها. فانطلقت حملات الجهاد في سبيل الله ونشر التوحيد وتعليم البدو أركان الإسلام[١٦].

---

(١٦) هناك تبرير عجيب لضرورة تكفير المسلمين وقتلهم وأخذ أموالهم أورده مؤرخ السعودية المعاصر الصحفي محمد جلال كشك في كتابه «السعوديون والحل الإسلامي». يقول هذا المحقق المصري «هل لو علموهم أن غير «الإخوان» مسلمون وهم يعرفون، ان القاتل والمقتول في النار.. أكان يقوم جيش الإخوان أو تتحرر وتقوم مملكة ابن سعود؟!» . أنظر لهذا الدجل العجيب يقول بصراحة أنه لو لم يلقن البدو والأخوان ان من حولهم من المسلمين كفار أو مشركون لما انطلقوا لجهادهم وفتح بلدانهم ولولم يفعلوا ذلك لما قامت لأسرة آل سعود مملكة ودولة. وإذن بامكان أي أسرة أو أي مجموعة تريد أن تقيم دولة أو ملكاً عضوضاً في الوطن الإسلامي أن تعلن ان كل من يخالفها أو يناوئها أولم يدخل تحت لوائها فهو كافر حلال الدم والمال. وإذن فهذا الكفر ليس كفراً عقائدياً كفراً بالله ورسله وكتبه وأنما هو كفر سياسي كفر بإرادة الرجال وأهوائهم وأطماعهم وحلمهم بتأسيس الدول والمملكات؟! ومن يقرأ كتاب هذا الصحفي المصري الذي قدمه هدية للأسرة المالكة في السعودية يجد دجلاً وتزييفاً للحقائق ومكراً تنهد منه الجبال . =

□ **يوميات الغزو الوهابي :**

لكن إبن بشر مؤرخ الحركة الوهابية لم يتكلم عن طرق وحجم نشر التوحيد والإسلام بين البدو أثناء الغزو الوهابي، وإنما إقتصر على ذكر غزوات «المسلمين» وهجومهم على القبائل وما حصل من القتل والنهب وقطع النخيل والتخريب. يقول مثلاً: «... سار عبدالعزيز رحمه الله تعالى غازياً بجميع المسلمين وقصد بلد ثادق ونازلهم وحاصرهم ووقع بينهم قتال وقطع شيئاً من نخيلهم فأقام على ذلك أياماً، وقتل من أهل البلد ثمانية رجال، وقتل من المسلمين ثمانية رجال[١٧].

ويقول: «غزا عبدالعزيز الى الخرج فأوقع بأهل الدلم وقتل من أهلها ثمانية رجال ونهبوا بها دكاكين فيها أموال. ثم أغاروا على أهل بلد نعجان وقتلوا عودة بن علي ورجع الى وطنه ثم بعد أيام سار عبدالعزيز بجيوشه الى بلد (ثرمدا) وقتل من أهلها أربعة رجال وأصيب من الغزو مبارك بن مزروع. ثم أن عبد العزيز كر راجعاً وقصد (الدلم) و (الخرج) فقاتل أهلها وقتل من فزعهم سبعة رجال وغنم عليهم إبلاً كثيراً..

غزا عبدالعزيز منفوحة وأشعل في زروعها النار؟! وأخذ كثيراً من حللهم وغنم منهم إبلاً كثيراً وقتل من الأعراب عشرة رجال[١٨].

«فأغار عليهم وهم على جراب ماء معروف بين سدير والدهناء فاستأصل

= فالحقائق أصبحت أكاذيب وإشاعات، ولبست الأكاذيب مسوح الحقيقة والواقع، لدرجة يصعب معها معرفة الفصل بين الحقيقة والكذب. وقد إستخدم هذا الصحفي المبرز كل قدراته الكتابية والتعبيرية لتغليف الحقيقة بحجب كثيفة من الضباب . والحقيقة أنه وصل الى مبتغاه وزيادة؟!.

ولعمري ان هذا دأب الكثير من المرتزقة المحترفين لفن الكتابة في مصر والمستعدين لعمل أي شيء في سبيل المال والإمتيازات المادية، وقد استفاد السلفيون كثيراً من هؤلاء ، فإليهم يعزى بحق انتشار الفكر الوهابي والسلفي في الآفاق البعيدة؟!.

(١٧) عنوان المجد ، ص٣٤ .

(١٨) نفسه ، ص٤٣ .

جميع أموالهم وقتل منهم نحو الثلاثين رجلا..»؟!.

ويستمر إبن بشر في ترديده كلمات مثل: غزا رحمه الله، قتل المسلمون، غنم المسلمون وأسروا، صرموا النخيل وأحرقوا الزروع.. الى غير ذلك!! وليس هناك ما يشير على الأقل في «تاريخ إبن بشر» أن هذه الحرب كانت مقدسة، وأنها في سبيل نشر الإسلام والتوحيد. إلا بعض الإشارات النادرة جداً مثل قوله: «بايعوا على دين الله ورسوله والسمع والطاعة» و «دخلوا بسبب ذلك في الطاعة والجماعة».

ولكن يفهم من سـرده للأحداث بـأن الجيش الوهابي كان اذا استولى على بلدة أو قرية ودخل أهلها في طاعتهم يرسل إليهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب من يعلمهم التوحيد، أو رجلا من طلبته يصلي بهم الصلوات الخمس. ولكن هؤلاء «المطاوعة» أو رجال الدعوة الجديدة لم يكن مرغوبا فيهم، ولم تتعامل القبائل والقرى التي دخلت تحت طاعة الوهابين، معهم معاملة المصلحين أو المبشرين للإسلام والتوحيد الحقيقي. بل كان ينظر إليهم بكثير من الإستهزاء والسخرية. خصوصاً اذا علمنا ان تلك القرى والقبائل لم تكن تخلو من فقهاء وطلبة العلم سواء من الحنابلة أو غيرهم من أتباع المذاهب الفقهية الأخرى.

لذلك نجد تلك القبائل التي خضع رجالها قسراً وخوفاً على أنفسهم وأموالهم، يتحينون الفرصة لإخراج هؤلاء الدعاة من بين ظهرانيهم. وقد سجل التاريخ الوهابي طرد الكثير من أئمة الصلاة والدعاة الوهابين من قبل القبائل بل قتلهم في بعض الأحيان. وقد كان ذلك يعتبر إرتداداً ونقضاً للبيعة، فيرسل الوهابيون جيشهم لمحاربة المرتدين فيعملون فيهم السيف ويأخذون أموالهم ويهدمون بيوتهم.

والحقيقة أننا اذا أردنا أن نفهم واقع الجهاد في سبيل الله الذي أعلنه الشيخ واتباعه على قرى نجد ونواحيها ممن إرتد عن الإسلام وأصبحوا كفاراً

ومشركين. لابد من فهم طبيعة العلاقات القائمة بين مختلف القبائل في نجد وغيرها من المناطق الصحراوية الشاسعة في شبه الجزيرة العربية. هذه المناطق التي كان وما زال يقطنها جماعات من البدو، سواء أكانوا رحلاً يبحثون عن الكلأ والمراعي. أو من استقر منهم في بعض الواحات واشتغل بالزراعة وتربية المواشي والإبل، وقد استطاع هؤلاء تأسيس بعض القرى والمدن الصغيرة التي تحتضن ساكنة مستقرة الى حد ما.

□ مفهوم الحرب والجهاد عند البدو :

يصف فاسيليف حياة البدو في الجزيرة العربية قائلاً: كان البدو، في ظل إنعدام السلطة المركزية القوية، يقومون بالغزوات دوما. وكانت الماشية عرضة للنهب في الغالب، ويشمل النهب أدوات بيوت الشعر والأسلحة والألبسة والعبيد. وكانت سلع التجار تسلب منهم، كما تسلب من الحضر مختلف المحاصيل والأدوات الزراعية.

وكتب بوركهاردت يقول: «ان القبائل العربية في حالة حرب دائمة تقريباً فيما بينها، ونادراً ما يحدث أن تتمتع قبيلة ما بلحظة من السلام المشترك مع سائر جيرانها. إلا أن الحرب بين قبيلتين نادراً ما تستمر طويلاً، فالصلح يعقد بسهولة ولكنه يخرق لأتفه الأسباب. وإن أسلوب خوض الحرب هو أسلوب الأنصار، فالمعارك الشاملة نادرة. والهدف الرئيسي لكلا الطرفين المتحاربين هو مباغتة العدو بهجوم غير متوقع ونهب مخيمه.

وكتب فولني عن غزوات البدو يقول: «لما كان الأعرابي نهاباً أكثر مما هو محارب فهو لا يسعى الى إراقة الدماء. وإنه يهاجم فقط من أجل النهب والسلب.

ويؤكد فاسيليف بان الغزو يعتبر عملاً نبيلاً جداً، وكانت الرغبة في النهب تثير دوماً حماس البدو. وكانت المشاركة في الغزوات طوعية، ولكن المحاربين

في الواقع، وخصوصاً الشبان، ما كان بوسعهم رفضها. فالأمتناع عنها ينطوي على خطر الإتهام بالجبن وتضييع الإحترام لدى الأقارب وأبناء القبيلة...

وبنتيجة الغزوات يستطيع البدوي الفقير بعد غارة موفقة واحدة أن يصلح أحواله المالية بل ويمكن ان يغدو موسراً. وكانت الغزوات مصدراً لاثراء وجهاء القبائل. فإليهم يرد أكبر وأفضل جزء من الغنائم. ويتزعم الغزوات الشيوخ أو العقداء. وتفرد للشيخ حصة حتى اذا لم يشارك في الغزوات. وليس من قبيل الصدفة ان غنائم الغزوات تعتبر من أهم مداخيل وجهاء البدو[19].

هذا الوصف المجمل والشامل لعلاقة البدو فيما بينهم، يمكنه أن يسلط الضوء. ويشرح لنا طبيعة الغزوات الوهابية على باقي القرى والقبائل في بلاد نجد وما حولها. فالبدوي نهاب بطبعه، يدفعه فقره وحاجته الى السطو المباغت على العدو «القبلية المجاورة»، واذا ما نجحت مهمته رجع غنيا موسراً بعدما كان يتلظى بنار الفقر، كما أن هذا الغزو يضع البدوي في مقام الحماسة والشجاعة فيسجل له بعض الإفتخار والإنتصارات الشخصية. وقد كان لهذه القيم سوق رائجة في عالم البداوة والترحال.

أما المآسي والمظالم التي كانت تنجم عن هذا الغز والغزو المضاد فإنها كانت تغذي وتعمق الأحقاد والكراهية بين أبناء القبائل التي سيفرض عليها آخر المطاف أن تخوض حروباً دائمة مع جيرانها، فإما النصر والتفوق وبسط الهيمنة وإما إخلاء الساحة نهائياً بأن تتعرض القبيلة الى هجوم مباغت يأتي على الأخضر واليابس فيها فيقتل جل رجالها ويتشرد الباقي بين القبائل الأخرى.

ونحن إذا رجعنا وتتبعنا غزوات الجيش الوهابي سنجدها لا تختلف كثيراً

(١٩) تاريخ العربية السعودية ، م س ، ص٤٧ ــ ٤٨ .

عن غزوات البدو الذين تكلمنا عنهم ووصف المؤرخون حالتهم. بفارق واحد فقط هو إعطاء هذا الغزو والنهب صفة الجهاد في سبيل الله. أي إعطاؤه المشروعية الدينية، هذه المشروعية التي تدعمه وتقويه وتضمن إستمراره.

فما كان لأهل الدرعية وأتباع الشيخ إبن عبدالوهاب مثلاً أن يستمروا في غزواتهم الكثيرة لولا الخلفية الدينية الشرعية التي كان الشيخ يمدهم بها. فما يقومون به ليس غزواً بدوياً ظالماً، وإنما هو الجهاد في سبيل الله. لذلك أطلق الشيخ على أتباعه اسم «المسلمين» أو «الموحدين»، ووصف باقي القبائل وأعراب البادية بأنهم كفار ومشركون حلالوا الدم والمال. وقد أوهم الشيخ أتباعه بأنه يشبه الرسول(ص)، فقد بعثه الله لقوم يعبدون الأصنام والجن والملائكة ويتخذونهم شفعاء وآلهة. فدعاهم الى التوحيد أولاً، ثم لما تمكن من محاربتهم وهدم أصنامهم جهز الجيوش بمن معه من المؤمنين والمهاجرين وسلطهم على المشركين في غزوات متتالية. فقتل رجالهم وسبى نساءهم وذراريهم وامتلك أموالهم. ووزعها على المحاربين المسلمين.

وهذا بالفعل ما قام به الشيخ وأقنع أتباعه بصحة المقارنة فانطلقت الفتوحات الإسلامية من جديد ليس من المدينة المنورة هذه المرة ولكن من الدرعية في بلاد نجد بلد مسيلمة الكذاب.

لكن واقع هذه الغزوات وكما صوره لنا مؤرخوا الوهابية أنفسهم، لا يترك مجالاً للمقارنة بين غزوات الرسول(ص) وبين غزوات الشيخ الحنبلي واتباعه من أعراب نجد. نرجع لإستنطاق النصوص لمعرفة حقيقة هذا الإدعاء.

□ حقيقة الجهاد الوهابي :

ونبدأ أولاً ببعض الوقائع الحربية في فجر الدعوة لنعرف حقيقة هذا الجهاد في سبيل الله وهل يمكن مقارنته بجهاد الرسول وصحابته في فجر الإسلام!؟.

يقول إبن بشر: سار عبدالعزيز غازياً بالمسلمين وقصد ناحية الجنوب فأغار

على بوادي آل مرة وأخذ عليهم إبلا كثيرة فتكاثرت عليهم أفزاع البوادي فرسانا وركبانا وصارت هزيمة على المسلمين[٢٠]. وهذا النص كما يلاحظ القارىء ليس فيه إشارة أبداً الى ما يفيد أن الغزو كان في سبيل الله ومن أجل الدعوة الى التوحيد لأن الأمير أغار على البوادي وأخذ إبلهم فاجتمع أصحاب المال ومن أنجدهم فاستخلصوا منه أموالهم وإنهزم «المسلمون». ولم يقل المؤرخ أنه بعث لهم من يبشرهم بالعقيدة الصحيحة وأنهم أبوا وأعلنوا الحرب على «المسلمين» فقام هؤلاء بالدفاع عن أنفسهم كما كان الرسول(ص) وصحابته يفعلون.

لقد دامت الحرب التي شنها الوهابيون على مدينة الرياض قرابة سبعة وعشرين عاما، كان الجيش الوهابي يهاجم هذه المدينة ويحاصرها ويهدم أسوارها ويقطع نخيلها ويحرق زروعها ويقتل كل من يوجد خارج أسوارها ساعة الغزو. لكن هذه المدينة صمدت بصمود رئيسها دهام بن دواس. وكان الغرض من هجوم الوهابيين هو السيطرة على هذه المدينة التي تقرب من الدرعية ليس إلا. فلا توجد نصوص تاريخيه أخرى تفند رأينا هذا. ويثبت من خلالها الدعوة الدينية أو إرسال المبشرين الى هذه المدينة لدعوتهم الى التوحيد والإسلام. وإنما انطلقت الحروب والغزوات بغتة، لكنها تميزت باصرار منقطع النظير من طرف أمير الدرعية لإمتلاك هذه المدينة مهما كلف ذلك من خسائر أو مظالم.

أنظر ما يقول إبن بشر في تاريخه يصف سيطرة الوهابيين أخيراً على الرياض وكيف تمت. لما سمع دهام بن دواس رئيس الرياض بقدوم عبدالعزيز والجيش الوهابي غازياً الرياض للمرة الأخيرة، جمع عياله وأهله وقرر الهروب من المدينة وقبل أن يغادرها طلع على الناس من قصره وخاطبهم قائلاً: «يا أهل الرياض ان هناك لي مدة سنين أحارب إبن سعود والآن سئمت من

(٢٠) عنوان المجد، ص ٦٦ .

الحرب وتركتها له. فمن أراد أن يتبعني فليفعل والا فليجلس مكانه في البلد. ففر أهل الرياض في ساقته الرجال والنساء والأطفال لا يلوي أحد على أحد، هربوا على وجوههم الى البرية في السهباء قاصدين «الخرج» وذلك في فصل الصيف، فهلك منهم خلق كثير جوعاً وعطشاً.

ذكر لي «يقول إبن بشر» ان الرجل من أهل الرياض يأخذ العرب ويجعل فيه ماء ويحمله على ظهره والعرب لا يمسك ماء والإبل عنده ولا يركبها وتركوها خاوية على عروشها الطعام واللحم في قدوره والسواني واقفة في المناحي وأبواب المنازل لم تغلق. وفي البلد من الأموال مالايحصى، فلما دخل عبدالعزيز الرياض وجدها خالية من أهلها إلا قليلاً فساروا في أثرهم يقتلون ويغنمون. ثم أن عبدالعزيز جعل في البيوت ضباطاً يحفظون ما فيها. وحاز جميع ما في البلد من الأموال والسلاح والطعام والأمتاع وغير ذلك وملك بيوتها ونخيلها إلا قليلاً[٢١].

هذا نموذج آخر يصف أسلوب سيطرة «جيوش المسلمين» الوهابيين على المدن والقرى في نجد وكيف كانوا يدعون الى التوحيد والإسلام في مدن خاوية على عروشها هرب منها أهلها خوفاً من بطش «المسلمين» فابتلعتهم الصحراء وقتلهم العطش والجوع، لكنهم مع ذلك لم يسلم متأخرهم من سيف الغزاة؟!.

إذا كان هذا هو الجهاد في سبيل الله فليقدم لنا الوهابيون دليلا واحداً ولو من مصدر ضعيف على أن الرسول(ص) قام بمثل ذلك في غزواته. وان كان عليه السلام نبياً ورسولاً مبعوثاً بالحقيقة ويحارب الكفار والمشركين حقيقة وليس ظناً، وقد كانوا بدؤوه بالحرب وقتلوا أصحابه.

وهو وان كان قد حاربته مكة طويلاً ووقفت في وجه دعوته فإنه لما فتحها لم يهرب أصحابها منها وهم أعداؤه وأعداء الوحي، ولم يعمل فيهم السيف

(٢١) عنوان المجد، ص٦٠ ــ ٦١.

بل قال قولته الشهيرة «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، بل جيش منهم كثيراً وغزا بهم مباشرة وفيهم من لم يؤمن بدعوته بعد.

هذا من جهة ومن جهة أخرى بماذا يفسر هروب أهل الرياض قاطبة، النساء والأطفال حتى أدركهم الموت جوعاً وعطشاً في البرية؟ لو كان الغزو في سبيل الله لبعث «المسلمون الجدد» من يؤمن الناس على أرواحهم ويدعوهم للإسلام والتوحيد. لكن الحقيقة أن أهل الرياض كانوا يعرفون شراسة الجيش الوهابي ووحشيته، ولا شك أن أخبار غزواتهم كانت تصلهم أولا بأول، كما خبروهم مباشرة في حرب دامت سبعة وعشرين عاما. فالرعب والخوف هو الذي أخرج سكان الرياض عن بكرة أبيهم وتركوا متاعهم للغزاة.

ونحن هنا نتسائل واضعين علامة إستفهام كبيرة. حول قول المؤرخ «فساروا في أثرهم يقتلون ويغنمون»؟ هل القانون الإسلامي في الحرب يبيح قتل الهارب وتتبعه خصوصاً إذا كانوا من الأطفال والنساء. هذا إذا سلمنا بأن أهل الرياض كانوا كفاراً مرتدين ومشركين وهذا ما رفضه علماء أهل السنة قاطبة ولم يعترفوا به.

وأين هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عالم السلف ومجدد الدين، هل كان يفتي بقتل الهارب من الحرب، الأطفال والنساء، وقطع الأشجار وحرق الزروع؟!.

لقد تميزت الحروب الوهابية بالشراسة والدموية ولم تكن تُحترم فيها لا القوانين الإسلامية المتعارف عليها، ولا غيرها من الأعراف الإنسانية. فليس هناك سوى الخضوع الفوري للغزاة وإما القتل والنهب والسلب وإذا كانت بعض القرى والقبائل إستسلمت بسرعة وبخسائر قليلة فإنما يرجع ذلك الى الرعب الذي كان ينشره «المسلمون الوهابيون» أثناء غزواتهم.

مثال ذلك، انهم كانوا يباغتون القرى والمدن في الصباح الباكر ويقومون

باطلاق الرصاص دفعة واحدة باتجاه القرية أو المدينة مما يحدث دوياً هائلاً يرتج معه الوضع داخل القرية المحاصرة فيسود الخوف وتسقط الحوامل حملها. يقول إبن بشر: أتوا بلاد حرمة في الليل وهم هاجعون... فلما إنفجر الصبح أمر عبدالله على صاحب بندق يثورها، فثوروا البنادق دفعة واحدة فارتجت البلد بأهلها وسقط بعض الحوامل، ففزعوا وإذا البلاد قد ضبطت عليهم وليس لهم قدرة ولا مخرج[٢٢].

وهذه الطريقة في إرهاب سكان المدن والقرى لم تكن نادرة حتى يقال إنما هي بعض من أخطاء الغزو والفتوحات. ولكنه الأسلوب المفضل الذي سلكه رجال الغزو الجديد. وتاريخ غزوات الرسول يبرأ من هكذا غزو. اللهم إلا ما وقع في غزوات بني أمية مثل هجومهم على المدينة المنورة واستباحتها قتلاً ونهبا وهتكا لأعراض النساء حتى ولدت بنات الصحابة والتابعين من الزنا، فيما سمي بوقعة الحرة. أو غزو معاوية بن أبي سفيان بعض المناطق الإسلامية عندما رفض بيعة الخليفة الشرعي، فقتل جنوده المسلمين الأبرياء وذبحوا الأطفال في حجور أمهاتهم ونهبوا وسلبوا.

ولكن الفرق بين بني أمية والجيش الوهابي أن بني أمية كانوا يفعلون ذلك في سبيل الملك والإمارة، فكانوا لا يتورعون عن إرتكاب المجازر والفظائع بحق العرب والمسلمين في سبيل هدفهم. وكانوا يعلنون ذلك صراحة، فلما دخل معاوية بن أبي سفيان العراق خاطب أهلها قائلاً: «إنما حاربتكم لأتأمر عليكم». وإذن فهي الحرب السياسية لتحصيل الملك والحكم واستعباد الجماهير العريضة والمستضعفة.

أما الوهابيون فكانوا يدعون أن حربهم في سبيل الله ومن أجل الدعوة للتوحيد والإسلام. لكن سيرتهم في الحرب وواقع فتوحاتهم يكذب هذا المدعى، فالإسلام وشرائعه في الجهاد لا تقبل أبداً أسلوب هؤلاء الغزاة. ولا

---

(٢٢) نفسه، ص ٦٧

يمكن أن يتحمل الإسلام مظالمهم للناس والخسائر الفادحة في الأرواح والممتلكات التي الحقوها بمجموع القبائل في نجد أولاً وأطراف العراق والشام وشمال اليمن ثانياً.

□ هذه الحرب ليست مقدسة :

إنطلاقاً من الحقائق التي ذكرها الباحثون والرحالة حول طبيعة البدوي وأنه طماح للسلب والنهب سواء انطلق من شريعة أو دفعت به الحاجة والفاقة وحب الغنى الى الهجوم على غيره من الغرباء والأعداء. والمقارنة بين حروب البدو قبل إعلان محمد بن عبدالوهاب دعوته وحروب اتباعه مع خصومهم من البدو بعد ذلك، يمكن أن نسجل مماثلة تامة في الأسلوب والنتائج. اللهم الا دخول العنصر الديني وإقحامه في هذه الحرب الظالمة لتبريرها وإلباسها ثوب المشروعية لضمان استمراريتها. والتغطية على أنهار الدماء التي تراق أثناء ذلك.

وعليه يمكننا أن نجزم بكل صراحة وإطمئنان تعضدنا وقائع الغزو الوهابي ويومياته. بأن الحرب الوهابية التي أعلنها إبن عبد الوهاب وأتباعه على قبائل نجد وقراها لم تكن حرباً مقدسة وفي سبيل الله، لنشر التوحيد والإسلام بين المشركين والكفار. وإنما كانت حرباً بدوية على شاكلة الحروب البدوية السابقة، أولا، ثم أخذت بعداً جدياً بفضل أيديلوجية الشيخ الخاصة بالشرك والإرتداد، ومحاولة نشر الإسلام من جديد. لتوضع في خدمة تأسيس دولة سياسية جديدة تطمح للسيطرة على مجمل أراضي شبه الجزيرة العربية.

وإلا فلم يحدثنا التاريخ الإسلامي أن الرسول(ص) وصحابته كانوا يهجمون على القرى والمدن، يقتلون الناس ويغنمون إبل القوم ومواشيهم ويحرقوا زروعهم ويقطعوا نخيلهم ثم يرجعوا من حيث أتوا لتقسيم الغنائم، الخمس منها لبيت المال، ويقسم الباقي للراجل سهم وللفارس سهمين. دون

أن يكون للدعوة ونشر الإسلام أي مكان في هذا الغزو والفتح. نستحضر بعض الوقائع التاريخية للغزو الوهابي ليتضح لنا إنعدام الحس الدعوي أو الديني في هذه الغزوات.

يقول إبن بشر: «في رمضان صار سعود بن عبدالعزيز بالجنود المنصورة من جميع نواحي نجد وبواديها وقصد الشمال وأغار على سوق الشيوخ وقتل منهم قتلى كثيرة وإنهزم منهم أناس وغرقوا في الشط»؟!.

□ الهجوم على كربلاء ونهب ضريح الامام الحسين(ع) :

يقول: ثم دخلت (سنة ١٢١٦هـ) وفيها سار سعود بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة من جميع حاضر نجد وباديها والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك وقصد أرض كربلاء ونازل أهل بلد الحسين. وذلك في ذي القعدة فحشد عليها المسلمون وتسوروا جدرانها ودخلوها عنوة وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت. وهدموا القبة الموضوعة بزعم من اعتقد فيها على قبر الحسين. وأخذوا ما في القبة وما حولها وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بالزمرد واليواقيت والجواهر وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من أنواع الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك ما يعجز عنه الحصر ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الأموال وقتل من أهلها قريب ألفي رجل. ثم أن سعود ارتحل منها على الماء المعروف بالأبيض فجمع الغنائم وعزل أخماسها وقسم باقيها في المسلمين غنيمة للراجل سهم وللفارس سهمان ثم إرتحل قافلاً الى وطنه[٢٣].

(٢٣) عنوان المجد، ص١٢١ ــ ١٢٢. ويقول الدكتور همايون همتي: وفي داخل المدينة ارتكبوا الكثير من الأعمال الوحشية من تدمير ونهب وفساد، فكانوا يقتلون كل من يصادفهم من دون أية رحمة ولا شفقة، ونهبوا جميع الدور، لم يغامرهم في هذه المذبحة أي عطف ==

وكتب السيد محسن الأمين عن وقعة الحاج اليماني يقول في هذه السنة (١٣٤١هـ). إلتقى الوهابيون بالحاج اليماني وهو أعزل من السلاح وجميع آلات الدفاع وهم في الطريق وأعطوهم الأمان ثم غدروا بهم فلما وصلوا الى سفح جبل مشى الوهابيون في سفح الجبل واليمانيون تحتهم فعطفوا على اليمانيين واطلقوا عليهم الرصاص حتى قتلوهم عن بكرة أبيهم وكانوا ألف إنسان ولم يسلم منهم غير رجلين هربا وأخبرا بالحال[٢٤].

= على الشيخ والشاب والصغير والكبير والمرأة والرجل، بحيث لم ينج أحد من قسوتهم البربرية» ، أنظر ، الوهابية نقد وتحليل ، ص ١٤٨ .

يقول الباحث رايمون في تقرير له حول فاجعة كربلاء: «رأينا مؤخراً في المصير الرهيب الذي كان من نصيب ضريح الإمام الحسين مثالاً مرعباً على قساوة تعصب الوهابيين. فمن المعروف أنه تجمعت في هذه المدينة ثروات لا تعد ولا تحصى وربما لا يوجد لها مثيل في كنوز الشاه الفارسي. لأنه كانت تتوارد على ضريح الحسين طوال عدة قرون هدايا من الفضة والذهب والأحجار الكريمة وعدد كبير من التحف النادرة.. وحتى تيمور لنك صفح عن هذه الحضرة، وكان الجميع يعرفون ان نادر شاه قد نقل الى ضريح الإمام الحسين وضريح الإمام علي قسماً كبيراً من الغنائم الوافرة التي جلبها من حملته على الهند وقدم معه ثروته الشخصية وهاهي الثروات الهائلة التي تجمعت في الضريح الأول تثير شهية الوهابيين وجشعهم منذ أمد طويل.

فقد كانوا دوماً يحلمون بنهب هذه المدينة وكانوا واثقين من نجاحهم لدرجة أن دائنيهم حددوا موعد تسديد الديون في ذلك اليوم السعيد الذي تتحقق فيه أحلامهم، وها قد حل هذا اليوم في الأخير وهو(٢٠نيسان ــ أبريل١٨٠٢م) فقد هجم ١٢ ألف وهابي فجأة على ضريح الإمام الحسين وبعد أن أستولوا على الغنائم الهائلة التي لم تحمل لهم مثلها أكبر الأنتصارات تركوا ما تبقى للنار والسيف. . وهلك العجزة والأطفال والنساء جميعاً بسيوف هؤلاء البرابرة. وكانت قساوتهم لا تشبع ولا ترتوي فلم يتوقفوا عن القتل حتى سالت الدماء أنهاراً.. وبنتيجة هذه الكارثة الدموية هلك أكثر من أربعة آلاف شخص. ونقل الوهابيون ما نهبوه على أكثر من أربعة آلاف جمل.

وبعد النهب والقتل دمروا كذلك ضريح الإمام وحولوه الى كومة من الأقذار والدماء وحطموا خصوصاً المنابر والقباب لأنهم يعتقدون بأن الطابوق الذي بنيت منه مصبوب من ذهب. أنظر أرشيف السياسة الخارجية لروسيا (١٨٠٣ الاضبارة ٢٢٣٥ ص ٣٨ ــ ٤٠) نقلاً عن تاريخ العربية السعودية ، لفاسيليف ، ص١١٦ ــ ١١٧ .

(٢٤) كشف الارتياب ، ص٥٣ ــ ٥٤

وطبعاً غنموا واستولوا على ما كان عندهم وقسموه بينهم للراجل سهم وللفارس سهمان.

□ الجيش الوهابي يقتل سدنة الكعبة :

وفي سنة (١٣٤٢هـ) غزا الجيش الوهابي الحجاز والطائف التي: «دخلوها عنوة واعملوا في أهلها السيف فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى قتلوا منها ما يقرب من ألفين بينهم العلماء والصلحاء وأعملوا فها النهب وعملوا فيها من الفظائع ما تقشعر له الأبدان وتتفطر له القلوب نظير ما فعلوه في المرة الأولى. وممن قتلوا من المعروفين الشيخ عبدالله الزواوي مفتي الشافعية بصورة فظيعة وقتلوا جملة بني شيبة سدنة الكعبة المكرمة كانوا مصطافين في الطائف وجاءت الأخبار بارتكابهم فظائع لا يليق ذكرها و «توجهوا الى بندر الحديدة ونازلوا أهلها فاخذوها عنوة واستولوا على غالب البلد، وكان أهلها قد بلغهم مسير تلك الجنود فحملوا خفيف أموالهم في السفن وركب فيها أكثر الرجال فاخذ طامي ومن معه ما وجدوا فيها من المال والمتاع ودمروها وقتلوا من أهلها قتلى كثيرة وقبض عمال سعود أخماس الغنائم وساروا بها الى الدرعية[٢٥].

وعلى نفس المنوال استمرت الغزوات والفتوح في أطراف العراق والشام وداخل الجزيرة العربية، يقوم الجيش الوهابي بالهجوم بغتة فيقتل الرجال ويسلب المواشي والإبل والخيول وجميع الأموال التي يهرب عنها أصحابها. أما النخيل فقد كان مصيره القطع والتصريم وقد صرموا في إحدى غزواتهم ألف نخلة.

ولما حاصروا الأحساء تركوا إبلهم وخيولهم تعيث فساداً في الزروع والنخيل وقطفوا الغلال وحملوها معهم وهذا بشهادة مؤرخهم ابن بشر. وفي بعض الأحيان كانوا يهجمون بغتة فينهبون ما جاؤوا من أجله، أي المواشي

(٢٥) نفسه ، ص ٥٥.

والإبل ثم يفروا هاربين الى ديارهم، فيجتمع أصحاب المال وتنجدهم البوادي القريبة فيلحقون الجيش الوهابي ويستردون أموالهم كما وقع مع عرب الفرع من قبيلة حرب سنة ١٣٤٠هـ.

إذن أين هو صدى الدعوة الى الإسلام والتوحيد في قتل سكان كربلاء واستباحة أموالهم ثم الخروج بها هرباً الى الدرعية واقتسامها كمغانم؟ في الوقت الذي يكتب فيه الشيخ أحمد الكرمانشاهي الذي عاصر هذه الحملة وأرخ لها قائلاً: «وعند الزوال عادوا الى الدرعية من دون سبب ظاهر».

وإذن غزوات الأعراب والبدو من أجل النهب والسلب ليس إلا. ولم نسمع شيئاً عن التبشير للعقيدة الجديدة في البصرة وبلد الزبير[٢٦]، حيث قتل الأبرياء في مساكنهم وسرقت مواشيهم وإبلهم وقطعت أشجارهم؟ واين هي الدعوة لمذهب السلف الخالي من البدع والشرك عند أطراف الشام حيث كانت الحوامل تسقط حملها من الهول والرعب. وهل الدعوة الى التوحيد ونبذ الشرك تعني قتل ألف حاج من اليمن وتخريب الطائف ونقل أموالها ومتاع أهلها خارجاً وإرساله الى الدرعية.

نعم قد يكون للدعوة واقع عملي نقله مؤرخوا الغزوات الوهابية بشكل عرضي وهم يتكلمون عن نشاط الشيخ ابن عبدالوهاب الذي لم يشارك في هذه الغزوات وانما كان مرابطاً في الدرعية يدرس الطلبة في المسجد ويلقنهم مبادىء التوحيد الجديد.

هذا المشهد الذي لا يمكن أن يتكرر في غير الدرعية مقر المهاجرين وطلبة العلم والمجاهدين.

(٢٦) يقول ابن بشر يصف هجمة الوهابيين على بلد الزبير: «وانزعج أهل الزبير انزعاجاً عظيما وصعد النساء في رؤوس السطوح ووقع فيها الضجيج، واسقط بعض الحوامل، فاقام محاصرهم نحو إثني عشرة يوماً. حصد جميع زروعهم ورجع قافلاً الى وطنه». ثم سار الى البصرة ونزل عندها المسلمون على جنوبها ونهبوا فيه وقتلوا قتلى». أنظر عنوان المجد، ص١٣٢ و ص١٤٢ .

إن العمل الوحيد الذي كان يواكب عمليات السلب والقتل والنهب المنظم من طرف الجيش الوهابي والذي يمكن أن يعطيه صبغة دينية تمثل في هدم الأضرحة والقباب والقبور المبنية وتخريب بعض المزارات والمشاهد التاريخية، الشيء الذي جعل المراقبين الأوربيين الذين كانوا يتابعون الوضع عن كثب داخل الجزيرة العربية يصفونهم بـ«هادمي المعابد». فكانوا إذا تمكنوا من بلدة أو قرية اخدوا ممتلكات أصحابها وقتلوا من يقف أمامهم او يبدي دفاعاً أو معارضة ثم يميلوا على المشاهد والأضرحة إذا وجدت فيهدمونها.

يمكن أن نستثني مكة والمدينة حيث لم يعملوا في أهلهما السيف كما فعلوه مع باقي القرى والمدن وذلك للإعتبارات الواقعية لهاتين المدينتين المقدستين. دون أن يعني ذلك أنهم لم يسفكوا الدم الحرام، بل بالعكس فقد قتل خلق كثير حول هاتين المدينتين، ولما حاصر الوهابيون مكة وطال حصارهم عدمت الأقوات بالكلية وأكل الناس الأدوية كبزر الخشخاش وزيب الهوى والصمغ والنوى وبزر الخمر وشربوا الدم وأكلوا الجلود والسنانير والكلاب وكل حيوان(٢٧). ولما استطاعوا أخيراً دخول مكة هدموا كل الأضرحة والقباب والمعالم التاريخية التي كان المسلمون قد حافظوا عليها منذ قرون.

أما الأعمال الدينية الجليلة التي قام بها الأمير السعودي، لما دخل مكة فهي جمعه الناس وتعليمهم أركان الإسلام ومبادءه وتعليمهم الصلاة والزكاة. وأخبرهم بأن الخمر والزنا حرام كما شرح لهم التوحيد وأظهر لهم معالم الشرك ليجتنبوها(٢٨).

---

(٢٧) نفسه ، ص٢٨ ، ويؤكد ابن بشر ذلك فيقول: بيع فيها لحوم الحمير والجيف بأغلى ثمن. وأكلت الكلاب وبلغ رطل الدهن ريالين ومات خلق كثير عندهم جوعان» ، أنظر عنوان المجد ، ص ١٣٥ .

(٢٨) «لما دخل الأمير السعودي مكة وجمع أهلها خطب فيهم طويلاً ومن جملة كلامه: «أحمدوا الله الذي هداكم للإسلام وانقذكم من الشرك وأنا أدعوكم ان تعبدوا الله =

أما المدينة المنورة فإنهم لم يستطيعوا هدم قبر الرسول(ص) وان كانوا على وشك ان يفعلوا لكن نهضة العالم الإسلامي أخافتهم فأحجموا واكتفوا بسرقة مقتنيات الحجرة النبوية من جواهر وهدايا ثمينة وأموال، كل ذلك غنمه «المسلمون» من أيدي الكفار والمشركين.

والذي يطلع على ما كتبه مؤرخهم ابن بشر كوثيقة وشهادة حفظها التاريخ، سيجد أن: مجموعة من البدو يتزعمهم فقيه حنبلي ـ حكم على باقي المسلمين بالكفر والإرتداد وأباح دماءهم وأموالهم ـ قد انطلقوا من نجد يجوبون القرى والمدن الآمنة في غزوات شرسة يقتلون الرجال والنساء والأطفال ويستحوذون على الممتلكات ويخربون المعالم المدنية، تحت شعار الجهاد في سبيل الله. ثم يرجعون من حيث أتوا يتقاسمون المغانم والأسلاب. وقد ترك لنا ابن بشر تصويراً رائعاً لحال الدرعية قبل بداية الغزو وبعده وكيف تحولت حال الفاتحين الجدد ومدينتهم من الفقر المدقع الى الغنى الفاحش.

«كانوا في أضيق عيش وأشد حاجة وابتلوا ابتلاء شديداً فكانوا في الليل يأخذون الأجرة ويحترفون، وفي النهار يجلسون عند الشيخ في درس

= وحده وتقلعوا عن الشرك الذي كنتم عليه وأطلب منكم أن تبايعوني على دين الله ورسوله وتوالون من والاه وتعادون من عاداه في السراء والضراء والسمع والطاعة ثم جلس فبايعه الشريف عبد المعين ثم المفتي ثم القاضي ثم بقية الناس على طبقاتهم ثم قال انتظروني بعد صلاة العصر بين الركن والمقام لأبين لكم الدين وشرائط الإسلام ثم إنصرف.

فلما كان العصر أجتمعوا فصعد على ظهر زمزم ومعه المفتي فجعل يعلمه وهو يعلم الناس ويقول: اعلموا أيها الناس ان الأمير سعوداً يقول لكم إن الخمر والزنا حرام(الى آخر ما قال) مما لا يجهله أحد ثم قال لهم في غد اهدموا القبب والأصنام حتى لا يكون لكم معبود غير الله» أنظر المرجع السابق.لا أدري كيف يمكن فهم هذه المهزلة. في مكة القاضي والمفتي ويحج إليها آلاف المسلمين سنوياً لأداء فريضة الحج وفيهم علماء أهل السنة وفقهاء المذاهب الأربعة وغيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى والأمير السعودي القادم من نجد أرض البداوة والجهل يعلمهم أركان الإسلام ومبادىء التوحيد ويأمرهم بحمد الله لأنه انقذهم من الشرك بفضل هذا الأمير؟!

الحديث والمذاكرة، وأهل الدرعية يومئذ في غاية الضعف وضيق المؤنة.

ولقد رأيت الدرعية بعد ذلك في زمن سعود رحمه الله تعالى وما فيه أهلها من الأموال وكثرة الرجال والسلاح المحلى بالذهب والفضة الذي لا يوجد مثله والخيل الجياد والنجايب العمانيات والملابس الفاخرة وغير ذلك من الرفاهيات ما يعجز عن عده اللسان ويكل عن حصره الجنان والبنان ولقد نظرت الى موسمها يوماً في مكان مرتفع وهو في الموضع المعروف بالباطن، بين منازلها الغربية التي فيها آل سعود المعروفة بالطريق ومنازلها الشرقية المعروفة بالبجيري التي فيها أبناء الشيخ.

ورأيت موسم الرجال في جانب وموسم النساء في جانب. وموسم اللحم في جانب وما بين ذلك من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام والبيع والشراء والأخذ والإعطاء وغير ذلك وهو مد البصر[٢٩].

وإذن فقد كان فاسيليف محقاً في وصفه عندما كتب يقول: «كانت حملات الوهابيين تحت راية تجديد الدين تستهدف تحقيق مهمات دنيوية بحته تتلخص في زيادة ثروات حكام الدرعية ووجهاء الجزيرة المرتبطين بها (وجهاء نجد بالدرجة الأولى). ويدل ما كتبه مؤرخو الجزيرة والرحالة الأوربيون على أن الغزو ظل هو الطريق الرئيسي لحصول الوجهاء والأعيان على الثروة. وكتب المؤرخ الوهابي إبن بشر يقول، بعد أن عدد الضرائب التي وردت الى الدرعية: «وما ينقل إليها من الأخماس والغنائم أضعاف ذلك». كانت غزوات الوهابيين الأولى تنتهي بالاستلاء على بضع عشرات من الإبل والأغنام ونهب الحقول أو بساتين النخيل. أما في سنوات أوج قوتهم فقد كانت غنائمهم تبلغ عشرات الآلاف من رؤوس الماشية المنهوبة.

وفي عام ١٧٩٦م بعد دحر قوات شريف مكة وقع في ايدي الوهابيين (٣٠ ألف من الابل و ٢٠٠ ألف من الأغنام والماعز). ويقول إبن بشر أنه

(٢٩) عنوان المجد ، ص١٣.

عندما تم في عام (١٧٩٠-١٧٩١) دحر قبائل مطير وشمر حصل الوهابيون على «غنائم كثيرة من الإبل والغنم والأثاث والأمتعة». وسرعان ما تعرض سائر البدو لمثل هذا المصير. فقد كان الوهابيون يطاردونهم يومين أو ثلاثة «ويأخدون منهم الأموال ويقتلون الرجال». إن المصنفات التاريخية العربية غاصة بوقائع من هذا النوع كما يقول فاسيليف.

وكما هو حال الغزوات البدوية كان النهب الوهابي يسفر عن تجريد القبائل المستضعفة ليس فقط من المنتوج الزائد بل وكذلك من قسم كبير من المنتوج الضروري، وغالباً ما يحكم على السواد الأعظم من السكان المنهوبين بالموت جوعاً[٣٠].

ستكثر إذن المغانم والأسلاب، كل ذلك على حساب الآلاف من المستضعفين والمظلومين فمنهم من قتل ومنهم من أصبح فقيراً معدماً، لا يجد ما يقتات به، والكثير منهم فقد ابناءه وأسرته. وللقارىء ان يتصور حجم المأساة والظلم الذي حاق بسكان البوادي والقرى ومدن الجزيرة العربية في غفلة من سلطة مركزية قوية داخل الجزيرة لضعف أمراء الحجاز ومكة عن الوقوف أما الإجتياح البدوي الوهابي أو تحجيمه. في الوقت نفسه الذي كانت فيه الإستانة عاصمة الإمبراطورية العثمانية تعيش في ليل دامس من المؤامرات والخلافات السياسية. وفي محاولة لمعالجة الهجوم الأوربي الذي بدأ يلتهم أطراف الإمبراطورية ويخطط لإقتسام تركة الرجل المريض.

□ حكم قتال المشركين في الإسلام :

بقي أن نذكر ملاحظة هامة جداً بخصوص الغزوات الوهابية وفتحهم البلدان والقرى. هذه الملاحظة تخص حكم قتال المشركين والكفار فمن المعلوم أن المسلمين الأوائل كانوا في فتوحاتهم وحربهم ضد الكفار

(٣٠) المرجع السابق، ص١٣٤ ــ ١٣٥ .

والمشركين يقتلون المحاربين من الرجال ويسبون الذرية والنساء بالإضافة الى إغتنام الأموال بكل أصنافها. والجيش الوهابي لاشك انه انطلق في هجومه وفتوحاته من أن خصومه كفار مشركون لذلك أباح دماءهم وأموالهم، فكان الوهابيون يقتلون رجال البوادي والقرى ويغنمون أموالهم. ولكن ما بال النساء «الحريم» والأطفال وكيف كان الغزاة الجدد يتعاملون معهم؟!.

□ سبي النساء والأطفال :

من خلال كتاب «عنوان المجد» الذي أرخ لغزواتهم لاتوجد أي فكرة حول هذا الموضوع الإ النزر القليل عندما يذكر المؤلف فرار القبائل من مساكنهم وأن الأطفال والنساء كانوا يهيمون عى أنفسهم في البرية فكان الكثير منهم يلقي حتفه. بالإضافة الى وصفه حالة النساء من الرعب والهول وأن بعضهن يسقطن حملهن أثناء الغزو والمباغتة. لذلك لابد من طرح السؤال التالي؟.

هل كان الجيش الوهابي يسبي النساء والأطفال؟!.

يقول السيد محسن الأمين: «أما سبي ذراري المسلمين فهو مقتضى قواعد المذهب الوهابي الذي أساسه ومبناه ومحوره الذي يدور عليه، التسوية بين عبدة الأصنام وبين المسلمين في الإشراك بالعبادة. وقد صرح الصنعاني في تطهير الإعتقاد في عدة مواضع بما يدل على ذلك حيث قال: ومن فعل ذلك (أي الإستغاثة وما يجري مجراها) لمخلوق فهذا شرك في العبادة وصار من تفعل له هذه الأمور إلها لعابديه وصار الفاعل عابداً لذلك المخلوق وان أقر بالله وعبده فإن إقرار المشركين بالله وتقربهم إليه لم يخرجهم عن الشرك وعن وجوب سفك دمائهم وسبي ذراريهم ونهب أموالهم. وقال في موضع آخر فمن رجع وأقر، حقن عليه دمه وماله وذراريه ومن أصر فقد أباح الله منه ما اباح لرسول الله(ص) من المشركين.

وحكى الجبرتي في تاريخه في حوادث (سنة ١٢١٧هـ). أنهم أي الوهابية

لما دخلوا الطائف قتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال. قال: وهذا دأبهم مع من يحاربهم.

وعن كتاب التوضيح لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب أنه قال: وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وان يتخذوهم عبيداً[٣١]. وإذن فمقتضى المذهب الوهابي، أن حكم إباحة دماء الرجال يتبعه إباحة سبي النساء والأطفال واتخاذهم عبيداً. لأنهن نساء المشركين وذراريهم. وهذا ما كان يفعله المسلمون الأوائل. فما دام الحكم قد صدر بكفر القبائل وشركهم وتحركت الجيوش لغزوهم، فلابد من إمضاء الحكم الإسلامي فيهم كاملا.

إلا إذا كان هناك إستثناء مثلا كون النساء «الحريم» والأطفال ليسوا مشركين. وهذا لم يقل به منظروا الوهابية أو السلفية الأوائل. طبعاً نقل عن بعضهم أنهم لا يرون سبي النساء والصبيان. وهذا تناقض ومن أغرب الأحكام في اجتهادات البدو، فالرجال كفار مشركون دمهم حلال، وأموالهم حلال جائزة الأخذ كغنائم الجهاد. ولكن الأطفال والنساء لا يشملهم هذا الحكم. ولست أدري أين كان يذهب أطفال ونساء المئات من الرجال الذين قتلوا في الغزوات وخصوصاً تلك الغزوات التي قتل فيها معظم الرجال «المشركون»؟! هل كان الوهابيون يتركونهم في العراء لا يمسونهم بسوء فكانوا يجدون طريقهم الى القرى المجاورة خصوصاً إذا أفلحوا في الوصول إليها ولم يموتوا جوعاً وعطشا؟! أم أن الجيش الوهابي كان يسوقهم الى الدرعية ويخلي سبيلهم؟! أم ترى ماذا كان يُفعل بهم؟!.

كما قلت سابقاً الأخبار عن وضع «الحريم» والأطفال خلال فترة الجهاد الوهابي غير متوفرة وأكاد أشك وتنتابني الريبة في صحة الكتب الوهابية التي أرخت لهذه الغزوات، كـ«عنوان المجد». فليس هناك أي مانع من تنقيته وتنظيفه من جميع الأخبار المتعلقة «بالحريم» والأسباب كثيرة جداً لدى

(٣١) كشف الإرتياب، ص١٤١ ــ ١٤٢ .

المؤرخين وخلف الوهابية سواء رجال الدين أو السياسيين.

فلا شك أن موضوع «الحريم» يعتبر حساساً جداً لدى المسلمين قاطبة والبدو بشكل خاص، لذلك كان التكتم على أخباره من الضرورات المهمة. وإلا هل يعقل أن يخوض الجيش الوهابي مئات الغزوات ويقتل آلاف الرجال دون ان يتعرض للنساء والأطفال، هذا الجيش الذي كان يعتقد بأن أعداءه مشركون وكفار كل شيء لديهم حلال الأرواح والأموال؟! إلا إذا كان أفراد هذا الجيش قد بلغوا من الورع والتقوى مبلغاً كبيراً، بالإضافة الى معرفتهم بحكم الحرمة وعدم جواز التعرض للنساء والأطفال. وهذا لا نملك الجرأة لتأييده، لأن غالبية الجيس الوهابي الفاتح كانت متكونة من الأعراب وبدوان نجد، من هم أبعد عن الحضارة والعلم. ولن يقبل أحدهم ان يقارن نفسه بما كان عليه السلف من الورع والتقوى بل سيقولون أنّى لنا ما كان عليه السلف فقد كانوا خير القرون اعتقاداً وعملاً.

لكن قسماً من هؤلاء السلف وعلى رأسهم صحابة هم عند الوهابية أمراء للمؤمنين لما دخلوا المدينة المنورة لم يتورعوا عن نساء الصحابة وبنات التابعين، بل فسقوا فيهن وهتكوا أعراضهن وولدت الكثيرات منهن سفاحاً؟! وهؤلاء السلف لم يكونوا فاتحين ولم يعتقدوا في أهل المدينة أنهم كفاراً أو مشركين. وإنما رفضوا بيعة يزيد بن معاوية الفاسق وأخرجوا واليه من المدينة فكان مصيرهم ما دونه التاريخ.

لكن التاريخ الوهابي لا يذكر شيئاً عن وضع الحريم في الغزوات الإسلامية والتوحيدية الجديدة وكأن القرى والمدن المفتوحة أو إن صح التعبير «المنهوبة» كانت خلواً من النساء والأطفال. طبعاً نحن لم نعتمد على مصادر غير الوهابيين لنتمكن من معالجة هذه القضية بموضوعية، وان كانت بعض المصادر المحايدة قد ذكرت المصير الفظيع الذي عرفه الكثير من النساء اللائي جلبن الى بيوت الوهابيين وقصورهم.

ومع ذلك فنحن قد ندعم قول بعض علماء الوهابين بأنهم لم يأمروا بسبي النساء. وذلك لفهم وشعور شيخهم وزعيمهم الأول بحساسية[٣٢] موضوع «الحريم» عند البدو، لذلك أمر أتباعه بعدم التعرض لهم بشكل مباشر. وإلا فالنظرية واضحة وصريحة ولا يمكن أن يُستثنى النساء والأطفال من حكم الكفر والشرك. اللهم إلا إذا كان الشيخ يقول بإسلامهم وإيمانهم دون الرجال وهذا لم نعثر له على أصل يمكن أن يستشهد به.

ولكن هناك إشارة ذكرها إبن بشر يمكن أن تثير النقاش وتفتح الباب واسعاً أمام التكهنات والآراء المختلفة. وذلك عند ذكره مماليك الأمير الوهابي سعود بن عبدالعزيز فقد ذكر ان «مماليكه الذكور أكثر من خمسمائة مملوك»[٣٣]. وعندما أراد ذكر الإماء ظهر خلط وخبط أظنه متعمد للتحريف لكن الناشر إستدرك ذلك في الهامش قائلاً: هنا خلل ولعله ألف ومائتان الذكور والأناث. والذكور خمسمائة[٣٤].

وإذا فقد كان عدد الإماء في قصره سبع مائة جارية. وهذا رقم لا أعتقد أن السلطان عبدالحميد كان قصره يحتويه، وذلك لتغير الظروف الواقعية ونحن الآن في القرن الثالث عشر الهجري وقد تراجعت تجارة الرقيق الى أبعد

(٣٢) تنبعث هذه الحساسية من كون علماء اهل السنة لم يقتنعوا بأن سكان الجزيرة العربية كانوا مشركين أو كفار وان ما فهمه ابن عبدالوهاب من التوحيد ليس هو الحقيقة وعليه فإذا كان الوهابيون يسبون النساء ويأخذونهم مغانم وملك يمين. فإن فروجهن لا تحل لهؤلاء لأنهن مسلمات. ولا يصح الدخول بهن ومن فعل ذلك فإنه يكون زانياً ومعتديا وأطفال هؤلاء المسلمات المقتول أزواجهن أو آبائهن ليسوا ابناء شرعيين. وعليه يطرح سؤال عريض حول صحة أخبار السبايا في الغزوات الوهابية لأنه لو كان حصل بالفعل فإن الكثير من أبناء «السلف» في الجزيرة ستحوم حولهم الشبهات المتعلقة بأصولهم وهل هي شرعية. ونحن نعتقد أن الشيخ ربما قد يكون انتبه لهذا المشكل العويص لذلك منع من سبي النساء اللهم إلا ما كان يقع هنا وهناك بشكل عشوائي وغير منظم مما يقع عادة اثناء الغزوات والحروب؟!.

(٣٣) عنوان المجد ، م س ، ص .

(٣٤) المرجع السابق .

حد، خصوصاً إذا علمنا بانحصار الفتوحات الإسلامية. أما ان توجد سبع مائة جارية وأمة في قصر زعيم الوهابية آنذاك وهو لم يتجاوز بجيشه وسط الجزيرة العربية فإن الأمر يدعو للإستفهام وطرح التساؤل. فمن أين حصل هذا الأمير على هذا الكم الهائل من الجواري، ونحن نعلم واقع الدرعية قبل بداية الفتوحات وكيف ان أهلها كانوا يعيشون في ضنك العيش.

أرجع لأؤكد على أن موضوع «الحريم» قد اكتنفه الكثير من الغموض اثناء الفتوحات الوهابية إنطلاقاً من النظرية أو الحكم الشرعي الذي أباح دماء الرجال وأموالهم فقط على حد إدعائهم، وعفى عن النساء والأطفال. مع أن الكل، رجالاً ونساءً وأطفالاً، كانوا في حكم الكفار والمشركين؟!.

لكن من كتب عن الفتوحات الوهابية من أهل السنة والجماعة ذكر صراحة سبيهم للنساء، يقول مفتي الشافعية في مكة المكرمة: «وقتلوا من الخلائق ما لا يحصون واستباحوا أموالهم وسبوا نساءهم»[٣٥].

يبقى كما قلنا سالفاً فموضوع «النساء والأطفال» يثير الكثير من التساؤلات ولا نود الخوض في تفاصيله أكثر مما فعلنا لأنه لايعتبر موضوعنا الرئيسي.

□ علماء أهل السنة يكفرون الوهابية :

طبعاً لم يقف المجتمع الإسلامي في شبه الجزيرة وعلى رأسه علماء المذاهب الأربعة مكتوفي الأيدي أمام هذا الغزو الوهابي «السلفي»، بل واجهوه بالسيف والقلم، حيث انطلقت موجات متتالية من الردود تفند مذهب الشيخ الوهابي وتنقضه، وتحكم بانحرافه وضلاله وصولاً الى تكفيره وتكفير أصحابه والحكم عليهم بالقتل. وقد أرسل إبن عبدالوهاب بعض رجاله الى مكة

---

(٣٥) السيد أحمد بن زيني دحلان ، فتنة الوهابية ، ص٣ .

والمدينة لمناظرة علماء أهل السنة. «فلما وصلوا الى الحرمين وذكروا لعلماء الحرمين عقائدهم وما تمسكوا به، رد عليهم علماء الحرمين واقاموا عليهم الحجج والبراهين التي عجزوا عن دفعها، وتحقق لعلماء الحرمين جهلهم وضلالهم ووجدوهم مسخرة، كحمر مستنفرة، فرت من قسورة ونظروا الى عقائدهم فوجودها مشتملة على كثير من المكفرات فبعد ان اقاموا البرهان عليهم كتبوا عليهم حجة عند قاضي الشرع بمكة تتضمن الحكم بكفرهم[٣٦].

لذلك كان حكام الحجاز من الشرفاء عندما يردون هجوماً وهابيا ويقتلون بعض رجاله ويعلقون رؤوسهم في مداخل مكة على اعتبار أنها رؤوس «خوارج» وهي الصفة التي أطلقها علماء أهل السنة على هؤلاء الوهابية، وأكثروا من الأستشهاد بالأحاديث للتدليل على أنها تشملهم وتخصهم، وسنذكر بعضاً من أدلتهم.

توالت الردود الفكرية لتعرض مفهوم التوحيد لدى أهل السنة، والرد على المفهوم الجديد الذي يقول به الشيخ محمد بن عبدالوهاب، الذي أخذ بعضاً منه من شيخه إبن تيمية، وكانت أولى الردود القوية ما كتبه أخو الشيخ سليمان بن عبد الوهاب. وقوة هذا الرد تكمن أساسا في أن الشيخ سليمان كان حنبلياً مثل أخيه، كلاهما ينطلق من موروث الحنابلة الفكري وله معرفة واسعة بكتب إبن تيمية وإبن القيم الجوزية كذلك. لذلك جاء الرد قوياً وصريحا في أن الوهابية قد أساؤوا فهم تراث إبن تيمية، بل إنهم تقولوا عليه وأولوا كلامه بما يخدم أغراضهم ويدعم أهواءهم. وان كلام الشيخ إبن تيمية وتلميذه إبن القيم لا يمكن ركوبه للوصول الى ما وصل إليه الوهابيون من تكفير عامة المسلمين وحربهم واباحة دمائهم وأموالهم وذراريهم.

---

(٣٦) نفسه ، ص١١ .

□ الشيخ سليمان يرد على أخيه محمد بن عبد الواهب :

كان أول إعتراض قدمه الشيخ سليمان على أخيه هو عدم إعترافه باجتهاده وأنه لم يحقق شروط الإجتهاد وإنما كان مدعياً ومخالفاً لما عليه سيرة المذهب الحنبلي. وما قرره إبن القيم في أعلام الموقعين من أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ من الكتاب والسنة مالم يجتمع فيه شروط الإجتهاد ومن جميع العلوم». وبعد ان يعرض الشيخ سليمان شروط الإجتهاد وما إتفق عليه العلماء قاطبة في هذا الباب. يقول: «لو ذهبنا نحكي من حكى الأجماع لطال وفي هذا كفاية للمسترشد وإنما ذكرت هذه المقدمة لتكون قاعدة يرجع إليها فيما نذكره فإن اليوم ابتلى الناس بمن ينتسب الى الكتاب والسنة ويستنبط من علومهما ولا يبالي من خالفه، وإذا طلبت منه أن يعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه ومن خالفه فهو عنده كافر. هذا وهو لم يكن فيه خصلة واحدة من خصال أهل الأجتهاد ولا والله عُشر واحدة، ومع هذا فراج كلامه على كثير من الجهال[٣٧].

وإذن فالشيخ لم يكن مجتهداً حتى يتسنى له الإستنباط أو تُحمل آراؤه على محمل الإجتهاد، وأنما إلتف حوله بعض الجهال من البدو الذين لم يكونوا يعلمون شيئاً. لذلك لما ناظر علماء الحرمين تلامذة الشيخ الوهابي أفحموهم وحكموا عليهم بالضلال وحبسوهم.

أما بخصوص تكفير عامة المسلمين وأهل نجد بالخصوص لأنهم ارتدوا الى الشرك وعبدوا القبور والأولياء والملائكة والجن فإن الشيخ سليمان وهو نجدي كذلك ويعرف ظروف البلد وعقائد أهلها لا يرى ان ما يقوم به الناس هناك من طلب الشفاعة واحترام القبور والحج إليها شركاً، أو ردة عن الإسلام. كما يفند إدعاء أخيه وأتباعه من أن أهل نجد قد نبذوا أصول التوحيد ومبادىء الإسلام.

(٣٧) الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية ، سليمان بن عبد الوهاب النجدي ، ص٧.

يقول: إنكم الآن تكفرون من شهد أن لا إله إلا الله وحده وأن محمداً عبده ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج البيت مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله ملتزماً لجميع شعائر الإسلام، وتجعلونهم كفاراً وبلادهم بلاد حرب فنحن نسألكم مَن إمامكم في ذلك وممن أخذتم هذا المذهب عنه؟![38].

من أين لكم أن المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إذا دعا غائبا أو ميتاً أو نذر له أو ذبح لغير الله أو تمسح بقبر أواخذ من ترابه ان هذا هو الشرك الأكبر الذي من فعله حبط عمله وحل ماله ودمه.. فإن قلتم فهمنا ذلك من الكتاب والسنة، قلنا لا عبرة بمفهومكم ولا يجوز لكم ولا لمسلم الأخذ بمفهومكم فإن الأمة مجمعة كما تقدم أن الإستنباط مرتبة أهل الإجتهاد المطلق. ومع هذا لو اجتمعت شروط الإجتهاد في رجل لم يجب على أحد الأخذ بقوله دون نظر. قال الشيخ تقي الدين: من أوجب تقليد الإمام بعينه دون نظر إنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل[39].

ثم يعرض لآراء أهل العلم وعلماء الإسلام ومن بينهم إبن تيمية وإبن قيم الجوزية من أنهم لم يقولوا بأن من فعل مثل هذه الأعمال كافر حلال الدم والمال أو مرتد، وقد كانت هذه الأعمال بمرأى ومسمع علماء الإسلام كافة ولا يخلو قطر إسلامي منها ومع ذلك فلم يُعلم أنهم أجروا على أصحابها أحكام غير المسلمين من المرتدين والكفار وهذا مسطر في التواريخ المعتمدة.

□ مكة والمدينة ليستا بلاد حرب :

كما يشير الشخ سليمان الى أن الوهابيين إعتبروا أرض الحرمين الشريفين بلاد حرب وأهلها مشركين وكفاراً وهذا يتنافي مع ما جاء في الأحاديث

---

(٣٨) نفسه ، ص٩.

(٣٩) نفسه ، ص١٠.

الصحيحة من أن الحرمين ستظل بلاداً إسلامية ولن تُعبد فيها الأصنام أبداً. كما لن تطأها جيوش الدجال آخر الزمان لأن العناية الإلهية تحفظها. أما ما يتشبث به الوهابيون وهو ذريعتهم لتكفير المسلمين، كالنذر لأهل القبور والذبح لغير الله وسؤال غير الله فإن الشيخ سليمان يرد على ذلك من كلام إبن تيمية، الذي يعتبر النذر لأهل القبور نذر معصية لا يجوز الوفاء به ولم يقل ان فاعله كافر أو مرتد. كما ذكر إبن القيم هذا النذر في فصل الشرك الأصغر من المدارج. وأما الذبح لغير الله فقد ذكروه في المحرمات وليس في المكفرات. إلا إذا كان للأصنام كعبادة صريحة مثل ما يفعله عباد الكواكب والأقمار.

□ محمد بن عبد الوهاب لم يفهم كلام ابن تيمية :

والشيخ إبن تيمية وصف من يقوم بذلك من المسلمين بالجهال ولم يصفهم بالكفر أو الإرتداد. أما سؤال غير الله فقد فصل الشيخ إبن تيمية فيه وفرعه ولم يعتبر ذلك شركاً إلا من سأل من غير الله ما هو خاص به سبحانه مثل الغفران وإدخال الجنة والتصرف في نواميس الكون. أما التبرك والتمسح بالقبور فإن من أهل العلم من عده في المكروهات ومنهم من قال بحرمته، ولم يقل أحد منهم ان من فعل ذلك كان مشركاً أو كافراً. ويسترسل الشيخ سليمان في رده على استنباطات أخيه محمد متهما إياه بعدم فهم كلام إبن تيمية وأنه كان خاطئاً عندما تأول كلام الشيخ وفهمه بخلاف ما أراده خصوصاً ما ذكر في «الإقناع» من أن إبن تيمية حكم بكفر من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم.

يقول الشيخ سليمان: «لكن البلاء من عدم فهم كلام أهل العلم، لو تأملتم العبارة تأملاً تاماً لعرفتم أنكم تأولتم العبارة على غير تأويلها ولكن هذا من العجب تتركون كلامه الواضح وتذهبون الى عبارة مجملة تستنبطون منها

ضد كلام أهل العلم وتزعمون ان كلامكم ومفهومكم إجماع. هل سبقكم الى مفهومكم من هذه العبارة أحد؟ ياسبحان الله ما تخشون الله...»[٤٠].

وهذا إتهام واضح وصريح بأن الوهابية قد حرفوا بعض كلام الشيخ إبن تيمية وحملوه أكثر مما قصد به الشيخ. كل ذلك في سبيل تكفير المسلمين والحكم عليهم بالردة لإستحلال دمائهم وأموالهم ورفع راية الجهاد وحمل السيف لتأسيس ملك جديد مستقل عن الإمبراطورية الإسلامية العثمانية.

وخلاصة الكلام كما يقول الشيخ سليمان: «وأما هذه الأمور التي تكفرون بها المسلمين فلم يسبقكم الى التكفير بها أحد من أهل العلم ولا عدوها في المكفرات بل ذكرها من ذكرها منهم في أنواع الشرك وبعضهم ذكرها في المحرمات ولم يقل أحد منهم أن من فعله فهو كافر مرتد[٤١] طبعاً هذا السجال داخل المذهب الحنبلي وإلا فإن علماء باقي المذاهب الإسلامية الأخرى لم يذكروا ذلك في أنواع الشرك او المحرمات وإنما لهم رؤية أخرى لهذه الأعمال والأفعال ولهم استدلالهم الخاص على ذلك سندرجه عند تفصيل هذه المواضيع في فصل «السلفية وأهل السنة».

وإذا كان الشيخ سليمان قد رفض أي إدعاء بالإجتهاد أوقدرة على الإستنباط لدى أخيه الشيخ محمد، وأنه كان قاصراً في إستيعاب كلام الشيخ إبن تيمية وتلميذه إبن قيم الجوزية، واورد لذلك نصوصاً واقوالاً لهذين الشيخين تفهم بخلاف ما ذهب إليه زعيم الوهابية، فإن الشيخ سليمان ومعه كافة علماء المذاهب السنية آنذاك سيصفون الحركة الوهابية بأنها حركة «خارجيّة» ليس بالمفهوم السياسي أي بمعنى شق عصا الطاعة والخروج على الحكومة الشرعية فقط. ولكنها خارجية بالمعنى العقائدي. تماثل حركة الخوارج التي ظهرت بعد حادثة التحكيم بين الإمام علي ومعاوية بن أبي

---

(٤٠) نفسه ، ص١٤.

(٤١) نفسه ، ص١٦.

سفيان. والتي حاربها الإمام علي وقتل جل أفرادها في معركة النهروان.

وعند الرجوع الى الأحاديث النبوية التي تنبأت بخروج هذه الطائفة ووصفت حال أصحابها وأباحت سفك دمائهم لأنهم من أخطر الفتن التي سيعرفها تاريخ الإسلام. أقول انطلاقاً من تلك المواصفات التي جاءت في الأحاديث المدونة، توصل علماء أهل السنة الى أن الحركة الوهابية إنما هي حركة خارجية شكلاً ومضموناً، وأن الأحاديث النبوية تكاد تنطق صارخة بما عليه هذه الحركة ـ الفتنة ـ وأصحابها. خصوصاً إستباحتهم دماء المسلمين وتأويلهم الآيات التي نزلت في المشركين وجعلها تنطبق على المسلمين، ومروقهم من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

يقول إبن عباس لا تكونوا كالخوارج تؤولوا آيات القرآن في أهل القبلة وإنما نزلت في أهل الكتاب والمشركين فجهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وانتهكوا الأموال وشهدوا على أهل السنة بالضلالة فعليكم بالعلم بما نزل في القرآن. وكان إبن عمر يرى الخوارج شرار الخلق، قال انهم عمدوا في آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المسلمين[٤٢]. وجاء في الحديث إنهم كلاب أهل النار، وانهم يقتلون أهل الإسلام. وقال(ص) يقرأون القرآن يحسبونه لهم وهو عليهم.

□ أوجه الشبه بين الوهابية والخوارج :

وقد ذكر السيد محسن الأمين مجمل نقاط الإلتقاء بينهم وبين الخوارج كما ذكرها غيره من العلماء متفرقة في كتبهم التي ردوا بها على هذه الفرقة نذكر منها:

١ ـــ إن الخوارج قد رفعوا في حربهم للمسلمين شعار (لا حكم إلا لله) وهي كلمة حق يراد بها باطل. كذلك الوهابيون شعارهم لا دعاء الا لله لا

(٤٢) نفسه ، ص٨.

شفاعة الا لله، لا توسل الا بالله، لا إستغاثة إلا بالله ونحو ذلك، كلمات حق يراد بها باطل. كلمات حق لأن المدعو والمتوسل به حقيقة لدفع الضر وجلب النفع والمغيث الحقيقي وما لك أمر الشفاعة هو الله. يراد بها باطل وهو منع تعظيم من عظمه الله بدعائه والتوسل به ليشفع عند الله تعالى ويدعوه لنا، وعدم جواز التشفع والإستغاثه والتوسل بمن جعله الله شافعاً مغيثاً وجعل له الوسيلة.

٢ ــ إن الخوارج كانوا متصلبين في الدين مواظبين على الصلوات وتلاوة القرآن والبعد عن المحرمات المذكورة في القرآن. كذلك الوهابيون متصلبون في الدين يؤدون الصلاة لأوقاتها ويواضبون على العبادة ويطلبون الحق وان أخطأوه ويتورعون عن المحرمات حتى بلغ من تورعهم أنهم توقفوا في إستعمال التلغراف.

٣ ــ إن الخوارج قد كفروا من عاداهم من المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم وسبوا ذراريهم وقالوا إن دار الإسلام تصير بظهور الكبائر فيها دار كفر؟. كذلك الوهابيون حكموا بشرك من خالفهم معتقدهم من المسلمين واستحلوا ماله ودمه وبعضهم استحل سبي الذرية.. وجعلوا دار الإسلام دار حرب ودارهم دار إيمان تجب الهجرة إليها. وحكموا بقتال تارك الفرض وإن لم يكن مستحلاً كما في الرسالة الثانية من رسائل الهدية السنية ونقلوه فيها أيضاً عن إبن تيمية.

٤ ــ إستند الخوارج في شبهتهم على ظواهر بعض الآيات والأدلة التي زعموها دالة على أن كل كبيرة كفر. كذلك الوهابيون استندوا في هذه الشبهة الى ظواهر بعض الآيات والأدلة التي توهموها دالة على أن الإستغاثة والإستعانة بغير الله شرك وعلى غير ذلك من معتقداتهم كما يظهر من إستشهاداتهم بالآيات التي لا دلالة فيها على معتقداتهم.

٥ ــ إن الخوارج لا يبالون بالموت ويقدمون على الحرب لأنهم رائحون

بزعمهم الى الجنة حتى إن بعضهم طعن برمح فمشى والرمح فيه الى طاعنه فقتله وهو يتلو ﴿وعجلت إليك ربي لترضى﴾. كذلك الوهابيون يظهرون بسالة واقداما ولا يبالون بالموت لأنهم بزعمهم رائحون الى الجنة ويقولون في حروبهم مع المسلمين.

هبت هبوب الجنة وين انت يا باغيها

٦ ـــ كان الخوارج على جانب من الجمود والغباوة فبينما هم يتورعون عن أكل ثمرة ملقاة في الطريق ويرون قتل الخنزير الشارد في البر فساداً في الأرض، تراهم يرون قتل الصحابي الصائم وفي عنقه القرآن طاعة لله تعالى ويكفرون جميع المسلمين ويرون كل كبيرة كفراً. ولقيهم قوم مسلمون فسألوهم من أنتم وكان فيهم رجل ذو فطنة فقال اتركوا الجواب لي قال نحن قوم من أهل الكتاب إستجرنا بكم حتى نسمع كلام الله ثم تبلغونا مأمننا فقالوا لا تغفروا نعمة نبيكم فأسمعوهم شيئاً من القرآن وأرسلوا معهم من يوصلهم الى مأمنهم.

كذلك وقع للوهابيين مثل ذلك عندما دخلوا الطائف وقتلوا أهلها وسلبوهم أموالهم وقتلوا مفتي الشافعية الشيخ الزواوي وأبناء الشيبي. إلا الشيخ عبدالقادر الشيبي سادن الكعبة، فقد نجا من الإخوان بحيلة طريفة. فقد أجهش بالبكاء عندما وقع في أيديهم فلما سلوا السيف عند رأسه سأله بعضهم لماذا تبكي أيها الكافر؟ فأجاب الشيخ: أبكي والله من شدة الفرح أبكي ياإخوان لأني قضيت حياتي كلها في الشرك والكفر، ولم يشأ الله إلا أن أموت مؤمناً موحداً. الله أكبر، لا إله إلا الله.. وقد أثر هذا الكلام في الاخوان فبكوا لبكاء الشيخ، ثم طفقوا يقبلونه ويهنئونه بالإسلام[٤٣].

والوهابيون الذين يحرمون الترحيم والتذكير لأنه بزعمهم بدعة ويتوقفون في التلغراف لعدم وقوفهم على نص فيه، ويحرمون التدخين ويعاقبون عليه، تراهم

---

(٤٣) نجد وملحقاتها ، ص٣٢٣.

يكفرون المسلمين ويشركونهم ويستحلون أموالهم ودماءهم ويقاتلونهم بالبنادق والمدافع لطلبهم الشفاعة ممن جعل الله له الشفاعة وتوسلهم بمن له عند الله الوسيلة.

٧ ـــ كما ان الخوارج قال بمقالتهم جماعة ممن ينسب الى العلم لظهورهم بمظهر مقاومة الضلال ورفع الظلم الذي لاشك أنه كان موجوداً. كذلك الوهابيون قال بمقالتهم جماعة ممن تُنسب الى العلم لظهورهم بمظهر رفع البدع التي لا شك في وجودها في الجملة. لكن بعض أهل العلم غير رأيه فيهم بعد ما تبين له حقيقة أمرهم، مثل الأمير اليمني الصنعاني الذي نظم قصيدة في الإشادة بالحركة الوهابية لما وصله خبرها بأنها تحارب البدع يقول في مطلعها:

سلام على نجد ومن حل في نجد   وإن كان تسليمي على البعد لا يُجدي

لكنه لما تحقق من أعمال وافعال هذه الحركة. أنشد قائلاً:

رجعت عن القول الذي قلت في النجدي   فقد صح لي عنه خلاف الذي عندي

أما الشيخ محمد عبده المصلح والزعيم السلفي فإنه قد عرف حقيقة حالهم منذ البداية لذلك كان موقفه منهم واضحاً رغم ما سمعه عنهم من حربهم للبدع والضلالات، لأنه كان يعلم تورطهم في البداوة والجمود وبعدهم عن الإجتهاد والمدنية.

٨ ـــ إن الخوارج يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية كما وصفهم الرسول(ص)، وفي رواية يتعمقون في الدين حتى يخرجون منه كما يخرج السهم من الرمية، كذلك الوهابيون أشار إليهم رسول الله(ص) فيما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده باسناده عن إبن عمر: أن النبي(ص) قال: اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا قالوا وفي نجدنا قال: اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا قالوا وفي نجدنا قال هنالك الزلازل والفتن منها، أو قال بها يطلع قرن الشيطان.

وأخرج البخاري في كتاب الفتن عن إبن عمر ذكر النبي(ص) اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا قالوا يارسول الله في نجدنا فأظنه قال في الثالثة هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان. وأخرجه الترمذي في المناقب. وقد أخرج أصحاب المسانيد عدة أحاديث بهذا المعنى وفيها إشارة واضحة على ظهور الفتن من بلاد نجد. وبالفعل فقد خرج منها مسيلمة الكذاب وكذا القرامطة الذين أخذوا الحجر الأسود من الكعبة. وقد أطال الشيخ سليمان في رده على أخيه محمد بن عبدالوهاب «زعيم الوهابية» في الإستشهاد بهذه الأحاديث وغيرها مبينا أنها تنطبق على حركتهم وتصف فتنتهم. وإذا كان أغلب رؤساء الخوارج من بني تميم كشبث بن ربعي ومسعر بن فدكي، وذي الخويصرة فإن الشيخ إبن عبدالوهاب يلتقي معهم في هذا الأصل فقد أجمع المؤرخون على انه كان من قبيلة تميم.

٩ ـــ إن الخوارج قد عمدوا الى الآيات الواردة في الكفار والمشركين فجعلوها في المسلمين والمؤمنين، كذلك الوهابيون جعلوا الآيات النازلة في المشركين منطبقة على المسلمين.

١٠ ـــ كان الخوراج سيماهم التحليق أو التسبيد. وعن «النهاية» في حديث الخوارج، التسبيد فيهم فاش هو الحلق واستئصال الشعر. وقد جاء في أخبار كثيرة ذكر قوم سيماهم التحليق كقوله(ص) إن أناساً من أمتي سيماهم التحليق يقرأون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. يخرج ناس من قبل المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم الى قوسه. قيل ما سيماهم قال سيماهم التحليق. رواهما البخاري. وعن علي، في آخر الزمان قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية سيماهم التحليق (رواه النسائي) في الخصائص. وفي خلاصة الكلام، في قوله(ص) سيماهم التحليق تنصيص على هؤلاء الخارجين

من المشرق التابعين لمحمد بن عبدالوهاب لأنهم كانوا يأمرون من إتبعهم أن يحلق رأسه، لا يتركونه يفارق مجلسهم إذا تبعهم حتى يحلقوا رأسه قال: ولم يقع من أحد قط من الفرق التي مضت أن يلتزموا مثل ذلك. فالحديث صريح فيهم.

يقول السيد أحمد بن زيني دحلان: «كان السيد عبدالرحمان الأهدل مفتي زبيد يقول لا حاجة الى التأليف في الرد على الوهابية بل يكفي في الرد عليهم قوله صلى الله عليه وسلم «سيماهم التحليق» فإنه لم يفعله أحد من المبتدعة غيرهم. واتفق مرة ان إمرأة أقامت الحجة على إبن عبدالوهاب لما أكرهوها على إتباعهم ففعلت، أمرها إبن عبدالوهاب أن تحلق رأسها فقالت له حيث إنك تأمر المرأة بحلق رأسها ينبغي لك أن تأمر الرجل بحلق لحيته لأن شعر رأس المرأة زينتها وشعر لحية الرجل زينته فلم يجد لها جواباً[٤٤].

١١ ــ كان الخوارج يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان كما أخبر النبي(ص) عنهم كما جاء في السيرة الحلبية. والوهابيون يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ولم ينقل عنهم أنهم حاربوا أحداً سوى المسلمين أو قتلوا أحداً من أهل الأوثان. وفي قتلهم أهل الطائف أولا وآخراً بلا ذنب وقتلهم أهل كربلاء (سنة ١٢١٦هـ)، وغزوهم بلاد الإسلام المجاورة لهم كالعراق والحجاز واليمن وشرقي الأردن وغيرها وقتلهم من ظفروا به من المسلمين وقتلهم ألف رجل من اليمانيين جاؤوا لحج بيت الله الحرام (سنة ١٣٤٠هـ)، وذبحهم لهم ذبح الأغنام. وعدم غزوهم لأهل الأوثان وقد امتلأت الأرض كفراً والحاداً، وتوجيه بأسهم وحربهم كله الى المسلمين خاصة بعدما ضعفت قواهم واستعمرت بلادهم وممالكهم وصار الإسلام غريباً في وطنه.

١٢ ــ كان الخوارج كلما قطع منهم قرن نجم قرن كما أخبر عنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وكذلك الوهابيون كلما قطع منهم قرن نجم قرن

---

(٤٤) فتنة الوهابية ، م س ، ص١٩.

فقد حاربهم محمد علي باشا واستأصل شأفتهم ووصل ولده إبراهيم باشا الى قاعدة بلادهم الدرعية وأخربها، ثم نجم قرن لهم بعد ذلك وقطع ثم نجم وقطع مراراً[٤٥].

□ الوهابية فرقة مبتدعة :

وإذا كان الشيخ سليمان قد إتهم أخاه وأتباعه بتحريف كلام الشيخ إبن تيمية وعدم فهمه، فإنه سيستحضر نصوصاً صريحة من كلام إبن تيمية وإبن قيم الجوزية في ان الوهابية فرقة مبتدعة، لأنها اتخذت تكفير المسلمين شعاراً لها وجعلت دارهم دار حرب. يقول الشيخ إبن تيمية: ومن البدع المنكرة تكفير الطائفة وغيرها من طوائف المسلمين وإستحلال دمائهم وأموالهم وهذا عظيم لوجهين.

أحدهما: إن تلك الطائفة الأخرى قد لا يكون فيها من البدعة أعظم مما في الطائفة المكفرة لها بل قد تكون بدعة الطائفة المكفرة لها أعظم من بدعة الطائفة المكّفرة. وقد تكون نحوها وقد تكون دونها وهذا حال عامة أهل البدع والأهواء الذين يكفرون بعضهم بعضاً وهؤلاء من الذين قال الله فيهم ﴿ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾.

الثاني: أنه لو فرض ان إحدى الطائفتين مختصة بالبدعة والأخرى موافقة للسنة لم يكن لهذه السنة أن تكفر كل من قال قولاً أخطأ فيه فإن الله تعالى قال: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾[٤٦].

والشيخ إبن تيمية عندما تكلم عن المعتزلة والجهمية ووصفهم بالتعطيل الذي هو شر من الشرك عنده يقول: فالإمام أحمد ترحم عليهم واستغفر لهم وقال ما علمت أنهم مكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ولا جاحدون لما

---

(٤٥) كشف الإرتياب ، بتصرف ، من ص١١٤ الى ١٢٦ .

(٤٦) الصواعق الإلهية ، ص ٣٠ .

جاء به، لكنهم تأولوا فاخطأوا وقلدوا من قال ذلك(٤٧).

□ إنهم يخالفون معتمد المذهب الحنبلي :

وعليه فالإمام أحمد بن حنبل لم يكن يرى كفر أهل البدع ولو وصل بهم ذلك الى التعطيل في نظره. وهذا هو معتمد المذهب الحنبلي. قال في مختصر الروضة: الصحيح أن من كان من أهل الشهادتين فإنه لا يكفر ببدعة على الإطلاق ما استند فيها الى تأويل يلتبس به الأمر على مثله وهو الذي رجحه شيخنا أبو العباس إبن تيمية(٤٨).

ويسترسل الشيخ سليمان في رده على إجتهادات أخيه وأتباعه وبيان مخالفتهم لما عليه المذهب الحنبلي برمته، وما جاء عن الشيخين إبن تيمية وإبن القيم. وذلك بعرض كلام هذين الأخيرين وبسطه ومناقشته ومقارنته مع ما يقول به الوهابية، ليصل آخر المطاف الى أن «حقيقة الأمر أنكم ما قلدتم أهل العلم ولا عباراتهم وإنما عمدتكم مفهومكم وإستنباطكم الذي تزعمون انه الحق من أنكره أنكر الضروريات. وأما استدلالاتكم بمشتبه العبارات فتلبيس. ولكن المقصود انما نطلب منكم ان تبينوا لنا وللناس كلام أئمة أهل العلم بموافقة مذهبكم هذا وتنقلون كلامهم إزاحة للشبهة وان لم يكن عندكم إلا القذف والشتم والرمي بالفرية والكفر فالله المستعان، لآخر هذه الأمة أسوة بأولها الذين أنزل الله عليهم، لم يسلموا من ذلك(٤٩).

لقد كانت الردود كثيرة وعنيفة وإنما اقتصرنا على رد الشيخ سليمان بن عبدالوهاب لأنه حنبلي المذهب كأخيه زعيم الوهابية، وأعرف بحال نجد وأخبار أهلها. وإلا فإن علماء المذاهب الإسلامية قد هرعوا للتأليف والرد على

---

(٤٧) نفسه ، ص٣٦.

(٤٨) نفسه ، ص٤٧.

(٤٩) نفسه ، ص٤٦.

الوهابية، وتوالت الردود لتنجم عن كم هائل جداً سيطلع القارىء على بعضه بعد قليل. ليعرف ان قوة الحركة الوهابية إنما كانت تتمثل في السيف وحركة الهجوم والقتل والنهب المنظم الذي كان ينطلق من الدرعية ليجوب أنحاء الجزيرة العربية وأطرافها في غفلة من السلطة العثمانية التي يصفها مفتي الشافعية بأنها كانت في تلك السنين في إرتباك كثير وشدة قتال مع النصارى وفي اختلاف في خلع السلاطين وقتلهم(٥٠).

ومع ذلك فقد توالت الأخبار على عاصمة الدولة الإسلامية ـ الإستانة ـ تصف هجومات البدو من الوهابية وإشاعتهم الرعب والفساد في الجزيرة وكثرة الخسائر في الأرواح والأموال التي ذهبت ضحية قتلهم وسلبهم. كل ذلك جعل السلطة السياسية في الإستانة تتحين الفرصة لتصفية الحساب مع عصابات البدو. وفعلاً سيتم لها ذلك وستجتمع الجيوش الإسلامية من تركيا ومصر والعراق وشمال أفريقيا، وسينطلق الغزو المضاد من مصر لإستئصال هذه الحركة الخارجية، حيث ستصل هذه الجيوش بعد حروب طويلة ومتفرقة الى الدرعية عاصمة الوهابية وقاعدة انطلاقهم الديني والعسكري، لتخربها وتقتل وتأسر أمراء هذه الدعوة. وبذلك تشتت شملهم وانحصرت دعوتهم الى حين.

❊ ❊ ❊

(٥٠) فتنة الوهابية ، ص ١٣ .

العالم الإسلامي في مواجهة الدعوة الوهابية «السلفية»

□ الهزيمة العسكريـة:

كانت الأخبار عن غزوات الوهابية وتوسع سيطرتهم داخل الجزيرة العربية وما أحدثوه من قلاقل وسفك للدماء ونهب للأموال. تصل الى عاصمة الدولة الاسلامية في الإستانة من طرف ولاتها في الشام وبغداد ومصر. وكذا أشراف الحجاز وولاة الحرمين الذين تضرروا كثيراً من توسع الوهابيين الذين سيسيطرون أخيراً على مكة والمدينة وباقي مناطق الحجاز.

كما ان منع الوهابين باقي المناطق الإسلامية من الحج، وفرض ضرائب جديدة مقابل السماح بدخول مكة، كل ذلك، بالإضافة الى حجم الخسائر التي تكبدتها المدن والقرى التي دخلها الوهابيون فاتحين، أو ناهبين مثل مدينة كربلاء التي سرقت أموال الضريح بها وكانت فوق العد والحصر. وكذا مسروقات الحجرة النبوية، وما تعرضت له الآثار الإسلامية بشكل عام من هدم وتخريب.

كل ذلك جعل الحكومة في الإستانة تتأهب وتستعد للقيام بحملة كبيرة لإستئصال هذه الفتنة المدمرة التي بلغ شررها الحرمين الشريفين. ولأن الخليفة في الإستانة كان يعتبر نفسه حامي الحرمين الشريفين، والمسؤول عن الدفاع عنهما وصيانتهما. لذلك كان من الضروري استعادتهما الى حظيرة الدولة العلية.

□ الحملة العسكرية الأولى :

كلفت الحكومة التركية والي مصر محمد علي بالتجهيز للقيام بحملة عسكرية داخل الجزيرة العربية للقضاء على الحركة الوهابية واستعادت الحرمين الشريفين. وبعد إكتمال التجهيز انطلقت الحملة من مصر بقيادة طوسون بن محمد علي، الذي وجد صعوبات جمة في اختراقه أواسط الجزيرة، بل إستطاع الجيش الوهابي أن يهزمه في إحدى المعارك هزيمة منكرة. والسبب يعود كما يقول بعض المؤرخين الى عدم تفهم طوسون بادىء الأمر الطبيعة الجغرافية للمناطق التي نزل بها وحارب فيها بالإضافة الى عدم إهتمامه بالعلاقات مع شيوخ القبائل وجماعات البدو الذين إصطدم بهم في طريقه.

لكن مع تفهمه لهذه المشاكل وتصحيحه للأوضاع عسكريا وعلى الساحة القبلية أستطاع أن يتوغل بعيداً عن الساحل حيث تم الإنزال أول مرة. فاستلم المدينة المنورة من يد الوهابيين بعد قصف عنيف. في الوقت الذي إنسحب الجيش الوهابي من مكة المكرمة وتوالت الإنسحابات وهروب أمراء الوهابية من المناطق التي احتلوها، كعثمان المضايفي الذي فر من الطائف. ولم تمضى أيام كثيرة حتى إستلم الجيش المصري غالب مناطق الحجاز. لأن القبائل والقرى كانت تتعاون معهم وذلك لكراهيتها الجيش الوهابي. وإنهزم الوهابيون الى نجد حيث نظموا عدة غارات على الحجاز لكنها لم تكن مجدية. وعندما توفي الأمير سعود بن عبدالعزيز الوهابي كانت مناطق الحجاز وعمان والبحرين وجزءاً من أراضي تهامة قد خرجت من سيطرتهم. ورغم أن الأمير الجديد للدرعية عبدالله بن سعود قد أبدى حزماً وشجاعة لمواصلة المقاومة ضد الجيش المصري للإحتفاظ بما بقي، إلا أن الخرق كان قد اتسع على الراقع وذلك بسبب القلاقل التي دبت في القرى والقبائل التي كانت تحت سلطة آبائه. حيث إلتجأ الكثير منهم الى طلب النجدة والدخول في طاعة الفاتحين الجدد.

□ الأمير الوهابي يستسلم :

ولما كثر الضغط على الوهابية واشتد عليهم الحصار من كل جانب استسلم الأمير عبدالله إبن سعود للصلح مع طوسون بن محمد على أن لا يتدخل الجيش المصري في نجد وأن يصبح الأمير الوهابي من ضمن رعايا السلطان العثماني. وعلى إثر ذلك إنسحب الجيش المصري دون أن يخترق قلب نجد أو يقضي على الوجود الوهابي بصفة نهائية.

□ الحملة الثانية :

وصلت أنباء عن خرق الوهابيين لشروط الإتفاقية وتحركهم لإستعادة بعض المواقع، فجهز لهم محمد علي جيشاً آخر بقيادة إبنه إبراهيم باشا وكانت الوجهة هذه المرة دخول نجد والسيطرة عليها، لذلك كانت التعزيزات التي وصلت أرض المعركة قوية ومتتالية لأن الجيش الوهابي أبدى بسالة ومقاومة كبيرة. لكن ذلك لم يمنع من سقوط الواحات والمدن داخل نجد في أيدي الجيش المصري الواحدة تلو الأخرى، إما عنوة وإما استسلاماً. وبما أن الحرب كانت سجالا في بعض المناطق وأن الظروف المناخية لم تكن في صالح الجيش المصري فإن الخسائر في صفوفه كانت مهمة رغم الإنتصارات التي كان يحققها، لذلك كان تعاملهم قاسياً جداً مع الوهابيين عندما ينتصرون عليهم.

□ الجيش المصري يدمر الدرعية :

وصل الجيش المصري مشارف الدرعية وحاصرها ووقعت بينه وبين الوهابية حروب شرسة دفاعاً عن هذه القاعدة التي انطلقت منها الحركة الوهابية بادىء الأمر، إلا أن وضع المقاومة الوهابية كان الى التدهور يوماً بعد يوم. جعل الأمير الوهابي عبدالله يطلب المفاوضات ومن ثم الاستسلام

للجيش المصري بعد ستة أشهر من المعارك الطاحنة.

وقد أقام إبراهيم باشا في الدرعية سبعة أشهر ثم أمر بتدميرها فأصبحت أثراً بعد عين[٥١]. وكتب إبراهيم باشا الى القاهرة والإستانة بأن الوهابيين خسروا (١٤ ألف من القتلى) و (٦ آلاف من الأسرى ومن بين الغنائم ٦٠ مدفعاً)[٥٢].

وإذا أضفنا ما خسروه في الهجمة الأولى على يد طوسون في مناطق متفرقة في الحجاز فإن خسائر الوهابيين كانت فادحة حقاً ويكفي أن (٤ آلاف) أذن اقتطعت من الوهابيين وأرسلت الى القاهرة وأعدت لإرسالها الى الإستانة[٥٣]. كما قتل قرابة العشرين من عائلة آل سعود وغيرهم من عائلة الشيخ محمد بن عبدالوهاب أو آل الشيخ كما كان يطلق عليهم.

أخذ الجيش معه كثير من الأسرى الوهابية وعلى رأسهم الأمير عبدالله بن سعود الذي أُرسل الى الإستانة حيث عُرض على السلطان هو ومن معه. يقول السيد أحمد بن زيني دحلان: ولما وصل عبدالله بن سعود الى دار السلطنة في شهر ربيع الأول طافوا به البلد ليراه الناس ثم قتلوه عند باب همايون وقتلوا أتباعه أيضاً في نواح متفرقة [٥٤].

---

(٥١) آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، جبران شامية، ص٦٩، نقلاً عن بحوث في الملل والنحل ج٤، ص٣٧٩.

(٥٢) تاريخ العربية السعودية، ص١٨٦.

(٥٣) نفسه، ص١٨٣. واكب هذا الغزو المضاد للقضاء على الوهابية عمليات نهب وقتل واسعة النطاق قام بها الجيش الغازي لدرجة ان النساء أسرن وبعن سبايا كما يدعي المؤرخ الجبرتي، والمهم ان الحركة الوهابية كانت فتنة كبيرة حلت بنجد والحجاز وأطراف الجزيرة العربية عند قيامها وأثناء القضاء عليها. ولا يمكن التكهن بالحجم الحقيقي للخسائر في الأرواح والأموال التي مني بها الناس في ذلك القرن ناهيك على خراب التراث الإسلامي وتدمير المعالم والآثار التاريخية لنبي الإسلام والصحابة ومن تلاهم من قرون. واذا اضفنا الى ذلك ما أحرق من كتب في الطائف تكون الكارثة مفجعة ومأساوية تذكر بهجوم التتار على بغداد وتخريبها.

(٥٤) فتنة الوهابية، ص١٨. مثل عثمان المضايفي القائد العسكري الوهابي الذي أرسل =

وقبل قتله قدم بعض ما سرقه الجيش الوهابي من الحجرة النبوية من مصاحف ومجوهرات، لأن الباقي كان قد وزع على البدو. الذين باعوا أسلابهم من هذه المجوهرات وما نهب من ضريح الإمام الحسين في الأسواق الهندية. ولا بد لنا أن نشير بمناسبة ذكر ضريح الإمام حسين أن الأمير الوهابي الذي هجم على الضريح وخربه وسرق محتوياته قد لقي حتفه مباشرة بعد ذلك في الدرعية وهو يؤدي الصلاة، حيث طعنه رجل قيل أنه من أهل كربلاء قتل الوهابيون عائلته أثناء هجومهم (٥٥).

وبذلك يكون قد لقي جزاءه العادل، وقد سجل لنا التاريخ بكثير من العبرة كيف أن قاتلي الإمام الحسين بن علي قد قتلوا بعده شر قتلة ولم يَعْدُ البلاء أحداً منهم بل حصدهم غضب المنتقم الجبار سبحانه وتعالى واحداً بعد آخر. وفيما فعله الوهابية في كربلاء والمدينتين المقدستين مكة والمدينة عبرة لمن إعتبر، فقد حل بهم الجزاء العادل لان الله سبحانه يمهل ولا يهمل، وقد رجعت الدرعية الى عهدها الأول بل الى أسوء منه لأنها دمرت عن آخرها حتى نبت العشب في بيوتها الخربة. هذه المدينة التي كانت توزع فيها أموال المسلمين المسلوبة والمنهوبة، ومنها تنطلق جيوش البغي لتقتل الرجال وتسبي

= الى الإستانة فقطع رأسه. وهكذا كان مصير أغلب قادتهم وأمرائهم على الأقاليم التي سيطروا عليها.

(٥٥) يقدم محمد جلال كشك مؤرخ آل سعود تحليلاً غريباً لغزو الوهابية مدينة كربلاء ونهبها: يقول: «إنها كانت خطوة محتومة لابد من وقوعها بموجب أهداف الحركة وطموحها لتحرير العالم الإسلامي كله. وفقاً لإبن سندي مبتدئة بجيرانها العرب». ونحن نتساءل: تحرير العالم الإسلامي من ماذا؟ وهل يكون هذا التحرير الوهمي على فرض صحته الهجوم المباغت على المدن ونهبها وقتل رجالها ونسائها وأطفالها، ثم تجميع كل ما تقع عليه اليد من أموال والهروب بها الى نجد لاقتسامها دون أن تترك هذه الغزوة أدنى صدى ديني أو تحريري؟ والغريب في هؤلاء الكتاب المرتزقة أنهم يدعون أشياء ويخترعون أهدافاً لا يعرفها أصحاب الشأن. وهذا مؤرخ الوهابية ابن بشر لم يذكر اية إشارة قد تدعم قول هذا المؤلف. والحقيقة أنك إذا لم تستح من الكذب والتزوير فاكتب وقل ماشئت!!

النساء والأطفال وتشيع الفساد والضمار داخل الجزيرة العربية وخارجها.

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: وطغى إبراهيم باشا وبقي في البلاد، وأكثر فيها الفساد، وصادر أموال آل سعود وآل محمد بن عبدالوهاب. وأجلى الكثير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم من الديار ونفى الكثير منهم الى مصر. وكان هذا جزاءاً وفاقا لما فعلوه من قبل بأمة محمد(ص) من المظالم والمآثم، وما ارتكبوه من الخيانة لله وكتابه، وللنبي وسنته، وهكذا كل ظالم لا بد أن يبتلي بأظلم وأغشم[٥٦].

لكن الجزاء العادل الذي منيت به هذه الحركة وأتباعها لم يكن ليعوض الخسائر المأساوية في التراث الإسلامي حيث هدمت مساجد أثرية وأضرحة ومعالم كانت تضفي على تاريخ الإسلام نوعاً من الواقعية والأصالة، فقد خسر المسلمون في أنحاء العالم جزءاً كبيراً من تراثهم لا يمكن لليد البشرية أن تعوضه أبداً أبداً.

□ بقية السيف :

لقد كان المسلمون الأوائل كلما قطعوا قرنا للخوارج نجم قرن آخر، وإذا كانت بقية السيف تجد طريقها سريعاً نحو النمو والتكاثر. فإن قرناً آخر سينجم لهذه الحركة خصوصاً على المستوى السياسي. حيث رجع بعض المشردين من عائلة آل سعود للمطالبة بملك أجدادهم. أما الحركة الدينية الوهابية فإنها ظلت كامنة تنتظر الربيع كأوراق الشجر لتبعث من جديد وعلى نطاق واسع جداً.

وإذا كانت الدولة السعودية الثانية قد أصابها التحلل والإندثار بعد مدة، فإن هذه الأسرة كانت على موعد مع القدر فجر هذا القرن، حيث تجددت

---

(٥٦) هذه هي الوهابية ،ص ١٢٩ ، نقلاً عن بحوث في الملل والنحل للسبحاني ، ج ٤ص٣٨٠.

المطالبة بملك الآباء والأجداد من طرف فرع من فروعها، فكان أن خدمته الظروف السياسية العالمية وكذا وضع الجزيرة العربية. حيث أجهز على تركة الرجل المريض ـ الأمبراطورية العثمانية ـ والى غير رجعة، وأحاط الأستعمار الغربي بمجمل التركة وبدأت ليالي مظلمة من الدسائس والمؤمرات لتأسيس عدة دويلات أو ملكيات مستقلة، بدل الجسم الكبير الذي أصابه التصدع والإنحلال.

فظهرت للوجود دولة آل سعود من جديد لتبسط نفوذها على نجد والحجاز ومناطق شاسعة من أرض الجزيرة العربية. ومعها نجم قرن الحركة الوهابية الدينية من جديد والتي إستفادت بدورها من جزء من الثروات الهائلة التي أكتشفت في هذا البلد ـ وبالخصوص النفط أو الذهب الأسود ـ فأعيد نشر أفكارها بقوة في طول الجزيرة وعرضها. ثم صُدِّرت الى العالم الإسلامي، وتلقفتها أيادي وعقول أبناء الصحوة الإسلامية، ليس باعتبارها بعض إجتهادات الشيخ إبن تيمية وتلامذته من أبناء المذهب الحنبلي، ولكنها الحقيقة الإسلامية الوحيدة. حقيقة ما كان عليه الرسول والصحابة والتابعون وأئمة السلف، وليس بعد الحقيقة سوى الضلال والإنحراف والكفر.

وإذا كان اللقاء الذي جمع بين الشيخ محمد بن عبدالوهاب والأمير محمد بن سعود في الدرعية والبيعة التي ربطتهما، قد نجم عنه حركة ودولة وصفنا بعض أحوالها وذكرنا يوميات من زمانها وما قدمته للمسلمين داخل الجزيرة العربية وخارجها وما آل إليه أمرها. فإن اللقاء الثاني الحالي والقوي، والذي جمع بين المؤسسة الدينية الوهابية والمؤسسة السياسية للبيت السعودي، قد نجم عنه ظهور دولة ملكية سياسيا، سلفية حشوية دينيا.

دولة يقول عنها الكاتب والصحافي سمير كرم: «في وجودها في هذا الزمان لغز، في إعتمادها على حماية أكبر ديمقراطية في العالم، بينما هي واحدة من أظلم الدكتاتوريات في العالم لغز. في المفارقة بين قداسة موقعها

وفجور عمقها لغز. هي منا، أرضا ولغة وتراثا وتاريخا، ولكنها ضدنا نضالا وسياسة وأهدافا..

وقفت دائما ضد كل ما هو مع التاريخ في تطوراتنا منذ أن قامت كدولة... وحدها بين كل بلدان العالم تملك كل أدوات التقدم، أفضل ما توفره الأموال من تكنولوجيا متقدمة، فيما لا تزال سياسيا وإجتماعيا عند حافة مرحلة المجتمع العبودي(٥٧).

□ الردود الفكرية:

قلنا سابقاً بأن انطلاق هذه الحركة ـ أي الوهابية ـ في نجد وإعلانها الجهاد المقدس وغزوها ديار المسلمين قتلاً ونهبا. كان بخلفية أنهم كفار مشركون، إرتدوا عن الدين الإسلامي الحنيف وعبدوا القبور والأولياء والأنبياء. وقد اتخذت هذه الحركة من مظاهر بناء الأضرحة على قبور الأنبياء والأولياء وزيارة الناس لهم والدعاء عندهم وكذا طلب الشفاعة منهم أو التوسل بهم، دليلاً على صحة إتهامها المسلمين بالشرك والكفر.

ومع بداية توسعها العسكري والى أن سيطرت على الحرمين الشريفين، وما قام به أتباعها من هدم لكل الأضرحة والمزارات والمشاهد التي بناها المسلمون هناك عبر القرون الماضية، أنطلقت موجة من الردود على هذه الفرقة المنحرفة والتي وصفها علماء المذاهب الإسلامية بأنها فرقة خارجية تتخذ تكفير المسلمين مطية لغزو بلادهم وإستباحة أموالهم وأرواحهم وصولا الى تأسيس

(٥٧) مجلة الكفاح العربي، عدد ٨٤٧، ١٩٩٤/١٠/٢٤ زاوية حادة، ص٢١. ليست مهمة هذا الكتاب التعرض للسياسة الداخلية أو الخارجية للملكة العربية السعودية ولا لمحاكمة الوضع السياسي هناك. وإنما البحث يتعلق بطائفة دينية ومذهب فكري في تاريخ الإسلام المعاصر. وتعرضنا لبعض القضايا السياسة الخاصة بهذه الأسرة أنما تبرره الضرورة المنهجية لعلاقة هذه الطائفة بالأسرة المالكة اليوم في شبه الجزيرة العربية التي تستمد شرعيتها السياسية الدينية من هذا المذهب.

ملك عضوض.

□ علماء أهل السنة والإمامية وغيرهم يردون على الوهابية :

انطلقت جل الردود والكتابات من توضيح مفهوم التوحيد لدى أهل السنة والجماعة وقضاياه التفصيلية، وأن ما قرره الأئمة من السلف يختلف عما تدعوا إليه هذه الفرقة. وأن مستندها في أفكارها الشاذة إنما هو تراث إبن تيمية الحراني الحنبلي وآراؤه التي رد عليها علماء عصره وفندوها، وصولاً الى تكفيره وتكفير من إعتقد عقيدته، لأنه كان يدعو الى التجسيم صراحة.

أما بخصوص مسائل الشفاعة والزيارة والتوسل وبناء القبور والعبادة قرب مشاهد الأنبياء والصالحين. فإن مجمل الردود قد أتت بما يخالف مذهب الوهابية وشيخهم الحراني، سواء من السنة الشريفة أو القرآن الكريم أو أقوال السلف الصالح وأئمة المذاهب وسيرة عامة المسلمين.

لقد كانت الردود كثيرة ومتنوعة وعلى رأسها كتابات الحنابلة الذين وقفوا في وجه هذه الحركة، وأعلنوا إنحرافها عن المذهب الحنبلي وتحريفها وعدم فهمها لما قاله الشيخ إبن تيمية وما كتبه في مصنفاته. والشيء الملاحظ في هذه الردود هو تنوع المرجعيات وإختلافها عند من قاموا بالرد على «فتنة الوهابية».

فبالإضافة الى الحنابلة هناك فقهاء الشافعية والمالكية والأحناف، وفيهم مؤرخون وعلماء أصول ومفتون كبار، زد على ذلك مجموعة من رواد التصوف الطرقي الذين حاربتهم، الوهابية «السلفية» ورمتهم بالضلال والإنحراف. فقاموا بإعداد ردود كثيرة ومتنوعة. كما شارك في هذه الحملة علماء وفقهاء الشيعة الإمامية والزيدية، بالإضافة الى مؤلفات فكرية عامة ألفها مفكرون إسلاميون لمعالجة بعض الظواهر الإجتماعية والسلوكية والفكرية التي نجمت عن إنتشار الفكر الوهابي بشكل واسع بين أبناء الصحوة الإسلامية.

سنقوم بعرض بيلوغرافي لبعض ما ألف في الرد على الوهابية «السلفية» ليتبين للقارىء الكريم مدى حجم هذه الردود وكثرتها مع أننا لم نستطع إحصاء كل ما كُتب في هذا الميدان خلال هذا القرن لتعذر ذلك علينا. ولكن ما جمعنا يكفي لإعطاء فكرة لدى الباحث، كما يمكن أن يستنتج منه عدة قضايا.

طبعا كانت من بين الردود كتابات قديمة أعيد طبعها وتحقيقها، وتخص الردود التي ألفت ضد الشيخ إبن تيمية الحنبلي. لأن البعض وجه سهام نقده الى الشيخ الحراني بالذات لأنه مفرخ هذه النحلة ومن وضع بيضها في عش الفكر الإسلامي.

ومنهم من تعرض للمذهب الحنبلي بشكل عام لأنه الرحم الذي يصدر عنه كل من دعا ويدعو لمثل هكذا آراء ومعتقدات. والنتيجة هذا الكم الهائل من الردود والمؤلفات، والتي لا تجد طريقها الى المكتبات والتوزيع إلا نادراً، لسيطرة الفكر الوهابي على أغلب المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي السني بالذات. وكذا السيطرة على دور النشر والهجمة الإعلامية لتشويه سمعة كل من يحاول أن يكتب عن الحقيقة خلافاً للوهابية. وصولاً الى المضايقة الفعلية والتهديد بالتصفية الجسدية.

❊ ❊ ❊

قائمة الكتب التي ألفت في الرد على الوهابية[58] «السلفية»

ـ الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية.

للشيخ سليمان بن عبدالوهاب النجدي وهو أخو الشيخ محمد زعيم الوهابية.

ـ الرد على محمد بن عبدالوهاب.

لمحمد بن سليمان الكردي الشافعي، أستاذ إبن عبد الوهاب وشيخه. ذكر ذلك إبن مرزوق. أنظر خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام (٢/٢٦٠ طبع مصر).

ـ فتنـة الوهابيـة.

للسيد أحمد بن زيني دحلان فقيه ومؤرخ ومفتي الشافعية في مكة.

ـ الدرر السنية في الرد على الوهابيـة.

لنفس المؤلف أحمد بن زيني دحلان [مطبوع].

ـ الصواعق والرعود.

للعلامة عفيف الدين عبدالله بن داود الحنبلي. قال العلامة علوي بن أحمد الحداد: كتبت عليه تقاريض أئمة علماء البصرة وبغداد وحلب والأحساء

(٥٨) أنظر مجلة تراثنا، نشرة فصلية، تصدرها مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، العدد ٤ السنة ٤، شوال ١٤٠٩ هـ معجم ما ألفه علماء الإسلام للرد على خرافات الدعوة الوهابية، السيد عبد الله محمد علي. أنظر كذلك بحوث في الملل والنحل للسبحاني (ج٤)، فقد ذكر كثيراً من هذه المؤلفات كما أن عدد كبيراً من هذه الكتب والعناوين هي من مصادر هذا الكتاب وفي حوزة المؤلف.

وغيرهم. تأييداً له وثناء عليه.

ثم قال: لو وقفت عليه قبل هذا ما ألفت كتابي هذا. ولخصه محمد بن بشير قاضي رأس الخيمة بعجمان.

ـ تهكم المقلدين بمن إدعى تجديد الدين :

للعلامة المحقق محمد بن عبدالرحمان إبن عفالق الحنبلي، وقد ترصد فيه لكل مسألة من المسائل التي ابتدعها ورد عليها بأبلغ رد، وقد ضمن كتابه هذا ملحقا يتناول ما يتعلق بالعلوم الشرعية والأدبية. كما أرفقه بأسئلة كان قد بعثها الى محمد بن عبدالوهاب، منها شطر وافر حول علم البيان تتعلق بسورة «والعاديات» والمح في ذيلها الى عجزه عن الجواب عن أدناها فضلاً عن أجلها.

ـ فصل الخطاب في رد ضلالات إبن عبدالوهاب.

أحمد بن علي البصري الشهير بالقباني. أنظر أيضاح المكنون٢/١٩٠ والتوسل بالنبي لإبن مرزوق (ص٢٥٠).

ـ رسالة في الرد على الوهابية.

للعلامة عبدالوهاب بن أحمد بركات الشافعي الأحمدي المكي.

ـ الصارم الهندي في عنق النجدي.

للشيخ عطاء المكي. ذكره إبن مرزوق في «التوسل بالنبي».

ـ رسالة في الرد على الوهابية.

للشيخ عبدالله بن عيس المويسي.

ـ رسالة في الرد على الوهابية.

للشيخ أحمد المصري الأحسائي.

ـ السيوف الصقال في أعناق من أنكر على الأولياء بعد الإنتقال.

لأحد علماء بيت المقدس. ذكره إبن مرزوق في «التوسل بالنبي»(ص٢٥٠).

ـ السيف الباتر لعنق المنكر على الأكابر.

للسيد علوي بن أحمد الحداد، طبع في نحو مائة ورقة ذكره إبن مرزوق في التوسل بالنبي(ص٢٥٠).

ـ رسالة في الرد على الوهابية.

للشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن عبداللطيف الأحسائي.

ـ تحريض الأغبياء على الإستغاثة بالأنبياء والأولياء.

للعلامة عبدالله بن إبراهيم ميرغني الساكن بالطائف.

ـ الإنتصار للأولياء الأبرار.

للعلامة طاهر سنبل الحنفي، حكى السيد علوي المذكور آنفا أنه رآه عند مؤلفه بالطائف.

ـ مجموعة أجوبة وردود نظماً ونثراً.

لأكابر علماء المذاهب الأربعة، لا يحصون. من أهل الحرمين الشريفين والأحساء والبصرة وبغداد وحلب واليمن وغيرها. حكى عنها السيد علوي أيضاً، وذكر أنه أتى بها إليه رجل من آل إبن عبدالرزاق الحنابلة. الذين يقطنون الزارة والبحرين.

ـ قصيدة في الرد على الوهابية.

للسيد المنعمي رد بها على إبن عبدالوهاب إثر قتله جماعة كانوا قد عفوا شعر رؤوسهم، مطلعها:

أفي حلق رأس بالسكاكين الحدّ   حديث صحيح بالأسانيد عن جدي

ـ مصباح الأنام وجلاء الظلام في رد شبه البدعي النجدي التي أضل بها العوام.

للعلامة السيد علوي بن الحداد المتقدم، طبع سنة ١٣٢٥هـ بالمطبعة العامرية، وما سبق حكايته عن مؤلفه منقول عنه.

ـ كتاب لشيخ الإسلام بتونس.

المحقق إسماعيل التميمي المالكي المتوفي سنة ١٢٤٨هـ وهو في غاية التحقيق والإحكام. نقض فيه رسالة لإبن عبد الوهاب طبعت في تونس.

ـ رسالة مسجعة محكمة.

للمحقق الشيخ صالح الكواش التونسي، طبعت ضمن كتاب «سعادة الدارين في الرد على الفرقتين» نقض فيها مؤلفها رسالة لإبن عبدالوهاب.

ـ قصيدة.

للشيخ غلبون الليبي، رد بها على قصيدة الصنعاني التي مدح بها عبدالوهاب، تقع في أربعين بيتاً، مطلعها:

سلامي على أهل الإصابة والرشد وليس على نجد ومن حل في نجد

وهي مذكورة في سعادة الدارين.

ـ قصيدة.

للسيد مصطفى المصري البولاقي يرد فيها أيضاً على قصيدة الصنعاني التي ذكرت في المصدر السابق، تقع في مائة وستة وعشرون بيتاً مطلعها:

بحمد وليّ الحمد، لا الذم أستبدي وبالحق لا بالخلق، للحق استهدي

ـ قصيدة.

للسيد الطباطبائي البصري، يرد فيها على قصيدة الصنعاني، وقد كان لهذه القصائد الأثر الأكبر في إرجاع الصنعاني عن غيه الذي وقع فيه، حتى بلغ به الأمر الى أنشاء قصيدة يعلن فيها توبته مما بدر منه مستهلها:

رجعت عن القول الذي قلت في نجد فقد صح لي عنه خلاف الذي عندي

ـ سعادة الدارين في الرد على الفرقتين الوهابية والظاهرية.

للعلامة الشيخ إبراهيم السمنودي المنصوري المتوفي في العقد الثاني من هذا القرن، وقد طبع في مجلدين.

ـ شواهد الحق في التوسل بسيد الخلق.

للشيخ يوسف النبهاني. طبع في مجلد.

ـ الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق.

للعلامة الشيخ جميل صدقي الزهاوي. طبع في مصر سنة ١٣٢٣هـ . يقول مؤلفه: «قاتل الله الوهابية انها تتحرى في كل أمر تكفير المسلمين مما يثبت ان همها الأكبر هو تكفيرهم لا غير، فتراها تكفر من يتوسل الى الله

تعالى بنبيه(ص) ويستعين باستشفاعه الى الله تعالى على قضاء حوائجه، وهي لا تخجل اذ تستعين بدولـة الكفر على قضاء حاجتها التي هـي قهر المسلمين وحربهم وشـق عصاهـم».

ـ إظهار العقوق ممن منع التوسل بالنبي والولي الصدوق.

للشيخ المشرفي المالكي الجزائري.

ـ رسالة في جواز التوسل.

للشيخ المهدي الوازناني مفتي فاس رد فيها على محمد بن عبدالوهاب في منعه ذلك.

غوث العباد في بيان الرشاد.

للشيخ مصطفى الحمامي المصري. مطبوع.

ـ جلال الحق في كشف أحوال أشرار الخلق.

للشيخ إبراهيم الحلبي القادري الإسكندري، وهو كتاب جيد طبع في الإسكندرية سنة ١٣٥٥هـ .

ـ البراهين الساطعة.

للعلامة الشيخ سلامة العزامي المتوفي سنة ١٣٧٩هـ .

ـ النقول الشرعية في الرد على الوهابية.

للشيخ حسن الشطي الحنبلي الدمشقي، مطبوع.

ـ رسالة في حكم التوسل بالأنبياء والأولياء.

للشيخ محمد حسنين مخلوف. مطبوعة.

ـ المقالات الوفية في الرد على الوهابية.

للشيخ حسن قزبك، مطبوعة.

ـ الأقوال المرضية في الرد على الوهابية.

للعلامة الفقيه عطاء الله بن إبراهيم الكسم الحنفي، ذكرها الأستاذ عمر رضا كحالة أنظر معجم المؤلفين، ٢٩٣/١٠.

ـ الردود على محمد بن عبدالوهاب.

للشيخ المحدث صالح الغلابي المغربي. قال السيد علوي حداد: كتاب ضخم فيه رسالات وجوابات كلها من العلماء أهل المذاهب الأربعة: الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، يردون على محمد بن عبدالوهاب بالعجب. أنظر «التوسل بالنبي» لإبن مرزوق.

ـ الرد على الوهابية.

للشيخ محمد صالح الزمزي الشافعي إمام مقام إبراهيم بمكة المكرمة.

ـ إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان.

لأحمد بن أبي الضياف. رد فيه على الوهابية. انظر الوهابية لبكري (ص١٦).

ـ الأجوبة النعمانية عن الأسئلة الهندية.

في العقائد لنعمان بن محمود خيرالدين الشهرباني الألوسي، البغدادي الحنفي المتوفي سنة ١٣١٧هـ إيضاح المكنون ١/٢٩.

ـ الإسلام والإيمان.

في الردود على الوهابية طبعه حسين حلمي باسلامبول١٩٨٦م.

ـ الأصول الأربعة في ترديد الوهابية.

لمحمد حسن جان صاحب السرهندي مجددي المتوفي سنة ١٣٤٦هـ طبع في آمرتسر بالهند وأعاد طبعه حسين حلمي باسلامبول، ١٩٧٦م.

ـ لأوراق البغدادية في الجوابات النجدية.

للشيخ إبراهيم الراوي البغدادي الرفاعي رئيس الطريقة الرفاعية ببغداد. طبع في مطبعة النجاح ببغداد ١٣٤٥هـ وأعاد طبعه حسين حلمي في تركيا ١٩٧٦م.

ـ البراءة من الإختلاف في الرد على أهل الشقاق والنفاق والرد على الفرقة الوهابية الضالة.

للشيخ علي زين العابدين السوداني طبع بالسودان.

ـ البصائر لمنكري التوسل بأهل المقابر.

محمد الله الداجوي الحنفي الهندي. طبعه حسين حلمي، اسلامبول، ١٩٧٥م.

ـ البيت المعمور في عمارة القبور.

للسيد علي تقي بن أبي الحسن النقوي اللكهنوي المتوفي سنة ١٤٠٨هـ طبع بالهند ١٣٤٥ .

ـ تاريخ الوهابية.

لأيوب صبري باشا الرومي، صاحب مرآة الحرمين. أنظر إيضاح المكنون ١/ ٢١٨ .

ـ تجريد سيف الجهاد لمدعي الإجتهاد.

للشيخ عبدالله بن عبداللطيف الشافعي وهو أستاذ إبن عبدالوهاب وشيخه وقد رد عليه في حياته. ذكره إبن مرزوق في «التوسل بالنبي» ص٢٤٩ .

ـ لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب.

لمؤلف مجهول حققه أحمد مصطفى أبو حاكمة، بيروت، ١٩٦٧م.

ـ خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام.

احمد زيني دحلان المطبعة الخيرية القاهرة ١٨٨٨ . ذكر فيه بعض من أخبار الوهابية وحروبهم.

ـ التحفة الوهبية في الرد على الوهابية.

للشيخ داود بن سليمان البغدادي النقشبندي الحنفي، المتوفي سنة ١٢٩٩م. إيضاح المكنون ١/٢٦٣ .

ـ تطهير الفؤاد من دنس الإعتقاد.

للشيخ محمد بخيت المطبعي الحنفي من علماء الأزهر طبع في مصر ١٣١٨م وأعاد طبعه حسين حلمي باسلامبول، ١٤٠٥م.

ـ التوسل.

للمفتي محمد القادري الهزاروي. طبعه حسين حلمي باسلامبول، ١٩٨٤م.

- التوسل بالموتى.
طبع بتركية ١٩٧٦م.
- التوسل بالنبي والصالحين وجهلة الوهابيين.
لأبي حامد بن مرزوق الدمشقي الشامي. طبعه حسين حلمي سنتي ١٩٧٥ و ١٩٨٤ .
- التوضيح عن توحيد الأخلاق في جواب أهل العراق.
على محمد بن عبدالوهاب. لعبد الله أفندي الراوي مخطوط في جامعة كمبردج / لندن باسم «رد الوهابية» ومنه نسخة في مكتبة الأوقاف / بغداد.
- الحقائق الإسلامية في الرد على المزاعم الوهابية بأدلة الكتاب والسنة.
لمالك إبن الشيخ محمود مدير مدرسة العرفان بمدينة كوتبالي بجمهورية مالي الإفريقية طبع عام ١٤٠٣هـ وأعاد طبعه حسين حلمي في إسلامبول سنة ١٤٠٥هـ.
- الحق المبين في الرد على الوهابيين.
للشيخ أحمد سعيد السرهندي النقشبندي. هدية العارفين ١/١٩٠ ومعجم المؤلفين ١/٢٣٢ .
- الحقيقة الإسلامية في الرد على الوهابية.
عبدالغني بن صالح حمادة أدلب سنة ١٨٩٤م.
- الرد على الوهابية.
لإبراهيم بن عبدالقادر الطرابلسي الرياحي التونسي المالكي من مدينة تستور المتوفي سنة ١٢٦٦هـ. انظر معجم المؤلفين ١/٤٩ .
- الرد على الوهابية.
لعبد المحسن الأشيقري الحنبلي مفتي مدينة الزبير بالبصرة. معجم المؤلفين، ٦/ ١٧٢.
- الرد على الوهابية.
لعمر المحجوب مخطوط بدار الكتب الوطنية / تونس برقم ٢٥١٣

ومصورتها في معهد المخطوطات العربية / القاهرة.

ـ الرد على الوهابية في تحريم بناء القبور.

للشيخ عبد الكريم الزين المتوفي سنة ١٣٦٠هـ.

ـ رد وهابي.

للمفتي محمود بن المفتي عبدالقيوم. طبع حسين حلمي / اسلامبول، ١٤٠١هـ.

ـ رسالة في الرد على الوهابية.

للشيخ قاسم أبي الفضل المحجوب المالكي. ضمن «اتحاف أهل الزمان» لأحمد بن أبي الضياف ذكره البكري ص ١٦ .

ـ رسالة في حكم التوسل بالأنبياء والأولياء.

للشيخ محمد حسين مخلوف. مطبوعة.

ـ الرسالة الردية على الطائفة الوهابية.

لمحمد عطاء الله المعروف بعطا الرومي من كوزل حصار. معجم المؤلفين، ١٠/ ٢٩٤.

ـ رسالة في تحقيق الرابطة.

للشيخ خالد البغدادي. طبع ضمن «علماء المسلمين والوهابيون» في إسلامبول ١٩٧٣م.

ـ الرسالة المرضية في الرد على من ينكر الزيارة المحمدية.

لمحمد السعدي المالكي نسخة فريدة. كذا ذكره كوركيس عواد في «ذخائر التراث العربي في مكتبة جستر بيتي - دبلن» مجلة المورد العدد الأول السنة الأولى رقم ٥ من المجموعة ٣٤٠٦ تاريخها ٨٣٠ .

ـ سبيل النجاة عن بدعة أهل الزيغ والضلالة.

للقاضي عبدالرحمان قوتي طبع بتركية / إسلامبول، ١٩٨٥م.

ـ سيف الجبار المسلول على أعداء الأبرار.

لشاه فضل رسول القادري. طبع بالهند وأعاد طبعه حسين حلمي في

أسلامبول١٩٧٩م.

ـ السيف الهندي في إماتة طريقة النجدي.

للشيخ عبدالله بن عيسى الصنعاني اليمني. هدية العارفين ٤٨٨/١ . إيضاح المكنون ٣٧/٢.

ـ شواهد الحق في التوسل بسيد الخلق.

للشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني. رئيس محكمة الحقوق في بيروت. طبع مع «علماء المسلمين والوهابيون» في اسلامبول ١٩٧٣م.

ـ صدق الخبر في خوارج القرن الثاني عشر. في اثبات ان الوهابية من الخوارج.

للشريف عبدالله بن حسن باشا بن فضل باشا العلوي الحسيني الحجازي، أمير ظفار. طبع باللاذقية. الذريعة ٢٩/١٥ .

ـ صلح الإخوان في الرد على من قال على المسلمين بالشرك والكفران.

في الرد على الوهابية لتكفيرهم المسلمين. للشيخ داود بن سليمان النقشبندي البغدادي المتوفي سنة ١٢٩٩هـ. هدية العارفين ٣٦٣/١ . إيضاح المكنون ٧٠/٢ .

ـ ضياء الصدور لمنكر التوسل بأهل القبور.

لظاهر شاه ميان الهندي. طبعه حسين حلمي في اسلامبول سنة، ١٤٠٦هـ.

ـ العقائد الصحيحة في ترديد الوهابية النجدية.

للخواجة حافظ محمد حسن خان السرهندي طبع في آمرتسر الهند عام ١٣٦٠هـ، واعاد طبعه حسين حلمي في لإسلامبول ١٣٩٨هـ.

ـ العقائد التسع.

للشيخ أحمد بن عبدالأحد الفاروقي الحنفي النقشبندي. طبع مع «علماء المسلمين والوهابيون» في اسلامبول ١٩٧٣م.

ـ عقد نفيس في رد شبهات الوهابي التعيس.

لإسماعيل أبي الفداء التميمي التونسي الفقيه المؤرخ. معجم المؤلفين ٢/

. ٢٦٣

ـ علماء المسلمين والوهابيون.

جمعه حسين حلمي ايشيق وطبعه في مكتبته باسلامبول سنة ١٩٧٣م.
مجموع من خمس رسائل في الرد على الوهابية وهي:

أ ــ الميزان الكبرى للشيخ عبدالوهاب الشعراني المصري.

ب ــ شواهد الحق للشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني رئيس محكمة الحقوق في بيروت لبنان.

ج ــ العقائد النسفية. للشيخ عمر بن محمد الحنفي.

د ــ من معربات مكتوبات. للشيخ أحمد بن عبدالأحد الفاروقي الحنفي النقشبندي.

هـ ــ رسالة في تحقيق الرابطة للشيخ خالد النقشبندي.

ـ غوث العباد ببيان الرشاد.

للشيخ مصطفى الحمامي المصري، مطبوع.

ـ فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبدالوهاب.

للشيخ سليمان بن عبدالوهاب أخ محمد مؤسس الوهابية. وهذا أول كتاب ألف رداً على الوهابية. إيضاح المكنون ٢/١٩٠، معجم المؤلفين ٤/ ٢٦٩ .

ـ فصل الخطاب في رد ضلالات إبن عبدالوهاب.

لأحمد بن علي البصري الشهير بالقباني إيضاح المكنون، ٢/١٩٠، التوسل بالنبي لإبن مرزوق.

ـ فصل الخطاب في نقض مقالة إبن عبد الوهاب.

للشيخ محمد بن عبدالنبي النيسابوري الإخباري المتوفي سنة ١٢٣٢، إيضاح المكنون ٢/١٩١. الذريعة ٢٢٩/١٦ .

ـ فضل الذاكرين والرد على المنكرين.

لعبد الغني حمادة. طبع في سوريا / إدلب سنة ١٣٩١هـ.
ـ قصيدة في رد الوهابية.
للشيخ عبدالعزيز القرشي العلجي المالكي الأحسائي. عدة ابياتها (٩٥ بيتاً).
ـ لفحات الوجد من فعلات أهل نجد.
في الرد على عقيدة أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب. لمحسن بن عبدالكريم بن إسحاق المتوفي سنة ١٢٦٦هـ مخطوط في جامع الغربية ٣٠ مجاميع و ٤٠ مجاميع مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن: ١٤٢ .
ـ المدارج السّنية في رد الوهابية.
عامر القادري، معلم بدار العلوم القادرية. كراجي باكستان. طبع عام ١٩٧٧ . واعاد طبعه حسين حلمي في اسلامبول سنة ١٩٧٨م.
ـ المسائل المنتخبة.
للقاضي حبيب الحق بن عبد الحق. طبع في تركيا سنة ١٤٠٦هـ.
ـ المقالات الوفية في الرد على الوهابية.
للشيخ حسن قزبك. مطبوع ذكره إبن مرزوق في التوسل بالنبي (ص ٢٥٣).
ـ المنح الإلهية في طمس الضلالة الوهابية.
لإسماعيل التميمي التونسي. مخطوط بدار الكتب الوطنية في تونس رقم ٢٧٨٠ ومصورتها في معهد المخطوطات العربية/القاهرة. ذكره أحمد بن أبي الضياف في «إتحاف أهل الزمان». انظر: «الوهابية» للبكري (ص ٣٩).
ـ المنحة الوهابية في الرد على الوهابية.
للشيخ داود بن سليمان النقشبندي البغدادي المتوفي سنة ١٢٩٩م. طبع في بومباي سنة ١٣٠٥م واعاد طبعه حسين حلمي في اسلامبول سنة ١٩٧٨م معجم المؤلفين العراقيين ٤٣٨/١.
ـ من معربات المكتوبات.

للشيخ أحمد بن عبد الأحد القادري النقشبندي الحنفي طبع مع «علماء المسلمين والوهابيون» في اسلامبول ١٩٧٣م.

ـ المواهب الرحمانية والسهام الأحمدية في نحور الوهابية.

للشيخ أحمد الشيخ داود. معجم المؤلفين العراقيين ٨٤/١ .

ـ الميزان الكبرى.

لعبدالوهاب البصري طبع مع «علماء المسلمين والوهابيون» في إسلامبول ١٩٧٣م.

ـ النقول الشرعية في الرد على الوهابية.

للشيخ مصطفى بن أحمد الشطي الحنبلي الدمشقي. طبع في اسلامبول ١٤٠٦، ذكره البكري (ص٢٣ - ٤٠).

ـ هكذا رأيت الوهابيين.

لعبد الله محمد طبع أول مرة في بيروت دار التحدي وطبع مرة أخرى في طهران في مكتبة السعادة (عام ١٤٠٢).

ـ وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام.

لأبي العباس أحمد بن الخطيب الشهير بإبن قنفذ القسنطيني الجزائري المتوفي سنة ٨١٠هـ.

ـ الوهابية في نظر علماء المسلمين.

لإحسان عبداللطيف البكري. وقد اعتمدنا عليه في هذه القائمة. طبع مكرراً. والطبعة الرابعة نشرتها مكتبة السيد المرعشي، رقم ١٤٠٨هـ.

ـ صلح الإخوان في الرد على من قال على المسلمين بالشرك والكفران.

للشيخ داود بن سليمان البغدادي. هدية العارفين ٧٠/٢ .

ـ يهود لا حنابلة.

للشيخ الظواهري شيخ الأزهر.

ـ ضلالات الوهابية وجهالة المتوهبين.

عيدان الحاج وصيف بن الحاج محمد من علماء الشافعية بالأزهر. ذكر إنه

شرع في تأليفه للرد عليهم.
ـ تحذير أحباب الأولياء من مقاربة دعوة التفرق والجفاء.
عدد في الرد على الوهابية أصدره المعهد التيجاني للمذاكرة بالقرآن والحديث وعلومهما بام درمان - السودان.
ـ صاروخ الغارة.
للشيخ محمد الطاهر يوسف التيجاني المالكي الأشعري مطبوع بالسودان.
ـ السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب اسلامي.
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. دار الفكر - دمشق ١٩٨٨م.
ـ اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية.
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي كذلك.
ـ نقض فتوى الوهابية.
للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء النجفي، (١٢٩٤ - ١٣٧٣هـ) طبع بالمطبعة العلوية / النجف ١٣٤٥هـ. أنظر الذريعة.
ـ الآيات البينات في قمع البدع والضلالات في ذكر المواكب الحسينية وردود على الوهابية والطبيعية والبابية، وما يخص الوهابية باسم «رسالة نقض فتوى الوهابية.
للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء النجفي، (١٢٩٤ - ١٣٧٣هـ).
طبع المطبعة العلوية / النجف ١٣٥٤هـ. أنظر الذريعة.
ـ الآيات الجلية في رد شبهات الوهابية.
للشيخ مرتضى كاشف الغطاء المتوفي سنة ١٩٣١م، معجم المؤلفين العراقيين ٢٩٤/٣ [جزءان].
ـ الأرض والتربة الحسينية.
للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء النجفي.
ـ ازاحة الوسوسة عن تقبيل الأعتاب المقدسة.
للشيخ عبدالله بن محمد حسن المامقاني المتوفي سنة ١٣٥١. المطبعة

المرتضوية / النجف ١٣٤٥هـ، طبع مع كتابه «مخزن اللآلي». الذريعة ١/ ٥٢٨، رقم ٢٥٧٥.

ـ **إزهاق الباطل في رد الوهابية.**

لإمام الحرمين. الميرزا محمد بن عبدالوهاب آل داود الهمداني الكاظمي المتوفي سنة ١٣٠٣ . الذريعة ٦٢/١١ .

ـ **الإسلام السعودي الممسوخ.**

للسيد طالب الخرسان نشر جماعة المدرسين في قم / ١٤٠٩هـ .

ـ **إهداء الحقير معنى حديث الغدير الى أخيه البارع البصير في دفع بعض أوهام الوهابية.**

للسيد مرتضى بن أحمد الخسرو شايعي. طبع في النجف ١٣٥٣ . طبع في النجف ١٣٥٣ . الذريعة ٤٨٢/٢ رقم ١٨٩٤ .

ـ **بحوث مع أهل السنة والسلفية.**

للسيد مهدي الحسيني الروحاني. رد فيه على مقالة لإبراهيم السليمان الجهمان. نشر المكتبة الإسلامية، سنة ١٣٩٩ .

ـ **البراهين الجلية في دفع شبهات الوهابية ودفع تشكيكاتهم.**

للسيد محمد حسن آغامير القزويني الحائري المتوفي سنة ١٣٨٠هـ طبع بالمطبعة العلوية / النجف ١٣٤٦هـ .

وأعاد طبعه مطبعة الآداب / النجف ١٣٨٢هـ، وأعادت طبعه دار الغدير، بيروت ١٣٩٤هـ .

ـ **تجديد كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب.**

للسيد حسن الأمين.

ـ **التحفة الإمامية في دحض حجج الوهابية.**

للسيد محمد حسن الحاج آغامير القزويني الحائري المتوفي سنة ١٣٨٠هـ . الذريعة ١٦٠/٢٦ .

ـ **جوابات الوهابيـين.**

للسيد محمد حسين بن كاظم بن علي بن أحمد الموسوي. الكيشوان النجفي، المتوفي سنة ١٣٥٦هـ . الذريعة ٢١٣/٥ .

ـ جواز إقامة العزاء لسيد الشهداء.

للسيد علي بن دلدار علي النقوي اللكهنوي الهندي المتوفي ١٢٥٩هـ .

ـ جواز العزاء للحسين عليه السلام.

بلغة الأردو للسيد ظفر حسن الأمروهي.

ـ جواز لعن يزيد أشقى بني أمية ردا على بعض الأموية.

للشيخ هادي بن الشيخ عباس آل كاشف الغطاء المتوفي ١٣٦١هـ .

ـ الدر المنيف في زيارة أهل البيت الشريف.

لأحمد بن أحمد المصري ألفه سنة ١٢٦٧هـ . في كتب المكتبة الخديوية / مصر. كشف الظنون. عمود ٤٥٣ . الذريعة ٧٩/٨ .

ـ دعوى الهدى الى الورع في الأفعال والفتوى.

في رد فتاوى الوهابيين بهدم البقاع المحترمة للعلامة الشيخ محمد جواد البلاغي المتوفي سنة ١٣٥٢هـ . طبع في النجف الأشرف في المطبعة الحيدرية سنة ١٣٤٤هـ . ١٩٢٥م. الذريعة ٢٠٧٦/٨ .

ـ دعوة الحق الى أئمة الخلق.

للسيد محمد هادي بن السيد علي البجستاني الحائري المتوفي سنة ١٣٦٨هـ في مجلدين طبع الأول سنة في بغداد في مطبعة النجاح والثاني مخطوطة أعده للطبع سبط المؤلف السيد محمد جواد الحسيني الجلالي رقم. معجم المؤلفين٣٠/٤٢٣، ٤٢٤.

ـ الرد على الوهابية.

للشيخ مهدي جواد البلاغي. المتوفي سنة ١٣٥٢.قال في الذريعة ١٠/ ٢٣٦: «رأيته بخطه في كتبه في النجف الأشرف. وهذا يعني أنه غير مطبوع.

ـ الرد على الوهابية.

للسيد محمد بن محمود الحسيني اللواساني المعروف بالعصار. المتوفي سنة ١٣٥٦ . الذريعة ٢٣٦/١٠ .

ـ الرد على الوهابية.

للشيخ محمد علي الأوردبادي بن أبي القاسم النجفي طبع سنة ١٣٤٥هـ الذريعة ٢٣٦/١٠ .

ـ الرد على الوهابية.

للشيخ مهدي بن محمد علي الأصفهاني ولد١٢٩٨هـ . مطبوع.

ـ الرد على فتاوي الوهابيين.

للسيد حسن الصدر الكاظمي المتوفي سنة ١٣٥٤هـ طبع لأول مرة في بغداد سنة ١٣٤٤هـ وثانياً في لكنهو الهند١٣٥٤هـ بترجمة المؤلف بقلم السيد علي تقي اللكهنوي الهندي. معجم المؤلفين العراقيين ٣٢٠/١ .

ـ رد الفتوى بهدم قبور الأئمة في البقيع.

للشيخ محمد جواد البلاغي المتوفي سنة ١٣٥٢هـ، مطبوع، معجم المؤلفين العراقيين ١٢٤/٣ .

ـ رسالة في هدم المشاهد.

للسيد أبي تراب الخونساري المتوفي سنة ١٣٤٦هـ الذريعة ٢٠١/٢٥.

ـ التبرك.

للشيخ علي الأحمدي الميانجي .

ـ التوحيد والشرك.

للعلامة جعفر السبحاني، مطبوع.

ـ بحوث في الملل والنحل.

للعلامة جعفر السبحاني، خص الجزء الرابع لمعالجة مذهب إبن تيمية في العقائد وكذا تلميذه إبن عبد الوهاب. وهو من أهم ما كتب رداً على الوهابية.

ـ السيف الحيدري في جواز تقبيل ضريح الحسين بن علي(ع).

بالفارسية لولايت علي بن غلام رسول رد فيه على «الصراط المستقيم».

لعبد الحي. الذريعة ٢٨٦/١٢ .

ـ شبهات الوهابيـــة.

لحسن بن أبي المعالي، مطبوع في النجف.

ـ الشيعة والوهابية.

للسيد مهدي إبن السيد صالح القزويني الكاظمي نزيل البصرة المتوفي سنة ١٣٥٨هـ، الذريعة ٢٧٤/١٤ .

ـ شؤون الشيعة والوهابيـة.

للسيد محمد مهدي القزويني الكاظمي المتوفي سنة ١٣٥٨هـ . مطبوع في النجف، معجم المؤلفين العراقيين ٢٥٣/٣ .

ـ صفحة عن آل سعود الوهابيين وآراء علماء السنة في الوهابية.

السيد مرتضى الرضوي طبع بطهران سنة ١٤٠٨هـ .

ـ الصوارم الماضية لرد الفرقة الهاوية وتحقيق الفرقة الناجية في الإمامة.

السيد محمد المهدي بن الحسن القزويني الحلي المتوفي سنة ١٣٠٠هـ ، الذريعة ٩٣/١٥ .

ـ صواعق محرقة في علائم الظهور ورد الوهابية في تخريب البقاع المتبركة.

للشيخ أبي الحسن بن محمد الدولت آبادب المرندي النجفي طبع طهران ١٣٣٤ شمسية [بالفارسية]. الذريعة ٩٤/١٥ .

ـ العقود الدرية. منظومة شعرية في الرد على الوهابية.

من نظم الإمام السيد محسن الأمين العاملي الشامي. طبعت مع كتابه كشف الإرتياب.

ـ غفلة الوهابية عن الحقائق الدينـيـة.

للسيد مهدي القزويني الكاظمي. الذريعة ٥٩/١٦ .

ـ الفصول المهمة في مشروعية زيارة النبي والأئمة.

للشيخ مهدي الساعدي العماري النجفي، الذريعة ٢٤٦/١٦ .

ـ هكذا رأيت الوهابيــين.

عبدالله محمد.

ـ كشف الإرتياب في رد عقائد بن عبدالوهاب.

للسيد محسن الأمين العاملي الشامي المتوفي سنة ١٣٧٢هـ، طبع في صيدا وبيروت، ورتبه إبنه مع مقدمة مفصلة بعنوان «تجديد كشف الإرتياب»، الذريعة ٣٠٢/١٥.

ـ كشف النقاب عن عقائد إبن عبدالوهاب.

للسيد علي نقوي اللكهنوي الهندي، المتوفي سنة ١٤٠٩هـ، طبع المطبعة الحيدرية النجف ١٣٤٦، الذريعة ٦٥/١٨ .

ـ كفر الوهابيـة.

للشيخ محمد علي القمي الكربلائي الحائري، المتوفي سنة ١٣٨١هـ، معجم المؤلفين ٢١٧/٣ .

ـ الكلمات الجامعة حول المظاهر القرآنية.

للميرزا محمد علـي الأردوبـادي النجفي، المتوفي سنة ١٣٨٠هـ، الذريعة ١١٤/١٨، رقم١٦١ .

ـ المشاهد المشرفة والوهابيون.

للشيخ محمد علي السنقري الحائري، المتوفي سنة ١٣٥٤هـ، طبع بالمطبعة العلوية / النجف ١٣٤٥هـ، الذريعة ٣٨/٢١، معجم المؤلفين العراقيين ٣/ ٢١٠.

ـ مع الوهابيين في خططهم وعقائدهم.

للشيخ جعفر السبحاني: ترجمة إبراهيم اركوازي. طبع طهران الإرشاد الإسلامي، سنة ١٩٨٦م.

ـ مكــة.

للدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، نشر مكتب نشر العلم والأدب،

طهران /١٤٠٨هـ .

ـ **المناهج الحائرية في نقض كتاب الهداية السنية.**

للسيد محمد حسن الحاج آغامير الموسوي القزويني الحائري، المتوفي سنة ١٣٨٠هـ .

ـ **منهج الرشاد لمن أراد السداد في الرد على الوهابيـة.**

للشيخ جعفر كاشف الغطاء الكبير، طبع في النجف المطبعة الحيدرية سنة ١٣٤٣هـ.

ـ **منظومة في الرد على الوهابية [في ١٥٠٠ بيت].**

مطلعها:

لاريب أن مكون الأكوان ذو حكمة بشهادة الإتقان

للشيخ عبد الحسين الخيامي العاملي، المتوفي سنة ١٣٧٥هـ، الذريعة ٢/ ١١٠.

ـ **المواسم والمراسم في الإسلام.**

للسيد جعفر مرتضى العاملي، بحث حول مشروعية ومحبوبية إقامة مراسم الإحتفال في الأعياد أو مظاهر الحزن في المآتم.

ـ **الهادي في جواب مغالطات الفرقة الوهابيـة.**

رد على «كشف الشبهات» لمحمد بن عبدالوهاب، للشيخ محمد الفارسي الحائري الدليمي، مطبوع بالمطبعة العلوية – النجف الأشرف ١٣٤٦هـ، الذريعة ٢٣٦/١٠، معجم المؤلفين العراقيين ٢٢٣/٣ .

ـ **الهدية السنية في ابطال مذهب الوهابيـة.**

للسيد محمد حسن الحاج آغامير القزويني الموسوي الحائري، المتوفي سنة ١٣٨٠هـ، الذريعة ٢١٠/١٥ .

ـ **هذه هي الوهابيـة.**

للشيخ محمد جواد مغنية العاملي، المتوفي سنة ١٤٠٠هـ، طبع بيروت، واعيد طبعه في طهران ١٩٨٧م.

ـ الوجيزة في رد الوهابيـة.

لعلي بن علي رضا الخوئي، المتوفي سنة ١٣٥٠هـ، الذريعة ٥١/٢٠ .

ـ الوهابيـة في الميزان.

للشيخ جعفر السبحاني، مطبوع في قم سنة ١٩٨٧م، نشرته جماعة المدرسين/قم.

ـ وهابيان .

لعلي أصغر فقيهى [بالفارسية]، مطبوع في طهران ١٩٧٣م.

ـ وهابيت وريشه هاي آن.

لنورالدين المدرس جهاردهي، [بالفارسية]، طبع في طهران ١٩٨٤م.

ـ وهابيها..

للسيد إبراهيم السيد علوي، [بالفارسية]، طبع في طهران.

ـ نقد وتحليل بيرامون وهابيگري.

الدكتور همايون همتي، منظمة الإعلام الإسلامي، [بالفارسية]، طهران سنة ١٣٦٧هـ .ش.

ـ فلسفة عزاداري.

لغلام حسين بن محمد ولي، مطبوع [بالفارسية].

ـ فرقه وهابي وپاسخ به شبهات آنها.

ترجمة كتاب «البراهين الجلية»، [بالفارسية]، للسيد حسن الحاج آغامير القزويني الحائري، ترجمة الشيخ علي دواني مع مقدمة، طبع بطهران الإرشاد الإسلامي، سنة ١٣٤٧ .

ـ دليل واقعي درجواب وهابي.

للسيد حسين عرب باغي طبع إيران، [بالفارسية]، الذريعة ٢٦٢/٨ .

ـ تحليل نو برعقائد وهابيان.

أي تحليل جديد لعقائد الوهابيين. لمحمد حسن الإبراهيمي، [بالفارسية]، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، قم سنة ١٣١٧ش.

ـ اين است آئينه وهابيت.

للسيد إبراهيم السيد علوي، [بالفارسية]، طبع في طهران.

ـ آئين وهابيت.

للشيخ جعفر السبحاني، باللغة الفارسية، طبع في قم عامي (١٩٨٤ - ١٩٨٥م).

ـ إكمال السنة في نقض منهاج السنة.

للسيد مهدي بن صالح الموسوي القزويني الكاظمي المعروف بالكيشوان، المتوفي سنة ١٣٥٨، الذريعة ١٧٦/١٠ .

ـ إكمال المنة في نقض منهاج السنة.

للشيخ سراج الدين حسن بن عميمي اليماني اللكهنوي الشهير بالشيخ خدا حسين، المتوفي سنة ١٣٥٣م، الذريعة ٢٨٣/٢، رقم ١١٤٨ .

ـ الإنصاف والإنتصاف لأهل الحق من الإسراف في الرد على إبن تيمية الحنبلي الحراني.

تم تأليفه سنة ٧٥٧هـ، توجد نسخة منه في المكتبة الرضوية مشهد، رقم ٥٦٤٣، وأخرى في مكتبة ملي/طهران رقم ٤٤٨٥، وثالثة في مكتبة كلية الحقوق / طهران رقم٢١٣٠.

ـ البراهين الجلية في ضلال إبن تيمية.

للسيد حسن الصدر الكاظمي، المتوفي سنة ١٣٥٤هـ، كتاب ضخم أقام الأدلة فيه على ضلاله بأقواله وأفعاله وبشهادة علماء السنة الأشعرية. وحكمهم عليه بالزيغ. وقد أحصى سيئاته ومخالفاته للإجماع الأمة، وإستطرد لذكر إبن القيم والوهابيين فكشف حالهم وأبان ضلالهم بما لامزيد عليه. تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ٢٠، الذريعة ٧٩/٣ .

ـ خير الحجة في الرد على إبن تيمية في العقائد.

لإحمد بن الحسين بن جبريل شهاب الدين الشافعي، هدية العارفين ١/ ١٠٨.

ـ دفع شبه التشبيه في الرد على جهلة الحنابلة.

لأبي الفرج إبن الجوزي الحنبلي المتوفي سنة ٥٩٧هـ.

ـ دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك الى السيد الجليل الإمام أحمد.

لتقي الدين الإمام أبي بكر الحصني الدمشقي المتوفي سنة ٨٢٩هـ طبع بمطبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي/القاهرة ١٣٥٠هـ وهو رد على إبن تيمية وآرائه الفاسدة في العقائد كالتجسيم، وتعرض لمسألة زيارة القبور بتفصيل.

ـ الدرة المضيئة في الرد على إبن تيمية.

للشيخ علي بن عبدالكافي شيخ الإسلام التقي معاصر إبن تيمية. رد عليه في حياته وبعد وفاته بعدة مصنفات.

ـ الدرة المضيئة في الرد على إبن تيمية.

لمحمد بن علي الشافعي الدمشقي كمال الدين المعروف بإبن الزملكاني. كشف الظنون ٧٤٤/١، هدية العارفين ١٤٦/٢، معجم المؤلفين ٢٢/١١ .

ـ رد على إبن تيمية.

لأحمد بن محمد الشيرازي أبو القاسم كمال الدين. معجم المؤلفين ٢/ ١٥٠ .

ـ الرد على إبن تيمية في الإعتقادات.

لمحمد حميد الدين الحنفي الدمشقي الفرغاني. معجم المؤلفين ٣١٦/٨ .

ـ الرد على إبن تيمية في مسألة الطلاق.

لعيسى بن مسعود المنكلاتي. معجم المؤلفين ٣٣/٨ .

ـ رد على الشيخ إبن تيمية.

للشيخ نجم الدين بن أبي الدر البغدادي. كشف الظنون ١٥٢٧/٢ .

ـ الرد على المشبهة في قوله تعالى ﴿الرحمان على العرش إستوى﴾.

للقاضي بدر الدين إبن جماعة محمد بن إبراهيم الشافعي. المتوفي سنة ٧٣٣هـ كشف الظنون ٨٣٩/٢.

ـ الردود الستة على إبن تيمية في الإمامة.

للسيد عبد الله بن أبي القاسم البلادي البوشهر، مطبوع، الذريعة ١٠/ ٢٣٨.

ـ رسالة في الرد على إبن تيمية في التجسيم والإستواء والجهة.

للشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى الكلابي الحلبي، المتوفي سنة ٧٣٣، شذرات الذهب ١٠٤/٦، طبقات الشافعية ١٨١/٥، معجم المؤلفين ٢/ ٢٠١.

ـ رسالة في الرد على إبن تيمية في الطلاق.

لمحمد بن علي المازني، معجم المؤلفين ٣١/١١ .

ـ رسالة في مسألة الزيارة في الرد على إبن تيمية.

لمحمد بن علي المازني، معجم المؤلفين ٣١/١١ .

ـ السيف الصقيل في رد إبن تيمية وإبن القيم الجوزية.

لتقي الدين السبكي طبع في مصر مع تكملة للمحقق الشيخ محمد زاهد الكوثري.

ـ السيوف المشرفية لقطع أعناق القائلين بالجهة والجسمية.

لعلي بن محمد الميلي الجمالي التونسي المغربي المالكي، هدية العارفين ١/ ٧٧٤، إيضاح المكنون ٣٧/٢ .

ـ شفاء السقام في زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام.

للشيخ أبي الحسن على تقي الدين السبكي الشافعي قاضي القضاة، طعن في إبن تيمية وقال عنه «المبتدع»، كشف الظنون ٨٣٧/١ باسم «رد على إبن تيمية»، هدية العارفين ٧٢١/١.

ـ فرقان القرآن بين جهات الخالق وجهات الأكوان.

للشيخ سلامة العزامي القضاعي الشافعي، رد فيه على القائلين بالتجسيم ومنهم إبن تيمية والوهابية، طبع بمصر باهتمام محمد أمين الكردي، في مقدمة كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي، وأعادت طبعه دار إحياء التراث

العربي، بيروت.

ـ المقالة المرضية في الرد على إبن تيمية.

لقاضي قضاة المالكية تقي الدين بن عبد الله محمد الأقناني.

ـ منهاج الشريعة في الرد على إبن تيمية.

للسيد مهدي بن صالح الموسوي القزويني الكاظمي، المعروف بالكيشوان، المتوفي سنة ١٥٨هـ، طبع في جزئين في النجف ١٣٤٧هـ، الذريعة ١٠/ ١٧٦. معجم المؤلفين ٣/٢٥٤ .

ـ نجم المهتدين برجم المعتدين في رد إبن تيمية.

للفخر إبن المعلم القرشي.

ـ الحقائق الجلية في الرد على إبن تيمية.

للشيخ شهاب الدين أحمد بن جهبل الحلبي، مطبوع، بتحقيق الدكتور الدسوقي حبيشي.

ـ إعتراضات على إبن تيمية.

لأحمد بن إبراهيم السروطي الحنفي، معجم المؤلفين ج١/١٤٠ .

ـ جلاء العينين في محاكمة الأحمدين «أحمد بن تيمية وأحمد بن حجر».

للشيخ نعمان بن محمود الألوسي، إيضاح المكنون ١/٢٦٣، معجم المؤلفين ١٣/١٠٧.

ـ وفاء الوفاء بأحوال دار المصطفى.

العلامة نور الدين السمهودي، المتوفي سنة ٩١١هـ، مطبوع.

ـ الإعتقاد بفناء الجنة والنار في الرد على إبن تيمية وإبن القيم الجوزية القائلين بفناء النار.

لتقي الدين السبكي تحقيق وتعليق طه الدسوقي حبيش.

ـ ضلالات الوهابيين وجهالة المتوهبين.

عيدان الحاج وصيف، من علماء الشافعية بالأزهر الشريف.

ـ الجوهر المنظم في زيارة قبر النبي الأكرم.

أحمد بن حجر الشافعي.
ـ رسالة رد شبهات الوهابـية.
صدر الدين أبو موسى الصدر.
ـ المقالات السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية.
للشيخ عبدالله الهرري المعروف بالحبشي، طبع دار المشاريع، بيروت ١٩٩٤.



❄ ❄ ❄

الوهابية ،السلفية، والدولة السعودية
من الإتفاق الى الإختلاف

□ الإتفـــــاق :

لا يمكن للباحث أن يدرس تاريخ الحركة الوهابية وتطورها «بمعزل عن الدولة السعودية ورجالاتها خصوصاً في الميدان السياسي، والعكس كذلك صحيح. اذ لا يمكن فهم سلوك هذه الأسرة بدون استحضار المذهب الوهابي. فالدولة السعودية لم تكن لتظهر الى الوجود أول مرة لولا الحركة الوهابية، وهذه الأخيرة لم يكن يتسنى لها الإنتشار الذي عرفته قديماً وتعرفه حديثاً دون الدعم والمساندة اللتان تقدمهما هذه الدولة لها.

والنتيجة ان كلا منهما يدعم الآخر، يقويه ويمد في عمره، ولا يمكن لاحدهما الإستغناء عن الآخر لضمان إستمراريته، اللهم إلا إذا تحدثنا عن القوة الذاتية في الأفكار والايديلوجيات والتي تدعم بقاء الحركة الفكرية بعيداً عن بقاء الدول أو فنائها.

لقد إنطلقت كل من الحركة والدولة في مرحلة تأسيس وإنتشار منذ ان التقى محمد بن عبدالوهاب الفقيه الحنبلي بالأمير محمد بن سعود، حيث تولى الأخير قيادة الجيوش للغزو والجهاد وفتح بلدان الكفار والمشركين ثم الرجوع الى الشيخ إبن عبدالوهاب ليضع بين يديه الغنائم. لكن مهمة الشيخ لم تكن منحصرة في إنتظار الغنائم وتقسيمها، ولكنه كان منشغلاً بالتدريس وجلب الطلاب وتلقينهم الفهم الجديد للتوحيد والإسلام بشكل عام، في حركة بحثية وتعليمية على نطاق واسع. وهؤلاء الطلاب والتلاميذ هم من

كان يضمن إنتشار الحركة واتساعها ومعرفة باقي القبائل لما تدعو له.

كما ان هؤلاء الطلبة أو الأتباع الذين أخدوا عقائدهم الجديدة على يد الشيخ إبن عبدالوهاب نفسه كانوا يمثلون الركيزة الاكثر قوة في ضمان السيطرة العسكرية للأسرة الحاكمة على القبائل والبلدان المفتوحة.

فقد كانوا يتوزعون على عدة مناصب أولها منصب إمام مسجد حيث يصلي «الوهابي» بالناس خمس صلوات وكذا إمامة الجمعة. بالإضافة الى وظيفة الوعظ والإرشاد ونشر العلم في المساجد ممى يعطي الحركة مجالا واسعاً للتأثير والإنتشار. ومن ثم الإطمئنان للغزاة والركون إليهم. وإذا أضفنا وظيفة القضاء وجمع الزكاة والتي كانت حكراً على دعاة الوهابية، عرفنا حجم السيطرة الدينة التي كانت بيد هذه الحركة.

وعليه فقد كانت الحركة ممثلة في شخص زعيمها إبن عبدالوهاب تمثل الشريان الحقيقي الذي يغذي بقاء الدولة ويدعم استمراريتها. فهي تمدها بمحاربين أقوياء مسلحين بالإيمان بأن خصومهم كفار ومشركون حلال دمهم ومالهم. وأن ما يقومون به هو عين الجهاد الذي قام به النبي(ص) والصحابة. فهم اذن أمام إحدى الحسنيين إما النصر والغنائم وإما الإستشهاد والجنة. وهذه العقيدة قد رفعت معنويات الجيش بشكل كبير وجعلته يحقق انتصارات كبيرة ويوسع جغرافية الدولة بشكل سريع جداً. كما ان الحركة كانت وكما ذكرنا تعد وتنشيء الإداريين الجدد الذين كانت الدولة في حاجة لهم مثل القضاة وجباة الضرائب.

□ حالة الوفاق التام :

ولما كانت الفتوحات في تصاعد مستمر والمغانم متوفرة وكثيرة خصوصاً مغانم قبر الحسين رضي الله عنه، ومسروقات الحجرة النبوية ومئات الألوف من الأغنام والخيول والإبل التي وصلت الدرعية بعدما انتزعت من أصحابها

في الحجاز أو أطراف الشام والعراق. اقول لما كان الوضع الإقتصادي جيداً للغاية كانت أمور الحركة والدولة تسير في أحسن الظروف. فالقضاة والمؤذنون وأئمة المساجد والدعاة «المطاوعة»، كل يجد ما يكفيه من بيت مال المسلمين وأجورهم جارية بالإضافة الى امتيازات شخصية تخص الشيخ إبن عبدالوهاب وعائلته لأنهم كانوا في الحقيقة يتقاسمون السلطة بطريقة ما مع آل سعود.

فلم يكن الأمير السعودي الحاكم مطلق التصرف في دولته بل كان من الضروري ان يرجع الى رأي وإستشارة الشيخ أو علماء الوهابية بعد ذلك وعلى رأسهم أبناء الشيخ وأحفاده.

وعليه يمكن ان يقال بأن الدولة السعودية الأولى قد سجلت حالة الوفاق التام بين الحركة والدولة وكان كل واحد منهما يدعم الآخر ويقوي جانبه. الدولة بالأموال وما تحققه جيوشها من توسع جغرافي يضمن للوهابية مزيداً من الإنتشار. والحركة تمد الدولة بالموظفين والإدارين والجنود وتمد الجيش بالدعم العقائدي ليستمر في الغزو والنهب والتوسع.

وهكذا إستطاعت الحركة الوهابية الدينية ليس فقط اعطاء الشرعية السياسية للدولة السعودية بل شكلت خيوط تماسكها وقوتها، فلا يمكن بتاتاً الكلام عن دولة سعودية دون حركة وهابية.

وإذا كان العالم الإسلامي قد تدخل أخيراً للقضاء على هذه الدولة بعدما وصل السيل الزبى وسالت الدماء أنهاراً في الحجاز والحرمين الشريفين وأطراف العراق والشام، وتمكن فعلا من تدمير دولتهم وتخريب مقر ملكهم «الدرعية» وتهجير الكثير من أفراد عائلة آل سعود وآل الشيخ. فإن الحركة الوهابية لم تعرف الهزيمة النهائية ولم يتمكن الجيش الإسلامي من اجتثات جذورها في بلاد نجد، وما كان له ان يقدر على ذلك. اذ كانت المهمة منحصرة في القضاء على دولة تثير الفتن والقلاقل بجيوشها البدوية.

أما الوهابية فكانت قد وجدت طريقها الى عقول وقلوب الكثير من شبان نجد وشيوخها وإنتشرت كتب الشيخ إبن عبد الوهاب ورسائله بين الطلبة هناك. ولا نعتقد ان الضربة العسكرية وان كانت قوية قد أثرت على إيمان من كان قد آمن بعقائد التوهب آنذاك. ولم يتَّهم «العقيدة الجديدة» بأنها سبب ما حل بالقرى والمدن من خراب، سوى من لم يكن قد آمن بها وإنما كان خاضعاً لقوة السيف. أما الأتباع المخلصون للعقيدة الجديدة فقد اتهموا أنفسهم وإلتزامهم الديني وأرجعوا الهزيمة الى «الذنوب» التي إكتسبها المجتمع الوهابي آنذاك فاستحق العذاب وخربت بلده وقُضي على دولته.

هذه «الذنوب» التي لم يبين لنا المؤرخ إبن بشر ما هي وما طبيعتها. وان كان سفك دماء المسلمين ونهب أموالهم من كبائر الذنوب، لكن لا أظن ان إبن بشر يقصد ذلك، لأن ذلك في عرفه جهاد في سبيل الله.

لكن الجيش الإسلامي وان لم يقض على الحركة الوهابية فإنه بلا شك إستطاع أن يخرب الجهاز أو الإطار الذي كان يجمع الوهابية. وبعد الهزيمة وتهجير آل الشيخ الى مصر لم يعد هناك من محور يلتف حوله أتباع هذه الحركة التي لم تكن قد تشكلت كمؤسسة دينية واضحة المعالم، كما لم تظهر شخصية فاعلة أو متميزة يمكنها ان تلعب دور المحور الذي يعيد تجميع ما تفرق. وإنما ظلت الوهابية موجودة بشكل عام لدى بعض الطلبة والمشايخ الذين لم يرتدوا عن تعاليمها. بل استمر تلقينها ودراسة بعض كتب الشيخ إبن عبدالوهاب، لكن على نطاق ضيق وبشكل فردي. ولو إستمر الأمر على ذلك لكانت اليوم في حكم المندثر الذي عفا عنه الزمان. لكن قرنا سياسيا سينجم لهذه الحركة من جديد ومعه ستلبس الحركة الوهابية ثوبها الجديد وستنطلق فاتحة غازية.

□ الحركة الوهابية والدولة السعودية الثانية :

مع الدولة السعودية الثانية التي حاول إحياءها تركي إبن أخي عبدالعزيز (١٢٣٩ ـ ١٢٥٠م) لم يكن للوهابية شأن يذكر.

أولاً: لأن الدولة نفسها لم تكن قائمة كما كانت قبل ذلك فلم يستطع أمراء آل سعود الذين رجعوا بعد الهروب الجماعي عند خراب الدرعية ان يعيدوا ممتلكاتهم الجغرافية، وان إستطاعوا السيطرة على الرياض فإنهم لم يجاوزوها إلا قليلا، خصوصاً وان قيادات محلية أخرى كانت قد قويت في غيابهم وعلى حساب هزيمتهم، كما أن الجيش المصري لم يكن قد غادر الساحة بعد وما زالت مصر مهتمة بالحجاز ونجد.

لذلك دخل الأمراء السعوديون في حروب جزئية كثيرة كان هدفها الأول إسترجاع بعض ممتلكاتهم ليس إلا، لكن الحظ لم يسعفهم آخر المطاف حيث خرج آخر أمرائهم عبدالرحمان بن فيصل من نجد[٥٩]. وبعد تنقله من بلد الى بلد استقر به الحال في الكويت حيث استظافه حاكمها إبن الصباح وضل منفيا هناك بضع سنين الى ان كبر إبنه عبدالعزيز الذي سيعيد الكرة مرة أخرى لإسترجاع ملك الآباء والآجداد.

والذي يهمنا نحن هو أن الدولة السعودية الثانية لم يسجل بها أي تحرك وهابي ديني دعوي مثلا، ولم نسمع عن نغمة الجهاد في سبيل الله ولا عن دعم علماء الوهابية لهذه الدولة أو إنضمامهم إليها. فكل وقائع هذه الدولة الثانية منحصرة في هجومات وهجومات مضادة على هذه البلدة أو هذه القرية دون فائدة ترجى في الأخير. لذلك يصعب علينا ان نتكلم عن علاقة ما بين الحركة الوهابية وأسرة آل سعود في هذه الدولة.

---

(٥٩) انتهى وجود دولة السعوديين الثانية رسمياً في أواخر عام ١٨٨٧م ، أنظر فاسيليف ، م. س.

□ الانتصار الجديد :

إستطاع عبدالعزيز بن عبد الرحمن بمساعدة إبن الصباح حاكم الكويت أن يجهز فرقة محاربة دخل بها الى نجد وتسلل منها الى الرياض التي سقطت في يديه بعد قتل أميرها وذلك سنة ١٩٠٢م. وبعد أن بويع له فيها بالإمارة بدأ بتحركات عسكرية لإسترجاع ملك أبائه وأجداده وقد ساعدته الظروف الدولية أيما مساعدة. خصوصاً الدعم البريطاني الغير مباشر عن طريق إبن الصباح.

لأن بريطانيا كانت تريد أن تضعف الإمارات داخل الجزيرة والتي كانت تتعاون مع الأتراك، خصوصاً إمارة حائل. وبذلك إستطاع عبدالعزيز أن يسترد في فترة وجيزة بعض المناطق في نجد، ويحقق إنتصارات أثارت الكثير من المخاوف والقلق لدى الدولة العثمانية التي أرسلت وحدات عسكرية لحربه لكنها فشلت فشلاً ذريعاً آخر المطاف وإنتصر عبدالعزيز. مما ساعد على الإنظمام قبائل جديدة إليه، وبدأ وضعه يتحسن أمام آل الرشيد المدعومين من طرف الدولة العثمانية وكذلك في مواجهة حاكم الحجاز.

لم يكن لدى عبدالعزيز سند متين وواسع بالقدر الكافي في أواسط الجزيرة رغم نجاحاته الأولى. فلم يكن يتمتع بدعم الدعوة الدينية السياسية التي رصت صفوف السكان وجعلتهم يلتفون حول آل سعود في عهد أجداده[٦٠]. أي إن حركة عبدالعزيز هذه من إحتلال الرياض، ومحاولة إستعادة ملك الآباء لم تكن لها أي انطلاقة دينية، إنما هو الملك والصراع من أجله. والى حدود سنة١٩١٢م لم يكن هناك أي صدى ديني أو دعوي في حركة عبدالعزيز العسكرية والسياسية وإنما غدا مثله مثل باقي الأمراء في الجزيرة العربية وبلاد نجد يصارع من أجل السيطرة على أكبر مساحة من تلك المنطقة.

---

(٦٠) فاسيليف، ص٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

□ ظهور حركة الأخوان :

في تلك الأثناء ظهرت في نجد حركة الإخوان، ومن المستبعد ان يكون عبدالعزيز من واضعي فكرة الإخوان أو من مؤسسي هذه الحركة. فإن المؤسسين الروحيين للحركة هم قاضي الرياض عبدالله بن محمد بن عبداللطيف من آل الشيخ وقاضي الأحساء الشيخ عيسى والمدعو عبدالكريم المغربي الذي وصل الى الجزيرة العربية في أواخر القرن التاسع عشر واستقر في منطقة صارت فيما بعد هجرة الأرطاوية[٦١].

كانت بداية ظهور هجر الأرطاوية عندما قررت بعض القبائل الإستقرار قرب وادي يقع في طريق القوافل بين القصيم والكويت. وذلك للإشتغال بالزراعة ودراسة التوحيد. حيث باع قسم من قبيلة مطير بعض ابلهم وخيامهم وإنظم إليهم فخذ من قبيلة حرب. فانطلقوا في بناء البيوت واعلنوا الإستقرار. وبعد مدة من نجاح هذه العملية انتشرت فكرة «الهجر» هذه فظهرت في نجد «هجر» متعددة مثل هجرة في «الغطغط» انشأتها قبيلة عتيبة، وإستمرت القبائل في انشاء هجر خاصة بها حتى بلغ عددهم سنة ١٩٢٣م إثنان وسبعون هجرة.

وفي هذه «الهجر» بدأت حركة دينية نشيطة لبعث عقائد الوهابية. يقول حافظ وهبه: «قرأوا من آية الإخلاص لله ودينه... وآية الإيمان الصحيح التخلص من كل ما يشم منه رائحة الجاهلية، فاخذوا يبيعون إبلهم وأغنا مهم، وينقطعون في الهجر للعبادة وسماع السيرة النبوية، وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم. وتاريخ إنتشار الإسلام في جزيرة العرب. فوجدوا ان حياتهم الأولى تشبه حالة الإسلام في حياته الأخيرة. فعكف أكثرهم على تعلم مبادى القراءة وحفظ شيء من القرآن والحديث[٦٢].

---

(٦١) المرجع السابق ، ص٢٧٠.

(٦٢) حافظ وهبة جزيرة العرب في القرن العشرين.

اختلف المؤرخون في تحديد سنة ظهور هذه الحركة الجديد. فالسعوديون يحاولون التأكيد على أن عبدالعزيز هو الذي أسس حركة الأخوان، وبعض المؤرخين قال إنه أسسها في عام ١٩١١م، وآخرون قالوا سنة ١٩١٢م وقسم ثالث قال سنة ١٩١٣م. والدكتور غسان سلامة يذكر ان الحركة أسست عام ١٩١١م وأشار الى ان عبد العزيز وراءها(٦٣).

كما يذهب محمد المانع مترجم الملك عبدالعزيز الى ذلك حين يقول: «في سنة ١٩١٢م قام باحياء الحركة الدينية التطهيرية التي أنشأها محمد بن الوهاب في القرن الثامن عشر(٦٤). لكن محمد جلال كشك والذي يعتبر من بين المطلعين على أسرار تاريخ آل سعود لا يقول بذلك وإنما يذهب الى ان هذه الحركة.

ظهرت براعمها تلقائيا، كما هو الحال في كل الإرهاصات الكبرى في التاريخ. أما دور الملك عبدالعزيز «فهو الذي أعطاها شكلها ومضمونها، وهو الذي غير بها التاريخ، وأدخلها التاريخ»(٦٥)، ولمعرفة ماذا يقصد كشك بشكلها ومضمونها، يقول جمال زكريا قاسم: «في أواخر عام ١٩١٥م راع إبن سعود تضخم هذه الحركة مما وضعه أمام حلين إما أن يقضي عليها أو يصبح زعيماً لها وبالتالي تتاح له فرصة إستغلال حماسة أتباعها في تدعيم نفوذه في الجزيرة العربية وسواحل الخليج. وقد اختار إبن سعود الأمر الثاني رغم تحذيرات عبدالله بن جلوي حاكم الأحساء، الذي نصحه فيما يقال بالتخلي عن هذه الحركة التي شبهها بنار تلتهم كل شيء أمامها.

وفي عام ١٩١٦م أصدر إبن سعود أمره القاضي بانخراط جميع قبائل نجد في صفوف الحركة الجديدة وان يدفعوا له الزكاة بصفته إمامهم الشرعي(٦٦).

---

(٦٣) السياسة الخارجية السعودية ، ص٤٣ .
(٦٤) توحيد المملكة العربية السعودية ، ط١، ١٤٠٤هـ ، ص٧١.
(٦٥) السعوديون والحل الإسلامي ، ص٥٥٧ .
(٦٦) الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية ، ص٩٠ .

وبالتالي فالملابسات أصبحت واضحة. حركة الاخوان انطلقت بعيدة عن الملك عبدالعزيز الذي كان منشغلاً بتوسيع رقعة ملكه بعدما سيطر على الرياض. ولما دخل الأحساء وهي منطقة غنية وكبيرة أصبح يملك القوة والسيادة التي تجعله يراقب كل حركة داخل نجد أو خارجها، ولم يكن من مصلحته ان يهمل حركة دينية قوية بدأت في الإنتشار وتحمل العقيدة الوهابية، وهو يعرف حق المعرفة ماذا تعني حركة وهابية. اذ لو برز فيها قائد يستطيع تجميع أفرادها حوله فسيعني ذلك بداية الجهاد والفتوحات. لذلك كان عبد العزيز ذكياً عندما حاول التقرب الى شيوخ هذه الحركة وإستمالتهم ومن ثم إحتواء الحركة ككل، التي تحولت الى قوة عسكرية ضاربة سيرجع لها الفضل في ما حققه الملك عبدالعزيز من توسع وإسترجاع لما ضاع من ملك الأجداد، وصولا الى إسترجاع الحجاز والحرمين الشريفين.

في هذه الأثناء يمكن ان نتكلم عن وفاق شبه تام بين الحركة الوهابية الجديدة وبين الدولة السعودية الثالثة. أما الإختلافات التي كانت تقع بينه وبينهم فلم تكن تعدو ملاحظات قاسية على شكل الإمام الجديد ولباسه وبعض تصرفاته أو ليونة إلتزامه بتعاليم الدين وإجتهادات الوهابية. لكن هذه الإعتراضات كانت تشكل ضغطاً نفسياً دائماً للملك ولأفراد أسرته ولظيوفه خصوصاً مبعوثي بريطانيا العظمى والذين كان الوهابيون يجهلون سبب قدومهم وبقائهم في بلاد عبد العزيز.

□ ارهاصات الإختلاف :

كان الخلاف حول هؤلاء الإجانب وعلاقة الملك ببريطانيا من أهم أسباب الخلاف الذي بدأ يظهر بين الملك وشيوخ الوهابية، فهؤلاء لم يكونوا يطيقون بقاء الكفار بين ظهرانيهم ولا يجيزون التعامل معهم. وعندما شارك شكسبير القائد العسكري البريطاني في إحدى حروب الإخوان الجهادية وكان قد

استقدمه عبدالعزيز معه، إمتنع الإخوان عن القتال وكاد الإختلاف أن ينفجر بينه وبينهم. لكن المعركة إنتهت بقتل شكسبير في ظروف غامضة.

المهم إن الإخوان كانوا ساخطين جداً على التعامل مع الإنجليز. والحقيقة انهم لم يكونوا يعلمون شيئاً. كانوا قوة عسكرية بدوية تريد أن تحارب ان تغزوا ان تنهب وتقتل وتغنم الأموال والسلاح ليس إلا. كل ذلك باسم الجهاد وقتال الكفار في العراق والشام واليمن والحجاز. أما إبن سعود فقد كان يعلم الظروف المحيطة به جيداً كان يعرف ان بريطانيا قوة عظمى تراقب الوضع في الجزيرة العربية ككل. وكانت كل يوم تحقق إنتصارات فعلية باقتطاع أطراف تركة الرجل المريض الذي أجهز عليه. وهكذا استطاعت بريطانيا ان تبسط نفوذها على العراق وعلى الكويت وإمارات الساحل الخليجي بالإضافة الى تقاسمها مع فرنسا الإنتداب على الشام.

أما داخل الجزيرة فكانت بريطانيا تراقب الوضع وتستعد لدعم أي منتصر بشرط ان يكون منضويا تحت حمايتها. وقد كان من رأي المستشارين البريطانيين ان إبن سعود يمكن ان يكون رجل الجزيرة بدل الشريف حسين الذي خذلوه بعدما طمع في ان يكون ملك العرب المرتقب.

المهم كانت بريطانيا منذ البداية تنظر بعين العطف والرضا لعبد العزيز ولولا مساعدتها المالية والعسكرية[٦٧]، لما كان عبدالعزيز قد حقق ما حقق. لكن بريطانيا كانت لها شروطها وإلتزاماتها. هذه الشروط والإلتزامات التي لم يكن الوهابية يعرفونها أو يقيمون لها أي وزن، لكنهم ودون ان يعلموا حقيقة الوضع كانوا يجاهدون عندما كانت بريطانيا تعطي الضوء الأخضر لعبد العزيز وكانوا يتوقفون عندما كانت بريطانيا تأمر بذلك.

---

(٦٧) إبان الحرب العالمية الأولى وافق ابن سعود على الحماية البريطانية واستلم معونات شهرية من الحكومة البريطانية وادعى بأن ذلك مجرد جزية كالتي كان المسيحيون يدفعونها للخلفاء الأوائل ، أنظر فاسيليف ، ص٢٧٤ .

يقول فاسيليف بعدما وصل عبدالعزيز والجيش الإخواني الى بلدة تربة وإستولوا عليها وعلى مناطق أخرى، وصل من جدة رسول في (٤ تموز ١٩١٩م) يحمل رسالة من المعتمد البريطاني: «أمرتني حكومة جلالة الملك أن أبلغكم بأن تعودوا الى نجد حالما يصل الى يدكم كتابي هذا وتتركوا تربة والخرمة منطقة غير مملوكة حتى مفاوضات عقد الصلح وتحديد الحدود، وإذا أبيتم الرجوع بعد الإطلاع على هذا الكتاب فحكومة جلالة الملك تعد كل معاهدة بينكم وبيننا ملغية وتتخد ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية»، وطلب الإنجليز من عبدالعزيز ان لا يتحرك نحو الطائف. وعندما إستلم أمير الرياض هذا الإنذار أدرك بأنه تمادى كثيراً، فعاد الى الرياض في الحال. وأمر الإخوان بأن يغادروا الواحات في هذه المنطقة وإستبدلهم بفصيل وصل من منطقة حائل كما أعاد أمير تربة السابق الى منصبه(٦٨).

لقد كان من الصعب على الإخوان فهم هذه الدسائس والمؤامرات فليس هناك تراجع في الجهاد والفتوحات ولا نعلم كيف إستطاع إقناعهم بالرجوع الى الرياض؟.

لكن الإخوان كما قلت سابقاً لم يكونوا يعلمون من سياسة بريطانيا في الجزيرة شيئاً، حتى المعاهدات التي أبرمها إبن سعود مع بريطانيا لم يكونوا يعلمون عنها شيئاً. كما لم يكونوا يعلمون ان جهادهم وهجومهم على جبل شمر وحائل كان بإيعاز من بريطانيا لأن إمارة حائل كانت موالية للدولة العثمانية.

الإخوان كانوا يجاهدون فقط عندما يؤمرون بذلك لتحقيق إحدى الحسنيين، الجنة أو الغنائم. لكنهم في الحقيقة كانوا يخدمون سياسة بريطانيا ويتبعون تعليماتها حرفا حرفا. لذلك لما بدأ الخلاف يستعر بين عبد العزيز وقادة الإخوان وخالفوا أوامره وبدأوا الغزو والجهاد على جنوب العراق

(٦٨) فاسيليف، ص٢٩٧ ــ ٢٩٨.

تحركت بريطانيا بقوة وأمرت عبد العزيز بوقف هذه الهجومات التخريبية. لكن عبدالعزيز لم يستطع إيقافهم فوراً لأن الأمر كان قد خرج من يده.

□ بداية الإختلاف:

يمكن ان يقال بأن قادة الإخوان بالخصوص كانوا يراقبون أعمال أميرهم ويعدون عليه الأخطاء. فعندما رسمت بريطانيا الحدود بينه وبين الكويت والعراق والأردن إلتزم عبد العزيز بهذه الحدود لكن الجيش الوهابي لم يفهم هذه العملية التي أفقدته مناطق واسعة للغزو والنهب لأن أهلها كفار، كما أن الحدود الجنوبية كانت قد رسمت تقريباً. وهكذا لم يعد للجيش الوهابي عمل يؤديه. ثم جاءت حادثة المحمل المصري الذي حاول الوهابيون التعرض له أثناء الحج فأطلق ضابط مصري عليهم النار فقتل (٢٥) منهم، لكن عبدالعزيز لم يقم بما كان الوهابية ينتظرون منه، بالإضافة الى تذمر بعضهم من سياسة عبدالعزيز في الحجاز، وموقفه من الشيعة في الإحساء، والقطيف لأنهم ـ أي الوهابية ـ أشاروا عليه بأن يفرض عليهم الإسلام أو يجليهم عنه البلد لأنهم كفار مشركون.

فلاشك أن الغنى الذي كانت تتمتع به المنطقة، كان يسيل له لعاب البدو وكانوا يتمنون أن يقبل الأمير بالهجوم عليهم بغتة لقتلهم عن بكرة أبيهم. لكن عبدالعزيز كان يعلم مخاطر ونتائج هذه العملية لذلك لم يكن ليذهب مع الإخوان بعيدا في هذه القضية.

□ الاخوان يقدمون قائمة المؤاخذات :

والنتيجة ان بعضا من قادة الإخوان كانوا يرجون كثيراً من تعاونهم مع إبن سعود لكنهم حصدوا العاصفة خصوصاً فيصل الدويش شيخ قبيلة مطير الذي كان يأمل ان يجعله عبدالعزيز حاكما للمدينة. وكذلك ضيدان بن حثلين

شيخ العجمان، وشيخ عتيبة سلطان بن محمد بن بجاد. هؤلاء الثلاثة سيجتمعون في مطلع سنة ١٩٢٦م ليقدموا قائمة بمجموع النقاط التي يؤاخذون فيها إبن سعود:

كانت في مجملها بالإضافة الى ما ذكرناه. التعرض صراحة للتعامل مع الإنجليز بلد الكفار وكيف يسافر فيصل بن عبدالعزيز الى لندن للتفاوض معهم. كما ذكرت القائمة رفضهم لبعض الرسوم الجمركية المفروضة على نجد، وتساءلوا عن سبب حضر التجارة مع الكويت بالإضافة الى مشاكل الحدود مع العراق والأردن ومشكل الرعي هناك. كما رفضوا ما سموه تسامح عبدالعزيز مع الشيعة «الكفار» في الأحساء.

والشيء الغريب الذي طالب به زعماء الإخوان هو رفضهم إدخال التلفون والراديو الى البلد لأن ذلك بدعة لم تكن على عهد السلف، ثم إن هذه الوسائل ستساعد الأعداء على السيطرة على بلاد المسلمين. كما رفضوا إدخال السيارة، وفعلا أحرقت اول شاحنة ظهرت في مدينة الحوطة [٦٩].

تعامل عبدالعزيز مع هذه المطالب والإعتراضات بشيء من المرونة، أما مشكل التلفون فقد قرىء فيه القرآن وسمع البدو ذلك فقالوا لا لابأس به. وبذلك إستطاع عبدالعزيز ان يحتوي الوضع بعد عدة إجتماعات عامة حضرها رؤساء الإخوان. لكن الحقيقة أن هؤلاء الرؤساء لم يكونوا قد اقتنعوا نهائياً بالتسليم لعبد العزيز.

□ الاخوان يتابعون الغزو :

فيصل الدويش سيعلن الجهاد على العراق وسيسقط بعض القتلى من رجال الشرطة العراقية، مما جعل البريطانيين يردون بقوة، حيث إستخدموا الطائرات. لكن الإخوان لم يثنهم ذلك بل هجموا على الكويت كذلك. مما زاد الوضع

(٦٩) فاسيليف، ص٣٢٢.

تأزماً بين بريطانياً وآل سعود الذي لم يكن مسيطراً تماماً على هذه الحركة. كانت لهذه الغزوات الموفقة للإخوان صدى في نفوسهم، جعلهم يفكرون في القضاء على ملك إبن سعود الذي آثر مصالحه الشخصية على الإسلام. والـذي سالم الكفـار ـ العراقيين ـ وتعامل مع البريطانيين. وهكذا اشتعلت نجد من جديد وبدأت الغزوات الداخلية والفتن مما ينذر بحرب أهلية.

□ ابن سعود يهزم الاخوان :

لكن إبن سعود كان يهيء نفسه لمواجهة الإخوان الذين إصطدم معهم في معركة السَّبلة في ٣١ مارس ١٩٢٩م. وبذلك بدأت حركة الإخوان في الإندحار والإنهزام. إلا أن رؤساء الإخوان لم يقتلوا في هذه المعركة بل فر كل واحد الى بلده. أما إبن بجاد فقد إستسلم للملك وحبس ومات في سجن الأحساء. وأما ضيدان بن حثلين فقد قتل في مؤامرة دبرها له أمير الأحساء إبن جلوي. أما فيصل الدويش فإنه لما برء جرحه أعاد الغزو للعراق بل إنه إستطاع مع العجمان ان يقطعوا الطريق بين الرياض والهفوف، لكن الثوار كانوا على موعد مع سلسلة من الهزائم انتهت باخماد الإنتفاضة وهروب فيصل الدويش الى الكويت هو وبعض زعماء الإخوان المندحرين الذين ستسلمهم بريطانيا الى عبدالعزيز بعد مفاوضات جرت بين الطرفين.

وضع زعماء الإخوان في سجن الرياض حيث ساعدهم الحراس كما يقول فاسيليف على الموت فلقوا حتفهم. وفي كانون الثاني ١٩٣٠م اعتبر ان الإنتفاضة أو ثورة الإخوان قد إنتهت الى غير رجعة.

□ الثورة تهدد الدولة :

إن الإنتفاضة أو الثورة المسلحة من أهم نقاط الإختلاف والتعارض الذي وقع بين الحركة الوهابية والأسرة السعودية منذ نشأتها الأولى. والمؤرخون

سواء منهم المخالف لآل سعود أو المناصر يؤكدون على ان الخلاف كان لابد أن يقع، لأنه من باب الإختلاف بين الدولة والثورة. كان عبدالعزيز تهمه الدولة وبقاؤها وكان يعلم بالأخطار المحدقه بما حققه من إنتصارات وفتوحات. ولم يكن الإخوان يفهمون ولا يراعون ذلك اذ كان جل همهم منصباً في جهاد الكفار والمشركين من مسلمي العراق. لذلك كان الحد من تحركهم العسكري هو أساس خلافهم مع عبدالعزيز بالإضافة الى سياسة الملك في الحجاز بعدما استولوا عليه. لقد كان الإخوان يتصرفون بغلظة وجلافة وكانوا يسيئون معاملة الحجاج. وتقع بسبب ذلك مشاكل لم يكن يتيسر حلها الا بتخفيف حدة الإخوان والضغط عليهم. كل ذلك كان يزيد في الطين بلة.

أما تحجرهم وعدم قبولهم باستخدام بعض الأدوات الصناعية مثل التلفون والإذاعة وغير ذلك، فنعتقد أنه لم يكن سببا رئيسا في خلافهم مع الملك لأنهم بدو بعيدون عن الحضارة ولابد أنهم سيعرفون آخر المطاف قيمة تلك الأشياء فيستأنسون بها استئناسهم بالبنادق الآلية بدل السيوف، وكذا المدافع والسيارات التي ركبوها أخيراً.

ومهما يكن من تعصبهم وشدة بعدهم عن الحضارة فإن دخولهم الأمصار المتمدنة مثل الحجاز والشام وكذا العراق كان كفيلاً بالحد من خشونتهم وتطرفهم الحماسي. ونحن مع محمد أسد عندما أكد على أن «لو أتيح لهم إرشاد وتعليم صحيحان، فإن ورعهم الديني العميق كان خليقاً به أن يمكنهم من توسيع أفقهم، وأن يصبحوا مع الزمن النواة لانبعاث جزيرة العرب كلها انبعاثا صحيحا»[70]. طبعاً في كلام محمد أسد شيء من المبالغة في التفائل

(٧٠) السعوديون والحل الإسلامي ، ص٦١٣ . قد يكون في هذا الكلام بعض الصحة ويعد النظر لأن السلفيين الذين يدرسون في الجامعات وتعرفوا على جوانب عديدة من الفكر الإسلامي العام خارج إطار «الوهابية والمذهب الحنبلي» والتقوا بالمفكرين والعلماء من العالم الإسلامي بدا واضحاً مدى تطورهم ونضجهم في التعامل مع قضايا الفكر =

لأن النظرية الوهابية تمتلك قصوراً ذاتياً اذ لا يعدو تفكيرها قضايا التوحيد التي فهمت بطريقة منحرفة وغير صحيحة وأدى ذلك الى وصم جميع المسلمين بالكفر والشرك.

كما أن استمرارية الوهابية واتاحة الفرصة لها بعد ذلك لكي تتطور لم ينجم عنه تطور مهم، والواقع المعاصر دليل على ما نقول. بل يمكن أن نسجل شهادة للتاريخ بأن إنتشار الفكر الوهابي اليوم يشكل إنتكاسة عظيمة للفكر والإبداع الإسلامي. فالوهابيون مع تطورهم وإنفتاحهم على العالم لم تتغير مواضيع بحثهم ونقاشهم، فليس هناك في عالم الفكر الإسلامي سوى «القبور، والتوسل وعذاب القبر، والتداوي بالأعشاب والحبة السوداء، وكذا جزئيات الطهارة والصلاة وغيرها من المواضيع البسيطة»؟!.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الصدام بين الإخوان والملك كان ضروريا. لأنهم بدأوا يزعجون الدولة ورجالها وبدأوا يخلقون للملك المشاكل الكثيرة بل إنه هو نفسه قد ضاق بهم ضرعا لكثرة تدخلهم في تصرفاته وسلوكه، فكان لابد أن يصطدم معهم، لقد أنهوا مهمتهم، وتم استغلال حماستهم بنجاح وقد آن الأوان للتخلص منهم ووضع حد لإنضباطهم وجعلهم رعية مسالمة وصالحة تخضع لسياسة الدولة وتعاليم الملك بصرامة وحرفية.

ونحن نعتقد أن هذا الطرح جاء نتيجة لتطور طبيعي سرعت خطواته بساطة الإخوان وسذاجتهم وعدم معرفتهم بتعقد القضايا السياسية من حولهم. لذلك خسروا المعركة باكراً وانسحبوا من الساحة، لإفساح المجال للدولة كي تأخذ مكانها في خضم الصراعات الاقليمية والدولية آنذاك[٧١].

= والمجتمع وهؤلاء هم الذين يتزعمون الآن المعارضة الفعلية للدولة ويوجهون لها انتقادات قوية وصائبة.

(٧١) يقول محمد جلال كشك «زعم فيلبي ان الوهابية في المرحلة الأولى فقدت زخمها عندما توسعت فوق طاقتها فانهزمت.. وهكذا خسروا الأرض والحركة. بينما كان عبد العزيز أكثر ذكاء في نظر فيلبي! لأنه قاد حركة الوهابيين حتى بنوا مملكة في حدود معقولة، =

لقد ظهر الجيش الإخواني وحركته العسكرية آنذاك كعدو لباقي المجتمعات الإسلامية التي كانت تصارع الإستعمار. وخصوصاً الحجاز الذي استولوا عليه وكان سببا في بداية القضاء عليهم. كما أنهم ظهروا بمظهر من يريد أن يقف في وجه التطور وحركة التاريخ. وكأنهم أرادوا ألا يتغير الوضع المدني والحضاري في الجزيرة العربية، لأن ذلك محض بدعة ومخالفة لما كان عليه السلف في الملبس والمأكل وشكل الحياة الإجتماعية برمتها. لذلك كان لابد أن ينهزموا أمام التطور الزاحف(٧٢).

= ثم تخلص منهم في الوقت المناسب، دون ان يخسر شبراً واحداً من أرضه، فقد استخدم نفس الشعار ان في تكوين الأرطاوية والغطغط وحركة الأخوان. وتخير الوقت المناسب تماما لفتح الحجاز ولكن كان عليه ان يقتل فرنكنشتاين قبل ان يقتله» ويقصد بفرنكنشتاين «حركة الإخوان» وفيلبي الذي يقول عنه كشك زعم هو اعرف بخبايا الأمور وما كان عليه الوضع داخل الجزيرة أثناء قيام الدولة السعودية الثالثة لأنه كان ملازماً للملك عبدالعزيز ومستشاره الخاص والمبعوث السري لبريطانيا العظمى لمراقبة الوضع عن كثب.

وأشير هنا الى ان الكتاب الغربيين والمبعوثين لمهام خاصة في العالم الإسلامي، وان اتهموا بتحريف بعض الحقائق أو عدم فهم الظواهر الإجتماعية ،اسبابها ومحركاتها فإنهم اقل تزلفا بكثير من الكتاب العرب عندما يتعلق الأمر بالكتابة حول القيادات السياسية العربية بل أكثر عقلانية وبعداً عن الميتافيزيقا في وصفهم وتحليلهم للواقع الشخصي والنفسي والعملي لهذه القيادات أو الأحزاب.

(٧٢) من المؤكد ان الأخوان كانوا يشكلون ضغطاً نفسياً مستمراً لرجال الدولة ومستشاري الملك من الأجانب وكان الكثير من هؤلاء يكنون لهم الكراهية وينظرون إليهم بعين الإزدراء والإستهزاء لكن لم يكن باستطاعتهم مواجهتهم وهم في عز قوتهم ويتحكمون في مصير الدولة لكن لما قضي عليهم ظهرت البغضاء وما تخفي الصدور الى العلن. يقول شاعر آل سعود الذي سماه كشك «بولس» فيهم:

حسبوا الحقد والتعصب دينا	أي دين يبقى مع البغضاء
ياغلاة الإخوان ضيقتم الدين	وزغتم عن منهج الحنفاء
مارأيتم منها سوى الكبت	والحقد وإبداء نقمة وإزدراء
وانتقاصا من الشوارب	والثوب وميلا لغزوة وعداء
قد عرفناكم جنود مليك	فمتى صرتم جنود السماء =

وإذا كانت حركة الإخوان لم تصل الى مبتغاها فإن مما لاشك فيه أنها قد أثارت انتباه الملك عبدالعزيز وشغلته، كما ظهرت خطورتها على الدولة. لذلك كان لابد من القيام بعمل ما للحد من أهمية هذه الحركة وتقليم أظافرها وخلق إطار للتحكم بها. لذلك يعتبر تأسيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووضعها تحت اشراف علماء من آل الشيخ، بداية السيطرة الفعلية على المؤسسة الدينية وتأطيرها في مؤسسات. وقد وجد عبد العزيز هذه التجربة جديرة بأن تشمل سائر أنحاء البلاد فأسس في الرياض مديرية الأمر بالمعروف صيف ١٩٢٩م، حينما بلغت إنتفاضة الإخوان ذروتها[٧٣].

وبذلك بدأ عصر تحكم الدولة في نشاط المؤسسة الدينية وأحتوائها بالكامل، والإشراف على أعمالها ومراقبة تطورها وصولاً الى تدجينها نهائياً وجعلها في خدمة السياسة الداخلية والخارجية لملوك الدولة المتعاقبين.

وقد سجل هذا الوضع ظهور المؤسسة التقليدية. الى جانب نمو معارضات شخصية علمائية أو قطاعية تمس فئة واسعة من المتعلمين والأتباع السلفيين، الذين بدأوا معارضتهم السرية والعلنية للمؤسسة الدينية التقليدية التي وصفوها بأنها غارقة في أحضان الدولة وفاقدة للإستقلالية. وكذا معارضتهم للدولة بصراحة وقوة.

□ توسع نشاط المؤسسة الدينية الوهابية :

كان لإكتشاف النفط في المملكة العربية السعودية أثره البالغ على جميع

=

كان صعقاً لابن الدويش ... وسلطان بجاد و«عصبة الخبثاء»

شهداء الجهل! كم من غبي ... مات من أجل فكرة جوفاء

عبثا تطلب الشراب طهوراً ... ان كان الخبث من كيان الأناء

انظر السعوديون والحل الإسلامي . ص١١ ــ ١٢ .

(٧٣) فاسيليف ، ص٣٢٥ .

مناحي الحياة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية والدينية. فإلى جانب قيام مؤسسة دينية متكاملة ومنظمة ومتفرعة الى عدة مؤسسات. كان للدعم المالي الذي حصل عليه أصحابها دور بارز في توسيع نشاط الحركة الدينية وإنتشارها داخل المملكة وخارجها. ومع تأسيس الجامعات الإسلامية وتدريس المذهب الوهابي بها زاد انتشار الأفكار الوهابية، وإعتنقها الكثير من أبناء العالم الإسلامي الذين إلتحقوا بهذه الجامعات. وعليه تمثل فترة الستينات والسبعينات ذروة النشاط الوهابي. كما سجلت الفترة إنسجاما شبه كامل بين المؤسسة الدينية الوهابية وبين الدولة السعودية.

طبعاً أسفرت الطفرة النفطية على تغير كبير في الحياة الإجتماعية داخل الجزيرة وأخذ البدو نصيبهم الأوفر منها. وأنتشرت ظواهر الترف على نطاق واسع خصوصاً في أوساط العائلة المالكة. لكن المؤسسة الدينية وعلمائها التقليديين لم يولوا إهتماماً كبيراً لهذه الظواهر والمتغيرات وهم في غمرة الإنتشار والإنتصار الكبير الذي بدأت تعرفه الحركة الوهابية خارج المملكة. لكن المتعلمين والطلبة الجدد في الجامعات وخصوصاً المتدينين منهم كانوا يراقبون الوضع ويشعرون بثقل المتغيرات وخصوصاً على المستوى السياسي. لذلك يمكن أن نقول أن حركة مناهضة بدأت تختمر داخل المؤسسة الدينية التقليدية وان كانت المعارضة خارجها ستتخذ طابعاً جدياً وأكثر فاعلية.

□ تبلور الاتجاه الديني المعارض :

فحتى نهاية عقد السبعينات لم تكن الحكومة قد وعت بصورة دقيقة المخاطر الناجمة عن تبلور إتجاه ديني منشق عن المؤسسة الدينية الرسمية لكن حادثين مهمين أجبرا السلطة على إعادة النظر في أولوياتها الأمنية وسياستها الداخلية. وكان الحادث البارز على هذا الصعيد هو إحتلال المسجد الحرام في الأول من محرم ١٤٠٠هـ الموافق للحادي والعشرين من نوفمبر ١٩٧٩م من

جانب حركة دينية معادية للعائلة المالكة. أما الثاني فكان، التظاهرات الواسعة في مدن المنطقة الشرقية والتي ظهرت على أثرها حركة نشطة جداً هي منظمة الثورة الإسلامية، التي نادت يومها بإسقاط العائلة المالكة وإقامة نظام ديمقراطي، وإقرار الحريات المدنية، وقد فسرت الإنتفاضة في المنطقة الشرقية بانها نتيجة لشعور الأكثرية الشيعية التي تسكن المنطقة، بالإضطهاد الطائفي والحرمان من الحقوق السياسية، وقد قمعت بشدة.

□ حادث اقتحام الحرم المكي :

لكن الحادث الأول، أي إقتحام المسجد الحرام[٧٤]، كان أشد تأثيراً

(٧٤) قبل حلول فجر يوم الثلاثاء المصادف لرأس السنة، وأختتام القرن الرابع عشر والموافق ١٩٧٩/١١/٢٠م، تحركت جماعة جهيمان العتيبي (قرابة ٦٠٠ مسلح أو أكثر)، وفق خطه انتهت بإحتمائها في المسجد الحرام وبمجرد ما وصل الخبر الى السلطات السعودية صدر بيان حول الحادث جاء فيه: «أغتنمت زمرة من الخارجين على الدين الإسلامي، صلاة فجر يوم الثلاثاء ١٤٠٠/١/١هـ وتسللت الى المسجد الحرام ومعهم بعض الأسلحة والذخيرة وقدموا أحدهم الى جموع المسلمين المتواجدين بالمسجد الحرام بمكة لأداء صلاة الفجر مدعين لهم بأنه المهدي المنتظر ونادوا المسلمين المتواجدين بالمسجد الحرام للأعتراف به بهذه الصفة وتحت وطأة السلاح منهم، وقد قامت السلطات المختصة باتخاذ كافة التدابير للسيطرة على الموقف، وبناء على فتوى من العلماء جميعاً اتخذت الأجراءات لحماية أرواح المسلمين المتواجدين بالمسجد الحرام».

وقد توالت التصاريح والبيانات المتناقضة والمختلفة والتي اظهرت حجم الأرتباك السعودي وحجم المفاجأة التي أحدثها هؤلاء الثوار السلفيون، فإلى جانب وصفهم بأنهم زمرة خارجة عن الدين الإسلامي، وصفهم وزير الخارجية السعودي بأنهم «مجموعة من المتعصبين والمهووسين» أما الأمير عبد المحسن بن عبدالعزيز، أمير منطقة المدينة فقال: «ان هذه الفئة المارقة الضالة قد ارادت التفرقة بين المسلمين وفتنتهم في عقيدتهم» وأعتبرهم الملك خالد «كفرة» في برقية بعث بها الى ملك المغرب. وقد بلغت التصريحات درجة من التشنج والحدة حين اعتبر الأمير مشعل بن عبدالعزيز جماعة جهيمان السلفية بأنهم صليبيون بقول: «ان حادث الحرم الشريف استمرار للحرب ضد الإسلام منذ الحروب الصليبية حتى الآن» كما وصفوهم بالخوارج.

وأحدث صدمة عنيفة في الوسط الديني والسياسي، فقد ظهر لأول مرة أن ما كان يعتقد من نفوذ واسع للمؤسسة الدينية في الأوساط الشعبية مجرد خيال،

والنتيجة ان الحكومة السعودية حاولت جهدها ان تغطي على أخبار هذه الجماعة سواء من حيث أنتمائهم أو مطالبهم وذلك تجنباً لأي تعاطف إجتماعي معهم، فهم مجموعة سدج مهووسون وليست لهم أية مطالب سياسية سوى مبايعة ما يسمونه المهدي. وعند الرجوع الى كتابات زعيم الجماعة جهيمان العتيبي نجده قد إستبق الأحداث عندما قال: «وان خالفتهم - يعني الحكام السعوديين ــ فتلوك بشبهة يسكتون بها الأرنب فيقولون هو خارجي مع ان أرنبهم لا تعرف معنى الخارجي».

لقد حاولت الحكومة السعودية والصحافة التابعة لها تشويه صورة جماعة جهيمان السلفية والتكتم على مطالب أصحابها السياسية والتغييرية. أن أول رسالة صدرت عن الجماعة كانت بعنوان (الإمارة والبيعة والطاعة وكشف تلبيس الحكام على طلبة العلم والعوام) وهي لجهيمان العتيبي. ومما جاء فيها تحت عنوان: «فصل في شروط الخليفة والإمام الذي تجب بيعته وطاعته» يقول: (أعلم أن من يكون خليفة على المسلمين وإماماً لهم يشترط فيه شروط: الأول: أن يكون مسلماً، والدليل قوله تعالى: ﴿ياأيها الذين أمنوا أطيعو الله وأطيعو الرسول وأولي الأمر منكم﴾. الثاني: أن يكون من القريش. الثالث: أن يكون مقيماً للدين. وعلى هذا لا يجوز عقد البيعة لمن لم يتوفر فيه هذه الشروط... واليوم إنما يحكم المسلمين الملك الجبري الذي ليس مبنياً على البيعة وقد خالف شرع الله في عدة أمور منها. أن الحكام فيه ليس من القريش، أنهم لايقيمون الدين بل يهدمونه ويحاربون أهله، أنهم لا يأخذون البيعة من رعيتهم بصفقة اليد وثمرة القلب وطوعه وأختياره بل بالجبر والقهر...» ثم يضيف قائلاً: «فأنت تعلم ان الطاعة لا تجب إلا لمن يقودنا بكتاب الله، أما من يقود المسلمين بالأنظمة المختلفة والقوانين ولايأخذ من الدين إلا ما وافق هواه فهذا لا سمع له ولا طاعة، وقد عرفت بطلان بيعته فيما تقدم...».

وعليه فإن حركة جهيمان العتيبي كانت ثورة سلفية مناهضة للحكم السعودي رافضة له، داعية لتغييره، لأنه لا يقوم على الشرعية الدينية. وليست مجموعة مهووسة غارقة في السداجة والغلو كما وصفها الأمراء السعوديون وإعلامهم.

لقد أعلن الإخوان في خطبهم من اذاعة الحرم أهدافهم وتناقلتها رسائل الإعلام وفيها مطالب صريحة باسقاط النظام السعودي باعتباره أشاع الفساد. وهدم الدين الإسلامي، ووالى الأمريكان، وتلاعب بثروة الشعب، واختلس أراضيه، وسخر ثروته النفطية لخدمة الولايات المتحدة... وطالب «الإخوان» بقطع النفط عنها واقامة نظام جمهوري. وقد جاء في صحيفة « لوموند » الفرنسية بتاريخ ١٩٧٩/١٢/٣م عن مشاهد جزائري قوله: «إن أحد المتمردين كان يحمل مكبر صوت، أعلن فيه ان الثوار يهدفون الى النضال ضد

كما أن الثوار أنفسهم هاجموا بشدة كبار علماء الدين المتحالفين مع العائلة المالكة وإعتبروهم موظفين عند من أسموهم بأئمة الكفر، وقالوا أنهم «باعوا آخرتهم بدنيا آل سعود» كما جاء في أحد بياناتهم(٧٥).

وقد ذكرت صحيفة « لوموند » ان أحد الحجاج المراكشيين قد أكد بعد عودته الى الرباط: «ان العملية قامت من أجل الإحتجاج ضد سياسة القمع التي يتعرض لها السعوديون» ثم أوضح الحاج قائلاً: إن أحد المتمردين المسلمين تكلم مؤكداً: إن هذه العملية الإنتحارية إنما قامت من أجل إثارة إنتباه العالم الإسلامي الى الإضطهاد والقمع الذي يقع أهالي السعودية ضحايا لهما، وإثارة إنتباهه الى التدهور الإقتصادي والأخلاقي والإجتماعي الذي

فساد النظام وضد التدهور الأخلاقي والإجتماعي الذي يعم البلاد. سنقاتل حتى الموت لتشهد العالم الإسلامي على الأضطهاد الذي يعاني منه الشعب السعودي».

ضلت جماعة جهيمان العتيبي السلفية صامدة ومسيطرة على المسجد الحرام مدة نصف شهر تقريباً. الى أن تيسر للحكومة السعودية حسم هذا الوضع الخطير الذي جعل سمعة المملكة في الحضيض، وذلك بمشاركة قوات فرنسية وأردنية وكذا خبرات امريكية. ولولا القوة الفرنسية المتخصصة لما أستطاع السعوديون تحقيق الإنتصار على الأخوان وتحرير الحرم بعد أكثر من نصف شهر.

أما حصيلة المعركة بين السلفيين والحكومة فكانت كما إعترف النظام ٣١٨ مجموع القتلى من الأخوان والقوات النظامية والحجاج، و ٥٦٠ جريح. الى أن الصحافة العالمية قد ذكرت ارقاماً مغايرة ومختلفة تماماً. ومهما يكون فان حادث الحرم المكي كان بادرة سلفية خطيرة عمقت الصراع بين آل سعود والحركة الوهابية السلفية. وإشارة الى أستمرارية الخلاف الذي بدأ بين الأخوان والملك عبد العزيز عندما أتهموه بالأنحراف عن الأهداف الوهابية وموالاة النصارى. أنظر لمزيد من التفاصيل في هذه حادثة مجلة صوت الطليعة العدد ٢٢ أيار١٩٨٠ / رجب ١٤٠٠ . أحداث الحرم بين حقائق والأباطيل.

(٧٥) وهم بهذا الإعتقاد يكونون أكثر إلتزاما بحرفية كلام شيخهم محمد بن عبدالوهاب الذي يقول في مجموعة التوحيد(ج١ص١٤٦) «واكفروا بالطواغيث وعادوهم، وابغضوهم وابغضوا من أحبهم أو جادل عنهم او لم يكفرهم، أو قال ما علي منهم أو قال: ما كلفني الله بهم فقد كذب هذا على الله وافترى، فقد كلفه الله بهم وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا أخوانهم وأولادهم».

يعاني البلد منه، ولفت نظر هذا العالم الى سوء إدارة الحكام المالية للبلاد[٧٦].

وحينما قامت الإدارة العامة للإستخبارات بمتابعة شخصية من ولي العهد ـ يومذاك ـ الأمير فهد، بدراسة أبعاد هذه الحركة، اكتشفت ان الجامعات الدينية التي أقامتها الحكومة كانت هي التربة التي نشأت فيها هذه الحركة وترعرعت، كما تبين لها ان ما يوجد في البلاد ليس فقط حركة الإخوان التي قادها الشيهد جهيمان العتيبي، بل ثمة تسع حركات سرية أخرى على الأقل وبعضها إستطاع تجنيد عدد من الأتباع يصلون الى عدة آلاف، وكان الذين خرجوا مع العتيبي قد بلغوا حسب بعض التقديرات (٢٠٠٠ مقاتل) باستثناء الذين استطاعوا الفرار بالتعاون مع رفاق لهم في الحرس الوطني الذي أوكلت إليه محاصرة المسجد في الأيام الأولى.

وقد أدى هذا الحادث الى سقوط مريع لمصداقية المؤسسة الدينية فيما يتعلق بأداء الوظائف التي تريدها الحكومة منها. وهي بالتحديد ضمان تأييد الشارع للحكم وإعتبار كونه يتمتع بالمشروعية الدينية في سياساته. كما أنه أدى من ناحية أخرى الى إثارة الجدل في أروقة العائلة المالكة حول فائدة وجود مؤسسة دينية بهذا الحجم مادامت عاجزة عن إحتواء التعبيرات المخالفة للحكم والتي تنطلق من منطلقات دينية[٧٧].

□ تطور الفكر الوهابي :

طبعاً جاء هذا الحادث ليعلن بداية القطيعة بين عماء المؤسسة الدينية الرسمية وبين التيار العلمائي والطلاب الذي تكون في الجامعات الجديدة بعيداً عن توجيهات المشايخ التقليدين. هذا التيار الذي تأثر بالحركة الإسلامية

(٧٦) صحيفة لومند الفرنسية ، في ١٩٧٩/١٢/١ ، نقلا عن صوت الطليعة ، ص٢٥ .

(٧٧) مجلة الجزيرة العربية ، فبراير١٩٩١م ، موضوع بعنوان «دراسة في التطور المعاصر للتيار السلفي في المملكة» ، بقلم توفيق الشيخ ، ص٤١ .

العالمية وتعرف على بعض انتاجها الفكري سواء عن طريق الكتاب أو عن طريق الأساتذة الغير سعوديين والغير وهابيين الذين إستقدمتهم الدولة للتدريس. كما أن عدداً من قيادي الحركات الاسلامية من مصر وسورية قد زاروا البلاد والتقوا بهذا التيار.

لذلك جاء وصف الحكومة لهذه الحركة متهافتا ومتناقضا فقد وصفتهم بالمتطرفين وبالمهووسين دينياً. بل لقد أطلق عليهم انهم مجموعة مجانين. لكن الحقيقة أن هذه الحركة كانت تنم عن تطور ملموس في الفكر الوهابي ونضج أتباعه، فالمنشورات التي وزعها جهيمان واتباعه تضمنت تحليلاً سياسياً للوضع داخل البلاد، واتهمت صراحة نظام الحكم بأنه غير إسلامي وأنه لابد من تغييره. وتكلمت البيانات بتفصيل عن نظام الحكم في الإسلام والبيعة والمشروعية السياسية، وقد كان طموح الحركة كبيراً لولا الظروف الغامضة التي أحاطت بفشلها، كما يمكننا أن نسجل بأن لولا تدخل الفرق العسكرية الغربية المختصة، وخصوصاً الفرنسية لما سهلت السيطرة على الحركة داخل الحرم، ولكان الوضع قد انفجر خصوصاً مع تأكيد وجود امتدادات للحركة داخل الحرس الوطني.

وعليه تكون حادثة الحرم المكي إحدى نقاط الخلاف الدموية بين الدولة السعودية وبين أتباع الحركة الوهابية، على غرار حركة «الإخوان» التي قضى عليها الملك عبد العزيز، بفارق واحد متميز وهو الإفصاح عن تطور ونضج سياسي عرفه العقل الوهابي العام مع هذه الحادثة.

كما ان هذه الحادثة قد رسخت وعمقت الإنفصال بين التيار الوهابي العام داخل الجامعات خصوصاً، وبين المؤسسة الدينية التقليدية الموالية للحكومة. هذا الإنفصال الذي سيظل بمثابة برميل بارود ينتظر أية شرارة لينفجر من جديد. وبالفعل فقد أصاب هذا البرميل عدة شرارات قامت بتفجيره المرة تلو الأخرى. وسنذكر مثالين معاصرين يمثلان ذروة الإختلاف بين الحركة الوهابية

والدولة السعودية، المثال الأول صدور «مذكرة النصيحة التي بعث بها علماء الوهابية الى الحكم». والمثال الثاني هو قيام مجموعة من العلماء بدون إستشارة الحكومة بإعلان تأسيس لجنة للحقوق الشرعية.

□ حرب الخليج الثانية وانكشاف الأوراق السرية :

لم تكن الحرب العراقية الإيرانية قد ساعدت التيار الوهابي السلفي على تجميع قوته والظهور بمظهر القوة فقط ـ خصوصاً وقد ساهمت الحرب الطائفية والمذهبية ضد إيران والشيعة في إيجاد محور يجمع بشتات هذا التيار ـ بل أدت هذه الحرب الضروس الى بروزه كقوة فاعلة ومساهمة في الحرب الى جانب الحكومة التي تدعم العراق ماليا وعسكرياً. لذلك فقد سُجل نشاط كبير ومحموم في الكتابة والنشر وإلقاء الخطب، كلها تصب في تكفير الشيعة وتحذير المسلمين من خطر الفرس والمجوس القادم والزاحف من إيران.

لدرجة أنك اذا سألت شيخاً سلفياً عن مسألة جزئية في الوضوء لأجابك ان الشيعة كفار مشركون ثم بعد ذلك يعرج الى للإجابة على سؤالك إذا بقي متذكراً. وبما أن من مصلحة الحكومة إشعال نار هذه الحرب الطائفية لأنها تمثل حاجزاً صلباً للوقوف أمام إنتشار أفكار الثورة الإسلامية في إيران، فإن دعمها للتيار السلفي كان قوياً، وأعطيت لأصحابه الحرية في إلقاء الخطب والمحاضرات والتحرك. كل ذلك دعم هذا التيار وقوى قواعده على الأرض.

إلا ان النكسة التي حلت بالحكومات الخليجية إثر غزو صدام حسين الكويت بعد نهاية الحرب العراقية الإيرانية. كانت لها نتائج وخيمة جداً وعلى جميع المستويات، فالإخوة الأحباء بالأمس تحولوا الى أعداء، كل واحد يكيل للآخر التهم، ويتهمه بالفساد والعمالة وخدمة الأعداء.

ومن المضحك المبكي أن غزو الكويت قد ساعد على كشف الأوراق بشكل فاضح ومخزي ليس فقط أوراق السياسة ولكن أوراق المؤسسات

الدينية في الخليج وعلى رأسها المؤسسة السلفية. مما أحدث تناقضا وبلبلة كادت أن تعصف بالإستقرار الذي يقال أن الأنظمة والمجتمعات تنعم به هناك. لقد تحرك الإعلام الخليجي لكشف دعمه العسكري والمالي للعراق، هذا الدعم الذي ظل طي الكتمان طيلة ثماني سنوات من الحرب. كما كشفت عورات النظام العراقي وبدأ الكلام عن الإستبداد السياسي وعن الظلم وعن انتهاك حقوق الإنسان بشكل فضيع في العراق. لكن الإعلام العراقي لم يقف مكتوف الأيدي بل كشف ما عنده من ملفات سرية تخص الحكومات الخليجية وعلى رأسها المملكة السعودية.

لقد كانت هذه الحملات الإعلامية المضادة وما تضمنته من أخبار وحقائق أهم ما استفادت منه شعوب المنطقة. واذا كان التيار السلفي حاضراً اثناء هذه المساجلات بل مساهما فيها فإن بعضا مما أصاب الحكومات قد أصابه سلبا وإيجاباً. وظهر تناقضه بل كشف عن بعض عوراته، خصوصاً فيما يتعلق بالحرب الطائفية والتي كان يقودها على أنها حرب الإيمان ضد الكفر، حرب العرب ضد الفرس المجوس الذين يسعون لغزو العالم الإسلامي ونشر عبادة النار والظلام والنور بين أفراده.

لقد تبين بعد اعتذار الحكومات الخليجية لإيران المسلمة، بأن التيار السلفي كان مسيراً لخدمة هذه الحرب مدفوعاً لخوضها دعماً للحرب الشاملة لإيقاف مد الثورة، ومما زاد في الطين بلة، العلم بان هذا التخطيط لتحريك التيار السلفي ضد الثورة وضد الشيعة انما خطط له في داخل الغرف المغلقة للدوائر الإستعمارية الغربية، وإنما كان نصيب علماء السلف «الوهابية» التنفيذ العملي، كما كان يفعل الجندي العراقي عندما يرسل القذائف صوب أهله وإخوانه في العقيدة، في الجانب الآخر من الحدود، دون ان يكون له أدنى مبرر عقلي او واقعي لهذا العمل سوى تنفيذ أوامر القيادة.

ومما يؤكد سذاجة التيار السلفي وتهافت أصحابه وخدمتهم لمخططات

الإستعمار بشكل مجاني واعتباطي. ما سمعته بأذني قبل أزمة الخليج الثانية وأثناءها. فقد سمعت شريطاً مسجلاً لأحد أقطاب ودعاة التيار السلفي وهو شخصية معروفة وذائعة الصيت، إنه أحمد القطان السلفي الكويتي الذي أطنب في شريطه وأتى بألف دليل ودليل، والحرب مستعرة بين العراق وايران على ان الايرانيين كفار معتدون يجب اعلان الجهاد في سبيل الله ضدهم، وقد تصفح الخطيب صحيح البخاري مسلم وجاء بكل حديث يدعم دعواه وقد كنت أسمعه وهو يصيح بصوته الجهوري إني اتحدى من يأتيني بدليل خلاف ما أقول. كما يؤكد على ان مصدره هو البخاري، وعليه كان اعلان الجهاد ضد الكفار الإيرانيين من العقائد المسلم بها لدى أقطاب هذا التيار(٧٨).

لكن ومن غرائب الصدف وبعد اجتياح صدام حسين للكويت، فتحت الاذاعة السعودية ذات مساء واذا بهم يقدمون محاضرة لهذا الداعية السلفي الذي كان يصطاف في السعودية هو وغيره من سلفيي الكويت وتركوا الشيعة يحاربون صدام في الكويت دفاعاً عن أرض الكويت وممتلكات أصحابها.

أقول سمعت تلك المحاضرة الرنانة فأصبت بالذهول وشعرت بالغثيان. القطان هذا الرجل السلفي الذي كان يدعم الهجوم العراقي على ايران ويعتبره

(٧٨) من التناقض العجيب الذي يتخبط فيه رجالات السلفية، هو موقفهم في البداية من الثورة الإسلامية قبل ان يتبلور لدى الحكومات في الخليج موقف موحد تجاه الثورة والدولة في ايران. فقد هدد الشيخ عبدالعزيز وهو سلفي كبير ووالد وزير الزراعة الدكتور عبدالرحمان آل الشيخ ــ في مطلع الثمانينات بالتحالف مع ايران التي كانت قد اعلنت جمهوريتها الإسلامية للتو ووجه خطاباً الى الإمام الخميني أشاد فيه بدعوته للوحدة بين فرق المسلمين، لكن العائلة المالكة سارعت الى احتواء هذا التوجه، ومارس رجال العائلة الذين يتمتعون بمراكز حكومية ضغوطاً عليه للكف عن دعاواه، كما ان الحكومة حذرت العلماء الآخرين من اللقاء به مما اضطره الى الأعتزال في بيته في الرياض حتي وافاه الأجل». انظر مجلة الجزيرة العربية ، عدد فبراير ١٩٩١م ، ص٤١ .

جهاداً في سبيل الله. يقول بأن صدام حسين كافر وأنه حصل في الكويت على منشورات مكتوب فيها بأن صدام حسين قد كتب فيها أوصافه وأسماءه وعدها لتصل تسع وتسعين مرة وانه كتب فوق هذا العدد إسمه «صدام» لاتمام المائة وكأنه يصف نفسه كما وصف الحق سبحانه وتعالى ذاته بأن له تسعة وتسعين إسما.

ويستطرد هذا الداعية السلفي بأنه حصل على تلك الأوراق التي يدعي فيها صدام حسين الألوهية، وغير ذلك مما جاء في المحاضرة مما لا اذكره الآن بالتفصيل. والنتيجة أنه ختم محاضرته بالدعوة الى الجهاد في سبيل الله، جهاد صدام والعراقيين، وطبعاً تم إستحضار صحيح البخاري ومسلم للتدليل على ان كلام الشيخ هو الحقيقة والصواب. وهكذا هي الحقيقة لدى السلفيين تنزع لباسها في الصيف من شدة القيض وتلبسه في زمهرير الشتاء، وتتلون في باقي الفصول وتتماشى مع الظروف والأحداث.

طبعاً من تسرب لنفسه شك بعدم صحة ما نقلناه ما عليه إلا ان يبحث عن أشرطة هذا الرجل خصوصاً التي كانت موجهة لدعم الحرب العراقية الإيرانية. وعليه ان يستمع الى محاضرة الشيخ التي بثتها الاذاعة السعودية بعد الغزو، فلا شك أنها سجلت على أشرطة ووزعت.

ان ايرادنا لهذه القصة، سببه الإشارة الى ما وقع فيه التيار السلفي من تخبط أثناء الغزو العراقي للكويت، هذا التخبط الذي سيبلغ مداه عندما ستقرر الحكومة السعودية استقدام القوات العسكرية الأمريكية والأوربية لتحرير الكويت من الجيش العراقي.

□ استقدام الجيوش الغربية يفجر الصراع :

قلنا سابقاً ونحن نستعرض أسباب الخلاف بين الدولة السعودية والإخوان الأوائل بأن التعاون مع البريطانيين «الكفار»، كان أحد أهم الأسباب المفجرة

للصراع والإختلاف بينهم. وإذا كانت المؤسسة السلفية التقليدية قد اغمضت عينها بعد ذلك عن التعاون السياسي العسكري الواسع النطاق بين الدولة السعودية والغرب متمثلا في امريكا القوة الإستعمارية الجديدة وكذا بريطانيا. فإن إستخدام جيوش هاته الدول وفسح المجال لها لتحط رحالها على أرض الجزيرة العربية قد فجر الصراع هذه المرة بشكل حاد وجدي لدرجة ان المراقبين قد راهنوا على المواجهة المباشرة.

لقد وضعت الجيوش الغربية الجرارة التي بدأ أفرادها يجوبون مدن المملكة، التيار السلفي في وضع لايحسد عليه أبداً، هؤلاء الذين يُمسون ويصبحون على سب الكفار والمشركين من المسلمين ويعلنون القطيعة التامة مع الغرب الكافر. يجدون أنفسهم وقد احيطوا بهذا الجيش الذي استقدمه «ألو الأمر» لكي يدافع عن دولة السلفيين من هجوم مرتقب قد يشنه العراق، ولا أعلم ماذا يطلق السلفيون على شعب العراق، هل مازالوا يعتبرونهم كفاراً؟ لأن الأغلبية في الجنوب شيعية إمامية، أم مسلمين بغاة، لأن الحكومة سنية متعصبة ضد الشيعة وإن لم تكن سلفية بل بعثية لا تعير الدين أي إهتمام يذكر. مع العلم ان هجوم صدام حسين على الكويت جعله ينتقل في نظر السلفيين من الرئيس المؤمن الذي يدافع عن البوابة الشرقية للعالم العربي، الى رئيس يدعي الألوهية ويجب اعلان الجهاد عليه وعلى بلده.

لقد كان موقف رجال الدين السلفيين عصيبا خصوصاً عندما كان «المطاوعة» ورجال الدعوة منهم يصادفون النساء الأمريكيات يتجولن في سياراتهن أو على الأقدام وهن بالزي العسكري يحملن أسلحتهن ويستعدن للمعركة دفاعاً عن اتباع السلف الصالح.

ومن الحكايات المضحكة التي تناقلها الناس في المنطقة الشرقية حيث تمركز الجيش الغربي. أن سلفيا من رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صادف في طريقه أمريكية سافرة بالزي العسكري فحاول ايقافها وأمرها

بأن تحتشم أي تغطي رأسها ووجهها فما كان من الأمريكية الا ان ردت عليه مستهزئة، بأن عليه ان يرجع من حيث أتى لأنها هنا للدفاع عنه ولايقاف جيش صدام الذي ان دخل المنطقة فسوف يذهب بالنعيم والترف الذي ينعم فيه هؤلاء المطاوعة.

طبعاً هذه حكاية في مقابل آلاف الحوادث التي وقعت والتي تدعو للبكاء من كثرة الضحك للمهازل التي وقعت هناك والتي لا يعلمها إلا القليل والتي أظهرت بوضوح المدى الذي وصل إليه الوعي الإجتماعي في بلد يتحكم في دينه وثقافته مجموعة من البدو لا يعرفون وهم على مشارف القرن الحادي والعشرين كيف يسير العالم من حولهم وكيف تدار عجلته ومدى التطور الحضاري الذي وصلته الأمم من حولهم. من هذه المهازل، سيارة الإنذار التي كانت تجوب الشوارع عندما يكون هناك خطر بإرسال العراق أحد صواريخه على المنطقة، ترى ماذا كان الشعب يفعل؟ كان قسم منهم يركب السيارات ويتبع سيارة الإنذار، يتبعها أينما ذهبت، فترى طابوراً وراء تلك السيارة، مما يبعث على السخرية والضحك.

لقد كانت حرب الخليج الثانية بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، والسكين الذي مزق الثوب عن عورة المؤسسة السلفية أمام العالم. فانكشفت هذه المؤسسة التي كان يتبجح رجالها بأن دولتهم «الوحيدة في العالم» التي يحكم الإسلام السلفي جميع مرافقها، وأنها من القوة والمنعة ما يثير حسد الشعوب والحكومات الإسلامية الأخرى.

وإذا كان الموقف تجاه استقدام القوات الأجنبية للدفاع عن الدولة قد أثار انقساما حاداً داخل المؤسسة الدينية الرسمية وبين رجالها واتباعها المشهورين[٧٩]، فإن انقساماً آخر سيسجل، بل إسفين سيدق في نعش

(٧٩) كان موقف الشيخ ناصر الدين الألباني وهو عالم سلفي متخصص بالحديث متشدداً ضد التواجد الأجنبي في المملكة و «القصف الجوي ضد المسلمين المدنيين والمساجد في =

العلاقة بين الرجال التقليديين لهذه المؤسسة وبين التيار السلفي العام في الجامعات والشارع. وسيتجدد الإتهام بفقدان المؤسسة الدينية الرسمية إستقلاليتها بحيث أضحت مجرد ختم تؤكد به قرارات الحكومات وسياستها. وعليه فإن هذا التيار المعارض سيغتنم فرصة انفجار الحرب في الخليج ليقدم احتجاجاته بقوة وليظهر على الساحة محدثا بعض المشاكل، مما أربك الحكومة وزاد من تخبطها.

لقد تعودت كل التيارات الفكرية والسياسية داخل المملكة ومن ضمنهم التيار السلفي، على وعود بتطوير الحياة السياسية داخل المملكة، كلما حل بالدولة مشكل ما يستدعي وحدة داخلية، وبالفعل إستبقت الحكومة الأحداث وأعلنت عن الشروع في تأسيس مجلس للشورى. وأن الملك سيعين أفراده في القريب العاجل. لكن المراقبين للسياسة الداخلية السعودية يقولون بأن الإصلاحات السياسية تظل وعوداً معلقة وموضوعة في الأرشيف، يتم إستدعاؤها كلما دعت الضرورة. لكن شيئا عمليا لن يقع، لان أي إصلاح سياسي سيكون على حساب الاسرة المالكة التي يستحوذ أفرادها على جل

= العراق» ودعا الى «الجهاد لتحرير الأراضي المقدسة في الحجاز من سيطرة القوات الأمريكية والأوربية» لكن أبو بكر الجزائري الواعظ (بالمسجد النبوي) والسلفي الكبير رد عليه بعنف في خطبة في مكة المكرمة واصفا إياه بأنه لا يرى الحقائق، وانه اغمض عيونه عن أفعال صدام، كما أكد على دعمه لمواقف الحكومة السعودية وسياستها قائلاً: ان النبي محمد عليه الصلاة والسلام قد استعان باليهود والنصارى في حروبه ضد المشركين وان المملكة فعلت الشيء نفسه» انظر مجلة الجزيرة ، عدد فبراير ١٩٩١م ، ص٣٩.

وللقاريء ان يتصور مبلغ التهافت! النبي يستعين باليهود والنصارى ضد المشركين؟ وهل العراقيون مشركون!؟ الايرانيون كفار ومجوس! والعراقيون مشركون! ولا بأس من استقدام الأمريكان والأوربيين لمحاربة الكفار والمشركين ولكن مابال السوريين والمصريين والمغاربة الذين شاركوا في الحرب ضد صدام، لا شك أنهم ليسوا سلفيين على عقيدة محمد بن عبدالوهاب وعليه فالكل يدخل في خانة الكفار والمشركين. النتيجة ان الكل في خدمة «المسلمين السلفيين» الذين لا يحسنون الدفاع عن أنفسهم بل المضحك قول بعضهم الحمد لله الذي سخر لنا أمريكا !!

الناصب المهمة، سواء في عالم السياسة أو الإقتصاد. لذلك لأمل في أي اصلاح سياسي في الأمد القريب على الاقل. كما أن الفئات المنادية بالإصلاح انما تنشد هذا التغيير الذي يقلص من مسؤوليات أفراد العائلة السعودية ويفسح المجال أمام أبناء الشعب، وأصحاب الكفاءات لتولي بعض المناصب المهمة.

□ مذكرة النصيحة :

في خضم هذا الوضع المتفجر قامت مجموعة من علماء وأتباع التيار السلفي وخصوصاً المتنورين منهم بتقديم «مذكرة النصيحة»(٨٠). تحمل تواقيع أكثر من مائة من العلماء وأئمة الجمعة والدعاة وأساتذة الجامعات وقد رفعت المذكرة إلى الملك بعد أن اطلع عليها الشيخ بن باز والشيخ بن جبرين وعدد آخر من المشايخ السلفيين مثل الشيخ سفر الحوالي والشيخ سلمان بن فهد العودة والشيخ عبدالله الجلالي، الذين قاموا بتزكيتها بعد تعديل بعض فقراتها قبل أن يقوم الشيخ بن باز الرئيس العام لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بتزكية المذكرة ومن ثم رفعها إلى الملك.

تقع المذكرة في ٤٥ صفحة وتحتوي على عشرة موضوعات وهي على النحو التالي:

١ ــ دور العلماء والدعاة.

٢ ــ الأنظمة واللوائح.

(٨٠) تعتبر هذه المذكرة الوثيقة الثانية التي أصدرها التيار السلفي مطالباً بالإصلاح. ففي شهر مايو١٩٩١ رفع الشيخ بن باز «عريضة الإصلاح» وقع عليها أكثر من خمسمائة شخص وكانت هذه الخطوة بداية المعارضة العلنية والمفتوحة بين السلفيين والحكومة. لكن الحكومة أستطاعت أن تحتوي الأمر بسرعة مما قلل من تداعياته الأعلامية عكس ما وقع مع «مذكرة النصيحة».

٣ ـ الإعلام.

٤ ـ حقوق العباد.

٥ ـ الوضع الإدراي.

٦ ـ المال والإقتصاد.

٧ ـ العلاقات الخارجية.

٨ ـ القضاء والمحاكم.

٩ ـ المرافق الإجتماعية.

١٠ ـ الجيش [٨١].

انطلقت «مذكرة النصيحة» من الخطاب الذي وجهه الملك بمناسبة صدور «الأنظمة الثلاثة»، حيث أكد الملك على أن مصدر التشريع في المملكة هو الإسلام وان علاقة المواطنين بولاة الأمر تحكمها تقاليد عريقة. وان مجالس الملك وولي عهده مفتوحة لكل المواطنين لعرض مشاكلهم وما يعانون منه. لذلك وامتثالا ـ تقول المذكرة ـ لأوامر الله بالتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق، واستجابة لما جاء في توجيهكم لأمتكم؟ وأمرتم به من أنظمة، وانطلاقا من مسؤولية النصح لولاة الأمر نتقدم بهذه «النصيحة» التي تتضمن عرضا لبعض القضايا الملحة لواقع بلادنا في هذه المرحلة كما يضمن بها اقتراحات تهدف إلى تحقيق معالجة هذه القضايا وإصلاحها بما يكفل تحقيق ما يسعى إليه الجميع حاكماً ومحكوما من خير ورشد لهذه البلاد وأهلها[٨٢].

لقد اشتملت هذه النصيحة على مختارات من القضايا إذا عولجت علاجاً صحيحا شرعيا من ولاة الأمر تيسر بعد ذلك معالجة سائر المسائل دونها في

---

(٨١) مجلة الجزيرة العربية ، العدد ٢١ أكتوبر١٩٩٢ ربيع الثاني ١٤١٣ ، دراسة لعبد الأمير موسى ، بعنوان «مذكرة النصيحة» ، ص٣٥ .

(٨٢) مذكرة النصيحة ، م س ، ص ٣٦ .

الأهمية والخطورة، وتضمنت عرضاً ونصائح لسبل الأصلاح لهذه القضايا[٨٣].

□ المذكرة تنتقد الوضع العام في البلد :

إن أول ملاحظة يمكن للقارىء ان يسجلها وهو يتصفح هذه المذكرة، هي تعريتها ووصفها لواقع هذا البلد الذي يملك إمبراطورية إعلامية تجعل الإنسان يؤمن بالظلام وحلكة الليل وهو في عز الظهر والشمس ساطعة، لكثرة الدجل والمكر وتشويه الحقائق. لكن هذه المذكرة جاءت لتحدث ثقباً في هذا البالون المتنفخ، ولو جاءت المذكرة من مصدر معارض غير السلفيين لقيل عنه إنه محض افتراء وكذب ومن مجموعة مغرضة حاقدة تحركها أياد أجنبية تحسد المملكة على الوضع الأمني والإزدهار الإقتصادي والإجتماعي الذي تعيش فيه. لكن الحقيقة هذه المرة خرجت مدوية من قلب النظام، وعبر حنجرته ولا أظن أحداً يشك في ولاء إبن باز للدولة السعودية وهو الذي اطلع على المذكرة وركاها، بل تكفل بإيصالها لأولي الأمر. من جهة أخرى: يلاحظ المتابعة والإحاطة بوضع البلد بشكل متميز مع تشريح الواقع، يُظهر المدى الذي بلغه رجال هذا التيار من نضج ووعي بخلاف أسلافهم. كما أن المواضيع التي تعرضت لها المذكرة جاءت شاملة وكأنها برنامج اصلاحي حزبي متكامل. هذا البرنامج الذي لا يتهم الدولة بالقصور فقط بل يتضمن تعريضاً بانحراف سياسة الدولة خصوصاً الداخلية عن المطلوب.

□ العلماء والدعاة مهمّشون :

تكلمت المذكرة عن دور العلماء والدعاة بشيء من التحسر والأسى وكيف أنهم مبعدون عن أداء واجبهم وان مكانتهم الواقعية تكاد تنحو إلى

(٨٣) المذكرة ، ص٣٧ .

التهميش. مع أن المفروض أن «يكونوا في مقدمة أهل الحل والعقد والأمر والنهي وإليهم ترجع الأمة حكاما ومحكومين لبيان الحكم الشرعي لسائر أمور دينهم ودنياهم»[٨٤] والحقيقة ان ماجاء في المذكرة بخصوص دور العلماء، إنما يعبر عن نجاح الدولة في تهميش المؤسسة الدينية بشكل عام. وذلك بشكل تدريجي يمكن أن يكون قد بدأ بعيد المواجهة الأولى مع الإخوان، وشعور الأسرة المالكة بخطورة رجال الدين على المُلك.

لذلك فقد ذهبت المذكرة بعيداً لتأكيد هذه الحقيقة. عندما يقول كاتبوها: «ويندر أن يستشاروا ـ أي العلماء ـ في قرارات داخلية أو خارجية هامة تحتاج إلى أحكام الشريعة وقواعد الإسلام التفصيلية حتى تكون صحيحة مشروعة، وقد لا يستجاب لفتاويهم إذا تعارضت مع توجهات قائمة لهذه القطاعات والأجهزة بل قد لا يسمح بنشرها. وكل ذلك ينبيء وقد يؤدي إلى فصل الدين عن واقع حياة الناس وعزله عن التأثير في معاشهم وما قد يترتب على ذلك من أثر خطير يهدم الأصل الذي انما قامت الدولة له من الدعوة للإسلام وتطبيق أحكامه[٨٥].

وإذا أضفنا النقاط التي ذكرتها المذكرة مثل عدم استقلالية العلماء عند قيامهم بواجبهم الشرعي، والحساسية المفرطة تجاه النصح والتوجيه، مما أدى إلى التضييق على الدعوة والدعاة. وظهور أساليب لم تكن معروفة في سلف هذه الدولة من فصل الدعاة أو عزلهم أو منعهم من القيام بواجبهم في كثير من الأحيان.

بالإضافة إلى قصر وسائل الاعلام في الموضوعات التي تنشر أو تكتب من طرف العلماء على المواعظ العامة والقضايا الجزئية وإحكام الرقابة على كل ما ينشر. كما ان رسالة المسجد أصبحت مقيدة بالوعظ العام، مع المنع من

---

(٨٤) مذكرة النصيحة ، ص٣٧ .

(٨٥) المذكرة ، ص٣٧ ــ ٣٨ .

التطرق إلى القضايا العامة التي تهم المسلمين. وعليه تكون الصورة قاتمة ومتشائمة لوضع المؤسسة الدينية ورجالها داخل الدولة. وهذه صدمة لا يتحملها من يعتقد بأن المؤسسة الدينية ورجالها يسيرون الوضع داخل المملكة ويتحكمون في مجريات الأمور. لذلك طالبت المذكرة «برفع كافة القيود والتعليمات التي تحد من نشاطات الدعاة والعلماء والسماح لهم بالتأليف والنشر والفتاوى والخطابة والمحاضرات وتسجيل الأشرطة وعقد الندوات والحلقات العلمية دون حاجة إلى ترخيص أو إذن رسمي من وزارة الإعلام أو الأوقاف أو غيرها من أجهزة الدولة[٨٦].

كما طالبت المذكرة بتحقيق مزيد من الإستقلالية عن أجهزة الدولة. لكن المطلب المهم والخطير والذي سيثير الكثير من التساؤلات هو تأكيدهم على «عرض جميع الأنظمة والمعاهدات المراد سنها، قبل إقرارها على هيئة كبار العلماء للتأكد من مطابقتها لقواعد الشريعة وأحكامها، وهذا المطلب لا شك أنه سيؤدي إلى أسلمة «على الأقل بالمفهوم الوهابي للإسلام» الدولة وقراراتها الداخلية والخارجية، وهي إشارة إلى ان كثير من القرارات والمعاهدات التي سنتها الدولة وعملت بمقتضاها لا تتطابق مع الشرع.

وعليه فان: «دستور الدولة القرآن والسنة» يبقى مجرد شعار أعلامي لا غير. لكن الطريف في هذه المطالب هو دعوتهم الحكومة إلى فتح المجال أمام الدعاة والعلماء من خارج المملكة لإلقاء المحاضرات وإقامت الندوات الدينية والمؤتمرات والحلقات العلمية والمنتديات. وتسهيل اجراءات قدومهم بما يحقق التفاعل والتعاون بين علماء البلاد «واخوانهم من العالم الإسلامي»[٨٧].

لا شك أن هذا المطلب وجيه جداً لأنه دعوة للتعرف على فكر علماء الإسلام خارج المملكة، وقد ذكرت المذكرة «العالم الإسلامي»، فهل غير

---

(٨٦) المذكرة ، ص٣٨ .

(٨٧) المذكرة ، ص٣٨ .

السلفيون رأيهم تجاه المسلمين الذين كانوا قبل ذلك كفاراً ومشركين، الواقع ان معرفتهم بالعالم الخارجي سواء في الجامعات أو المؤتمرات وحتى في موسم الحج قد جعلت المتنورين منهم يراجعون أنفسهم ويعترفون بإسلام المسلمين. رغم الإعتراضات التي تظل قائمة.

والمهم هو أن هذا التطور بادرة جيدة كما أن طلبهم بفسح المجال أمام علماء الإسلام لدخول المملكة يعني استقدام وعي جديد ومعرفة واطلاع بعيداً عما هو موجود داخل المملكة. ولا شك ان هذا المطلب ينذر بتغيرات عميقة داخل هذا التيار لا تكون بالضرورة في صالح الدولة.

كما تعرضت المذكرة في هذا الباب إلى عدة مقترحات لتشجيع الدعوة إلى الإسلام داخل البلد وأن تقوم السفارات خارج البلد بدور دعوي بالإضافة إلى زيادة الدعم للهيئات والمؤسسات الدينية الدعوية.

□ المذكرة تدعو للتحاكم الى شرع الله :

بالنسبة لمسألة الأنظمة واللوائح، أكدت المذكرة على أن يتم التحاكم إلى شرع الله في كل مرافق الدولة وان تلغى كل القوانين والإجراءات التي تخالف الشريعة. وبعد عرض مسهب لأنواع الأنظمة تعترض المذكرة على بعض القوانين التي جاءت بها كمثال لمخالفة الشرع. هذا المثال الذي يخص قانون قيام الشركات والذي قنن بعض الأشكال وجعلها شرعية، مع إلغائه أشكالا أخرى للتشارك وعدها غير قانونية، مع أن الحكم بجواز عمل أو حرمته انما يصدر عن إستنباط وإجتهاد إسلامي «لذا فإن الرجوع إلى القانون الجنائي الفرنسي لأحكام العقوبات أو القانون المصري لأحكام الشركات مثلا والحكم بها بين الناس لايجوز مطلقا سواء وافقت الشرع أم خالفته لان الرجوع إليها تحكيم للطاغوت وإيمان به ويحصل به الضلال البعيد، والكفر

والفسق أو الظلم والعياذ بالله لمن فعل ذلك»[٨٨].

تستمر هذه اللهجة الساخطة والقوية في تحليل بعض الأمثلة من الأحكام والقوانين التي تخالف الشريعة، وعليه فإن شعار «دستورنا القرآن والسنة» يصبح بلا معنى لان التحاكم الواقعي والفعلي انما هو للدساتير الأجنبية. الدولة بتطبيقها لقوانين غير إسلامية «تحرم بعض المباح أو تعلق فعله على إذنها وترخيصها» والنتيجة التي تخلص اليها المذكرة بعد الشرح وعرض الشواهد: «ان معظم الأنظمة تتضمن أحكاماً تشريعية منقولة عن مصادر قانونية عربية أو غربية في بلاد أخرى لاتحكم الشرع في شرائعها. فنظام الأوراق التجارية منقول عن نظام جنيف للأوراق التجارية ونظام الشركات نصت مذكرته التفسيرية على انه مستمد من الصالح من أحكام أنظمة الدول الأخرى، ونظام العمل والعمال منقول عن الاتفاقيات والأنظمة الدولية العمالية، ونظام مكافحة التزوير يتشابه في كثير من مواده وتعابيره مع القوانين الأوربية وعلى الأخص الألمانية والفرنسية...

ولذا فإن الأنظمة الحالية مستمدة في أغلبها من مصادرلاتحكم الشرع الإسلامي أصلا. وهذه المصادر لا يجوز الرجوع إليها بحال لمن آمن بالله تعالى رباً له الحكم والأمر وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً مشرعاً، ولذا فإن كل ما نقل منها يعد تحكيماً لغير الشرع ومخالفة صريحة له نظراً لعدم استناده إلى الأدلة الشرعية، وعدم استنباطه وارجاعه إلى ما شرع الله تعالى بالإجتهاد الشرعي الصحيح»[٨٩].

واذن فقد اكتشف السلفيون فجأة انهم يعيشون في دولة علمانية كباقي الدول العربية الأخرى. وانما كان وما يزال عملهم مقتصراً على الدعوة إلى إرخاء اللحى وتقصير الثياب حتى يلتقيا. واشاعة الفتن المذهبية ونشر عقيدة

---

(٨٨) المذكرة، ص٣٩ .

(٨٩) المذكرة، ص٤٠ .

التجسيم. أما أنهم يعيشون في دولة إسلامية كما يدعون فمحض سراب بقيعة يحسبه الضمآن ماءً؟!. لكن وللحقيقة نقول ان عرضهم للقضايا الإقتصادية ومجالات الحياة العامة بالتحليل والنقد يعتبر بادرة مهمة، ستوقظ الدولة السعودية من غفوتها لأنها ستكتشف ان ضباب السداجة بدأ في الإنجلاء عن أعين السلفيين، وان المتنورين منهم يمكنهم ان يراقبوا حركات وسكنات الدولة. ولن تنطلي عليهم بعد اليوم الموجات الاعلامية التي تزيف الحقائق وتذري الرماد في العيون.

أما في ما يخص مسألة القضاء والمحاكم، فقد أكدت المذكرة على «حصر الحكم في القضاء بشرع الله» وتجنب الإزدواجية في القضاء لأن ذلك أدى إلى عزل القضاء الشرعي عن النظر في كثير من القضايا المالية وغيرها من المعاملات. كما أن القضاء الشرعي يعاني من عدم الاستقلالية، مما جعل بعض جهات الدولة تلغي الكثير من الأحكام الصادرة عنه بحجة عدم الإختصاص خصوصاً وزارة الداخلية التي ذكرتها المذكرة بكثير من الحذر والريبة. وفي الأخير أشارت المذكرة إلى افتقار المحاكم الشرعية إلى التجهيزات اللازمة لأداء واجبها بفاعلية.

□ مقترحات المذكرة :

أما المقترحات التي قدمها السلفيون لإصلاح هذا الميدان فكثيرة نذكر منها: تأكيدهم على منع الإزدواجية وارجاع جل القضايا إلى المحاكم الشرعية دون سواها. ضمان استقلالية القضاء برفع جميع القيود والأنظمة والتعليمات التي تقف دون تحقيق ذلك. كما طالبت المذكرة برفع مستوى المجال القضائي وتطويره وذلك «بايجاد دورات شرعية للقضاة دورية يقدمها علماء شرعيون ذو أصالة وإجتهاد شرعي وأهل تجربة وأهلية من القضاة، وتتولى وزارة العدل بالتعاون مع الكليات الشرعية الإشراف عليها. وتعرض فيها أحكام الفقه ذات

العلاقة وأدب القضاء وتبين فيها قواعد الأحكام وأصول تنزيلها، وأدلة الأحكام الشرعية لدى المذاهب الفقهية الإسلامية المختلفة ومقارنة أدلتها. وذلك بهدف رفع المستوى الفقهي للقضاة[٩٠].

وهذا المطلب الأخير يؤكد ما قلناه سالفا من أن وراء المذكرة سلفيين متنورين. لأنهم يطالبون صراحة بالإطلاع على المذاهب الفقهية الإسلامية المختلفة، وهذا اعتراف بإسلام أصحابها كما أن هناك حاجة إلى ضرورة توسيع الأفق الفكري الإسلامي العام بدل التقوقع في إطار المذهب الحنبلي بصيغته الوهابية وما أضافه إبن تيمية.

بل يمكننا ان نجزم بأن النضج والتطور الذي عرفه العقل السلفي من خلال هذه المذكرة انما سببه الإنفتاح على الفكر الإسلامي العام الذي عرفه السلفيون داخل الأوساط الجامعية المنفتحة والمتنوعة. فلو رجعنا إلى زعماء السلفية التقليديين لوجدنا ان ناصرالدين الألباني مثلا يصف الفقه الحنفي بأنه «انجيل محرف» كما ان الموقف العام من المذاهب الفقهية السنية هو رفضها وعدم اعتبار ما توصل اليه أصحابها من إجتهاد في الفروع والأصول.

ومن أهم ما جاء في المذكرة بخصوص القضاء هو الدعوة إلى إنشاء «محكمة دستورية شرعية يرجع إليها في القضايا الكلية وكل ما يضمن هيمنة الشرع وسيادته على الأمة والدولة[٩١]»، ونعتقد ان هذه الفكرة مقتبسة من الإيرانيين الذين أسسوا هيئة من كبار العلماء والفقهاء مهمتها مراقبة القوانين والأنظمة التي تصدرها الهيئات التشريعية المختلفة في الدولة لضمان عدم مخالفتها للشريعة.

---

(٩٠) مذكرة النصيحة ، ص٤٣ .

(٩١) المذكرة ، ص٤٣ .

□ تحديد صلاحيات وزارة الداخلية :

«ولضمان وتمكين القضاء الشرعي من حراسة وحفظ حقوق الناس من التجاوزات على حقوق الإنسان الشرعية، يجب أن تبسط هيمنة القضاء الشرعي على رجال الشرطة والأمن ونواب الهيئات ومن في حكمهم، وذلك بأن تحصر قرارات إصدار أحكام بالسجن أو التوقيف لمدة تتجاوز يوما وليلة، وكذلك دخول المنازل أو القيام بعمل يترتب عليه إهدار حق من حقوق الإنسان المقررة شرعاً من قبل أجهزة الضبط الجنائي أو رجال الهيئة أو غيرهم من المتنفذين، على صدور حكم بها من قاضي شرعي بذلك، وان يمنع مطلقا كل ذلك الا بحكم القضاء الشرعي[٩٢].

وهذا المطلب يتعارض صراحة مع ما تقوم به وزارة الداخلية من أعمال منافية لحقوق الإنسان، كما يتضمن إشارة إلى ما وقع لبعض الدعاة الذين تعرضوا للتفتيش وبقوافي الحجز مدة طويلة دون أن تعرض قضيتهم على المحاكم الشرعية.

□ الدفاع عن حقوق الانسان وصيانتها :

ليست هذه هي المرة الوحيدة التي ستتعرض المذكرة لبعض حقوق الإنسان، بل ان فصلا كاملا ستخصصه المذكرة للكلام عن «الكرامة والحقوق الإنسانية»، وبيان موقف الشريعة من الحقوق الإنسانية. وأن الوضع الحالي لهذه الحقوق داخل المملكة يعرف انتهاكات خطيرة، فبعض موظفي الدولة والقضاة وأساتذة الجامعة يتعرضون للفصل أو تجمد رواتبهم أو ينقلون إلى مناطق نائية دون محاكمة والسبب يكون في أمرهم بالمعروف أو نهيهم عن المنكر. كما أن العديد من الدعاة والخطباء يمنعون من المساجد. بل قد يحتجزون دون محاكمة ومنهم من يمنع من السفر وتسحب جوازاتهم.

(٩٢) المرجع نفسه ، ص٤٣ .

أما الأجهزة الأمنية فإنها تقوم كما تقول المذكرة: «بالتجسس والتصنت وتفتيش المنازل وفتح الرسائل والتعدي أحياناً بالضرب والعدوان وتعذيب المتهم، مخالفة في ذلك النصوص الشرعية القطعية من الكتاب والسنة، المحرمة لهذه الأفعال[٩٣]. وبالجملة فإن وضع حقوق الإنسان الذي تصفه المذكرة يؤكد ويدعم التقارير التي تصدرها الهيئات العالمية لحقوق الإنسان والتي تخص المملكة. كما يشهد بصحة ما تقوله وتكتبه المعارضة الوطنية والشيعية بالخصوص.

تقول المذكرة: «إن الدولة التي ترفع لواء العقيدة الإسلامية وتطبيق شريعة الإسلام يلزمها الرجوع إلى شرع الله وحده لإقرار حقوق الناس فلا يسعها أن تقرر حقوقا للمواطنين أو الوافدين بها استنباطاً من التشريعات الوضعية، ولا أن تجعل حقوق العمال نابعة من قواعد الإشتراكية، ولا أن تقرر وتمنع حقوق المرأة أو الأسرة إتباعاً للفكر الرأسمالي الليبرالي أو العادات والتقاليد الجائرة المخالفة للشرع[٩٤]، بل الواجب في كل ذلك الرجوع إلى شرع الإسلام وحده وتحكيمه وانقاذ كل ما قرره من حقوق للعباد[٩٥].

□ مقترحات لتحسين الوضع الحقوقي :

وبعد عرض لواقع حقوق الإنسان في المملكة وأمثلة للخروقات القائمة، تقدم المذكرة عدة مقترحات لتحسين الوضع الحقوقي الإنساني، بل إنها تؤسس بالفعل لمشروع نظام حقوقي ثم عرضه في أربعة عشر نقطة نذكر منها:

---

(٩٣) مذكرة النصيحة ، ص٤٥ .

(٩٤) هناك قوانين مجحفة بحق المرأة مثل منعها من سياقة السيارة، أو الزواج بغير السعودي، وكذا العمل والسفر، وغير ذلك مما لا أساس له في شريعة الإسلام.

(٩٥) المذكرة ، ص٤٤ .

١ ــ إلغاء كافة التعلميات والأوامر، والأحكام في الأنظمة وفي لائحة الإدعاء والتحقيق ولائحة التوقيف على الأخص، التي تجيز التعدي على حقوق الأفراد من منع من السفر، ومن تصنت أو تجسس على الرسائل والمكالمات أو تفتيش البيوت هدف افادة التحقيق، والحظر التام لإرتكاب هذه الأعمال إلا في الأحوال المخصوصة التي أجازها الشرع بالدليل الصحيح وبعد صدور حكم قضائي شرعي.

٢ ــ المنع المطلق لكل تصرف ينجم عنه تعذيب المتهمين أو استخدام وسائل محرمة تنتهك فيها كرامة الانسان لانتزاع المعلومات منهم قسراً أو إجبارهم على الإعتراف من قبل أفراد شرطة الأمن أو الضبط الجنائي.

٣ ــ التعميم عل كافة الإدارات الحكومية والإجهزة الأمنية وأجهزة الضبط الجنائي المتعددة بالإمتناع عن سجن أو إيقاف أي شخص مدة فوق يوم وليلة، أو تفتيشه أو دخول بيته أو منعه من السفر إلا بناء على أمر وإذن قاض شرعي في ذلك.

٤ ــ تكوين لجنة عليا مستقلة عن الإجهزة الحكومية للحقوق الشرعية ترتبط برئيس مجلس الوزراء مباشرة، يكون أعضاؤها من عدد من القضاة والعلماء والمفكرين المتميزين في دراسات وفقه الحقوق الشرعية. ويناط بهذه اللجنة الإشراف على ضمان عدم إنتهاك حقوق الأفراد الشرعية من قبل الإجهزة الأمنية أو الحكومية ، والمراجعة الشاملة للتعليمات والأنظمة أو التصرفات التي نجم عنها إنتهاك للحقوق الشرعية المشروعة والرفع عن كل مخالفة شرعية في ذلك لألغائها أو إحالتها إلى القضاء الشرعي المختص.

وهذا مطلب مهم جداً لأنه سيقلص من صلاحيات وزارة الداخلية ومن سلطة المخابرات بالتحديد لأنها، هي موضوع إنتهاك حقوق الإنسان. هذه الحقوق التي سيتمكن الفقهاء والمفكرون من تحديدها. وكذا تجريم المتهم، أو اعلان براءته. فلا شك أن منطلقات رجال الفكر والفقه تختلف عن منطلقات

رجال الأمن أصحاب المهام التنفيذية فقط.

٥ ـ إزالة الأنظمة والتعليمات التي تمنع الأفراد وتشترط الترخيص لهم قبل ممارسة حقوقهم المشروعة التي أباحها الشرع من نكاح أو سفر أو تعبير عن رأي، أو تكوين الجمعيات الدعوية أو نشاط النشر والتأليف والتوزيع وقصر المنع من ممارسة هذه الحقوق أو العقوبة عليها عند الإقتضاء على حكم القضاء الشرعي.

وفي هذا البند إشارة إلى مشكل يعاني منه المواطنون كافة داخل المملكة باستثناء أعضاء الأسرة المالكة وهو تحريم الزواج من النساء العربيات من غير الخليجات إذ لا يسمح القانون بادخالهم إلى الدولة إلا بعد إجراءات طويلة وعريضة أهمها إيصال رشوة «مبلغ مهم من المال» إلى أحد الأمراء كي يحصل المرء على تسريح بدخول المرأة. لذلك تجد الكثير من المواطنين السعوديين يتزوجون من سوريات أو لبنانيات أو مصريات أو من شمال أفريقيا ويتركون زوجاتهم في أوطانهن الأصلية ويكتفون بزيارتهن بين الحين والآخر. ولست أدري من أين إستمد النظام السعودي هذا القانون، فالأنظمة القانونية المنظمة للعلاقة الزوجية عند الغربيين «الكفار»، لا تمنع من إلتحاق الزوج أو الزوجة بعضهما البعض في أي موطن يختار أحدهما الإقامة فيه بحكم عمله أو غير ذلك. لكن الدولة التي تتخذ القرآن دستوراً لها تمنع من إلتحاق الزوجة بموطن إقامة زوجها.

والذي يجب أن يُعلم وقد علمه جل المتنورين السلفيين وغيرهم هو ان قصور الأمراء تعج بالنساء العربيات والمسلمات وغيرهن من كل بلد عربي أو اسلامي وكذا جنسيات متعددة. إما على شكل زوجات شرعيات أو خادمات أو وصائف وجواري، ويظهر ذلك جليا عندما يعرف في بعض المناسبات ان أم الأمير الفلاني لبنانية أو سورية أو مصرية أو غير ذلك.

وأخيراً ينتهي فصل الحقوق الإنسانية بمطلب مثالي لا يمكن تحقيقه في أي

دولة عربية أو اسلامية وهو «تقديم دورات شرعية لرجال الأمن والمحققين والمباشرة لأعمال الإحتجاز لتعليمهم الأحكام الشرعية في مسائل التحقيق والأدلة والبينات وحقوق المسلم واصول التعاون بين المتهمين»[٩٦].

والسبب في إستحالة تحقق مثل هكذا مطلب هو حرص وزارات الداخلية في العالم الإسلامي على إستخدام نوعيات من الأفراد أهم ما يجب ان يتصفوا به، بساطة وضعف إلتزامهم بالدين والأخلاق (الأخلاق الفاضلة بالمفهوم الإسلامي التقوي). كما أن أصحاب المهام الأمنية الخطيرة كمواجهة ما يسمونه الحركات الأصولية والمتطرفة، يتلقون تدريباتهم في الخارج على يد أجهزة المخابرات العالمية ـ الغربية بالخصوص ـ. كما أن هناك تعاونا وثيقاً بين هذه الأجهزة في العالم الإسلامي ونظيراتها في أوربا وأمريكا. وياحبذا لو تُعومل مع الفرد في العالم الإسلامي بنفس التعامل الذي تتعامل به أجهزة الأمن المختلفة في أوربا وأمريكا مع مواطنيها؟!.

لقد حاولت قدر المستطاع ان أقرب القارىء من مجمل مضمُون المذكرة السلفية، لأن الوضع لا يسمح بايرادها كاملة، كما تعمدت نقل الكثير من نصوصها. وذلك لإعطاء القارىء فكرة جلية عن مدى التطور الذي عرفه قطاع من التيار السلفي العام، ليس فقط في قدرته على متابعة ما يقع داخل المملكة ولكن في قدرته على وضع الحلول وشرحها ووضعها في برنامج منظم ومتكامل، وإذا بحثنا عن السبب وراء هذا التطور! يكفي ان نعرف أن من بين مائة وسبعة من العلماء والفقهاء والخطباء والأساتذة الذين وقعوا على هذه المذكرة وساندوها ثلاثة وأربعون دكتوراً في مختلف الإختصاصات.

لهذا كنا نؤكد قبل قليل بأن وراء المذكرة نخبة سلفية متنورة وبعيدة عن طريقة وعقلية السلفيين القدامى ومن بينهم ما يسمونهم «كبار العلماء»، فإبن باز مثلا زعيم هؤلاء الكبار وموضع ثقة الحكومة لم يكتب هذه المذكرة، وانما

(٩٦) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

لم يجد فيها ما يخالف الواقع فزكاها وتقبلها بقبول حسن ووعد بإيصالها إلى المسؤولين. وهذا لا يعني ان إبن باز لا يعرف الوضع الحقيقي الذي تعيشه البلد قبل انفجار أزمة الخليج الثانية وإستقدام الجنود الغربيين إلى المملكة. ولكنه وحسب ما نقل عنه «يعلم بما تفعله الحكومة مما يخالف الدين، لكنه يعتقد أن مسؤوليته الراهنة هي الصمت تجاهها حتى لايوفر لها الفرصة التي تبحث عنها لتحجيم قوة المتدينين»[97].

لكن التيار السلفي المتنور وجدها فرصة مؤاتية للصراخ والتنديد وعرض المطالب، بدل الصمت. وبذلك إنقسم السلفيون عامة إلى قسمين تتجاذبهم الإنتقادات والصراعات، خصوصاً لما علم بصدور المذكرة وتحركت الحكومة لإحتواء الموقف وإستنجدت باعضاء المؤسسة الدينية للرد على المذكرة وعلى أصحابها، وإذا كان إبن باز قد أرسل رسالة إلى الموقعين على المذكرة يؤيد ما يذهبون إليه. فإن الحكومة ستدفعه ومعه هيئة كبار العماء للرد على «مذكرة النصيحة»، وهذا لعمري مبلغ التهافت والخنوع وفقدان الاستقلالية لدى رجال يرفعون شعار التوحيد والعبودية لله وان لاخضوع ولا طاعة إلا لله. ومع ذلك يرمون بأنفسهم في هوّة سحيقة لا قرار لها.

□ تهافت المواقف السلفية :

لقد اجتمع مجلس هيئة كبار العلماء بالطائف في ربيع الأول سنة ١٤١٣هـ وأصدر بياناً يشجب فيه هذه المذكرة المرفوعة إلى «خادم الحرمين الشريفين». يقول البيان: «وبعد تأمل مذكرة النصيحة ومناقشتها رأى المجلس إصدار هذا البيان الذي يستنكر به ما اشتملت عليه هذه المذكرة من الباطل وما هو خلاف الواقع وطريقة إعدادها ونشرها، وقد عمل معدوا هذه المذكرة

---

(٩٧) مجلة الجزيرة ، عدد فبراير ١٩٩١م ، دراسة لتوفيق الشيخ ، ص٣٨ .

بهذه الطريقة على ترويج أسباب الفرقة وزرع الضغائن وإختلاق المثالب أو تجسيمها مع التغاضي الكامل عن كل محاسن الدولة[٩٨].

طبعاً لقد تابع القارىء النصوص التي اقتطفناها من هذه المذكرة ولا أظنه بعد ذلك سيوافق على ما جاء في بيان الرد. فأين هي «أسباب التفرقة وزرع الضغائن وإختلاق المثالب» في ما كتبه هؤلاء من وصف لواقع ملموس أتوا عليه بالشواهد والأمثلة الحية، وهل عندما تشير المذكرة على أن كثيراً من القوانين المنظمة للإقتصاد مثلا، مأخوذة من المصادر الأجنبية غير الإسلام تكون بذلك تزرع الضغائن؟! لست أدري كيف!؟.

وعندما تتكلم المذكرة عن الوضع المزري لحقوق الإنسان وما تقوم به وزارة الداخلية من خرق لهذه الحقوق، تكون بذلك تختلق المثالب. ان بيان الرد على المذكرة جاء هزيلا ومتناقضا ويثير الضحك والسخرية لدى كل من قرأ المذكرة. وهذا إن دل فإنا يدل على حقيقة مهمة وخطيرة ذكرناها في مقدمة الفصل الثاني وهي أن السلطات السياسية في العالم الإسلامي قد ساهمت في الماضي في صنع المذاهب والمؤسسات الفقهية والدينية، ليس لخدمة الدين والحقيقة، ولكن لتحريف هذا الدين وتزوير الحقيقة والكذب على الناس وتضليلهم وإبعاد الحقائق عن أعينهم، كي يضل الوضع على ما هو عليه من الظلم والجور والإستبداد.

□ يا أبناء الصحوة الاسلامية إحذروا :

واليوم تؤكد هيئة كبار العلماء السلفيين كمؤسسة دينية في المملكة السعودية هذا الواقع. فعلى أبناء الصحوة الإسلامية أن ينتبهوا إذن لكل ما يصدر عن هؤلاء العلماء الكبار من أقوال وفتاوى وإستنباط. وإذا وصف الله سبحانه وتعالى مكر اليهود بأنه مما تنهد منه الجبال فإن من غير المستبعد أن

---

(٩٨) مجلة الجزيرة العربية ، عدد ٢١ أكتوبر ١٩٩٢م ، ص٤٧ .

تتكفل المخابرات الأمريكية والبيت الأبيض من الآن فصاعداً وقبل الآن؟! بإملاء ما يجب على أبناء الصحوة الإسلامية ان يفعلوه بل يمكنهم رسم الخط العام والخاص الذي يجب ان تسير فيه هذه الصحوة.

فالقرار قد يصدر هناك فتحمله الرجال أو الأقمار الصناعية، وقد يصل إلى المتنفذين والمتعاونين مع الغرب «عدو الصحوة» ومن ثم يجد طريقه إلى عقول رجال الدين المشرفين على المؤسسات الدينية الذين تؤدي رواتبهم الدولة وتشرف على أعمالهم، فيتحول ذلك القرار أو الأمر إلى استنباط من كتاب الله وسنة رسوله(ص) أو إجتهاد اسلامي إذا اخطأ صاحبه فله أجر وإذا أصاب فله أجرين؟!

وهذا الواقع والمثال ليس حكراً على المؤسسة الدينية السلفية. وإنما يجد له الأمثلة والنماذج المماثلة في باقي بلدان العالم الإسلامي.

وقد وقفت يوماً مذهولاً وأنا أقرأ نص الحوار الذي أجرته إحدى المجلات العربية مع مفتي مصر. حيث سألته المجلة عن حقيقة التهم التي يوجهها الأصوليون «أبناء الحركة الإسلامية» في مصر للدولة من أنها تنشر الفساد بترخيصها بيع الخمور، وغضها الطرف على إنتشار الدعارة المنظمة. فكان رد المفتي، إستغراباً واستنكاراً وقال هذا الكلام غير صحيح أنا لا أرى خمراً تباع ولا فساد في مصر.

إن هذا الرجل الذي وضعته الدولة في موقع يمكنه أن يحلل الحرام ويحرم الحلال، يسكن برجاً عالياً جداً لا يسمع فيه ضجيج المجتمع. وهو مع ذلك قد أغمض عينيه وأغلق أذنيه ولم يعد يرى أو يسمع سوى ما تمليه عليه الإرادة السياسية للحكومة القائمة. طبعاً هذا الكلام عندما يسمعه جمهور الناس وخصوصاً البسطاء منهم يضحكون ويستهزئون في نفس الوقت على السذاجة المتعمدة لهؤلاء العلماء والفقهاء. ولو نزل السيد المفتي ونزع لباسه الديني وسأل في الشارع أي مواطن عن مخمر أو مكان قريب يباع فيه الخمر

لدلوه على عشرات الأمكنة ولربما كان إحداها لايبعد عن منزله سوى بضعة أمتار. أما بيوت الدعارة وأماكن بيع الهوى، فيعرفها الخاص والعام.

ونحن هناك لانعرض لواقع انتشار الخمر وبيوت الدعارة في مصر لأن ذلك أصبح ظاهرة تعم معظم البلدان العربية في الوقت الحاضر، وهذا ليس مما أحدثه الإستعمار كما يدعي البعض، فظاهرة انتشار بيع الخمر وبيوت الدعارة ظاهرة لازمت التاريخ العربي والإسلامي منذ صدر الإسلام وإلى يوم الناس هذا. ففي عهد عمر بن الخطاب مثلا استفحلت ظاهرة الخمر في المدينة مما استدعى البحث عن حد السكران وكيف ان الصحابة اختلفوا في تحديد هذا الحد.

إن هذه المؤسسات الدينية التي تنشؤها الحكومات يجب أن تفقد مصداقيتها عندما تتعرض للفروع وجزئيات الأمور الدينية.لأنها لو أصغي لها في هذه الأمور البسيطة، فسيتخذ رجالها من ذلك مقدمة وأرضية للتعرض للقضايا الكبرى والفصل فيها، من ترجيح وتحريم أو تحليل، وهذه هي الطامة الكبرى التي تنذر بالإنحراف الكبير. وقد كان بنو اسرائيل كما حكى عنهم القرآن يحرفون كلام الله وحكمه بعدما عقلوه. وجاءت الأحاديث النبوية بأن هذه الأمة ستتبع خطا أهل الكتاب بحيث «لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»(٩٩).

وعليه فالحكم بكفر المعارضات السياسية للأنظمة الحاكمة وإصدار الفتاوى في حق بعض المفكرين أو المصلحين لأنهم مفسدون في الأرض وغير ذلك من الأحكام الجائرة والظالمة والتي يُعصى فيها الله إرضاءً لرجال الحكم. يجب ان لايأخذها المجتمع مأخذ الجد، بل يتهمها ويتهم اصحابها. وأن ينظر إليها بكثير من الشك والريبة حتى يتبين له الحق من الباطل. فإن الخوف على هذه

(٩٩) قال رسول الله(ص) : «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن؟ .

الأمة. كما أخبر الحديث من «منافق عليم اللسان».

أرجع بعد هذا الإستطراد الطويل لمتابعة الردود الرسمية والعلمائية التي أقامتها الدولة لأحتواء تداعيات «مذكرة النصيحة» فإن البيان بعدما شكك بالواقع الذي ذكرته، اتهم كتاب المذكرة بالإرتباط بالجهات الأجنبية وباعتناق أفكار منحرفة، هذا مع العلم أن المذكرة مشحونة كعادة السلفيين ـ عند الكتابة ـ بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ويزداد الطين بلة عندما يوقع الشيخ إبن باز عى هذا البيان الإستنكاري وهو الذي زكى المذكرة قبل ذلك؟! وهناك ملاحظة طريفة جداً وتتمثل في غياب عدد كبير من علماء الهيئة ورجالها عند توقيع بيان الإستنكار. فسبعة من العلماء على الأقل لم يحضروا التوقيع وتغيبوا لظروف صحية. وكأن الحمى المالطية قد إجتاحت مجلس الهيئة فجأة فأصابت مجموعة من رجاله؟!.

ومضمون البيان الاستنكاري إذا قورن بأقوال الفقهاء والعلماء والدكاترة السلفيين الذين حاورتهم جريدة «عكاظ» يبدو هادئا ويروم نحو الإتزان والتلميح بدل التصريح. فقد وصف أحد السلفيين بأن الموقعين على المذكرة هدفهم زعزعة الأمن والعبث بمقدرات المسلمين.

بل ذهب الشيخ قاسم بن علي الشماخي إلى أن أصحاب المذكرة لسوا من الإسلام في شيء وأضاف: «ان كتابة مذكرة النصيحة ليس من الاسلام، فالإسلام بريء من مثل هؤلاء وندعو لهم بالهداية» وقال مثل ذلك الدكتور طلال البكري «مثل هؤلاء لا يفقهون من الدين شيئاً ولا علم لهم بالدين».

□ حد الحرابة :

أما الشيخ مطر الزهراني فقد طالب ضمنياً بإنزال العقوبة بحق الموقعين على المذكرة باعتباران المراد بالمذكرة ـ حسب قوله ـ هو: «زعزعة النفوس وأحداث القلاقل وتفريق شمل الأمة الإسلامية في هذا البلاد... ويجب ان

يعاقب فاعله وينال جزاءه إذا تحقق من هذا ان المراد به احداث الفتنة والقلاقل» وزاد على ذلك بالقول بأن «السير وراء أنصاف المتعلمين ومدعي العلم وبعض الجهلاء فإن ذلك مفسدة يجب درؤها»[100].

وبذلك يطل «حد الحرابة»[101] برأسه من جديد، ويحوم السيف السلفي الوهابي الذي قطع الكثير من رؤوس أهل السنة والإمامية، حول رؤوس فئة متنورة ولدت في قلب الدولة السلفية. فليس هناك ما يمنع من تكفير ثلاثة وأربعين دكتوراً في العلوم الإسلامية، كلهم يعتبر شيخ الإسلام إبن تيمية شيخه وقدوته في الدين والدنيا.

لقد وقع هؤلاء وغيرهم ممن وقّع على المذكرة، في المحضور، فالشيخ السلفي الشماخي يقول «ان كتابة مذكرة النصيحة ليس من الإسلام»، فكيف يحق لهم ان ينصحوا ولاة الأمر؟! وكيف سمحت لهم أنفسهم أن يقولوا ان التعذيب ومنع الخطباء من الدعوة انتهاك لحقوق الإنسان؟! ان ذلك ليس من الإسلام السلفي في شيء وهو حرام ومحضور، يجب عقاب مرتكبيه بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف لأنهم يحاربون الله ورسوله؟! ويستمر الهراء وتتلاعب الأهواء السياسية بالواقع الديني والحياتي في العالم الإسلامي؟!.

□ لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية :

لقد أحدثت «المذكرة» ضجة إعلامية لابأس بها وأعقبتها حركة من الردود والنقاشات، لكنها لم تصل إلى تحقيق ما توخاه «أصحابها من إستنصاح ولاة الأمر، وإحداث تغيرات أو إصلاحات في المرافق التي تعاني من فساد لأن

---

(١٠٠) المرجع السابق، ص٤٧ .

(١٠١) هذا يذكرنا بالأسلوب التاريخي لتعامل الأنظمة السياسية مع أي معترض أو ناقد وكذا الحدود التي لا يمكن لرجل الدين او المفكر ان يتجاوزها. يقول كشك : «عندما احتج فيصل الدويش على طول ثوب «الإمام» ـ أي الملك ـ أعطاه المقص وتركه يقص ما يتجاوز حد الدين . ولكن لما هدد الدويش النظام قص رقبته».

الحكومة والأمراء أداروا لها ظهرهم ولم يعتبروا ان لهؤلاء المفكرين الحق في الإملاء على الإسرة الحاكمة ما يجب أن تفعله، لذلك ستأخذ المبادرة مجموعة أخرى من العلماء والمفكرين وسيقومون باعلان عن تأسيس «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» في ١٩٩٣/٥/٣م.

وبعد كتابة عريضة التأسيس وقع عليها كل من محمد الصليفيح من كبار رجال التعليم معروف بنشاطه السياسي والإجتماعي. عبد الله بن سليمان المسعري، قاضي متقاعد ورئيس ديوان المظالم «أمين اللجنة» عبدالله بن عبدالرحمان الجبرين، من كبار العلماء في المملكة وعضو رسمي للإفتاء، عبدالله الحامد، حامل الدكتوراه وعضو هيئة تدريس في جامعة الإمام. سليمان بن إبراهيم الرشودي، أول من زاول مهنة المحاماة في المملكة. عبدالله بن حمود التويجري، أستاذ في جامعة الإمام ورئيس قسم أكاديمي فيها[١٠٢].

أما العريضة فقد جاء فيها: «فقد تظافرت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب حفظ كرامة الإنسان وحقوقه الشرعية، كما فرضت الشريعة على المسلمين نصر المظلوم ورفع الظلم فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبع، وذكر منها «نصر المظلوم» متفق عليه... ولما كان أهل العلم الشرعي وطلبته أولى الناس بالقيام بفرائض الدين فإننا نعلن في هذا البيان، إستعدادنا للمساهمة في كل ما من شأنه رفع الظلم ونصر المظلوم والدفاع عن الحقوق التي فرضتها الشريعة للإنسان، جاهدين ان نتحرى الوسائل الشرعية وان نلتزم هدي الكتاب والسنة. بناء على ذلك فإن من يرغب أن يوافينا بمظلمة أو معلومة موثقة تعين عى رفع الظلم ونصرة المظلوم والدفاع عن «الحقوق الشرعية فإننا مستعدون لاستقبالها على العناوين والهواتف المذكورة أدناه..»[١٠٣].

(١٠٢) مجلة الجزيرة العربية، عدد ٢٩ يونيو ١٩٩٣ / ذي الحجة ١٤١٣هـ، ص٦.

(١٠٣) نقلت وكالة رويتر عن محمد المسعري قوله: إن اللجنة شكلت إثر إعتقال اثنين من ==

وإذا كان مجلس هيئة كبار العلماء قد تصدى «للمذكرة السابقة واصدر بياناً يندد بها فإنه سيقوم بنفس العمل بخصوص لجنة الدفاع. معلنا استغرابه واستنكاره لهذا العمل ويقرر بالإجماع عدم شرعية قيام هذه اللجنة وعدم جواز اقرارها»[١٠٤] أما الأسباب التي ذكرها البيان الإستنكاري فلا تعدو التذكير بأن المحاكم الشرعية منتشرة في المملكة وتقوم بهذا الدور. وذكر أن أصحاب هذه اللجنة يعلمون ذلك.

ولكن هذا البيان الإستنكاري نسي أن مذكرة النصيحة قدتعرضت لهذه المحاكم وإنتقدتها بشدة وقدمت المقترحات لتطويرها كما ان هذه اللجنة وخصوصاً مشاركة المسعري فيها وهو قاض ورئيس ديوان المظالم يؤكد حقيقة وضع الحقوق الشرعية داخل المملكة. أما بخصوص عدم شرعيتها من الناحية الدينية فإن الشيخ بن جبرين وهو أحد الموقعين على بيان التأسيس، عضو رسمي للإفتاء، ويكفي وجوده وإمضاؤه للإستدلال على شرعيتها. أما مسالة إنسحابه من اللجنة بعدما أثيرت حولها الزوابع وكثرت الضغوطات على أصحابها فإن هذا الموقف يطعن في مصداقية هؤلاء العلماء الذين

= رجال الدين السعوديين هما الشيخ محمد الديبان والشيخ محمد عبود العسيري واضاف، ان الديبان اعتقل للمرة الثالثة في نهاية أبريل الماضي، وان العسيري معتقل منذ عدة أشهر. ولم يذكر المسعري الآراء التي أعتقل بسببها الديبان والعسيري، إلا أنه قال أنها لا تبرر المعاملة التي يتلقيانها. وقال ان قضيتهما لم تكن الوحيدة التي ادت الى تشكيل اللجنة ولكن يمكن القول انها كانت «الشرارة التي أطلقت الموضوع» واختتم المسعري تصريحه لرويتر، ان اللجنة غير مرتبطة بجماعات حقوق الإنسان في الغرب مثل منظمة العفو الدولية لأنها قائمة على العقيدة الإسلامية. لكنه أضاف ان هذا لا يمنع قيام تعاون مع هذه الجماعات في المستقبل. أنظر المرجع السابق.

(١٠٤) أفتى الشيخ بن جبرين ــ قبل ان ينسحب من اللجنة ــ بأن الأخيرة مكلفة شرعاً بالدفاع عن حقوق البشر وانصافهم من المظالم بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية او الفكرية أو العرقية، ولذلك فإن اللجنة ستهتم بالدفاع عن كل من يتظلم لها ممن يسكنون المملكة او يتواجدون فيها.

يقدمون رضا الحكومة على الحق، عند كل إختبار يقعون فيه سواء أكان إرادياً أو إضطرارياً. كما ان خروجه من اللجنة لا يسحب منها الشرعية أبداً إن كان ـ هذا العالم ـ قد أفتى عملياً بشرعيتها وشارك فيها[١٠٥].

كما أن هذا البيان يطرح تساؤلاً كبيراً حول مفهوم «الشرعية»[١٠٦]، فهل كل ما لاترغب فيه الحكومة يعتبر غير شرعي؟! وما علاقة الإسلام بذلك؟! فاصحاب اللجنة علماء دين! بل منهم من يعتبر من كبار العلماء والمفتين. ولو كانت اللجنة مخالفة للإسلام لما قام هؤلاء بتأسيسها. ولكن يظهر كما أشرنا إلى ذلك من قبل، بأن هناك مفهومان للإسلام، إسلام رسمي حكومي لا أحد يعرف كيف يتم استنباط الأحكام من خلال نصوصه؟! وما هي حدود الحلال والحرام لدى أصحابه؟ وما هي الظروف والعوامل التي تجعل من عمل ما حرام وغير شرعي في الصباح لكنه يغدو بعد الظهر حلالا يأثم من لم يفعله!.

هذه المفارقة واكبت تاريخ الإسلام منذ فجره وإلى الآن وهي السبب في ظهور مصطلحات ومفاهيم مثل «وعاظ السلاطين» و«فقهاء النظام». لذلك لم يكن الشيخ سلمان العودة مجانبا للصواب عندما انتقد البيان الإستنكاري لقيام اللجنة ووصف العلماء الذين كتبوه بأنهم «موظفون لدى الحكومة».

---

(١٠٥) المرجع السابق ، ص٧ .

(١٠٦) لما إجتمع أمير الرياض بالأعضاء المؤسسين للجنة «أبلغهم على الفور تنديد العائلة الحاكمة والحكومة السعودية بمثل هذا الإجراء وطالبهم بالتراجع عنه لأنه مخالف للشرعية السياسية والشرعية الدينية في نفس الوقت. فرد أعضاء اللجنة بأنهم ــ وهم من الحقوقيين والعلماء ــ على يقين بأن هذا الأمر لايخالف الإسلام، بل يحض الإسلام عليه ويكلف به المؤمنين به بالدفاع عن المظلومين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهددهم الأمير بأنه سيطلب من المؤسسة الدينية أصدار بيان يندد بهم ويبين حكم الشرع في مثل هذا الأمر»! أنظر مجلة الجزيرة ، عدد ٢٩ يونيو ١٩٩٣م ، ص١٢ .

□ **الهجوم على اللجنة وأصحابها :**

وإذا كانت «مذكرة النصيحة» قد اثارت استنكار الأسرة المالكة التي حاولت استيعاب تداعياتها. فإن الموقف تجاه «لجنة الحقوق الشرعية» كان صارماً وغير متوقع، اذ صدرت التعليمات بفصل خمسة من أعضاء اللجنة من وظائفهم ولم يسلم إبن جبرين من الفصل من الرئاسة العامة للإفتاء رغم تراجعه وانسحابه. أما الباقي فقد منعوا من التدريس بالجامعات. «كما صدرت التعليمات بسحب رخص المحاماة والإستشارات وما يتعلق بها، الممنوحة لكل من عبدالله بن سليمان المسعري وسليمان بن إبراهيم الرشودي وإغلاق مكتبيهما وفروعهما في المدن السعودية[١٠٧]. بالإظافة إلى مضايقات أمنية.

وقد استدعي أمين اللجنة المسعري للتحقيق ومنع من إعطاء أي تصريح أو مقابلة مع الإعلام الأجنبي. هذه الإجراءات وغيرها قوبلت باستنكار واسع النطاق داخل صفوف التيار السلفي خصوصاً المؤمنين بضرورة التغيير، ومنع على أثر ذلك عدد من الخطباء من إلقاء خطبهم لأنهم ندّدوا بتصرف الحكومة مع أصحاب اللجنة. وإذا كانت أصداء «مذكرة النصيحة» محدودة نوعاً ما فإن خبر هذه اللجنة الحقوقية قد تداولته الصحافة العالمية. كما تابعت منظمة ليبرتي الحقوقية يوميات وأخبار هذه اللجنة وأصحابها. وقد زاد اللقاء الذي عقده أعضاء من السفارة الأمريكية في الرياض مع رئيس اللجنة المسعري في زيادة الإهتمام بأخبار اللجنة ورجالها مما أربك الحكومة. وازداد الوضع الداخلي توتراً مع زيادة التأييد الداخلي للجنة فقد وصلت إلى اللجنة خطابات تأييد من أكثر من أربعمائة (٤٠٠) شخصية علمية وفكرية.

إن لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية إجراء عملي لتحقيق ما دعت إليه مذكرة النصيحة، وإعادة صياغة محتوياتها بشكل واطار آخر من خلاله سيتم

---

(١٠٧) مجلة الجزيرة ، م س ، ص٧ .

إستعراض كل المشاكل ومواطن الفساد في الدولة الحالية. يؤكد ذلك ما جاء في نص الحوار الذي أجرته (بي.بي.سي) القسم العربي مع سكرتير اللجنة الدكتور محمد المسعري، فقد تكلم عن «التجاوزات التي تصدر من شخصيات بارزة» وعن ضمان الحقوق المدنية للإقليات الدينية المتواجدة داخل السعودية. والتي ما فتىء علماء السلفية يلهجون بتكفيرها ورميها بالضلال والإنحراف[١٠٨]. كما تعرض الحوار للوعود التي قدمتها الأسرة الحاكمة بشأن تطوير الحياة السياسية، وأن شيئاً لم يتحقق في هذا الاتجاه!؟ بالإضافة إلى الحديث عن الشورى والديمقراطية وفكرة التحديث العام، والمجتمع المدني.

لقد عرف تأسيس هذه اللجنة صدى واسعاً في الداخل والخارج، وان كانت الحكومة قد تعاملت معه بخشونة وصراحة. إلا أن ذلك لم ينهِ الموضوع، لأن بعض أعضاء اللجنة سيغادرون المملكة الى الغرب للإعلان عن استمرارية اللجنة. ومتابعة أصحابها الأهداف التي أعلنوها عند التأسيس، لذلك فموضوع هذه اللجنة مازال حياً ولم تستطع الحكومة ان تقبره. بل بين الحين والآخر تتعرض وسائل الإعلام العالمية لأنشطة هذه اللجنة وأخبارها؟!.

(١٠٨) في الحجاز هناك العديد من أتباع المذاهب الأخرى بجميع اتجاهاتها. كما ان غالبية المسلمين السنة في الإحساء يتبعون المذهب المالكي شأنهم في ذلك شأن معظم الخليجيين الآخرين في الكويت وقطر والإمارات، كما أن معظم السكان في تهامة الجنوبية وعسير والباحة يتبعون المذهب الشيعي الإسماعيلي، أما في المنطقة الشرقية فإن غالبية السكان من الشيعة الإمامية. ولكل من هذه المذاهب علماء يدرسون غالباً في الخارج، ولازال خريج الجامع الأزهر يعتبر في مساجد الحجاز أرفع شأناً من نظيره المتخرج من الجامعات الدينية السعودية، ويميل العلماء من هذه المذاهب واتباعهم الى التسامح عادة، كما انهم أكثر انفتاحاً على التيارات الثقافية والإجتماعية الجديدة، وربما كان مرجع ذلك هو إحساسهم بالإضطهاد، ومحدودية الفرص المتاحة لهم للتعبير عن معتقداتهم، ويتعرض هؤلاء لعداء الخط الديني التقليدي كما الخط السلفي، وقد حكم على الشيخ محمد بن علوي المالكي وهو عالم دين بارز من مكة المكرمة بالمروق من الدين، لأنه أجاز الأحتفال بالمولد النبوي الشريف» أنظر مجلة الجزيرة العربية ، عدد فبراير ١٩٩١م ، ص٣٩ .

□ الخلاف في تصاعد مستمر :

بعد هذه التتبع المقتضب لمسيرة الوفاق والإختلاف بين الأسرة السعودية والحركة الوهابية يتبين أن الخط الخلافي الذي تأسس على قاعدة إتفاقية في تصاعد مستمر نحو المواجهة والإختلاف الحدي، مع ملاحظة، ليس فقط حجم الصراع وتوسعه ولكن نوعية الصراع ونضجه، لأن مما لاشك فيه أن أسباب الخلاف التي فجرت الصراع بين الإخوان والملك عبدالعزيز في النصف الأول من هذا القرن، ليست هي نفسها التي تضمنتها مذكرة النصيحة. كما أن فكرة تأسيس لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية تعتبر تجاوزا للفكر السلفي الوهابي التقليدي. كما وقد أفصحت هذه المعارك والصراعات على إنشقاقات في التيار السلفي العام، وميزت المؤسسة الدينية الرسمية المُستوعبة من طرف الحكومة، عن الفئات المتنورة التي ولدت داخل هذا التيار والتي تربت داخل الجامعات وتعرفت على العالم الخارجي.

لكننا سنسجل بكل أسف وحسرة انحصار هذا الخط التنويري داخل التيار السلفي ومحاصرته من طرف المؤسسة التقليدية وعلمائها والحكومة المتربصة والخائفة من هذا التطور. أما أسفنا فبسبب انتشار الدعوة السلفية في أوساط الصحوة الإسلامية بشكل مثير، ومدى الوعي الذي تنشره هذه الدعوة داخل هذا الوسط، فالإهتمامات التقليدية لهؤلاء السفليين المنتصرين والذين يتلقون الدعم والتأييد الحكومي لاتعدو، إرخاء اللحى وتقصير الثوب والإهتمام بالجزئيات الفقهية أثناء الدعوة.

بالإضافة الى إثارة الفتن المذهبية ورمي فئات واسعة من المسلمين بالكفر والشرك، لأنهم لا يقلدون المذهب الوهابي في الأصول. أما هذا الخط السلفي المتنور فقد أظهر من خلال انتاجه وتصريحات أصحابه انه يحتضن

وعيا متقدما بعض الشيء في معالجته لقضايا المسلمين العامة[١٠٩]، السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وتحرراً بعض الشيء من جزئيات وشكليات لم يستفد منها المسلمون سوى ضياع الطاقات وإهدار الإمكانيات، وتفجير الصراعات والأحقاد الطائفية لا غير.

❋ ❋ ❋

(١٠٩) إن ما تحدثنا عنه من تطور في الوعي السياسي والإجتماعي لدى هذه الفئة المتنورة من الوهابية (السلفية) قد شمل الكثير من القضايا إلاّ أن موقفهم الطائفي لم يتغير وخصوصاً تجاه المذهب والمجتمع الإمامي الذي يسمونهم (رافضه) مع ان الدولة السعودية نفسها سجلت تغيراً ملحوظاً في موقفها بعد حرب الخليج الثانية. فأحد رجالات هذا التيار الجديد وهو الشيخ فهد سلمان العودة إعتبر في محاضرته (أسباب سقوط الدول) المذهب الشيعي مذهباً باطنياً خبيثاً، وقال إن اليهود والنصارى كان لهم دور في نشوء الفرق (الروافض والخوارج) ويقول الدكتور سفر الحوالي في رسالة مطولة له: «... يجب على علمائنا الكرام التنبيه الى الخطر الرافضي القادم، وبيان فداحة الخطأ الذي تقع فيه الحكومة السعودية عندما تؤيد المعارضة العراقية الرافضية وتسميها (المعارضة الإسلامية)، وتصف آيات الله خلالها بأنهم علماء الإسلام، في حين تهاجم بلا هوادة جبهة السودان وجبهة الجزائر وأمثالها من الحركات الإسلامية التي مهما أخطأت فهي لاتقارن بخطر الرافضة».

عجيب! إن لهؤلاء السلفية تصوراً غريباً تجاه الشيعة الإمامية، لا أحد يعلمه! فأي خطر يمثله هؤلاء الشيعة؟ وعلى من؟ وكيف؟ فالحقيقة الوحيدة التي يعرفها أبناء الصحوة الإسلامية هي أن الشعب الإيراني وشيعة لبنان هم أعداء الغرب وأمريكا، وأنهم وحدهم لا غير يمكنهم أن يهددوا مصالح الغرب الإستعماري والوجود الإسرائيلي في المنطقة العربية. ولاأدل على ذلك من أن كل البنادق أُسكتت إلا بندقية الشيعي اللبناني الذي ما زال يصوبها تجاه إسرائيل وعملائها في جنوب لبنان.

السلفية دعوة عالمية

لقد كان لإنتصار الحركة الوهابية المسلحة وسيطرتها على مكة والمدينة، المدينتان المقدستان اللتان يحج إليهما عشرات الألوف من المسلمين كل سنة، أثره الفعال والمهم في إنتشار الفكر الوهابي خارج الجزيرة العربية. وعليه فقد غدا موسم الحج السنوي الفرصة الأكثر حيوية لدعاة الوهابية لنشر مذهبهم في التوحيد ومحاربة بدع التوسل والإستغاثة؟!.

فإلى جانب الخطب المنبرية والجلسات التفقيهية والوعظية المنظمة بمناسبة الحج، إهتم القائمون على الدعوة الوهابية بنشر كتب الشيخين إبن عبدالوهاب وإبن تيمية. وعدد كبير من الكراسات والمحاضرات التي تشرح أصول المذهب الوهابي التوحيدي الجديد، وتوزيعها مجاناً على الحجاج. كما أن التصرفات الغريبة والشاذة التي كانت تصدر من بعض دعاة الوهابية أو القائمين على رعاية الأماكن المقدسة كانت تثير ردود فعل مختلفة من طرف الحجاج وخاصة عندما كان الوهابيون يمنعونهم من مقاربة ضريح الرسول(ص) بحجة أن ذلك «شرك» وان من تمسح بالقبر أو وضع يده على الشباك المحيط بالقبر الشريف، فقد أشرك. وينادون على من يفعل ذلك يامشرك؟! كل هذه التصرفات كانت تثير لدى الحجاج تساؤلات عدة تدفع المتعلمين منهم للسؤال والبحث. وقد تعرف الكثير منهم على العقائد الوهابية من جراء ذلك.

أما إنتشار الوهابية في دول العالم الإسلامي فيعزى إلى طائفة من العلماء والفقهاء زاروا مكة والمدينة للحج فتعرفوا على عقائد الوهابية والتقوا معها في

مسألة محاربة البدع والخرافات العقائدية التي كانت منتشرة، ومن ثم شكلوا النواة الأولى للدعوة الوهابية في بلدانهم لما رجعوا من حجهم. بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الطلبة الذين إستوعبتهم الجامعات الدينية الوهابية، المؤسسة لتعليم المذهب الحنبلي وعقائده. ولقد كانوا فعلاً رسل المذهب وسفراءه في بلدانهم، ومن ثم بدأت أفكار الشيخين إبن تيمية وإبن عبدالوهاب تعرف طريقها نحو العالمية.

كما أن الدولة السعودية وبحكم تعلقها بالشرعية «الدينية السياسية» وإرتباطها بالدعوة الوهابية، قد بذلت جهوداً كبيرة لدعم هذا المذهب ونشره داخل الجزيرة وخارجها. وقد خُصص لهذا الغرض ميزانية ضخمة تصرف على طباعة الكتب الخاصة بالعقيدة الحنبلية «بصيغتها الوهابية». يقول الدكتور صالح بن عبدالله: وكم لهم من يد طولى في نشر كتب السلف الصالح وطباعتها وبذل الأموال الطائلة على التعليم ونشر الإسلام في الآفاق... فمنذ الملك عبدالعزيز وكتب السلف تطبع وتنشر وتوزع مجاناً، وهذه مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، والدرر السنية. ومجموعة فتاوى إبن تيمية وكتب إبن القيم وكتب الفقه والتفسير والحديث في ذلك بين أيدينا شاهدة على آثارهم(١١٠).

لقد اغنانا هذا الكاتب عن التعليق على قوله «نشر كتب السلف الصالح» فقد أوضح المقصود بذلك السلف الصالح! أي إبن تيمية وإبن قيم الجوزية. أما كتب الحديث فقد نشروا وطبعوا كل الكتب التي تدعم عقيدة التشبيه والتجسيم والتي هي من تراث الحنابلة خاصة. وقد اشرنا إليها في الفصل الثاني من هذا الكتاب ونقلنا عنها بعض الأحاديث الخاصة بهذا الموضوع.

---

(١١٠) د. صالح بن عبدالله بن عبد الرحمن العبود. عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، المجلس العلمي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط ١ ١٤٠٨هـ، ص٦٢٣.

وهذا النشر والطباعة لتراث الحنابلة وتوزيعه مجانا، لم يُقتصر فيه على المملكة الوهابية نشراً وتوزيعاً. وإنما تمت الإستفادة من أغلب دور النشر في مصر وبيروت ودمشق وبغداد والهند. وبذلك اتسعت رقعة التوزيع لتحيط بالسوق العربية والإسلامية للكتاب. وبما ان الكتاب السلفي الوهابي لا يشكل أية مشكلة بالنسبة لجهات المراقبة على الكتاب الإسلامي في الوطن العربي بالخصوص، فقد اغرقت الأسواق بهذا الكم الهائل من «كتب السلف الصالح». والتي أصبح من المتعذر عدم وجود بعضها ضمن مكتبات أبناء الصحوة الإسلامية.

كما تجدر الأشارة إلى ان المراكز الثقافية التابعة للحكومة السعودية والمنتشرة في جميع الدول الإسلامية تقوم بدور فعال في هذا المجال خصوصاً تزويد الطلبة بفتاوي شيخ الإسلام إبن تيمية(١١١).

بالإضافة إلى المراكز الإسلامية التي دأبت الدولة السعودية على إفتتاحها في العواصم الدولية وتزويدها بالكتب السلفية والخطباء والعلماء الوهابية. وإذا أضفنا إلى ذلك ظهور تيارات حركية سلفية داخل العالم الإسلامي، تابعة للمؤسسة الدينية السعودية. تكون الصورة قد اكتملت حول حجم ظاهرة الدعوة السلفية التي واكب ظهورها وانتصارها وسيطرتها على الحجاز والمدينتين المقدستين. بروز وتشكل الصحوة الإسلامية العالمية، حيث أدى التأثير السلبي على هذه الصحوة إلى إجهاض كثير من مشاريعها المستقبلية، وسقوط اتباعها في متاهات عقائدية وخلافية عمقت حالة التمزق والتشردم داخل الجسد الإسلامي.

***

(١١١) قامت مؤخراً سفارة المملكة العربية السعودية في الرباط بطباعة فتاوي ابن تيمية على نفقتها، وذلك لتوزيعها على المؤسسات الإسلامية أو من يطلبها من الطلبة والباحثين.

أسلوب الدعوة

□ يوميات المذهب الحنبلي في الدعوة :

لابد لمن أراد أن يعرف طرق ووسائل الدعوة «لمذهب السلف» أن يستحضر الماضي، ونقصد به تاريخ المذهب الحنبلي. لأن من لم يعرف طريقة الحنابلة في الدعوة لمذهبهم لا يمكنه أن يحيط بكل مظاهر الدعوة السلفية المعاصرة. أو ان يعرف أساليب أصحابها في نشر افكارهم وبث معتقداتهم. وقد احتفظ لنا التاريخ بعدة وقائع تصف حركة هؤلاء الحنابلة وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وكيف كانوا يجوبون الأسواق في تظاهرات مفاجئة يهجمون خلالها على المواخير وبيوت الغناء والرقص في بغداد، ويحدثون جلبة وفوضى، تستدعي تدخل الجيش السلطاني لأعادة الأمن وتفريق جماعات العوام المشاركة في هذا العمل الدعوي والإستنكاري.

لكن الأمر لم يكن ليقف عند هذا الحد، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل تعداه كما يقول صاحب النهج الأحمد: «لكنهم تجاوزوا ذلك كله، وذهبوا إلى محاربة من يخالفهم في بعض الآراء سواء في ذلك المسائل الأصولية أو المسائل الفروعية»[112].

مثل محاربتهم للأشاعرة وإعلان تكفيرهم والتهجم على علمائهم. فقد تعرضوا لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي وكفروه، وحملوا على إبن جرير

(١١٢) النهج الأحمد ، ج١ ص٣٧ . يقول المؤلف: «فقد كنا في عهد الصبا نسمع الرجل يصف رجلاً آخر، فإذا أراد ان ينعته بضيق الصدر والتزمت وصلابة الرأي وعدم انقياده للحديث يلقى إليه قال «إنه حنبلي» ولا يزال الناس الى يومنا هذا يذكرون هذه العبارة في مثل هذا المعرض» ، ص ٢١ .

الطبري صاحب التاريخ والتفسير ومنعوا من دفنه لما مات، فكان أن دفن في داره ليلا. يقول إبن خزيمة «ما أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة»[113]. أما إبن عقيل الحنبلي فله معهم قصة طويلة ذكرها أصحاب التواريخ. لقد كان إبن عقيل يتردد على بعض شيوخ المعتزلة ويأخذ عنهم ولما علم الحنابلة بذلك، وقيل أنهم اطلعوا على كتب له فيما تعظيم للمعتزلة وترحم على الحلاج. طلبوه وأرادوا أذيته، فاختفى عنهم مخافة التنكيل به. لكن الرجل لم يستطع الإستمرار في الإختفاء «فكتب بخطه كتاباً يقر على نفسه بالخطأ ويبرأ منه ويعطي إمام المسلمين الحق في التنكيل به إذا ظهر منه فيما بعد شيء مماثل لما كان عليه[114].

لكن لابد من الإشارة إلى ان هذا الإرهاب الفكري والعقائدي، لم يجعل إبن عقيل يتنازل عن أفكاره ومعتقداته، وان كان قد كتب توبته منها. فقد ذكر إبن رجب في ذيل طبقات الحنابلة. عند ترجمته لإبن عقيل بأنه كان «يظهر منه في بعض الأحيان نوع إنحراف عن السنة، وتأول بعض الصفات. ولم يزل فيه بعض ذلك إلى ان مات رحمه الله»[115].

واذن فقد كانت توبته تقية وخوفاً من الحنابلة. وإبن رجب عندما يقول «وتأول لبعض الصفات» انما يعني مخالفته لإعتقادهم التشبيه والتجسيم، وقد تبرأ من هذه العقيدة إبن الجوزي كذلك وهو من الحنابلة ورد على عامة أهل المذهب. كما تعرضوا ليحيى بن معين وعلي المدني وغيرهم من علماء وفقهاء المذاهب الإسلامية. فهذا عبد الله الأنصاري الهروي الذي كان يوصي الناس بأن يتحنبلوا «يلعن الأشعري» والأشاعرة، لأنهم لا يعتقدون ان الله عزوجل

---

(١١٣) المرجع نفسه، ج١ ، ص٣٨ ، عن العبر ، للذهبي ج٢ ص١٤٦ .

(١١٤) نفس المصدر ، ص ٣٧ .

(١١٥) نفس المصدر ، ج١ ص٣٣ .

في السماء و «ان القرآن في الصحف»[116].

وقد كان الأحناف والشوافع معه في بلاء مستمر، وكانوا يقولون: «نحن في يد هذا الرجل في بلية من استيلائه علينا بالعامة»[117].

أما إذا رجعنا إلى «الكامل في التاريخ» لإبن الأثير فسنجد أن فتنا كثيرة وقف وراءها الحنابلة بحجة الدعوة إلى مذهبهم أو محاربة من لا يعتقد نحلتهم.

يقول إبن الأثير في حوادث سنة ٣١٧هـ: «وفيها وقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أصحاب أبي بكر المروذي الحنبلي وبين غيرهم من العامة، ودخل كثير من الجند فيها. وسبب ذلك أن أصحاب المروذي قالوا في تفسير قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ هو أن الله يقعد النبي صلى الله عليه وسلم معه على العرش، وقالت الطائفة الأخرى إنما هو الشفاعة فوقعت الفتنة، واقتتلوا فقتل بينهم قتلى كثيرة»[118]. وهذه ليس الفتنة الوحيدة التي ذكرها إبن الأثير بل هناك حوادث دامية كثيرة أشعل نارها الحنابلة باسم الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وراح ضحيتها عشرات القتلى.

لقد طال النزاع والصراع بين الحنابلة والشافعية وتعمقت الكراهية بين الفريقين. لدرجة أن الحنابلة كانوا يقفون في الطرقات ويترصدون الشوافع وينكلون بهم ضرباً وتهجماً، كل ذلك بقي أثره الواضح في التاريخ والكتابة والفكر. يقول صاحب النهج الأحمد: كل فريق منهما يؤلب على الفريق الآخر حتى صارت الكراهية التقليدية أنه إذا كتب فيما بعد واحد من

---

(١١٦) مختصر طبقات الحنابلة ، لإبن الشطي ، ص٧٠ ، قال أبو الحسن الكوفي شيخ الشافعية في بلاده : أنه - أي الهروي - أنشد في معرض النصيحة لأهل السنة:

كن إذا ما حاد عن حد الهدى — أشعري الرأي شيطان البشر
شافعي الشرع سني الحلا — حنبلي العقد، صوفي السير

(١١٧) المرجع السابق ، ص٧٠ .

(١١٨) الكامل ج٨ ص٨٣ ، أنظر النهج الأحمد ، ص٣٨ .

الشافعية عن واحد من الحنابلة، غمزه ونال منه. ان لم يستطع بصريح العبارة فلا أقل من الكناية والتحريض، وكذلك لو كتب واحد من الحنابلة عن الشافعية، وكتب التراجم مليئة بالأمثلة والشواهد(١١٩). ومن يتصفح «المنتظم» لسبط إبن الجوزي يستغرب بل يستهول حجم الفتن وكثرتها والتي كان الحنابلة يشعلونها بين الحين والآخر. فتارة مع أهل السنة من الأشاعرة وتارة مع الشيعة. أما أسباب الخلاف فالمسائل العقائدية والخصوصيات المذهبية. والبادىء دائماً لإشعال هذه الفتن والتعدي على الآخرين هم «حشوية الحنابلة».

لقد أحدث الحنابلة جفوة بالغة بينهم وبين سائر الفرق كما يقول صاحب النهج الأحمد بسبب أسلوبهم في الدعوة، حيث الخشونة والعنف والإرهاب من أبرز سمات تحركاتهم الدعوية. بالإضافة إلى انتصارهم بالعوام والطبقات الدنيا من المجتمع، حيث يسود الجهل والأمية ويصعب على أي عاقل فضلاً عن المفكر أو العالم أن يوصل بعض الحقائق إلى عقول هؤلاء العامة، أو أن يمد جسراً للتفاهم معهم وتوضيح الأمر لهم، بشكل تستوعبه عقولهم البسيطة. ولقد كان الحنابلة يدركون ذلك جيداً ويستفيدون من العامة لتحقيق انتصارات مذهبية.

لقد وصف الحنابلة أنفسهم بأنهم «قوم تقلصت أخلاقهم عن المداخلة». لذلك فقد اتسمت دعوتهم بالعنف والشدة والإرهاب، يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «وفي سبيل دعوتهم يعنفون في القول، حتى إن أكثر الناس لينفرون منهم أشد النفور»(١٢٠).

---

(١١٩) النهج الأحمد، ص٤٠.

(١٢٠) المذاهب الإسلامية، م س، ص ٣٥٤، وجاء في البداية والنهاية لإبن كثير، ان الحنابلة في بغداد عام٤٤٧هـ قوى جانبهم على الأشاعرة وحالوا بينهم وبين شهود الجمعة والجماعات كما حاول الحنابلة منع الشافعية من الجهر ببسم الله الرحمان الرحيم، والترجيع في الأذان والقنوت، وكادت تحصل فتنة كبيرة لولا أن حملوا على السكوت =

وهذا الاسلوب في الدعوة هو الذي يفسر سبب إنحصار المذهب الحنبلي في التقليد واقتصاره على مناطق محدودة مثل بغداد ونجد ودمشق. ويمكن أن يلاحظ بوضوح أن ساكنة هذه المناطق وخصوصاً بلاد نجد عرف عنهم الجلافة والغلظة والخشونة، رسختها وزادت في حدتها الطبيعية الصحراوية القاسية.

وإذا رجعنا إلى دعاة السلفية «حشوية الحنابلة» اليوم فسنجد أن هذه الصفات الشاذة تلازمهم ملازمة الظل للجسد. وأنها من أهم ما ورثته طبيعتهم عن المذهب والتراث الحنبلي. وبالخصوص ما اكتسبوه من سلوكيات زعيمهم الأول وصاحب نحلتهم «الشيخ إبن تيمية»، الذي أجمع المؤرخون بانه كان حاد المزاج خشناً في تعامله مع خصومه. لدرجة إتهام مخالفيه بما ليس فيهم بل الكذب عليهم وتحريف أقوالهم، وتوزير كلامهم ومعتقداتهم. وقد عزى بعض الباحثين عند ذكره هذه الحدة إلى عزوف الشيخ عن الزواج طوال حياته. ونضيف نحن إلى ذلك، تأثير الطبيعة على نفسية الشيخ فهو من مواليد مدينة حران التي وصفها إبن جبير بأنها بلد «قد نبذ بالعراء، ووضع في وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة». وعليه فحياة الشيخ إبن تيمية وسلوكه يمكن أن تنضاف كعامل من العوامل التي أنتجت ظاهرة الخشونة والجفاء لدى السلفية المعاصرين. فالتقليد لا يشمل فقط الأفكار وأنما يتجاوزه إلى التأثر بالسلوكيات والأفعال.

□ أسلوب الدعوة السلفية اليوم :

أما إذا ذهبنا نستقص عن حال الرجل الذي أحيى الفكر السلفي في الأزمنة الحديثة ووضعه محل التطبيق، ونشر ما إندرس منه وبعث رفاته، لنعرف كيف كان يدعو الناس إلى أفكاره ومذهبه، فإننا لسنا في حاجة

= آخر الأمر، ج١٢، ص ٦٦، أنظر على دروب التقريب بين المذاهب الإسلامية ، ص ٣٤ .

لخصومه ليصفوا لنا واقع الحال، بل نحيل أنفسنا إلى ما كتبه يراعه. يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب في إحدى رسائله معترفاً: «أنا في بعض الحدة» والحق ـ يقول جلال كشك ـ أنها كانت حدة أكثر من المعتاد في الدعاة وقد ظلت ملازمة لتلاميذه وحركته بل تضاعفت»[121].

ولاشك ان هذه الحدة قد أهرقت بسببها دماء بريئة، وتعرض من جرائها خلق كثير للظلم والعدوان. ومن يراجع يوميات الدعوة الوهابية في فجر إنتصاراتها الكبرى. سيرى التطبيق العملي لهذه الحدة، وكيف تعامل الوهابيون مع «المشركين» من أبناء الإسلام، وكيف كانوا يمارسون الدعوة لمذهبهم التوحيدي. فقد كانوا كما يقول الشاعر أبو تمام «السيف أصدق إنباءً من الكتب».

لقد إستخدم السلفيون «حشوية الحنابلة» قديماً وحديثاً ترسانة من المصطلحات والأوصاف والنعوت، ما فتئوا يرمون بها كل من يخالفهم في الفروع أو الأصول. وهذه الترسانة يمكن تلخيصها بـ«جهمي، ضال، منحرف عن السنة، رافضي، مشرك، مبتدع، صوفي، طرقي، قبوري، عابد الأصنام والأوثان، كافر، زنديق» وهلم جراً.

وهذه المصطلحات بما تتضمنه من مفاهيم عقائدية مختلفة يستخدمها السلفيون اليوم لوصف المسلمين ممن يشهد لله بالوحدانية ويؤمن بالرسل واليوم الآخر!!. أنظر مثلاً لما يقوله داعية سلفي وهابي معاصر وهو عبدالرحمان بن حسن بن عبدالوهاب مجيباً عن سؤال: يقول: «فقد وردت علينا أسئلة من عمان، صدرت من جهمي ضال يستعجز بها بعض المسلمين[122]. أنظر كيف حكم على السائل بأنه جهمي «أي معتزلي أو منزه

---

(١٢١) السعوديون والحل الإسلامي، ص١٠٠.

(١٢٢) مجموعة التوحيد، ص٥٥.

لا يؤمن بالتجسيم أو التشبيه» ضال!. ويمكننا أن نذكر ملاحظة إنتبه لها بعض المفكرين. وهي التضارب والإختلاف لدى السلفيين في فهم هذه المصطلحات التي ينبزون بها خصومهم. فقد علق أحدهم على قول السلفية القدامى في حق إبن جرير الطبري «بأنه رافضي ملحد» بقوله: إن هؤلاء لم يعرفون ابداً معنى الرفض أو الإلحاد، ولو سئلوا عن ذلك لما وفق أغلبهم في الإجابة. وهذا الشيخ عبدالرحمان يقول. «جهمي ضال» مع أن الجهمي في عرف أكثر متقدميهم كافر أو زنديق، لأنه معطل. وليس ضالاً فقط؟!.

ونحن نستغرب جداً كيف حكم هذا الشيخ الداعية على السائل بأنه «ضال جهمي» مع أن أسلوب الدعوة يقتضي التعامل بالحكمة، وإيصال الحقيقة للناس بأحسن السبل وافضلها، مما يدفع الناس للإلتفاف حول الحقائق وإعتناقها، وليس النفور منها والإبتعاد عنها. هذا ان كان ما يدعو له السلفيون فعلاً يدخل في خانة الحق المحض الذي لا يجوز الإختلاف حوله أو الشك فيه.

ولكن ماذا نقول لهؤلاء! إنه أسلوب في الدعوة، متميز وخاص بهذه الطائفة يرثه خلفهم عن سلفهم، وسيبقى الأمر كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أو يقطع دابر هذه الدعوة وتندثر مع الزمن كما ذهبت كثير من الملل والنحل والدعوات. وابتلعها بطن التاريخ.

لقد كان خطر هذه الفئة المتميزة في التاريخ الإسلامي القديم والحديث محدوداً ومنحصراً. أولاً لأنه لم تكن لهم دولة تنصرهم وتتبنى عقائدهم جملة وتفصيلا وإن كان الخليفة العباسي المتوكل[١٢٣]، قد إنتصر لهم

---

(١٢٣) يقول أبو بكر الخوارزمي «ليس من فرق الإسلام فرقة إلا وقد هبت لأهلها ريحة، ودالت لها دولة. كما أتفق المختار للكيسانية. والمعتصم والواثق للمعتزلة، والمتوكل للنواصب والحشوية» رسائل أبي بكر الخوارزمي . ص١٧٨ . أنظر بحوث مع أهل السنة والسلفية لمهدي الروحاني ، ص١١١ .

وسلطهم على خصومه وخصومهم. لكن حركتهم لم تمتد طويلاً. أما الآن وبعد قيام دعوتهم وانتصار دولتهم، وما تبذله هذه الدولة من أموال طائلة في دعم هذا المذهب ونشر تراثه الفكري والعقائدي. فإن الأمر أصبح يشكل ظاهرة متميزة ينتشر صداها كل يوم عبر وسائل الإعلام في العالم الإسلامي. حيث تتفجر الفتن المذهبية والطائفية في أكثر من منطقة في العالم الإسلامي.

□ اشعال الفتن المذهبية :

ففي مصر والمغرب على سبيل المثال يخوض السلفية صراعات مريرة مع الصوفية وأتباع الطرق، يستخدمون فيها جل المصطلحات التي تزودهم بها ترسانتهم الدعوية: من ضال ومبتدع، إلى كافر، وهلمّ جراً. ولأتباع السلفية جرأة كبيرة في إستخدام هذه المصطلحات، دون إعتبار لخطورتها على الوضع الإجتماعي العام. لذلك انتشرت البغضاء والأحقاد بين هذه الطائفة وبين قطاعات واسعة من الصوفية وأتباع الطرق، الذين لا تجد بلداً إسلامياً وخصوصاً في أفريقيا يخلو منهم.

يحدثك بعض المشرفين على هذه الطرق والمنضوين تحت لوائها بمرارة وغضب، متسائلاً عن الخلفيات الحقيقية التي تحرك هؤلاء الناس. وكيف تناسوا او لم يعلموا أن الطرق الصوفية هي التي أدخلت الإسلام إلى وسط أفريقيا وأدغالها، وهي التي اشرفت وما زالت على عملية ترسخه وتعميق جذوره في أكثر من بلد إفريقي؟ فكيف يجرؤ هؤلاء «السلفية» على نسبتنا إلى الكفر والشرك والخروج عن الإسلام، ونحن كنا وما زلنا دعاته والحريصين على نشره!؟.

والواقع ان إنتشار المد السلفي في بلدان افريقيا المسلمة ودخول دعاة السلفية إليها قد اثار فتناً وصراعات كبيرة ساهمت في تمزق المجتمع الإسلامي هناك. أما أمهات المسائل العقائدية المختلف حولها بين السلفية وغيرهم من

أتباع الطرق فهي لا تتجاوز مسألة الاحتفال بعيد المولد النبوي. أو حلقات الذكر الخاصة التي درج الصوفية على القيام بها. هاتان المسألتان هما في الأغلب الأعم منطلق دعاة «السلفية» لتبديع وتكفير خصومهم الصوفية. في الوقت الذي يعتبر أصحاب الطرق الصوفية الإحتفال بالمولد النبوي الشريف من شعائر الإسلام. أما حلقات الذكر فهي عندهم جزء من العبادة والتعبد العام إمتثالاً لقوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[١٢٤].

□ الصراعات الفقهية داخل المساجد :

أما الصراعات داخل المساجد وإثارة الشغب، فحدث ولا حرج فقد أصبحت من الظواهر السلبية العامة، التي يشتكي منها المصلون. وهذا الصراع داخل المساجد لا يقتصر على الصوفية وأتباع الطرق، بل الخلاف محتدم مع جميع أبناء الصحوة الإسلامية ممن يتمذهب بغير المذهب الحنبلي، ولا يتخذ أفكار إبن تيمية وإبن عبدالوهاب النجدي عقائد له.

ومواضيع الخلاف هنا مع أهل السنة والجماعة تتجاوز العقائد لتشمل الإجتهادات الفقهية والفتاوى المذهبية. فهم كما يقول الشيخ أبو زهرة المصري: «يفرضون ـ أي علماء الوهابية ـ في آرائهم الصواب الذي لا يقبل الخطأ. وفي آراء غيرهم الخطأ الذي لا يقبل التصويب»[١٢٥]. وبذلك يتم عرض مشكل التقليد والتمذهب على بساط البحث والمناقشة. بين أوساط العامة فترى أنصاف المتعلمين والجهلة من العوام يخوضون في نقاش هذه الأمور ويفصلون في كثير من قضاياها الشائكة بكل حزم وجرءة. في الوقت الذي يرى أكثر العلماء، قديماً وحديثاً مثل هكذا مواضيع، لا يجوز أن يخوض فيها العوام بل تقتصر معالجتها على ذوي العلم والإختصاص.

---

(١٢٤) سورة الذاريات ، آية ٥٦ .

(١٢٥) المذاهب الإسلامية ، ص ٣٥٥ .

وعليه فإن الدعوة الوهابية اليوم زيادة على أسلوبها الخاص والمتميز في الدعوة بالسب والتبديع والتكفير، تضع بين يدي العوام قضايا خلافية كثيرة ليفصلوا فيها. مع العلم أنها كانت إلى وقت قريب حكراً على ذوي الأختصاص.

وإذا كان العوام قاصرون على فهم أو معالجة القضايا العلمية والفكرية المتعلقة بالدين الإسلامي، فإنهم يستنجدون في غالب الأحيان، بالقوة والشغب والعنف، لإقناع خصومهم بما يؤمنون به من عقائد وأفكار، بثها فيهم دعاة السلفية، أو توصلوا إليها بمفردهم نتيجة قراءة حديث في كتاب، أو شرح لآية في تفسير. وعليه فلنا أن نتصور حجم الإختلاف، وكثرة الآراء والأهواء المتضاربة، وما يتبعه من زيادة الفوضى الفكرية والعقائدية التي بدأت تعصف بواقع الصحوة الإسلامية اليوم. وقد عجز علماء أهل السنة في معالجة هذا الوضع واكتفوا بالصراخ والتنديد ونقد هذه الظاهرة.

يقول الدكتور البوطي: «لقد تركوا ـ أي دعاة السلفية ـ سبيل الدعوة الى الله والى دينه وأعرضوا عن المنحرفين وما هم فيه من ضلال وشكوك وغي، وانطلقوا يتصدون لكل متدين يخالفهم في إجتهاداتهم أو يصر على تمسكه بمذهب إمام من الأئمة الأربعة، أو يعلن عن ضعفه عن الإجتهاد وحاجته الى التقليد، فيثيرون معهم جدالاً لانهاية له، وينتهون بهم الى شحناء لا مسوغ لها، يتهمونهم بالضلال، ويرمون أئمتهم بالجهل، ويصفون كتبهم بالصدأ والإنحراف..»[١٢٦].

ومن يتتبع جلّ القضايا والمسائل الأصولية والفروعية التي يختلف حولها «السلفية» واهل السنة والجماعة بالخصوص. يجد أن المذهب الحنبلي بصيغته المعدلة والجديدة مع إبن تيمية وإبن عبد الوهاب. يريد أن يفرض نفسه على

---

(١٢٦) اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية ، ص٩٠ .

المجال الديني الإسلامي العام، مع إلغاء جميع المذاهب الفقهية والأصولية الأخرى. ولكن ولمزيد من التضليل وتزوير الحقائق في أعين أبناء الصحوة الإسلامية، يتم تحقيق ذلك عبر الدعوة الى «مذهب السلف الصالح» هذا المذهب الذي لا يعرف له تاريخ أو جغرافية. لكن الحقيقة الصارخة رغم التدجيل وإلباس الباطل مسوح الحق هي أن «مذهب السلف» ليس سوى المذهب الحنبلي معززاً بما استجد مع إبن تيمية وتلامذته من آراء، يريد أن يبتلع المذاهب الإسلامية الأخرى. وأن يصفيها بدعوى الحق والباطل وإتباع السلف، ومحاربة البدع والشرك، ونشر التوحيد، والإسلام النقي الصافي من الشوائب والإنحرافات والشرك.

□ السيطرة على المجال الديني والدعوي :

والنتيجة التي يريد القائمون على هذه الدعوة الوصول إليها، لا تعدو تحقيق السيطرة والتوجيه للشأن الديني العام في العالم الإسلامي والتحكم به. ومن ثم التحكم في ظاهرة الصحوة الإسلامية التي أصبحت تشكل الهم الإستراتيجي الأكبر لجميع دوائر الأمن في العالمين الشرقي والغربي، ومن ضمنهم بلا شك مجمل الحكومات الإسلامية.

علماً بأن هذا التحكم في المجال الديني والسيطرة عليه سيؤدي بالضرورة الى التحكم في المجال السياسي العام. فالمؤسسة الدينية الوهابية «السلفية» التي تباشر حركة الدعوة وتمدها بما تحتاجه من كتب وفتاوى، هي مؤسسة مملوكة لأسرة آل سعود الحاكمة في الرياض. تأتمر بأمرها وتنتهي بنهيها، وتخضع في النهاية لمفردات الإستراتيجية السياسية لهذه الدولة. وأي إنتصار للدعوة السلفية في أرجاء العالم يمكن أن تستثمره بالنتيجة السياسة السعودية.

وبالتالي فأي تحكم أو توجيه للصحوة الإسلامية اليوم لا يمكنه أن يخلو من التأثير السياسي المباشر أو غير المباشر للدولة السعودية. ولا أحد ينكر مدى

التشابك والعمق الذي يميز علاقة الدولة السعودية بالغرب في المجالين السياسي والإقتصادي. واذن فمسألة إنحراف الصحوة الإسلامية عن أهدافها، أو توجيهها خلاف ما يريده لها أبناءها المخلصون، تبقى مسألة تثير الكثير من التساؤلات ويلفها الغموض.

ويكفي ان نعلم أن القرآن قد صرح وفي قوله الصدق والحق، بان اليهود والنصارى لن يرضوا عنا حتى نتبع ملتهم.

□ نشر الجهل داخل الأوساط الاسلامية :

وخطورة هذه المسألة وتداعياتها ظهرت جلية في الجزائر. فالصحوة الإسلامية هناك يشرف عليها دعاة وقادة ينتمون للتيار السلفي. وإرتباطهم بما تصدره المؤسسة السلفية السعودية من كتب وفتاوي، يشكل إحدى الدعائم المهمة في دعوتهم وحركتهم، بل يمكن اعتبار الساحة الجزائرية المستهلك الأول لفتاوي «شيخ الإسلام» كما أن أطناناً من الكتب والكراريس السلفية المنتجة في الخليج بشكل عام، تجد طريقها الى المتلقي الجزائري.

لكن وفي الوقت الذي يتغذى سلفيوا الجزائر بالمنتوجات السلفية السعودية تراهم يناهضون ويعادون الحكومة السعودية، وينتقدون سياستها الداخلية والخارجية ويتبرأون منها. ولو تفكر هؤلاء القادة أو الأتباع في هذه المعادلة الصعبة لوجدوا أنفسهم في خضم الاستراتيجية السياسية السعودية يخدمونها ويتماشون معها خطوة خطوة، خصوصاً موقفهم من الشيعة وإيران.

فاغلب السلفيين في الجزائر لم يكن يعرف مثلاً أن هناك، لا نقول طائفة بل مجتمعاً شيعياً داخل المملكة العربية السعودية. وأن الطائفية والصراع المذهبي متفجر هناك وعلى أشده تغذيه الحكومة وتستفيد منه أيما إستفادة. وعليه فالأطنان من الكتيبات والفتاوى التي وصلت الجزائر ووزعت مجاناً، كان الغرض منها خلق رأي عام ضد الشيعة والتشيع وسد الطريق على أبناء

الصحوة الإسلامية هناك كي لايعرفوا الحقائق، ومن ثم توجيههم مستقبلاً لضرب التشيع والشيعة، العدو المهم للغرب وللمملكة الوهابية.

ولقد أثمرت هذه السياسية وأينعت زهورها ووجدت أرضاً خصبة من الجهل والغلظة والجفاء فنبتت أشواك الحقد والكراهية للتشيع، وبذلك حجب عن أبناء الصحوة هناك حقيقة غدت كالشمس في واضحة النهار.

□ تحريف مسار الصحوة الاسلامية :

هذا مثال أوردناه للأشارة الى خطورة تحكم المؤسسة الوهابية السعودية في توجيه الصحوة الإسلامية، ومدى تأثيرها السلبي عليها، خدمة لأهداف سياسية محلية أو عالمية. والضحية هم أبناء الصحوة، الذين تمارس عليهم سياسة التجهيل باسم الدين. وينحرفون عن الأهداف الرئيسية الى قضايا جزئية خلافية في الفروع. لا تسمن ولا تغني اللهم إلا صرف الجهد والطاقة والزمن في مالا طائلة من ورائه. لذلك قال الدكتور البوطي وهو الرجل الذي خبر دعوتهم ورد عليهم في أكثر من موقع وكتاب، بأنهم تركوا سبيل الدعوة الى الله وانطلقوا يتصدون لكل متدين. ولا شك إن إلهاء أبناء الصحوة بقضايا فروعية، جزء لا يتجزء من خطة تحريف الصحوة عن أهدافها، والمتمثلة في الإحياء الحضاري الإسلامي العام والدعوة الى الإلتزام بالإسلام وإتخاذ شريعته مصدراً وقانوناً ينظم جميع مجالات الحياة في العالم الإسلامي.

والذي يزيد الطين بلة، ونحن هنا نتكلم عن أسلوب الدعوة عند هؤلاء السلفية، ليس فقط المواضيع المطروحة للنقاش والجدل داخل المساجد وعلى المنابر. ولكن الأسلوب الخاص الذي يستخدمه هؤلاء في دعوتهم ونقاشهم. وإذا كان القرآن يحث على الدعوة بالحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن. فإن دعاة السلفية ـ الا ما ندر ـ يفسرون بالتي هي أحسن، بالسب والقدح والشتائم والاستهزاء وإتهام الخصم أي كان بالتهم الباطلة. ونشر

الأكاذيب الرخيصة والتافهة، كل ذلك خدمة للدعوة السلفية وتحذيراً وتخويفاً لكل من سولت له نفسه معارضة هؤلاء بلسانه أو قلمه.

ولكي لا يقال إننا مجانبون للحقيقة، بتهويل حجم هذه الظاهرة الدعوية السلفية. فلا بأس من إيراد بعض النصوص لعلماء ومفكرين يشتكون من هكذا أسلوب ينسبونه لدعاة الحركة السلفية. أنظر مثلاً لما يقوله أحد المفكرين في مقام النصيحة للدكتور البوطي الذي يخوض معهم صراعاً مريراً: يقول: «حاذر أن يستزلك هؤلاء الى مستواهم المعروف في الجدل فإن في أفئدتهم من الحقد على جمهور المسلمين سلفهم وخلفهم ما يجعلهم ينهشون في عرض كل من يخالفهم»[١٢٧]. ولقد أطال الدكتور البوطي الشكوى في كتبه من رموز السلفية الذين يردون عليه. فهم لا يعرفون من النقاش العلمي سوى: «السباب والشتائم المتسعرة المحمومة»[١٢٨].

□ معاناة مشتركة:

ولو رجعنا الى كتب الرد على السلفية، التي ألفها علماء من أهل السنة والجماعة أو الصوفية أو الشيعة الإمامية. فسنجد معاناة مشتركة بين هؤلاء الكتاب والعلماء. وإجماعاً مطلقاً على أنهم يتعرضون شخصياً أو بشكل عام تتعرض مذاهبهم وعلماؤهم للسب والشتم المنظم من طرف دعاة السلفية. وكيف أن البعض نأى بنفسه بعيداً عن مناقشتهم أو جدالهم. لأنه لم يجن من ذلك سوى أن نهش السلفيون عرضه وعرض مذهبه الذي ينتمي إليه.

يقول مهدي الحسيني الروحاني وهو أحد علماء الإمامية الذين كتبوا ردوداً على السلفية «إن تلك الفرقة ـ الحنابلة ـ لا تريد من وراء مخاصمتها لنا، وجدالها معنا إلا أن ترشدنا الى خصائصها المذهبية بالتهويش والسب،

(١٢٧) المرجع السابق، ص١١٠.

(١٢٨) نفسه، ص ١٠٩.

والكذب، الكذب الصراح، والإفتراءات العظيمة التي يبرأ منها الشيعة ويتنزهون عنها»[129].

والرجل عندما يقول «الكذب الصراح» يعلم تمام العلم ماذا يقصد ولنا وقفة مع «الكذب السلفي» وما المقصود منه، وتطبيقاته الواقعية وأمثلة على ذلك، عندما نتكلم عن «السلفية والشيعة الإمامية». لأن هذه الفرقة الأخيرة كان لها النصيب الأكبر في الهجوم السلفي المعاصر، كما أن حصتها من «الكذب السلفي» جاءت متميزة. ويشير الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء الى أسلوب آخر في الدعوة يمارسه السلفية. بل إن أنتشار الفكر السلفي يكاد يرجع لهذا الأسلوب دون غيره، وأن رُمنا الموضوعية قلنا بأنه الأسلوب الأنجح الذي استغلته المؤسسة السلفية للوصول الى عمق الحواضر الفكرية والدينية في العالم الإسلامي السني. هذا الأسلوب هو الدعم المالي وشراء الرجال من كتاب، وعلماء وصحفيين ومؤسسات علمية وفكرية وإعلامية، وصولاً الى شيوخ القبائل ورؤساء العشائر كما حدث في اليمن.

□ السيف والريال :

يقول الشيخ كاشف الغطاء «لو كنا نعلم أنهم يقنعون بالحجة البالغة، ويخضعون للأدلة القاطعة، لملأنا الطوامير من الحجج الباهرة التي تترك الحق أضحى من ذكاء، وأجلى من صفحة السماء ولكن سلطان نجد له حجتان قاطعتان عليهما يعتمد، وإليهما يستند، ولا فائدة إلا بمقابلتهما أو بأقوى منهما، وهما: الحسام البتار والدرهم والدينار، السيف والسنان، والأحمر الرنان، هذا لقوم وذلك للآخرين»[130]. وقوله «الحسام البتار» إشارة الى

(١٢٩) بحوث مع أهل السنة والسلفية ، المكتبة الإسلامية ، ط١ ١٩٧٩م ، ص ٨ ـــ ٩ .
(١٣٠) مجلة تراثنا ، العدد الرابع (١٣) السنة الثالثة ، شوال ١٤٠٨ هـ ، ص١٨٦ .

الإنتشار الأول للفكر السلفي الوهابي في الجزيرة العربية ونجد، حيث ركبت الدعوة السلفية مطية الجهاد المسلح والفتوحات العسكرية ولم يكن هناك احتكام إلا للسيف والبندقية وقد ذكرنا ذلك مفصلاً فيما مضى.

ولا يشك أحد من المطلعين والمتابعين اليوم لحركة المد السلفي في دور المال «والريال» في نشر الفكر الوهابي السلفي، والكتاب المرتزقة في مصر والشام يعرفون ذلك جيداً، ولولا هؤلاء المرتزقة لما كان للفكر السلفي هذا الوجود الكبير على الساحة الإسلامية، لأن علماء الوهابية في نجد لا يحسنون الكتابة ولا يتقنون فن التعبير والتحليل. وليس لهم. تاريخ عريق ـ لبداوتهم ـ في صنع الأيديلوجيات. والدعوة لها وتزوير الحقائق وتجييرها لخدمة هذه النحلة أو ذاك المذهب، وللحقيقة والتاريخ نقول ان بعض الكتاب والصحفيين في بلد الكنانة «مصر» لهم قدرة رهيبة على صنع المذاهب الفكرية والسياسية والدفاع عنها وايجاد الحجج العقلية والنقلية لتثبيتها. ونحن ندعي ونؤكد أن لولا هؤلاء وغيرهم، لما تجاوز الفكر الوهابي بلاد نجد، وفي أحسن الظروف شبه الجزيرة العربية، وحتى إن تعدى هذه الحدود، فإن حلل البداوة ولهجة العراء القاحلة وجفاء نفوس ساكينها كانت كفيلة بتقزيمه وإنحصاره وتقلص إمتداده في الآفاق البعيدة.

طبعاً لسنا في حاجة الى أدلة وإستشهاداته لدعم هذه الحقيقة ـ حقيقة دور المال الوهابي السعودي في نشر الفكر السلفي ـ ولكننا نحيل القارىء الى ما تداولته الصحف العربية أثناء أزمة الخليج الثانية وإحتلال العراق للكويت، فقد إنتشر خبر قطع المعونات والإمدادات المالية (السعودية) على فئات عريضة ومؤسسات في مصر، وذلك بسبب موقفها من إستخدام الجيوش الغربية لإخراج صدام من الكويت.

ولا شك أن الكل يعلم مقدار ضخامة وحجم الأموال السعودية التي تصرف على المؤسسات الإعلامية والدينية في العالم كي تتماشى مع

الإستراتيجية السياسية والدينية السعودية. ومن يريد الأمثلة الحية لذلك فليراجع يوميات منظمة «المؤتمر الإسلامي» السعودية مقراً وتمويلاً. وليلق نظرة سريعة على قراراتها وتوصياتها والأهداف البعيدة التي من أجلها أسست هذه المنظمة الإسلامية الفاعلة على الساحة اليوم.

□ نشر الطائفية البغيضة :

لن نسترسل طويلاً في وصف أسلوب الدعوة السلفي المعاصر، هذا الأسلوب الذي ورثه الخلف عن السلف، والذي يجعل من العنف والتهجم على المخالفين ورميهم بكل أنواع السباب والشتائم ونهش أعراضهم، النهج القويم الذي يتم من خلاله نشر عقائد وافكار دعاة السلفية. فإثارة الفتن ونشر البغضاء بين فئات المجتمع الإسلامي. وتعميق الخلافات المذهبية وصولاً الى الطائفية البغيضة، غدت من مميزات التحرك السلفي. فحيث تستعر نار الطائفية والخلافات المذهبية، تجد هناك دون شك أو ريب عقل سلفي وهابي حنبلي يؤجج هذه النار ويمدها بالوقود كي تشتعل أكثر وتدوم. ولا شك أن هذه النار قد أحرقت مساحات واسعة من أراضي التفاهم والتسامح التي كانت سائدة بين مجمل الفرق والمذاهب الإسلامية. خصوصاً بين الشيعة والسنة.

فلم يسمع عن قلاقل واضطرابات بين التجمعات السكانية الشيعية والسنية. مثلاً في مناطق تواجدهم معاً إلا بعد ما نفخ العقل السلفي في بوق الطائفية البغيض(١٣١). فبدأ السني يسمع من أفواه الدعاية السلفية أن الشيعي

---

(١٣١) يقول حمزة الحسن: إن معظم الحروب الطائفية التي نشهدها في كل مكان في العالم إنما مولت بأموال النفط السعودي، بل إن الحروب السنوية في باكستان لم تثرها إلا الجماعات المتحالفة والمدعومة من السعودية، وقد وصل أعلام آل سعود الطائفي الى كل الدنيا، أذ أن مهمة المؤسسات الدينية الرسمية السعودية ومهمة أعلام السعوديين، هو إثارة الفتنة والبلبلة في صفوف المسلمين لكي يدعوا بعدئذ أنهم حماة «السنة» وما هم كذلك. الشيعة في المملكة العربية السعودية ،مؤسسة البقيع لاحياء التراث ، ط١ ١٩٩٣م ، ج٢ ص١٤٩.

كافر مرتد بسبب أصحاب النبي محمد(ص)، في المقابل وجد الشيعي نفسه محاصراً بدعاوي التكفير والردة أينما حل وتوجه. ولنا أن نتصور حجم المأساة، ففي باكستان والهند والعراق تعيش الملايين من الناس في تداخل وانسجام، تحت راية لا إله إلا اله محمد رسول الله. يتزاوجون في ما بينهم، ويستحل الشيعي مأكل ومشرب السني ويحرم دمه وماله وعرضه. لكن هذا الإنسجام تحول في الآونة الأخيرة وخصوصاً في باكستان والهند الى تباغض وأحقاد، راح ضحيتها عشرات القتلى من الطرفين وأحرقت المساجد. وما زالت نار الفتنة يتصاعد لهيبها ويكبر حجمها، دون أن يكون هناك أمل في إخمادها أو التقليل من أنتشارها.

فالأطنان من الكتب والفتاوى في تكفير الشيعة والتهجم على مذهبهم تنزل الى الأسواق باستمرار وتتابع. والفضل كل الفضل لأموال النفط السلفي التي توزع وتدفع بسخاء لكل مرتزق يستطيع أن يغذي هذه المعركة الخسيسة، بين فئات المجتمع الإسلامي الواحد.

□ **السلفية يكفرون زعماء الصحوة الاسلامية :**

وإذا كان الإسلام والقرآن يدعو الى الوحدة وتجنب أسباب الإختلاف وتحجيمها ان وجدت. فإن الدعوة السلفية الوهابية تدعو الى التفرقة ونبذ الوحدة وتمزيق جسد الإسلام الإجتماعي، وإذا كان القرآن الكريم قد أكد على الدعوة بالتي هي أحسن واستمالة قلوب المخالفين وأيصال الحق لهم بأفضل الطرق. فإن دعاة السلفية يدعون الى مذهبهم بالتي هي أسوء وأعنف. والويل كل الويل لمن يختلف معهم في قضية أصولية أو فروعية، فرداً كان أم مجتمعاً.

فإنه لو سلم من بطشهم المباشر واعتدائهم. فإنه لن يسلم أبداً من حدة ألسنتهم وجلافة طباعهم، والتظاهر عليه بالكذب والبهتان وافتراء التهم

الخطيرة. وهذا الأسلوب هو السبب في خوف كثير من علماء أهل السنة وإعراضهم عن الرد والتأليف تفنيداً لمعتقدات هذه الفرقة السلفية الحنبلية. وقصة الشيخ محمد الغزالي ليست بعيدة عنا فقد ألف هذا المفكر الإسلامي المعاصر كتاباً بعنوان «السنة بين أهل الفقه والحديث» تعرض فيه لعلاج أمهات القضايا الفكرية التي تعصف بساحة الصحوة الإسلامية. ومن بينها ضمناً أسلوب الدعوة السلفي. فما شعر الرجل إلا ودعاة السلفية ينهالون عليه من كل جانب نقداً وتجريحاً وتسفيهاً. وقد سمعت أن البعض منهم دعاه للتوبة وتأليف كتاب جديد يتبرء فيه من الأفكار والآراء التي أوردها في هذا الكتاب.

لكني لا أعلم كيف انتهت القصة وهل تاب الرجل أم لازال مارقاً عن الحق «السلفي»، نائياً بنفسه بعيداً عنه، لكني على يقين أنه لم يؤلف كتاباً جديداً بعد، ينفي فيه آراءه السابقة. كما أنني أشك في قبولهم توبته، لأنه لن يلتزم إطلاقاً بشروط التوبة لديهم. وهذا يذكرنا بموقف الخوارج الذين طلبوا من الإمام علي أن يتوب بعد أن يعترف حقاً بأنه كفر.

وفي المغرب الأقصى ألف احد السلفيين كتاباً تهجم فيه على زعيم حركة العدل والإحسان الإسلامية الشيخ عبدالسلام ياسين وقيل أنه كفره فيه. وذلك يرجع في ما يظهر للطابع الصوفي الذي يتحلى به هذا الشيخ، أو لإنتصاره لبعض العقائد والسلوكيات الصوفية والطرقية. وهكذا فقد عمت الفتن المذهبية وتعمقت الكراهية والطائفية بين طوائف المسلمين. ويمكن أن نعلن ونؤكد أن أبناء الصحوة الإسلامية اليوم يخوضون حرباً ضروساً فيما بينهم(١٣٢). والجبهة الداخلية التي كانت الى وقت قريب متراصة وقوية في

---

(١٣٢) من الأمثلة الأكثر وقعاً على النفس، الحديث الذي أدلى به سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز لمجلة (المجاهد) التي يصدرها المجاهدون الأفغان.. حيث سأله مجري المقابلة (سلطان عبدالمحسن الخميس): من خلال معرفة سماحتكم بتاريخ الرافضة ماهو موقفكم من =

مواجهة الغرب وحضارته الغازية، هي اليوم أقرب الى التخاذل والإنهيار. ويكفي أن نعلم أن الإنتاج الفكري الإسلامي الذي كان منصباً في بداية هذا القرن على معالجة قضايا المسلمين العامة واقتراح سبل النهضة الحضارية، والإنعتاق من قيود الإستعمار، ومواجهة التخلف، قد تحول الى معالجة قضايا أخرى، مذهبية جزئية قتلتها المذاهب الإسلامية الفقهية بحثاً وتصنيفاً. وإنتهي منها بتقرير كل مذهب لإجتهاد معين وقف عنده وألزم أصحابه باتباعه.

□ انتكاسة الفكر الاسلامي المعاصر :

لكن موجة الصراع الجديد بين السلفية وباقي خصومها قد دفع الكثير من المؤلفين والعلماء الى بذل جهد كبير في إعادة انتاج هذه القضايا مرة ثانية في حلل جديدة. وبعثها للتداول والنقاش، فظهرت كتب كثيرة في وصف صلاة الرسول(ص) ووضوئه. وما كان عليه السلف في الملبس والمأكل، ونوقشت جزئيات الطهارة والنجاسة، وكأنها تعرض لأول مرة على المسلمين. كما

= مبدأ التقريب بين أهل السنة وبينهم؟

أجاب الشيخ: «التقريب بين الرافضة وبين أهل السنة غيرسمكن، لأن العقيدة مختلفة، فعقيدة أهل السنة والجماعة توحيد الله وأخلاص العبادة لله سبحانه وتمالى، وأنه لا يدعى معه أحد... والرافضة خلاف ذلك، فلا يمكن الجمع بينهما، كما أنه لا يمكن الجمع بين اليهود والنصارى والوثنيين وبين أهل السنة، فكذلك لا يمكن التقريب بين الرافضة وبين أهل السنة لأختلاف العقيدة التي أوضحناها».

وسئل الشيخ مرة أخرى: وهل يمكن التعامل معهم - الشيعة - لضرب العدو الخارجي كالشيوعية وغيرها؟. أجاب الشيخ: «لا أرى ذلك ممكنا، بل يجب على أهل السنة أن يتحدوا وأن يكونوا أمة واحدة وجسداً واحداً، وأن يدعوا الرافضة أن يلتزموا بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله(ص) من الحق...

تجدر الأشارة الى أن هذا الحديث موجه للمجاهدين الأفغان، الذين يواجهون الحكم الشيوعي، وبينهم نسبة غير قليلة من الشيعة تصل الى ٣٠٪ من السكان تشاركهم في الجهاد... فافهم لماذا لم يتوفق المجاهدون حتى الآن في مسعاهم؟! الشيعة في المملكة العربية السعودية ، ج٢ ص٣٩٨ .

أثيرت من جديد، بعض القضايا الأصولية والعقائدية كمسألة الصفات الإلهية، وموقف السلف منها وكيفية اعتقادهم بها. وصولاً الى إحياء الطب النبوي والتداوي بالأعشاب والدعوة الى الرجوع لتناول الأعشاب بدل الأدوية التي تنتجها المختبرات العلمية.

كل هذا الزخم الفكري الجديد شكل بحق، وباعتراف كثير من المفكرين الإسلاميين، إنتكاسة للفكر الإسلامي المعاصر، الذي بدأ واعداً ومبدعاً في عملية الإحياء الحضاري الإسلامي العام. وسجل بإعتراف الخصوم، خطوات متميزة في بعض ابداعاته وهو يعالج إشكالات النهوض، والخروج من مأزق التخلف العام، رغبة في وضع قطار النهضة الإسلامية على مساره الحقيقي لتحقيق الأقلاع الحضاري والعلمي للأمة. كي تأخذ مكانها اللائق بها بين الأمم، ويعود الإسلام للواجهة كدين ورسالة خالدة، لابد من إيصالها لجميع أبناء البشرية أفراداً وجماعات لتخرجهم من ظلام الجهل والكفر الى نور الإيمان والعدل والإنسانية الحقة.

لكن موجة الدعوة السلفية ظهرت فجأة، كقدر أريد به إيقاف هذه المسيرة النهضوية والإبداعية في الفكر والحياة الإسلامية. فبدلا من معالجة القضية الإقتصادية وإثراء البحث والنقاش حول المنهج الإسلامي الإقتصادي لتحقيق العدالة والتكافل الإجتماعي، مثلاً. يتحول الجهد الفكري والمالي لمناقشة فكرة عذاب القبر، وحجم الحيات والعقاب التي سيجدها الإنسان هناك، حالما يصل الى تلك الحفرة. ونحن عندما نأتي بهذا المثال نطلب من القارىء أن يمر وهو في طريقه الى عمله، على أية مكتبة إسلامية اليوم، ليرى حجم وكثرة هذه الكتب التي تناقش عذاب القبر وتصور أهواله ومصائبه، والعقل السلفي هو الذي يؤلف ويكتب وينشر ويهتم بهذه المواضيع! أما الإقتصاد والسياسية أو العلم أو كل ما يتعلق بمصير المسلمين الدنيوي، وما يتخبطون فيه من مشاكل ومحن وإحن. فلا أظن أن المكتبة السلفية يهمها ان تحتوي على كتب

تعالج مثل هكذا قضايا، لماذا؟! لست أدري! ربما ذلك يدخل في البدع ومخالفة ما كان عليه السلف الصالح؟! ومعلوم ان كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار!!. والله نسأل ان يعيذنا وإياكم من كل ضلالة!!

وأخيراً نود من دعاة السلفية وكبار علمائها وفقهائها، أن يجيبونا على هذا السؤال بكل هدوء وموضوعية: هل استخدم الرسول أثناء دعوته أسلوب العنف والسب والشتم؟! وهل كان كبار الدعاة من السلف، يثيرون الأحقاد والبغضاء بين المسلمين ويثيرون الفتن المذهبية والطائفية؟!.

نرجوا من هؤلاء الدعاة أن يحيلونا على وقائع التاريخ المكتوب في مصادره المعتمدة لدى الأمة. بشرط أن ألا تقتصر هذه الوقائع على يوميات الدعوة السلفية الحنبلية، وسيرة دعاتها الكبار. كإبن تيمية وإبن عبدالوهاب. لأننا نعلم سلفاً أن هذه الوقائع واليوميات هي المصدر الرئيسي والثري الذي يستقي منه دعاة السلفية اليوم عقائدهم وأفكارهم وسلوكياتهم في الحياة والدعوة.

❋ ❋ ❋

إنهم يحرفون التراث

□ طرق تحريف السلفية للتاريخ الاسلامي :

عندما تحدثنا عن وقائع الإختلاف والمناظرات التي وقعت بين إبن تيمية وخصومه من اهل السنة والجماعة وباقي الفرق. قلنا: بأن هناك شبه إجماع لدى أصحاب هذه المذاهب والفرق بأن «شيخ الإسلام» لم يكن أميناً في نقل آرائهم وعقائدهم، التي أجهد نفسه في الرد عليها. وهذه الادعاء بعدم الأمانة في النقل والتحريف المتعمد لكلام الخصوم. لم يكن دون دليل، بل استطاعت كل فرقة أومذهب أن يستدل وان يأتي بنص من مذهبه واعتقاده يخالف ما إدعاه أو نقله إبن تيمية عنه. لذلك كان هناك اجماع على إتهام «شيخ الإسلام» بالكذب! هذا الكذب الذي تمثل في التحريف المتعمد لتراث الخصوم عند النقل والإستشهاد.

□ الاجماعات الوهمية عند ابن تيمية :

والذي يرجع الى «فصل إبن تيمية» سيجد الأمثلة على هذا التحريف الصريح. فعلماء أهل السنة والجماعة مثلاً، يقولون ان «شيخ الإسلام» حكى عن السلف أقوالاً وإجماعات وتفسيرات لاوجود لها في الواقع. كما حكى على لسان بعض الأئمة مالم يتفوهوا! ولو قالوا شيئاً من ذلك فأتباعهم أدرى وأعلم بذلك!.

مثلاً يقول إبن تيمية: «ان جميع ما في القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة إختلاف في تأويلها، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما

رووه من الحديث، ووقفت على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مئة تفسير. فلم أجد الى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف»[١٣٣].

لقد إدعى إبن تيمية ان أحداً من الصحابة لم يتأول شيئاً من آيات الصفات، وعندما يرجع الباحث لكتب التفسير يجدها زاخرة بنقل تأويلاتهم. فهذا الطبري الذي مدح إبن تيمية تفسيره ووصفه في فتاويه بأنه تفسير ليس فيه بدعة. يقول: اختلف أهل التأويل في معنى الكرسي، فقال بعضهم هو علم الله تعالى ذكره.

ذكر من قال ذلك: ابو كريب وسلم بن جنادة، عن إدريس، عن مطرف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير عن أبن عباس، قلا: كرسيه علمه.

وعن يعقوب بن إبراهيم عن هشيم عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير، عن إبن عباس: «كرسيه» علمه، ألا ترى الى قوله: ﴿ولا يؤده حفظهما﴾[١٣٤].

فحين يجزم الشيخ تقي الدين إبن تيمية قائلاً: لم أجد الى ساعتي هذه عن أحدٍ من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات، يفتتح الطبري تفسيره بتأويل الصحابي الجليل إبن عباس على خلاف ما يذهب اليه الشيخ إبن تيمية، فهو يذهب الى ما جاءت به الحشوية من أخبار ذكرها الطبري بعد قول إبن عباس، مفادها ان الكرسي هو موضع القدمين من العرش، أو هو العرش الذي يقعد عليه الله تعالى شأنه، فلا يفضل منه مقدار أربع أصابع، وله

---

(١٣٣) تفسير سورة النور ، ابن تيمية ، ص ١٧٨ - ١٧٩ . عن ابن تيمية لصائب عبد الحميد ص١٢١.

(١٣٤) تفسير الطبري ،ج٣ص٧ ، بتوسط «ابن تيمية» لصائب عبدالحميد ص١٢٢ .

أطيط كأطيط الرحل الجديد[١٣٥].

وقد نقل الطبري وغيره من المفسيرين كثيراً من تأويلات الصحابة والتابعين «السلف». لآيات الصفات. ومن أراد أن يعرف صدق إبن تيمية من كذبه فليراجع كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي فإنه عرض لكل التأويلات السلفية والخلفية.

وعلى هذا المنوال تم مراجعة أحكام «شيخ الإسلام» وأقواله. فظهر للمحققين من كل مذهب، أن كلام الشيخ هو خلاف الحقيقة. بل هو التحريف بعينه لتراث المسلمين وتعميم الجهل ونشر الأكاذيب بين السواد الأعظم من الأمة، الذين لا يستطيعون التحقق من الأمر ومعرفة الصواب. وهو أسلوب بالتالي في الدعوة للعقيدة السلفية «الحشوية». فالمسلم مثلاً، عندما يسمع أن السلف من الصحابة والتابعين لم يعرف عنهم أنهم أولوا صفة من هذه الصفات. وأنهم أثبتوها دون تأويل، سيركن الى تفسير إبن تيمية وأتباعه، الذين يثبتونها حقيقة. وبالتالي ستنتشر عقيدة التجسيم والتشبيه، على أنها إحدى الحقائق العقائدية الإسلامية.

ويؤكد الدكتور البوطي ذلك، خلافاً لما جاء به إبن تيمية فيقول: ليس صحيحاً أنه لايوجد في السلف من جنح في تفسير آيات الصفات أو بعض منها الى التأويل التفصيلي[١٣٦]. ففي السلف حسب الدكتور من جنح الى التأويل التفصيلي ولم يكتفي بالإجمال فقط. من ذلك ماصح من تأويل الإمام أحمد «جاء» في قوله عزوجل ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ (الفجر: آية٢٢) بمعنى: وجاء أمر ربك، كما قال تعالى ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ (النحل آية٣٢)[١٣٧]. وقد أورد الدكتور البوطي بعضاً من أسماء السلف، الذين أوّلوا

---

(١٣٥) إبن تيمية ، صائب عبدالحميد ، ص١٢٢ .

(١٣٦) السلفية ، م س ، ص١٣٤ .

(١٣٧) المرجع نفسه ، ص١٣٤ .

الصفات.

بل ذهب الى أن إبن تيمية نفسه سقط في التأويل عندما قال بأن الوجه الوارد في الآيات ليس من الصفات.

□ ادعاءات لانصيب لها من الصحة :

ويتكلم البوطي كذلك عن نقل غير صحيح وإدعاء على «القدرية» بأنهم يعتقدون بأن أفعال الحيوان لم يخلقها الله. كما ذكر إبن تيمية عنهم يقول الدكتور: «غير أني ما سمعت وما رأيت الى هذا اليوم أن القدرية يعتقدون أن أفعال الحيوان لم يخلقها الله! وها هي ذي كتب الفرق والملل والنحل أمامنا ولم أجد في شيء منها مثل هذا النقل عنهم. ثم رأيت العلامة المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثري قد سبقني الى البحث عن هذا النقل الغريب واصله، فكتب تعليقاً عليه: «لم نر من صرح بذلك منهم في كتاب من كتبهم. وإلزام الشيء غير القول به»[١٣٨].

وإذا رجعنا الى المدافعين عن التصوف فسنجد محمود غراب يتهم شيخ الإسلام بالكذب على إبن عربي. ويورد نصوصاً واضحة في ذلك، وكيف ان «شيخ الإسلام» زور على الشيخ الأكبر أقوالاً مفتراة لاوجود لها فيما كتبه زعيم الصوفية. وقد أوردنا بعضها فيما تقدم.

أما إذا بحثنا في كتب «شيخ الإسلام» لمعرفة رأيه في الشيعة والتشيع فلن نصطدم بالتحريف فقط. ولكن سنجد الإفتراء والكذب الصراح، وتزوير الحقائق الواضحة، واللف والدوران لإنكار الكثير مما سطرته أقلام المؤرخين من وقائع. وقد ألف محققوا الشيعة كتباً في ذلك وأزاحوا الستار عن كل أكاذيب «الشيخ» و تحريفاته. ولنا وقفة مع هذا الموضوع في الفصول القادمة.

---

(١٣٨) نفسه ، ص١٦٦ ــ ١٦٧ .

□ تضعيف الأحاديث النبوية المخالفة للمذهب :

ولإبن تيمية طرق متعددة في تحريف الحقائق التي تخالف مذهبه، وتقف بالتالي كحجر عثرة أمام إدعائه «الإجماع السلفي»، أو عدم وجود ما يخالف رأيه ومعتقده في تراث الأمة الفقهي أو الأصولي. من هذه الطرق والأساليب تضعيف الأحاديث النبوية التي تنطق صراحة بخلاف رأيه ومذهبه. وان كانت ضمن كتب الصحاح. وقد أشار الحافظ الذهبي لذلك عند ما قال مخاطباً إبن تيمية: «ياليت أحاديث الصحيحين تسلم منك بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار، أو التأويل والإنكار»[١٣٩].

وهذا التضعيف من طرف الشيخ، لا يرجع الى لعلل حقيقية في الأحاديث التي ينكرها. وإنما ذنبها أنها تنطق بخلاف معتقد الشيخ. أما مستنده في هذا التضعيف، فهو جرأته الكبيرة على قول ذلك. لدرجة تجعل العامة تعتقد أن للشيخ مستنداً قوياً لكن الحقيقة بخلاف ذلك تماماً.

□ انتقاء الأحاديث الموافقة فقط :

كما أن للشيخ أسلوباً آخر إكتشفه المحققون، وهو انتقاء الأحاديث الخاصة بموضوع معين فما كان منها يصب في عقيدته ظاهراً أخذ به وقدمه وصححه. أما إذا وجد في نفس الباب أحاديث أخرى يظهر منها خلاف ذلك، فترى الشيخ يضرب عنها صفحاً وكأنها لم توجد. وإن وقع وتعرض لبعضها أو أوردها في محل نقاشه، فإنه سرعان مايرجح الأحاديث الداعمة لمعتقده ويترك غيرها، دونما سبب علمي لهذا الترجيح. بل قد يكون البحث الموضوعي في صالح الجمع بين الروايات والخروج برأي انطلاقاً من ذلك. وقد استشنع ـ يقول الدكتور البوطي ـ إبن حجر رحمه الله هذا التصرف الذي لا

---

(١٣٩) بحوث في الملل والنحل ، ج٤ ص،٤٠ ، نقلاً عن تكملة السيف الصقيل للمحقق الكوثري ، ص١٩٢ .

مسوغ له من إبن تيمية مع انه من المعتدلين في تقويم أفكاره وبين فئتي المتعصبين له والمتعصبين ضده[١٤٠].

□ رفض الأحاديث والروايات الصحيحة :

وأنظر مثلاً الى أسلوب «الشيخ» وهو يعالج «مسألة الدعاء مستقبلا قبر الرسول(ص). فهو لما كان ينكر ذلك، ولا يراه جائزاً، وكان يدعي الإجماع السلفي على ذلك، وأن أحداً من الصحابة والتابعين أو الأئمة لم يفعله! تراه يصطدم بقول الإمام مالك إبن أنس الذي نقل عنه أنه أجاب الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور لما سأله، بأن يستقبل القبر الشريف ويدعو. قال: «لم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه الصلاة والسلام الى الله تعالى يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله. فماذا كان موقف شيخ الإسلام من هذا النقل عن رجل يعتبره من أئمة السلف!؟ بكل هدوء وبساطة يقول الشيخ: «أمر منكر لم يقل به أحد ولم يرد إلا في حكاية مفتراة على الإمام مالك»!

وهذه الحكاية المفتراة عند إبن تيمية أوردها القاضي عياض رحمه الله تعالى هنا، ولله دره حيث أوردها بسند صحيح، وذكر أنه تلقاها عن عدة من ثقات مشايخه. فقوله اي إبن تيمية انها أمر منكر كذب محض ومجازفة من ترهاته، وقوله: لم ينقل ولم يرو باطل. فإن مذهب مالك وأحمد والشافعي رضي الله تعالى عنهم استحباب استقبال القبر الشريف في السلام والدعاء

(١٤٠) السلفية ، ص ١٧١ . يقول البوطي: «إن ابن تيمية رحمه الله يعلم ما هو معلوم لدى جميع علماء أصول الفقه، من أن الترجيح إنما يلجأ إليه عند التعارض وعدم إمكان الجمع. فأما إن كان الجمع بين الروايات ممكنا بل لا تعارض بينهما، فيجب المصير إليه ويمنع من الإلغاء والترجيح».

وهو مسطر في كتبهم[١٤١].

هذه القصة كما يقول الشيخ يوسف النبهاني ذكرها القاضي عياض بإسناد صحيح. والإمام السبكي في «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» والسمهودي في «خلاصة الوفاء»، والعلامة القسطلاني في «المواهب اللدنية»، والعلامة إبن حجر في «تحفة الزوار والجوهر المنتظم». وقال إبن حجر في المنتظم جاءت بالسند الصحيح الذي لا مطعن فيه». وقال العلامة الزرقاني في «شرح المواهب» رواها إبن فهد باسناد جيد[١٤٢].

ونحن اذ نورد هذا المثال، فقط ليعلم القارىء حقيقة إدعاء إبن تيمية بأن هذه الرواية كذب وافتراء على مالك. في الوقت الذي يجمع أئمة المذهب المالكي وغيرهم على صحتها وصحة سندها. لذلك لم يجد الشيخ شهاب الخفاجي غضاضة في اتهام شيخ الإسلام بـ «الكذب المحض والمجازفة». أما نحن فنعتبر ذلك محاولة رخيصة لتحريف تراث الإسلام والمسلمين، والكذب على الحقيقة.

ولو إستطاع كل مدع لرأي أو تابع لمذهب أن يثبت صحة معتقداته وخطأ ما يعتقد غيره فقط بمجرد الإدعاء أن أفكار خصومه غير صحيحة. أو أن سندها غير صحيح دون اي بحث علمي. فلن يتيسر الركون لأي مذهب ونحلة، أو إعتناق عقائدها وأفكارها. وسيكون ذلك بمثابة إعلان عن إنتهاء جميع المذاهب والأديان. لإن الشك والإرتياب في صحة المنقول والمكتوب سيشمل كل التراث الفكري والعقائدي لهذه المذاهب والأديان[١٤٣].

---

(١٤١) شواهد الحق في الإستغاثة بسيد الخلق(ص) ، الشيخ يوسف النبهاني ، ضمن مجموع «علماء المسلمين والوهابيون» ، ص١٨٦.

(١٤٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٦ .

(١٤٣) يقول الدكتور محمد عوض الخطيب: «إنهم يختارون بعض الأحاديث ويفسرونها بمعزل عن القرآن الكريم أو عن غيرها من الأحاديث. ومن أجل قطع الطريق على إمكانية مناقشتهم في هذا المجال فهم يلجأون الى أسلوب التهويل فيستخدمون تعبير ==

□ الفهم السطحي لأفكار المخالفين :

وهناك أساليب أخرى استخدمها «شيخ الإسلام» وأدت الى تحريف تراث المسلمين نذكر منها: الفهم السطحي لعقائد بعض الفرق وافكار أصحابها، وقد وقع ذلك مع «الصوفية» بالخصوص. فالفهم السطحي قد يؤدي عند الإستنتاج والمقارنة الى أفكار وتقريرات لا يرضاها أصحاب المذهب ولا يؤمنون بها. ومن ثم فقد يعتبر «الشيخ» فهمه لمعتقدات القوم هو ما هم عليه حقيقة، فيتكلم باسمهم ويرد عليهم، بالتبديع والضلال تارة، والكفر والزندقة تارة أخرى.

والحقيقة أن الشيخ سيكون عند ذاك رادا على نفسه مسفهاً لأحلام فهمه. والمشكل هنا يصبح خطيراً عندما يعلن «الشيخ الحنبلي» فهمه على المنبر. وتتلقاه الجماهير الأمية على أنه الحق. أو ينشر ذلك في كتب وكراريس وتوزع مجاناً على أبناء الصحوة الإسلامية اليوم. على أنها فتاوى شيخ الإسلام وزعيم «دعوة السلف». وكم من عراك نشب في مسجد أو قسم دراسي بين أبناء الصحوة انطلاقاً مما ذكرنا. فأتباع الدعوة السلفية لا يشكون أبداً في صدق إمامهم وصحة ما بين أيديهم، وغيرهم يجد ذلك محض كذب وإفتراء، ويتبرأ ويُبرئ مذهبه من هذا الفهم أو النقل. وتبقى القضية معلقة دون حل لأن كلا الطرفين لا يعرف الخطأ الذى نجم عن هذا الفهم السطحي السريع لشيخ الإسلام، تلاه حكم جريء وقاطع لا يحتمل التأويل أو المراجعة. وهذه إحدى المحن والمعاناة التي يشكو منها مخالفوا مذهب السلف.

ومن الصور والمواقف المضحكة والمبكية معاً أن تجد شاباً داخل مسجد ما

= «أجمع العلماء» وينفون مخالفة أحد لما ذهبوا إليه، وعند الإضطرار الشديد يرمون رواة الأحاديث التي تخالف ما يدلون به بالوضع والكذب ». صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث ، ص ٦٩ .

يعلن أمام الملأ بأنه يشهد حقيقة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنه يؤمن بكل ما جاء في القرآن ويعتقد بكل شرائع الإسلام. لكن شاباً أو جماعة، يردون عليه بأنه كافر مرتد، لأن شيخ الإسلام حكم بكفر الشيعة وإرتدادهم[١٤٤]، أو أنك جهمي معطل (أي منزه) والجهمي كافر. أو أنك تعتقد في الأولياء وتستشفع بهم ومن يفعل ذلك فهو مشرك كافر حلال الدم والمال.

وتستمر المعاناة، فأغلب أتباع الحركة السلفية من العوام أو انصاف المتعلمين، ممن يصعب عليهم التحقيق والتدقيق أو المطالعة العامة، كي تتضح لهم الحقائق. إلا النزر القليل، وهؤلاء لما فعلوا ذلك وجدوا أنفسهم خارج الموكب السلفي، بل من أشد أعدائه وخصومه، بعدما كانوا من أتباعه ودعاته. وكم كان الحافظ الذهبي صادقاً في وصفه وهو يتكلم على أتباع «شيخ الإسلام» آنذاك عندما قال: فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل؟ أو عامي كذاب بليد الذهن، أو غريب واجم قوي المكر؟ أو ناشف صالح عديم الفهم؟ فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل[١٤٥].

وهذه الأوصاف تكاد تنطبق على أتباعه اليوم كذلك. خصوصاً كونهم من العوام وقليلي الفهم أو خفيفي العقل. مع وجود فئة قليلة متنورة وصادقة الإيمان والسلوك. وانما وجودهم ضمن الحركة السلفية لأنهم تعرفوا عليها على أنها الإسلام الصحيح، وما كان عليه السلف الصالح. وأغلبهم ليس لديه

---

(١٤٤) يقول أحد قيادي جبهة الإنقاذ الجزائرية: و «الجبهة الإسلامية المسلحة سلفية عقيدة ومنهجاً وسلوكاً وموقفها من الشيعة معروفه وهو الحكم عليهم بالردة والخروج عن شرائع الإسلام» . جريدة الحياة اللندنية ، ٤أيلول سبتمبر ١٩٩٤م ، ص٤ .

(١٤٥) بحوث في الملل والنحل ، ص٤٠ . عن تكملة السيف الصقيل للمحقق الكوثري المعاصر. ويقول محمد هادي الأميني يصف المجتمع الوهابي المعاصر: «فالجهل لم يزل فيهم حاكماً مع التقدم والتطور الحاصل في العالم اليوم للحركة العلمية» أنظر «مكة» ص ٢٨٩ .

معرفة أو إطلاع على المذاهب الإسلامية الأخرى. ومشاكل التعدد والإختلاف بين الفرق الإسلامية، أو كيف ظهرت ومن يقف وراءها ويدعو لها. فهم يتعبدون بالقرآن ويتبعون هدي خير الأنام. أما دهاليز المذاهب وخفايا عقائدها، وسير رجالاتها، فهم بمنأى عن معرفة ذلك، ولن يُسمح لهم - وان رغبوا في ذلك - بمعرفة مثل هكذا مواضيع، فقد وضعت أمامهم مئات الحواجز للحيلولة دون هذه المعرفة. أقلها منع الكتاب المخالف من دخول الأسواق والمجتمعات التي يسيطر عليها السلفيون.

□ السلفيون يجيزون الكذب على خصومهم :

نرجع الى أساليب تحريف التراث لدى الشيخ الحنبلي السلفي وأتباعه لنؤكد هذه المرة حقيقة أخرى من الحقائق الغامضة للتحريف السلفي. وهذه الحقيقة تنبش في حفريات المذهب الحنبلي لمعرفة جذور وأسباب هذا التحريف المتعمد الذي تبين ان ابن تيمية نفسه لم يكن مبتدعاً له، وإنما مقلداً لبعض المشايخ الذين ينتحلون النسبة للمذهب الحنبلي. وأول ما يصادفنا ونحن ننقب حول هذه الجذور، إطلاق الإمام السبكي مصطلح «الخطابية» على الحنابلة. حيث نقل ان كلتا الفرقتين ترى جواز الكذب على من خالفهم في العقيدة»[146].

وهذا الإستحلال للكذب على الخصوم يجعلنا دون شك نعتبره القاعدة

(١٤٦) بحوث مع أهل السنة والسلفية ، م س ، ص٢٦١ .
يقول السبكي: «وقد بلغ الحال بالخطابية... وهم المجسمة في زماننا، فصاروا يرون الكذب على مخالفيهم في العقيدة، لاسيما القائم عليهم بكل ما يسوءه في نفسه وماله. وبلغني ان كبيرهم استفتى في شافعي أيشهد عليه بالكذب فقال ألست تعتقد أن دمه حلال؟ قال: نعم، فما دون ذلك دون دمه فاشهد وادفع فساده عن المسلمين. قال السبكي فهذه عقيدتهم يرون أنهم المسلمون وأنهم أهل السنة، ولو عدوا عدداً لما بلغ علماؤهم لا عالم فيهم على الحقيقة مبلغاً يعتبر، ويكفرون علماء الأمة ثم يعزون الى الإمام أحمد بن حنبل، وهو منهم بريء...» أنظر طبقات الشافعية ، ج١ ص١٩٣. والمرجع السابق ، ص١٨٨ .

الأولى التي تستند إليها عملية تحريف التراث. وتدعمها شبهة تافهة، تتلخص في أنه اذا كان الحق والصواب معنا وبين أيدينا فإن الخطأ كل الخطأ عند خصومنا. وإذن لا بأس بوصفهم بكل ما هو خطأ أو يصب في الخطأ، وافتراء الأكاذيب حولهم وحول عقائدهم وأفكارهم. من هنا انطلقت موجة الكذب على الخصوم والمخالفين، وتحريف كل حقيقة لديهم وإلباسها لبوس الضلال والإنحراف(١٤٧). فتارة يتم إنكار بعضاً من آراء القوم عمداً، لكي لا تكون لهم اي فضيلة تواكب الحق. وتارة يضاف للخصوم معتقدات وأفكارهم منها براء، ليشنع عليهم بها.

□ الكذب على الشيعة :

نأخذ مثلاً، تعمد كتاب السلفية اليوم وصف الشيعة الإمامية بأنهم يقولون بتحريف القرآن ويعتقدون ذلك، وأن لهم مصحفاً آخر غير الذي بين أيدينا يسمونه «مصحف فاطمة»، وعندما تسأل علماء الشيعة الإمامية وكتبهم، هل قضية تحريف القرآن من عقائدكم؟! وهل لكم حقيقة قرآن آخر تسمونه «مصحف فاطمة»؟.

يردون عليكم، أن عقائدنا مكتوبة ومسطرة في الكتب المطبوعة فانظر فيها لترى بأم عينيك مجمل عقائدنا، ولابأس أن تتحقق من كتب القرآن التي في مساجدنا وبيوت عوام الشيعة وخواصها فأغلب نسخها مطبوع في الرياض وتحت إشراف علماء الوهابية ودعاة السلفية. وهكذا تصطدم أمواج الكذب السلفي بصخور الحقائق هنا وهناك.

---

(١٤٧) أنظر كيف يتعامل الحنابلة مع الحقائق الواضحة عندما يعرضها خصومهم وكيف يزورون التاريخ. «عن أبي علي النجاد: بينما أنا ذات يوم إذ دخل رجل من أهل البدع ومعه مصحف فجعل يقرأ منه سورة الأحزاب فلما إنتهى الى هذه الآية «وقرن في بيوتكن» أطبق المصحف وقال: إيش تعمل في هذه وعائشة قد خرجت. قلت: إنها لم تخرج من بيتها قال: وكيف ذاك؟ قلت: لأن بيوت أبنائها بيتها؟!.

□ الكذب على الصوفية :

ويكتب دعاة السلفية عن الطرق الصوفية أنهم يرقصون ويستخدمون آلات الغناء في حلقات ذكرهم «الشيطاني». وان منهم من يصل الى حالات الوجد لأنه يمارس الرقص العبادي وهو سكران، وينسبون إليهم معتقدات وأفعالا ينفر منها الذوق السليم وترفضها الفطرة. وإذا ما حاولت معرفة حقيقة الأمر وجدت هنالك رجالاً يذكرون الله بطرق مخصوصة، وفيهم الكثير ممن يحرص على التقوى والورع، ويسلك سبيل العبادة حتى يأتيه الله باليقين. أما اذا وجد فرد أو جماعة ممن لبس عليهم إبليس وسقطوا في بعض الممارسات التي لا يقرها الشرع، فإن محققي الصوفية وكبار رجالات الطرق التعبدية، ينكرون عليهم ويتبرأون من سلوكياتهم ولا يعتبرونهم ممثلين للطرق الصوفية، بل منحرفون ليس إلا.

وهل من العدل أن نأخذ الجماعة بسلوك فرد منحرف فيها؟! أو أن ننسب لجماعة ما هي براء منه. ولو أتخذنا هذا الأسلوب السلفي منهجا لنا لاتهمنا جميع دعاة السلفية في نجد مثلاً بممارسة اللواط والشذوذ الجنسي، لأنه وجد من بينهم من يُدمن على هذا الفعل المنكر، بل لجاز لنا ان نتهم المجتمع الوهابي في السعودية بأنه يبيح اللواطة. وذلك لإستفحال هذه الظاهرة الشاذة هناك. ولم يعد الأمر خافياً على أحد فوسائل الإعلام تتناقل بين الفينة والأخرى أخباراً وفضائح تتهم بعضاً من رجالات أهل نجد بهذه التهمة الشنيعة[١٤٨].

(١٤٨) ذكرت الصحف في السنة الماضية، أن مديراً في مدرسة ابتدائية في منطقة نجد قد إعتدى جنسياً على تلميذ مصري، فقدم أبوه وهو دكتور شكوى مرفقة بشهادة طبية الى المسؤولين لكن مدير المدرسة كما قال بعض المطلعين كان له من يدعمه، فرفضت دعوى الدكتور المصري ولم تقبل الشهادة الطبية التي قدمها، وقيل له أن إبنه كان يحلم، مع أن أعراض المرض قد ظهرت على الطفل الذي كان مدير المدرسة يناوله أقراص مخدرة قبل أن يفعله فيه. لقد أحيط بالدكتور المصري من كل جانب وضاقت به الأرض لأنه أتهم بالقذف وأدخل السجن على أثر ذلك وأخيراً طرد من السعودية ورجع الى بلاده مصر. التي حدثت فيها ضجة إعلامية كبيرة بسبب هذا الظلم الذي تعرضه له الدكتور =

لقد تبين بعد التحقيق والبحث أن كثيراً من دعاة المذهب الحشوي الحنبلي كانوا يمارسون التحريف وذلك بالكذب عند النقل أو التفسير للنصوص. وهذا يخص ابتداءاً عقائدهم. وقد قلنا سابقاً بأن مجمل عقائد الحشو مستوحاة من أحاديث مكذوبة على رسول الله(ص). أخذها أعراب الرواة عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واعتمدوها دون غيرها من الأحاديث الصحيحة. هذا من جهة، أما اذا اضفنا الى ذلك استحلالهم الكذب على خصومهم كما يقول الإمام السبكي. فلنا أن نتصور جحم هذا التحريف الذي لحق بتراث الإسلام والمسلمين على ايدي هذه الفرقة.

هذا التحريف الذي تعددت طرقه واختلفت أشكاله وصعب على غير المحققين معرفته. وقد تتبعنا منذ زمن ليس بقصير كتابات هؤلاء القوم من دعاة السلفية وكتابها واقتنينا كثيراً من كتبهم، وخصوصاً التي تناقش وتعالج القضايا المختلف فيها بينهم وبين أهل السنة والشيعة الإمامية. وعند المراجعات الكثيرة والمقارنات المتعددة بين ما يوردونه وبين ما يقوله ويثبته خصومهم تبين لنا كما ظهر لغيرنا من المحققين ان كتب «دعاة السلفية» مملوءة بالكثير من التحريفات والمغالطات، ليس فقط لتراث خصومهم وما هم عليه من عقائد وأفكار. ولكن تبين أن منظري السلفية يستنجدون في كثير من الأحيان بطرق تحريفية مخصوصة لدعم عقائدهم والإستدلال على صحتها.

□ أساليب متعددة لتحريف الحقائق :

وقد تتبعت هذه الطرق للكشف عنها ولكي يصبح الحديث عن التحريف السلفي للتراث الإسلامي حقيقة موضوعية لا غبار يحجب رؤيتها. ولكي

= وإبنه. لدرجة أن بعض محلات في مصر وضعت يافطة على مدخلها كتب عليها ممنوع دخول الكلاب والسعوديين. والحقيقة أن هذه الحادثة تبرز وبوضوح شكل ومضمون العدل في مملكة السلف الصالح.

يصار الى معالجة هذه الظاهرة الخطيرة المستفحلة في تاريخ الإسلام المعاصر، ويأخذ أبناء الصحوة الاسلامية حذرهم، ليعيش من عاش على بينة.

فما أكثر التزييف والتحريف وقلب الحقائق في هذه الحضارة الغربية المهيمنة. لكن الأمر هنا خطير جداً ولا يمكن أن يتغافل أو يسكت عنه، لأنه يتعلق بالدين والعقيدة. والكل يعلم ماذا يعني الدين في الحياة البشرية اليوم وتأثيره وأهميته على مستقبلها غداً. وسنحاول ان نذكر بعضاً من أساليبهم في التحريف وقلب الحقائق. مع إيراد الأمثلة على ذلك من خلال انتاجهم الفكري وسلوكهم الدعوي العملي.

أول ما يلاحظه المرء وهو يقرأ كتبهم وهم يردون على خصومهم، طعنهم في الأحاديث التي يرويها خصومهم ويعتمدونها في معتقداتهم. وهذا الطعن يكاد يكون منصباً على السند، فترى الكاتب السلفي يهرع الى كتب الجرح والتعديل ليؤكد أن فلانا الراوي مطعون وقد قدحه رجال الجرح والتعديل. ويورد أقوالهم فيه. مع العلم وهذا حاصل أن المحقق السلفي، يغض طرفه نهائياً عن أقوال المدح والتعديل التي قد توجد لنفس الراوي. ولكن لما كان الغرض هو الإسقاط، فإنه لا يأتي بما يدل على خلافه. علماً أن اقوال علماء الجرح قد تختلف وتتناقض في وصف شخص أو راوى وبالتالي، لا يمكن الجزم النهائي بعدم عدالته. حتى يصار الى رفض الحديث أو تضعيفه.

□ الطعن في السند :

ويجب أن نشير هنا الى ملاحظة، وحقيقة تاريخية مهمة وهي ان أغلب علماء الجرح والتعديل قد كانوا حنابلة أو ممن يتعاطف مع عقائد الحنابلة وآرائهم الفقهية. وعليه فلابد من وضع علامة استفهام كبيرة حول هذا الإستنجاد بكتب الجرح والتعديل، ونخص بالذكر ميزان الإعتدال للذهبي، والذي يكثر السلفيون من الإستشهاد به.

كما يجب أن نعرف أن هذه الطريقة لو طبقت على مجمل الأحاديث المروية عن الرسول(ص) فسنجد أنه من النادر أن نحصل على حديث يسلم رواته جميعاً من القدح والجرح أو إشكال ما آخر. ولو اتبع اصحاب المذاهب الفقهية والأصولية هذا الأسلوب وعملوا به بصرامة ودقة لإنهارت كثير من قواعدهم المذهبية في الأصول والفروع.

أما اذا ما أخذنا بهذا الأسلوب وعالجنا به ومن خلاله الأحاديث التي بني عليها السلفيون عقائدهم فلن يبق للسلفيين مستمسك من حديث أو تفسير يمكنه أن يشكل عموداً فقرياً لمذهبهم. فمعتمداتهم الحديثية موصوفة بانها واهية ومكذوبة عن الرسول(ص)، خصوصاً ما جاء منها عن متأسلمة اليهود والنصارى. لأنهم كانوا يتكلمون عن معتقداتهم وليس عن عقائد الإسلام.

وهذا الأسلوب في التركيز على السند وقدحه يلجأون إليه كثيراً وهم يخاصمون الشيعة الإمامية ويردون عليهم، خصوصاً عندما يستند هؤلاء الى ما رواه أصحاب السنن والصحاح من أحاديث تصب في تأييد عقائد الإمامية.

□ الترجيح دون مرجح :

ويتفرع عن هذا الأسلوب، طريقة الأستدلال وإيراد الأحاديث التي يكون في سندها ضعف حقاً، وعدم ذكر الأحاديث الأخرى في نفس الموضوع والباب. وقد يكون الحديث ضعيفاً بلفظ معين لكنه مروي بلفظ آخر صحيح وسنده قوي. وقد أشار الدكتور البوطي لهذه الطريقة حين علق على تضعيف الشيخ ناصر الدين الألباني (سلفي كبير معتمد في تحقيق الأحاديث) لحديث رواه بلفظ معين. يقول البوطي: «وانما هو ضعيف بهذا اللفظ فقط، اما أصل الحديث فقد رواه البخاري بطريق صحيح.. واذا كان للحديث الواحد طريقان فلا ينبغي الإقتصار في تخريجه على ذكر الضعيف

منهما لما فيه من الإيهام[149].

الحقيقة ان هذا ليس إيهاماً فقط وإنما تحريفاً وكتماً للحق. ولعل الشائع لديهم اليوم هو انتقاء الأحاديث الخاصة التي تدعم مذاهبهم الفروعية والأصولية. وعدم ذكر أو التعرض لغيرها بالمرة. لدرجة تجعل القارىء لا يعلم بوجود سوى ما ينشرونه في كتبهم. وانظر مثلاً عندما يتكلمون عن صفة صلاة النبي(ص) فإنك لن تجد حديثاً يخالف ما عليه المذهب الحنبلي، وان كان صحيح السند عند غيرهم بل ذكرته الصحاح لدى أهل السنة والجماعة. واذا ما تم ذكر بعضها أو تُعرض له، فلأجل الطعن في سنده وتجريح رواته.

لا شك أنه سيطول بنا المقام، لو أردنا أن نأتي بالأمثلة على كل ما ذكرناه من كتب السلفية. فالمهم عندنا أن يعلم القارىء هذا الأسلوب. ويعرف خلفيته ونتائجه. ففي أغلب الأبواب والمواضيع التي ينتصر السلفية فيها لرأي مخصوص أو عقيدة متميزة تجد عشرات الأحاديث والنصوص التي تخالف ما يذهبون إليه، وهذه النصوص تكون في الغالب الأعم صحيحة ولا غبار على متنها أو سندها. لذلك حذار أن يُصار الى إعتبار عدم إيرادها من طرف هؤلاء الدعاة، عدم وجودها بالمرة. فهذا تجاوز وقفز على الحقائق. ولقد سمعنا شيخ السلفية الكبير «ابن تيمية» قبل قليل وهو يدعي عدم وجود أي نص أو قول يؤول فيه الصحابة آيات الصفات. ولما رجعنا الى اقرب تفسير وجدنا العكس تماماً؟!

□ التحريف المباشر للنصوص والأقوال :

ومن الأساليب التحريفية الأخرى التي يستخدمها دعاة السلفية اليوم بكل وقاحة وتجني على العلم والحقيقة. تحريفهم نصوص وأقوال علماء الإسلام، فقد يعمدون وهم في مقام الإستدلال على فكرة أو اعتقاد معين، الى إيراد

---

(149) اللامذهبية ، ص136 .

أقوال العلماء وخصوصاً ذوي الشهرة العلمية منهم ويجعلونها بمثابة استشهادات داعمة ومقوية لما يريدون أيصاله للقارىء. ولما يراجع المحقق هذا النقل يجد أن هؤلاء الأئمة المنقول عنهم بريئون مما نسب إليهم. وأن ما فعله دعاة السلفية هو التحريف المباشر لكلامهم. بالحذف أو التقديم والتأخير.

على وزن من يستدل على عقاب المصلين بقوله تعالى ﴿ويل للمصلين﴾.

وقد كشف الدكتور البوطي وهو يناقش بعضهم حول:

دعوى تحريم التقليد التي يدعون إليها اليوم ويستدلون عليها بألف دليل ودليل على أنهم تصرفوا في نصوص للشاطبي وابن حزم، واقتطفوا من كلامهما بطريقة فجة غير علمية ما نصروا به دعوتهم. مما يجعل القارىء يعتقد أن علماء الإسلام مجمعون على هذا الأمر. يقول البوطي بعدما أورد كلامهم وكيفية نقلهم عن الأئمة وما حذفوه من كلامهم وما أثبتوه: «لابد ان نتوجه الى من لايزال يثق بهذا الرجل (ناصرالدين الألباني) وبطانته، من جماعات المسلمين ومثقفيهم سائلين ومستفسرين: ما حكم من يعمد الى مثل هذه العبارة لأحد المؤلفين: «فما ذهب إليه ابن حزم حيث قال إن التقليد حرام و.. إنما يتم فيمن له ضرب من الإجتهاد» فيحذف ما الموصولة من صدر العبارة ويحذف خبرها الآتي من ورائها ثم يأخذ حشو هذه العبارة وحدها مستشهداً بها عازياً إياها لذلك المؤلف ليعزز بها دعواه؟!.. وقد رأيت فيما مضى صنيعه المشابه لهذا بكلام الشاطبي رحمه الله..

ويضيف الدكتور قائلاً: لو كان جهلا ـ وما هو بجهل ـ لقلنا: هي زلة وسيتعلم الرجل بعدها. ولو كان سهواً ـ وما هو بالسهو ـ لقلنا ما أعجبها صدفة! سهو وجاء على قدر المدعى تماما!!.

ونعود فنسأل هؤلاء الأخوة: ما هو حكم الله فيمن يُنطق نصوص المؤلفين بعكس ما قالوا كي يوهموا الناس بأن لهم مستنداً على صدق دعاويهم؟ ما

هو حكم الإسلام فيمن يفعل ذلك؟؟[١٥٠].

لكن الدكتور لايجرؤ على وصفهم بالكذب، وتحريف تراث المسلمين. لكن يتمنى لو لم يحشر في هذه الزاوية الضيقة: يقول «كان بوسعي أن أضرب صفحاً عن كشف هذا التزييف العجيب والخطير، وأن أمر من جنب هذا اللغو بترفع وإعراض.. ولكن أمانة الله والعلم والخلق تدعوني الى أن أنبه جماعات المسلمين الى هذا الصنيع العجيب الذي يتلبس به من يدعون الناس الى إتباعهم، والى إئتمانهم على دينهم، ورواية الأحاديث عن نبيهم، وقد أكون متجنياً في كلامي هذا، فليعمد القراء الى كتاب حجة الله البالغة في المكان والصفحة المشار إليهما ثم ليأخذوا كتاب «المذهبية المتعصبة هي البدعة» (الرد السلفي على كتاب البوطي) وليفتحوا صفحة (٢٨٧) وليقرأوا ثم ليقارنوا.. ثم ليأخذوا من ذلك العبرة التي ينبغي أن يأخذها أي عاقل[١٥١].

□ **الغاية تبرر الوسيلة:**

ولقد أثبت الدكتور في أكثر من موقع كذب بعض دعاة السلفية الكبار وتحريفهم في النقول بشكل مباشر وصريح. وكأنهم يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة. فما داموا وصلوا الى الحق، فلا مانع من الكذب على العلماء وتزوير كلامهم ليتماشى مع دعاويهم. والغريب هنا حقاً، هو إستشهادهم بقول عالم

---

(١٥٠) المرجع نفسه. هامش ص١٣٤. ويقول الدكتور البوطي: «والغريب ان صاحب الكراس (الخجندي السلفي) عزا الى كمال بن الهمام كلاماً طويلاً غير هذا لم يقله، ولم يتفوه به. وأنما هو كلام ذكره ابن أمير الحاج في شرحه للتحرير، وإسم كتابه «التقرير والتحبير» وقد اختلط الأمر على «العلامة» صاحب الكراس، فأسند الكلام الذي ساقه الى ابن الهمام، وهو لم يقله أصلاً، وأسند اليه كتابا إسمه التقرير والتحبير، وهو لم يؤلف كتاباً بهذا الإسم أصلاً» . أنظر المرجع نفسه ، ص٦٣ .

(١٥١) المرجع السابق ، ص١٣٤ .

أو فقيه في مسألة معينة واعتماد هذا القول والإستشهاد به. في الوقت نفسه الذي يكون السلفيون قد حكموا على نفس العالم أو الفقيه بالضلال أو الكفر. لأنه معطل أو لانه يختلف معهم في مسألة عقائدية. وقد شكا الدكتور البوطي كذلك من كذبهم عليه وهو حي يرزق. كما أثبت كذب المعصومي الكاتب السلفي على الدهلوي[١٥٢].

□ الحذف والتحوير عند النقل :

ويتكلم السيد الميلاني وهو يناقش كتاب «المرتضى» لأبي حسن الندوي السلفي الهندي المعاصر، عن تحريف وتحوير متعمد في النقل عند الإستدلال. فالكاتب الندوي ينقل عن إبن كثير ويقول قال إبن كثير. ولما يدقق الباحث الميلاني في هذا النقل يقول: «إلا أننا لما راجعنا الجزء والصفحة المذكورتين وجدنا عنوان إبن كثير هكذا فصل في مؤاخاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار. ولم نجد فيه هذا النص المذكور في كتاب المؤلف!! ومن شاء فليراجع. والنص هو «قال إبن كثير؟ آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينه وبين سهل بن حنيف»[١٥٣].

وفي هذا الكتاب الذي كتبه المؤلف لغرض في نفسه، الكثير من التحويرات واللف والدوران الذي لا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى الغرض منه. فالعنوان «المرتضى» أو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. لكن ثلث الكتاب في مدح وبيان مواقف رجال آخرين. وما تبقى ليس إلا اعادة كتابة بعض الأحداث المهمة في تاريخ الإسلام، وفقاً لما يراه أتباع المذهب السلفي.

---

(١٥٢) يقول البوطي: «إن ما نقله المعصومي عن الدهلوي في كتابه الإنصاف، كلام مكذوب عليه، لم يثبت لا في الأنصاف ولا غيره» اللامذهبية ص١٣١ .

(١٥٣) مجلة تراثنا ، العدد ١ (٤٣) السنة التاسعة محرم ١٤١٤هـ ، ص ٣٨ .

□ **تنقية كتب التراث من النصوص والأحاديث المخالفة للمذهب :**

أما أخطر الطرق التي يسلكونها في عملية التحريف هذه، فهي محاولاتهم الجادة والمتكررة لتنقية كتب التراث الإسلامي من كل ما يخالف العقيدة السلفية. وبما أنهم يملكون الأموال الضخمة ويستطيعون إعادة طباعة هذه الكتب والمصادر، وشراء سكوت أصحاب المطابع. فإنهم خطوا خطوات مهمه هذا المجال. وقد ظهرت هذه التنقية والغربلة لتراث المسلمين في أشكال متعددة منها.

١ ــ حذف الأحاديث الغير مرغوب فيها من المصادر والكتب. وإعادة طبعها دون الإشارة الى ذلك، وقد انتبه المحقق الكوثري وهو يراجع كتاب «الأسماء والصفات للبيهقي» الى ان الحديث الذي ذكره ابو بكر الصامت الحنبلي وقال رواه عبدالله إبن احمد في السنة. قد اختفى من النسخة المطبوعة. يقول الشيخ الكوثري: «ولم أجده في المطبوع فلعل المشرفين على طبعه حذفوه إستفضاعاً له»[١٥٤].

واذا كان هذا الحديث أعدم لأنه يشنع عليهم. فإن حديث «الدار» الذي رواه أغلب أهل السنن، ينتصر لعقيدة الأمامة الشيعية لذلك فقد اختفى من الطبعة الثانية من كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل. وقيل ان السلفيين تدخلوا لدى الناشر وأغدقوا عليه الأموال فحدفه من الطبعة الثانية بعدما ذكره المؤلف في الطبعة الأولى. وهذا الحديث لكونه صحيح السند، وصريح العبارة. فقد كان يزعج كل من يجده في طريقه وهو يكتب في السيرة النبوية، وخاصة أعداء الإمامة وأهل البيت. ومن ضمنهم بلا شك دعاة السلفية. أنظر الى إبن كثير المؤرخ وهو يتعرض لهذا الحديث مضطراً فلما وصل الى قوله صلى الله عليه وآله وسلم «على أن يكون أخي ووصي

---

(١٥٤) لأسماء والصفات ، تحقيق الكوثري ، هامش ص٣٥٦ .

وخليفتي فيكم» نقله بهذه الصورة «على أن يكون أخي وكذا وكذا»[١٥٥].

وابن كثير هذا كان أكثر ميلاً لعقيدة التجسيم والتشبيه «السلفية» في تفسيره. لذلك تجدهم يدعون للإهتمام بهذا التفسير وتقديمه على غيره. كما أن موقفه من الشيعة الإمامية كان معروفاً وهو النقض عليهم. لذلك لجأ الى هذا التحريف. ولكن الحديث ولحسن حظه وحظنا موجود في باقي المسانيد الحديثية. وقدرواه أكثر من واحد، ونقله مجمل الكتاب المعاصرين.

□ طبعات جديدة ونظيفة لصحيح البخاري :

وعملية حذف الأحاديث من المسانيد وكتب السنن، أصبحت مشهورة، فهناك في الأسواق الآن كتب حديثية لا تخلو من الحذف والنقص المتعمد. وخصوصاً صحيح البخاري الذي صدرت له طبعات سلفية منقحة وجديدة، وقد طالتها يد التحريف. وقد حدث أكثر من مرة ان احتدم النقاش بين أبناء الصحوة الإسلامية. حين يذكر أحدهم في معرض الإستدلال، حديثاً ينسبه الى صحيح البخاري فيرد الآخر بأن لا وجود لهذا الحديث في صحيح البخاري. وبالفعل يستنجد بنسخة تخلو من هذا الحديث. وعند المراجعة تبين أن هناك نسخاً محرفة موزعة في الأسواق وخصوصاً تلك التي طبع فيها صحيح البخاري على شكل كتب وأجزاء صغيرة لتسهيل ـ على حد زعم أصحابها ـ الإستفادة من هذا السفر الضخم. وقد وزعت على نطاق واسع، ولا شك أنها وزعت بالمجان كذلك.

وقد ذكر لي بعضهم ان هذه النسخة قد وزعت في فرنسا وأنه عرف ذلك عندما احتدم النقاش بينه وبين شخص آخر فاستدل بحديث رواه البخاري، هذا الحديث الذي خلت منه النسخة الموزعة. ولهذا السبب يمكن أن نفسر

---

(١٥٥) البداية والنهاية ، ج٣ص٤٠ .

أخذ الدكتور التيجاني السماوي ـ وهو متشيع معاصر ـ لنسخته من الصحيح، عندما أراد ان يناقش قاضيا استدعاه، وذلك خوفاً من أن يطلع عليه القاضي بنسخة أخرى تخلو من شواهد الأستدلال.

وقد ذكر الداعية الإمامي السيد علي البدري أنه كان يحفظ الأحاديث من مصادرها، ويحفظ معها الطبعة والسنة ودار النشر لأنه حدث خلاف كبير وتحوير في طبعات جديدة. لذلك فقد بدأ البعض من أبناء الصحوة الإسلامية يبحث عن طبعات قديمة، لصحيحي البخاري ومسلم عساها تكون قد نجت من التحريف والتزوير. ومن عجيب ما سمعت أن شيعياً إمامياً في السعودية هجمت على منزله المخابرات وفتشت مكتبته ولم يأخذوا منها سوى نسخة قديمة من صحيح البخاري كان قد إقتناها من خارج المملكة؟!.

إن من المؤسف حقاً أن أحداً من المفكرين، الى حد الآن لم يقم بمتابعة هذه الظاهرة التحريفية لتراث الأمة. وذلك بمراجعة على الأقل مصادر الحديث المعروفة التي طبعت. سواء داخل المملكة السلفية أو خارجها، ومقارنتها بنسخ قديمة أو مخطوطة لمعرفة مدى إلتزام هؤلاء بالنزاهة والأمانة في حفظ التراث الديني. وان كنا نشعر بنوع من الأرتياح وعدم الخوف على هذا التراث من الضياع، لان مطابعاً ومكتبات في القاهرة واستنبول وطهران والنجف الأشرف تحتضن هذا التراث، وتحرص على طباعته وإخراجه للناس دون زيادة أو نقصان.

كما أن المكتبات الشخصية لعلماء أهل السنة والشيعة الإمامية، تحتوي على النسخ الأصلية لأهم مصادر التراث الإسلامي. ولكن المشكل هو في قدرة الحركة السلفية اليوم على إغراق الأسواق بالنسخ الجديدة والمعدلة، وبيعها بأسعار رخيصة أو توزيعها بالمجان، مما يجعل أبناء الصحوة الإسلامية يقتنونها ويعتمدونها دون غيرها.

□ طبعات محرفة لمغني ابن قدامة وصحيح مسلم:

وأخيراً يقول محمد نوري الديرثوي: إن «التحريف وحذف الأحاديث شأن السلفية وديدنهم. إن نعمان الألوسي حرف تفسير والده المكرم علامة العراق الشيخ محمود الألوسي «تفسير: روح المعاني» ولولا تحريفه لكان التفسير الفريد وجامع الجوامع. وأما الحذف والسلخ للعبارات والأحاديث فحدث عنه ولا حرج: لقد طبعوا المغني لإبن قدامة الحنبلي فحذفوا منه مبحث الإستغاثة. وطبعوا شرح صحيح مسلم فسلخوا منه أحاديث الصفات. هذا ما عثرنا عليه من خيانتهم العلمية وقبيح عملهم، وسيحاسبهم الله على سوء صنيعهم وهو مطلع عليه وان خفي عنا[١٥٦].

إن عملية حذف الأحاديث من أمهات الكتب الحديثية عملية تحريفية مضللة وخطيرة. لكن كشفها يمكن أن يكون متيسراً وذلك بمقارنة النسخ بعضها ببعض.

□ اختصار أمهات الكتب والمصادر:

لكن العقل السلفي اكتشف طريقة أخرى لإلغاء الأحاديث والروايات المخالفة. وهذه الطريقة كان قد عُمل بها قديماً. فالكتب التي تكون ضخمة يقوم العالم أو الفقيه باختصارها. وهكذا ظهرت «المختصرات» في جميع

---

(١٥٦) محمد نوري الشيخ الديرثوي، ردود على شبهات السلفية، مطبعة الصباح ط١ ـ ١٩٨٧ص٢٤٩. ويقول في الصفحة١١١ عن نعمان الألوسي أنه «كان على عقيدة ابن تيمية وحرف تفسير والده (روح المعاني) بعد وفاته وحشاه بآراء ابن تيمية وأمثاله وجاء في ذيل مقالات الكوثري لأحمد خيري قوله في نعمان: «وهو ليس بأمين على طبع تفسير والده، ولو قابله أحدهم بالنسخة المحفوظة اليوم بمكتبة راغب باشا باسطنبول، وهي النسخة التي أهداها الى السلطان عبدالحميد خان ــ لوجد ما يطمئن إليه. على ما في «تبديد الظلام المخيم من نونية إبن القيم» ، للعلامة الكوثري ، مطبعة الأندلس بحمص ، ص٤٢٥ .

الميادين الفكرية. اختصرت كتب التاريخ الطويلة، كما إختصرت موسوعات الحديث، وشمل هذا الإختصار أيضاً كتب الفقه والأدب.

أما الآن فإننا نعتقد أن عملية الأختصار التي يقوم بها بعض كتاب السلفية وراءها ما وراءها؟! خصوصاً إختصار السيرة النبوية وكتب الحديث(١٥٧).

وهذه العملية وان كانت علمية في الأصل ولا إشكال على ممارستها. فإنها قد تصبح مدخلا يلج منه السلفيون للقيام بعملية تحريفية واسعة النطاق. فقد يحذفون من السيرة النبوية كل مالا يتناسب مع مذهبهم. كما يتم تشطيب وإلغاء الأحاديث التي يتشبث بها خصومهم. وعليه سيظهر مختصر صحيح البخاري لا يجد فيه المخالف للسلفية أي مستند. وهكذا بالنسبة للسيرة النبوية، ففضائل أهل البيت مثلاً، سيتم التخلص منها بيسر وسهولة. أما كتب التواريخ فلا نشك أنها ستصبح أموية أكثر من اللزوم. لأن من يعتقد في يزيد إبن معاوية الفاسق أنه كان أميراً للمؤمنين واجب الطاعة. لن يرضى بما كتبه المؤرخون في وصف حاله من الفسق والفجور وصولاً الى الكفر(١٥٨).

---

(١٥٧) أنظر مختصر صحيح مسلم للمنذري ومقدمة الشيخ ناصر الدين الألباني السلفي وما ذكره في هذه المقدمة من الحط على المذاهب الفقهية وخصوصاً المذهب الحنفي، والسلفيون يغتنمون مثل هذه المقدمات لنشر الفكر السلفي.

(١٥٨) يقول الكاتب والصحفي نبيل فياض: في الإطار التدجيلي ذاته، صدر عن «وزارة المعارف ــ المكتبات المدرسية» في تلك الدولة الوهابية، كتاباً حمل عنوان «حقائق عن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية» مليئاً بالأكاذيب، يهدف أصلاً الى غسل عقول الأطفال، وتهيئتهم كي يتحملوا «شرعياً» مظالم الحاكم مهماً كان فاسداً، فاسقاً. فما هي حقائق أمير المؤمنين هذا، الذي خرج منتصراً من كل معاركه مع معارضيه من المسلمين؟ قال إبن كثير: «إشتهر يزيد بالمعازف وشرب الخمور، والغناء والصيد وأتخاذ القيان والكلاب والنطاح بين الأكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا ويصبح فيه مخموراً. وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به... الى أن قال: وكان اذا مات القرد حزن عليه وقيل أن سبب موته انه حمل قردة وجعل ينقزها فعضته». ابن كثير. البداية والنهاية ٨/ ٢٣٦. أنظر ، يوم إنحدر الجمل من السقيفة ، الطبعة الثالثة ١٩٩٥م ، ص ١٤ و١٥ و١٧.

ولا شك أن هذه المختصرات ستكون بمثابة اعادة كتابة التاريخ وفقاً لأهواء حشوية الحنابلة. ولو تسنى لهم أن يفعلوا ذلك تحت جنح الظلام وينشرون نتائجه في الأوساط الإسلامية المتلقية، فإن الكارثة ستكون مهولة، وعملية التحريف ستبلغ مداها الأقصى. وستتحول الأكاذيب والخرافات في تاريخ الإسلام الى حقائق تعتنقها الملايين من المسلمين.

وستصبح الأحاديث المكذوبة والمختلقة صلب العقائد الإسلامية. ولا ضير اذن من أن يعيد التاريخ نفسه. فلولا مثل هكذا عمل، لما أصبح عيسى إبن مريم إلهاً يعبد في الأرض بدل الله عزوجل. وها هي الملايين اليوم تعتنق المسيحية أو الصليبية وتتدين بدين لا علاقة له بنبي الله عيسى عليه السلام بالمرة.

ونحن اذ نحذر من هذه «المختصرات» نؤمن بوجودها في تاريخ الإسلام. ولكن ذلك العهد ولى، حيث كان يمكن الركون الى صدق أصحابها وموضوعيتهم. أما الآن فإن «دعاة السلف» يكذبون على الأحياء الذين يعاصرونهم وينسبون إليهم أقوالاً وافعالاً هم بريئون منها. واذا كانوا يستحلون الكذب على خصومهم فلا مانع لديهم من تصحيح التاريخ، وتنظيف كتب الحديث من كل ما يرفضه الفكر السلفي.

فعلى أبناء الصحوة الإسلامية أن يأخذوا حذرهم، وأن ينتبهوا جيداً لمثل هذه المختصرات. وأن يبحثوا عن هوية الكاتب المذهبية، ومصدر الطباعة والنشر. وان كنا ندرك صعوبة ذلك، لأن المئات من المرتزقة يقومون بهذا العمل لصالح المؤسسة السلفية، ولا يمكن معرفتهم. وكذا دور النشر، فإن هناك صعوبة واقعية في تحديد ميول أصحابها ومن يدفع لهم المال لقاء فعلهم هذا. وبالجملة فإن الأطلاع الشامل والقراءة المتنوعة لكتب الأصدقاء والخصوم كفيلة بايضاح الطريق أمام المخلصين من أبناء الصحوة الإسلامية.

□ البحوث الجامعية في خدمة التحريف :

وفي نفس السياق أي تنقية التراث الإسلامي مما يخالف مذهب «حشوية الحنابلة» أو السلفية، نجد أن دراسات وبحوث بنيل شهادات عليا من الجامعات السلفية قد أخذت على نفسها محاكمة بعض الكتب المهمة التي تنشر عقيدة أهل السنة والجماعة بالخصوص. ومحاولة الرد عليها وتوجيه محتواها بطريقة تتناسب في النهاية وعند الاستنتاج العام مع ما يذهب إليه السلفية من عقائد وآراء. نذكر على سبيل المثال كتاب «البيهقي وموقفه من الإلهيات» للدكتور السلفي أحمد بن عطية الغامدي الأستاذ المساعد في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

□ السلفيون يحاكمون التراث الاسلامي :

فمما لاشك فيه أن كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي هو أحد أمهات الكتب في تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة من الأشاعرة. وهو في نفس الوقت وثيقة مهمة لبيان كذب شيخ الإسلام «إبن تيمية» في كثير من أقواله وإجماعاته وتقريراته العقائدية. لأن البيهقي ذكر مجمل الأحاديث والروايات وأقوال الصحابة والتابعين، والأئمة «السلف» فيما يخص موضوع الصفات الإلهية وموقف السلف منها، تأويلا وإثباتاً أو تعطيلاً. الشيء الذي جعل دعاة السلفية يقفون أمام مصدر تراثي ثري بالمعلومات والنقول عن الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب، ينقض عقيدتهم ويسفه آراءهم.

بل إن الإطلاع على هذا الكتاب يُظهر مدى تهافت العقيدة السلفية. لذلك اتجهت حراب السلفية لطعنه. وذلك بإعادة قراءته ومحاكمته على ضوء مذهب «السلف». ومنهج الدكتور في هذه القراءة والمحاكمة هو عرض كل المسائل التي ذهب البيهقي فيها مذهباً يخالف عقيدة إبن تيمية. ثم الرد عليها بما يقوله السلف وضحض حجتها. ويجب أن يُعلم أن المقصود من

السلف في طول الكتاب وعرضه هو رأي إبن تيمية لا غير وللقارىء ان يراجع ليتأكد من صدق ذلك.

يقول الدكتور السلفي «كان في تعليقاته ـ اي البيهقي ـ وايضاحه لمسائل العقيدة، قد رضي أن يكون المذهب الأشعري هو السائد على آرائه. مع استقلاله عن الأشاعرة ببعض الاراء في مسائل مهمة متبعاً طريقة السلف فيها وراضياً بمذهبهم[١٥٩] وطريقة السلف هنا هي رأي إبن تيمية لا غير. يقول الدكتور: «ثم ان البيهقي ـ رحمه الله ـ ينكر أن يكون كلام الله تعالى بحرف وصوت.. وهو بهذا يتفق مع الأشاعرة.. أما السلف فإنهم يقفون من رأي البيهقي في مسألة الحرف والصوت موقفاً معاكساً لأنهم يرون أن الله تعالى متكلم بحرف وصوت»[١٦٠]. وعند التحقيق تجد أن هذا الرأي لشيخ الإسلام. وانه هو المقصود بالسلف.

مثال آخر لمحاكمة الدكتور كتاب «الأسماء والصفات»، فبعدما يعرض لكلام البيهقي بخصوص قدم القرآن، ورأي أهل السنة في ذلك يقول «وهذا الرأي الذي تبناه البيهقي يخالف ما عليه سلف الأمة في هذه المسألة، حيث يرون ان كلام الله تعالى قديم النوع حادث الآحاد. وان الله متكلم متى شاء كيف شاء[١٦١]، وهذا الرد يكاد يكون حرفياً نقلاً عن إبن تيمية. وهكذا دواليك. فكلما جاء البيهقي برأي يخالف ما عليه السلفية رد عليه الدكتور بقول إبن تيمية وحتى وإذا وجد رأي يدعم العقيدة السلفية لغير شيخ الإسلام، فإن الدكتور الباحث يعدل عنه لرأي الشيخ. يقول في معرض نقاشه لأحد المسائل «مع أنه رأي لبعض السلف كما ذكرت إلا أنني اخترت القول

---

(١٥٩) البيهقي وموقفه من الإلهيات، الدكتور أحمد بن عطية بن علي الغامدي، ط ٢ المجلس العلمي، إحياء التراث الإسلامي المملكة العربية السعودية، ص ٥٨ .

(١٦٠) المرجع نفسه، ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤ .

(١٦١) نفسه، ص٢١١ .

بالتفصيل الذي ارتضاه شيخ الإسلام إبن تيمية رحمه الله[١٦٢].

وهكذا تتم محاكمة تراث المذاهب الإسلامية بميزان وحيد وقاطع. هو رأي إبن تيمية «السلف»، فما وافق رأي «شيخ الحنابلة» فهو رأي السلف الصالح وهو الحق المحض. وما خالف ذلك فهو ليس رأي السلف وهو الباطل المحض.

والدكتور المؤلف عندما يذكر آراء إبن تيمية ويصفها برأي «السلف» وقول السلف. إنما يؤكد ما توصلنا إليه في المقدمة عند التعاريف، بأن مذهب السلف ليس سوى آراء شيخ الإسلام إبن تيمية مضافة الى المذهب الحنبلي.

وهذه الأمثلة التي جئنا بها ونحن نناقش مسألة التحريف. إنما تدخل ضمن هذا الباب ـ أي تحريف التراث ـ فعندما يقول المؤلف أن رأي السلف في هذه المسالة كذا، يتبادر لذهن القارىء العادي أنه يقصد الصحابة أو التابعين أو أئمة الإسلام ممن عاش في القرون الثلاثة الأولى من عمر الإسلام. لكن الحقيقة أن هذه الكلمة «السلف» لا تعني أكثر من «رأي إبن تيمية لا غير» وهذا تحريف وتزوير وتلفيق، بخلاف الحقيقة والواقع. وإيهام القارىء بصحة رأي «السلفين» لأنه منسوب لأناس فُرض أنهم أعلم، لأنهم أقرب عهداً برسالة الإسلام. والإستهانة برأي علماء المذاهب الأخرى عندما يعلم القارىء بأنها تخالف آراء السلف.

ونحن على يقين بأن دعاة السلفية اليوم لو تنازلوا عن لقب «السلف» وأتباع السلف، ودعوا لآرائهم ومعتقداتهم كما هي عليه حقيقة. آراء وأفكار فقهاء وأتباع المذهب الحنبلي وبالخصوص آراء إبن تيمية الحراني وتلميذه إبن قيم الجوزية، فإن أبناء الصحوة الإسلامية سيجدون أنفسهم أمام مجال واسع ورحب للإختيار والمقارنة بين اجتهادات العلماء وآرائهم في جميع المذاهب الأصولية والفروعية.

---

(١٦٢) نفسه ، ص٣٣٢ .

ولن تكون الساحة حكراً آنذاك على رأي مخصوص لمجتهد واحد. كما أن الإدعاء بأن الحق المطلق والمحض هو الى جانب مجتهد دون آخر تصبح دعوى تحتاج الى الكثير من الأدلة. وطبعاً هذا لن يكون في صالح الدعوة السلفية.

ولو علم أبناء الصحوة الإسلامية في أنحاء العالم أن سلفيتهم لا تتجاوز تقليد المذهب الحنبلي في الفروع والأصول. وانهم آخر المطاف يشكلون شريحة من أتباع فقيه حنبلي عاش في القرن السابع ليس إلا. فمن المؤكد أن موجة الدعوة السلفية ستعرف انحصاراً كبيراً وتقهقراً عظيماً، لأن أحداً عند ذاك لن يستطيع أن يثبت بأن إبن تيمية كان أعلم وأفهم للإسلام من ابو الحسن الأشعري. هذا الرجل الذي ولد ومات في الزمن السلفي حقاً. وكذا لن تجد من يجرؤ على مقارنة هذين الرجلين بجعفر بن محمد الصادق الإمام السلفي الكبير الذي كان يقول: «عن أبي عن جدي.. عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال» ويدرج الحديث. وقد شهد له الأعداء قبل الخصوم بالأعلمية والتفوق. وغير ذلك من الحقائق التي يحاول ضباب الدعوة السلفية أن يحجبها عن عيون أبناء الصحوة الإسلامية.

□ يقول العلم، ويرى السلف؟! :

وقبل أن أنتقل الى مناقشة وإيراد اسلوب آخر من أساليب هذه الفئة في تحريف تراث المسلمين. تحضرني قصة ترجع إلى زمن بعيد. كنت يومها طالباً في الثانوية العامة وكان مدرس مادة الفلسفة ماركسياً، ولما كان المنهج يتضمن دراسة الفلسفة الماركسية فقد وجد هذا الأستاذ الفرصة لنشر أفكاره والدعوة إليها، وقد كنت الى جانب بعض الطلبة نتصدى له أثناء النقاش ونرد على أفكاره ونفندها. لذلك كان هذا الأستاذ يجد صعوبة بالغة في إيصال ما يريد إيصاله الى باقي الطلبة، من مدح للأفكار الماركسية. لذلك فقد غير أسلوبه في العرض والمناقشة. وعندما بدأ يشرح «المادية الجدلية» ليثبت مبدا

التناقض الطبيعي والتغير الدائم، كان يقول «لقد أثبت العلم كذا» و «يقول العلم كذا»، وكنا نحن نقف مشدوهين أمام قوله «لقد أثبت العلم كذا، ويقول العلم» لأن أحداً لايجرؤ على مخالفة العلم. في الوقت الذي كان يتكلم فيه عن قوانين المادية الجدلية.

وفي إحدى الحصص وهو يتكلم عن العلم وكيف ان التناقض في الطبيعة قانون علمي و.. و.. و..» تذكرت قول السيد باقر الصدر الذي ذكر في كتابه «اقتصادنا» ان بعض الماركسين عندما يكتبون او يتكلمون عن المادية الجدلية يقولون يقول «العلم» وأثبت «العلم» ويقصدون بذلك «المادية الجدلية الماركسية» وليس العلم بمعنى ما يصدر من نتائج عن البحوث العلمية في المختبرات ومعاهد البحث والدراسة.

فهم يعتقدون بأن جدلية ماركس المادية هي قانون علمي. وقفت حائراً هل أسأل الأستاذ ماذا يقصد بالعلم؟! وانتابني الشك والخوف معا فقد يكون يقصد بالعلم حقيقة وليست «المادية الجدلية»، وبالتالي سأضع نفسي في موقف حرج لا أحسد عليه، ربما كانت له عواقب وخيمة على علاقتي بهذا الأستاذ. لكني تحررت من الشك والتردد واتجهت بسؤالي نحوه قائلاً. ماذا يقصد الأستاذ بـ «العلم» عندما يقول «لقد أثبت العلم»؟! وما كدت أنهي سؤالي، حتى فوجئت بالأستاذ وقد وقف باتجاهي قائلا لي بلهجة عامية ما معناه: ان كنت قد عرفت المقصود فالزم الصمت! وفعلاً التزمت الصمت. وأنا أحمد الله في نفسي بأني وفقت في الكشف عن هذا الأسلوب التزويري لإيصال العقائد والأفكار الى الناس.

لا شك أن القارىء قد أدرك المقارنة التي من أجلها تعمدت ذكر هذه القصة الواقعية. فإذا كان الماركسيون يدعون الى آراء ماركس تحت عنوان «يقول العلم» فإن دعاة المذهب الحنبلي الحشوي يدعون الى آراء إبن تيمية الحراني تحت عنوان «مذهب السلف» وكلاهما يريد أن يحرف الحقائق ليصل

الى عقول العامة والخاصة. فما دامت الغاية تبرر الوسيلة فلا بأس من سلوك هذه الطرق الملتوية وركوب هذه المطايا المضللة. لكن الأسلوب الأخطر، الذي نجم عنه تحريف واسع النطاق، وتغييب الكثير من الحقائق لم يكن في حذف الأحاديث عند الطباعة، أو الإختصار فقط.

□ اعادة كتابة التاريخ :

ولكن موجة التأليف والكتابة في المواضيع الإسلامية العامة. التي لجأت لإعادة كتابة التاريخ بطريقة انتقائية. يحرص فيها المؤلف على ذكر ما اتفق عليه سلفاً من خصائص المذهب وميوله السياسية وآرائه العقائدية. لقد كان المؤرخ القديم موسوعياً يضم في تأليفه كل الآراء تقريباً. فيجمع مجمل الأحاديث والأقوال المختلفة في الحادثة الواحدة. وفي الغالب الأعم لا يقوم بالترجيح أو التحقيق إلا نادراً. وكذا كان المنهج في موسوعات الحديث النبوي. لكن الكتابات الحالية التي تغزو الأسواق، شديدة الأنتقاء والتنقية من الشوائب الغير مرغوب فيها. وصولاً الى تحريف الحقائق، والإيهام الذي يجعل القارىء يستنتج بعض الأفكار والآراء بخلاف ما هي عليه في الواقع.

فلو تعرض بعضهم للحديث عن الخلافة مثلاً وكيف تمت البيعة لأبي بكر الصديق. سيكتب بأن المسلمين بعد وفاة رسول الله اجتمعوا قاطبة وبايعوا أبا بكر رضي الله عنه قائلين: لقد ارتضاه الله لديننا فكيف لا نرضاه لدنيانا، وكان الرسول(ص) قد قدمه للصلاة أثناء مرضه. ثم يمر مرور الكرام على هذه الحادثة، بعد ما يكون قد أغرق في المدح وبيان فضائل الرجال. لدرجة تحسبه يتكلم عن الملائكة المعصومين وليس عن البشر الخطائين.

أما إذا ما رجعت الى مصادر التاريخ لتطلع على أحداث انتقال الخلافة الى أبي بكر الصديق فستجد خلافاً شديداً بين الصحابة وتناحراً ومؤامرات شخصية وجماعية أودت بقتل بعض الصحابة. وان عمر بن الخطاب مثلاً

كان قد إعتبر خلافة أبا بكر فلته وقى الله المؤمنين شرها. الى ذلك من الأخبار والحكايات التي تطعن في أي إجماع مدعى. وعندما يتكلم عن حادثة مقتل عثمان، يكتب عن مظلومية هذا الخليفة الذي كانت الملائكة تستحي منه. وأن مجموعة من شذاذ الآفاق هجموا عليه في منزله وقتلوه ظلماً وعدوانا.

وعليه يتم إختصار أحداث التاريخ بشكل عجيب. ولا يعرف القارىء سوى أن الخليفة الثالث قد قتل مظلوماً. أما أنه كان ظالماً وأنه خص قرابته بالولايات المهمة، ووزع عليهم أموال المسلمين، وما نشأ عن ذلك من ظلم للرعية. وغير ذلك من المظالم الكثيرة التي سجلها التاريخ. وسجل كذلك ردة الفعل الإجتماعية على هذا الظلم. فقد شارك في قتل عثمان بعض الصحابة وأبنائهم، وأم المؤمنين عائشة كانت تنادي اقتلوا نعثلا فقد كفر. وقد شارك محمد بن أبي بكر الصديق في قتله وان لم يكن قد باشر ذلك فقد أمر به وغير ذلك من الأحداث المؤلمة؟!.

□ عالم تتقاسمه الخرافة والمثل:

والغريب في هذه الكتابات، أنها تكتب تاريخاً رائعاً من الإجماعات والتسالم والتكامل والتعاضد بين جميع أفراد المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول(ص). كما وتتكلم عن أغلب من أطلق عليهم «صحابة» وكأنهم ملائكة لم ولن يخطئوا. فلم يصدر عنهم إلا الخير والصلاح. مما يجعل القارىء ترتسم في ذهنه صور مثالية عن هؤلاء الرجال وعن حقبتهم وتاريخهم، صور ملائكية هي أقرب الى عالم الخرافة من عالم الحقيقة والواقع.

وكأن هؤلاء الكتاب يكتبون عن عالم يحلمون به، عالم خال من الشرور والأهواء والمصالح الشخصية. ولكن المشكلة هنا ليس في الحلم أو الرغبة في عالم مثالي ملائكي يسود فيه الحق والخير. ولكن عندما نتكلم عن هذا الحلم أو المثال على أنه وجد على الأرض وتمثل في نماذج الصحابة ومجتمعهم،

خصوصاً بعد وفاة الرسول(ص). مما يجعل أبناء الصحوة الإسلامية ينشدون هذا الحلم، الذي يعتبرونه واقعاً حدث ذات يوم ويمكن إعادته أو تكراره. في الوقت الذي تكون حقيقة هذا الواقع مسطورة ومختلقة على الأوراق فقط.

وهذه الكتابات المزيفة للواقع هي التي جعلت أبناء الصحوة الإسلامية يحلمون بالخلافة الراشدة، ويسعون لإعادة نموذجها المثالي. لكن هيهات، هيهات!! إن الواقع ليس كما يسطره الكتاب اليوم. والذي قيل انهم يفعلون ذلك، لأعادة الإعتبار للذات المسلمة. وإخراج المسلم من حلقة اليأس الذي يعيش فيه، نتيجة الهزيمة الحضارية. وذلك بالحديث عن تاريخ حضاري مشرق. كما أن هذا الأسلوب أُستخدم لدعم المواجهة الحضارية بيننا وبين الغرب. وخلق سد منيع أمام الغزو القيمي الغربي، وذلك بخلق الإنطباع بالتفوق الأخلاقي والقيمي للحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية المعاصرة. ونحن وان كنا لا نمانع من تقوية الجبهات الداخلية والخارجية للأمة في مواجهتها الحضارية الشاملة مع الغرب. فإننا لا نرضى أن يكون ذلك على حساب الحقيقة وتزييف الوقائع، وهذا لا يقتصر على مثال «الخلافة الراشدة» ولكن على مجمل التاريخ الإسلامي.

إن عرض الجانب المضيء من تاريخنا، وغض الطرف عن الجانب المظلم، يعد تحريفاً للواقع والتاريخ. ولن يثمر سوى ردة فعل قاسية، إذا ما اطلع أبناء الصحوة على حقائق الأمور؟. إنهم يتكلمون عن واقع إجتماعي لا وجود له إلا في خيال من يكتب عنه، ويتكلمون عن ورع وصدق وعلم «أمير المؤمنين»[١٦٣] فلان الخليفة، وأنه كان يصلي ألف ركعة في اليوم وكان

(١٦٣) أنظر ما يقوله السلفي عمر بن أحمد الأحمد عن الخليفة العباسي المتوكل على الله «لقد شبه بعض المؤرخين عصر المتوكل بعصر الصديق لقتله أهل الردة لأنه نصر الحق ورده عليهم حتى رجعوا الى الدين، وبعصر عمر بن عبدالعزيز حين رد مظالم بني أمية، وقد أظهر الحسنة بعد البدعة، وأخمد أهل البدعة وبدعهم بعد إنتشارها واشتهارها فرحمه الله.. رحم الله الخليفة المتوكل رحمة واسعة الذي قُتل سنة (٢٤٧هـ)، فلقد حرص ==

يواسي الفقراء وينصف المظلومين، في الوقت نفسه الذي يكون صاحب هذه الأوصاف المذكورة أحد طغاة التاريخ الإنساني، قد قام كرسي خلافته على جماجم الآلاف من المظلومين والضحايا من الرجال والنساء والأطفال.

ولابد أن أشير هنا الى ان أبناء الصحوة الإسلامية إن لم ينتبهوا لهذه الحقائق، فبسبب الأوضاع التي يعيشونها. فالمظلوم يحب سماع قصص العدل، ويكون أقرب الناس الى تصديقها وان كانت خيالية. لأنها تعالج ولو بشكل وهمي ما يعانيه من ظلم، وتفتح أمامه باب الأمل في تحقيق العدالة الإجتماعية غداً.

لقد اتسع الخرق على الراقع في هذا الميدان. وهناك مئات العناوين والكتب التي تتعرض لتاريخ الإسلام أو حياة الصحابة والخلفاء، أغلبها لا يستفيد من الوقائع المسطورة في المصادر المهمة إلا بمقدار قد لا يتجاوز النصف. كما أن إعادة كتابة التاريخ من طرف أساتذة ومفكرين مصريين[١٦٤] بالخصوص.

= على توحيد كلمة المسلمين، لأنهم يد واحدة على من ناوأهم وعاداهم وعادى طريقة السلف طريقة أبي بكر وعمر وهي الطريق الحق، فعليك بها واياك وبنيات الطريق» مجلة الأصالة العددان ١٥ ـ ١٦ ، ١٥ذي القعدة ١٤١٥ هـ ، ص٩٣ .

إن هذا الخليفة الذي يترحم عليه هذا السلفي المعاصر كان طاغية عصره وقد ذكر المؤرخون عن مجونه وإدمانه الخمر وفسقه الكثير، بالأضافة الى أنه كان ناصبياً يبغض الإمام علي بن أبي طالب وأهل بيته. وقد اتفق العلماء على ان المبغض لأهل البيت في حكم الكافر. أما قوله «نصر الحق ووحد كلمة المسلمين» فلا مصداق له سوى أن هذا الخليفة أوقف إمتحان الفقهاء والعلماء في قضية «خلق القرآن». وأنتصر لإهل الحديث «الحشوية منهم بالخصوص» أو ما يسمى اليوم السلفية. يقول أبو بكر الخوارزمي: ليس من فرق الإسلام فرقة إلا وقد هبت لأهلها رويحة، ودالت لها دولة كما أتفق المختار للكيسانية والمعتصم والواثق للمعتزلة، والمتوكل للنواصب والحشوية» . رسائل أبي بكر الخوارزمي ص ١٧٨ . ولكي يعرف القارىء حقيقة هذا الخليفة الذي يترحم عليه السلفية اليوم ما عليه إلا أن يراجع مصادر التاريخ المعتمدة ليرى كيف عاش وكيف قتل ومن قتله ولماذا؟!.

(١٦٤) تذكر منهم أحمد أمين في سلسلته التاريخية ضحى الإسلام وفجر الإسلام وظهر الإسلام وغيرها.

جاءت مبتسرة وتنقصها حقائق مهمة كثيرة، كان من السهل على هؤلاء الكتاب إدراجها أو الإشارة إليها. لكن الغاية كانت كما ظهر بعد ذلك، أن هؤلاء تعمدوا أخفاء هذه الحقائق أو الوقائع. أما عذرهم فهو كما قيل، عذر أقبح من ذنب.

□ طرق ملتوية وغامضة :

ويمكن أن نضيف كذلك الى وسائل تحريف التراث. تلك الكتب الفخمة التي يؤلفها الكتاب السلفيون رداً على أهل السنة والصوفية أو الشيعة الإمامية. فهي الى جانب تعمد التحريف المباشر، والكذب عند النقل، وتحرير النصوص، تسلك طرقاً ملتوية وغامضة في نقض حجج القوم. والمهم أن هناك إجماعاً حقيقياً على أن كتب الرد السلفي على أهل السنة والإمامية لا يمكن اعتبارها ردوداً علمية. فاقرب هذه الكتب ـ الردود ـ الى الموضوعية تعني خلوها بعض الشيء من السب والشتم والقذف. اما الكذب والتحريف فإنها تكاد لا تمتليء إلا به. وعلى من يريد معرفة طرقهم التحريفية أن يأخذ الكتاب الأصلي ويقرأه بجانب كتاب الرد السلفي.

ونعتقد أن قارئاً نبيها ومتوسط الإطلاع، يستطيع أن يكتشف حيل القوم وألاعيبهم. كما أن كثيراً من هذه الكتب تؤلف بأسماء مزورة لا وجود لها. ويظهر ذلك يقيناً في الكتب الضخمة الكثيرة المصادر والإستشهادات فإن أكثر من مؤلف وربما مجموعة كاملة من المفكرين قد اشتركوا في تأليفها. فبعض الأعمال تتطلب سنين طويلة من البحث والكتابة، إذا ما كلف بها شخص واحد. وقد أشار الدكتور البوطي الى هذه المسألة عندما شك في كتاب «المذهبية المتعصبة هي البدعة» الذي ألفه بعض السلفيين ـ قد يكون لناصـرالدين الألباني السلفي السوري أو مجموعة ـ لكنه طبع باسم سلفي خاص.

لذلك لم ينسَ الدكتور البوطي ـ وقد تأكد من الأمر ـ أن يشير الى ذلك في آخر كتابه حيث قال: «وبعد فليسامحني الأخ الذي دمغ المؤلفون كتابهم هذا باسمه، ان لم ألتفت إليه بشيء من القول»[١٦٥].

وبعد، لا يمكن أن ندعي أننا عرفنا كل الطرق والوسائل التي استخدمها بعض السلفيين في تحريف التراث وتزوير حقائقه. فمما لا شك فيه أنهم ابتدعوا ويبتدعون كل يوم وسائل جديدة، لإبراز عقائد وإجتهادات المذهب الحنبلي، والترويج لها، على أنها الحقائق الإسلامية المطلقة. وأنها المذهب الحق الذي يجب اعتناقه واتباعه ونبذ ما سواه.

لكننا إستطعنا ان ننبه القارىء وخصوصاً أبناء الصحوة الإسلامية الى خطورة ما يقوم به بعض دعاة السلفية اليوم. وأن هذه العملية التحريفية الكبيرة للتاريخ والحقائق الإسلامية. تعتبر السبب الحقيقي وراء التعصب المذهبي المقيت، وإنتشار الفتن الطائفية، وما يتبع ذلك من تمزيق لوحدة الأمة الإجتماعية والدينية.

* * *

(١٦٥) اللامذهبية، ص١٤٠.

السلفية وجهة نظر بدوية

□ بين حران ونجد :

عرف الإسلام عبر تاريخه الطويل تفسيرات وتأويلات متعددة، نشأت عنها المدارس الفقهية والأصولية المختلفة. وكان لكل مدرسة جذورها الفكرية والواقعية التي تغذيها وتصبغها بلون خاص، يؤكد خصوصيتها وتميزها. والمدرسة السلفية كإجتهاد ووجهة نظر في الإسلام، لها ما يميزها كذلك. وأهم ما لاحظه الباحثون، الجذور العميقة لأصحابها في البداوة. فإذا كانت «حران» مسقط رأس ابن تيمية، الأب الشرعي للحركة السلفية. فإنه «نجد» ستكون ليس فقط مولد الزعيم السلفي الثاني للسلفية والقائم بأمر دعوتها. ولكن موطن هذه الحركة والرحم الطبيعية التي تفرخ الأتباع والأفكار.

أما أهم ما يجمع بين حران ونجد فإنها الطبيعة الصحراوية. حيث الجفاف والبعد عن المدنية، لذلك تميز سكانها بالعراقة في البداوة، ولم تعرف المنطقتان على طول التاريخ الإسلامي أية حركة مدنية واسعة أو تمركز عمراني حضاري، خصوصاً بلاد نجد التي كانت وما زالت موطناً لقبائل البدو الرحل الذين يتنقلون بحثاً عن الكلأ والخضرة طوال السنة.

ونحن عندما نسلط الضوء على الخلفيات الجغرافية والبشرية للحركة السلفية، نفعل ذلك للكشف عن جذور بعض الظواهر الفكرية والسلوكية التي تتميز بها هذه الحركة، والتي لا يمكن معرفتها وتحليلها، إلا بإرجاعها الى منطلقاتها الأصلية. والبداوة الصحراوية بالخصوص لها مميزات خاصة يعرفها كل من درس حياة البدو الصحراويين أو عايشهم. فقساوة الطبيعة وشظف

العيش ، والبحث الدائم والمستمر على المرعى والماء، وما يتبع ذلك من حياة عدم الإستقرار والمخاطر الدائمة، كل ذلك ينطبع على سلوكيات الأفراد ـ البدو ـ ويظهر جلياً في معاملاتهم وتفكيرهم. فالجفاء والغلظة والقسوة وبساطة المعرفة والحرمان من إيجابيات المدنية والحضارة، كلها صفات وأوضاع يعرفها هؤلاء البدو، ويتمثلها صغيرهم بعد كبيرهم.

لذلك لما كانت نجد منطلق الدعوة السلفية وكان أبناؤها هم جند هذه الحركة وأتباعها ودعاتها. كان لزاماً ان تصطبغ هذه الحركة بكل صفات البداوة وعلى رأسها الغلظة والخشونة، بالأضافة الى ضعف المستوى العلمي والفكري والذي يكون عادة بسيطا بل سادجاً وبدائياً: يقول محمد أسد في كتابه (الطريق الى مكة): «.. إن كثيراً من مفاهيمهم ـ أي الوهابية ـ كانت بدائية، وأن حماستهم الدينية كثيراً ما قاربت الغلو»(١٦٦). ولا شك أن الغلو الذي عرفوا به وواكب حركتهم سببه القصور المعرفي الواضح. فلم تكن نجد قديماً ولا حديثاً حاضرة علمية، ومن أراد من أهلها أن يكسب حظاً من العلم والمعرفة كان يهاجر الى العراق أو الشام ومصر وكذا المدينة المنورة.

□ الخشونة وضيق الأفق :

وإذن فقد كانت بلاد نجد في فجر انطلاق الحركة الوهابية غارقة في الجهل والأمية والسداجة المعرفية. لكن وبعد فترة قصيرة من الزمن سيصبح

(١٦٦) الشيعة في المملكة العربية السعودية ، حمزة الحسن ، ج٢ ص١٣٣ . ويقول صاحب النفحة الزكية في الرد على شبه الفرقة الوهابية، عبدالقادر الكيلاني الاسكندراني: «ان أتباع بن عبدالوهاب ربما يلتمس لهم عذر بأنهم جماعة قاطنون في بلاد نجد وهم بعيدون عن عالم الحضارة. لم يزالوا على البساطة والسداجة في الفطرة. قد ساد عليهم الجهل وغلب عليهم الجفا وخشونة الطبع، لا يعرفون شيئاً من العلوم العقلية ولا خاضوا في غمار الفنون العربية ولم يميزوا بين المنطوق والمفهوم بل ترى علماءهم الذين يزعمون أنهم على شيء ليس لهم وقوف على العلوم العربية اللهم الا شيء من مبادئها» ص٧ .

أبناء هاته المنطقة وفجأة، علماء وفقهاء ودعاة للإسلام وعقيدة التوحيد. ليس فقط ضمن مجالهم الجغرافي، الصحراوي الضيق، ولكن لأبعد من ذلك شرقاً وغرباً. حيث بدأت محاكمة الإسلام والمسلمين معاً، إنطلاقاً من معارف هؤلاء الدعاة الجدد. فما ارتضوه حقاً فهو الحق، وما جهلوه فهو الباطل الذي يجب ان يرفض ويزول بحد السيف. يقول الدكتور محمد عوض الخطيب: «انطلقت الوهابية من نظرة خاصة للإسلام احتوت على الحد الأقصى من التزمت وضيق الأفق، مسيئة الظن بالمسلمين الى درجة إعتبارهم، بشكل مسبق مشركين وكافرين»(١٦٧).

وضيق الأفق والتزمت الذي عرف به دعاة الوهابية لم يكن بسبب المزاج الصحراوي فقط ولكن بسبب بساطتهم المعرفية وسداجتهم الفكرية وضعف بضاعتهم في الفكر الإسلامي. يقول السيد محمد سليم الإسكندراني: «إني اجتمعت بكثير من علمائهم فوجدتهم من الجهل بمكان ومن العلم بمعزل»(١٦٨).

وقد إستغل إبن سعود هذا الجهل وهذه البساطة في فهم الإسلام عندما رسخ في أذهانهم أن حربهم للمسلمين مقدسة، حرب الموحدين ضد الكفار والمشركين. وبذلك ضمن توسع مملكته وسيطرته على الحجاز وأطراف العراق والشام، وقد انتبه محمد أسد لذلك، عندما أشار الى ان ابن سعود بقي قانعاً بتعريف الأخوان الى أبسط مبادىء الثقافة الدينية والدنيوية. والحق أنه لم يعرفهم الى شيء من هذا، الا بمقدار الذي بدأ ضرورياً للحفاظ على حماستهم وغيرتهم. بكلمة أخرى لم ير إبن سعود في حركة الاخوان الا وسيلة لبلوغه القوة وإستتباب الحكم(١٦٩).

---

(١٦٧) صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث، ص١٣٠ .

(١٦٨) المرجع نفسه، ص١٥٦ .

(١٦٩) الشيعة في المملكة العربية السعودية، ج٢ ص١٣٢ .

وهذه السياسة السعودية تجاه الوهابية مازالت سارية المفعول. حيث يتم استغلال دعاتها وعلماءها لخدمة السياسة الخارجية السعودية، وخصوصاً لإثارة الفتن المذهبية والطائفية. وتحريف وتمييع أهداف الصحوة الإسلامية، وإشغال المفكرين الإسلاميين بالقضايا والمسائل الجزئية والهامشية في حياة الأمة. بينما يواصل الغرب والشرق إلتهامه الحضاري العام والإقتصادي بالخصوص لإمكانيات الأمة وثرواتها.

□ الفتن والخصومات المستمرة :

إن سياسة إشغال العقل الإسلامي في مناقشة القضايا الفقهية الجزئية، وبعض القضايا الأصولية المختلف فيها. والتي كتب حولها الكثير قديماً، وفصل في الكثير منها، على أساس الإطارات المذهبية المتنوعة. لا يمكنها أن تأتي بطائل اليوم. سوى عرقلة مسيرة الصحوة الإسلامية، وتشويه صورتها أمام العالم، ولو بقي الأمر مقتصراً على الوضع في «نجد» وما حولها لهان الأمر، لكن ركوب الدعوة السلفية وسائط الإعلام المختلفة وإنتشار دعاتها في بقاع العالم، كسياسة دينية سعودية قد جعل سلبيات هذه الظاهرة تنتشر كما تنتشر النار في الهشيم. والنتيجة كانت عدة آثار مست جسد الأمة الديني والإجتماعي. يقول الدكتور البوطي متحدثاً عن بعض هذه الأثار السلبية لإنتشار السلفية في العالم.

«الأذى المتنوع البليغ الذي إنحط في كيان المسلمين من جراء ظهور هذه الفتنة المبتدعة، فلقد أخذت تقارع وحدة المسلمين، وتسعى جاهدة الى تبديد تآلفهم وتحويل تعاونهم الى تناحر وتناكر. وقد عرف الناس جميعاً أنه ما من بلدة أو قرية في أي من أطراف العالم الإسلامي. إلا وقد وصل إليها من هذا البلاء شضايا. وأصابها من جرائه ما اصابها من خصام وفرقة وشتات. بل مارأيت أو سمعت شيئاً من أبناء هذه الصحوة الإسلامية التي تجتاح اليوم

كثيراً من أنحاء أوربا وأمريكا وآسيا، مما يثلج الصدر ويبعث على البشر والتفاؤل، إلا ورأيت أو سمعت بالمقابل من أخبار هذه الفتنة الشنعاء التي سيقت الى تلك الأوساط سوقاً، ما يملأ الصدر كرباً ويزج المسلم في ظلام من الخيبة الخانقة والتشاؤم الأليم..

ويضيف الدكتور متحدثاً عن معاناة بعض الدعاة الإسلاميين المعاصرين من جراء هذه الفتنة السلفية قائلاً: كنت عندما أسأل كلا منهم عن سير الدعوة الإسلامية في تلك الجهات، أسمع جواباً واحداً يطلقه كل من هؤلاء الأخوة على إنفراد، بمرارة وأسى، خلاصته: المشكلة الوحيدة عندنا هي الخلافات والخصومات الطاحنة التي تثيرها بيننا جماعة السلفية.

ويضيف قائلاً: «ولقد إشتدت هذه الخصومات منذ بضع سنوات، في مسجد واشنطن الى درجة ألجأت السلطات الأمريكية الى التدخل، ثم اغلاق المسجد لبضعة شهور. ولقد اشتدت هذه الخصومات ذاتها واهتاجت، في أحد مساجد باريس، منذ ثلاث أعوام، حتى اضطرت الشرطة الفرنسية الى إقتحام المسجد، والمضحك المبكي بآن واحد. أن أحد اطراف تلك الخصومة أخذته الغيرة الحمقاء لدين الله ولحرمة المساجد، لما رأى أحد الشرطة داخلاً المسجد بحذائه، فصاح فيه أن يخرج أو يخلع حذاءه. ولكن الشرطي صفعه قائلاً: وهل ألجأنا الى إقتحام المسجد على هذه الحال غيركم أيها السخفاء؟!.

وفي إحدى الأصقاع النائية ـ يقول البوطي ـ حيث تُدافع أمة من المسلمين الصادقين في إسلامهم عن وجودها الإسلامي، وعن أوطانها وأراضيها المغتصبة، تصوب إليهم من الجماعات السلفية سهام الإتهام بالشرك والإبتداع، لأنهم قبوريون توسليون ثم تتبعها الفتاوي، المؤكدة بحرمة إغاثتهم بأي دعم معنوي أو عون مادي! ويقف أحد علماء تلك الأمة المنكوبة المجاهدة، ينادي في أصحاب تلك الفتاوى والإتهامات: ياعجباً لأخوة يرموننا بالشرك، مع أننا نقف بين يدي الله كل يوم خمس مرات، نقول: ﴿إياك نعبد

وإياك نستعين﴾ (الفاتحة: آية ٥). ولكن النداء يضيع ويتبدد في الجهات، دون أي متدبر أو مجيب![170].

وكيف يجد هؤلاء العلماء آذاناً صاغية لدى دعاة السلفية، اليوم، وقد قتلوا بحد السيف في الربع الأول من هذا القرن الألوف من المسلمين رجالاً ونساءاً واطفالاً. دون أن يعرف هؤلاء الضحايا ما هي جريمتهم بالضبط. سوى إدعاء السلفيين عليهم بأنهم كفار ومشركون، ولو كان فيهم علماء المذاهب الإسلامية الأخرى، ويتعبدون انطلاقاً من فتاوى مذاهبهم.

لكن البداوة إذا تسربلت بالجهل، وتعممت بالقسوة والغلظة، فلا مجال لمناهضتها أو مناقشة أصحابها بالحكمة والموعظة الحسنة، ومقارعتهم الحجة بالحجة. لأن الجهل حاجز سميك يمنع أنوار العقل والفهم من إختراقه. وعليه تكون الفتنة العمياء والظلمات الدامسة. وإذا أضفنا الى ذلك سياسة شريرة وعقول ماكرة تدعم هذا الجهل بالمال والثروة للإبقاء عليه ولإستمراريته، فان الآثار السلبية لهذا الوضع ستكون مدمرة وغاية في الخطورة.

□ ماتدعو اليه الحركة السلفية :

في النصف الأول من هذا القرن عندما كانت الحركة الوهابية تبني دولتها في شبه الجزيرة العربية. كان الغرب والإنجليز بالخصوص، ساسة ومفكرين يتابعون يوميات هذه الحركة ويدرسون أفكار رجالها وعقائدهم. لكي يعرفوا مدى خطورتها، سياسياً على توسعهم الإستعماري. لذلك جاءت العلاقات السياسية المتميزة ين بريطانيا العظمى زعيمة الإستعمار آنذاك وبين الحركة الوهابية الناهضة، بمثابة ضوء أخضر لإنتشار هذه الحركة وإستمراريتها على

---

(١٧٠) السلفية ، م س ، ص٢٤٤ ــ ٢٤٥ . كان المؤلف ممن استضافتهم رابطة العالم الإسلامي سنة١٤٠٦هـ للمشاركة في الموسم الثقافي وهناك إلتقى بالعديد من المفكرين والدعاة الذين نقلوا له معاناتهم مع الحركة السلفية.

المستويين السياسي والفكري.

وهذا الضوء الأخضر كانت قراراً استراتيجياً إنبنى على تقارير ودراسات مهمة حول الحركة الوهابية.

فمن بين الدراسات المهمة حول الحركة الوهابية، هناك دراسة قام بها الميجور ديكسون المعتمد السياسي البريطاني في البحرين، والذي زار المنطقة والتقى بالزعماء السياسيين للحركة، كما اطلع على وضع الحركة الديني والدعوي، مما هيأ له الفرصة لمعرفة حقيقة ما تدعو اليه الحركة الوهابية. وقد لخص أفكارها كالتالي:

١ ــ تدخين التبغ خطيئة مميتة، وإذا رأى الأخ شخصاً يدخن فإنه يعتدي عليه بالضرب وربما قتله.

٢ ــ يجب ان يكون المنزل من طابق واحد.

٣ ــ يجب ان يحافظ على بساطة العيش واللباس.

٤ ــ يجب ارتداء عمامة بيضاء بدل العقال كعلامة على أنك من الإخوان.

٥ ــ لا يرد السلام والتحية الا لأخ آخر.

٦ ــ إذا إلتقى كافر أو مشرك ـ حسب تصنيفهم ـ بجماعة من الإخوان في الشارع فإن الآخرين يغطون وجوههم بأيديهم، بدل أن يفسدهم ويلوثهم المشهد[171].

إن هذه الأفكار وغيرها من المبادىء التي شمر السلفيون ساعد الجد وأبلوا بلاءاً حسنا في تبليغها ونشرها بين مواطنيهم أولاً، وخارج الجزيرة بعد ذلك. هي التي جعلت الغرب الإستعماري كما قلنا سابقاً ممثلاً في بريطانيا، ليس فقط يغض البصر عن هذه الحركة بل يدعمها سياسياً ويحرص عليها.

---

(١٧١) حمزة الحسن ، م س ، ج٢ ص١٣٧ .

□ التكنولوجيا والبدع :

وهي مع ذلك الحركة الأولى التي وجهت بنادقها الى الجسد الإسلامي بحجة معالجته من المرض. فكان أن اجهزت على ما تبقى من روح التماسك والوحدة فيه. كل ذلك يجد تبريره في الجهل وسذاجة البداوة، التي كانت تحرك هذه الحركة منذ البداية. ولولا أن اليد السياسية كانت قوية وقادرة على حسم الكثير من الأمور لصالحها. لكانت مملكة آل سعود اليوم عبارة عن متحف أثري يقصده الباحثون لدراسة أنماط الحياة الإجتماعية والإقتصادية والدينية التي سادت القرون الوسطى.

فالإخوان كانوا قد رفضوا استخدام التكنولجيا، وامتنعوا عن التعامل مع كثير من الأجهزة والأدوات الحديثة. بحجة أنها بدع لم تكن على عهد السلف الصالح، باستثناء البنادق والبارود التي أنسوا بها واستخدموها. ولا ندري لماذا هذا الإستثناء؟ أما التلفون والسيارة والبرق والإذاعة فإنها من بدع الكفار، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

لكن انفجار النفط في بلادهم وأهميته الإستراتيجية للغرب جعلت ركب المدنية ينزل بفنائهم بقوة، محاولاً اختراق سكون الصحراء الأبدي. وبذلك خضع البدو لعمليات تغيير قسري، لم تتجاوز الإطار الشكلي في الغالب الأعم.

أما تغيير العقلية البدائية وصقلها بالعلم والمعرفة، فإن الأسرة الحاكمة رأت ان ذلك قد يشكل عليها خطراً ما في المستقبل. لذلك ثم التركيز على محو الأمية فقط بادىء الأمر، وأتبعه بعد ذلك خطوات بطيئة جداً في نشر المعارف الإنسانية العامة، والى كتابة هذه السطور هناك مواد علمية مهمة ممنوع تدريسها في المملكة.

وهكذا وباسم الإسلام السلفي الوهابي ثم إغتيال المعرفة الإنسانية الشاملة وإحتكر الكتاب السلفي الساحة الثقافية. وأعتبر أي ترويج لكتاب أو فكرة

مخالفة للوهابية، بمثابة جريمة يعاقب عليها القانون والمجتمع. وبذلك تعمقت البداوة وازدادت قيمها السلبية رسوخاً في مجتمع يعاني سلفاً من التخلف الحضاري، وتأخره عن ركب المدنية المعاصرة.

□ الوهابية لأبناء الشعب فقط :

وللحقيقة فقط نقول إن الوهابية للشعب. لأبناء البدو، أما أبناء الأمراء والملوك والطبقة العليا الحاكمة، فإنهم يدرسون في كبرى الجامعات العالمية، العلوم السياسية والإدارية والإقتصادية ويغرفون من معين الحضارة الغربية. والقليل منهم من يعرف ماذا يعني صحيح الترمذي أو مسند أبي هريرة. لكنهم يحسنون طبعاً لهجة البدو ويلبسون العقال والكوفية ويمكنهم أن يبدأوا «الإخوان» بالسلام وينطقون البسملة في بدايات خطاباتهم. وهذا يكفي أتباع السلف للإعتراف بهم كأمراء للمؤمنين وخدام للحرمين الشريفين وهلم جراً.

إن مأساة العالم الإسلامي اليوم لا تتمثل في الهيمنة الإستعمارية الغربية عليه، وخلق العقبات والعراقيل أمام تقدمه فقط. ولكن في انتشار موجة البداوة التي انطلقت من بلاد نجد وصحراء الجزيرة العربية. فبدل من استيراد التكنلوجيا والتعرف على أسس المعرفة البشرية للنهوض والسير قدماً في ركاب التقدم والمدنية. تُصدر للعالم الإسلامي البداوة الصحراوية، حيث الأحقاد والتعصب وقصر النظر والسذاجة المعرفية والبساطة الفكرية.

□ الانتكاسة الكبرى :

لقد بدأت الصحوة الإسلامية طريقها واعدة ومبشرة بمستقبل زاهر للإسلام والمسلمين. لكنها الآن كحمار الطاحونة تدور في مكانها لا تراوحه. لم نعد نطرح على أنفسنا السؤال المهم كيف ننهض؟ وكيف نتحرر من قبضة الإستعمار الإقتصادية والسياسية والفكرية؟ بل اصبحت مشاكلنا، وإنبرى

كتابنا للتأليف في مواضيع حلق اللحية، وطول الثوب ولونه والحذاء وشكله حتى يتناسب مع ما كان عليه السلف الصالح!؟.

والعصا والمسواك، وركوب الدواب؟! ليت الخرق إتسع لهذا الحد؟ بل انتشرت الفتن الطائفية والمذهبية بين فئات المجتمع الإسلامي الواحد، حيث وقف الكفار والمشركون والمبتدعون والصوفية والرافضة وأصحاب المذاهب في صف، وجماعة السلف في الصف المقابل. وانطلقت الحروب ومعارك الجهاد والجهاد المضاد، ففي ككل تجمع إسلامي تنشب معارك طاحنة بين هاتين الفئتين. ولا مجال لإيقاف هذه الحروب في الأمد القريب على الأقل. مادام النفط يُضخ من الخليج والمؤسسة الدينية السلفية تأخذ نصيبها من ريعه لتنفقه في دعم هذه الحروب وتأجيج نارها.

لقد صدق ذلك المفكر الذي قال، نحن العرب لم نستفد من هذا البترول إلا القليل القليل، فالقسم الأكبر منه يذهب الى الغرب ليزداد قوة وتسلطا علينا. والبقية الباقية تستخدم لدعم الشر ونشر الفساد في عالمنا العربي، فالأمراء أغنياء البترول ينشرون الرذيلة ويدعمون الإستبداد والطغيان أينما حلوا. أما علماء الدين الذين يحصلون على نصيبهم من هذا النفط فإنهم ينشرون الأحقاد والبغضاء ويعمقون شرخ الطائفية والمذهبية.

أما الإسلام والفكر الإسلامي فإنه يعيش الإنتكاسة الكبرى والضمور الواضح من يوم بدأ الإنتاج السلفي الوهابي يتسرب الى أسواق الكتاب والمجلة والأذاعة. وما على القارىء إلا أن يقصد أقرب مكتبة منه، ليتصفح العناوين المعروضة. فلا محالة سيجد الغلبة لكتب: أهوال يوم القيامة، القيامة رأي العين، عذاب يوم القيامة. عذاب القبر، منكر ونكير. السحرة والجن، حوار مع جني مسلم، التداوي بالأعشاب، الحبة السوداء. فضائل السواك. حكم تقصير الثوب. حكم قص الشوارب.. والقائمة طويلة وطويلة جداً...

أما الكتب التي تعالج واقع المسلمين الإقتصادي والسياسي أو الإجتماعي،

وتحلل وتدرس الظواهر السلبية للتخلف العام الذي نعيشه. فإنها قد إختفت من واجهات المكتبات. ويظهر أن المطابع لم تعد تطبع شيئاً منها لأن الطلب عليها قد قل ولا أحد من الموزعين مستعد لتحمل أعباء الخسارة المالية إذا غامر باصدار مثل هكذا كتب ودراسات.

وهكذا وفي خلال فترة قصيرة وتحديداً بعد زمن الطفرة النفطية، تم تصدير نموذج التخلف الفكري والواقع المعرفي داخل المملكة السلفية إلى باقي الحواضر الإسلامية. ولولا الإختلافات السياسية والأيديلوجية بين الأنظمة العربية الحاكمة لكانت الطامة الكبرى، لأن هذا الإختلاف فسح المجال للتنوع والحرية الفكرية. بخلاف الواقع السلفي المعاش داخل الجزيرة. ومع ذلك فإن إغراق السوق الإسلامية بالكتاب السلفي كان متيسراً جداً خصوصاً بعدما إنتبهت الحكومات العربية إلى أن الفكر السلفي وقضاياه الخاصة التي ينشرها ويلوكها، يمكن ان تشكل عائقاً أمام الصحوة الإسلامية التي بات إنتصارها يزعج تلك الحكومات.

□ ثوب قصير ونعل ولحية :

أما أفضل مثال لإنتشار الفكر السلفي خارج حدوده، وسيطرته على توجيه الصحوة هناك. فيمكن أن يقال بأن الساحة الجزائرية كانت المجال الأرحب الذي انتشر فيه الفكر السلفي. وذلك لعدة أسباب منها، ان الجزائر كانت خاضعة للهيمنة الثقافية الفرنسية لعقود من الزمن، ولما حققت إستقلالها اتجهت حكومة الإستقلال نحو التعريب، وقد تبع هذا التعريب موجة من الصحوة الدينية. فكانت السعودية ومعها المؤسسة الدينية سباقة لإكتساح الساحة وإفراغ أطنان من الكتب السلفية، ووزعت فتاوى إبن تيمية مجاناً، كما إلتحق عدد كبير من الطلبة الجزائريين بالجامعات السعودية. فانتشر الفكر الوهابي السلفي على نطاق واسع واصطبغت الصحوة هناك بالصبغة السلفية

البدوية.

حيث ترك الشباب الجزائري المسلم لحاهم تطول وتكبر دون أي ترتيب أو تنسيق، ولبسوا الثياب والدشاديش البيضاء ورفعوها فوق الكعب. حتى كادت تصل الركب ولبسوا النعال بدل الأحذية، واتخذ بعضهم لنفسه عصا يتكيء عليها. كل ذلك إحياءً للسنة وإتباعاً لطريق السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

وهكذا إنتشرت في الجزائر بعض المشاهد المضحكة المبكية، وبعض المظاهر القبيحة كذلك، والتي ركزت الصحافة الفرنسية - بالخصوص - على تصويرها ووضعها على أغلفت الصحف، صور تثير الإشمئزاز والخوف لدى المسلمين قبل غيرهم.

إنك تجد الشاب في مقتبل العمر، يترك لحيته تكبر وتطول دون ان يحلقها أو يرتبها لأن ذلك حرام قد يسقط فاعله في الكفر، فترى مجموعة شعيرات في ذقنه قد طالت بشكل يثير الضحك، بينما انتشرت شعيرات صغيرة ومتفرقة على باقي أطراف وجهه. وإذا اضفنا إلى ذلك شكل اللباس الذي يوحي بالفقر والدروشة، تكتمل الصورة. صورة الشكل السلفي للإنسان المسلم. وما يزيد في الطين بلة أن أي إنحراف عن هذه الصورة بترتيب اللحية أو إقتناء ثياب أنيقة ومحترمة مسايرة للوضع الإجتماعي العام، يعني خروج على سنة السلف الصالح، وهذا يعني السقوط في الإبتداع ومن ثم تنفتح طريق الكفر أمامه.

هذا هو الإسلام السلفي الذي انتشر في الجزائر وكان يوجه الصحوة الإسلامية هناك ثوب قصير أبيض، ونعال، ولحية أكثر ضلالا من الأعشاب البرية المتوحشة. أما شعار الدولة الإسلامية، والدعوة إلى قيام حكومة إسلامية الذي رفعته جبهة الإنقاذ، كبرى الحركات الإسلامية هناك. فكان مغامرة غير محسوبة النتائج.

فرغم الضجيج الإعلامي حول إنتصار هذه الجبهة في الإنتخابات، وما قيل عنها وحولها فإن الوقوف أمام وصولها إلى سدة الحكم لم يكن بسبب المؤامرات الغربية الفرنسية والإقليمية فقط. ولكن بسبب مواقف هذه الحركة وأعمال وأقوال أصحابها. لقد كنت أتابع أحداث الجزائر وأراقب الوضع عن كثب. ولما تأكدت من أن الفكر السلفي هو المحرك والخلفية الدينية لهذه الحركة، شعرت بخيبة أمل، تنبأت يومها بمصير هذه الحركة وهي في أوج انتصارها. وقد كتب على واجهة المبنى الإداري لبلدية الجزائر. «بلدية الجزائر الإسلامية» وأخبرت بعض رجالات هذه الجبهة بأنكم لن تصلوا إلى الحكم.

لكني لم افصح عن رأيي بصراحة، لم أعلن أمامهم عن السذاجة السياسية التي كانت تدار بها معركة الإنتخابات. ولا قلت له إن الفكر السلفي الذي تعتمدونه هو أول عائق لديكم للوصول إلى الحكم، ومتابعة مسيرة الإنماء والتقدم في الجزائر. وإذا لم أستطع ان أعبر عن رأيي صراحة هناك. فان ذلك بسبب الخوف، لأن إلقائي مثل هكذا رأي في الأوساط السلفية الجبهوية كان يعني إصدار فتوى مـن أحد المراهقـين الفقهـاء ـ وما أكثر الفقهاء والمجتهدين في أوساط الشباب السلفي ـ بكفري وزندقتي، وإن لم أقتل فلا محالة سأتعرض للإهانة.

إن طبع الجزائري فيه حدة، وجاء الفكر السلفي لينمي هذه الحدة ويزيد عليها الجفاء، والغلضة الصحراوية. كل الظواهر السلفية السلبية الموجودة داخل المجتمع السلفي السعودي انتقلت إلى هناك. فلم يعد هناك مجال للنقاش بالحكمة والموعظة أو بالتي هي أحسن، بل أصبح شعار النقاش «بالتي هي أخشن». أي فكرة أو أي رأي يخالف ما يقول به إبن تيمية أو إبن قيم الجوزية أو أتباعه من وهابية نجد. يعني الإنحراف والشرك والكفر ثم لا يبقى سوى إعلان الجهاد.

لذلك كان الخوف والإرهاب هو سيد النقاشات مع أتباع السلف.

والغريب في الأمر أن السلفيين في بقاع العالم إذا ما حاورتهم لا يسمعون منك، إنهم يقفون كالأصنام أمامك، وعندما تنهي كلامك وتعرض فكرتك، ينطلق الرد، دون إعتبار لما قلته أو عرضته ولو كان الحق فيه أوضح من الشمس في رابعة النهار.

أما إذا عرجت على المساجد لسماع الخطب المنبرية هناك. فإنك ستصاب بالحسرة والألم. لقد أكد الفقهاء قديماً على أن المتصدي للدعوة يجب أن يكون عالماً عارفاً بأحوال الدعوة ومتطلباتها. لكن الفكر السلفي يجعل من العوام علماء دون مشقة تذكر! افتح صحيح البخاري أو مسلم ثم إقرأ الحديث، وبعد ذلك فأنت فقيه. لك أن تفتي في الدماء والأموال والأعراض؟!.

كان بعض الخطباء يرفعون أصواتهم عالية «يافرنسا جيش محمد آت»، وآخر يعلن في الملأ سننتقم من فرنسا عندما نصل إلى الحكم. ويصرخ آخر سنقضي على العلمانيين والمتفرنسين في هذا البلد. ويقول آخر سنعلن الجهاد على المنطقة الفلانية في الجزائر لفتحها من جديد؟! وهكذا. دعوات للحرب والجهاد والصراع مع الداخل والخارج، جبهات متعددة مفتوحة قبل ان يستلم هؤلاء الحكم، فكيف سيكون الوضع لو وصلوا إلى سدة الحكم فعلاً؟ هذا السؤال كان كثيراً ما يطرحه بعض المتنورين من مثقفي الجزائر! لكن دون إجابة واضحة؟!.

لقد طُرد أحد المرشحين ـ كما نقل لي بعض أبناء الجبهة ـ من منصبه في بلدية فازت بها الجبهة. وكان ذنبه وخطيئته الكبرى أنه لبس لباساً أورپياً (أي بنطلون وجاكيت) وهذه ليست نكته ولكن حقيقة. إلى غير ذلك من المهازل والمضحكات؟!.

□ وجهة نظر بدوية :

إن الفكر السلفي «وجهة نظر بدوية» في تاريخ الإسلام، لا يمكنها أن

تنشيء دولة أو تؤسس مدنية أو حضارة. ولا يعتقدن معتقد أن المملكة السعودية تسيرها عقول سلفية: لأن الأسرة السعودية لا علاقة لها بالفكر السلفي، لا على مستوى الشكل ولا على مستوى المضمون[١٧٢]. وأنا شخصياً لم أر أميراً قد أطلق لحيته أو لبس ثوباً أبيضاً قصيراً، بل غالبيتهم يرفلون في الحرير والثياب الغربية الفاخرة ويحلقون لحاهم، وأما كبار السياسيين فيبقون بعضا منها، بشكل أنيق ومرتب. بخلاف دعاة السلفية وأتباعهم الذين يبدعون ويكفرون من وضع المقص على لحيته لترتيبها[١٧٣].

كما أن النظام السعودي يسير البلاد على المستوى الإقتصادي والإداري والعلاقات الخارجية، بعيداً عن الفكر السلفي أو رجالاته. والسلفيون علماء ومواطنين يعلمون أن أرامكو، شركة أمريكية تستخرج النفط وتعالجه وتوزعه في الأسواق وتسلم الحكومة نصيبها من الأرباح. هذه الأرباح التي يحصل دعاة السلفية على نصيب منها، يجعلهم يعيشون في بحبوحة من العيش، ويمارسون الدعوة إلى نحلتهم على نطاق واسع.

(١٧٢) ينقل ديكسون في كتابه «الكويت وجاراتها»: إن أحداً من الذين عرفوا ابن سعود لا يستطيع أن يتهمه شخصياً بالتعصب الوهابي، أو بالهيجان والأندفاع الديني الأعمى، الذي كان يحقن به أتباعه من الأخوان، فقد كان في المناسبات - وحسب ما يلائم أغراضه - يتظاهر أمام أتباعه بأن له نفس نظرتهم انظر حمزة الحسن. م. س، (ج٢ ص١٣٨) ويقول فاسيليف: «كان لفيصل ثمانية أولاد بعث خمسة منهم للدراسة في المدارس والجامعات الأمريكية واحداً الى أوكسفورد وآخر الى كلية ساندهيرست العسكرية الملكية البريطانية». أنظر تاريخ العربية السعودية ص٤٠٦ .

(١٧٣) لقد سمعت من بعض السلفيين الجزائريين أنهم يكفرون المفكر الإسلامي مالك إبن نبي لأنه كان يحلق لحيته وكان متزوجاً من فرنسية «مسلمة». أنظر لهذه العقلية الساذجة. كيف يمكنهم أن يستفيدوا من هذا المفكر الكبير الذي استفادت منه الحركة الإسلامية برمتها وكتبت حوله الدراسات المهمة. وهم يكفرونه فقط لأنه كان يحلق لحيته؟! أنهم يأخذون عن أبن تيمية وابن قيم الجوزية اللذان توفيا قبل سبعة قرون. ويديرون ظهورهم لمفكر تحسس وعاني مشاكل الجزائر والوطن الإسلامي بشكل عام، وقدم دراسات جادة وآراء مهمة للخروج من هذا التخلف العام على جميع المستويات؟!.

وإلا فلو أعطيت السلطة لرؤساء هؤلاء البدو. لكانت المملكة السعودية اليوم يضرب بها المثل في التخلف المدني والحضاري العام.

يقول الغزالي وهو الكاتب الإسلامي الذي خبر دعوتهم ودخل معهم في صراع فكري وجدالي مازال مفتوحاً إلى اليوم: قلت لأحد الحنابلة «السلفيين» إنني أتعلم من الغزالي وإبن رشد ومن أبي حنيفة وإبن تيمية فنظر إلي مستنكراً يحسب أني أؤيده وحده! علينا ـ يقول الغزالي ـ أن ندرس الجهد العقلي للبشر قاطبة فذاك يعيننا على احقاق الحق وإبطال الباطل حين نصدر باسم الإسلام بعض الأحكام[١٧٤].

والغزالي هنا يشير إلى ضيق الأفق المعرفي والعلمي الذي يراد للصحوة الإسلامية ان تدخل نفقه. فهناك فتاوى وأفكار لا يعرف أصحابها، لكنها تأتي من نجد أو الرياض أو الكويت لا محالة. تدعوا أبناء الصحوة للإقتصار على دراسة كتب إبن تيمية وإبن قيم الجوزية فقط. للتعرف على الإسلام الصحيح. أما باقي الإنتاج الفكري الإسلامي، فهو ضلال وإنحراف يجب الإبتعاد عنه وإهماله. فمثلاً تسمعهم يروجون «من لم يقرأ كتب إبن قيم الجوزية ليس له حظ من العلم». أو يدعون إلى الإقتصار على تفسير إبن كثير دون غيره. وغير ذلك من الأفكار والمبادىء الهدامة التي تؤدي إلى نكوص المجتمع الإسلامي وتعميق تخلفه وإنحداره الحضاري.

□ تشويه صورة الاسلام :

أما تشويه الإسلام، في نظر أهله أولا وخصوصه ثانياً، فحدث ولا حرج. فاعتناق الإسلام في أوربا أمريكا، يعني أولا وقبل كل شيء لبس دشداشة

(١٧٤) محمد الغزالي بحث بعنوان «المسلمون وحوار الحضارات في العالم المعاصر» مقدم الى الدورة العاشرة لمؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن ص٦ . انظر مجلة الكلمة ، العدد العاشر ، ١٩٩٦م .

بيضاء ونعل واطلاق اللحية، والظهور بمظهر الدروشة والفقر. أما من حيث الأحكام الإسلامية ومبادىء الدين. فإن الخرق قد اتسع على الراقع، وقد ترسخ لدى الغربيين بفضل الفكر والممارسة السلفية بأن الإسلام دين دموي لا إنساني يدعو إلى القتل والارهاب وعدم التسامح. وهو إلى جانب ذلك عدو لدود لنصف المجتمع أي عدو للمرأة.

يقول محمد الغزالي: بلغني ان مسؤولاً في جماعة اسلامية اقتربت من الحكم يوما فقال: لن تخرج النساء من البيوت بعد اليوم! وهذا وعيد أخرق! كان يجب ان يقول سنلزم الرجال والنساء آداب الإسلام، ولن نسمح بالتبرج وإثارة الغرائز.. أما أن يخطب متحمس طائش فيقول: لا تخرج المرأة من البيت إلا إلى الزوج أو القبر، فهذا كلام فارغ يدفع الإسلام ثمنه مصادرة لعقائده وتعاليمه كلها.. ويضيف قائلا:

ان الحضارة الإسلامية ليست هذا اللغو! إنه ضيق العقل وضحالة المعرفة واختلال الفطرة واعوجاج الخطو، لايمكن أن يتم إسلام، أو تزدهر حضارة ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾[١٧٥].

ويقول في موضع آخر: لقد سمعت أحد المنتمين إلى السلف يقول: إن الإنتخابات بدعة! ولا أدري بم يفسر أن الرسول المعصوم نزل على الشورى فيما عالج من شؤون الحرب والسلام؟ هل إرغام الجماهير وسوقها بالقوانين الإستثنائية والإنتخابات المزورة هو الإيمان والتقوى؟![١٧٦].

---

(١٧٥) المرجع نفسه ، ص٧ .

(١٧٦) المرجع نفسه ، ص٦ . في حوار مع فاطمة المرنيسي أجرته معها مجلة «حدث الخميس» الفرنسية ونقلته جريدة الإتحاد الإشتراكي المغربية سئلت: فيم تعارض بلدان الخليج التطلعات الديمقراطية للمغرب العربي؟ فأجابت:إنها تفرز ثقافة تمجد البلادة والخضوع اللامشروط للفرد العربي، الى الزعيم والخليفة، وهذا ليس الإسلام، بل فقط تأويله المبلد للذهن، والحالة هذه أن هذا التأويل المبلد يغرق بلدنا عن طريق وسائط الإتصال» . أنظر نص الحوار ، جريدة الاتحاد الاشتراكي ، بتاريخ. ١ - ماي - ١٩٩٢م، ص١٠ .

ولو أردنا ان نتابع كل آرائهم وأفكارهم التي شوهت الإسلام وانحرفت بالصحوة الإسلامية لطال بنا الكلام. يقول الدكتور محمد الخطيب: «فهم يطبقون الأحكام الإسلامية بطريقة جائرة ظالمة مثيرة للإشمئزاز والإستغراب وتعود على الدين الحنيف بأسوء الأثر. فقطع الأيدي والأرجل بل قطع الرؤوس من الأمور السائدة والمتمادية وهي تجري بناء على أحكام قضاة جهلة وبعد تحقيقات يقوم بها شرطة أميون. كما تصدر تشريعات أحياناً مجانبة للإسلام نصا وروحاً.

ويضيف قائلاً: ففي كل يوم جمعة تجري في مدن المملكة المختلفة عمليات تنفيذ العقوبات لمن لا سند له من الأمراء أو من السفارات الهامة، بطريقة تدل على وحشية بالغة تسمح لإعداء الإسلام بوصفه بأشنع النعوت[177]. أما الشيخ محمد مرعي الأنطاكي فيقول: «كنا نسمع عن الوهابية بأنهم يقيمون الحدود ويجرون الأحكام الشرعية تماما، فهاجرنا إلى الحجاز، وتخللنا بينهم مدة فوجدنا الأخبار التي وصلتنا من القطر الحجازي كانت خلاف الواقع. فانهم أضر على الإسلام من كل شيء وقد شوهوا سمعة الإسلام بأعمالهم وأفعالهم وبسوء فتاوى علمائهم»[178].

إن مسيرة إنتشار الفكر السلفي الوهابي في العالم الإسلامي هي مسيرة تعميم البداوة، وخصوصاً الجانب السلبي في سلوكيات أهلها، فالحقد والتعصب البغيض، وعدم قبول الحق أو الركون إلى أحكام العقل والمنطق، هي من أخلاقيات البداوة حيث يسود الجهل والأمية. والبعد عن المدينة والحضارة. أما الجفاء والغلظة في التعامل والسلوك، فإن ذلك من تأثير الصحراء القاحلة.

إن الفكر السلفي الذي أنتجته البداوة وتروجه أموال النفط اليوم يعتبر بمثابة

---

(١٧٧) صفحات من تاريخ الجزيرة العربية ، م س ، ص١٥٤ .
(١٧٨) المستبصرون ، غلام أصغر البجبوري ، ص ٣٧٤ ــ ٣٧٥ .

الضربة القاضية للفكر المتنور الذي انطلق مع بدايات هذه القرن، وكان فعلاً المؤسس الحقيقي لهذه الصحوة الإسلامية، التي اصبحت وكأنها لا تراوح مكانها.

ولقد أصاب الدكتور علي شريعتي عندما قال: «إن مجتمعا وضيعاً غير واعٍ، حتى وان كان له دين متطور راق فإنه لن يتمكن من الرقي، بل يحط من مستوى دينه الراقي. ويضعه في قوالبه الملوثة الضيقة ويمسخه... ولهذا يضيف شريعتي، عندما خطب السيد جمال الدين الأفغاني في فرنسا في «كوليج دوفرانس» وتحدث عن الإسلام بالمستوى السامي الذي كان يفهمه هو تعجب «أرنست رينان»، تعجب من معنى الدين بشكل عجيب. ثم جاء واعترف إعترافه المشهور: «الإسلام دين الإنسان، وإني قد فهمت الآن ان قيمة كل دين ترتبط بقيمة شعور وإدراك أتباع ذلك الدين[179]...

إن مفكري الصحوة الذين لم يتغذوا على الفكر السلفي كانوا قد وضعوا الأسس الاستراتيجية للنهوض الإسلامي العام في جميع الميادين، وعلى كل المستويات، وبدأ التطبيق والممارسة بخطاً واعدة. ولولا خروج الفكر السلفي من صحراء الجزيرة العربية ومحاولته ابتلاع الساحة الإسلامية وأبنائها بالمال وأساليب أخرى ماكرة. لكان لهذه الصحوة اليوم شأن آخر. ولكانت قد خطت خطوات مهمة في سبيل اقامت صرح الحضارة الإسلامية. أما ما نشاهده اليوم فإنه يدعو للأسى والخيبة وربما اليأس في بعض الأحيان. لأن لا مجال لإعادة الوحدة الإجتماعية داخل الوطن الإسلامي، وقد انتشرت موجة التكفير.

(179) الإنسان والاسلام ، د. علي شريعتي ، دار الصحف للنشر ، ط1 - 1411هـ ، ص 64 - 166 . ويقول محمد جواد مغنية: «ان الاسلام لو وقف عند فهم الوهابية وتفكيرهم لما تقدم خطوة الى الأمام، ولما كان للمسلمين هذا التاريخ الخطير الشهير الذي أرغم الأجانب والأباعد على الإعتراف بأن رسالة محمد بن عبدالله هي أم الحضارة الحديثة» هذه هي الوهابية ، ص69 .

□ انهيار الوحدة الاجتماعية :

فأهل السنة المتشبثين بتقليد المذاهب الفقهية كفار؟! والصوفية وأهل الطرق التعبدية كفار!؟ والشيعة بكل طوائفهم كفار؟! وباقي الفرق الاسلامية الأخرى كفار كذلك؟! وقد تعمقت الأحقاد وانتشرت البغضاء فكيف يمكن التفكير في وحدة إجتماعية قوية يمكنها أن تدعم المشروع الإسلامي النهضوي المرتقب.

إن شعار الإسلام هو الحل الذي أطلقه المفكرون الأوائل للصحوة الإسلامية. لم يعد يلقى ذلك الأهتمام الذي عرفه في البداية.

فالحل الإسلامي اليوم لا يعني سوى، قطع الأيادي واطلاق اللحى وتقصير الثوب. والرجوع عن كثير من المكتسبات المدنية والحضارية، ليس فقط على مستوى الشكل. بل قد يتعدى ذلك إلى الحقائق العلمية والمسلمات المعرفية، فبعض السلفيين يشكك في صعود الإنسان للقمر، وأن هذه الفكرة ربما كانت من حيل الغرب التي يروجها بين المسلمين. كما أفتى إبن باز الزعيم السلفي في وقت متأخر بكفر من قال بكروية الأرض[١٨٠].

وأخيراً فإن مهازل الدعوة السلفية وسلبياتها لا يكاد يخلو منها مكان أو تجمع إسلامي. فالحرب الطائفية في الهند وباكستان، وأخبار حرق المساجد وقتل الأبرياء تملأ الصحف العالمية والمحلية، كل ذلك في سبيل نشر مذهب السلف الصالح. أما إذا نظرت إلى الواقع العام داخل المملكة السلفية. فستجد البغضاء والحقد الأعمى ينشران ظلالهما، حيث يحاصر السلفيون قطاعات

---

(١٨٠) حمزة الحسن ، م س ، ج٢ص١٣٧. جاء في مجلة روزاليوسف المصرية عدد ٢٢٩٨ ص٥٢: «في سنة ١٩٢٧م قامت في المملكة العربية السعودية ضجة بين علماء الدين على تعليم الرسم واللغات والجغرافيا التي تقول بدوران الأرض وكرويتها». مع أن الأرض مسطحة وساكنة، واللغة ذريعة للوقوف على عقائد الكفار والرسم تصوير وهو محرم أنكره علماء السلفد انظر تجارب مغنية ص٣٠٢ .

واسعة من الشعب المسلم داخل الجزيرة بفتاوي الكفر والضلال والشرك، وترفع نداءات الجهاد والغزو والإستئصال العرقي والعقائدي لمجموعات شعبية عريضة. ذنبها أنها لاتتبنى وجهة نظر الحنابلة السلفيين تجاه عقائد الإسلام وقيمه.

أما واقع المعارضة لهذا الطوفان الفكري البدوي، فلا يبشر بخير، لأن المؤسسات الفكرية والمدارس الدينية لمفكري أهل السنة والجماعة، تعرف تراجعاً واخفاقاً. فلم تعد الحكومات تعيرها ذلك الإهتمام الذي كانت تحضى به أيام دول الخلافة، حيث كانت هذه المدارس تدعم الشرعية السياسية لتلك الدول. لذا فقد استغل القائمون على الدعوة السلفية هذا الواقع، فأجهزوا على المعارضة التي يمكن ان تنبعث من تلك المؤسسات والمدارس.

فهل يجرؤ من يتقاضى منحاً شهرية مغرية، وتسهيلات للحج والعمرة، على كتابة رسالة أو كتاب في الرد على ضلالات هؤلاء وانحرافاتهم، واظهار ان الحق خلاف ما يدعون اليه، مع أن الكثير من علماء الأزهر بالخصوص، لا يؤمنون بتاتاً بصحة ما يعتقده السلفية. ولكن اغلبهم يجد نفسه مضطراً للسكوت إما خوفاً ورهبة وإما طمعا في رضا القوم. وبالجملة، هناك شبه إجماع على وضع الرأس في الرمال والإنحناء للعاصفة كي تمر بسلام.

طبعاً هذا الكلام ليس على إطلاقه تماماً لأن مجموعة من رجالات أهل السنة والصوفية قد أخذوا على أنفسهم الوقوف أمام الطوفان، حيث صدرت عدة كتب ودراسات في الرد على عقائد السلفية وآرائهم الشاذة. لكن الكثير منها يضيع في زحمة مشاكل الطباعة والنشر والتوزيع والمضايقة.

وما دامت سياسة الترهيب والترغيب والإغراء المادي المباشر، ممثلةً في كراسي التدريس داخل الجامعات السلفية. وإغداق المنح السخية على الطلبة، وتشجيعهم على دراسة هذا المذهب والإنتصار له. فإن مستقبل الصحوة الإسلامية لا يمكنه أن يبشر بخير. إن نشر الفكر الوهابي السلفي على نطاق

واسع داخل الوطن الإسلامي، يعني بكل بساطة ومع الأسف الشديد، إجهاض الصحوة الإسلامية، وإنحرافها عن الطريق السليم، حيث النهضة والإنبعاث الحضاري العام الذي ما زال المفكرون المتنورون داخل هذه الأمة يعملون على ترسيخ أسسه، وإزاحة كل العقبات والعراقيل من أمامه وعلى رأسها إنتشار الفكر السلفي البدوي الساذج.



*** *** ***

الباب الثاني



أهل السنة والإمامية في مواجهة السلفية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الأول

مع أهل السنة



«اي صلح بيننا إنما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو دنيا أو قسمة ميراث أو تنازع في ملك، فأما هؤلاء القوم فهم يزعمون أننا كفار، ونحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كافر فأي صلح بيننا..».

[ابو جعفر الشريف الحنبلي]


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التنزيه أم التشبيه

□ الصفات الخبرية ومشكل التأويل :

تعتبر مسألة الصفات الإلهية من بين القضايا التي انفجر الخلاف حولها مبكراً بين المسلمين ويرجع ذلك، أولاً: إلى مجموع الآيات التي تعرضت لذكر صفات الله جل وعلا. بالإضافة إلى الكم الهائل من الأحاديث التي رويت عن الرسول، سواء ماصح منها أو ما تبين اختلاقه وكذبه. وتسرب إلى المسلمين عبر إنتشار عقائد أهل الكتاب، حيث قام متأسلمة اليهود والنصارى بنشر كميات كبيرة من أحاديثهم وتصوراتهم العقائدية المنحرفة.

ولما تجمع هذا التراث وبدأت عملية المعالجة والتمحيص، اختلفت الفئات الإسلامية من فقهاء ومحدثين وعلماء وكلاميين في هذه المعالجة. وظهرت الفرق والمذاهب على إثر ذلك، وسبب هذا الإختلاف يرجع إلى المنطلقات المنهجية لكل فرقة أو مذهب.

فحينما إكتفى الرواة والمحدثون بجمع هذه الروايات والإيمان بها جملة وتفصيلاً، دون أي تفسير يُخرجها عن معانيها اللغوية الإبتدائية، ذهب بعض الفقهاء وعلماء الكلام إلى إقحام المنهج العقلي في معالجتها، ليس فقط على مستوى التحقيق في صحة سندها أو ضعفه. بل البحث في معانيها وما يمكن أن يؤدي إليه الفهم الأولي والظاهري للغتها. على إعتبار ان هناك آيات محكمات يعضضها العقل. يمكننا الرجوع إليها عند أي إلتباس فهمي يعرض لنا ونحن نقرأ الآيات المتشابهة، أو ما ورد في بعض الأحاديث. ويمكن أن يُفهم بشكل يمس عقيدة التوحيد والتنزيه الإسلامية.

وإذا كانت المذاهب والفرق الكلامية أو الأصولية قد افترقت عند هذه المعالجة وما أثمرته من نتائج، مثلت الفواصل والإختلافات الحقيقية. فاننا سنحاول تسليط الضوء بشكل مختصر حول أهم الإختلافات في المنطقات والنتائج بين المدرسة السلفية «الوهابية» ومدرسة أهل السنة والجماعة، لأن البحث يخصهما فقط.

ليس لأتباع السلفية الوهابية اليوم آراء خاصة أو جديدة تختلف عما ذكره إبن تيمية شيخ المدرسة وزعيمها. فكل ما هناك من بحوث ودراسات معاصرة لا تعدو النقل المباشر لتراث الشيخ أو اعادة كتابته وشرحه، لذلك سنحصر النقاش والإستدلال عند أراء الشيخ وكتبه. أما مدرسة أهل السنة والجماعة فلا شك أن الإمام أبو الحسن الأشعري وتلامذته هم من أخد على نفسه تمثيل هذه المدرسة والتحدث بإسمها دون إغفال المدرسة الماتريدية وتلامذتها، كوجه ثان لعملة واحدة هي مدرسة أهل السنة والجماعة في العقائد والأصول.

□ موقف ابن تيمية من الصفات الخبرية :

إنفجر الصراع وظهر الإختلاف بين زعيم السلفية وأهل السنة من الأشاعرة خصوصاً، عندما نشر إبن تيمية «العقيدة الحموية» جواباً على سؤال أهل حماة حول الصفات الخبرية. حيث ذهب إلى أن الآيات المتشابهة مثل ﴿الرحمان على العرش إستوى﴾ وقوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ وغيرها من الآيات، تدل على أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء وعلى كل شيء، و (أنه فوق السماء) كما إستدل بأحاديث النزول وقصة المعراج ونزول الملائكة وصعودهم. بالاضافة إلى مجموعة الأحاديث الصريحة في أن الله في السماء وفوق عرشه.

يقول الشيخ: «إن الرسول المبلغ عن الله ألقى إلى أمته المدعوين: أن الله

سبحانه علي العرش إستوى، وانه فوق السماء، كما فطر الله على ذلك جميع الأمم عربهم وعجمهم في الجاهلية والإسلام، إلا من اجتالتهم الشياطين عن فطرته»[1]. ثم يذكر بأن السلف جميعهم والأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء لم يخالف أحدهم لا نصا ولا ظاهراً في أن الله في السماء وفوق العرش.

وقد كرر إبن تيمية ما اختاره في باب الصفات الخبرية في غير واحد من آثاره، فقال في الواسطية: «وما وصف الرسول به ربه من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها، كذلك مثل قوله: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة، حيث يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فاغفر له».

وقوله(ص): «يضحك الله إلى رجلين أحدهما يقتل الآخر كلاهما يدخل الجنة». وقوله(ص): «لاتزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه».

وقوله «والعرش فوق ذلك، والله فوق ذلك، والله فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه».. وقوله ص: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته».

وقد دخل فيما ذكرنا من الإيمان بالله، الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله، واجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه، علي على خلقه، وهو معهم أينما كانوا»[2] وهذا الفهم عند إبن تيمية لا يؤدي إلى أي تشبيه أو تجسيم. بل هو التوحيد المحض[3].

---

(١) العقيدة الحموية الكبرى، الرسالة الحادية عشرة من مجموع الرسائل الكبرى، لإبن تيمية. نقلاً عن السبحاني، م س، ج٤ ص١١٦ .

(٢) العقيدة الواسطية، الرسالة التاسعة، من مجموع الرسائل الكبرى، ص٣٩٨ ـ ٤٠٠ . عن السبحاني بتصرف.

(٣) كما يعلق الشيخ محمد أبو زهرة.

وإذا أضفنا إلى ذلك تراث حشوية الحنابلة بكل ما تضمنه من ذكرو تفسير للصفات الخبرية سواء ما جاء في القرآن أم ذكرته الأحاديث، فإن المحصلة النهائية لدى الطرفين لا تعدو ان تكون الإيمان والإقرار بأن جميع الصفات الخبرية يجب أن تفهم حرفياً وأن نعتمد ظهورها التصوري الإبتدائي، دون الإلتجاء إلى محاولة التأويل، أو البحث عن معاني مجازية أو كنائية قد تكون مشروعة لغة ومستعملة في الخطاب العربي عامة والقرآني على وجه الخصوص.

□ آراء الفرق الاسلامية في الصفات الخبرية :

والذي يراجع مواقف الفرق الإسلامية بخصوص أخبار الصفات يجدها كما قال إبن الجوزي الحنبلي على ثلاث مراتب:

أحدها: إمرارها على ما جاءت، من غير تفسير ولا تأويل، إلا أن تقع ضرورة، كقوله تعالى: ﴿وجاء ربك﴾ أي جاء أمره، وهذا مذهب «السلف».

والثانية: التأويل وهو مقام خطر. إلا ما كان على نحو المثال المتقدم، وإنما تكمن خطورة التأويل في الافراط فيه إلى حد التعطيل.

أما الثالثة: القول فيه بمقتضى الحس (أي إجراء المعنى بحسب الظاهر)، وقد عم جهلة الناقلين، اذ ليس لهم حظ من علوم المعقولات التي يُعرف بها ما يجوز على الله تعالى، وما يستحيل، فإن علم المعقولات يصرف ظواهر المنقولات عن التشبيه، فإذا عدموها تصرفوا في النقل بمقتضى الحس»[٤].

أما قول إبن الجوزي بالنسبة لمن كان يؤمن باجرائها دون تفسير أو تأويل إلا إضطراراً: «وهذا مذهب السلف» فالمقصود به مجموعة من رجالات السلف وليس كلهم، لوجود من ذهب إلى التأويل، ـ وإن علم عن أكثرهم

(٤) دفع شبه التشبيه ، م س ، ص

التفريض - كإبن عباس وغيره من الصحابة. أما تأويل ﴿جاء ربك﴾ بجاء أمره فقد نقل عن الإمام أحمد بن حنبل. أما من نهج التأويل وخاض غماره بشكل كامل، فهم بلا شك المعتزلة، وتبعهم بعد ذلك أغلب تلامذة الأشعري إلا في القليل من المواضع. ويبقى القسم الأخير وهو موقف حشوية أهل الحديث والحنابلة الذين تشبتوا بمعاني الألفاظ حسب ظواهرها. وهذا ما يعبر عنه بالتكييف، وعليه المجسمة وأصحاب الجهة والتشبيه - خذلهم الله سبحانه - وهو يستلزم ان يكون سبحانه جسما، أو جسمانياً جالساً على كرسي جسماني، ناظراً من عرشه إلى تحته كنظر الملك الجبار إلى عبيده وغلمانه(٥).

□ الـ «بلا كيف» ؟ :

أما إذا بحثنا عن إبن تيمية وأين موقفه في هذه المراتب الثلاث، فإننا فسنجده ينطلق من المرتبة الثالثة، ليقوم بتعديل أو «عقلنة» لمنطلقاتها، وصولاً إلى تأكيد أحقيتها وسلامتها، ومن ثم جعلها مذهباً للسلف الصالح. فالصفات الواردة في الآيات أو الأحاديث لا بد من إجرائها على نفس المفاهيم اللغوية الظاهرية الإبتدائية، والإيمان بمدلولاتها التصورية، لكن «بلا كيف». والفرق بين هذا القول والقول الأول، هو أن القول الأول يثبت المعاني مع الكيفية، وهذا القول يثبتها بنفس المعاني لكن بلا تكييف»(٦).

فالإستواء على العرش والجلوس عليه عند إبن تيمية حقيقة، كل ما هناك أننا نجهل الكيف!. وهذا الكيف لاشك أنه يليق بجلال الله وعظمته. وعلى هذا المنوال يمكن أن نفهم باقي الصفات الخبرية التي اختلف حولها. وعليه فإذا كان بسطاء الحشوية لا يتبرمون من التجسيم أو التشبيه، بل يعتقدونه ويدافعون عنه. فإن إبن تيمية جاء ليعدل هذا الوضع. لأن هذه التهمة التي

(٥) السبحاني ، مرجع سابق ، ج٤ ص١١٩ .
(٦) نفسه ، ص١١٩ .

طالما رددها خصوم الحنابلة والسلفية، كانت تقض مضجعه فاهتدى إلى فكرة «بلا كيف» أو البفلكة. لكن أهل السنة ومعهم أهل التنزيه لم يقتنعوا بهذه العقلنة الجديدة للحشو. لأن القول بعدم التأويل واجراء الصفات الخبرية على معانيها اللغوية الحقيقية لا يمكنه الا أن يؤدي إلى التجسيم والتشبيه. وأن «البلا كيف» لا يمكن أن تحل المشكلة أبداً.

وذلك لعدة أسباب. أولاً: «ان هذه الصفات كاليد والرجل والنزول والجلوس موضوعة لغة على معانيها المتكيفة بكيفيات جسمانية، فاليد هي الجارحة المعروفة من الإنسان والحيوان، وهكذا الرجل والقدم، ومثلها النزول، فإنها موضوعة للحركة من العالي إلى السافل، والحركة من صفات الجسم. فالكيفية مقومة لمعاني هذه الألفاظ، فاليد والرجل بلا كيفية ليستا يداً ورجلا بالمعنى اللغوي المتبادر عرفاً. وعلى ضوء ذلك فليس هنا إلا سلوك أحد طريقين:

١ ــ جريها بنفس معانيها اللغوية التي تتبادر منها المفاهيم المتكيفة، فهو نفس القول بالتجسيم.

٢ ــ جريها بمفاهيمها المجازية، ككون اليد كناية عن القدرة، كما في قوله سبحانه: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ (سورة المائدة، آية٦٤)، فهذا هو قول المؤولة أو المعطلة باصطلاح إبن تيمية[7]. وعليه فلا يمكن فهم هذه الصفات الا باستحضار كيفياتها لأنها مقومة لها، أما إذا ألغينا هذه الكيفيات فلن يبقى من هذه الصفات شيء يدل عليها أو يميزها. فهل يمكن ان نتصور النزول دون حركة وتنقل من مكان لآخر؟!.

ثانياً: لو جاز أن نقول أن لله يداً ورجلاً لكن لا نعرف كيفيتهما، والمهم ان هذه الكيفية كما يليق بجلاله وعظمته. لجاز لنا كما يقول الباحث السبحاني «توصيفه بكل شيء فيه أدنى كمال، ونقول: إنه جسم لا

(٧) نفسه ص١٢١ ــ ١٢٢.

كالأجسام، وله قلب لا كالقلوب، وله لسان ناطق لا كهذه الألسنة(٨).

وعليه فإن نظرية إبن تيمية الجديدة تلازمها الجهة والتجسيم. وهذا ما استنتجه علماء أهل السنة وغيرهم.

□ لاضير من التأويل :

والمدرسة الأشعرية في عرف أصحابها إنما جاءت كوسطية بين الحشوية الذين سقطوا في التشبيه والتجسيم ومعهم إبن تيمية، وبين المعتزلة الذين تطرفوا في التنزيه فسقطوا في التعطيل. وإذا كان الأشاعرة قد ركبوا قطار التأويل فإن حجتهم التي اتكأوا عليها، كانت اللغة العربية، لسان التنزيل نفسه. حيث وجدت الآيات المتشابة أو آيات الصفات. فإذا كان القرآن قد نزل بلغة العرب واستخدم تراكيبهم واعتمد مفاهيمهم اللغوية. فإن العرب قد عرف عنهم استخدامهم الكبير للمجاز والكناية.

فأي صفة وضعت لمعنى جسمي محدد، قد ينقلها المجاز إلى معنى آخر ليس غريباً عن الإستعمال العربي، بل نجد له الشواهد الكثيرة. لذلك لا ضير من التأويل ضمن هذه الحدود اللغوية المتعارف عليها. خصوصاً وأن ذلك سيؤدي إلى تجاوز كل الشبهات والإشكالات في مجال التوحيد. وبذلك نكون قد أرجعنا المتشابه إلى المحكم. فـ﴿ليس كمثله شيء﴾ آية محكمة في كتاب الله، وهي تفيد التنزيه المطلق عن كل تشبيه أو تجسيم.

لكن إبن تيمية وأتباعه يرفضون التأويل ويعتبرونه طريقاً نحو التعطيل. إلا أن أهل السنة إعتبروا ذلك من إبن تيمية أول المؤاخذات العلمية. فاتهموه بالكذب وتزوير حقائق التاريخ، لأنه نفى أن يكون السلف قد سلكوا درب التأويل، أو أولوا شيئاً من الصفات الخبرية، وهذا خلاف الواقع. فهو عندما يقول: «لم أجد لساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات

(٨) المرجع السابق، ص١٢٢ .

الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف»[٩] يبدأ إبن جرير الطبري بقوله وهو يفسر الآية ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ «إختلف أهل التأويل في معنى الكرسي فقال بعضهم هو علم الله تعالى ذكره[١٠]. ثم يذكر تأويل إبن عباس، بعد ذلك يعرض لأحاديث الحشوية التي ترى أن الكرسي هو موضع القدمين من العرش، أو هو العرش ذاته الذي يجلس عليه الله سبحانه وتعالى، وقد مر معنا في البحوث السابقة ذكر أحاديثهم في ذلك.

ويستمر الطبري في عرض مجمل التأويل لآيات الصفات. يقول مثلاً في قوله تعالى ﴿وهو العلي العظيم﴾ قال بعضهم: يعني بذلك: وهو العلي عن النظير والأشباه. وأنكروا أن يكون معنى ذلك هو العلي المكان. وقالوا غير جائز أن يخلو منه مكان، ولا معنى لوصفه بعلو المكان، لأن ذلك وصفه بأنه في مكان دون مكان[١١].

وإذا كان إبن تيمية يصف تفسير الطبري بأنه لا يروي عن المتهمين وأنه يخلو من البدعة. فإنه يرى بأن تفسير إبن عطية من أرجح التفاسير. فماذا يقول إبن عطية في تفسيره: «أثبت إبن عطية ما نقلناه عن الطبري من تفسير إبن عباس للكرسي، وتفسير (العلي)، ثم قال في أخبار الحشوية التي رواها الطبري بعد هذا، وبها تمسك إبن تيمية، قال إبن عطية ما نصه: هذه أقوال جهلة مجسمين، وكان الواجب أن لا تحكى![١٢].

وهذا التناقض هو الذي دفع العلامة الشيخ يوسف الدجوي إلى القول: «ومن عجيب أمر هذا الرجل انه إذا ابتدع شيئاً حكى عليه اجماع الأولين

---

(٩) تفسير سورة النور ، لإبن تيمية ، ص١٧٩ ، عن صائب عبدالحميد ، م س ، ص١٢١ .
(١٠) تفسير الطبري ، أنظر المرجع السابق ، ص١٢٢ .
(١١) تفسير الطبري ، ج٣ ص٩ ، أنظر المرجع السابق ، ص١٢٣ .
(١٢) إبن تيمية ، مرجع سابق ، ص١٢٤ .

والآخرين كذباً وزوراً. وربما تجد تناقضه في الصفحة الواحدة فتجده في منهاجه مثلاً يدعي أنه ما من حادث الا وقبله حادث إلى ما لا نهاية له في جانب الماضي ثم يقول: وعلى ذلك أجمع الصحابة والتابعون وبعد ذلك يحكي اختلافاً لحق الصحابة في أول مخلوق ما هو؟ أهو القلم أم الماء. وبينما تراه يتكلم بلسان أهل الحق المنزهين إذا بك تراه أنقلب جهمياً وسمى كل من لا يقول بذلك معطلاً وزنديقاً وكافراً وقد جمع تلميذه إبن زفيل سفاهاته ووساوسه في علم أصول الدين في قصيدته النونية[١٣].

□ الصفات المختلف فيها عند ابن عربي :

أما موقف أهل السنة ـ الأشاعرة بالخصوص ـ من هذه الصفات فقد أجمله البيهقي في الأسماء والصفات، وسنعود إليه بعدما نعرض لما قاله إبن عربي في «القواصم من العواصم» حول اهم صفة اختلف حولها السلفية «الحشوية» وأهل السنة وباقي المنزهين.

□ الإستــــواء :

يقول: فلما قال ﴿الرحمان على العرش استوى﴾ كان المطلوب هنا ثلاث معان: معنى الرحمان ومعنى الإستواء، ومعنى العرش.

فاما الرحمان فمعلوم لا خلاف فيه ولا كلام. وأما العرش فهو في العربية لمعان. فأيهما تريدون؟ ولفظ استوى معه محتمل لخمسة عشر معنى في اللغة فأيها تريدون، أو أيها تدعون ظاهراً منها؟ ولم قلتم أن العرش ها هنا المراد به مخلوق مخصوص؟ فادعيتموه على العربية والشريعة؟ ولم قلتم ان معنى استوى قعد أو جلس فتحكمون باتصاله به، ثم تقولون إنه أكبر منه من غير ظاهر، ولم يكن عظيماً بقدر جسمي حتى تقولوا أنه أكبر اجزاء منه؟ ثم

---

(١٣) صفات الله عند المسلمين ، م س ، ص٦١ .

تحكمتم بأنه أكبر منه بأربع أصابع تحكم لا معنى له[١٤].

وقال المحدث إبن المعلم في نجم المهتدي: إعلم أرشدنا الله واياك أن العلماء إنقسموا في تأويل ﴿الرحمان على العرش استوى﴾ قسمين: فريق أول التركيب وفريق أول الافراد، وهؤلاء على قسمين: قسم أول استوى وقسم أول العرش. ثم سرد إبن المعلم تلك المعاني الخمسة عشر عازيا كل معنى منها إلى قائله من الأئمة، كالأشعري وأبي منصور وأبي اسحاق الإسفراييني. وعبد القاهر التميمي وابي جعفر السمناني، وامام الحرمين وغيرهم.

وتلك المعاني نحو الملك واستئثار الملك، واستواء الحكم، والإستيلاء المجرد عن معنى المغالبة والإقبال. والقصد والإتقان، وعلو العظمة والعزة، وعلو القهر والغلبة إلى غير ذلك من المعاني المذكورة في الجزء الخامس من نجم المهتدي. ثم قال إبن المعلم: فقد ظهر لكم، أيدكم الله هذه التأويلات، فأيها ترجح عندكم فاحملوا اللفظ عليه، فإن الظاهر منفي باجماع علماء السنة فلله الحمد على إتباعهم.

وقال إمام الحرمين في النظامية: اختلف مسالك العلماء في هذه الظواهر، فرأى بعضهم تأويلها[١٥] وذهب أئمة السلف إلى الإنكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله تعالى، وليس هذا ما يفرح به المشبهة ـ كما يقول الشيخ الكوثري ـ لأنه ينص على التفويض، وهو

(١٤) الأسماء والصفات، تحقيق الكوثري، أنظر الهامش ص٤٠٥، وقال البغدادي في الفرق بين الفرق «وقد قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إن الله تعالى خلق العرش إظهاراً لقدرته، لا مكاناً لذاته. وقال أيضا: قد كان ولا مكان وهو الآن على ما كان». أنظر بحوث مع أهل السنة والسلفية، ص١٠٣.

(١٥) يقول أحمد أمين: إن الأشاعرة يقولون إن المتشابهات يعلم تأويلها الله والراسخون في العلم، أما الآيات التي ورد فيها اليد والوجه... فهي مجازات من معان ظاهرة، فاليد مجاز عن القدرة والوجه عن الوجود، والعين عن البصر. والإستواء عن الإستيلاء، واليدان عن كمال القدرة، والنزول عن البر والعطاء، والضحك عن عفوه تعالى...». أنظر ظهر الاسلام، ج٤ ص٩٤.

مذهب السلف، وأما المشبهة فلا يقولون بالتفويض، بل يحملون على الإستقرار والجلوس والحركة ونحوها مما هو شأن الأجسام تعالى الله عن خيالات الوثنية.

والخلف يخرجونها على معان لا تنافي التنزيه على طبق استعمالات العرب، من غير تحكم على مراد الله تعالى، فالسلف والخلف متفقون على التنزيه والبعد عن التشبيه(١٦).

أما إبن حزم وهو ممن يتكلم باسم السلف فيرى «ان معنى قوله تعالى ﴿على العرش استوى﴾ أنه فعل فعله في العرش وهو انتهاء خلقه اليه، فليس بعد العرش شيء»(١٧).

وهنا تجدر الإشارة إلى أن إبن تيمية وغيره من السلفيين المعاصرين الذين يعتقدون بالإستواء حقيقة، يستشهدون بقول الإمام مالك بن أنس: حيث سُئل عن الإستواء، فرد «الإستواء معلوم والكيف مجهول؟» الا ان اهل السنة يرفضون هذه العبارة وما يمكن ان تشير إليه من معنى. فقد روى اللا لكائي في شرح السنة بالسند ان الإمام قال في جوابه: «الإستواء مذكور، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة» إلى آخره. فمن رواه «الإستواء معلوم والكيف مجهول» ينبغي ان ترد روايته إلى هذا المعنى، يعني الإستواء معلوم الورود في الكتاب، فيرجع إلى قوله في الرواية السابقة «الإستواء مذكور» وقوله: والكيف مجهول. أي لا تعلم له ماهية بالمعنى المتعارف، ولا يعقل له وجود فيما يتعلق بجناب الحق جل وعلا..»(١٨).

أما السلفية فسر اختيارهم لرواية «الإستواء معلوم والكيف مجهول» فلأنهم

---

(١٦) المرجع السابق، ص٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(١٧) نفسه، ص٤٠٩ أنظر الهامش.

(١٨) فرقان القرآن بين صفات الخلق وصفات الأكوان، مقدمة الشيخ سلامة القضاعي الشافعي، ملحق بالأسماء والصفات، ص١٦ ـ ١٧.

يفهمون من «معلوم» أي المعروف والظاهر وهو الجلوس على العرش. أما «والكيف مجهول» فهذا يناسبهم عندما يقولون «بلا كيف» فنحن نجهل كيفية جلوسه سبحانه وتعالى على عرشه، لكن يضيفون، بما يناسب عظمته وجلالته[19].

إن الإختلاف بين السلفية وأهل السنة، أشاعرة وماتريدية، لم يقتصر على صفات العلو والاستواء بل شمل جميع الصفات الخبرية. ففي الوقت الذي أول أهل السنة مُجمل الصفات وتوقفوا في بعضها رافضين أن تكون من بين الصفات كما توهم مخالفوهم. نجد أن الحنابلة ومعهم إبن تيمية زعيم السلفية يثبتونها حقيقة، ولا مجال لإقحام التأويل فيها، فقط أضافوا بلا كيف وبلا تشبيه.

ونعرض الآن بعض هذه الصفات ليرى القارىء مدى الإختلاف بين المدرستين، وسنعتمد كما أسلفنا كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي الأشعري. بقراءة الدكتور السلفي المعاصر أحمد بن عطية الغامدي.

(19) لإبن تيمية كلام صريح كان يقوله في خطبه، لكنه لم يذكره بنصه في كتبه التي وصلتنا فمن ذلك: ما نقله إبن بطوطة وإبن حجر العسقلاني، أنه قال وهو على المنبر: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا. ونزل. انظر رحلة إبن بطوطة ص٩٥ . والدرر الكامنة(١/ ١٥٤). وما نقله أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط) و (النهر) من أنه قرأ في (كتاب العرش) لإبن تيمية ما صورته بخطه: ان لله تعالى يجلس على الكرسي، وقد أخلى مكاناً يقعد معه فيه رسول الله. ولكن هذا الكلام الذي نقله يوسف النبهاني في (شواهد الحق ص١٣٠) عن كتاب (النهر) لأبي حيان، ونقله صاحب كشف الظنون في كتابه (ج٢/ ١٤٣٨) قد حذف من كتاب (النهر) المطبوع، كما حدف غيره من الكلام الذي تناول فيه عقائد إبن تيمية! ولكن إبن تيمية قد دافع عن هذا المعنى باصرار من غير أن يذكر جلوس النبي معه على العرش، وذلك في كتابه(منهاج السنة ١/ ٢٦٠ ــ ٢٦١). أنظر إبن تيمية في صورته الحقيقية. صائب عبدالحميد ص١٨ ــ ١٩ .

□ **صفة الكلام :**

إختلف الأشاعرة والسلفية في صفة الكلام. أما الأشاعرة فينكرون أن يكون الله تعالى تكلم بحرف وصوت. أما السلفية فيرون «ان الله تعالى تكلم بحرف وصوت إلا أن كلامه سبحانه وتعالى لا يشبه كلام خلقه، ولا صوته يشبه أصواتهم كما ذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام إبن تيمية»(٢٠).

□ **الرؤيـــة :**

أما في الرؤية فقد اتفقوا معاً على اثبات رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة. لكن هذا الإتفاق لم يكن تاما من جميع الوجوه. يقول الغامدي: «الواقع ان ثمة مسألة مهمة تتعلق بهذه القضية هي مسألة الجهة لأن السلف حين أثبتوا الرؤية، أثبتوا الجهة أيضاً لأنها لازمة لها أما البيهقي ومعه أصحابه الأشاعرة فقد اثبتوا الرؤية ونفوا لازمها...

أما إبن تيمية فيرى ان: «هذا القول انفرد به هؤلاء الاشاعرة دون بقية طوائف الأمة، وان هذا معروف الفساد ضرورة ولأجل ذلك ذهب بعض حذاقهم إلى موافقة المعتزلة فيما ذهبوا إليه من نفي للرؤية والجهة معاً، وتفسير الرؤية بأنها زيادة إنكشاف وليست رؤية حقيقية(٢١).

والسبب في رفض الإشاعرة مسألة الجهة واضح، لانه يؤدي إلى الاعتقاد بأن الله في جهة مخصوصة ومعينة، وهذا سيؤدي إلى التجسيم لا محالة. أما أهل السلف فهم كما مر معنا يؤمنون بأن الله فوق عرشه، وعرشـه فوق سماوته وانـــه ـ سبحانه وتعالى ـ موجود في جهة العلو. وقد دافع إبن تيمية

---

(٢٠) البيهقي وموقفه من الإلهيات ، م س ، ص٢٠٤ . ولأبي الحسن المقدسي جزء يرد فيه على أحاديث الصوت حيث إستوفى في جزئه الكلام على الأحاديث التي استدل بها القائلون بالحرف والصوت، وأبدى عللها بحيث لا تقوم لها قائمة في الاستدلال بها على ذلك المعتقد الباطل» أنظر هامش الاسماء والصفات ، ص٢٠٢ .

(٢١) البيهقي ووقفه من الالهيات ، ص٣١٤ ــ ٣١٥.

على هذه العقيدة بحماس منقطع النظير.

□ صفة الوجـه :

بخصوص صفة الوجه الواردة في الآيات يرى الأشاعرة ومعهم إبن الجوزي تأويلها. ففي دفع شبه التشبيه، يذهب إبن الجوزي الحنبلي إلى ان المراد بالوجه «الذات» وينسب هذا التأويل للإمام أحمد بن حنبل كذلك. لكن الدكتور الغامدي يرد عليه قائلا: «أما قول السلف فهو كما قال إبن خزيمة: «نحن نقول وعلماؤنا جميعاً في الأقطار أن لمعبودنا عزوجل، وجها كما أعلمنا الله في محكم تنزيله[٢٢].

وقد ذهب علماء أهل السنة في شرح حديث «إن الله خلق آدم على صورته» إلى أن المقصود إنما هو صورة آدم، ليس هو على صورة الرحمان. أما السلفية فيقول عبدالوهاب الحنبلي: «من لم يقل إن الله خلق آدم على صورة الرحمان فهو جهمي»[٢٣] والجهمي عندهم كافر.

ويرى السلف، على رأسهم إبن خزيمة، أن لله سبحانه وتعالى عينان ينظر بهما. أما الجويني والبغدادي والرازي وغيرهم من أساطين الأشاعرة، فيؤولون صفة العين الواردة بالرؤية أو الحفظ والكلاءة. وصرح الشيخ الكوثري من المعاصرين بأن من قال بأن لله عينان ينظر بهما فهو مشبه قائل بالجارحة. بالاضافة إلى استشكالهم على ورود صفة العينين لأن القرآن لم يذكر عينين إثنين كما لدى الإنسان[٢٤].

---

(٢٢) المرجع نفسه ، ص٢٣٦.

(٢٣) طبقات الحنابلة ، م س ، ص١٥٤.

(٢٤) يقول المحقق الكوثري: لم ترد صفة التثنية في الكتاب ولا في السنة، وما يروى عن أبي الحسن الأشعري من ذلك فمدسوس في كتبه بالنظر إلى نقل الكافة عنه، وأما من قال: له عينان ينظر بهما فهو مشبه قائل بالجارحة تعالى الله عن ذلك وإبن خزيمة وإبن حامد شيخ أبي يعلى جد مسكين في هذه المباحث. وقال إبن حزم: لا يجوز لأحد أن يصف ==

□ صفـة اليـد :

وكذا صفة اليد التي أولوها بالقدرة، وهذا بخلاف ـ كما يقول الغامدي السلفي ـ ما أجمع عليه السلف من حمل اليد على الحقيقة في جميع مواردها(٢٥).

أما باقي الصفات والتي جاء أغلبها في أحاديث مختلف في صحتها، مثل: الأصابع(٢٦) الساعد والذراع(٢٧) والرجل والجنب والقدم(٢٨) والحقو.. فإن أهل السنة لم يثبتوها بل مالوا بها إلى التأويل تارة، وعلى الطعن في الأحاديث التي تضمنت هذه الصفات تارة أخرى. على اعتبار أنها من مرويات أهل الكتاب، تلقفها جهال الرواة وجمعها المحدثون دون دراية. أما المذهب الحق ـ

= الله عزوجل بأن له عينين لأن النص لم يأت بذلك . أنظر الأسماء والصفات ، تحقيق الشيخ الكوثري ، ص٣١٣ .

(٢٥) البيهقي وموقفه من الإلهيات، للغامدي ، ص٢٥٥ .

(٢٦) قال إبن حزم يشرح الحديث الوارد : بين أصبعين بمعنى بين تدبيرين ونعمتين من تدبير الله عزوجل ونعمه، إما كفاية تسره وإما بلاء يأجره عليه. والأصبع في اللغة النعمة. وقلب كل أحد بين توفيق الله وجلاله وكلاهما حكمه عزوجل.

(٢٧) يقول بن الجوزي الحنبلي في «منهاج الوصول إلى علم الأصول» حديث عبدالله بن عمر وقوله في خلق الملائكة من نور الذراعين والصدر، وفي لفظ من نور ذراعيه وصدره» لايثبت عنه ولو ثبت أحتمل أن يكون مخبراً به عن أهل الكتاب وقد كان عبدالله بن عمر ينظر في كتب الأوائل . أما حمله على صفات الحق فقبيح، لأنه لا يجوز أن يخلق من صفات القديم محدث لأن هذا هو التبعيض الذي ادعته النصارى في عيسى عليه السلام.

(٢٨) قال إبـن الجوزي : قـال أبو عبيد الهروي، عن الحسن البصري أنه قال القدم هـم الذين قدمهم الله لها من شرار خلقه وأثبتهم لها. وقال أبو منصور الأزهري: القدم الذين تقدم القول بتخليدهم في النار، يقال لما قدم قدم، ولما هدم هدم. ويؤيد هذا قوله: وأما الجنة فينشأ لها خلقاً. ووجه ثان أن كل قادم عليها يسمى قدماً. فالقدم جمع قادم، ومن يرويه بلفظ الرجل فانه يقال رجل من جراد فيكون المراد يدخلها جماعة يشبهون في كثرتهم الجراد». أما أهل السلف فيقول إبن الزاغوني الحنبلي في شرح الحديث«يضع الجبار قدمه في النار»: إنما وضع قدمه في النار ليخبرهم أن أصنامهم تحترق وأنا لا أحترق. قال إبن الجوزي: وهذا تبعيض وهو من أقبح الاعتقادات..» . أنظر البيهقي ، تعليق الكوثري ، ص٣٢٩ ــ ٣٥٠ .

يقول الغامدي ـ الذي عليه السلف الصالح إزاء هذه الصفات هو إثباتها اثباتاً حقيقياً لله تبارك وتعالى[٢٩].

□ ليس هناك إلا التنزيه بالتفويض أو التأويل :

وخلاصة الكلام في هذا الباب هو أن أهل السنة وعلى رأسهم الإمام الجويني والرازي والغزالي وباقي الأشاعرة، لايثبتون الصفات الخبرية وإنما يؤولونها. لأنهم يرون أن إثباتها يقتضي التشبيه والتجسيم. كما أن الأدلة عليها ظنية[٣٠]، لأنها تتمثل في مجرد ظواهر شرعية، وهذه معارضة عندهم بما يعتبرونه أدلة قطعية وهي الأدلة العقلية[٣١].

ويؤكد محققوهم المعاصرون على أن السلف والخلف قد اتفقوا «على تنزيه الله سبحانه عن مشابهة صفات الخلق، وليس هناك الا التنزيه مع التفويض أو التنزيه مع التأويل عند أهل الحق سلفاً وخلفاً، فمن سدس القسمة لترويج بدعته فقد راوغ وجعل القسم قسيماً[٣٢].

أما إبن تيمية ومن تبعه من السلفيين قديماً وحديثاً، فإنهم يصرون على «الإثبات الحقيقي لجميع الصفات إثباتاً لا تأويل فيه ولا تفويض، ولا تشبيه»[٣٣]. يقول الشيخ عبد الجواد ياسين الصباغ: «والعجب ممن يعيب

---

(٢٩) البيهقي للغامدي ، ص٢٥٩ .

(٣٠) كان البيهقي يعتقد بأن الأحاديث التي وردت فيها مجمل هذه الصفات، أحاديث آحاد ظنية السند والمتن لذلك لا مانع م-ن تأويليها خصوصاً وظواهرها تؤدي إلى الوقوع في التشبيه أو التجسيم. إلا أن الدكتور الغامدي يرد عليه بقوة ويعتبر أن رفض أحاديث الأحاد وعدم الاحتجاج بها في مجال العقيدة قضية خطيرة «والقول بها مرفوض تمام الرفض، لأنه قول مبتدع لم يقل به أحد من سلف هذه الأمة، ولم يخطر لأحدهم على بال، ويلزم من هذا القول الخاطىء رد مئات الأحاديث الصحيحة» . أنظر المرجع السابق ، ص٢٦٩ .

(٣١) البيهقي وموقفه من الإلهيات ، ص ٢٢٨ .

(٣٢) الأسماء والصفات ، الهامش ص٣١٤ .

(٣٣) البيهقي للغامدي ، ص٣٣٢ .

التأويل ويدعي أن السلف ما كانوا يؤولون ، وقد بين أبو نصر القشيري رحمه الله الشناعة التي تلزم نفاة التأويل...

ثم قال رحمه الله: وقد نبغت نابغة من الرعاع لولا إستنزالهم للعوام لأجللت هذا الكتاب «التذكرة الشرقية» عن تلطيخه بذكرهم، يقولون:«نحن نأخذ بالظواهر ونحمل الآيات الموهمة تشبيها والأخبار الموهمة حدا وعضوا على الظاهر ولا يجوزأن نطرق التأويل إلى شيء من ذلك. ويتمسكون على زعمهم بقول الله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾، هؤلاء والذي أرواحنا بيده أضر على الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، لأن ضلالات الكفار ظاهرة يتجنبها المسلمون، وهؤلاء أتوا الدين والعوام من طريق يغتر به المستضعفون. فأوحوا إلى أوليائهم بهذه البدع وأحلوا في قلوبهم وصف المعبود سبحانه بالأعضاء و الجوارح والركوب والنزول والإتكاء والإستلقاء والإستواء بالذات والتردد في الجهات...

فمن أصغى إلى ظاهرهم يبادر بوهمه إلى تخيل المحسوسات فاعتقد الفضائح فسال به السيل وهو لايدري...

ويقول الشيخ الصباغ أيضا: «إن الذين يحرمون التأويل هم المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه وقد صدق الشاعر حين قال فيهم:

قل للمشبهة الذين تجاوزوا ... حجج العقول بكل قول منكر
ياويلكم قستم صفات إلهكم ... بصفاتكم هذا قياس الأخسر
أيقاس صانع صنعة بصنيعه ... أيقاس كاتب أسطر بالأسطر
هيهات يشبه صانع لصنيعه ... هيهات تشبه صورة لمصور
هذا المحال ومن يقول بقوله ... فهو الكفور على جهنم مجتري
من قال إن الله يشبه خلقه ... كانت مقالته مقالة مفتري
أو قال إني في التكلم مثله فهو ... الكفور بلا محالة فاحذر[٣٤]

(٣٤) جريدة اللواء الأردنية ، عدد ١١٥٦ السنة الرابعة والعشرون ، ٢٨/حزيران/١٩٩٥م .

وعليه فإذا كان السلفيون يتهمون أهل السنة بالتعطيل، فإن أهل السنة يتهمونهم بالتشبيه والتجسيم. وقد درج كل منهما على تكفير الآخر بناء على ذلك.

▫ الوهابية وأهل السنة.. التكفير المتبادل:

إن الإختلاف بين إبن تيمية والوهابية وبين أهل السنة، لايقتصر على ما ذكرناه، بل تعداه إلى قضايا كثيرةومتفرعة من التوحيد والعدل والإيمان. يقول الشيخ السلفي أبو بطين: «إن أكثر أهل الأمصار اليوم أشعرية، ومذهبهم في صفات الرب سبحانه وتعالى موافق لبعض ما عليه المعتزلة الجهمية، فهم يثبتون بعض الصفات دون البعض، فيثبتون الحياة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام. وينفون ما سوى هذه الصفات بالتأويل الباطل. مع أنهم وإن أثبتوا صفة الكلام موافقة لأهل السنة[٣٥]. فهم في الحقيقة نافون لها، لأن الكلام عندهم هو المعنى فقط. ويقولون حروف القرآن مخلوقة لم يتكلم الله بحرف ولا صوت. فقالت لهم الجهمية هذا هو نفس قولنا. ان كلام الله مخلوق لأن المراد الحروف لا المعنى..

ومذهب السلف قاطبة أن كلام الله غير مخلوق. وان الله تعالى تكلم بالقرآن حروفه ومعانيه، وأن الله سبحانه وتعالى يتكلم بصوت يسمعه من يشاء، والأشعرية لا يثبتون علو الرب فوق سماواته وإستواءه على عرشه، ويسمون من أثبت جهة العلو والإستواء على العرش مجسماً مشبهاً. وهذا خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة ـ أي السلفية ـ فإنهم يثبتون صفة العلو والإستواء، والأشاعرة وافقوا الجهمية في نفي الصفة، لكن الجهمية يقولون

= مقال بعنوان «إثبات جواز التأويل للنصوص الواردة مما يوهم الجسمية والأعضاء بقلم الشيخ عبد الجواد ياسين الصباغ، ص١٥ .

(٣٥) انظر فصل التعاريف، الصراع على لقب «أهل السنة والجماعة».

كان ولا مكان فهو على ما كان قبل أن يخلق المكان[٣٦].

ثم إتهم أبو بطين الأشاعرة بنفي الرؤية، كما وردت في القرآن والأحاديث. وينتقد رأيهم في الإيمان فيقول: والأشعرية يوافقون أهل السنة في رؤية المؤمنين ربهم في الجنة، ثم يقولون أن معنى الرؤية إنما هو زيادة علم يخلقه الله في قلب الناظر ببصره، لا رؤية بالبصر حقيقة عيانا، فهم بذلك نافون للرؤية التي دل عليها القرآن وتواترت بها الأحاديث عن النبي(ص)، ومذهب الأشاعرة أن الإيمان مجرد التصديق ولا يدخلون فيه أعمال الجوارح. قالوا ان سميت الأعمال في الأحاديث إيماناً، فعلى المجاز لا الحقيقة. ومذهب أهل السنة والجماعة ان الإيمان تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، وقد كفر جماعة من العلماء من أخرج العمل عن الإيمان[٣٧].

وبعد أن فند الشيخ أبو بطين آراء الأشاعرة، خطأ من عدهم من أهل السنة وقال: إذا عرفت ذلك عرفت خطأ من جعل الأشعرية من أهل السنة كما ذكره السفاريني في بعض كلامه، ويمكن أنه أدخلهم في أهل السنة مداراة لهم لأنهم اليوم أكثر الناس، والأمر لهم، والله أعلم، مع أنه دخل بعض المتأخرين من الحنابلة في بعض ماهم عليه[٣٨].

□ ابن تيمية يكفر الغزالي وامام الحرمين :

أما العلامة الشيخ سلامة القضاعي شيخ الشافعية بمصر: فيقول في تقرير التوحيد الذي عليه أهل السنة والجماعة: «أن يكون الله منزها عن التركيب وقبول الإنقسام وكل ما هو من خصائص المادة والأجسام، بذلك نطق كتاب

(٣٦) مجموعة من الرسائل والمسائل النجدية، رسائل وفتاوى الشيخ عبدالله بن عبدالرحمان أبي بطين، ص١٧٦ ــ ١٧٧ .

(٣٧) المرجع نفسه، ص١٧٧ .

(٣٨) نفسه، ص١٧٩ . وانظر الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث الدكتور محمد كامل ظاهر، دار السلام، بيروت ط١ - ١٩٩٣م، ص١٨٠ - ١٨١ .

الله لقوم يسمعون، ونادت بهذا آياته من ألقى إليهما السمع وهو شهيد. وعلى ذلك أطبق أهل السنة الذين لم يصابوا بما أصيب به أهل الهوى من مرض التشبيه والتجسيم الذي أصيب به اليهود من قبلهم، ووقع فيه النصارى من بعدهم، والعجب أنك ترى إمام المدافعين عن بيضة أهل التشبيه وشيخ إسلام أهل التجسيم(٣٩)، ممن سبقه من الكرامية وجهلة المحدثين الذين يحفظون وليس لهم فقه فيما يحفظون، أحمد بن عبدالحليم المعروف بـ(إبن تيمية) يرمي إمام الحرمين وحجة الاسلام الغزالي بأنهما أشد كفراً من اليهود والنصارى في كتابه (الموافقة) المطبوع على هامش منهاجه لقولهما بالتنزيه وهما لم ينفردا به، بل هو قول المحققين من علماء الملة الاسلامية من الصحابة فمن بعدهم(٤٠).

وأجاب الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر على سؤال من يعتقد ثبوت جهة الفوقية لله سبحانه وتعالى ويدعي ان ذلك مذهب السلف. قائلاً: «إن مذهب الفرقة الناجية وما عليه أجمع السنيون ان الله تعالى منزه عن مشابهة الحوادث

---

(٣٩) ليس في وصفه بهذا الوصف خلاف للحقيقة والواقع فهو القائل: «ليس في كلام الله، ولا سنة رسوله، ولا في كلام أحد من الصحابة والتابعين، والأكابر من أتباع التابعين من ذم المشبهة، ونفى مذهب التشبيه. وإنما اشتهر هذا من جهة الجهمية... وقال أيضاً فمن المعلوم: أن الكتاب والسنة والاجماع لم تنطق بأن الأجسام كلها محدثة، وأن الله ليس بجسم، ولا قال ذلك إمام من أئمة المسلمين فليس في تركي لهذا القول خروج عن الفطرة، ولا عن الشريعة». حاشية التبصير ، ص٩٤ ــ ٩٦ ، نقلاً عن إبن زكنون الحنبلي في الكواكب الدرية عن إبن تيمية.

أما القاضي أبي بكر الباقلاني فيقول: «ان قال قائل: لم أنكرتم أن يكون القديم سبحانه جسماً قيل له: لما قدمناه من قبل. وهو أن حقيقة الجسم أنه مؤلف مجتمع بدلالة قولهم: «رجل جسيم» و «زيد أجسم من عمر» وعلماً بأنهم يقصرون هذه المبالغة على ضرب من ضروب التأليف في جهة العرض والطول، ولا يوقعونها بزيادة شيء من صفات الجسم سوى التأليف. فلما لم يجز أن يكون القديم تعالى مجتمعاً مؤتلفاً. وكان شيئاً واحداً ثبت أنه ليس بجسم». التمهيد ، المكتبة الشرقية ، بيروت ، ١٩٥٧م ص١٩١ .

(٤٠) صفات الله عند المسلمين ، م س ، ص٦٢ . عن فرقان القرآن.

مخالف لها في جميع سمات الحدوث. ومن ذلك تنزهه عن الجهة والمكان كما دلت على ذلك البراهين القطعية.. إلى أن يقول: هذا وقد خذل الله أقواماً أغواهم الشيطان وأزلهم واتبعوا أهواءهم وتمسكوا بما لا يجدي فاعتقدوا ثبوت الجهة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً واتفقوا على انها جهة فوق..

وممن نُسب اليه القول بالجهة من المتأخرين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي من علماء القرن الثامن في ضمن أمور نُسبت إليه خالف الإجماع فيها عملا برأيه وشنع عليه معاصروه بل البعض منهم كفروه ولقي من الذل والهوان ما لقي[٤١].

وأخيراً نرجع لنقول إن الخلاف بين أهل السنة والسلفية الوهابية متشعب وعميق في مجال العقائد. بدأ في المنهج والمنطلقات وإنتهى وتعمق مع النتائج. والسبب يرجع ليس فقط لمشكل المتشابة في الآيات، لأن هناك محكمات جلية واضحة يمكن الإحتكام إليها. ولكن للكم الهائل. من الأحاديث التي تأكد للمحققين أنها من مدسوسات أهل الكتاب وأقوال الكذبة من الأعراب وغيرهم.

لذلك وقع الخلاف فذهبت كثير من الفرق ومنهم الأشاعرة إلى تأويل ما جاء في تلك الأحاديث من صفات قد تشوش مفهوم التوحيد والتنزيه. وإن كان غيرهم قد ضرب بها عرض الحائط، ولم يعتمدها في مبحث العقائد بالمرة. أما الفريق الآخر من المحدثين والحشوية والسلفية فإنهم تشبثوا بها وانطلقوا منها لرسم صورة التوحيد الاسلامي الحقيقي كما يدعون.

أما رفضهم للتأويل فقد أوقعهم في تخبط وإضطراب لا يمكن للتنابز بالألقاب واتهام الآخرين بالتعطيل والزندقة أو الكفر والضلال أن يستر عورته.

---

(٤١) المرجع السابق ، ص٦٤ ــ ٦٥ .

يقول صائب عبدالحميد: إن الجمود على ما يفهم من ظاهر اللفظ لأول وهلة يعد أكبر الخطأ، وليس هو شأن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم. ففي قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا﴾ هل قال أحد أن الحبل هنا هو ما نفهمه من لفظ الحبل. فعلينا ان ننتظر حبلا بأوصاف خاصة يتدلى من جهة الفوق كما يريد الحشوية، لنعتصم به؟!.

إنهم أجمعوا هنا على تأويل الحبل بمعاني أخرى، فقالوا: هو الإسلام أو القرآن، أو الثقلان كتاب الله وعترة رسوله، اللذان ورد الأمر بالتمسك بهما. إن من ينكر ضرورة التأويل في أمثال هذه الالفاظ فقد إرتكب جهلاً وخطأً كبيراً.. وإن من ينكر تأويل السلف لآيات الصفات فقد افترى عليهم فرية كبيرة(٤٢).

وعلى ذكر الصحابة وأهل البيت لا بأس من أن نختم كلامنا في هذه القضايا الشائكة. بكلام سيد العارفين وأمير الموحدين والمنزهين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي يقول في خطبة الأشباح: «الحمد لله الذي لا يَفِرُه المنع والجُودُ، ولا يُكديه الإعطاءُ والجود، اذ كل مُعْطٍ منتقص سواه، وكل مانع مذموم ما خلاه، وهو المنان بفوائد النعم..

الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، والرادع أَنَاسِيَّ الأبصار عن أن تناله أو تُدركه، ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الإنتقال.

فانظر أيها السائل: فما دلَّك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضيء بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فَرضُه، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره، فَكل علمه إلى الله سبحانه. فإن ذلك منتهى حق الله عليك، وأعلم ان الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السُّدَدِ المضروبة دون الغيب، ولا تقدر عظمة الله

---

(٤٢) إبن تيمية في صورته الحقيقية ، القدير ، بيروت ط١ ١٩٩٥م ، ص٢٠.

سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين.

إلى أن يقول: «فأشهد أن من شبهكَ بِتَبَايُنِ أَعضاء خلقك، وتَلاحُم حِقَاقِ مَفَاصلهمُ المُحتَجِبَة لتدبير حكمتك، لم يَعْقِد غيب ضميره على معرفتك، ولم يُباشر قَلبه اليقينُ بأنه لا ندَّ لك، وكأنه لم يسمع تبرؤُ التابعين من المتبوعين اذ يقولون: ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين﴾ كذب العادلون بك. إذ شبهوك بأصناهم، ونحَلُوكَ حِلْيَةَ المخلوقين بأَوهامِهِم، وجَزَّأُوك تجزئة المجسّمات بخواطرهم. وقدَّروك على الخِلْقة المُختَلِفَة القوى، بِقَرائح عُقولهم. وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عَدَلَ بِكَ، والعادل بك كافرٌ بما تَنزَّلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حُجَج بيناتك، وإنك أنت الله الذي لم تَتَنَاهَ في العُقول، فتكون في مهب فكرها مُكيَّفاً، ولا في رَوِيَّاتِ خواطرهم فتكون محدوداً مُصرَّفاً»[٤٣].



❊ ❊ ❊

(٤٣) نهج البلاغة ، الخطبة ٩١ ، باختصار ، تعرف بخطبة الأشباح. خطبها عليه السلام على منبر الكوفة وذلك أن رجلاً أتاه فقال له: ياأمير المؤمنين صف لنا ربنا مثلما نراه عيانا لنزداد له حباً وبه معرفة، فغضب ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغير اللون، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وآله ثم قال: الخطبة.

التوحيـد أو الشرك

□ التوحيد عقيدة الاسلام :

إتفق المسلمون بجميع طوائفهم على ضرورة التوحيد، لأن دعوة الأنبياء انما جاءت لتؤكد التوحيد وتنفي الشرك والشريك مع الله سبحانه وتعالى. الذي ﴿ليس كمثله شيء﴾ وله الأسماء الحسنى. وإذا كان علماء الإسلام قد فصلوا في مباحث التوحيد وعدوا مراتبه، فإن الخلاف قد نشأ في فهم بعض هذه المراتب. وعلى رأسها التوحيد في «العبادة»، الذي يعتبر اليوم أساس النزاع بين السلفية ومخالفيهم من أهل السنة والإمامية.

أما مراتب التوحيد التي ذكرها العلماء في مباحثهم فهي:

١ ــ التوحيد الذاتي: ومصداقه قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ سورة الإخلاص.

٢ ــ التوحيد في الخالقية: والمقصود به أن الخالق والفاعل الحقيقي والأصيل هو الله سبحانه وتعالى. وأن الأسباب والمؤثرات الطبيعية إنما هي إرادته سبحانه. يقول عزَّ من قائل: ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ (المؤمن آية٦١).

٣ ــ التوحيد في الربوبية: والمراد به أنه سبحانه هو المدبر الوحيد لهذا العالم، أما الأسباب والمخلوقات فتدبيرها غير مستقل عنه سبحانه بل بإذنه وأمره. يقول عزوجل: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع الا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾ (يونس آية٣).

أما ما جاء في بعض الآيات من نسب بعض التدابير للملائكة أو لغيرهم، مثل قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ أو قوله عزوجل ﴿فالمدبرات أمراً﴾ (النازعات، الآية ٥) وغير ذلك من الأمثلة حيث ينسب الفعل إلى غير الله. فإن هذا لا يعتبر تعارضاً أو تناقضاً لأن هذه الأمور «كالرازقية والتدبير والتوفي». «قائمة بالله على نحو لا يكون لله فيها أي شريك فهو تعالى يقوم بالأصالة وعلى وجه «الإستقلال»، في حين أن غيره محتاج اليه سبحانه في أصل وجوده وفعله، فما سواه تعالى يقوم بهذه الأفعال والشؤون على نحو «التبعية» وفي ظل القدرة الالهية.

وبما ان هذا العالم هو عالم الأسباب والمسببات وأن كل ظاهرة لابد أن تصدر وتتحقق في مجراها الخاص بها المقرر لها في عالم الوجود، ينسب القرآن هذه الآثار إلى أسبابها الطبيعية... ويشير القرآن إلى كلا هاتين النسبتين في قوله سبحانه: ﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال، الآية ١٧)[٤٤].

٤ ــ التوحيد في التشريع: حيث الحاكمية التشريعية منحصرة فيه سبحانه، فهو الذي يشرع، يحلل أو يحرم. يقول سبحانه: ﴿إن الحكم إلا لله أمرَ ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (يوسف، الآية٤٠). وقال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ (المائدة، الآية ٤٤).

٥ ــ التوحيد في الطاعة: ويعني أن الله وحده تجب طاعته وامتثال أوامره. أما طاعة الأنبياء الواردة في الآيات فإنها باذنه يقول. سبحانه ﴿وما أرسلنا من رسول الا ليطاع بإذن الله﴾ (النساء، الآية٦٤). فإطاعة النبي وأولي الأمر، والوالدين وغيرهم إنما لأجل إذنه وأمره سبحانه ولولاه لم تكن لتجز طاعتهم،

---

(٤٤) التوحيد والشرك ، الشيخ جعفر السبحاني ، مؤسسة الفكر الإسلامي ، ط٢، ص٢٩، ١٩٨٦م.

والإنقياد لأوامرهم. وعلى الجملة فها هنا مطاع بالذات، وهو الله سبحانه، وغيره مطاع بالعرض وبأمره[٤٥].

٦ ــ التوحيد في الحاكمية، والمراد منه هو: أن جميع الناس سواسية، فلا ولاية لأحد على أحد بالذات، بل الولاية لله المالك الخالق، فمن مارس الحكم في الحياة يجب أن يكون باذنه، قال سبحانه: ﴿ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾ (الأنعام، الآية٥٧)[٤٦].

٧ ــ التوحيد في العبادة: أي حصر كل أنواع العبادة في الله عزوجل فلا معبود سواه. وقد وقع الإختلاف هاهنا في تحديد بعض المظاهر، هل تعتبر عبادة أم لا، كالتكريم والإحترام وغير ذلك مما وقع الجدال حوله بين السلفية الوهابية وبين أهل السنة والإمامية. لقد اعتبر السلفيون ان ذلك شرك في العبادة، ومن ثم انطلقوا لتكفير غالبية المسلمين وتشريكهم والحكم عليهم بالتالي بالضلال واستباحة الدماء.

لذلك يقول الباحث السبحاني: «ان المفتاح الوحيد لرد شبه الوهابيين هو تحديد العبادة وتمييزها عن غيرها»[٤٧] لأن الموحدين مجمعون على عدم جواز عبادة غير الله. لذلك لابد من معرفة حقيقة بعض الأعمال والأفعال حتى لا يقع الخلط، وننسب غالبية المسلمين للشرك أو الكفر.

□ التوحيد عند السلفية :

ويضيف «إن الوهابية تعترف بنوعين من التوحيد وهما التوحيد الربوبي والتوحيد الألوهي ويفسرون الأول بالتوحيد في الخالقية، والثاني بالتوحيد في العبادة، وكلا الإصطلاحين خطأ. أما الأول فالمراد من الربوبية هو تدبير

---

(٤٥) المرجع السابق ، ص٣٣ .

(٤٦) بحوث في الملل والنحل ، م س ، ج٤ ص٦٦ .

(٤٧) التوحيد والشرك ، ص٣٥ .

المربوب وادارته، وأن وظيفة الرب الذي هو بمعنى الصاحب. إدارة مربوبه، كرب الدابة والدار والبستان بالنسبة إليها. فالتوحيد في الربوبية غير التوحيد في الخالقية، وان كان ربما تنتهي الربوبية إلى الخالقية. وأما الثاني، أعني التوحيد في الألوهية فهو مبني على ان الإله بمعنى المعبود، ولكنه خطأ، بل هو ولفظ الجلالة بمعنى واحد، غير ان الأول كلي والثاني علم لواحد من مصاديق ذلك الكلي[48].

ويقول أبو حامد في إبطاله هذا التقسيم «لم يقل أحمد بن حنبل لأصحابه: ان التوحيد قسمان: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وإن من يعرف توحيد الألوهية لا تعتبر معرفته لتوحيد الربوبية، لأن هذا كان يعرفه المشركون، وهذه عقيدة الإمام أحمد مدونة في مصنفات أتباعه، في مناقبه لإبن الجوزي وفي غيره، ليس فيه هذا الهذيان. وكذا لم يقل أي واحد من أتباع التابعين لأصحابه، ولا أي صحابي من أصحاب النبي(ص) ورضي عنهم: ان التوحيد ينقسم إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وان من لم يعرف توحيد الالوهية لايعتد بمعرفته لتوحيد الربوبية، لأن هذا يعرفه المشركون، فلو اجتمع الثقلان مع إبن تيمية على إثبات هذا التقسيم عند أي واحد منهم لا يستطيعون، وإني اتحدى كل من له إلمام بالعلم ان ينقل لنا هذا التقسيم المخترع ولو برواية واهية»[49].

□ مفهوم العبادة:

جاء في المعاجم العربية تعاريف عدة لكلمة عبادة. فإبن منظور يفسرها «بالخضوع والتذلل» أما الراغب في «المفردات» فيقول «العبودية: اظهار

(٤٨) بحوث في الملل والنحل، م س، ج٤، أنظر الهامش، ص٦٧.

(٤٩) راجع براءة الاشعريين ج١ ص٩٦. أنظر ردود على شبهات السلفية، م س، ص٢٤٠ — ٢٤١.

التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل»، ويعرفها الفيروزأبادي بـ(الطاعة). لكن جميع هذه التعارف ما هي الا نوع من التعريف بالمعنى الأعم لأن الطاعة والخضوع واظهار التذلل ليست ـ على وجه الإطلاق ـ عبادة، لأن خضوع الولد أمام والده، والتلميذ أمام استاذه والجندي أمام قائده لايعد عبادة مطلقا مهما بالغوا في الخضوع والتذلل[٥٠]. وهنا آيات متعددة تصف هذا الخضوع ولا تعتبره عبادة. مثل ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ (البقرة، الآية ٣٤) فكان سجودهم له تعظيماً وتكريما. ولم يكن عبادة له أو جعله شريكاً لله.

وقوله تعالى في قصة يوسف: ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا﴾ (يوسف، الآية ١٠٠).

وكذا تذلل المؤمنين لبعضهم البعض. وعليه فلا يكون الخضوع ضعيفه وشديده عبادة إلا إذا دخل فيه عنصر قلبي خاص يميزه عن مماثلاته ومشابهاته، وهذا العنصر عبارة عن أحد الأمور التالية:

١ ـــ الإعتقاد بألوهية المعبود.

٢ ـــ الإعتقاد بربوبيته.

٣ ـــ الإعتقاد باستقلاله في الفعل من دون أن يستعين بمعين أو يعتمد على معاضد[٥١].

ويتضح من ذلك أن مقوم العبادة ليس العمل أو الفعل الظاهري، ولكن الاعتقاد القلبي الباطني. فالمشركون على عهد الرسول وقبله كان منهم من يعتقد بألوهية معبوده كأحد الآلهة الصغيرة إلى جنب الإله الكبير. لذلك قال «المشركون للرسول كما حكى عنهم القرآن ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا

(٥٠) التوحيد والشرك، م س، ص٥٦.

(٥١) بحوث في الملل والنحل، ج٤، ص٦٨ ـــ ٦٩.

لشيء عجاب﴾ (سورة ص، الآية٥). ومنهم من كان يعتقد بأن معبوده له التدبير الفعلي والمستقل، لذلك عبده وطلب منه ورجاه. ومنهم من كان يعلم بأن معبوده مخلوق لله، لكنه مستقل الفعل يمكنه أن يرزق أو يضر وينفع لذلك توجه له بالعبادة.

والذي يتأمل في الآيات التي نزلت في المشركين مثل قوله تعالى: ﴿انهم كانوا إذا قيل لهم لا إله الا الله يستكبرون﴾ (الحجر، الآية ٣٥) أو قوله سبحانه: ﴿الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون﴾ (الحجر، الآية ٩٦). يعلم أن وصفهم بالمشركين يرجع لكونهم يعتقدون أن أصنامهم وأوثانهم آلهة من دون الله، لها وجود مستقل وتستحق العبادة والخضوع وتقديم الطاعات المختلفة. لأنها تضر وتنفع وترزق، وتملك الشفاعة. لذلك جاءت الآيات القرآنية لتنفي هذه الاعتقادات والإيمان الخاطىء في هذه المعبودات المختلفة. يقول تعالى مخاطباً المشركين: ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا﴾ (العنكبوت، الآية ١٧).

ويقول سبحانه: ﴿فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا﴾ (الإسراء، الآية ٥٦).

ويقول في نفي الشفاعة عن آلهتهم المزعومة: ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من إتخذ عند الرحمان عهداً﴾ (مريم، الآية٨٧).

وهناك نوع آخر من الشرك ذكره القرآن وهو يصف أهل الكتاب. وهو الإعتقاد بأن الله قد فوض لبعض الرهبان او الأحبار مهمة التشريع. فكان أتباعهم يتعبدون بهذه التشريعات ويعتمدونها في الحلال والحرام. قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح إبن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ (التوبة، الآية ٣١) وجاء في الحديث انهم لم يصوموا لهم ولا صلوا لهم ولكن أحلو لهم الحرام وحرموا لهم الحلال فاتبعوهم.

وهنا آية يمكنها أن تكون فيصل التفرقة بين ما كان عليه المشركون زمن الرسول وبين اي فعل أو عمل أو اعتقاد قد يصدر عن المسلمين اليوم ويصفه الوهابية بالشرك أو يجعلونهم ومشركي قريش سواء، كما نطق بذلك محمد بن عبدالوهاب النجدي.

كما توضح هذه الآية بجلاء حقيقة اعتقاد المشركين وما كانوا عليه من انحراف إيماني. يقول تعالى يصف المشركين بعدما أدركوا حقيقة معبوداتهم واصنامهم: ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين، اذ نسويكم برب العالمين﴾ (الشعراء، الآية٩٧ - ٩٨).

وهذا التسوية لا تختص بتوجيه العبادة أو المشاركة فيها. ولكن باعتقادهم بأن لآلهتهم خصائص الألوهية إما كلها أو بعضاً منها. كما ذكرنا قبل قليل.

وإلى هنا يكون مفهوم العبادة الذي يترتب عليه الشرك والإشراك قد اتضح للقارىء. فهل هناك من المسلمين اليوم من يعتقد في الأنبياء أو الأولياء والمشايخ. أنهم مساوون لله؟ أو أنهم آلهة وأرباب من دون الله؟! يملكون الضر والنفع والشفاعة، ويستقلون بالفعل والتأثير؟! أو يدبرون هذا الكون إما بشكل كامل أو مشاركة مع الله؟!.

إن الملاك في تمييز التوحيد عن الشرك أمر واحد وهو الإعتقاد بالألوهية والربوبية، أو كون الفاعل مستقلا ومفوضاً إليه الأمر[٥٢]. واذن ما هي شبهات هؤلاء الوهابية، التي جعلتهم يتهمون المسلمين بالشرك، ويضعونهم مع مشركي العصر الجاهلي في خانة واحدة.

تعتبر القضايا مثل: الشفاعة والتوسل وزيارة القبور والدعاء عندها ـ وما يتفرع عن ذلك ـ من أهم المباحث التي انطلق منها السلفية لإتهام المسلمين بالشرك، فهم لما وضعوا للعبادة ملاكات جديدة غير الملاك الذي اتفق عليه المسلمون قاطبة، أدخلوا الكثير من مظاهر هذه القضايا ضمن دائرة الشرك،

(٥٢) المرجع السابق، ص٧٥.

واعتبروا فاعلها مشرك منحرف عن عقيدة التوحيد. سنلقي نظرة موجزة حول هذه القضايا، أما من أراد التفصيل فعليه الرجوع إلى المصادر الكثيرة جداً في هذه المواضيع بالخصوص.

□ التـوســـل:

التوسل من وسلت إلى ربي وسيلة أعملت عملاً أتقرب به إليه، وتوسلت إلى فلان بكتاب أو قرابة، أي تقربت به إليه(٥٣). وقال الجوهري في الصحاح: الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير والجمع: الوسل والوسائل(٥٤). وكل شيء يعتمده الإنسان للوصول إلى هدف يعتبر وسيلة.

وقد تعارف العقلاء بالفطرة أو التجربة على ركوب الوسائل المختلفة لتحقيق الغايات المتعددة، وهذه احدى السنن الكونية الظاهرة، التي لا تخفى على أحد.

أما المقصود به في الشرع، «أن يقدم العبد إلى ربه شيئاً ليكون وسيلة إلى الله تعالى لأن يتقبل دعاءه ويجيبه إلى ما دعاه»(٥٥). وقد وضع الشارع طرقاً معينة للتوسل وشرعها واعتبر أي خروج عنها أو ابتداع طرق جديدة أمر مرفوض في الدين معاقب عليه في الآخرة.

وقد عرف السلف والخلف من المسلمين هذه الطرق واتبعوها ولم ينكر عليهم أحد، إلى ان ظهر إبن تيمية الحنبلي في القرن الثامن فناقش بعضاً من هذه الطرق ورفضها، وعد من يسلكها مشركا. وقد تبعه الوهابيون من بعده، وأشاعوا الفتن وطعنوا في سلامة عقيدة المسلمين.

---

(٥٣) الخليل ، ترتيب المعين ، مادة «وسل».

(٥٤) الجوهري، الصحاح ، ج٥ مادة «وسل» أنظر التوسل لجعفر السبحاني ، ص١٧ .

(٥٥) التوسل ، جعفر السبحاني ، ص١٨ .

□ أما التوسلات المشروعة فهي:

١ ـــ التوسل بأسماء الله وصفاته. ودليله قوله سبحانه ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ (الأعراف، الآية ١٨٠).

وأخرج الترمذي عن عبدالله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله سمع رجلاً يقول: اللهم اني أسألك بأني أشهد أنك أنت لا إله الا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد،ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد فقال النبي: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي اذا دعي به أجاب، واذا سئل به أعطى»[٥٦]. والأحاديث في ذلك كثيرة، وليس هناك خلاف في هذا التوسل بأسمائه وصفاته سبحانه.

٢ ـــ التوسل بالقرآن الكريم: وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. روى الإمام أحمد، عن عمران بن الحصين، أنه مر على رجل يقص، فقال عمران: إنا لله وانا اليه راجعون سمعت رسول الله يقول: «اقرأوا القرآن واسألوا الله تبارك وتعالى به قبل أن يجيء قوم يسألون به الناس»[٥٧]. وورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه يستحب في ليلة القدر أن يفتح القرآن فيقول: «اللهم أني أسالك بكتابك المنزل وما فيه، وفيه إسمك الأكبر وأسماؤك الحسنى وما يخاف ويرجى أن تجعلني من عتقائك من النار»[٥٨].

٣ ـــ التوسل بالأعمال الصالحة، حيث يتقرب الإنسان إلى ربه بأحسن عمل عمله، وقد تظافرت الأحاديث عن الرسول في ذكر هذا التوسل، أهمها حديث النفر الذي إنطبق عليهم الغار فاتفقوا على ان يدعو كل واحد منهم بأحسن عمل عمله، فلما فعلوا ذلك فرج الله عنهم ونجاهم. وقد رواه

---

(٥٦) الترمذي ، الصحيح ، ج٥ ، ص٥١٥ . الحديث رقم ٣٤٧٥ . أنظر ، م س ، ص٢٢ .
(٥٧) المسند ، ج٤ ، ص٤٤٥ . أنظر ، م س ، ص٢٦ .
(٥٨) الإقبال لابن طاوس الحلي ، ص٤٦ .

البخاري في صحيحه وهو حديث مشهور(٥٩).

٤ ـ التوسل بدعاء الرسول: وهو من أعظم الوسائل وأخصها، لأن الرسول الأكرم مستجاب الدعوة مقبول عند ربه ومرسله. وقد أشار القرآن إلى هذه الخاصية. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ (النساء، الآية ٦٤). والآيات القرآنية التي نزلت في الرسول(ص) وسيرته العطرة تشهد بأن للرسول(ص) مقاماً كريماً وعظيماً. فهو ليس كأحد من الناس أو كأحد من المؤمنين، لأن الوهابية يساوون دعاءه بدعاء غيره من المؤمنين وهذا خطأ فاحش وسوء أدب في حقه عليه السلام، وجهل بتاريخ الرسالات، ومكانة الأنبياء.

لقد استجاب الله لدعاء نبيه نوح بهلاك قومه. وحكم أنهم لايلدون إلا فاجراً كفاراً، فجاء الطوفان. وكذلك سائر الأنبياء وعلى رأسهم خاتمهم محمد بن عبدالله الذي قال الله في شأنه ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾.

٥ ـ التوسل بدعاء المؤمن: وقد جاء في القرآن ان الملائكة يستغفرون للمؤمنين. وكذا المؤمنون لبعضهم البعض، وفي الأحاديث حث على دعاء المؤمن لأخيه، بل ان ذلك من أسباب تعجيل الإجابة.

إلا أن الوهابية وان كانوا يؤمنون بصحة التوسل بدعاء النبي فإنهم يشترطون حياته، فدعاؤه كان مجديا في حياته أما بعد موته فلا يصح دعاؤه ولا يجوز وهو طريق إلى الشرك. وهذا الإعتقاد مبني على موت الأنبياء وإنقطاع صلتهم بالدنيا تماماً. وهذا خلاف ما جاء به القرآن وما فهمه وعلمه علماء الصحابة والتابعين. واذا كان الشهداء - بنص القرآن - أحياء في عالم البرزخ يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من الكرامة والنعيم فبالأولى ان يكون

---

(٥٩) الصحيح ، ج٤ ، ص١٧٣ ، كتاب الأنبياء .

الانبياء كذلك، فهم أفضل من الشهداء، وهذا ما فهمه الصحابة. فدعاء النبي(ص) حياً كدعائه ميتا، وقد جاءت الأحاديث بهذا المعنى.

ففي صحيح البخاري في باب كيفية فرض الصلاة وملاقـاة النبي ـ ليلة الإسراء ـ الأنبياء: من آدم وادريس وموسى وعيسى وإبراهيم وتكلمه معهم سلام الله عليهم... وفي سنن النسائي وإحياء العلوم: قال رسول الله(ص) إن لله ملائكة سياحين في الأرض، يبلغون من أمتي السلام. وقال: أكثروا على من الصلاة، فإن صلاتكم معروضة علي. قالوا يارسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت قال: ان الله تعالى قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فنبي الله حي يرزق. وقوله: فنبي الله حي يرزق. ظاهر في العموم، لأن الاضافة تفيده فإذا كان الأنبياء والشهداء أحياء يرزقون. ويشهدون الصلاة والسلام ممن يصلي عليهم من قريب أو بعيد، فكيف لا يشهدون نداء من يناديهم، واستغاثة من يستغيث بهم؟. وقال رسول الله(ص) علمي بعد مماتي كعلمي في حياتي. وفي إحياء العلوم: أن الله وكل ملكاً يُسمعني أقوال الخلائق[٦٠].

ومما يؤكد ذلك مارواه البيهقي وابن شيبة أن «الناس أصابهم قحط في خلافة عمر فجاء بلال بن الحارث إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: يارسول الله إستق لأمتك فإنهم هلكوا. فأتاه الرسول في المنام وأخبره بأنهم يسقون» ووجه الاستدلال هنا ليس الرؤيا، ولكن طلب الاستسقاء من الرسول وهو ميت[٦١].

في الجوهر المنظم: ولا فرق في التوسل بين أن يكون بلفظ التوسل أو

---

(٦٠) سعادة الدارين ، لإبراهيم السمهودي ، ص١٨٣ ، بتوسط ، صفحات من تاريخ الجزيرة ، العربية ، م س ، ص٨٩ .

(٦١) البراهين الجلية في رفع تشكيلات الوهابية ، السيد محمد حسن الموسوي ، مطبوعات النجاح بالقاهرة ، ط٢ ١٩٧٧م ، ص٣٣ ـ ٣٤ .

التشفع أو الاستغاثة أو التوجه، لأن التوجه من الجاه، وهو علو المنزلة، وقد يتوسل بذي الجاه إلى من هو أعلى منه جاها، والاستغاثة طلب الغوث والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وان كان أعلى منه فالتوجه والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وبغيره ليس لهما معنى في قلوب المسلمين غير ذلك ولا يقصد بهما أحد منهم سواه، فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه(٦٢).

والذي يراجع سيرة السلف من الصحابة والتابعين يجدهم يتوسلون بدعائه عليه السلام في حياته وبعد مماته ولا يفرقون بين ذلك. قال الحافظ أبو عبدالله محمد بن موسى بن النعمان في كتابه «مصباح الظلام» ان الحافظ أبا سعيد السمعاني ذكر فيما روينا عنه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قدم علينا أعرابي بعد ما دفنا رسول الله(ص) بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبي(ص)، وحثا من ترابه على رأسه، وقال: يارسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله سبحانه ما وعينا عنك، وكان فيما أنزل عليك، ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله...﴾ الآية، وقد ظلمت، وجئتك تستغفر لي فنودي من القبر أنه قد غُفر لك. انتهى(٦٣).

وقال أبو عبدالله محمد بن الحسين السامري الحنبلي في المستوعب «باب زيارة قبر النبي(ص)» وذكر آداب الزيارة، وقال: ثم يأتي حائط القبر فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه، والقبلة خلف ظهره، والمنبر عن يساره، وذكر كيفية السلام والدعاء.

منه: أللهم إنك قلت في كتابك لنبيك مستغفراً، فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك(ص)

---

(٦٢) شواهد الحق في الإستغاثة بسيد الخلق ، يوسف بن اسماعيل النبهاني ، ضمن علماء المسلمين والوهابيون ، ص١٦٨ .

(٦٣) التوسل ، ص٥٦ .

وذكر دعاءً طويلاً(٦٤).

وخلاصة الكلام ان الوهابية يمنعون من التوسل بالأنبياء حال وفاتهم لأنهم يعتقدون ان البرزخ مانع من الإتصال وهذا بخلاف القرآن والسنة وسيرة المسلمين سلف عن خلف، اللهم إلا إبن تيمية ومن تبعه. كما يقولون بأن الميت لا يسمع وقد انقطع عمله عن الدنيا ويستدلون ببعض الاحاديث والآيات لإثبات صحة هذه الشبهات. والذي يجب أن يُعلم انهم عندما ينتقون بضع أحاديث قد يدل ظاهرها أو فهمها الإبتدائي بأنها تدعم مذهبهم، فإنهم يضربون كشحا عن مئات الأحاديث الصحيحة. التي تخالفهم، والتي يعتد بها مخالفوهم. بل ان الكثير من معتمداتهم الحديثية وجهت لها سهام الطعن والتضعيف. أما استدلالهم بالآيات فإنه يرجع إلى فهم خاطىء بخلاف علماء التفسير وأرباب العلم.

إن التوسل بذوات الأنبياء والصالحين. وبالأمكنة الفاضلة كالكعبة، وبالأزمنة المباركة كشهر رمضان وليلة القدر. والتوسل إلى الله بجاه بعض الصالحين وحرمتهم أو الإقسام على الله تعالى بالمتوسل بهم، كلها توسلات باطلة وممنوعة عند الوهابية، لأنها إما شرك صريح أو طريق إليه. حججهم كما أسلفنا الفهم الخاطىء للعبادة ولمعنى الشرك المذكور في الآيات القرآنية الواصفة لحال المشركين أولا، ولأنهم رأوا بعض العامة يتوسعون في الكلام ويأتون بألفاظ توهم انهم يعتقدون التأثير لغير الله تعالى ويطلبون من الصالحين أحياءاً وأمواتاً أشياءاً جرت العادة بأنها لا تُطلب إلا من الله تعالى. ويقولون للولي إفعل لي كذا وكذا، وربما يعتقدون الولاية في أشخاص لم يتصفوا بها، بل اتصفوا بالتخليط وعدم الإستقامة، وينسبون لهم كرامات وخوارق عادات وأحوالا ومقامات ليسوا بأهل لها، ولم يوجد فيهم شيء منها. فانما أراد هؤلاء المانعون للتوسل أن يمنعوا العامة من تلك التوسعات دفعاً للإبهام وسداً

(٦٤) المرجع نفسه، ص٥٨، نقلاً عن وفاء الوفا للسمهودي، ج٤ ص١٣٦٢.

للذريعة...

وإذا كان الأمر كذلك وقصدتم سد الذريعة، فما الحامل لكم على تكفير الأمة عالمهم وجاهلهم خاصهم وعامهم، وما الحامل لكم على منع التوسل مطلقا؟ بل كان ينبغي لكم أن تمنعوا العامة من الألفاظ الموهمة وتأمروهم سلوك الأدب في التوسل، مع ان تلك الألفاظ الموهمة يمكن حملها على الإسناد المجازي مجازاً عقلياً كما يحمل على ذلك قول القائل: هذا الطعام أشبعني وهذا الماء أرواني وهذا الدواء نفعني، فإن ذلك كله عند أهل السنة محمول على المجاز العقلي. فإن الطعام لا يشبع والمشبع هو الله تعالى[٦٥].

يقول الشيخ النبهاني: «والحاصل ان مذهب أهل السنة والجماعة صحة التوسل وجوازه بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد وفاته وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين، كما دلت عليه الأحاديث السابقة لأنا معاشر أهل السنة لا نعتقد تأثيراً ولا خلقاً ولا إيجاداً ولا إعداما ولا نفعا ولا ضراً الا لله وحده لا شريك له... وأما الذين يفرقون بين الأحياء والأموات فإنهم يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات ونحن نقول ﴿الله خالق كل شيء﴾، ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾، فهؤلاء المجوزون التوسل بالأحياء دون الأموات هم الذين دخل الشرك في توحيدهم لكونهم اعتقدوا تأثير الأحياء دون الأموات، فهم الذين اعتقدوا تأثير غير الله تعالى، فكيف يدعون المحافظة على التوحيد وينسبون غيرهم إلى الإشراك ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾[٦٦].

□ الشفاعــة:

أجمع علماء الأمة الاسلامية على ان النبي(ص) أحد الشفعاء يوم القيامة

---

(٦٥) شواهد الحق، م س، ص١٥٩.

(٦٦) شواهد الحق، ص١٥٨ ـ ١٥٩.

مستدلين على ذلك بقوله سبحانه ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ (الضحى، الآية ٥) والذي أعطي هو حق الشفاعة الذي يرضيه، وبقوله سبحانه: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ (الإسراء، الآية ٧٩) واتفق المفسرون على أن المقصود من المقام المحمود هو الشفاعة.

وقال القاضي عياض بن موسى (ت ٥٤٤ هـ). مذهب أهل السنة هو جواز الشفاعة عقلا ووجودها سمعاً بصريح الآيات وبخبر الصادق وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين، واجمع السلف الصالح ومن بعدهم من أهل السنة عليها(٦٧).

وقال الإمام أبو حفص النسفي (ت ٥٣٨ هـ): والشفاعة ثابتة للرسل والأخيار في حق الكبائر بالمستفيض من الأخبار. وقد أيد التفتازاني في «شرح العقائد النسفية» هذا الرأي وصدقه دون أي تردد أو توقف(٦٨).

وقال إبن تيمية الحراني الدمشقي (ت ٧٢٨ هـ): للنبي(ص) في يوم القيامة ثلاث شفاعات إلى ان قال: وأما الشفاعة الثالثة فيشفع في من استحق النار وهذه الشفاعة له(ص) ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم في من استحق النار أن لا يدخلها ويشفع في من دخلها(٦٩).

وقال محمد بن عبدالوهاب: (زعيم الحركة السلفية) وثبتت الشفاعة لنبينا محمد(ص) يوم القيامة ولسائر الانبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسبما ورد. ونسألها من المالك لها والآذن فيها بأن نقول: اللهم شفع نبينا محمد فينا يوم القيامة أو اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين، أو ملائكتك، أونحو ذلك مما يطلب من الله لا منهم إلى ان قال: ان الشفاعة حق في الآخرة، ووجب على كل مسلم الايمان بشفاعته، بل وغيره من الشفعاء الا ان رجاءها من

---

(٦٧) شرح صحيح مسلم للنووي ، دار إحياء التراث العربي ، ج٣ ص٣٥ .

(٦٨) العقائد النسفية ، ص١٤٨ .

(٦٩) مجموعة الرسائل الكبرى ، ج١ ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

الله، فالمتعين على كل مسلم صرف وجهه إلى ربه. فإذا مات استشفع الله فيه نبيه[٧٠]. وإذا كان الكل قد أجمع على ان الشفاعة من أصول الإسلام فإن الخلاف بين أهل السنة وغيرهم وبين الوهابية سيختص ببعض معانيها وتطبيقاتها.

ذهبت الوهابية إلى أن: «الشفاعة للأنبياء والأولياء منقطعة في الدنيا، وانما هي ثابتة لهم في الآخرة، فلو جعل العبد بينه وبين الله تعالى وسائط من عباده يسألهم الشفاعة كان ذلك شركا، وعبادة لغير الله تعالى، فاللازم ان يوجه العبد دعاءه إلى ربه ويقول: اللهم اجعلنا ممن تناله شفاعة محمد(ص) ولا يجوز له ان يقول: يامحمد اشفع لي عند الله. محتجين بقوله تعالى ﴿وأن المساجد لله، فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ وقوله سبحانه: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وقوله جل شأنه: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾[٧١].

إن الإشكال الذي تستند اليه الوهابية والناجم عن الآيات الشريفة التي تحصر الإذن بالشفاعة بالله عزوجل ينتهي بتفسير آيات القرآن بعضها ببعض، بأن نعتبر أن الشفاعة لا تمنح الا لمن أذن له الله وبما أن بعض الأنبياء حسب ما يؤكد القرآن الكريم قد شفعوا للآخرين فهذا يعني ان الله قد أذن لهم بهذه الشفاعة فمارسوها وحضوا أتباعهم على طلبها. وقد وردت الاحاديث العديدة المتواترة عن الرسول(ص) تؤكد شفاعته لأمته، وايصائه للمسلمين بطلب الشفاعة منه صلى الله عليه وآله وسلم عند الله عزوجل[٧٢].

من هذه الاحاديث قوله(ص): «خيرني ربي بين أن أدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة». رواه الترمذي وابن حنبل وابن ماجة.

---

(٧٠) الهدية السنية ، الرسالة الثانية ص٤٢، انظر الأقوال السابقة في الشفاعة ، جعفر السبحاني ، الشفاعة في الكتاب والسنة ، صفحات ٧- ٩- ١٠- ١١- ١٢- ١٣- ١٤ بتصرف.

(٧١) البراهين الجلية ، م س ، ص١٩ .

(٧٢) صفحات من تاريخ الجزيرة العربية ، م س ، ص٧٨ ــ ٧٩ .

وقوله عليه السلام: «... فقولوا إنا نشفع برسول الله» رواه إبن حنبل في (المسند ١٨٤/٢). هذا ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم الشفاعة لغيره أيضاً فيقول: «ادعوا الشهداء فليشفعوا لمن أرادوا» رواه إبن حنبل (٥/١)[٧٣].

إن الإستشفاع الذي عليه المسلمون خلفاً عن سلف إنما هو على قسمين: أحدهما، ان يقدموا النبي أو الولي الوجيه عند الله أمام طلب الحاجة، بأن يقسم على الله به وبحقه في الفضل والإيمان والطاعة لله، كما جاء في حديث إبن عمر في توسل آدم وما روي: من أن النبي(ص) علّم الضرير التوجه إلى الله به(ص) وأن يطلب من الله ان يشفعه فيه، كما أسنده أحمد عن عثمان بن حنيف، وكذا إبن ماجة والترمذي وصححه، وكذا الحاكم في مستدركه والسيوطي في جامعه، وكما رواه البخاري من إستسقاء عمر بالعباس وتوسله إلى الله به.

وثانيهما، أن من له حاجة إلى الله يطلب من النبي(ص) ان يسأل الله قضاءها ويرجو منه أن يشاركه في الدعاء إلى الله، ومسألة تلك الحاجة منه جل وعلا، يفعل ذلك السائل اعتماداً على وجاهة الشفيع عند الله وقربة من الله تعالى. وان المسلم الذي يؤدي الشهادتين مخلصاً هو الذي أذن الله لنبيه بالشفاعة له. كما دلت عليه روايات البخاري والترمذي وإبن ماجة وكذا روايتا الحارث إبن قيس وأبي سعيد عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

هذا هو ما عند المسلمين في التوسل والاستشفاع لا غيره، وقد جاء به الكتاب والسنة، ومن نسب غير ذلك إليهم فقد إفترى عليهم، إما جهلا بما عليه المسلمون في توسلهم واستشفاعهم اعتماداً على الكتاب والسنة، وإما عناداً لرسول الله وأوليائه في بقاء كرامتهم في الإسلام ولياقتهم للإستشفاع بأحد القسمين المذكورين، وإما تمويهاً وتلبيساً على بعض العوام للإستعانة بهم

---

(٧٣) المرجع السابق، ص٧٩ .

على ما حرمه الله من دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم[٧٤].

وأما شبهتهم في المنع من النداء، فقالوا: ان النداء والخطاب للجمادات والغائبين والأموات من الشرك الأكبر الذي يباح به الدم والمال، ولا مستند لهم في ذلك، بل الأحاديث الصحيحة الصريحة في بطلان قولهم هذا، وزعموا أن النداء للأموات والغائبين والجمادات يسمى دعاء وان الدعاء عبادة، بل الدعاء مخ العبادة، وحملوا كثيراً من الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على الموحدين...

وهذا كله منهم تلبيس في الدين وتضليل لأكثر الموحدين، فإنه وإن كان النداء قد يسمى دعاء كما في قوله تعالى ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾ لكن ليس كل نداء عبادة، ولو كان كل نداء عبادة لشمل ذلك نداء الأحياء والأموات. فيكون كل نداء ممنوعاً مطلقاً، وليس الأمر كذلك. وأنما النداء الذي يكون عبادة هو نداء من يعتقدون ألوهيته واستحقاقه العبادة، فيرغبون إليه ويخضعون بين يديه. فالذي يوقع في الإشراك هو إعتقاد ألوهية غير الله تعالى واعتقاد التأثير لغير الله تعالى، أما مجرد النداء لمن لا يعتقدون ألوهيته ولا تأثيره فإنه ليس عبادة، ولو كان لميت أو غائب أو جماد، وذلك وارد في كثير من الأحاديث الصحيحة والآثار الصريحة.

والأحاديث الواردة عن النبي(ص) في زيارة القبور في كثير منها النداء والخطاب للأموات كقوله: «السلام عليكم أهل القبور، السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لا حقون». وهي أحاديث كثيرة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها، وقد تقدم ان السلف والخلف من أهل المذاهب الأربعة استحبوا للزائر ان يقول تجاه القبر الشريف يارسول الله إني جئتك

---

(٧٤) البراهين الجلية ، م س ، ص ٢٧ــ ٢٨ .

مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي[٧٥].

من خلال هذا العرض الموجز لمسألتي التوسل والشفاعة والجوانب المختلف فيها بين أهل السنة والإمامية وبين أتباع السلفية اليوم، يتبين بما لا مجال للشك فيه أن الوهابية كالخوارج سابقاً، أخذوا كل الآيات التي نزلت في المشركين فطبقوا مضامينها على ما يفعله المسلمون اليوم فكان فهمهم لهذه الآيات بسيطاً وظاهرياً، كما أداروا ظهورهم لمئات الأحاديث الصحيحة التي تخالف ما يذهبون إليه، وعمدوا إلى تضعيفها والطعن في سندها، ولو صح لهم ذلك، فإنه يصح لخصومهم الطعن بدورهم في بعض الآحاديث التي يستند إليها هؤلاء الوهابية (السلفية)، وعليه فإن الحقيقة ستضيع لا محالة.

إن الوهابية يستندون حقيقة إلى المظاهر التي تلبس بها العوام عند ممارستهم للتوسل والشفاعة سواء بالرسول(ص) أو بباقي الأنبياء والصالحين. هذه المظاهر التي توحي بالشرك في العبادة، مما جعل أبناء الصحوة الإسلامية ينطلي عليهم هذا الفرق الدقيق فيهرعون زرافات للاعتقاد بمذاهب السلفية خوفاً من الشرك وطلباً للتوحيد.

ولكنه التعبد والإعتقاد بالظواهر والمظاهر، وإغفال الأهم الذي هو الباطن والإعتقاد القلبي. فكم من منافق يلبس قصير الثياب ويرخي لحيته ويقف في الصفوف الأمامية عند الصلاة ويؤدي كل الحركات والأقوال المطلوبة، ويلهج بالإيمان والتقوى وهو ألد الخصام ومأواه جهنم وبئس المصير.

□ زيارة القبور وشد الرحال إليها:

أفتى إبن تيمية بتحريم شد الرحال لزيارة الصلحاء والأنبياء والأئمة مستدلا بما ورد من النهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة[٧٦].

---

(٧٥) شواهد الحق، م س، ص١٧٢ ــ ١٧٣.
(٧٦) بحوث في الملل والنحل، ج٤، ص١٣٧.

وقالت الوهابية لا تجوز زيارة قبور الأئمة ولا تشد الرحال من الأماكن البعيدة لأجل زيارة قبر النبي(ص)، وأنها من الشرك وعبادة لغير الله تعالى[٧٧].

أما أهل السنة والإمامية فاتفقوا على جواز زيارة القبور، ويظهر ذلك لمن راجع الكتب الفقهية الحديثية. ويكفي في ذلك ما أفتى به أئمة المذاهب الأربعة حيث جاء في كتاب «الفقه على المذاهب الربعة» ما يلي: «زيارة القبور مندوبة للإتعاض وتذكر الآخرة، وتتأكد يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها. وينبغي للزائر الإنشغال بالدعاء والتضرع والاعتبار بالموتى، وقراءة القرآن للميت فإن ذلك ينفع الميت على الأصح، إلى ان قال: ولا فرق في الزيارة بين كون المقابر قريبة أو بعيدة، بل يندب السفر لزيارة الموتى خصوصاً مقابر الصالحين، وأما زيارة قبر النبي(ص) فهي من أعظم القرب»[٧٨].

ومن الروايات التي تحث على زيارة القبور قوله(ص): «قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه فزوروها فإنها تذكّر بالآخرة». رواه الخمسة الا البخاري واللفظ للترمذي. ولا تنحصر الروايات الواردة في هذا المجال بهذا، بل هناك روايات متضافرة جمعها العلامة السمهودي في كتابه «وفاء الوفاء»[٧٩].

أما الحديث الذي تشبث به إبن تيمية والوهابية فقد تعرض له العلماء بالشرح والتحليل وأوضحوا المقصود منه. فقد روي عن الرسول(ص) أنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد: المسجد الحرام، ومسجد النبي، والمسجد الأقصى» رواه البخاري عن أبي هريرة.

---

(٧٧) البراهين الجلية ، ص٦٤ .

(٧٨) الفقه على المذاهب الأربعة ، ج١ ص٤٢٤ ــ ٤٢٥ ، آخر كتاب الصلاة . أنظر التوحيد والشرك ، م س ، ص٢٠٦ .

(٧٩) التوحيد والشرك ، ص٢٠٧ .

وهذا الحديث الذي تمسك به الوهابيون لا يدل على حرمة شد الرحال إلى زيارة القبور، والاماكن والمشاهد المشرفة، وذلك لأن الإستثناء الوارد في الحديث مفرغ قد حدف فيه المستثنى منه، فكما يمكن أن يكون تقدير المستثنى منه: «لاتشد الرحال إلى مكان من الأمكنة» يمكن ان يكون تقديره: «لاتشد الرحال إلى مسجد من المساجد». ولكن المتعين هو الثاني لكون الإستثناء متصلا وهو يقتضي تقدير «المسجد» بعنوان مستثنى منه، لاغيره.

أضف إلى ذلك يقول الشيخ السبحاني: «أن الضرورة قاضية بجواز شد الرحال إلى طلب التجارة، وإلى طلب العلم، وإلى الجهاد، وزيارة العلماء والصلحاء، وإلى التداوي والنزهة، وان المسلمين في مواسم الحج يشدون الرحال إلى عرفة والمزدلفة ومنى.. هذا مضمون الحديث ومعناه ومع ذلك لا يفهم من هذا الحديث وأشباهه حرمة السفر إلى باقي المساجد، بل هي ظاهرة في أفضلية هذه المساجد على ما عداها بحيث بلغ فضلها ان تستحق شد الرحال والسفر اليها للصلاة فيها. أما سائر المساجد فليس لها هذا الشأن. كما ان النهي عن شد الرحال إلى سائر المساجد دون الثلاثة ليس نهياً إلزامياً بل هو للارشاد إلى عدم ترتب ثواب وافر على التوجه إلى سائر المساجد. ويدل على ذلك ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يشد الرحال إلى غير المساجد المذكورة في الحديث كما في صحيح البخاري: ففي باب إتيان مسجد قباء راكباً وماشياً «عن إبن عمر قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي قباء راكباً وماشيا»[٨٠].

أما الدليل على زيارة قبر الرسول(ص) وقبور الصالحين وغيرهم، فنذكر منها:

روي عن عبدالله بن عمر أنه قال: قال النبي(ص): من جاءني زائراً لا

---

(٨٠) صحيح البخاري، ج٢ ص٦١، أنظر التوحيد والشرك، ص٢٠٨ ــ ٢٠٩ بتصرف.

تعمله (تحمله) إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة.

وروي أيضاً عن عبدالله بن عمر عن النبي(ص) أنه قال: من حج فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي.

وأما فعله، فقد روي عن طلحة بن عبدالله قال: خرجنا مع رسول الله يريد قبور الشهداء إلى ان قال: فلما جئنا قبور الشهداء، قال: هذه قبور إخواننا[٨١].

أما الإجماع فإطباق السلف والخلف، لأن الناس لم يزالوا في كل عام إذا قضوا الحج يتوجهون إلى زيارته(ص)، وأن منهم من يفعل ذلك قبل الحج، قال السبكي: هكذا شاهدناه، وشاهده من قبلنا وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة، وكلهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه وان لم يكن طريقهم، ويقطعون فيه مسافة بعيدة، وينفقون فيه الأموال، ويبذلون فيه المهج، معتقدين ان ذلك قربة وطاعة، واطباق هذا الجمع العظيم من مشارق الأرض ومغاربها على مر السنين وفيهم العلماء والصلحاء وغيرهم يستحيل ان يكون خطأ، وكلهم يفعلون ذلك على وجه التقرب به إلى الله عزوجل، ومن تأخر فإنما يتأخر بعجز أو تعويق المقادير مع تأسفه عليه، وود لو تيسر له، ومن ادعى ان هذا الجمع العظيم مجمع على الخطأ فهو المخطىء[٨٢].

وأقوال علماء أهل السنة في استحباب الزيارة لقبر الرسول كثيرة جداً وقد تتبع بعضها المحقق الأميني وجمعها في موسوعته القيمة منها:

قال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الفقيه البغدادي الحنبلي المتوفي (سنة ٥١٠ هـ) في مناسكه: إذا كمل لك حجك وعمرتك على الوجه الشروع، لم يبق بعد ذلك إلا إتيان مسجد رسول الله للسلام على النبي والدعاء عنده، والسلام على صاحبيه، والوصول إلى البقيع وزيارة ما فيه من قبور الصحابة والتابعين.

---

(٨١) أخرجه أبو داود في سننه ، ج١ ، ص٣١١ .

(٨٢) بحوث في الملل والنحل ، م س ، ص١٤٢ ــ ١٤٣ .

وقال الإمام إبن الحاج محمد بن محمد العبدري القيرواني المالكي، المتوفي سنة (٧٣٧ هـ) في (المدخل) في فصل زيارة القبور (١: ٢٥٧)، أما عظيم جناب الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فيأتي إليهم الزائر، ويتعين عليه قصدهم من الأماكن البعيدة.

وقال القاضي شهاب الدين الخفاجي الحنفي المصري المتوفي (سنة ١٠٦٢ هـ) في شرح الشفا (٥٦٦/٣) واعلم ان هذا الحديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد» هو الذي دعا إبن تيمية ومن معه كإبن القيم إلى مقالته الشنيعة التي كفروه بها، وصنف فيها السبكي مصنفاً مستقلاً وهي منعه من زيارة قبر النبي وشد الرحال إليه، وهو كما قيل:

لمهبط الوحي حقاً ترحل النجب وعند ذاك المرجى ينتهي الطلب

فتوهم أنه حمى جانب التوحيد بخرافات لا ينبغي ذكرها.

وقال الشيخ محمد زاهد الكوثري في تكملة السيف الصقيل(ص١٥٦): ولم يخف إبن تيمية من الله في رواية عد السفر لزيارة النبي(ص) سفر معصية لا تقصر فيه الصلاة عن الإمام إبن الوفاء إبن عقيل الحنبلي - وحاشاه عن ذلك - راجع كتاب التذكرة له تجد فيه مبلغ عنايته بزيارة المصطفى والتوسل به، كما هو مذهب الحنابلة، ثم ذكر كلامه وفيه القول باستحباب قدوم المدينة وزيارة النبي(ص) وكيفية زيارته[٨٣].

إلى ذلك من الأقوال والأدلة التي تنقض ما يذهب اليه السلفيون الآن، ويلبسون به على غالبية أبناء الصحوة الذين لا يعرفون عن تراث أهل السنة والإمامية شيئاً يذكر في هذه المباحث والقضايا، فيتصورون ان الحق هو ما يكتبه دعاة السلف، خصوصاً وكتبهم تمتلىء بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والإجماعات السلفية الموهومة واتفاق أهل العلم الذين لا يُعرف من هم

---

(٨٣) الغدير، ج٥، ص١٠٩ ــ ١٢٥، وقد نقل أربعين كلمة عن أعلام المذاهب الأربعة. وما نقلناه نحن فعن السبحاني، المرجع السابق، ج٤، ص١٤٥ ــ ١٤٨.

وأين كتبهم[٨٤]. فضلاً عن طباعة أنيقة متعددة الألوان والزخارف، ونشر مجاني على نطاق واسع جداً. في الوقت الذي تُمنع الكتب الإسلامية التي تُخالف السلفية وتُحارب وتُجمع من المعارض والمكتبات.

إن الخلاف حول هذه الأمور العقائدية متشعب ومتفرع، فليس ما ذكرناه هو كل ما اختلف حوله. بل هناك قضايا أخرى متفرعة عما ذكرناه لا يسعنا ان نأتي بها هنا لأنها قُتلت بحثاً وتمحيصاً، وألف فيها الكثير من الكتب، ذكرنا مجملها عند حديثنا عن الردود الفكرية على الوهابية في الفصل الرابع، فمن أراد أن يتوسع في هذه المباحث فليراجع أحد تلك المصادر كي يشفي غليله.

وما ذكرناه كان الغرض من ورائه تقديم بعض الأمثلة حول هذه القضايا المختلف حولها وأن لأهل السنة أدلة قوية وراجحة في كل ما يعتقدونه أو يفعلونه في هذه المباحث بالذات، لا يقوم ولا يثبت الاختيار «السلفي» أمامها، بل ينهدم بنيانه وينقض صرحه. ونحن نجزم بأن غالبية أبناء الصحوة الإسلامية اليوم إذا ما تقبلوا عقائد السلفيين فإنما خوفاً من الشرك وهروباً من مظاهره التي يرون غالبية العوام من أهل السنة متلبسين بها. بالإضافة إلى قلة الاطلاع والمعرفة الحقيقية بهذه المواضيع.

من هذه القضايا، البناء على القبور، والنذر لأصحابها، والعبادة عند القبور والأضرحة، والقسم بغير الله. وغير ذلك من المسائل العقائدية التي وضعها السلفيون في خانة الشرك. وقد فصل أهل السنة القول فيها وانتصروا بحجج

---

(٨٤) يقول سليمان أخو محمد بن عبد الوهاب زعيم السلفية: «ابتلى الناس بمن ينتسب إلى الكتاب والسنة ويستنبط من علومهما ولا يبالي من خالفه. وإذا طلبت منه ان تعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه ومن خالفه فهو عنده كافر. هذا وهو - يقصد أخوه محمد - لم يكن فيه خصلة واحدة من خصال الإجتهاد، لا والله عشر واحدة ومع ذلك راج كلامه على كثير من الجهال». أنظر صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث، ص١٥٦ .

القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح.

بالإضافة إلى قضايا أخرى اعتبرها السلفيون بدع محدثة لم تكن على عهد السلف الصالح. مثل الإحتفال بالمولد النبوي الشريف. بل إن هؤلاء قد توسعوا في مفهوم البدعة ليشمل الكثير من المستجدات في المأكل والمشرب وسائر الوسائل المادية المستخدمة في الحياة العامة. ولم يفرقوا بين الإبتداع المحرم في الدين والمنهي عنه، والذي يجعل الفعل أو العمل مطلوبا بل واجبا دينياً، وبين الفعل المباح سواء أكان له أصل في الشريعة أم لا. فكثير من الأعمال والأفعال التي يصفها الوهابيون بالبدعة، لها أصل في الشريعة، وهي إما مندوبة أو مباحة. وكما قلنا سابقاً فهذه المباحث قد قيل فيها الكثير فلا داعي للإطالة بذكرها او إعادة بحثها[٨٥].





* * *

(٨٥) نحيل القارىء إلى بعض الكتب المهمة والجامعة التي تنتصر لعقائد أهل السنة والإمامية في هذه المباحث . مثل: وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى للسمهودي ، وشفاء السقام في زيارة خير الأنام لتقي الدين السبكي . وتكملة السيف الصقيل للمحقق الشيخ محمد زاهد الكوثري . والتبرك لعلي الأحمدي.

اللامذهبيـــة

□ السلفية والنهي عن تقليد المذاهب الفقهية :

ليست اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية كما يقول الدكتور البوطي فحسب، ولكنها تهدد وحدة المجتمعات الإسلامية وتماسك الفئات الفكرية والدينية فيها، وترسم للصحوة الإسلامية صورة مظلمة مخيبة للآمال وباعثة على اليأس لأي تغيير مهم يمكن ان يعرفه الوطن الإسلامي. كيف ذلك؟!.

لابد وقبل الدخول في مناقشة هذه القضية، أو عرض آراء علماء أهل السنة والإمامية فيها. من تحرير محل النزاع كما يقول الفقهاء. ومحل النزاع هذا يبدأ بالفتوى أو التقرير الذي يُروج له دعاة السلفية بين أبناء الصحوة ومضمون ذلك. قولهم «لايجوز للمسلم إلتزام مذهب معين من المذاهب الأربعة وان من فعل هذا فقد كفر، وضل عن صراط الإسلام. وان عليه أن يأخذ من الكتاب والسنة مباشرة»(٨٦).

ويضيفون: «ان المذاهب أمور مبتدعة حدثت بعد القرون الثلاثة، فهي ضلالة بدون شك»(٨٧). كما أن إتباع الكتاب والسنة هو إتباع لمعصوم. أما تقليد المذاهب واتباعها فهو إتباع غير المعصوم.

وبناء على ذلك فقد ذهب محمد سلطان الخجندي المدرس السلفي

---

(٨٦) اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية ، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، ص٢٦ .

(٨٧) المرجع السابق ، ص٣٢ .

بالمسجد الحرام وهو صاحب الأقوال السابقة إلى نعت المقلدين للأئمة المجتهدين بالحمق والجهل والضلال. وبأنهم فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وبأنهم ممن قال الله عنهم ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ وبأنهم الأخسرون أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾[٨٨]. بل أنه تمادى كغيره من السلفيين في السب والقدح الجريح. وراح يشبّه المقلدين لمذاهب الأئمة بالحمر المستنفرة، ويصفهم بالدجل والمعاندة والوصول ولكن إلى الشيطان[٨٩].

□ المذاهب الفقهية صنعتها السياسة :

لقد إتضحت صورة الخلاف أمام القارىء، فالسلفيون يرفضون المذاهب الفقهية الثلاثة ولا نقول الأربعة لأنهم يناصرون جل ما يذهب إليه المذهب الحنبلي في الفروع مع إضافات قليلة، زادها إبن تيمية وتلميذه إبن قيم الجوزية. مع العلم أنهم لا يأخذون بما قاله إبن تيمية بخصوص فتوى الطلاق الثلاث. لأنه خالف السلف ـ أي عمر بن الخطاب ـ فيها. كما يرفضون المذهب الفقهي الإمامي جملة وتفصيلا. والسبب في هذا الرفض ليس فقط لأن هذه المذاهب قد أنشأتها السياسة، لأنه ما من مذهب من هذه المذاهب المعروفة إلا وللسياسة فيه اليد الطولى.

فمذهب «الحشوية» آباء السلفية المعاصرين لم يكن لينهض على رجليه ويقف يصارع خصومه وينتصر عليهم، لولا دعم الخليفة المتوكل لأصحابه والإنتصار لهم وقتل خصومهم. وهذا مسطر في كتب التاريخ، ولا يحتاج إلى دليل. أما المذهب السلفي المعاصر فإنه نشأ وترعرع في أحضان الدولة السعودية، ولولا كونه أحد دعائم الحكم في هذه المملكة اليوم لما استطاع أن

---

(٨٨) المرجع السابق، ص٢٨ .

(٨٩) المرجع السابق، ص٣٣ نقلاً عن كراس وزعه السلفيون، كتبه السلفي المذكور قبل قليل.

يني له صرحاً من المؤسسات والدعاة الذين يشرون بآرائه عبر العالم.

وإذن ففكرة رفض هذه المذاهب لكونها من صنع السياسة منتقض على نفسه لأن المذهب السلفي أشد إلتصاقاً بالمصالح السياسية للدولة السعودية.

□ المذاهب الفقهية بدعة :

أما كون هذه المذاهب حدثت بعد القرون الثلاثة وهي بذلك مبتدعة، فهذا لا يصح، ويعبر عن جهل بالتاريخ الإسلامي. يقول الدكتور إبراهيم حسن: «... ان العصر العباسي الأول كان عصر أئمة مذاهب السنة الأربعة وهي مذهب ابي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب الشافعي، ومذهب إبن حنبل. وقد ظهر في العصر العباسي الثاني بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب في الفقه، ولكن لم يقدر لها الاستقرار والذيوع أمام المذاهب الأربعة»[٩٠].

ويكفي ان نعرف ان الإمام أحمد بن حنبل وهو آخر الأئمة الأربعة توفي (سنة ٢٤١ هـ) أي قبل أن ينتصف القرن الثالث. أما مالك فتوفي (سنة ١٧٩ هـ). اذن فقد عاش هؤلاء الأئمة ضمن القرون الثلاث التي وصفها الحديث المعتمد لدى السلفية، بالخيرية. وقد انتشرت خلال هذه القرون وعرفت لها أتباعاً ومقلدين. ويكفي أن يعلم أن قاضي القضاة في عهد هارون الرشيد كان أبو يوسف صاحب أبي حنيفة وناشر مذهبه. ولن نستمر في صرد المعلومات التاريخية التي قد يعرفها طالب المرحلة الثانوية ان لم نقل قبل، فما بال علماء السلفية يجهلون أو يتجاهلون هذه الحقائق[٩١].

(٩٠) تاريخ الإسلام ، دار إحياء التراث العربي ، ج٣ ص٣٤٧ .

(٩١) إن قولهم في المذاهب الفقهية بأنها بدعة ظهرت بعد القرون الثلاثة الأولى ينطبق فعلاً على المذهب الحنبلي الذي يصدرون عنه فقد «نقل عن الإمام الغزالي ان الاعتراف بفقه الحنابلة كان حوالي سنة (٥٠٠ هـ)» ، أنظر بحوث مع أهل السنة والسلفية ، ص٢٠١.

□ على العوام أن يستنبطوا الأحكام الفقهية :

ولنعود إلى صلب الموضوع، وهو ان دعاة السلفية يرفضون تقليد المذاهب الأربعة ويأمرون الناس جميع الناس بأن يأخذوا أحكامهم مباشرة من الكتاب والسنة، ويقولون إن ذلك أمر يسير سهل لا يحتاج أكثر من الموطأ والصحيحين وسنن أبي داود وجامع الترمذي والنسائي، وهذه الكتب مشهورة يمكن تحصيلها في أقرب وقت، فعليك بمعرفة ذلك، يقول الخجندي السلفي: وإذا لم تعرف أنت ذلك وسبقك إليه بعض إخوانك وفهمك باللسان الذي انت تعرفه، لم يبق لك بعد هذه عذر.. أما إذا تعددت الرواية عن رسول الله(ص) في بعض الأمور ولم تعلم المتقدم والمتأخر ولم يتبين التاريخ، فعليك أن تأتي بكلها، تارة بذا، وتارة بذلك[92].

وعليه فإن العامة بعدما يرفضون تقليد المذاهب الأربعة لأنها بدعة وضلال وكفر، عليهم أن يشتروا موسوعات الحديث ويعتكفوا على إستنباط الأحكام منها مباشرة، في الصلاة والزكاة وسائر المعاملات. وإذا ما وجدوا تعدداً في الروايات فعليهم أن يأخذوا بها كلها، «تارة بذا، وتارة بذلك» كيف يكون ذلك؟! وهل يمكن ان يقوم العامة بهذا العمل؟!.

قد يقول هذا السلفي ان المقصود ليس العامة لأن غالبيتهم جُهّال أمّيـون. واذن يقصد طلبة العلم؟ أي علم؟ هل طلبة العلم الشرعي؟ أم كل من يقرأ ويستطيع أن يفهم الأحاديث والروايات؟!.

إن هذا الكلام متهافت، ومن الصعوبة على العاقل أن يناقش الحمق أو يجادل من لا يفقهون حديثاً. وقد فهم أبناء الصحوة الإسلامية من هذا الكلام أن يرفضوا كل ما هم عليه من تقليد المذاهب الفقهية، وراح أغلبهم يقرأ ويفتش في صحيح البخاري ومسلم عن الأحاديث ليعمل بمضونها، خصوصاً في الصلاة وبعض القضايا المتفرقة.

---

(٩٢) اللامذهبية ، م س ، ص١٥ ، نقلاً عن الخجندي.

وانتشرت بذلك الجدالات والنقاشات التي لا تنتهي، في كل تجمع، وفي كل مدرسة أو جامعة تجد الجدال قد إحتدم حول رواية أو حديث يأمر بعمل ما أو ينهى عنه، البعض يرفض والآخر يشكك في صحة النقل أو المصدر، والبعض الآخر يصف الحديث بالضعف، أو يُشكل على فهم الناقل وشرحه.

وهكذا لن تجد داخل الجماعة الواحدة من يتفق مع «أخيه في الله» في قضية أو مسألة فقهية أو أصولية. وقد تعدى الأمر إلى تفسير القرآن وشرح آياته.

وإذا كان كل واحد غير مستعد للتنازل عن رأيه أو فكرته ونقله. فإن النتيجة الواقعية والمشاهدة هي إنتشار الإختلافات الفقهية والأصولية على نطاق واسع جداً. يستحيل معه بعد ذلك جمع هذه الآراء أو الإجتهادات المتناقضة ضمن إطار واحد أو أطر متعددة لكن واضحة المعالم. فلقد أصبح كل طفل أو مراهق أو شيخ طاعن في السن مجتهداً في الدين الإسلامي برمته. يقرأ كتب الحديث ويطالع التفاسير ويأخذ منها ماشاء له أن يأخذ، ويترك ما شاء له ان يترك، دون قيد أو شرط أو حتى حسيب أو مرجع يمكن أن يعرض عليه اجتهاده لتصويبه أو تقييمه. ويزداد الطين بلة عندما نعرف أن أغلب من يقوموا بهذا العمل ـ أي الاجتهاد على الطريقة السلفية ـ لا يحسنون تلفظ جملة بالعربية دون خطأ، فحضهم من قواعد العربية هزيل جداً، أما اطلاعهم على لغة العرب وأساليبها ومعاني مفرداتها، فأهزل وأضعف.

لكنهم يستطيعون القراءة وقد يفهمون مجمل الكلام الوارد في الآية أو الحديث. ومع ذلك فقد تحول الواحد منهم بين عشية وضحاها إلى مجتهد كامل الإجتهاد بل مفتياً، يفتي في الأموال والأعراض والأرواح بجرأة وحرية لم يشتهر بها الأئمة الأربعة الذين قال أحدهم «لا أدري نصف العلم». وكانوا يتهربون من الفتوى هروبهم من الأسد كما قيل. وكانوا إذا ما سئلوا

عن ذلك، قالوا لقد كان الصحابة قبلنا يتهربون من الفتوى وهم أعلم منا وأعرف بالإسلام وبالقرآن والحديث. أما تلامذة هؤلاء السلفية فانهم لا يجدون حرجاً في الحكم أو القضاء في مسائل دقيقة. تحتاج إلى المختصين في الشريعة الإسلامية.

لكن الأدهى والأمر، ليس قيام بعض الطلبة وأنصاف المتعلمين بالإجتهاد والإفتاء فقط. ولكن دخول العوام من الفعلة والحرفيين والتجار في هذا الباب. فما دام قد أصبحوا سلفيين: أطلقوا لحاهم وقصروا ثيابهم وكحلوا عيونهم، فإن شروط الإجتهاد قد كملت فيهم. وليس أصعب على العالم من نقاش هذه الطبقة الجديدة من المجتهدين. يقول الدكتور البوطي:

إن هؤلاء الذي نحب ان نرشدهم إلى الجادة والسبيل القويم، ليس فيهم من يقبل تقليد أي إمام من الأئمة الأربعة وأنما الكل يزعم الأخذ من الكتاب والسنة مباشرة، وطالما رأينا أشباه الأميين من هؤلاء الناس وأن أحدهم لا يقبل على أي حال فتوى إمام من الأئمة الأربعة حتى نكشف له عن دليل هذا الإمام والحديث الذي اعتمده، ثم نشرح له بعد ذلك قوة الدليل وصحته وسند الحديث ومستوى رجاله، كأنه خبير حقاً بعلم السند والأدلة والرجال، فإما صحح مذهب هذا الإمام بعد ذلك أو شطب عليه بالتخطئة والتسفية![٩٣].

□ مذاهب فقهية بالآلاف :

وعليه فإننا اليوم أمام مذاهب فقهية تعد بالآلاف، فكل سلفي، عالم بالشريعة أو أمي هو مشروع مذهب فقهي وأصولي متكامل. وليس ذلك مبالغة منا لأن الواقع يشهد بصحة ما نقول وزيادة.

وهناك ملاحظة أود أن أشير إليها وهي أن الصحوة الإسلامية قبل أن

---

(٩٣) اللامذهبية ، أنظر الهامش ، ص١٥ .

يستلم الوهابيون زمام توجيهها كانت قد انطلقت من الفكر الإخواني المصري في الغالب الأعم، وهذا الفكر كان يدعوا أبناءه إلى الإلتحاق بالمدارس والكليات العلمية، والاجتهاد في التحصيل العلمي الطبيعي لكي يعرف عامة المسلمين والغرب أن الإسلام دين العلم والتقدم. وليس كما يشاع عنه أنه دين الخرافات والتخلف. لذلك فقد شهدت فترة السبعينات سيطرة الإسلاميين الفعلية على المقاعد الأولى في الكليات العلمية وبرز منهم متفوقون ونابغون في الطب وعلوم الفيزياء والرياضيات. وكان هؤلاء إلى جنب ذلك إسلاميون يشاركون في النشاط الدعوي والإسلامي العام.

لكن الإنتكاسة التي عرفها هذا الفكر المتنور والضربة المؤلمة التي وجهها له غزو الفكر السلفي للساحة الإسلامية، قد حولت إتجاه أبناء الصحوة، فبدل الإلتحاق بالمعاهد والكليات العلمية، تم التوجه والانكباب على كليات الدراسات الإسلامية خاصة. بل أصبح متعارفاً لدى أبناء السلفية الإبتعاد عن دراسة العلوم العصرية واللغات الأجنبية لأن ذلك لا يقرب إلى الله(٩٤).

ونحن عندما نشير إلى هذه الحقائق بالذات، فإنما للإشارة إلى أن الكثير من أبناء الصحوة الإسلامية الذين تأثروا بالفكر السلفي وكانوا يتابعون دراساتهم في المدارس أو الجامعات وينتسبون للمعاهد والكليات العلمية. فحضهم من علوم العربية بسيط، ومعرفتهم بالشريعة وتاريخ الإسلام هزيلة. لكنهم وبفضل الفكر السلفي أصبحوا مجتهدين، يتصفح الواحد منهم كتب الحديث ويأخذ منها ما يشاء من أفكار وأحكام، ثم يبدأ في الدعوة والتبليغ وممارسة ما قرأه وما اعتقده. وهذه الفئة صعبة المراس في النقاش، وغير مستعدة للتنازل عما تؤمن به. أما إذا ذكرت لهم سند الحديث وفقه متنه، أو أن اختيار العلماء

---

(٩٤) يقول صاحب كتاب العقيدة الوسطية ، وهو سلفي معاصر معلقاً على قول عمر بن الخطاب «ما تعلم رجل الفارسية الا وخبه وما خب رجل الا ونقضت مروءته» ، يقول هذا السلفي : «بلغ يا أخي هذا الكلام للذين يتعلمون اللغة الإنجليزية»!؟

بخلافه لأنه معلول، بالنسخ أو معارضته لأقوى منه؟ فان كلامك هذا ستذروه الرياح، لأن آذان القوم قد مُلئت وقراً فهم صم عمي لا يعقلون.

إن رفض السلفية لتقليد المذاهب الفقهية، وإعلانهم فتح باب الإجتهاد لكل قارىء غير مختص يمكنه أن يطلع على كتب الحديث والتفسير، تجعل من هذا القارىء مجتهداً. صاحب رأي وفكرة لا يمكنه أن يتنازل عنها بسهولة، خصوصاً إذا علمنا ان غالبية أبناء الصحوة في سن الشباب، حيث تكثر الأمراض الثقافية، والتسابق على الريادة المعرفية، فالشاب منهم غير مستعد للتنازل عن فكرته أو رأيه ليعتنق فكرة صديقه الذي لا يكبره سناً، بل قد يكون أصغر منه؟. وهكذا تضيع الحقيقة، وتنتشر الخلافات والجدالات كقطع الليل المظلم، تلف الساحة الإسلامية مجتمعاً ودينا.

□ فتح باب الاجتهاد :

إن الشبهة التي قد تكون معتمد السلفية، والحجة البالغة التي تستند إليها دعوتهم «اللامذهبية» هي في إعلان فتح باب الإجتهاد الذي أغلقته السياسة، وهذا المشروع كان قد أعلنه كثير من علماء أهل السنة ومثقفيهم، وما زالت الدعوة طرية، تدور حولها النقاشات وتعقد لها المؤتمرات، والكل متفق على أن فتح باب الإجتهاد شرط ضروري لتحقيق الإقلاع الحضاري العام للأمة الإسلامية، أضف إلى ذلك ضرورة الإجتهاد في الدين والحياة.

وبالفعل فقد أثمرت هذه الدعوات، الكثير من النتائج وعلى جميع الأصعدة. وإن لم تكن كافية، لكن التجربة قد إنطلقت منذ مدة ليست قصيرة، والزمن كفيل بتحويل كمها إلى كيف جديد وواعد.

كما أن دعوات التعصب للمذاهب الفقهية، والإلتزام الحرفي بكل ما جاءت به أو احتضنته كتب أصحابها، لم تعد تجد آذاناً صاغية. فقد أجمع أئمة هذه المذاهب على أنه «إذا صح الحديث فهو مذهبي». وعليه فتشبث أي

مقلد (عالم أو أمي) برأي إمامه أو مذهبه الذي يخالف ما ثبت من الحق، أو ما توصل إليه المحققون من صواب وحقائق جديدة غابت عن الأئمة، يعتبر تقهقراً للوراء وانتصاراً للجهل ليس إلا. ومخالفة صريحة لأصول المذهب. وهذه الفئة المتعصبة في تقليد المذاهب ليست ذات شأن اليوم، وسيجرف التغيير والتطور بقاياها الأخيرة. لأن الإجتهاد أصبح ضرورة للإحياء الديني والحضاري العام.

طبعاً وجد من يتعصب لهذه المذاهب، بل يدعي كفر من لم يقلدها، أو خرج عنها، بحجة كذا أو كذا. لكن زلزال الإجتهادات سيحطم كل تلك البناءات الزائفة. والمهم ان علماء أهل السنة مقتنعون بالجملة على فتح باب الإجتهاد وممارسته. للإجابة أولاً على كل المستجدات، وبيان رأي الإسلام فيها. ثم لترتيب وضع المذاهب من الداخل، فما هو مخالف للحق والواقع يتجاوز أو يشطب عليه. أما غير ذلك فيستفاد منه كثروة إجتهادية فقهية وقانونية لا تمتلكها أمة أخرى غير أمة الإسلام.

ونحن عندما نقول فتح باب الإجتهاد، نخص أهل السنة بالذكر، لأن باب الإجتهاد لم يغلق عند الشيعة الإمامية في يوم من الأيام، ولا يزال مفتوحاً. والفقه الشيعي الإمامي مشهود له في الأوساط العلمية والأكاديمية بمواكبة المستجدات العامة على الساحة الإسلامية.

واذا كان أهل السنة يدعون لفتح باب الإجتهاد ويمارسونه، فأين يكمن المشكل مع السلفية الذين يدعون بدورهم إلى الإجتهاد، والذي سيؤدي بالضرورة إلى رفض الكثير من فتاوى وآراء المذاهب الفقهية القديمة. ان الخلاف بينهما في شروط الإجتهاد ومواصفات المجتهد.

فالذين ناصروا في الماضي فكرة إغلاق باب الإجتهاد، تحججوا بقلة العلماء وسيطرة أنصاف المتعلمين على الواقع الديني آنذاك. ولو سُمح لمثل هؤلاء بالإجتهاد لانهدمت أركان الدين، ونُسفت أصول الشريعة، لذلك كان

العلاج في وقف الإجتهاد كما قيل وادعي؟!.

وأهل السنة اليوم عندما ينادون بفتح باب الإجتهاد، لا يقصدون أن يكون ذلك في متناول أطفال المدارس وشباب الصحوة الإسلامية. من المراهقين وأنصاف المتعلمين. وإنما يؤمنون بأكثر الشروط التي وضعها القدماء للإجتهاد. بخلاف السلفية الذين يدعون عامة الناس للإجتهاد وتحصيل الأحكام الدينية من مصادرها الأصلية (الكتاب والسنة).

□ **شروط الإجتـــهاد :**

يقول محمد نوري «إن الإجتهاد أمر مشروع باجماع من يعتد بأقوالهم من علماء المسلمين، وثبت بالسنة المطهرة، ولكن لأهله..»[٩٥].

قال الأسنوي: شرط الإجتهاد كون المكلف متمكنا من استنباط الأحكام الشرعية. ولا يحصل هذا التمكن الا بمعرفة أمور:

(أحدها) كتاب الله تعالى، ولا يشترط معرفة جميعه، كما جزم به الإمام الرازي وغيره، بل يشترط أن يعرف منه ما يتعلق بالأحكام، وهو خمسمائة آية كما قاله الإمام. قال: ولا يشترط حفظه عن ظهر قلب، بل يكفي أن يكون عارفاً بموقعه حتى يرجع اليه في وقت الحاجة.

(الثاني) سنة رسول الله(ص)، ولا يشترط أيضاً فيها الحفظ ولا معرفة الجميع.

(الثالث) الإجماع فينبغي أن يعرف المسائل المجمع عليها حتى لا يفتي خلاف الإجماع.

(الرابع) القياس. فلا بد أن يعرفه ويعرف شرائطه المعتبرة، لأنه قاعدة الإجتهاد، والموصل إلى تفاصيل الأحكام التي لا حصر لها.

---

(٩٥) ردود على شبهات السلفية ، ص٣٤٣.

(الخامس) كيفية النظر فيشترط أن يعرف شرائط الحدود والبراهين، وكيفية تركيب مقدماتها، واستنتاج المطلوب منها، ليأمن من الخطأ في نظره.

(السادس) علم العربية من اللغة والنحو والتصريف، لأن الأدلة من الكتاب والسنة عربية الدلالة، فلا يمكن استنباط الأحكام منها الا بفهم كلام العرب إفراداً وتركيباً، ومن هذه الجهة يعرف العموم والخصوص، والحقيقية والمجاز[٩٦]، والاطلاق والتقييد، وغيره.

(السابع) معرفة الناسخ والمنسوخ، لئلا يحكم بالمنسوخ المتروك.

(الثامن) معرفة حال الرواة، إلا أن أحوالهم في زماننا تعرف من الكتب المؤلفة في ذلك..»[٩٧].

هذه هي شروط الإجتهاد عند أهل السنة والتي لا يعرف عنها مجتهدوا السلفية من العوام وانصاف المتعملين شيئاً. وهي شروط علمية لابد من تحصيلها ليتمكن المجتهد من إستنباط الأحكام والقول في دين الله بعلم وهدى.

أما الشيعة الإمامية فيرون أنه يجب على أنه يجب على كل مكلف غير بالغ مرتبة الإجتهاد في غير الضروريات من عباداته ومعاملاته ولو في المستحبات والمباحات أن يكون إما مقلداً أو محتاطاً بشرط أن يعرف موارد

---

(٩٦) يقول محمد نوري الديرثوي : «بلغنا أن عبدالعزيز بن باز الضرير، رئيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، كان يدرس في الحرم النبوي على ساكنه الصلاة والسلام، وتطرق يوماً لموضوع الحقيقة والمجاز، وادعى استحالة وقوع المجاز في الكتاب والسنة، بحجة أنه لا يقصد منه معناه الحقيقي، فهو اذن كذب، والكذب مُحال الوقوع في الكتاب والسنة. فقام أحد المسلمين السوريين الموجودين هناك وقال: ما رأي الأستاذ في قوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾، يعني أنه إذا فسرنا الأعمى بفاقد البصر على الحقيقة، ولم نقل: أن المراد به من كان قلبه أعمى عن أدراك الحق، على المعنى المجازي، فماذا يكون مصيرك يوم القيامة وأنت فاقد البصر في الدنيا؟ قال: فبهت وسكت» أنظر المرجع السابق ، ص٣٤٧ ، الهامش.

(٩٧) المرجع السابق ، ص٣٤٦ - ٣٤٧ . عن نهاية السؤل ، للأسنوي : ٣ / ٢٠٠ ـ ٢٠١.

الاحتياط، ولايعرف ذلك إلا القليل، فعمل العامي غير العارف بمواضع الاحتياط من غير تقليد باطل[98].

ويقول الشيخ السبحاني: «للإجتهاد مؤهلات وشرائط محررة في محلها، أعظمها وجود ملكة قدسية يقتدر معها الإنسان على استخراج الفروع عن الأصول ، وأما الإفتاء بالحكم على ضوء النص الصريح الوارد فيه فليس إلا مرتبة ضعيفة من الإجتهاد. والإجتهاد المطلق يستدعي ذهناً وقاداً مشققاً للفروع ومستخرجاً إياها من الأصول إلى غير ذلك مما يقوم به أئمة الفقه»[99].

وبما أن باب الإجتهاد لم يقفل عند الإمامية، فإن عامة الشيعة ومتعلميهم وطلبة العلوم الشرعية يقلدون الفقهاء المجتهدين. فكل فقيه وصل درجة الإجتهاد بعد تحصيل شروطه، يحق له أن يكتب فتاويه ويصدرها على شكل مسائل مرتبة ومبوبة تشمل جميع القضايا الدينية والحياتية، من الوضوء والطهارات، إلى أدق المسائل والمشكلات التي تواجه المسلم الشيعي في حياته اليومية.

لذلك من النادر جداً أن يخلو البيت الشيعي من هذه الكتب الخاصة بالمسائل والفتاوي. وعليه فالخلافات والإختلافات في الفروع الفقهية تكاد تنعدم في المجتمع الشيعي الإمامي، لأن غالبية الناس تُقلد الفقهاء المجتهدين، وهم بكثرة في الحوزات (المدارس) العلمية. ولن تجد قارئاً أو مفكراً أو عالماً مهماً بلغ علمه وثقافته يفتي الناس في الأمور الفقهية إن لم يكن فقيها مجتهداً مشهوداً له بالفقاهة والعلم. فتجد الرجل منهم متبحراً في علوم العربية وله ثقافة إسلامية واسعة، لكنه يقلد أحد المراجع - الفقهاء المجتهدون

(98) تحرير الوسيلة ، آية الله العظمى السيد روح الله الموسوي الخميني ، ج1 ، فروع التقليد ، ص 5 .

(99) السبحاني ، م س ، ج1 ص313 .

- ويحتفظ لنفسه بنسخة من فتاويه ليتعبد بها.

هناك بالطبع اختلافات بين المقلِّدين الذين تتقاسمهم مرجعيات متعددة، لكن المجتمع الإمامي يعيش انسجاماً على مستوى التعبد والإلتزام بالواجبات الإسلامية. كما كان عليه أهل السنة سابقاً، هذا الفريق يقلد الإمام مالك، وهذا الفريق يقلد الشافعي، وآخر يقلد مجتهداً ثالثا.

هناك مذاهب إجتهادية محددة وواضحة المعالم، يقف وراءها فقهاء ومجتهدون حرفتهم الفقه، وشغلهم الإجتهاد والإستنباط، ودراسة العلوم الإسلامية للتبحر فيها واستيعاب قضاياها.

فالإمامي إما أن يكون مقلداً مهما كانت درجة أعلميته وثقافته. وإما مجتهداً يستطيع استنباط الأحكام لنفسه أو لغيره من المقلدين. أما ماهو موجود الآن في مساجد ومنتديات غير الشيعة، من الإختلافات الكثيرة حول الوضوء والصلاة واللباس والأكل وغير ذلك. فلا وجود له بتاتاً لدى الإمامية.

إن الدعوة إلى نبذ التقليد، ومطالبة الناس بأخذ الأحكام الدينية مباشرة من الكتاب والسنة، دعوة فيها الكثير من المغالطات، لكن يراد بها أن تحقق بعض الأهداف، وهي فعلاً سائرة نحو تحقيق ذلك.

وهي بدعة منكرة لم يعرفها السلف الصالح الذين وضعوا أسس الإجتهاد والتقليد. ولم يسمع من أحدهم أنه طلب من كافة الناس أن يقرأوا الأحاديث والتفاسير، وأن يعملوا بما يصلون إليه. ولكن عُلم أن الجاهل منهم كان يرجع للعالم، كانت الناس ترجع للصحابة بعد رسول الله(ص) يسألونهم الحكم ورأي الإسلام في كل قضية، وكذا مع التابعين. وليس التقليد سوى ذلك، رجوع الجاهل للعالم. ولما ظهر الأئمة والفقهاء المختصون قعدّوا القواعد، وأصبح الإجتهاد علماً دقيقاً ومتفرعاً، غير متيسر لأي كان أن يبلغ درجته. وهذه معلومات تاريخية تملأ بطون الكتب ولا يمكن التنكر لها.

ويكفي أن نذكر السلفية بما قاله زعيمهم وإمام مذهبهم أحمد بن حنبل

بخصوص الإجتهاد. فعن الحسين بن اسماعيل قال: قيل لأحمد بن حنبل وأنا أسمع: ياأباعبدالله كم يكتب الرجل حتى يمكنه ان يفتي؟ يكفيه مائة ألف؟ قال: لا، قيل له: مائتاً ألف؟ قال: لا، قيل: ثلاثمائة ألف؟ قال لا، قيل: أربعمائة ألف؟ قال: لا، قيل: خمسمائة ألف؟ قال: أرجو»(١٠٠).

فهذا إمام السلفية يرجو لمن كتب نصف مليون حديث أن يتمكن من الإفتاء. ودعاة السلفية يطلبون من العامة وأنصاف المتعلمين ممن لم يقرأ في حياته أربعين حديثاً نبوياً، أن يجتهد ويأخذ الأحكام بنفسه من المصادر.

إن سيرة إبن تيمية وتلميذه إبن قيم الجوزية وما كتباه بخصوص التقليد والاجتهاد، لا يمكن ان يستدل بهما على ما تدعو السلفية إليه اليوم. لأن إبن تيمية اذا كان قد رفض تقليد الأئمة الأربعة فلأنه رأى في نفسه القدرة على الاجتهاد، وقد كان واسع الإطلاع على كتب الحديث والفقه، مشتغلاً بتحصيل هذين العلمين وغيرهما. ومهما قيل عن اجتهاداته فإنه لم يكن عامياً وكذا تلميذه، وهما معا متفقان على أن الجاهل يرجع للعالم، وأن العامي لابد له من الرجوع إلى الفقيه العالم اذا أراد معرفة مسألة معينة، لأنه قاصر على الوصول إليها وحده!.

إن النقاش في هذه القضية مستفيض وشائك، لكن يمكن اختصاره في جملة واحدة وهي قوله تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾. وأبناء الصحوة الإسلامية اذا لم يكن الواحد منهم مختصاً، فقيهاً مجتهداً، فهو لا يعلم، وعليه الرجوع إلى أهل الذكر. إلى العلماء والفقهاء. ولا يكفي فهمه للحديث إن كان قارئاً، فقد يكون الحديث ضعيفاً. قد يكون هناك حديث أو أحاديث أخرى في نفس القضية تنسخ هذا الحديث وتلغي مضمونه، وقد يحتاج الحديث إلى معرفة سبب وروده لكي يعرف مضمونه

(١٠٠) طبقات الحنابلة ، م س ، ص١٠٠ ــ ١٠١ .

وقصده بالتحديد وقد؟ وقد؟. وإلا علينا أن نلقي بكتب علوم الحديث وعلوم القرآن، وعلوم العربية وغيرها في البحر، لأن لا فائدة من ورائها!؟.

والذي يطلع على واقع الصحوة الإسلامية في هذا الميدان بالذات، لا يسعه إلا أن يدعو لتقليد المذاهب، بل يتعصب في الدعوة لها. وذلك لأن الخرق قد اتسع على الراقع في أمور جزئية كان قد انتهي منها. فكما قال ذلك الفقيه المالكي إن القبض في الصلاة ووضع اليد على الأخرى له سبعة عشر صورة فأيهم نأخذ بها؟! وعندما تدخل مسجداً من المساجد تكاد لاتجد شخصاً يتفق مع غيره في وضع اليد، التي تبدأ أوضاعها من تحت الصرة وإلى العنق؟!.

أما فهم أحكام الإسلام ومقاصد الشريعة فإن المراهقين يتصدرون المجالس لبيان حكم الإسلام في أدق القضايا المرتبطة بمصير الأمة الإسلامية، وفي جرأة لم يعرف التاريخ لها مثيل، يفصلون ويحكمون، دون الرجوع إلى مصدر عليم.

وتحضرني قصة رواها لي أحد الأصدقاء عن داعية سلفي شاب، استطاع أن يقنع فرنسياً بالإسلام وفعلاً اطلع هذا الفرنسي على بعض الكتب وإنشرح صدره لإعتناق الإسلام. وبعد أيام من إعتناق هذا الرجل للإسلام، جاءه هذا السلفي واخبره ـ وقد كان الفرنسي يعمل مصوراً ويعشق مهنته ـ بأن عليه أن يترك مهنة التصوير، لأن هذه المهنة محرمة في الإسلام. ناقش الفرنسي هذا الداعية السلفي في حكم الإسلام، وهل حقيقة أنه يحرم ولا يجوز الإشتغال بمهنة التصوير الفوتغرافي، فكان رد السلفي حاسماً قاطعاً، إن دخولك في الإسلام يعني إلغاء مهنتك. فما كان من الفرنسي إلا أن تراجع عن اعتناقه للإسلام لأنه يحب مهنته ولا يرى أي تعارض بينها وبين الإيمان بالله أو إعتناق الإسلام.

ان فقه السنة ومعرفة مقاصد الشريعة، والإطلاع على تاريخ التشريع،

يجلي الغموض حول الكثير من القضايا المختلف فيها، ولا يتم ذلك بالنسبة للأغلبية إلا بسؤال أهل الذكر كما قال تعالى.

وقد سئل أمير أهل الذكر علي بن أبي طالب يوماً عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود» فقال عليه السلام: إنما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدين قُلٌّ، فأما الآن وقد إتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار..»[101].

أنظر فقه الحديث، عندما يسأل الناس علماء هذه الأمة وعارفيها. ولو قرأ هذا الحديث سلفي من نجد، لطفق يكفر كل من يتشبه باليهود في مظهرهم.

أما عندما يقرأ السلفيون بعض الأحاديث الواردة في المرأة والتي نعتقد أن الكثير منها لا يحكي رأي الإسلام، وإنما وجهة نظر الأعراب الذين اختلقوا هذه الأحاديث ونسبوها للرسول(ص). فإن الدهشة والعجب تمتلكنا، فهم يمنعونها من سياقة السيارة ومن العمل إلا في النادر، بل منهم من لا يؤمن بتعليمها أو تحصيلها العلم، وذلك لوجود أحاديث في ذلك خوفاً عليها من الفتنة. وغير ذلك مما يعرفه الجميع.

إن الدعوة إلى تجاوز المذاهب الفقهية، قد أحدثت بلبلة كبيرة في الساحة الإسلامية وفتحت الأبواب للأهواء المختلفة والمتضاربة لكي تصبح ديناً يُتعبد به، وحكماً شرعياً في الأرواح والأموال والأعراض.

ففي الجزائر ومصر اليوم شباب مراهق يصدر فتاوى القتل بسهولة ويسر. والفضل للمنهج السلفي الذي جعل منهم فقهاء مجتهدين دون عناء يذكر، والفضل كذلك وفي الأساس يرجع لإبن تيمية الحراني قدوة هؤلاء الشباب ومثالهم المحتذى. لذلك لم يعد الحقيقة ذلك الكاتب المصري الذي قال إن إبن تيمية هو الذي قتل أنور السادات!!.

---

(101) شرح نهج البلاغة ، للشيخ محمد عبده ، منشورات الأعلمي ، ج٤ ، ص٥ .

أما عن الأهداف الإستراتيجية التي سيصل إليها دعاة اللامذهبية فهي بالنتيجة القضاء النهائي على المذاهب الفقهية والأصولية لأهل السنة، فالمذهب الحنبلي السلفي في طريقه لإبتلاع هذه المذاهب. وهذه الفوضى الفقهية والفتوائية إنما تعبر عن مرحلة إنتقالية، مرحلة الهدم من أجل البناء. هذا البناء الجديد الذي يراد له أن ينطلق من مملكة السلفيين، ويتحكم في جميع أطراف الرقعة الجغرافية والدينية لأهل السنة والجماعة.

أما الشيعة الإمامية فإن السلفيين لم ولن يستطيعوا أن يخترقوا سدهم المنيع، مهما طبعوا من كتب وروجوا من أكاذيب حول كفرهم ويهوديتهم وعدائهم للإسلام والمسلمين.

إنما الخوف على مذاهب أهل السنة التي بدأت فعلاً تلفظ أنفاسها الأخيرة. لكن السلفيين لن يتركوا الساحة السنية تنعم بهذه الفوضى الفقهية طويلاً، لأن الغرض من هدم المذاهب القديمة لتحل محلها المذاهب الجديدة، مذاهب تصنع في نجد والرياض، وتوزع على باقي أنحاء العالم الإسلامي. ومن يخالف أو يجادل أو يرفض ويعترض فإن ألف وسيلة ووسيلة قد وجدت وتوجد لإسكاته وازاحته من الطريق، ومن بينها بلا شك جنود معاوية الغارقة في العسل.

وأخيراً نقول لضحايا المكر السلفي: «إن البسطاء الذين تركوا تقليد الأئمة المجتهدين لم يخرجوا من ربقة التقليد، وإنما هم قلدوا أناساً منحرفين، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وجعلوا تحذير الرسول عليه الصلاة والسلام عن أخذ الدين والعلم من أمثال هؤلاء المنحرفين، وراءهم ظهرياً. روى مسلم عن إبن سيرين مقطوعاً «إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم» [صحيح مسلم، ١/١٤]. ورروي الإمام أحمد عن شداد بن أوس: ان النبي(ص) قال: «إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة»[١٠٢].

(١٠٢) أنظر المسند ، ج٤ ، ص١٢٣و ٢٠٤ ، ردود على السلفية ، م س ، ص ٣٤٥ .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثاني

مع الشيعة الإمامية



«لو كنا نعلم أنهم يقتنعون بالحجة البالغة، ويخضعون للأدلة القاطعة، لملأنا الطوامير من الحجج الباهرة التي تترك الحق أضحى من ذكاء، وأجلى من صفحة السماء. ولكن سلطان نجد له حجتان قاطعتان عليهما يعتمد، واليهما يستند، ولا فائدة إلا بمقابلتهما أو اقوى منهما، وهما الحسام البتار والدرهم والدينار...».

[الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء]


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

جذور الصراع

□ محنة الشيعة والتشيع :

تشهد الساحة الإسلامية حالياً صراعاً عقائدياً مريراً بين السلفية الوهابية والشيعة الإمامية. عمق الكراهية والنفور بين فئات عريضة من المجتمع الإسلامي، وينذر بعواقب وخيمة، إن سمح له بالتطور والإنتشار. وهذا الصراع الفكري والعقائدي ليس وليد اليوم أو الساعة، بل له جذور عميقة في التاريخ الإسلامي، تاريخ الخلافة، ونشوء المذاهب وتصارعها للإستحواذ والسيطرة على عقول ووجدان الجماهير الغفيرة، التي عاشت تحت مظلة الحضارة الإسلامية.

لقد بدأت محنة الشيعة الإمامية مباشرة بعد وفاة الرسول، وانتصار الخلافة على الإمامة. حيث وقف علي بن ابي طالب فارس الإسلام وسيفه الذي قطع دابر المشركين، موقفاً مناهضاً للحكم الجديد، معلنا معارضته ورفضه الدخول فيما دخلت فيه قريش. معلناً أن الرسول(ص) قد نص على إمامته وأنه الخليفة الشرعي للإسلام والمسلمين، وأن الذين أخذوا لنفسهم البيعة من المسلمين، يعلمون ذلك جيداً.

لم يكن علي بن ابي طالب وحده في هذه المعارضة، بل وقفت إلى جانبه زوجه فاطمة بنت رسول الله(ص)، وأعلنت في الملأ بأن زوجها هو الخليفة الشرعي للمسلمين، ولم تكتف بذلك بل قامت بحملة واسعة، تزور بيوت «الأنصار» وتذكرهم بما ورد في حق زوجها أبي الحسن من أحاديث وأقوال أبيها(ص). لكن دعوتها ذهبت أدراج الرياح لأن القوم كانوا يردون عليها

بأنهم قد بايعوا أبا بكر، ولو جاءت قبل ذلك، لما حادوا عن بيعة زوجها؟.

قالت إن القوم أخذوا البيعة لأنفسهم في الوقت الذي كان علي بن أبي طالب يجهز الرسول ويغسله، أفهل يصح أن يترك جسد نبي الله مسجى في بيته ويذهب يطلب ملكه وخلافته؟! قبل دفنه وتجهيز جنازته؟!.

□ فدك المغتصبة :

إن إبنة محمد بن عبدالله(ص) وريحانته لم تستطع أن تحصل على «فدك»[1] وهي نحلة كان نحلها إياها رسول الله، فإمتلكتها في حياته واستفادت من ريعها وهو عليه الصلاة والسلام حي يرزق. وقد علم بذلك الخاص والعام. لكن الخلافة الجديدة انتزعتها منها بحجة أنها إرث لرسول الله، والأنبياء لا تورث. فكيف وقد فشلت باقناع القوم بخصوص ما تمتلكه،

---

(١) فدك: قرية في الحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة وهي أرض يهودية في مطلع تاريخها المأثور. كانت ملكاً لرسول الله(ص) لأنها مما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، ثم قدمها لإبنته الزهراء، وبقيت عندها حتى توفي أبوها(ص). فانتزعها الخليفة الأول منها وأصبحت من مصادر المالية العامة وموارد ثروة الدولة يومذاك، حتى تولى عمر الخلافة فدفع فدكاً إلى ورثة رسول الله(ص)، وبقيت فدك عند آل محمد(ص)، إلى أن تولى الخلافة عثمان فأقطعها مروان بن الحكم، ثم توالى على ملكيتها بنو أمية إلى أن تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة فرد فدك إلى ولد فاطمة، ثم انتزعها منهم يزيد بن عبدالملك، وبقية لدى بني أمية إلى أن انقرض ملكهم، وبعد قيام دولة العباسيين قام أبو العباس السفاح بردها إلى أبناء فاطمة، وبقيت فدك، خليفة يقبضها وخليفة يرجعها إلى ورثتها إلى سنة(٢١٠هـ) حيث أمر المأمون العباسي بردها لأولاد فاطمة لأنها حقهم الشرعي، ولما ولي المتوكل الخلافة إنتزعها منهم من جديد. أنظر لمزيد من التفصيل محمد باقر الصدر «فدك في التاريخ». والغريب في الأمر أن الخلفاء الذين أرجعوها لبني فاطمة وعلى رأسهم عمر بن عبدالعزيز قد ضربوا بالحديث الذي رواه أبو بكر الصديق واعتمده في أخذ فدك من فاطمة، عرض الحائط وهو قوله (نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة)، فلو صح لديهم لما كان لهم أن يرجعوها إلى أبناء فاطمة ولبقيت ضمن أموال بيت المال؟!

هل تستطيع أن تقنعهم بإمامة زوجها[٢]؟!.

لقد رجعت بنت رسول الله(ص) إلى بيتها، تذرف الدمع الغزير، تبكي مظلوميتها، والإجحاف الذي يتعرض له زوجها، فقريش قد قلبت لهما معاً ظهر المجن. خلفاء الرسول الجدد يقولون لعلي بن أبي طالب بعدما تقدم مطالباً بالإمامة، إن قريشاً لا ترغب في ان تجمعوا النبوة والإمامة؟! وإنها قد اختارت، وأحسنت الإختيار.

وبعدما يئست بنت الرسول من تحصيل حقها وحق زوجها، خلدت إلى البكاء والنحيب، بكاءً أزعج الحكام الجدد وضايقهم، لكنه لم يستمر طويلاً، لأنها ستلحق بأبيها(ص)، وستطلب من زوجها أن تدفن ليلا، وألا يصلي عليها من تنكروا لحقها في «فدك» وحق زوجها في «الخلافة». ماتت فاطمة بعدما أعلنت للجميع بأنها غاضبة. على من إنتزع ملكها[٣]. وأنها سلمت أمرها لله العادل: «فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون..»[٤].

(٢) يذهب بعض المحققين المعاصرين إلى أن تصديقهم للزهراء بامتلاك «فدك» وإعطائهم إياها كان سيحرجهم في عدم تصديقها بعد ذلك في قضية الخلافة والإمامة. لأنها كانت تؤمن بأن زوجها علي بن أبي طالب منصوص على إمامته من طرف أبيها(ص). لذلك جاء الرفض لكلا المطلبين. لكن الخلفاء الذين سيأتون بعد ذلك سيعيدونها لأبنائها وسيعترفون لها بحقها وذلك لأن المطالبة بفدك لم تعد مرتبطة بدعوى المطالبة بالإمامة.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه في الجزء الرابع من كتاب بدء الخلق في باب منقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وسلم. قال: حدثنا أبو الوليد إبن عيينة عن عمرو بن دينار عن إبن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني. فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما أذاها». أنظر فاسألوا أهل الذكر، الدكتور محمد التيجاني السماوي ، ص١٨٧ ـ ١٨٨ .

(٤) مقطع من خطبة الزهراء الطويلة في مسجد رسول الله تخاطب القوم وتحاججهم وتبين خطأهم تقول: «.. أيها المسلمون أأغلب على إرثي؟ يا إبن أبي قحافة أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً! أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه =

إلى جانب فاطمة عليها السلام وقف بنو هاشم وعدد من الصحابة في صف علي بن أبي طالب، وساندوا دعوته وأحقيته في الخلافة. على رأسهم سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وغيرهم. لكن الظروف والمستجدات لم تخدم هذه المعارضة. فبعيد وفاة الزهراء بقليل إنطلقت موجة الردة، التي كادت تعصف بالكيان الإسلامي الجديد. فما كان من علي إلا أن دخل فيما دخل فيه الناس واعلن هدنته للحكم الجديد، الذي سارع للقضاء على هذه الفتنة الدينية والسياسية.

□ حروب التأويل :

إن علياً وحزبه من الصحابة ومن تبعهم ووافقهم، لم ينسوا ابداً أنهم على حق. وان النظام السياسي للإسلام ليس «الخلافة» وإنما الإمامة، إمامة علي وبنيه. لذلك لما أخرج الثوار ـ الذين قتلوا عثمان ـ الإمام علي بن أبي طالب وبايعوه بيعة عامة، كان الشعور السائد في الوسط الإسلامي آنذاك، أن المياه قد رجعت إلى مجاريها. وان الإمامة التي أزيحت عن الحكم ٢٤ سنة، قد أعيدت لمكانها. وبدأ حكم الإمام علي وسط عواصف هوجاء بدأت تهب من هنا وهناك، فطلحة والزبير اللذان بايعا الإمام، في المدينة، تسللا إلى مكة ليقنعا أم المؤمنين عائشة بالخروج معهما لحرب علي، وقتل قتلة عثمان. فاستجابت لهما وقادت حرب الجمل التي حصدت ألوفا من أرواح المسلمين

= وراء ظهوركم؟ اذ يقول ﴿وورث سليمان داوود﴾... وزعمتم أن لاحظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية اخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إنّ أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنت أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك...».

أنظر الإحتجاج للطبرسي مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ط٢ ١٩٨٣م ، ج١، ص١٠٢ . وهذه الخطبة طويلة، وتثير الكثير من القضايا الحساسة في تاريخ الإسلام ، وقد تناولها بعض الباحثين بالدراسة والتحليل.

وعمقت شرخ الإختلاف بينهم.

أما بني أمية الذين استفادوا كثيراً من خلافة عثمان، فقد شعروا بأنهم على وشك أن يخسروا كل شيء. لقد قتل عثمان لأنه وزع أموال المسلمين على بني أمية، والآن جاء الوقت لاسترجاعها منهم. والإقتصاص لكل المظالم التي اقترفتها أيديهم. وكان الإمام علي عازماً على تطبيق العدل الإسلامي بحذافيره. وأول ما فعل أقال ولاة عثمان على الأقاليم، ووضع غيرهم.

لكن معاوية الأموي رفض الإقالة وأعلن العصيان على الإمام علي ولم يدخل في بيعته، بل أعلن خروجه للمطالبة بدم عثمان والقبض على قتلته. وهو الذي لم ينجده لما طلب نجدته، بل ترك الثوار يجهزون عليه. لقد استفاد معاوية بن ابي سفيان من جهل أهل الشام الذين لم يكونوا يعرفون عن علي وأهل بيت الرسول شيئاً. بل إن فهمهم للإسلام لم يكن بالمستوى الذي يميزون به بين الحق والباطل. وإذا كان الخليفتان الثاني والثالث قد أطلقا يده في حكم الشام. فإنه قد توج نفسه ملكاً، وتصرف تصرف الملوك والأباطرة. ولم يُعر للدين الجديد الإهتمام المطلوب لنشره أو ترسيخه في نفوس الجماهير الشامية.

لقد أثمرت هذه السياسة الأموية ما كان مطلوباً منها، فجهز معاوية جيش الشام الذي كان حسب قوله «لا يفرق أصحابه بين الناقة والبعير» وبدأت الحرب، حرب الدجل والخداع، حرب لا أخلاقية إستخدم فيها معاوية كل الأساليب الغير مشروعة، لإجهاض نموذج الإمامة في السياسة، الذي بدأ الإمام علي يؤسس له، حيث أعاد إلى الأذهان والواقع كل الأحاديث التي رويت في فضله وفي أحقيته في الإمامة والخلافة، وأعطى الأدلة الواقعية على ذلك، من علمه وحلمه وحكمته، وقدرته على الحكم والفصل في أدق المسائل وأعقدها.

لقد إنتهت «حروب التأويل» التي خاضها الإمام بمقتله في المحراب وهو

يصلي على يد أعرابي جلف لم يعرف الحق يوما، فيعرف أصحابه. بل اختلطت عليه المعالم هو وصحبه الذين طلبوا الحق فاخطأوه. فمكنوا للباطل ودعموه. قتل علي بن أبي طالب بيد الجهل والغباء، فماتت معه آمال عريضة في التغيير، وتحقيق العدالة الإسلامية، وأجهض النموذج السياسي الذي بشر به الإسلام. رحل علي عليه السلام، ودفنت مع جثمانه الطاهر، حقائق كثيرة، وأجوبة متعددة لمسائل مازلنا لم نجد لها جواباً إلى الآن.

فاز الإمام علي بالشهادة، لكن الأمة خسرت الكثير، من العلم والمعرفة والحقيقة، كان عليه السلام يخاطب رعيته «إسألوني قبل أن تفقدوني» فكان البعض منهم يتقدم إليه سائلاً عن النملة التي أنذرت قومها من جيش سليمان هل كانت ذكراً أم أنثى؟!.

كان علي يريد أن يغير[٥]، أن يعيد الأمور، كل الأمور إلى نصابها، أن يعلم الأمة التأويل الحقيقي والواقعي للوحي، وان يجسد المثال والقدوة للإنسان الكامل الذي دعت الأديان لصنعه وإخراجه إلى حيز الوجود الواقعي.

لكن رياح الأهواء والجهل، وقفت سداً منيعاً أمام طموح الإمام. فلم يحقق من طموحه الا النزر؟ القليل، وان كان قد استطاع ان يقف على منابر الكوفة معلناً للجميع أنه الإمام الذي اختاره الإسلام، وأنه وليس غيره، الخليفة الشرعي لرسول رب العالمين. يقول عليه السلام «.. لقد قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ وان رأسه لعلى صدري. ولقد سالت نفسه في كفي، فأمررتها على وجهي. ولقد ولّيت غسله ـ صلى الله عليه وآله ـ والملائكة أعواني، فضجت الدار والأفنية، ملأ يهبط، وملأ يعرج، وما فَارَقَتْ سمعي هينمة منهم، يصلون عليه حتى واريناه في ضريحه. فمن ذا أحق به مني حياً

(٥) قال عليه السلام في احدى خطبه: «لو قد استوت قدماي من هذه المضاحض لغيرت أشياء» أنظر شرح نهج البلاغة لمحمد عبده، منشورات الأعلمي، ج٤، ص٦٦.

وميتاً؟ فانفذوا على بصائركم..»[٦].

وغير ذلك من الخطب والمواقف التي صرح فيها بأنه الوصي والخليفة الشرعي. لقد جاءت تصريحاته وخطبه لتعيد إلى الأذهان من جديد مشكل خلافة الرسول الذي كان قد غض الطرف عنه بعدما انشغل المسلمون في حروب الردة. فآمن الكثير من المسلمين بإمامته وأحقيته، وصرح بذلك بعض الصحابة الذين لم يكونوا يستطيعون إعلان ذلك. وعليه فلم تعد موالاة علي تقتصر على بني هاشم ولفيف من الصحابة. بل أصبحت الموالاة عامة، تشمل فئة عريضة من المجتمع الإسلامي، وخصوصاً في الكوفة وأقاليم العراق. لأن الإمام كان قد نقل مركز الخلافة إلى هناك.

هذه الفئة التي ستصبح بعد ذلك تياراً متميزاً، بعدما استحوذ بنو أمية على الخلافة وحولوها إلى ملك عضوض.

□ انطلاق حروب الإستئصال:

لقد كان انتصار معاوية واستلامه الخلافة من الحسن بن علي، الإعلان الرسمي لشن الحرب على أتباع علي بن أبي طالب ومناصريه، وكل من آمن بخلافته وإمامته. فقُتل الإمام الحسن مسموماً على يد معاوية. وتبعه قتل وتشريد كل من عرف بموالاته علياً واهل بيته. قطعت الأيدي وسُملت الأعين، وهدمت المنازل على أصحابها وأعلنت البراءة من أتباع علي ومحبيه، ومنعوا أرزاقهم من بيت مال المسلمين[٧]، وقتلوا أينما وجدوا. لم يقتصر القتل على عامة الناس بل قتل معاوية بعضاً من كبار الصحابة مثل حجر بن

(٦) شرح نهج البلاغة ، الدكتور صبحي صالح ، الخطبة ١٩٧ ، ص٣١١.

(٧) جاء في العقد الفريد عن معاوية بن ابي سفيان قوله: «انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه ورزقه». وجاء فيه كذلك «من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره» ، إبن عبد ربه ، ج٤ ص٣٦٦.

عدي واصحابه الذين امتنعوا عن لعن الإمام علي[٨]. وهكذا سن الأمويون لعن الإمام على المنابر طوال فترة حكمهم. وسالت دماء الشيعة والموالين في كل بقعة ومكان. وعوملوا بشدة وقسوة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. وتبع ذلك تحريف واسع النطاق للإسلام ووقائعه التاريخية.

تتبع معاوية أفعال الإمام علي وأقواله وتاريخه الجهادي، فأمر الرواة الكذبة بتحريف كل ما ورد في ذلك وظهر للوجود كم هائل من الأحاديث والروايات تشرع، تحلل وتحرم، وتزيف تاريخ الدعوة الإسلامية. وقد كان معاوية وبنو أمية من بعده كرماء أسخياء في دعم هذه الحركة، حركة التزوير الكبير للإسلام وتاريخ رجالاته.

أما الإمام علي فقد كان يعلم ما سيقع بعد موته من استيلاء بني أمية على الحكم، لأن الرسول(ص) كان قد أخبره بذلك قبل موته. يقول عليه السلام: «... إنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته. ولا أنفق منه إذا حرف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر! فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان

(٨) قتل معاوية إبن أبي سفيان حجر بن عدي وثلاثة عشر من أصحابه في مرج عذراء قرب دمشق وقد روي عن الرسول(ص): «سيقتل في عذراء سبعة نفر يغضب الله لهم وأهل السماء» وقد عاتبت أم المؤمنين عائشة معاوية على قتلهم فقال أنه قدر محتوم. ومن المحزن حقاً والباعث على الأسى الكبير، ان حجر بن عدي كان أول من وطأت قدمه هذه المنطقة فاتحاً في سبيل الله. وقد قال لما وصلها مكبلا في الحديد: «الحمد لله. أما والله إني لأول مسلم نبحت عليه كلابها، ثم انا اليوم أحمل مصفوداً إليها». قتل هذا الصحابي بسيف معاوية، وقبله قتل إبنه همام أمام عينيه لكن عزاءه كان فيما سمعه من رسول الله(ص): «ياحجر تقتل في محبة علي صبراً، فإذا وصل رأسك إلى الأرض مادت وأنبعت عين ماء، فغسلت الرأس». أنظر حجر بن عدي الثائر الشهيد ، محمد فوزي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت.

منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يُؤويهما مُؤو. فالكتاب واهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم! لان الضلالة لا توافق الهدى، وان إجتمعاً. فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا إسمه، ولا يعرفون إلاخطه وزبره. ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثله، وسموا صدقهم على الله فرية، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة..»[٩].

□ ظلم بني أمية وعدل بني العباس؟! :

وبهذا الكلام يكون الإمام علي عليه السلام قد وصف عصر بني أمية بشكل مجمل وواقعي «فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان»؟!. لقد قتل معاوية الإمام الحسن، وقتل إبنه يزيد الإمام حسين في واقعة كربلاء. واستمر القتل في الشيعة وأئمتهم الواحد بعد الآخر، حتى قال قائلهم «ان القتل أصبح لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة»، وقولهم «ما منا إلا مقتول أو مسموم». وهكذا كان الحكم الأموي وبالاً على الإسلام والشيعة، واكتوى بناره غيرهم، ففي وقعة الحرة بالمدينة المنورة قتل الآلاف من التابعين، وهتكت أعراض نساء المسلمين، لأنهم رفضوا بيعة يزيد، فكان جزاؤهم ما هو مسطور في كتب التاريخ.

إستمر السيف يحصد رقاب الشيعة طوال الحكم الأموي. وان كانوا قد تنفسوا الصعداء مع بداية الحكم العباسي، إلا أن هذه الهدنة لم تدم طويلا، فالحكم العباسي الذي قام على تضحيات الشيعة ومعاناتهم، ورفع شعار «الحكم للرضا من آل محمد» سيتنكر للعلويين. لأن بني العباس قرروا الإستئثار بالملك والخلافة دونهم، وبدأت حرب الإستئصال من جديد، عمقتها الثورات الكثيرة التي تزعمها ثوار الشيعة من العلويين. الذين أصبحوا

(٩) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٧ . أنظر صبحي صالح ص٢٠٥ .

الأعداء الجدد للنظام الحاكم.

كانت حرب معاوية للشيعة من أجل القضاء على فكرة الإمامة واستئصالها من التفكير الإجتماعي العام، لأنها تشكل خطراً على ما كان يسعى له من تأسيس ملك إمبراطوري. أما العباسيون فقد انطلقوا من فكرة الإمامة وأحقية بني هاشم في الحكم والخلافة. لكنهم انتكصوا في ظروف يشرحها التاريخ، وانقلبوا على أبناء عمومتهم، وانفردوا بالملك. وأصبح الجامع بين الأمويين والعباسيين هو الخوف من وصول أئمة أهل البيت للحكم، لأن وصولهم يقطع الطريق نهائياً على الأسرتين القرشيتين.

فالإمامة عند أهل البيت لا تكون بالإختيار أو المؤامرات والدسائس الأسروية والقبلية، وإنما بالنص والتعيين. لقد نص الرسول على علي بن أبي طالب وقال(ص) «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»، ونص الحسين على إمامة إبنه زين العابدين، الذي خلفه إبنه الباقر وهكذا إلى الإمام الثاني عشر. وبنو امية كانوا على علم بذلك وكذا بنو العباس. لذلك فقد شكل وجود هؤلاء الأئمة تحدياً دائماً لملوك الأسرتين.

فوجود الأئمة تشكيك في شرعية حكمهم، خصوصاً وفئات من الناس تؤمن بذلك وتعتقده، وترفض الحكم القائم. وهذا الوجود الشخصي للأئمة جعل من الجرح لا يندمل أبداً، عمقت شرخه الثورات المتتالية للشيعة، وإن كان الأئمة لم يشاركوا فيها مباشرة.

لقد ضاق العباسيون ـ وقبلهم بنو أمية ـ من وجود الأئمة درعاً، فراموا قتلهم بكل وسيلة، وإذا تجرأ بنو أمية فقتلوا بحد السيف بعض الأئمة، فإن بني العباس قد استخدموا وسائل أخرى، منها السجن مدى الحياة لبعض الأئمة ودس السم لهم بعد ذلك. والنتيجة أن الشيعة وأئمتهم قد عانوا الأمرّين خلال الحكم العباسي كذلك، حتى قال: قائلهم:

ياليت ظلم بني أمية دام لنا | وعدل بني العباس في النار

إن هذا الصراع لم يكن فردياً أو شخصياً، وإنما شاركت فيه فئات واسعة من المجتمع. كما أن الأسلحة المستخدمة فيه لم تكن السيف فقط. فالشيعة كانت لهم عقيدة قائمة على نصوص دينية من قرآن وسنة، مدعومة بوقائع تاريخية في فجر الإسلام. شكلت ترسانة قوية وصعبة لا يمكن القضاء عليها بالسيف.

لذلك فقد واكب الصراع المسلح، صراع آخر فكري، فبنوا أمية وضعوا الأحاديث والتفسيرات التي تدعم الخلافة أولاً، وتنفي فكرة الأمامة الشيعية ثانياً. كم هائل من الروايات والتعليقات وأقوال الصحابة والتابعين، كلها تصب في خانة التشكيك في عقيدة الإمامة. لكن عصر بني أمية تميز بالحسم العسكري واستخدام الإرهاب والقتل. فالحجاج بن يوسف الثقفي مجرم بني أمية لم يكن يناقش الشيعة في صحة عقيدتهم، بل كان يعرض على السيف مباشرة من وشي إليه به، أنه يوالي علياً أو من أصحاب أئمة أهل البيت.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الأئمة بعد الإمام علي، لم يكفوا عن الدعوة لإمامتهم وعرض الأدلة على صحة مطلبهم من القرآن والسنة، ووقائع الدعوة الإسلامية في فجر الإسلام وعلى عهد الرسول. لذلك فقد تكون للشيعة مذهب متكامل ومنسق في الإمامة مدعوم بالأدلة النقلية والعقلية.

لذلك ستنطلق مع الدولة العباسية الإستفادة من التراث الذي صنعه بنو أمية في صراعهم مع الشيعة، سيتم معالجة هذا التراث والزيادة عليه وتنقيحه وترتيب أبوابه، مواكبة للتطور العلمي الذي عرفته الفترة. فظهرت للوجود مذاهب عقائدية وفكرية، كان الغرض منها أولاً وأخيراً، الوقوف في وجه الفكر الشيعي الإمامي ودحض حججه، والحؤول بينه وبين الإنتشار والسيطرة على عقول الجماهير. وبذلك اكتملت وقائع الحرب بين الخلفاء والشيعة. فالثوار يواجهون بالسيف والتنكيل والقتل. أما الأئمة الذين ظلوا بعيدين عن الحرب، يمارسون التدريس وتعليم شيعتهم عقائد الإمامة ومبادىء الإسلام

وفروعه، فقد تولت المذاهب المصطنعة خصيصاً لهذا الأمر، مواجهتهم والرد عليهم، بحجج العقل والنقل؟.

ما كاد القرن الرابع يلفظ أنفاسه الأخيرة، حتى كان لخصوم الشيعة الإمامية ترسانة من الأدلة والوقائع، احتضنتها مذاهب ومدارس، وتراث ضخم يخدم هذا الغرض. وهذا التراث الضخم لم يخدم في الواقع الحقيقة بل خدم الملك والسياسة، وساعد في توطيد حكم زائف محسوب على الإسلام، حكم انتهكت فيه الكرامة الإنسانية، وحقوق الإنسان الطبيعية بإسم الإسلام.

وكتب التاريخ ما زالت تقطر دماً من فضائع اقترفها في حق الإنسانية حكام بني أمية وبني العباس، ولا يمكن لأرباب المدارس الفقهية المعينين من طرف السلطان أن يبرروا هذه الجرائم، مهما أوتوا من قوة الجدل واصطنعوا من حيل ومكر تشيب له الولدان، لأن الظلم، ظلم، حتى الحيوانات العجماء تعرفه وتفر منه. يسأل هارون الرشيد أحد ندمائه عن إبنه هل يحفظ القرآن فيجيب بالتأكيد، ولما يسأل الخليفة الإبن، لايجده يحفظ من كتاب الله شيئاً، فيلتفت الخليلفة إلى الأب ويقول له: قم وتقرب إلى الله بقتل إبنك، فترتعد فرائص الأب عند القيام. لكن أحد الحضور يستدرك الأمر ويطلب من الخليفة أن يعفي الأب من قتل إبنه ويكلف غيره للقيام بذلك. وفعلاً يُقتل الشاب. هل هذا حكم الإسلام؟! هل أمر الله بقتل من لم يحفظ كتابه؟!.

والغريب في الأمر، أن أحداً لم يعترض على الخليفة. أو ينبهه إلى ان ذلك ليس حكم الإسلام؟! بل الرجل الوحيد الذي تدخل، فإنما رأفة بالأب الذي أمر بتنفيذ حكم الإعدام في إبنه..

إن نظام الخلافة الذي صُنع له تراث ضخم من الأحاديث والتفسيرات والتأويلات، لا يمكن أن يكون هو النظام الذي كان الإسلام ينشده. فالإسلام دين الإنسانية والعدل. أما ما هو مسطر في كتب التاريخ من يوميات الخلافة

فهو الظلم وسحق الإنسانية. ونحن لا نقول ذلك، انطلاقاً من تاريخ الشيعة، لأن الظلم لم يقتصر عليهم، وان كان نصيبهم أوفر، بل شمل قطاعات واسعة من المجتمع الإسلامي، بل لانكون مجانبين للحقيقة إذا قلنا بأن المجتمعات التي دخلها المسلمون فاتحين على عهد الخلافة، قد نالت قسطها من الظلم العربي، ان صح التعبير.لأنه لا يمكن ان ينسب للإسلام ظلم.

طبعاً سيطلع علينا فقهاء المدارس السلطانية ووعاظ الملوك ـ وخصوصاً الحنابلة والسلفيين منهم ـ بأن معاوية قد قتل الصحابة متأولاً. وان ملوك بني أمية أهلكوا الحرث والنسل وعبثوا بالأرواح والأعراض متأولين. وان ملوك بني العباس فعلوا ذلك متأولين، وهم فوق ذلك مأجورون؟، لأن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجرين وإذا أخطأ فله أجرٌ واحد؟.

أقول لو صح ذلك فإن كارل ماركس كان محقاً ومصيباً عندما أعلن بأن «الدين أفيون الشعوب»؟!.

إن هذا التراث الذي سيستفيد منه دعاة السلفية في شن حربهم الشعواء على الشيعة الآن وقبل ذلك، لم يكن متراص الجوانب، قوياً، يستطيع فعلاً أن يسدد الضربات المؤلمة لمذهب الشيعة الإمامية الأصولي والفقهي. والسبب في ذلك يرجع إلى إحتوائه على تناقضات كثيرة، فأحاديث الإمامة وفضل علي وأهل بيته، تملأ صفحات كثيرة من هذا التراث. أما المسائل الفقهية التي وقع الإختلاف حولها بين السلفية وأهل السنة من جهة، والشيعة الإمامية من جهة أخرى، فإن مصادر السلفية وأهل السنة بشكل عام، تزخر بالأدلة حول هذه القضايا الفقهية.

وبالجملة فليس هناك عقيدة أو فكرة يدعو لها الشيعة الإمامية إلا ولها مستند قوي، ليس في القرآن وما صح من السنة لديهم، بل ما صح من السنة لدى خصومهم. لذلك ترى المتشيعين من أبناء السلفية أو أهل السنة اليوم، لا يرجعون في الإستدلال على عقائد الشيعة التي اعتنقوها إلى مصادر الشيعة

التاريخية والحديثية، بل يجدون مبتغاهم في تراث أهل السنة والسلفية، وهذا مما يزيدهم إطمئنانا وإيمانا بصحة عقائد الشيعة وما يدعون إليه.

وأمام هذا الواقع لايجد السلفية اليوم كما وقع مع أجدادهم إلا الكذب، أو الإنتصار بالسلطان والسيف في حربهم مع الشيعة الإمامية، أما ما يكتبونه من كتب ضد الشيعة، فهي بالإضافة إلى الكم الهائل من السباب والشتم والقدف الذي لا يمكن أن يعتبر رداً تفند به العقائد والنظريات الفكرية. تحتوي على مجمل الإنتقادات والإعتراضات التي قال بها فقهاء أهل السنة، وهذه الكتب لاشك أنها كتبت بمداد السياسة، وولدت في بطن الصراع الدموي التاريخي الطويل. فلم يذق أصحابها طعم الموضوعية، ولا إرتووا بماء المناهج العلمية. لقد كتبت كشهادات طعن وتجريح، قدمت للملوك دعما لشرعيتهم المهلهلة، وشهادات لأصحابها على موالاتهم للنظام، واستحقاقهم بعد ذلك للوزارات ومناصب القضاء والإقطاعات والمنح السخية.

لذلك نضم صوتنا للشيخ محمد رضا الحكيمي وهو مختص بتاريخ الفرق الإسلامية. عندما يقول: «ان الدراسة الموضوعية الهادفة تكلف الباحث الرجوع إلى الكتب المؤلفة بيد أعلام المذاهب وخبرائه المعروفين بالحدق والوثاقة. والإعتماد على كتب الخصوم خارج عن أدب الجدل ورسم التحقيق، بيد أننا نرى كثيراً من الكتاب المعاصرين يعتمدون في تحليل عقائد الطوائف الإسلامية على «مقالات الإسلاميين» للشيخ الأشعري، و «الفرق بين الفرق» لعبد القادر البغدادي، و «الملل والنحل» للشهرستاني، وهؤلاء كلهم من أعلام الأشاعرة، ويرجع إليهم في الوقوف على التفكير الأشعري، وأما في غيره فلا يكون قولهم ونقلهم حجة في حقهم إلا إذا طابق الأصل»(١٠).

---

(١٠) بداية الفرق نهاية الملوك ، ص١٠٥ .

والمنهج القرآني يدعم هذا القول وينتصر له، لأنه كان يعرض أقوال الكفار والمشركين من أهل الكتاب وغيرهم، ثم بعد ذلك يرد عليها بالنقد والتفنيد، ولم نسمع أن أحدهم جاء للرسول مدعياً أن ما جاء في القرآن، يخالف ما هم عليه. والقرآن يعرض لأقوالهم كما هي مهما كانت مخالفة للحقيقة أو الذوق السليم، ثم بعد ذلك يرد عليها. «قالوا إتخذ الله ولداً»؟ «ان الله فقير ونحن أغنياء» «وقالت اليهود يد الله مغلولة» إلى غير ذلك من الأمثلة.

وعلى السلفيين اليوم ان يتبعوا منهج القرآن، عليهم ان يعرضوا أقوال وعقائد خصومهم الشيعة الإمامية. وان يستقوها من مصادرهم المعتمدة والمتفق عليها بين خاصهم وعامهم، ثم بعد ذلك فليشمروا ساعدهم ولينقضوا عليها طعناً وتجريحاً. ونحن لا نعتقد أنهم سيفعلون لأن ذلك سبيل إلى انفضاح كذبهم وتقولاتهم؟!. أما نحن فلم نغفل هذا المنهج القرآني، لقد حرصنا على الإستدلال بنصوص أخذناها من مصادرهم التي أعلنوا أنها معتمدهم، ووثقنا ذلك بمراجعه ليرجع إليه عند التحقيق، حتى لا يقال هذا محض افتراء وكذب، لأن من تعود الكذب قد يرى الناس كذلك.

إن الصراع المذهبي بين الشيعة وأهل السنة ظل منحصراً في الردود المكتوبة وداخل المدارس، الا ما كان من حرب السلطان لثوار الشيعة الذين رفعوا السلاح، أو العناصر التي كانت تشكل خطراً دائماً ولو بدون سلاح كالأئمة. لكن هذا الصراع لم تكن له تداعيات إجتماعية خطيرة إلا قليلاً، وفي فترات تاريخية محددة.

لكن الصراع بين الشيعة الإمامية والسلفية لم يكن كذلك. لأنه وكما يضهر من وقائع التاريخ ان الحنابلة «السلفية» بعدما إستوى مذهبهم وكمل بناؤه. أخذوا على أنفسهم أن يحاربوا مناوئيهم، من الشيعة وغيرهم، ليس باللسان أو القلم ولكن باليد. وقد بسطنا القول في «أسلوب الدعوة» وكيف مارس الحنابلة دعوتهم لعقائدهم، وتعرضنا لذكر الفتن الدامية التي كانوا

يحدثونها، وهم يتعرضون لأهل السنة من الشوافع والأحناف والأشاعرة بشكل عام، والأضرار البليغة التي نجمت عن ذلك فليراجع.

أما صراعهم مع الشيعة الإمامية فقد كان متميزاً ومريراً وكأنهم كما قيل، قد تولوا الحرب بدل بني أمية الذين انقرضت دولتهم، وبني العباس الذين أشرف ملكهم على الإنهيار مع نهاية القرن الخامس، بالإضافة إلى باقي الطوائف التي تخالف الشيعة عامة والإمامية بالخصوص. وما ميز هذا الصراع الذي سنعرض لبعض وقائعه، أنه كان دموياً ووحشياً، قتلت فيه الأنفس وحرقت فيه الأموال والممتلكات. وبالطبع كان البادىء لإشعال هذه الفتن، هم الحنابلة سلف السلفية المعاصرين. ونحن عندما نعرض لهذا التراث الوقائعي، إنما لنتتبع جذور الصراع الحالي، الذي لاشك أنه استمرار لما سبق، كما أن السلفيين اليوم يستمدون الكثير من عناصر الصراع وأدواتــه من هذا التراث الوقــائعي التاريخي. بالإضافة إلى رسم صورة أمام القارىء لوحشية هذا الصراع ودمويته الغير مبررة دينياً ولا إنسانياً؟!.

❋ ❋ ❋

يوميات الصراع السلفي
مع الشيعة الإمامية

□ مع حنابلة بغداد :

شهدت بغداد أطول الصراعات الحنبلية الإمامية، فقد إنفجرت الفتن المذهبية، في النصف الأول من القرن الرابع. ففي سنة ٣٤٩هـ «جرت وقعة هائلة ببغداد بين السنية والشيعية وتعطلت الصلوات في الجوامع سوى جامع براثا، الذي يأوي إليه الرافضة»[١١].

ويقول إبن كثير في حوادث سنة ٣٥٤هـ «.. ثم تسلطت أهل السنة (الحنابلة) على الروافض، فكبسوا مسجدهم، مسجد براثا الذي هو عش الروافض، وقتلوا بعض من كان فيه من القومة»[١٢]. والسبب حسب هذا المؤرخ السني هو قيام الشيعة بعمل مأتم يوم عاشوراء بمناسبة مقتل الإمام الحسين بن علي (عليه السلام).

وتوالت الفتن، كل سنة تقريباً يهجم عوام الحنابلة على مناطق الشيعة ومساجدهم فيعيثون فساداً. وقد كان بعض ذوي السلطان يدعمونهم ويشجعونهم على ذلك. وفي سنة ٣٦٢ وقعت فتنة عظيمة راح ضحيتها آلاف الشيعة ونهبت أموالهم. يقول إبن كثير: «وفيها أحرق الكرخ ببغداد، وكان سببه أن صاحب المعونة ضرب رجلاً من العامة فمات، فثارت عليه

---

(١١) النجوم الزاهرة ، ج٣، ص٣٢٣ ، والكامل في التاريخ ، ج٨ ص٥٣٣ نقلاً عن صراع الحرية ، ص١٤ .

(١٢) البداية والنهاية ، ج١١، ص٢٥٤. انظر المرجع السابق ، ص١٥ .

العامة، وجماعة من الأتراك فهرب منهم فدخل داراً، فاخرجوه مسجوناً (لعل الظاهر: مسحوباً) فقتلوه، وحرقوه، فركب الوزير أبو الفضل الشيرازي ـ وكان شديد التعصب للسنة ـ وبعث حاجبه إلى أهل الكرخ، (مكان الشيعة) فألقى في دورهم النار، فاحترقت طائفة كثيرة من الدور والأموال من ذلك ثلاث مائة دكان، وثلاثة وثلاثون مسجداً، وسبعة عشر ألف إنسان»، وعند إبن خلدون عشرون ألف إنسان[١٣].

أنظر لهذه الهمجية اللاإنسانية واللادينية، لم يكتف هؤلاء الحنابلة أتباع السلف من قتْل من قَتل، هذا ان كان فعلاً قد قتله عمداً، والقصاص الإسلامي يقضي بقتل القاتل. فما بال عشرين ألف قتيل؟! ما ذنب هؤلاء؟ لابد أن هناك أطفالا ونساءً وشيوخاً طاعنين في السن ومرضى!! لم قُتل هؤلاء؟! وأي شرع يبيح ذلك ويشرعه؟! اللهم إلا قانون الحقد الأعمى والجهل المركب؟! تدعمه سياسة البغض، التي سنها بنو أمية، وعمل بها الملوك بعدهم.

مثال آخر لإهدار الدم الشيعي المسلم، فقد ذكر إبن الأثير في حوادث سنة٣٦٣هـ يقول: «ثارت العامة من أهل السنة ينصرون سبكتكين، لأنه كان يتسنن، فخلع عليهم وجعل لهم العرفاء، والقواد، فثاروا بالشيعة، وحاربوهم، وسفكت بينهم الدماء، وأحرقت الكرخ حريقاً ثانياً، وظهرت السنة عليهم[١٤]. والسنة أو عامة السنة هنا هم حشوية الحنابلة الذين تعضدهم السياسة الغاشمة وتشجعهم على إثارة الفتن وقتل الأبرياء.

إن ما يسترعي الإنتباه فعلاً هو ما كان يفعله حشوية الحنابلة أثناء هذا الصراع، لأنه يعتبر أحد المفاتيح لحل لغز هذه الفتن وخلفياتها. يقول إبن كثير

(١٣) البداية والنهاية ، ج١١، ص٢٧٣ ، تاريخ ابن خلدون ، ج٤ ، ص٤٤٦ - ٤٤٧ . انظر المرجع السابق ، ص١٧ .

(١٤) الكامل في التاريخ ، ج٨ ، ص٦٣٧. انظر المرجع السابق ، ص١٩ .

ولا يرفع البدعة إلا «السنة الصحيحة» ودامت السنة على هذا الشعار القبيح مدة سنين»[١٧].

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه بعد قليل، لكن لنا تعليق على هذا المؤرخ الذي كان يعادي الشيعة، فهو يصف اظهارهم الحزن على مقتل الإمام حسين بدعة! ولست أدري ماذا كان على الشيعة ان يفعلوا عند حلول ذكرى هذه المناسبة كل سنة، هل يوزعوا الحلوى على الحشوية ويقيمون الحفلات والأفراح؟![١٨] أم كان عليهم نسيان هذه الحادثة والتغافل عنها؟! وهذا ما كان يرغب فيه اتباع بني أمية وأذنابهم.

ونسأل «الحنابلة» لماذا الإحتفال بمقتل مصعب بن الزبير؟! لقد كان عدوا لبني أمية فقتلوه، وبنو أمية أمراء هؤلاء الحشوية وسلفهم؟! أم يحتفل به لأنه كان عدواً لأهل بيت الرسول(ص)، لدرجة أنه إمتنع عن ذكر الرسول والصلاة عليه. بحجة أن له أهل يشمخون بأنوفهم عند ذكره في الصلاة أو خطب الجمعة؟!.

إنه الحقد الأعمى الذي يركب كل وسيلة، المهم الوقوف في وجه الشيعة وإغاضتهم ومنعهم من القيام بكل ما تمليه عليهم عقائدهم.

ونحن نسأل هل كان الشيعة يعارضون الحشوية أو غيرهم إذا ما قاموا باحياء ذكرى موت أو قتل أي صحابي أو غيره من أئمتهم؟!. إن هذا لم يحصل إلى الآن؟.

والذي يدعو على الحسرة ليس فقط مقارنة مقتل الإمام الحسين بمقتل رجل

---

(١٧) البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٣٢٥ - ٣٢٦ .

(١٨) إتخذ بنو أمية، وكذلك بنو أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم، ويختضبون فيه، ويزورون القبور، وينبسطون في المطاعم، ولبسوا الجديد، وتزيوا واكتحلوا، وتبخروا، وأقاموا الولائم والضيافات، واطعموا الحلاوات والطيبات، وجرى الرسم في العامة على ذلك أيام ملكهم، وبقي فيهم بعد زواله عنهم، كل ذلك ليرغموا آناف شيعة علي بن أبي طالب، الذين يتخذون هذا اليوم يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي، أنظر صراع الحرية في عصر المفيد، للعلامة السيد جعفر مرتضى العسكري ، ص٩٥ .

حارب لأجل الملك فلقي حتفه دونه، بعدما سفك الدماء الغزيرة وشط عن الحق وأهله. ولكن احتفال الحشوية بمقتله في الثاني عشر من المحرم، بينما قتل في النصف من جمادى الأولى سنة ٧٢ هـ كما هو مسطر في كتب التاريخ!؟.

□ السلطة تشجع إراقة الدم الشيعي :

إستمرت الفتن المذهبية والتعدي على شيعة الكرخ، وظهر دعم السلطان للحشوية واضحاً مع المقتدر العباسي. ففي عام ٤٠٨هـ تكررت الفتن وتفاقمت وقتل عدد من الفريقين، وعجز صاحب الشرطة عنهم وقاتلوه، فاضطروا إلى إشعال النار قريباً من الكرخ محل إقامة معظم الشيعة في بغداد فتوقفت الفتنة(١٩).

إن كتب التاريخ حافلة بذكر هذه الفتن، وقد ذكر المحقق العاملي ثلاثين فتنة وقعت خلال النصف الثاني من القرن الرابع وبداية القرن الخامس، وقعت ببغداد وكان فرسانها حشوية الحنابلة، وراح ضحيتها ألوف من الشيعة الإمامية. وسنذكر حادثة وقعت خارج بغداد لكنها في نفس الفترة، لأنها تلقي الضوء على العامل السياسي المحرك لهذه الفتن، وان الحشوية كانوا مجرد أيادي غبية يُضرب بها الشيعة وتسفك دماؤهم، ليس في سبيل الله، ولكن في سبيل السلطان والشيطان.

قال إبن كثير: «في هذه السنة ٤٠٧هـ قتلت الشيعة ببلاد إفريقية، ونهبت أموالهم، ولم يترك منهم إلا من لا يعرف»(٢٠) وقال إبن الأثير: «في هذه السنة في المحرم قتلت الشيعة بجميع بلاد إفريقية. وكان السبب في ذلك: إن المعز بن باديس ركب ومشى في القيروان والناس يسلمون عليه، ويدعون له، فاجتاز بجماعة، فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء رافضة، يسبون أبابكر وعمر.

---

(١٩) عن الكامل ، ج٩ ، ص٣٠٤ ، أنظر المرجع السابق ، ص٨٩.

(٢٠) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٥، انظر صراع الحرية في عصر المفيد ، ص٣٣.

فقال: رضي الله عن أبي بكر وعمر.

فانصرفت العامة من فورها إلى درب المخلى من القيروان، وهو مكان تجتمع به الشيعة، فقتلوا منهم، وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم طمعاً في النهب، وانبسطت أيدي العامة في الشيعة. وأغراهم عامل القيروان وحرضهم. وسبب ذلك: أنه كان قد أصلح أمور البلد، فبلغه: أن المعز بن باديس يريد عزله، فأراد فساده. فقُتل من الشيعة خلق كثير، وأحرقوا بالنار، ونهبت ديارهم، وقتلوا في جميع إفريقية.

واجتمع جماعة إلى قصر المنصور قريب القيروان فتحصنوا به، فحصرهم العامة، وضيقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع، فاقبلوا يخرجون، والناس يقتلونهم، حتى قتلوا عن آخرهم، ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع فقتلوا كلهم[٢١].

وبعد ، ماذا يقول المفكرون الإسلاميون الذين يلهجون بتسامح الإسلام. وأن الأقليات الدينية من يهود ونصارى قد عاشت في وئام وحفظ في المجتمع الإسلامي؟! وإذا كان صحيحاً، فإن من يقول: «إن عزير إبن الله» ومن يقول «ان الله ثالث ثلاثة» ولا يؤمن برسالة محمد بن عبدالله(ص) كان يعيش في أمن وأمان على روحه وماله، أما من كان يشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فقد كان يُقتل في المساجد والطرقات، ويكبس في بيته ويحرق بالنار؟! لكنها السياسة كما قلنا سابقاً، وسواء أكان الحنابلة أم غيرهم أداة التنفيذ، فإن الضحية واحدة هم الشيعة.

فترحم هذا الأمير على أبي بكر وعمر، يعتبر ضوءاً أخضر لسفك دماء الأبرياء، علماً أنه وكما قال إبن الأثير «فسأل عنهم، فقيل هؤلاء رافضة

(٢١) صراع الحرية في عصر المفيد ، العلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي ، ص٣٣ - ٣٤، نقلاً عن الكامل في التاريخ ، ج٩ ص٢٩٤ - ٢٩٥. وراجع تاريخ إبن الوردي ، ج١ ص ٤٦٠ ، لكن الناشر قد وضع نقاطا في موضع بعض الكلمات، لحاجة في نفسه قضاها.

يسبون أبا بكر وعمر» فهو لم يتحقق من ذلك وإنما «قيل»؟! وقد اجتمعت «قيل؟!» مع رغبة عامل القيروان في افساد البلاد بعدما تسربت إليه أنباء عن عزله قريباً. أضف إلى ذلك «شهوة العسكر وأتباعهم في النهب». والنتيجة قتل شريحة من المجتمع وإستخلاص أموالها، تحت شعار الذب عن السنة ومحاربة البدعة، والإنتصار لأبي بكر وعمر.

وهل سب أبي بكر وعمر يبيح القتل ونهب الأموال. لقد كان معاوية وملوك بني أمية يلعنون الإمام علي وهو الصحابي الجليل، ثمانون سنة والخطباء يختمون خطبهم بلعن أبي تراب، إبن عم الرسول وزوج إبنته الطاهرة. وأبي الحسن والحسين ريحانتي رسول الله؟! لكن أحداً من علماء السلف لم يُحرك ساكناً، ولم نسمع عن صدور فتوى تبيح دم معاوية وملوك بني أمية، أو الخطباء الذين كانوا يلعنون ليل نهار الإمام علي وهم بالآلاف. بل ان مجتمعات في بلاد الشام كانت تتعبد بلعن أبي تراب عليه السلام كما مر معنا بخصوص مدينة حران موطن الحنابلة ومنشأ إبن تيمية؟!.

□ تبرير المجازر الدموية :

إن مسألة سب الصحابة التي إتخذها الحشوية مطية لقتل الشيعة، إنما كانت احدى أكبر المغالطات في تاريخ الإسلام وما زالت إلى اليوم. وسنعرض لها بعد قليل إنشاء الله لإيضاح مكنون سرها وفض بكارة لغزها(٢٢).

---

(٢٢) يقول المحقق العاملي: «إن الإتهام الذي كان يوجه إلى الشيعة والروافض بأنهم يسبون الصحابة، قد نشأ على ما يظهر من الأحراج الذي كان يصيب فريقاً من الناس، حيث طرح القضايا الحساسة، بصورة صريحة، وحرة، فلا يجد ذلك الفريق من نفسه القدرة على مواجهة الحجة بالحجة، والدليل بالدليل. فكان أن التجأ إلى ركوب موجة تحريض العامة، وأثارتهم عاطفياً، ثم التوسل بأسلوب العنف والقهر، كوسيلة أفضل للتخلص من آثار ذلك العجز الذي يعاني منه فريق يفقد شجاعة مواجهة الواقع، والإقرار بالحق، والإستسلام له . أنظر صراع الحرية ، ص٧٦ .

والذي يبعث على العجب فعلاً هو ما قرأته بخصوص هذه الحادثة عند الدكتور عبدالمجيد بدوي فهو يقول: «في محرم من عام (٤٠٨هـ / ١٠١٧م) حدثت مذبحة مروعة راح ضحيتها معظم الشيعة بجميع بلاد أفريقية بسبب جماعة منهم سبوا أبا بكر وعمر في مدينة القيروان إلى قوله وامتدت الفتنة إلى المدن الأخرى»[٢٣]. ففي الوقت الذي يقول المؤرخ إبن الأثير فسأل عنهم (المعز بن باديس)، فقيل: هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر» يقول الدكتور: «بسبب جماعة منهم سبوا أبا بكر وعمر في المدينة»، ولعمري إن الفرق كبير جداً بين العبارتين، فعبارة المؤرخ تعني ان أحداً من حاشية المعز قال هؤلاء يسبون أبا بكر وعمر. ولم يحدد المؤرخ من القائل، بل قال: «قيل» على وزن زعم، و «قيل» تحتمل الصدق والكذب. كما تشير إلى أن الذي قال: كان عدوا للشيعة ولسكان هذا الحي في القيروان.

الدكتور يحصر الأسباب في هجوم العامة على الشيعة لأنهم سبوا أبا بكر وعمر. أما إبن الأثير فيوضح الأسباب الحقيقية وراء هذه الهجمة الهمجية، وهي أسباب سياسية، وأطماع في النهب والسلب ليس إلا؟!.

أما حصر هذه الأسباب في سب الصحابة فإنه تبرير ضمني لمجزرة دموية، ستبقى عاراً على جبين التاريخ الإسلامي؟!. لقد شبعنا وأتخمنا ومللنا سياسة التبرير التي سلكها فقهاء السلطان قديماً، ويسلكها اليوم من يجتر تراث هؤلاء ويؤمن به!!

برروا الظلم في السياسة، في الإقتصاد، في الإجتماع، وفي الدين. ويقفون بعد ذلك ليقولوا نريد أن ننهض؟! نريد ان نخرج من التخلف الحضاري، لنواكب مسيرة الأمم في التمدن والرقي؟!. ان منهج التبرير الذي ورثه الخلف عن السلف، ليس إلا طريق الكذب وتزوير الحقائق، وهل سنتمكن من

---

(٢٣) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ، الدكتور عبد المجيد أبو الفتوح بدوي ، عالم المعرفة ، جدة ، ص٩٠ .

حجب نور الشمس، بيراقع الكذب والتلاعب؟!.

وبعد أليس من الحق والموضوعية أن ننقل النصوص كما هي أو على الأقل ألا نتصرف فيها تصرفاً يلغي نصفها أو كلها؟!.

ويقول إبن الجوزي: «في سنة ثمان وأربع مائة استتاب القادر بالله أمير المؤمنين فقهاء المعتزلة والحنفية، فاظهروا الرجوع، وتبرؤوا من الإعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة، والرفض، والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذ خطوطهم بذلك، وأنهم متى خالفوه حل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم[٢٤]. أما الدكتور عبدالمجيد بدوي فيقول: «في هذا العام استتاب (القادر) الشيعة والمعتزلة عن المقالات المخالفة للسنة[٢٥]. ويكمل كلامه بما جاء في المنتظم بتصرف وإقتضاب.

والفرق بين ما جاء في المنتظم وما قاله الدكتور بين، فإبن الجوزي، يقول بأن القادر قد استتاب فقهاء المعتزلة والحنفية، ولم يقل الشيعة؟! وكيف يستتيب فقهاء الشيعة عن المقالات المخالفة للإسلام؟! نعتقد أن هذا الإضطراب منشأه وجود كلمة حنفية، أي المذهب الحنفي. على اعتبار ان المعتزلة ليسوا من أهل السنة، فليس هناك مشكل في عرض إسمهم. أما الأحناف فإن مذهبهم الفقهي والأصولي يعتبر من مذاهب أهل السنة والجماعة. وعليه فإذا كان هناك تحريف، فإن الغرض منه هو التستر على المذهب الحنبلي، فالقادر كان ينتصر لحشوية الحنابلة ويدعمهم، وهم ليسوا أعداء الشيعة فقط بل يعادون مذاهب أهل السنة الأصولية والفقهية كذلك. أو لجعل الصراع يقتصر على الشيعة وغيرهم من الفرق التي تُدخل في خانة الإبتداع والهوى.

لكن الدكتور سيعترف بأن هذه الفتن كان يقف وراءها الحنابلة، مستعينين

(٢٤) المنتظم ، ج٧ ، ص٢٨٧ . أنظر صراع الحرية ، م س ، ص ٣٦ .
(٢٥) التاريخ السياسي والفكري ، م س ، ص٨٨.

بالسلطان. يقول: «وهذه الثورات كثيراً ما كان يوجهها المفكرون السنيون المحافظون وعلى رأسهم فقهاء الحنابلة ورجال الحديث، الذين كانوا يقفون بالمرصاد لأي حركة يقوم بها الشيعة أو غيرهم من المبتدعة في نظرهم..»[٢٦].

ويضيف: «وقد حدث أن تجمع هؤلاء المحافظين في جمادى الأولى من عام (٤٦٠هـ/١٠٦٨م) في ديوان الخلافة وطلبوا إخراج الإعتقاد القادري، وقراءته، فأجابوا إلى ذلك، وقرىء المحضر على المجتمعين ومما ورد في هذا الإعتقاد السالف الذكر، لعن الرافضة من الشيعة، وتكفيرهم، وتكفير من لا يكفرهم، ولعن المبتدعة»[٢٧].

إن النصوص التاريخية التي وصفت الفتن لا تترك مجالاً لأي قارىء أو باحث، أن يشك في ان الحنابلة كانوا هم السابقون دائماً لإثارة الفتن والتهجم على الشيعة. يراقبونهم ويتتبعون جميع تصرفاتهم وعبادتهم، فأي فعل أو قول يخالف المذهب الحشوي، يعني الإبتداع والكفر، ومن ثم الهجوم فالقتل. أنظر ماذا يقول الدكتور عبدالمجيد بدوي: «لم يسلموا (أي الشيعة) من تحرش المحافظين (الحنابلة) الذين حاولوا إثارة الخليفة المقتدي ضدهم في شوال سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٧م) عندما شكا أحد الفقهاء إلى الخليفة من أن الشيعة لا يذكرون أسماء الصحابة على جنائزهم، مع ان السنة ظاهرة ويد أمير المؤمنين قاهرة، فخرج كتاب من دار الخلافة ينعي على الشيعة إغفالهم لذكر صاحبي رسول الله(ص) على الجنائز، وأنهم تورطوا في هذه الجهالة، واستمروا على هذه الضلالة «التي استوجبوا بها النكال، واستحقوا بها عظيم الخزي والوبال..»[٢٨].

(٢٦) التاريخ السياسي والفكري ، م س ، ص١٨٩ .

(٢٧) المرجع السابق ، ص١٨٩ ، وهذا الاعتقاد القادري نسبة إلى الخليفة القادر هو نسخة لما تذهب اليه الحشوية الحنبلية في الأصول، وليس اعتقاد أهل السنة والجماعة.

(٢٨) المرجع السابق ، ص١٩١ .

وفعلاً إستمر القتل فيهم والتشريد، لكن أحداً منهم لم يترك مذهبه لينتقل إلى الحنبلية، أصحاب السلطان. كما سيفعل فقهاء الحنابلة الذين انتقلوا زرافات إلى مذاهب أهل السنة بعد ما تغير السلطان وتغير معه الزمان(٢٩).

□ انتصار الفاطميين ومحنة الشيعة في بغداد :

لقد كانت هذه الفترة بالذات عصيبة على شيعة بغداد، كما تعرض أهل السنة لبعض المضايقات لكن سرعان ما انفرج عنهم، فأصبح لهم السلطان، وكالوا الحنابلة بنفس المكيال. وقبل ان نعرض لبعض الأمثلة على ذلك، لابد أن نشير إلى حقيقة تاريخية مهمة. وهي ان دعم الحشوية وتسليطهم على شيعة بغداد، والطلب من بعض رجالات أهل السنة أن يؤلفوا الكتب في نقض مذاهب الشيعة وخصوصاً عقيدة الإمامة، كان سببه الرئيسي الدولة الفاطمية التي امتدت من مصر لتبسط سلطتها على مناطق الشام، وبالتالي بدأ خطرها يطرق أبواب الخلافة العباسية في بغداد، هذه الخلافة التي لم يبق منها إلا الرسم على عهد البويهيين.

لذلك كانت الخلافة تحس وتشعر بأن شيعة بغداد رغم أنهم إمامية ويختلفون مع الفاطميين الإسماعيلية في مجمل الأصول والفروع. لكن شعوراً ما بالتعاطف قد يكون موجوداً لدى العامة منهم، لذلك جاء إطلاق عوام الحشوية عليهم، لقتلهم ونهب أموالهم، بمثابة رد إحترازي مبدئي عن أي

(٢٩) إنتقل أبو جعفر عمر إبن أبي بكر الدباسي (ت ٦٠١هـ) إلى المذهب الشافعي، فعين مشرفاً لمكتبة النظامية. أنظر تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ، للدكتور بدري محمد فهد ، ص٤٣٧. وانتقل أبو الفتح أحمد بن علي بن تركان المعروف بالحمامي (ت ٥١٨هـ) إلى المذهب الشافعي وقد كان حنبلياً، وأصبح مدرساً بالنظامية. أما المبارك بن المبارك الواسطي النحوي (ت ٦١٢هـ) فقد كان حنبلياً فتحول إلى الحنفي ومنه إلى الشافعي، فعين مدرساً بالنظامية. وكذلك القاضي أبو بكر محمد بن يحيى إبن المظفر (ت ٦٣٩هـ) أصبح شافعياً ودرس بالنظامية. أنظر طبقات الشافعية ، ج٣ ص٢٥٢. راجع المرجع السابق ص٢٢٥ .

تفكير في ربط علاقات سرية سياسية مع الدولة الفاطمية أو دعاتها، الذين يجوبون أرض الخلافة العباسية دون أن يعرفهم أحد.

وعليه فشيعة بغداد كانوا يدفعون ثمن إنتصار الفاطميين وتهديدهم للخلافة العباسية. لكن شدة الصراع وتكاثف السلطة العباسية والحنابلة على الشيعة، كان يواكب تراجع قوة البويهيين في العراق، الذين لم يخفوا تعاطفهم مع الشيعة الإمامية. وبداية ظهور السلاجقة الأتراك في أقصى الشرق الإسلامي، وبما أنهم كانوا سنة، فقد انبعث في الخلافة العباسية أمل في استعادة بعض ما ضاع من بريقها وقوتها، هذا الأمل الذي ترجمه القادر العباسي بتزعمه حركة قمع البدع. والإنتصار للسنة.

إن الملابسات السياسية في هذه الفترة كانت دقيقة ومعقدة، والسياسة وحدها هي التي كانت تمسك بخيوط اللعبة. أما حشوية الحنابلة فكانوا مجرد أدوات، ينفذون سياسة ماكرة، ولا يقولن أحد أن العقيدة وحدها هي التي كانت تتحكم في هؤلاء الحشوية وتحركهم. لأنهم كانوا ينقمعون عندما يأمر السلطان بذلك. بل المضحك والمبكي في آن، هو ما كان يقع بين الجانبين من صلح في بعض الأحيان.

يقول إبن الأثير عن سنة (٤٤٢هـ)، «بادرت الفئتان إلى الصلح، وأخذ الشيعة يترحمون على الصحابة، ويصلون في مساجد السنة، وتبادل كل فريق أذان الفريق الآخر، فأخذ الشيعة بالصلاة خير من النوم، وأذن السنة بحي على خير العمل»[30].

إذن اين موقع البدعة هنا؟! وكيف يؤذن الحنابلة بحي على خير العمل، وقد كانوا يكفرون الشيعة من أجل ذلك؟! أما الشيعة فإنهم لا يكفرون الحنابلة أو أهل السنة، وليس الأذان عندهم أصلاً من أصول الدين حتى لو

(٣٠) الكامل، ج٩، ص٥٦١. والعبر، ج٣، ص١٩٩، أنظر المرجع السابق، ص١٨٣.

زيد فيه كلمة الصلاة خير من النوم؟! بل ان الأمر سيتجاوز هذا الحد في بعض الأحيان عندما يكتشف الشيعة بأن مهاجميهم الحشوية من العوام والسوقة لايفقهون حديثاً، فيتعاملون معهم بذكاء وتعقل، يُنزع معه فتيل الفتنة، ويحفظ الشيعة أموالهم وأرواحهم بذلك.

يقول الدكتور عبد المجيد: «استمر السنة في التحرش بهم ـ أي بالشيعة ـ إذ خرجوا في شعبان من العام نفسه (٥٠١هـ) لزيارة قبر مصعب بن الزبير، وكانوا قد تركوا ذلك منذ مدة طويلة منعاً للفتنة. واتفقوا ان يجعلوا طريقهم على الكرخ تحدياً لمشاعر الشيعة وإثارة لهم، ولكن الشيعة كانوا حريصين على عدم إشعال الفتنة... ومن ثم استقبلوا السنة بالبخور والزينات والترحيب حتى خرجوا من الكرخ، واستقبلوهم عند عودتهم بما استقبلوهم به أولاً. وهذا المسلك من جانب الشيعة فرض على السنة أن يتسامحوا مع الشيعة، فلم يعترضوا طريقهم عندما خرجوا في النصف من شعبان لزيارة مشهد موسى الكاظم»[٣١].

□ أفول نجم الحنابلة :

لكن سرعان ما بدأ نجم الحنابلة في الأفول، مع سيطرة السلاجقة على بغداد، فهؤلاء كانوا يتعصبون للمذهب الحنفي، وقد مارسوا بعض المضايقات على الشافعية والأشاعرة بصفة عامة، باديء الأمر. لكن وصول نظام الملك للوزارة في عهد ألب أرسلان السلجوقي سيغير الوضع عندما ينتصر للشافعية الأشاعرة، ويبني لهم المدارس والنظاميات، وينفق الأموال الطائلة عليها وعلى جلب خيرة الأساتذة، للتدريس بها.

والغرض من ذلك لم يكن الإنتصار لمذاهب أهل السنة فقط، وانما مواجهة

---

(٣١) أنظر المرجع السابق، ص١٩٣ - ١٩٤. نقلاً عن الكامل، ج١٠، ص٤٦٩.

الفكر الشيعي الإسماعيلي بالخصوص، لأن الحرب مع الدولة الفاطمية كانت قائمة على قدم وساق. وكتاب «فضائح الباطنية» ألفه أحد كبار المدرسين بهذه النظاميات، وهو الغزالي المدرس في نظامية بغداد. لكن تمكن الشوافع الأشاعرة «أهل السنة» وانتشار نفوذهم، سيدفعهم لتصفية الحسابات القديمة مع منافسيهم داخل الإطار السني. وهم بالطبع حشوية الحنابلة الذين كانوا يكفرون الأشعري ويتعرضون للشوافع بالسب والقتل في بعض الأحيان.

إنطلق أهل السنة «ينتصرون لمذهب الأشعري ويعرضون بخصومهم من الحنابلة لما يعتقدونه من التشبيه والتجسيم. وكثيراً ما كان هذا السلوك يثير حفيظة الحنابلة، فتثور الفتن بين الفريقين. وكان نظام الملك يقف بكل ثقله إلى جانب هؤلاء الأساتذة الذين يرسلهم»[٣٢] إلى النظاميات ويعينهم فيها.

□ أهل السنة يكفرون الحنابلة:

بل إستطاع هؤلاء الأساتذة أن يصرحوا بكفر الحنابلة من على المنابر. فقد ذهب الشريف أبو القاسم البكري المغربي، وهو مدرس بالنظامية، إلى جامع المنصور وهو مركز تجمع الحنابلة. «في حراسة الشرطة ووعظ به، وهاجم الحنابلة، ورماهم بالكفر قائلاً: «ما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا..» ما كفر أحمد بن حنبل، إنما كفر أصحابه، فرماه الحنابلة بالآجر»[٣٣] وهذا القول يؤكد دعوانا بأن المذهب الفقهي والأصولي إنما أختلق وصُنع للإمام أحمد بن حنبل وليس له.

وفي (عام ٥٦٦هـ) جاء إلى بغداد محمد بن البروي، فوعظ بالنظامية، ونصر مذهب الأشعري وبالغ في ذم الحنابلة، وكان يقول: «لو كان لي أمر

---

(٣٢) التاريخ السياسي والفكري، م س، ص٢١٩ - ٢٢٠.
(٣٣) المنتظم، ج٩ ص٤٠٣، والكامل، ج١٠ ص١٢٤. أنظر المرجع السابق، ص٢٤٣.

لوضعت عليهم الجزية» فقال إن الحنابلة دسوا عليه من سمه»[٣٤].

إلا أن التاريخ لم يسجل أن أهل السنة هجموا على الحنابلة وقتلوهم أو نهبوا أموالهم، كما كان يفعل الحنابلة مع الشيعة. لقد تقلص حجم الحنابلة وضعف خطرهم مع سيطرة أهل السنة، وحوصرت دعوتهم وحركتهم، وتعرضوا للمضايقات بين الحين والآخر، يذكر السبكي: ان العادل (الأيوبي) عزر جماعة من أعيان الحنابلة لقولهم بالتجسيم تعزيراً رادعا وأهانهم»[٣٥].

□ وتستمر المذابح الشيعية :

وبذلك خفت حدة الفتن المذهبية. لكن الشيعة لم يتنفسوا الصعداء بعد، لأن القضاء على الدولة الفاطمية في الشام ومصر واكبه مذابح فظيعة لتجمعات الشيعة هنا وهناك. فقد أفتى الشيخ نوح بقتل الشيعة في حلب[٣٦]. وبعده جاء إبن تيمية الحنبلي ليحيي الصراع الحنبلي الشيعي من جديد، فافتى بقتل جميع شيعة الجرد وكسروان في جبال لبنان[٣٧]. وعكف على التأليف واصدار الفتاوى في حقهم، هذه الفتاوى التي حصدت ألوفاً منهم وما زالت تجثم على صدروهم، وتطاردهم أينما حلوا أو ارتحلوا.

---

(٣٤) مرآة الزمان، ج٨ ق١ ص٢٩٢، أنظر المرجع السابق، ص٢٤٣.

(٣٥) وفيات الأعيان، ج٢ ص١٦٨. أنظر المرجع السابق، ص٢٩٨.

(٣٦) أنظر صراع الحرية في عصر المفيد، ص٤٦، نقلاً عن دول الإسلام، ص٢٢٠.

(٣٧) كان إنتقام المماليك من أهالي كسروان إنتقاماً رهيباً إلى درجة تساوى فيها مع إرهاب وتنكيل المغول ببغداد وأهاليها عام ١٢٥٨م هذا الإنتقام الدموي دفع بالسلطان الناصر بن قلاوون ان يطلب من الإمام إبن تيمية تبرير هذه المجازر. أنظر محمد أبو زهرة، إبن تيمية ص٤٥. ويقول الدكتور عاطف الأثات «وكان كبير أئمة السنة في الشام في تلك الحقبة تقي الدين بن تيمية وهو شيخ المذهب الحنبلي في دمشق، فقدم إلى كسروان عام ١٣٠٤م على رأس وفد من الأمراء لمفاوضة الشيعة هناك في الرجوع إلى الطاعة، فلم ينجح في مهمته وعاد إلى دمشق بعد ذلك وأخذ يدعو في جميع انحاء الشام إلى حملة جديدة ضد أهل كسروان تقضي عليهم وتحد من نفوذهم نهائياً. كما أصدر فتوى بهدر دماء =

إبن تيمية والشيعة

□ تجديد الصراع وتعميقه :

إذا كان إبن تيمية قد أحدث بلبلة فكرية ودينية في عهده، عندما أعاد نشر الفكر الحشوي الخاص بالتشبيه والتجسيم ودافع عنه، كما خالف أهل السنة في قضايا أصولية وفروعية، وتعرض على أثر ذلك لموجة من المناظرات والمحاكمات انتهت بسجنه وموته فيه.

فإن حملته على الشيعة كانت أقوى واشد خطورة، فإلى جانب استباحته دم شيعة كسروان، تفرغ للكتابة والرد على عقائدهم. وأهم مؤلف له بخصوص الشيعة. هو «منهاج السنة» الذي قيل إنه كتبه «للرد على الشيعة الإمامية الإثني عشرية في عقائدهم»، اذ كان لهم في عصره إنتصار كبير في العراق وإيران. تحقق على يد عالمهم إبن المطهر الحلي، الذي أفلح في نشر المذهب في هذين البلدين، ولا سيما في إيران التي كان فيها الشيعة أقلية، فتزايد عددهم بجهوده تزايداً مذهلاً، فصار يتردد في الأوساط العلمية والمجالس الشعبية إسم علامة الشيعة إبن المطهر، ذلك الإسم الذي أزعج إبن تيمية كثيراً، فنال منه في مجالسه وخطبه على ما بينهما من بعد المسافة[٣٨].

= الشيعة الكسروانيين وهدم بيوتهم وحرق أشجارهم . أنظر مجلة العرفان ، المجلد ٧٧ العددان ٩ - ١٠، جمادى الثانية ورجب ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣/١٢/١١م

(٣٨) إبن تيمية ، صائب عبدالحميد ، ص١٩٢ .

□ العلامة الحلي ومنهاج الكرامة :

و«منهاج السنة» جاء كما يقول بعض المؤرخين رداً على كتاب العلامة الحلي «منهاج الكرامة في إثبات الإمامة». وقبل ان أعرض لبعض ما احتواه كتاب «شيخ الإسلام» من ردود على الشيعة. أقف مع الدكتور سيد الجميلي الذي كتب عن العلامة الحلي يقول: وله كتاب «منهاج الإستقامة في اثبات الإمامة، خلط فيه بين المعقول والمنقول وخرج عن طريق الإستقامة بغير وعي»[٣٩].

أقول بغض النظر عن صحة اسم الكتاب وهل سماه صاحبه «منهاج الكرامة» أم منهاج الإستقامة؟! فإن الدكتور يقول عنه: خلط بين المنقول والمعقول؟! ونحن نسأل الدكتور هل قرأ هذا الكتاب؟ وهل وصلت إلى يده نسخة منه، فطالعها وتبين له أن العلامة قد خلط المنقول بالمعقول؟ لا نعتقد ذلك أبداً؟! وإنما هو إجترار لكلام إبن تيمية ليس إلا، لأننا على يقين بأن الدكتور المحترم لو يقتني له نسخة من هذا الكتاب من مطابع بيروت ويعكف على قراءتها بتمعن وموضوعية لإنتهى به الأمر إلى الكفر بإبن تيمية، ولرفع صوته معنا، بأن شيخ الإسلام هو الذي خلط المنقول بالمعقول، وافترى على الحقيقة والتاريخ، وبهت الرجل!؟.

ثم يضيف الدكتور «وقد إنتدب إبن تيمية للرد عليه ـ أي على الحلي ـ في مجلدات يقول عنها إبن كثير في تاريخه المشهور «أتى فيها إبن تيمية بما يبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة». ثم يقول بعد ذلك إبن كثير عن إبن مطهر «إبن مطهر الذي لم تطهر خلائقة ولم يتطهر من دنس الرفض»[٤٠].

ماذا نقول لهذا المؤرخ؟! إنه تلميذ إبن تيمية وصنيعته؟ وقد سن إبن تيمية لتلاميذه وأتباعه سنة السب والقدح، فهم يتوارثونها خلفاً عن سلف؟! مع ان

---

(٣٩) مناظرات إبن تيمية مع فقهاء عصره، أنظر الهامش، ص٢١.

(٤٠) المرجع السابق، ص٢١، نقلاً عن البداية والنهاية، ١٢٥/١٤.

في حوادث سنة٣٧٥: «فيها في عاشوراء عملت البدعة الشنعاء على عادة الروافض، ووقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة (الحنابلة) والرافضة، وكلا الفريقين قليل عقل أو عديمه، بعيد عن السداد. وذلك ان جماعة من أهل السنة أركبوا إمرأة وسموها عائشة، وتسمى بعضهم بطلحة، وبعضهم بالزبير. وقالوا: نقاتل أصحاب علي. فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير»[١٥].

إنه الصراع ضد الإمامة الذي انفجر مبكراً كما أسلفنا، مازال يحرك الضغائن ويبعث على الحروب، حروب الإستئصال الذي بدأها بنو أمية! ولست أدري كيف أباحوا لأنفسهم القول: «نقاتل أصحاب علي» ألم يعترف إمامهم أحمد بن حنبل بخلافة الإمام علي. وأعلن بأن لا يناكحوا ولا يكلموا من لا يقول بالتربيع وبخلافة الإمام؟ فكيف بهؤلاء الحنابلة يرفضون قول إمامهم؟! ويضربون به عرض الحائط؟!.

إن هذا الموقف يؤكد لنا بأن ما يسمى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ليس إلا مجموع آراء وعقائد وأهواء هؤلاء الحشوية، وأن ليس لأحمد إلا الإسم والشعار، زيادة في التحريف والتزويرا.

وفي سنة ٣٨٩هـ: «وفيها أرادت الشيعة ان يصنعوا ما كانوا يصنعونه من الزينة يوم غدير خم، وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، فيما يزعمونه، فقاتلهم جهلة آخرون من المنتسبين إلى السنة، فادعوا: أن في مثل هذا اليوم حصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر في الغار. فامتنعوا من ذلك»[١٦].

---

(١٥) البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٢٧٥ . أنظر المرجع السابق ، ص٢٢ .

(١٦) البداية والنهاية ، ج١١ ص٣٢٥. يقول المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي : «واستمر أهل السنة يعملون هذا العيد المزعوم دهراً طويلاً. وقد أظهروا فيه الزينة، ونصب القباب، وايقاد النيران...الخ» ، انظر صراع الحرية في عصر المفيد ، ص٢٣ .

الحقيقة ان هذا النص يلقي بعض الضوء على ما ألمحنا اليه سابقاً من أن معاوية بن أبي سفيان كان قد أمر الأعراب من الرواة باختلاق روايات تخالف كل ما كان علي بن أبي طالب يفعله أو يقوله أو يتصف به. فعلي عليه السلام كان يقرأ البسملة في بداية الصلاة ويجهر بها. فجاءت الأحاديث لتلغي البسملة من الصلاة نهائياً وتعتبرها بدعة، واصبحت اختياراً مذهبياً مميزاً. وهنا في هذا النص يقول إبن الأثير إن المنتسبين للسنة «حشوية الحنابلة» ادعوا ان في مثل يوم عيد الغدير، حصر النبي(ص) وأبو بكر في الغار. وجعلوا ذلك يوم احتفال لهم. ولا شك أن التاريخ سجل ذلك، ولاشك ان بضع أحاديث قد قيلت ورويت عن الرسول وصحابته لإثبات ذلك. وهكذا فإن هذا الصراع الحنبلي الشيعي سينجم عنه تحريف واسع النطاق لتاريخ الإسلام وعقائده؟!.

فكل عقيدة أو رأي أو عادة للشيعة سيوضع لها مقابلها المزيف؟ إن يوم عاشوراء هو يوم مقتل الحسين بن علي على يد يزيد الأموي وهذه حقيقة تاريخية مجمع عليها، ويوم غدير خم، حادثة تاريخية مجمع على وقوعها وان اختلف في تفسيرها. وعليه فإن الشيعة كانوا يعتمدون التاريخ الحقيقي، ويحتفلون بوقائع مسطورة ومجمع على صحتها ووجودها. لكن الحنابلة لما أعيتهم الحيلة، ولم يستطيعوا القضاء على هذه الحقائق وعلى المؤمنين بها، إلتجؤوا إلى الأختلاق ووضع وقائع وتواريخ مزيفة لا وجود لها لا في التاريخ ولا في الواقع؟!.

وفي هذا السياق نفسه يقول إبن كثير، حوادث سنة ٣٨٩هـ «ولما كانت الشيعة يصنعون في يوم عاشوراء مأتماً، يظهرون فيه الحزن على الحسين بن علي، قابلتهم طائفة أخرى من جهلة السنة. فادعوا ان في اليوم الثاني عشر من المحرم قتل مصعب بن الزبير، فعملوا له مأتماً، كما تعمل الشيعة للحسين، وزاروا قبره، كما يزار قبر الحسين، وهذا من باب مقابلة البدعة ببدعة مثلها.

إبن كثير لم يكن يعرف عن إبن المطهر ـ وليس «مطهر» كما ورد في النص ـ شيئاً. إلا سماعه بنبوغه الذي انتشر في الآفاق، وانتصاره لعقيدة الإمامية. والإسلام والخلق الرفيع يقضيان بمعالجة آراء القوم وأفكارهم والرد عليها بموضوعية وليس تجريح ذواتهم والتعرض لأخلاقهم. ولنا وقفة أخرى مطولة مع الدكتور الجميلي لأنه سينتصر لإبن تيمية بما لم يثبت تاريخياً وقوعه.

ويكفي أن نرد على هذا الكلام بما قاله مؤرخون آخرون أكثر موضوعية من إبن كثير. قال الصفدي، وقد عاصره: هو الإمام العلامة ذو الفنون، صاحب التصانيف التي اشتهرت في حياته. وكان إماماً في الكلام والمعقولات كان يصنف وهو راكب، وكان ريض الأخلاق، مشتهر الذكر، تخرج به أقوام كثيرة[٤١].

وقال إبن حجر: هو عالم الشيعة وإمامهم ومصنفهم، وكان آية في الذكاء، اشتهرت تصانيفه في حياته، وكان مشتهر الذكر وحسن الأخلاق[٤٢].

والعلامة الحلي كان قد درس على عدد من كبار علماء أهل السنة مثل علي بن عمر الكاتبي القزويني الشافعي، وبرهان الدين محمد بن محمد النسفي الحنفي، وإبن الصباغ الحنفي. كما كانت له مع القاضي البيضاوي الشيرازي، صاحب التفسير، المتوفي (٦٨٥هـ) مكاتبات تفصح عن الخلق الإسلامي والعلمي النبيل، ومن تلك المكاتبات، كتاب بعثه البيضاوي فصدره بقوله: مولانا جمال الدين، أدام الله فواضلك، أنت إمام المجتهدين في علم الأصول... فأجابه إبن المطهر بكتاب استهله بقوله: وقفت على إفادة مولانا الإمام أدام الله فضائله، وأسبغ عليه فواضله[٤٣]. أنظر ففي الوقت الذي يصفه أعلام المؤرخين والفقهاء من أهل السنة بالعلم والذكاء وحسن الخلق، يقول

(٤١) الوافي بالوفيات، ج٣، ص٧٩، نقلاً عن صائب عبدالحميد ، م س ، ص٢٠٤.

(٤٢) ذيول العبر ، ج٤ ، ص٧٧ ، أنظر المرجع السابق ، ص٢٠٤.

(٤٣) أنظر لمزيد التفصيل أعيان الشيعة ، ج٥ ص٤٠١ ، والمرجع السابق ، ص٢٠٥ - ٢٠٦ .

عنه إبن كثير تلميذ إبن تيمية «لم تطهر خلائقه»؟!!.

□ ابن تيمية ومنهاج السنة :

ونرجع إلى «منهاج السنة في نقض كلام الشيعة والقدرية» لإبن تيمية، نقلب صفحاته، لنرى ماذا يخبيء فيه «الشيخ» للإمامية من ادعاءات وافتراءات رخيصة. وبما أن المقام لا يسع للتعرض لكل ما جاء في الكتاب والرد عليه فسنكتفي ببعض الأمثلة، ويمكن الرجوع للدراسات المختصة في هذا الموضوع وهي كثيرة[٤٤].

لقد ناقش إبن تيمية الشيعة الإمامية في مجمل عقائدهم، وعارضها بعقائد المذهب الحنبلي. يقول في باب التوحيد مثلاً: «وهم يدخلون في التوحيد نفي الصفات والقول بأن القرآن مخلوق وان الله لا يُرى في الآخرة، ويدخلون في العدل التكذيب بالقدر وأن الله لا يقدر ان يهدي من يشاء، ولايقدر ان يضل من يشاء» [٤٥].

وذهب إلى ان الشيعة في عقيدة التوحيد قد اتبعوا المعتزلة والقدرية، وتارة يتبعون المجسمة والجبرية [٤٦]. لكن الدكتور يوسف محمود يرد على هذا الخلط والخبط فيقول: «إن من الواضح والبين من كتب مفكري الشيعة السابقين على «إبن مطهر الحلي» والشيعة المحدثين: ان عقيدة التوحيد لديهم بصفة عامة صافية كل الصفاء، وخالية من كل تشبيه أو تجسيم، وذلك ان هؤلاء الشيعة في أبحاثهم العقدية وخاصة عقيدة التوحيد قد اعتمدوا على القرآن والسنة النبوية، وإذا أخذنا على سبيل المثال الشيخ الصدوق «المتوفي

---

(٤٤) مثل منهاج الشريعة في الرد على منهاج السنة، للسيد مهدي بن صالح القزويني، و «إكمال المنة في نقض منهاج السنة» لسراج الدين الحسن بن عيسى اليماني اللكهنوي.

(٤٥) على دروب التقريب بين المذاهب الإسلامية، ص١٢٤، نقلا عن منهاج السنة، ج١ ص٧٩.

(٤٦) المرجع السابق ، ص١٢٤ .

سنة ٣٨١هـ» لوجدنا بأنه يثبت هذه العقيدة الصافية والمطابقة للقرآن الكريم والسنة النبوية (٤٧).

وإبن تيمية عندما يتهم الشيعة بالتشبيه والتجسيم وهم رواد التنزيه، يرد عليه السبكي الشافعي الذي قرأ كتابه متهماً إياه بنفس التهمة، ويزيد عليه بأنه سقط فيما وقع فيه الفلاسفة من الإيمان بتسلسل الحوادث إلى ما لانهاية، وهذه نكته عقائدية كنا قد ذكرناها في فصله. كيف يتهم من سماه أهل السنة «بشيخ أهل التشبيه والتجسيم» الشيعة الإمامية بهذه التهمة؟! ولا ينفع الجدل هنا، لأن كتب الشيعة في التوحيد مطبوعة وموزعة، وعلى من أراد التحقيق ان يرجع إليها. فليس الإدعاء كالحقيقة!.

□ ابن تيمية يرد الأحاديث الجياد :

ولما راجع الكتاب عالم الحديث إبن حجر، المعتمد لدى السلفية اليوم، قال عنه: «لكن وجدته كثير التحامل إلى الغاية في رد الأحاديث التي يوردها إبن المطهر! وان كان معظم ذلك من الموضوعات والواهيات، لكنه رد في رده كثيراً من الأحاديث الجياد، التي لم يستحضر حالة التصنيف مظانها لأنه كان لإتساعه في الحفظ يتكل على ما في صدره والإنسان عامد للنسيان!. وقال: وكم من مبالغة لتوهين كلام (الرافضي) أدته أحياناً إلى تنقيص علي عليه السلام؟!!(٤٨).

هذا هو رد إبن تيمية العلمي والموضوعي، رفض أحاديث الرسول وان كانت كما قال إبن حجر «من الأحاديث الجياد»، ثم انتقاص الإمام علي عليه السلام!؟. رد سنّة الرسول(ص) والتهجم على الرجل الذي نصر الله الإسلام

---

(٤٧) موقف إبن تيمية من الشيعة (دراسة مقارنة) ضمن المرجع السابق. للدكتور يوسف محمود محمد الصديقي مدرس الفلسفة والعقيدة جامعة قطر.

(٤٨) إبن تيمية ، صائب عبدالحميد ، ص٢١٧ - ٢١٨، نقلاً عن لسان الميزان ، ج٦ ، ص٣١٩ .

بسيفه وجهاده، رجل ولد في الكعبة وقتل في المحراب، وقدم للإسلام ولنبي الإسلام مالا يجرؤ أحد ان يدعي مثله، إلا كاذب أو مفتر. لكنه الحقد الأموي، والبغض لأهل بيت رسول الله، الذي ورثه إبن تيمية من تراث الحشو الحنبلي الذي يمدح معاوية وطلحة والزبير، وينتقص الإمام عليا وذريته.

وكيف يرد إبن تيمية أحاديث الرسول، ألا يؤمن إبن حجر وأمثاله أن رد السنة هو كفر بها؟! أم ان عذر النسيان يمحو هذه الخطيئة؟! وهل يباح أو يجوز النسيان هنا؟! إن فتاوى التكفير وإباحة الدماء ستنبني على هذا النسيان؟!.

الجزء الأول، وقسم من الجزء الثاني الذي خصه إبن تيمية لمعالجة قضايا التوحيد، سينتهي فيه إلى عرض عقيدة التشبيه والتجسيم، ونسبتها إلى السلف الصالح، وقد تكفل أهل السنة بالرد عليه ونسف عقيدته، أما ما يخص الشيعة، كتعريف التشيع، وإمامة أهل البيت وفضلهم، فإنه قد أخفق اخفاقاً ذريعاً في أن يقارب الحقيقة، أو يتمسك بحبل الصواب. بل شط بعيداً، وهوى به حقده وتعصبه لبني أمية، في مكان سحيق.

□ الأحاديث الضعيفة والأساطير الواهية :

وهو إن كان قد رفض أحاديث إبن المطهر التي أوردها نقلاً عن مصادر أهل السنة والحشوية، بحجة أنها ضعيفة أو واهية. فإنه سيحشو كتابه «منهاج السنة» بكم هائل من احاديث الحشو التي وضعت للحط من مكانة أهل البيت، وتزوير الحقائق التاريخية الإسلامية، أحاديث تكفي قراءتها لبيان تهافتها وعدم صحتها.

إنك سترى كما يقول الباحث صائب عبدالحميد: «رجلاً آخر سترى إبن تيمية وهو يتحصن بالواهيات ويحشو أسس حصنه بما يشهد عليه بنفسه أنه لاحظ له من الصحة، ولا سبيل إلى دفع شبهة الوضع عنه، ثم يقيم عليه

كلاماً أشد تهافتاً، وينقض بعضه بعضاً، من حيث يدري أو لا يدري لكنها وسيلته الوحيدة في مواجهة خصمه(٤٩).

سيدعي بأن التشيع من تأسيس عبدالله بن سبأ اليهودي، هذه الشخصية الأسطورية التي صنعها أعداء الشيعة لمواجهتهم. والتي يقول عنها الدكتور طه حسين: «إن السبئية وصاحبهم إبن السوداء - إبن سبأ - إنما كان متكلفاً منحولاً قد اخترع بأخرة حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية، أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم والنيل منهم»(٥٠)، وطه حسين ليس شيعياً، ولكنه البحث العلمي الذي يكشف الحقائق ويرد الخرافات والأوهام. ولنا وقفة بعد قليل مع إبن سبأ واقوال المحققين من العلماء فيه.

لقد إعتمد إبن تيمية أقوال الشعبي لوصف الشيعة وبيان أخبارهم، لأنه في نظره كان أخبر الناس بهم. وهذا الشعبي هو عامر بن شراحيل. كان قاضي الكوفة في عهد بني أمية، وصحب عبدالملك بن مروان الأموي وكان أمين سره، وشارك في المؤامرات السياسية. ونحن نعلم ان بني أمية لم يكونوا يقربون إلا من كان يبغض علياً وشيعته. وقد كان الشعبي كذلك. لقد اتهم الشعبي الحارث الأعور الهمداني بالكذب، وهو من أصحاب علي بن أبي طالب. يقول إبن عبدالبر: أظن ان الشعبي عوقب على تكذيبه الحارث، لأنه لم تبن منه كذبة أبداً، وإنما نقم عليه إفراطه في حب علي(٥١).

لقد إستحل بنو أمية وأتباعهم الكذب، وألصقوا بخصومهم ما هم به متلبسين. وجاء إبن تيمية ليغرف من هذه الأكاذيب ويصنع منها رداً، يقول

(٤٩) المرجع السابق، ص٢٣٦.

(٥٠) علي وبنوه المجموعة الكاملة لمؤلفات د. طه حسين، ج٤، ص٥١٨هـ نقلاً عن المرجع السابق، ص٢٣٨ .

(٥١) تهذيب التهذيب، ج٢، ص١٢٧. نقلا عن المرجع السابق، ص٢٤٤ .

عنه إبن كثير تلميذه بأنه «من الأشياء المليحة الحسنة». وفعلاً فما أحلى الكذب عندما تعوز الخصم الحجة والدليل؟!.

والمضحك ان شيخ السلفية يتهم الشيعة بأنهم «ليسوا أهل علم وخبرة بطريق النظر والمناظرة ومعرفة الأدلة والأحاديث» في الوقت الذي يصف البيضاوي صاحب التفسير وهو أحد كبار علماء أهل السنة إبن المطهر الحلي عالم الشيعة بأنه إمام المجتهدين في علم الأصول»!؟.

والصفدي يقول عنه كما مر معنا «كان إماماً في الكلام والمعقولات»؟! ونحن على يقين بأن إبن تيمية وأتباعه من السلفية قديماً وحديثاً، لواجتمعوا لفهم كتاب «الألفين في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»[٥٢] لما استطاعوا ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. إلا ان يرشدهم أستاذ في علوم العقل والنقل. وإبداعات علماء الشيعة في الأصول والكلام والمنطق تملأ المكتبات، وليس تحصيلها عسيراً على من أراد أن يكشف الحقائق بنفسه.

وبالجملة فقد رام «الشيخ» بعدما أعياه الدليل إلى جمع كل ما قيل في الشيعة من مثالب وأقوال ولم يرد أن يميز بين الغلاة والمنحرفين من الفرق التي تنسب إلى الشيعة وبين الشيعة الإمامية. الذين يبرؤون؟ من الغلاة ويكفرونهم. وفي ذلك نصوص وأحاديث كثيرة عن الأئمة.

على أننا نجد إلتفاتات من الشيخ الحنبلي لهذا الأمر في منهاجه، فبعد عرضه لعقائد القوم المختلفة يقول: «لكن قد لا يكون هذا كله في الإمامية الإثني عشرية، ولا في الزيدية، ولكن كثير منه في الغالية، وفي كثير من

---

(٥٢) يقول المؤلف: «هذا الكتاب الموسوم بـ«كتاب الألفين» الفارق بين الصدق والمين، فاوردت فيه الأدلة اليقينية والبراهين العقلية والنقلية الف دليل على إمامة سيد الوصيين علي إبن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام، والف دليل على أبطال شبه الطاعنين واوردت فيه من الأدلة علي باقي الأئمة عليهم السلام ما فيه كفاية للمسترشدين» أنظر الكتاب طبع مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣ ــ ١٩٨٢م .

سبط إبن الجوزي: قال الحاكم أبو عبدالله النيسابوري: حديث الطائر صحيح، يلزم البخاري ومسلم إخراجه في صحيحيهما لأن رجاله ثقات، وهو على شرطهما[٥٨].

ماذا يقول علماء السلفية عندما يكذب شيخهم السلفي على علماء الحديث فالحاكم صحح الحديث، لكن إبن تيمية يقول لم يصححه؟! ان هذا العمل هو الذي يشرح قول إبن حجر السالف الذكر من أن الشيخ رد الأحاديث الجياد. ان الإنتصار لملوك بني أمية أعداء الإسلام والإنسانية، قد أعمى الشيخ وصمه، لدرجة رد أحاديث الرسول(ص) وضربها عرض الحائط.

وكذا فعل مع حديث الإنذار، الذي ذكره أهل التفسير عندما، شرحوا قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (الشعراء، الآية٢١٤). وهذا الحديث يعلن صراحة وبوضوح كون الإمام علي هو الوصي والخليفة. وقد رأينا كيف حرفه إبن كثير أو حرفه الذين طبعوا كتابه. بل إن الشيخ الحنبلي سيتنكر لبعض الحقائق الواضحة والتي لا تحتاج إلى عناء للتحقق منها. فهو يقول عن سورة الدهر أنها «مكية باتفاق العلماء»[٥٩]. وسورة الدهر أو الإنسان مدنية، باتفاق الأمة وهذه المصاحف بين أيدينا تشهد على ذلك؟! ولا ندري، ألم يكتف الشيخ بضرب السنة وتجريحها، فهل انتقل إلى القرآن لتغيير حقائقه. نقول هذا الكلام للسلفية، ليسرعوا إلى تصحيح عثرات شيخهم، لأنها عثرات قاتلة؟!.

إن كذب الشيخ على علماء الحديث والمفسرين، وتحريف أقوالهم، كثير جداً في منهاجه، وقد جئنا بهذه الأمثلة لمعرفة منهجه وطريقة رده على الشيعة الإمامية، ولو كان المقام يسع لجئنا بعشرات الأمثلة على هذا التحريف والكذب الصريح على علماء الإسلام وتراثهم. ومن أراد الإستزادة فعليه

---

(٥٨) صائب عبدالحميد ، م س ، ص٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٥٩) منهاج السنة ، ج٢ ص١١٧ ، أنظر المرجع السابق ، ص٣٠٧ .

بكتاب «إبن تيمية حياته، عقائده، موقفه من الشيعة وأهل البيت» للباحث صائب عبدالحميد، وهو من مراجع هذا الكتاب. فقد تتبع كلامه في منهاجه وحققه، فجاءت الحقائق دامغة، نقضت بنيان صاحبه وأبانت عن عوار قصده وتأليفه.

□ الشيخ الحنبلي يجترئ على مقام النبوة :

لكن الذي لا يُسكت عنه أبداً، هو تجاوز الشيخ الحنبلي حده، واجتراؤه على مقام النبوة والرسالة، عندما بدأ يحدد ما يقصده الرسول من كلامه دون قرينة أو معتمد، وهذا عمل خطير، ينذر بعواقب وخيمة قد تلحق شريعة الإسلام من جراء ذلك، خصوصاً إذا تبعه أصحابه ونهجوا نهجه.

فهو يقول بعد ذكر الحديث الذي رواه البخاري عن قول الرسول(ص) لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» يقول الشيخ: ليس فيه أية مزية لعلي، ولا فيه ما يشير إلى حقيقة الإستخلاف، وما هو إلا كلام أراد منه النبي إيناس علي لا غير[٦٠]. وعلى هذا التفسير فإن هارون لم تكن له أية مزية؟! فهو كباقي أفراد بني إسرائيل؟! وإذا كانت له مزية النبوة، فهل كلام الرسول لغو في لغو؟! حاشاه فما كان ينطق عن الهوى. ولماذا جاء بهذه المقارنة؟!.

ألا يفهم الإنسان العادي من كلام رسول الله ان لعلي ميزة عند رسول الله، كما كان لهارون ميزة عند موسى عليه السلام؟ لكن هارون كان نبياً وعلي إبن أبي طالب ليس كذلك. والحديث واضح الدلالة في أن علياً يشبه هارون في مؤازرة الرسول ودعمه والوقوف بجانبه، وسيرة علي شاهدة على ذلك. ومن يدعي بأنه كان أكثر مؤازرة من علي للرسول(ص). فكتب السيرة

---

(٦٠) الحديث في صحيح البخاري ، ج٥ ص٨٩. ورواه مسلم، ج٤ ، ص١٨٧٠ . وأحمد بن حنبل في مسنده ، أنظر صائب عبدالحميد، ص٣١٠ .

ستكذبه؟!.

ومن أخبر إبن تيمية بأن الرسول أراد أن يؤنس علياً بقوله هذا؟! إنه تقول على الرسول. وسوء أدب في حقه عليه الصلاة والسلام. لكنه الحقد الأعمى، ومعاداة أولياء الله، انتصاراً للظلم والإنحراف عن صراط الأنبياء والمرسلين.

□ الشيخ يتنكر لجهاد الإمام علي وينقد أعماله :

ويتابع شيخ الإسلام مسيره في منهاجه السني، يعرض بالإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ويتتبع سيرته وينتقد تصرفاته ومواقفه، في جرأة لم يفعلها أحد قبله ولا بعده. مما حدا ببعض علماء أهل السنة لإتهامه بالنفاق، فقد صح عن الرسول(ص) قوله لعلي عليه السلام. «لايحبك الأ مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق». وهذا الحديث رواه أحمد بن حنبل إمام السلفية الكبير. الذي نقل عنه الطوسي، سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما روي في فضائل أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسانيد الصحاح ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[61].

لقد رفض إبن تيمية أن يكون علي بن أبي طالب محقاً في حروبه، خصوصاً مع معاوية، وهذا بخلاف ما أجمعت عليه الأمة. وكتب التواريخ شاهدة على ذلك.

ورفض أعلمية الإمام علي، وهو هنا لا يرد الحقائق المسلمة. بل يرد أحاديث الرسول التي صرح أئمة الحديث بصحتها؟! وتنكر لجهاده عليه السلام، وأدار ظهره لكل الوقائع التاريخية. لقد كذب هذا الرجل «السلفي» على كل الناس، رد أقوال الرسول، ورد أقوال المحدثين والفقهاء والمؤرخين، وأغمض عينيه ووضع في أذنيه وقرا، فهو لا يسمع ولا يرى. وليس العيب إلا

---

(٦١) طبقات الحنابلة لإبن أبي يعلى، ص٢٣٥ .

على من يتخذه إماماً وقدوة، لكن الطيور على أشكالها تقع.

إن المستشرقين والكفار لم يفعلوا بحقائق الإسلام ما فعل بها «شيخ السلفية» فهنيئاً لأتباعه به. وإنما نوجه كلامنا للعقلاء من أبناء الصحوة الإسلامية، وندعوهم لقراءة «منهاج السنة» ثم مراجعة كتب الحديث والتواريخ، ليروا بأم أعينهم مبلغ التحريف والكذب على الحقيقة.

وبهذا المنهج عالج الشيخ أحداث السقيفة وخلافة الخلفاء الثلاث، وما جرى في خلافة الإمام علي، من فتن وقلاقل. لكن لا يسع المجال لذكر بعض أمثلته. لقد انطلق الشيخ من فكرة النقض لكل ما يتشبث به الإمامة من حقائق، تصب في دعم عقيدة الإمامية. لذلك ضرب بعرض الحائط كل ما وجد أمامه من أحاديث النبوة وأقوال العلماء. هذا من جهة، من جهة أخرى دافع عن خصوم أهل البيت دفاعاً مستميتاً، برر أعمالهم، وأول النصوص الصادرة عنهم بما يفيد إتهامهم. ولم يترك وسيلة تقربه من هدفه الا وركبها. وبالجملة لقد كان لسان شيخ الإسلام وقلمه أكثر حدة من سيوف بني أمية خصوم أهل البيت؟!.

□ قتل الحسين (ع) ليس بأعظم من قتل الأنبياء؟ :

يعترف إبن تيمية بأن معاوية قد قتل الحسن بن علي عندما دس عليه من سمه. لكن الشيخ يعتبر قتل إبن بنت رسول الله أمراً اعتيادياً، وهو من قبيل «قتال بعضهم بعضاً»[٦٢]. بل لا يشك أحد في ان معاوية كان مجتهداً متأولاً، وهو مأجور على قتله الإمام الحسن بن علي. أليس كذلك؟!! وإذن أين حكم القرآن؟ هل نسي شيخ السلفية ـ لفرط حبه لمعاوية ـ ان الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾[٦٣].

(٦٢) منهاج السنة، ج٢ ص٢٢٥، أنظر صائب عبدالحميد، ص٣٧١.

(٦٣) سورة النساء، الآية: ٩٣.

أم أن أحكام القصاص لم تنزل للمسلمين، كما إدعى معاوية من قبل، بأن حكم كنز الأموال نزل في أهل الكتاب وليس في المسلمين؟!!.

أم أن حكم الإسلام في الدماء قد إستثني منه الصحابة والخلفاء؟! نحن نعلم أن للفقهاء أبواباً فقهية تعالج حكم من قتل حشرة أو حيواناً مهما صغر حجمه في الحرم المكي. لكن ما بال هذه الدماء والأرواح؟! ما هو حكم قتل الإمام الحسن بن علي؟! هل يستطيع دعاة السلفية ان يجيبونا عن هذا السؤال!!. أم سيطلبون منا أن نلزم الصمت، أن نسكت، فتلك أمة قد خلت!! ولا شأن لنا فيما وقع بين الصحابة؟!.

إن هذا الأمر ـ أي السكوت ـ لن يتسنى لنا إلا إذا ضربنا كشحاً عن الإسلام ككل. وابتعدنا عن الإلتزام بالدين، فهل يعقل أن يؤمن الناس بدين لا تاريخ له؟!. ويبقى السؤال معلقاً ويحتاج إلى جواب. ما هو حكم قتل الإمامين الحسن والحسين إبني علي بن أبي طالب، وقبلهما حجر بن عدي وأصحابه والمئات من الأرواح التي أزهقت بسيف معاوية بن أبي سفيان وبني أمية؟!!.

قتل الحسين بن علي في كربلاء ومن معه من أولاده وأصحابه. فماذا يقول «شيخ الإسلام» في ذلك؟! يقول: «ويزيد ليس بأعظم جرماً من بني إسرائيل، كان بنوا إسرائيل يقتلون الأنبياء، وقتل الحسين ليس بأعظم من قتل الأنبياء»[٦٤]. وإذن، أين هو المشكل؟! يستطيع أي حاكم أن يقتل أي شخص من رعيته، وإذا قيل له لماذا؟! يجيبهم بأن المقتول ليس أفضل عند الله من أنبيائه الذين قتلتهم بنو إسرائيل؟! هذا هو الحكم السلفي في الدماء، دماء المظلومين والأبرياء!!.

---

(٦٤) منهاج السنة، ج٢ ص٢٤٧، أنظر المرجع السابق، ص٣٧٢.

□ الدفاع عن الظلم والاجرام :

لكن إبن تيمة سيعترف بوقعة الحرة التي قتل فيها جيش يزيد بن معاوية عشرة آلاف مسلم من التابعين وأبنائهم، وفضت بكارة ألف عذراء من بنات أهل المدينة سفاحا واغتصابا. وقع هذا في مدينة الرسول(ص)، وإبن تيمية لا يسعه إنكار الحادثة، وان انكر عدد القتلى دون دليل طبعاً(٦٥).

لكنه سيهرع بحثاً عن حسنات ليزيد علها تستر هذه المخازي والموبقات؟! وفعلاً وجد الشيخ ضالته، قال إن يزيد إبن معاوية شارك في غزو القسطنطينية وأن الرسول ـ كما يدعي الكذبة ـ قال: أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له. لكن هذا الحديث الواهي لم يعرفه عامة علماء الحديث، ولابد أنه صُنع بعدما انتشر السخط من أفعال يزيد. فأراد بنو أمية أن يختلقوا له فضيلة تستر عواره. لكن هيهات، فحتى مشاركته في جيش القسطنطينية كانت مؤامرة وتدليس من معاوية لتهيئته للخلافة من بعده، ولسنا نحن نقول ذلك، بل التاريخ هو الذي يفضح هذه المؤامرات والدسائس الأموية.

أما حرق يزيد للكعبة المشرفة فإن شيخ الإسلام يدعي بأنه لم يكن يقصد ذلك، وانما كان يحارب إبن الزبير فوقع حرق الكعبة.

إلى غير ذلك من التأويلات الغريبة دفاعاً عن الظلم والإنحراف. وعلماء أهل السنة يتبرؤون من يزيد ويلعنونه، لعنه الإمام أحمد بن حنبل، وذكر القاضي أبو يعلي الحنبلي انه ممن يستحق اللعن. وقال إبن عقيل الحنبلي ومما يدل على كفره وزندقته فضلاً عن سبه ولعنه أشعاره التي افصح بها بالإلحاد وأبان عن خبث الضمائر وسوء الإعتقاد(٦٦).

---

(٦٥) يقول عبدالله بن حنضلة إبن الصحابي الجليل حنضلة الذي غسلته الملائكة: «والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا ان نرمي بالحجارة من السماء! انه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات، والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة» انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي.

(٦٦) انظر تذكرة الخواص لسبط إبن الجوزي، يقول: «ولما لعنه جدي أبو الفرج على المنبر ببغداد بحضرة الإمام الناصر وأكابر العلماء قام جماعة من الجفاة من مجلسه فذهبوا ==

وإبن تيمية عندما يعرض لفاجعة مقتل الإمام حسين عليه السلام، يقول بأن يزيد لم يأمر بقتله ولا رضي بذلك. بل ينحو باللوم على الإمام حسين، لأنه خرج على يزيد؟ وأراد أن يفسد عليه ملكه؟! وعليه فقد لقي حتفه وجزاءه[٦٧]. وهو بذلك يخالف ما أجمعت الأمة قاطبة عليه. فإبن الأثير في كامله ينقل عن عبيد الله بن زياد بأنه قتل الحسين لأن يزيد بن معاوية هدده بالقتل إن لم يقتل الحسين. لكن شيخ الإسلام ينفي ذلك؟! ودون مستند.

إن شيخ السلفية في «منهاجه السني» قد عقد العزم على تحريف الحقائق التاريخية، وتزوير الوقائع، دفاعاً عن إيمان بني أمية وفضلهم. والحط على أهل بيت النبي(ص). فهو يرفض الأحاديث الصحيحة في فضل أهل البيت ويشكك في سندها أو يؤول متنها، بينما يتشبث بأوهى الروايات وأضعفها إنتصاراً لمعاوية وإبنه يزيد.

يقول الباحث المصري صالح الورداني: «بقدر ما كنت أجل هذا الرجل المدعو إبن تيمية وأكن له إحتراماً عظيماً طوال فترة نشأتي الإسلامية، بقدر ما أصبحت أبغضه وأحط من قدره بعد تبين موقفه من يزيد الملعون.... ولقد تمادى إبن تيمية في موقفه المتحالف مع بني أمية حتى أنه خطأ الحسين وانتقده

= فقال جدي «ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود» (ص٢٩٠ ـ ٢٩١) يقول إبن العماد الحنبلي: قال التفتزاني في (شرح العقائد النسفية): «اتفقوا على جواز اللعن على من قتل الحسين أو أمر به، أو أجازه، أو رضي به، والحق أن رضا يزيد بقتل الحسين واستبشاره بذلك وأهانته أهل بيت رسول الله(ص) مما تواتر معناه وان كان تفصيله آحاد، فنحن لا نتوقف في شأنه، بل في كفره وإيمانه، لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه» أنظر شذرات الذهب ج١ ص٦٨ - ٦٩ . عن صائب عبدالحميد. م س ، ص٣٨٦ .

(٦٧) يقول سبط إبن الجوزي في قتلة الإمام الحسين: «قال الزهري: ما بقي منهم أحد الا عوقب في الدنيا، إما بالقتل أو العمى أو سواد الوجه أو زوال الملك في مدة يسيرة. وقال جدي أبو الفرج في المنتظم عن إبن عباس قال: أوحى الله إلى محمد(ص) اني قتلت بيحيي بن زكريا سبعين ألفا واني قاتل بـابن فاطمة سبعين ألفا وسبعين ألفا» تذكرة الخواص، مكتبة نينوى الحديثة طهران ، ص٢٨٠.

لخروجه على يزيد ملقياً عليه بتبعة مأساة كربلاء[٦٨].

إن من يريد من أبناء الصحوة الإسلامية أن يعرف هذه الحقائق، ويعرف كذلك مدى الكذب السلفي وتحريف التراث، عليه أن يراجع كتب التاريخ المختلفة، ثم بعدها فليقرأ منهاج السنة. وله بعد ذلك أن يتخذ الموقف المناسب من شيخ الإسلام ومن أتباعه اليوم.

□ أتباع ابن تيمية يسلكون نهجه :

وبعد هل إبن تيمية وحده الذي يكذب ويفتري على التاريخ والحقيقة؟! إن أتباعه ومحبيه قد استنوا بسنته. وقد هالني وأنا أقرأ كتاب «مناظرات إبن تيمية مع فقهاء عصره» للدكتور سيد الجميلي، ما وجدته من مغالطات فظيعة. فقد أورد هذا الدكتور مناظرة بين إبن تيمية وإبن المطهر الحلي عالم الشيعة. وهي مناظرة طويلة في ٣٦ص. يورد فيها قول إبن المطهر ثم يأتي رد إبن تيمية. وأنا أسأل الدكتور الجميلي. اين إلتقى إبن تيمية إبن المطهر الحلي؟. لقد عاش الأول في دمشق ومات بها، وأخذ إلى مصر حيث سجن بها. أما إبن المطهر فعاش في العراق وهو من منطقة الحلة وتوفي بها. ولا وجود لتاريخ يقول بأنه سافر إلى الشام أو دمشق. كما أن احداً لم يقل بأن إبن تيمية قد سافر إلى العراق؟!. فأين التقى الرجلان؟! وأين تناظرا؟!.

السيد الجميلي يقول أنه نقل هذه المناظرة عن كتيب صغير لمحمد مال الله تحت عنوان مطارق النور تبدد أوهام الشيعة. في سلسلة ما أنا عليه وأصحابي، طبع. دار الأنصار بالقاهرة. ويقول إنها مختارة من كتاب (المنتقى) للحافظ الذهبي. ونحن نقول للجميع نريد أن يحدد لنا هؤلاء السلفية مكان وتاريخ إلتقاء إبن تيمية بإبن المطهر؟؟ حتى تسنى لهما أن يتناظرا؟!.

---

(٦٨) الخدعة، رحلتي من السنة إلى الشيعة ، دار النخيل للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١ ١٩٩٥م، ص ٦٩ .

أما إذا رجعنا إلى هذه المناظرة فماذا نجد فيها، نجد ان إبن المطهر عبارة عن تلميذ خائف منتكص للوراء، يطرح الشبهات دون دليل ويسكت. فيقوم شيخ الإسلام بالرد عليه بقوة وعنف، هذا كذب وافتراء على أهل السنة وعلى اهل العلم؟! هذا حديث ضعيف واهي يرفضه أهل العلم؟!.

والغريب في الأمر ان عالم الشيعة لا يناقش الشيخ أو يرد عليه، بإيراد الأدلة النقلية أو العقلية؟! ثم ينتقل الحلي إلى سؤال جديد دون أي اعتراض على ما قاله شيخ الإسلام. وبعد ٣٦ صفحة من الحوار المزعوم يحقق إبن تيمية انتصاراً مطلقاً على الحلي، ويظهر هذا الأخير كمحاور لا يملك الا الشبهات المكذوبة والتافهة؟!.

أما من يقرأ هذه المناظرة فإنه سينتهي إلى أن الشيعة الإمامية فرقة ليس لها حض من العلم ولا يرتكز مذهبها إلا على المغالطات والكذب.

هذا في الوقت الذي كان فيه الحلي زعيم الأصوليين في عصره، وقد شهد له علماء السنة بذلك. ويكفيه كتبه وما خطه يراعه. وما بال كتابه (الألفين) الذي أورد فيه ألف دليل على إمامة علي بن أبي طالب، وألف دليل على إبطال شبه الطاعنين يقول الحلي: «وأوردت فيه من الأدلة على باقي الأئمة عليهم السلام ما فيه كفاية للمسترشدين». لقد كان الحلي من كبار الفلاسفة والأصوليين في عصره، ولم يكن إبن تيمية ليقف ندا له أو مناظراً، إنما هو الإنتصار بالكذب، إنتصارات وهمية على الورق ليس إلا.

لقد عُرض رد إبن تيمية على إبن المطهر، فرآه مفتتحاً بالشتائم والسباب، مشحوناً بالحشو والمغالطات، فماذا كان جوابه؟! قال إبن حجر العسقلاني: كان إبن المطهر مشتهر الذكر حسن الأخلاق، ولما بلغه كتاب إبن تيمية قال: لو كان يفهم ما أقول أجبته[٦٩].

---

(٦٩) صائب عبدالحميد، ص٢١٩، أنظر لسان الميزان، ج٢، ص٣١٧، ونقل الإمام إبن ناصر الدين الدمشقي في الرد الوافر عن الحلي أنه قال رداً على إبن تيمية: =

صدقت يا إبن المطهر، لو كان الرجل يفهم ما تقول، لاستحق منك الرد، ولو أراد ان يفهم لما كان رده على منهاج الكرامة بما حشا به كتابه من تحريفات وتأويلات بعيدة عن الصواب والحق. لكنه كان كبير الشام، وقد وصلت أخبار إبن المطهر وإنتصاراته في المناظرات على علماء مصره، جعلت السلطان يعلن تشيعه. فهل سيقف كبير الشأم مكتوف الأيدي؟!.

لاشك أن مصداقيته كانت ستتزعزع في أعين أتباع بني أمية ومحبيهم، وذكر إمامة علي بن أبي طالب بدأ يغزو الساحة، ويجد من ينتصر له عقلاً ونقلا.

لذلك تحرك الشيخ وكتب منهاج السنة فجاء كما أراده بنو أمية، كل شيء فيه، الكذب والخداع والتمويه وتحريف تراث المسلمين، لكنه خلا من الحقيقة، وإبتعدت عن رحابه الموضوعية، فهنيئاً لأتباع الشيخ السلفي به، وبما تضمنه من تبرير لسفك دماء أهل بيت النبوة.

وقد جاء في الحديث عن يوم القيامة ان الرجل يجد في صحيفته بأنه قتل فلانا، فيهرع قائلاً يارب أنا لم أقتل فلانا، لكن الجواب يأتيه، ألم تقل كذا وكذا؟! إن قولك هذا سفك به دم فلان؟! لقد دافع إبن تيمية عن بني أمية وبرر قتلهم لأبناء فاطمة وعلي بن أبي طالب، وغداً سيكون جدهم(ص) خصمه فليهيء جواباً.

لقد حصدت فتاوى إبن تيمية رؤوس الآلاف من الشيعة في بلاد الشام خاصة، وان كان أغلبهم من الشيعة الإسماعلية. لكن شرارة النار الملتهبة والمنبعثة من فتاوى الشيخ قد أصابت الشيعة الإمامية كذلك وأحرقت كثيراً من أرواحهم وأموالهم. فقد تعرض الإمامية لمذابح جماعية بعد إبن تيمية، في العراق وبلاد الشام، وراحوا ضحية الصراعات السياسية المتلبسة بالتعصب المذهبي، واستفاد خصوم الشيعة من تراث فكري ووقائعي مليء بالكراهية والحقد شرعه بنو أمية

==

لو كنت تعلم كل ما علم الورى طراً لصرت صديق كل العالم
لكن جهلت فقلت ان جميع من يهوى خلاف هواك ليس بعالم

وعمق شرخه بنوالعباس واحتضنه حشوية الحنابلة، يوقدون ناره كلما أوشكت على الإنطفاء.

إن هذا التراث الدموي اللاإنساني سترثه الدولة العثمانية من بين ما ورثت من ملك وسياسة في العالم الإسلامي. وستنطلق حفلات الدم من جديد، وكأن الأرض لم تشبع من هذا الدم الشيعي بعد. وعندما تبحث عن الأسباب والخلفيات تجد فقهاء يدعون الدفاع عن السنة والإسلام، متمركزين في مناصب، ويحتلون مقاعد، لا يمكنهم الإستمرار فيها إلا بإراقة الدم الشيعي البريء. وقد كان ذلك وفي أغلب الأحيان يصادف هوى في صدر الحكام وأمراء الجيش، وعندما يجتمع الإستبداد السياسي بالإستبداد الديني تكون الطامة على المجتمع وعلى فئاته الفكرية والدينية المختلفة.

يقول سماحة آية الله الخالصي من علماء العراق: «كانت الحكومة لا تتحرج من إستئصال الشيعة وقتلهم تحت كل حجر ومدر، وذكر في تاريخ السلطان سليم العثماني أنه كان لا يهتم بشيء أكثر من إهتمامه بإستئصال الشيعة وإبادتهم، وأنه قتل بين سامراء وبغداد في العراق في يوم واحد خمسة وعشرين ألف رجل من غير ذنب سوى أنهم شيعة، وذكرت مؤلفات تركيا الحديثة: ان من أقوى أسباب زوال الدولة العثمانية عداءهم للشيعة وحربهم معهم. وصرح كتاب ألف حديثاً باسم (شيعتك أباد ولده حركاتي) بأمور كانت خافية، تبين أن عوامل التخريب في الدولة العثمانية كادت تكون منحصرة في تعصب الدولة لأهل السنة ضد الشيعة، حتى أنها لم تكن تعترف لهم كمواطنين في البلاد. وكانت تقتل من تظهر له مرتبة علمية من الشيعة كالشهيد الأول محمد بن جمال الدين مكي، والشهيد الثاني زين الدين وأمثالهما..»(٧٠).

---

(٧٠) رسالة الإسلام، السنة السادسة العدد الأول يناير ١٩٥٤م، ص٥٤ - ٥٥. موضوع بعنوان الطوائف الإسلامية في العراق.

قد يقال بأن التجمعات الشيعة داخل الأمبراطورية العثمانية عرفت بعض الهدوء مع بداية الإستعمار الغربي وهجمته الإمبريالية لاقتطاع أراضي الدولة الإسلامية. لأن الخلافة في الإستانة قد انشغلت بالحروب المتعددة مع روسيا ومع الغرب. كذلك ربما نعم الشيعة في العراق ولبنان بيعض الحرية وتنفسوا الصعداء. لكنه هدوء سبق العاصفة. عاصفة هوجاء ستهب من بلاد نجد، تحمل على عاتقها قروناً من الكراهية والحقد الأعمى تجاه الشيعة والتشيع.

□ الشيعة في المنطقة الشرقيـــة:

إنطلقت الحركة الوهابية من نجد وتمكنت بحد السيف من السيطرة على مجمل وسط الجزيرة العربية، وبدأت في نشر الفكر الحنبلي وإحياء التراث الحشوي في العقائد. وفي توسعها الجغرافي اصطدمت بأهل السنة في الحجاز، وبالشيعة الإمامية في المنطقة الشرقية والخليج. وإذا كان الحكم بالشرك قد أباح قتل أهل السنة ومن ثم القضاء عليهم والحلول محلهم، فإن الصراع مع شيعة المنطقة الشرقية سيأخذ أبعاداً أكثر تعقيداً.

فلو رجعنا إلى يوميات الإحتلال الوهابي لمناطق الشيعة فسترى أن الهمجية بلغت مداها، يقول محمد عبدالمجيد: «وفي خريف ١٧٩٣م توجه سعود مع قوات كبيرة إلى الأحساء ونهبت قواته البدوية كل ما صادفته في طريقها وقتلت دون رحمة كل من أبدى مقاومة، ودمرت بساتين النخيل وإستأثرت بمحاصيل التمور ورعت الماشية في الحقول.

ويصف مؤرخ الدولة السعودية إبن بشر اخضاع الأحساء ويقول: «فلما أصبح الصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح فلما استووا (أي القوات) على ركائبهم وساروا ثوروا بنادقهم دفعة واحدة فاظلمت السماء وأرجفت الأرض وتأرجح الدخان في الجو وأسقط كثير من النساء الحوامل في الأحساء، ثم نزل سعود وظهر عليه جميع أهل الأحساء على احسانه وإساءته وأمرهم

بالخروج إليه فخرجوا فأقام في ذلك المنزل مدة شهر. يقتل من أراد قتله ويجلي من أراد جلاءه ويحبس من أراد حبسه ويأخذ من الأموال ويهدم من المحال، ويبني ثغوراً ويهدم دوراً وضرب عليهم ألوفاً الدراهم وقبضها منهم...

وحينما سيطر عبدالعزيز آل سعود على الأحساء والقطيف عين عبدالله بن جلوي الإرهابي المعروف، حاكماً على الأحساء. وبدأ المذكور بالتنكيل بالشيعة ومارس معهم أبشع الجرائم دون رحمة. وتحدثنا كتب التاريخ السعودي ان كتب الشيعة ومؤلفات علمائهم أحرقت أبان السيطرة السعودية الثالثة على المنطقة، وأن مساجدهم قد دمرت واطلقوا عليها لفظ الكنائس وقد أجبر الشيعة على الرضوخ إلى مذهب السلطة فعينت السلطة قضاة يقضون بين الغالبية الشيعية على مذهبها، وعينت أئمة للجماعة ليؤموا الشيعة وأجبرتهم على الصلاة خلفهم. ومنعت عليهم بكل السبل والوسائل أحياء شعائر مذهبهم رغم ان رجالات الشيعة قد اتفقوا مع عبدالعزيز بن مسعود عام (١٩١٣م) على إحترام حقوقهم المذهبية وعدم التعرض لهم في معتقداتهم ودينهم، لكن الملك نقض عهده، وراح يمارس الأمور ذاتها التي كان يقوم بها آباؤه واجداده بل بصورة أشد شراسة، فقد أرسل الملك مشايخه وعلماءه للشيعة في المنطقة الشرقية ليجددوا إسلامهم، ولكي يؤدوا الصلاة خلفهم قهراً. وقد أفتى علماؤه في عام (١٣٤٥هـ) بأن يجبر الشيعة على تغيير مذهبهم بالقوة أو ينفوا من البلاد، وأن تدمر مساجدهم وحسينياتهم، ويتم بالقوة تعليمهم مذهب السلطة ومعتقداتها. ولقد جاء في الفتوى: «وأما رافضة القطيف فيلزم الإمام أيده الله الشيخ إبن بشر أن يسافر إليهم ويلزمهم بما ذكرنا...»[٧١].

هذه إحدى حلقات الإكراه المذهبي والديني، يرغمون الشيعة على إعتناق

---

(٧١) التمييز الطائفي في السعودية رابطة عموم الشيعة في السعودية، ص٥٨ ــ ٥٩.

المذهب الحنبلي وإلا القتل أو النفي من اراضيهم وأراضي أجدادهم ليحتلها بعد ذلك البدو، الهاربون من قحط الصحراء النجدية وشظف العيش فيها. وإذا اضفنا إلى ذلك مجزرة كربلاء حين هجم (١٢ ألف وهابي) فجأة على ضريح الإمام الحسين، وبعد ان استولوا على الغنائم الهائلة التي لم تحمل لهم مثلها أكبر الإنتصارات، تركوا ما تبقى للنار والسيف... وهلك العجزة والأطفال والنساء جميعاً بسيوف هؤلاء البرابرة.

وبعد النهب والقتل دمروا كذلك ضريح الإمام وحولوه إلى كومة من الأقذار والدماء. وحطموا خصوصاً المنابر والقباب لأنهم يعتقدون بأن الطابوق الذي بنيت منه مصبوب من ذهب(٧٢).

إن التاريخ الوقائعي لعلاقة الشيعة الإمامية بالوهابية داخل المملكة السلفية مثقل بالجروح والآلام، فمن القتل والنفي في الماضي، إلى التمييز الطائفي الحالي. حيث تعذر على الحكومة ومؤسساتها الدينية القضاء على الشيعة بفضل صمودهم، وبفضل المدنية الغربية التي فجرت النفط في مناطقهم واستخدمت الشيعة في صناعة النفط(٧٣) وآمنت بإنسانيتهم. فتعذر على الحكومة إبادتهم، إرضاء لشهوة البدو في تملك أراضيهم ومناطقهم الفلاحية المتميزة.

لكنهم محاصرون إجتماعياً واقتصادياً ودينياً. ويُمارس عليهم اقصى أنواع التمييز الطائفي الذي لا يوجد له مثيل في العالم بأسره. فهم لا يدخلون الجيش الا بصورة نادرة، سلاح الطيران الا بصورة نادرة، سلاح البحرية الا بصورة نادرة أيضاً، لا يحق لهم الارتقاء الوظيفي إلى مستوى وزراء.. وهذا

(٧٢) أنظر أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، ١٨٠٣٠، الإضبارة ١٢٣٥، ص٣٨ ــ ٤٠. عن تاريخ العربية السعودية لفاسيليفه ص١١٦ ــ ١١٧ .

(٧٣) تقول أذاعة لندن أن الشيعة «يشكلون نصف القوة العاملة في شركة أرامكو» لندن القسم العربي برنامج بين السائل والمجيب الساعة ١,٤٥ دقيقة، مساء يوم الثلاثاء ١٢/٢٦/ ١٩٩٥م

كما يقول محمد عبدالمجيد، غيض من فيض من مواطن ومجالات التمييز الطائفي التي تمارسها السلطة السعودية واعوانها ضد أتباع أهل البيت عليهم السلام في شبه الجزيرة العربية. إنها باختصار علاقة المعاناة التي يعيشها أبناء الطائفة الشيعية في ظل الحقد الطائفي الذي تمارسها الحكومة السعودية وأذنابها. كما أنها علاقة إرهاب وقتل وتنكيل وإبعاد وإقصاء من قبل السلطة السعودية ضد أتباع أهل البيت عليهم السلام[٧٤].

وبعد هل هذا هو الإسلام السلفي، الذي يطرح نفسه كبديل ومنقذ للبشرية؟! ماذا سيفعل السلفيون مثلاً لو استطاعوا ان يحكموا بلداً كلبنان، فيه أكثر من ثماني عشر طائفة؟! هل سيرمون غالبية الشعب في البحر باسم الإسلام؟! ثم يستوردون البدو من الجزيرة ليعمروا البلد الفارغ من أهله؟!.

إن ما يقوم به الوهابية اليوم في حق الشيعة الإمامية لا يقره لا الإسلام السلفي، ولا الإسلام الخلفي، ولا تقره جميع المواثيق الدولية الخاصة بحقوق الإنسان. والإسلام بريء من أعمال وأفعال هؤلاء البدو فـ ﴿لا إكراه في الدين﴾.

إن الذي يقرأ ما كتبه بعض الكتاب الشيعة من هذه المنطقة حول ما يتعرض له مجتمعهم من اضطهاد ومضايقة، لا يسعه إلا أن يصرخ عالياً، ويعلن رفضه لهذه الممارسات اللاإنسانية، التي تسحق كرامة الإنسان، وتعتدي على أهم حق من حقوقه ألا وهو حق الإختيار العقائدي والديني!!.

يقول بعض الطلبة الشيعة: إن السلفيين يؤلفون الكتب التي تطعن في

---

(٧٤) التمييز الطائفي في السعودية، ص٨٤ ـــ ٨٥، وأنظر للمزيد من التفاصيل في هذا المجال الشيعة في المملكة العربية السعودية، حمزة الحسن أنه لوضع عجيب غريب يتنافى مع مبادىء الإسلام وميثاق حقوق الإنسان، ولايكاد يصدق العقل حدوثه في ظل حكومة ترفع شعارات الإسلام وتتبنى خدمة الحرمين الشريفين. راجع الشيعة في السعودية الواقع الصعب والتطلعات المشروعة، نشر رابطة عموم الشيعة في السعودية.

عقيدتنا، وتصفنا بالمجوس وأعداء الإسلام، وبأننا أشد خطراً وعداء للإسلام واهله، من اليهود والنصارى. وتوزع هذه الكتب بالمجان. داخل المملكة، وخارجها. لكن أحداً منا لا يستطيع أن يحرك شفتيه معارضاً. أما كتبنا الفقهية والأصولية فإنها ممنوعة إلا القليل منها. وفي البريد والجمارك والحدود كافة يصادر اي كتاب شيعي أو مجلة ولو كان في الأدب او النحو، إذا ما كان مؤلفه شيعي.

إن سياجاً من القوانين والمعاملات الطائفية يحيط بالشيعة الإمامية من كل جانب، ليمنعهم من التمدد أو التوسع، وقد ازداد هذا السياج قوة مع انتصار الثورة الإسلامية في إيران، التي أثارت الرعب في جميع دول المنطقة، وعلى رأسها مملكة السلفيين، هذا الرعب الذي أشعل نار الحرب العراقية / الإيرانية والتي دامت ثمانية أعوام، احرقت اليابس والأخضر، وابتلعت الألوف من الأرواح، والملايين من الدولارات. وراح ضحيتها ملايين من الأبرياء بين قتيل وسجين أو مشرد هنا وهناك.

□ اعلان الحرب على الثورة الاسلامية :

إن هذه الحرب الدموية المسلحة التي قادها طاغية أهوج، واستخدم فيها كل الأسلحة المحرمة دولياً. واكبتها حرب أخرى أشد ضراوة وأخطر وقعاً، لأن آثارها ستتجاوز الحدود الجغرافية للصراع المسلح، لتشمل العالم الإسلامي بأسره. إنها الحرب التي يشنها الكتاب المرتزقة على الشيعة والتشيع انطلاقاً من المملكة السلفية، وبدعم من مؤسستها الدينية. كرديف للحرب المسلحة وخلفية فكرية ودينية تدعم هذه الحرب، وتجد لها المبررات العقائدية، كي يموه على العالم الإسلامي، فلا يتعاطف مع المظلوم ولا يشجب الظالم.

لقد كتب المرتزقة عن الثورة الإسلامية في إيران بأنها ثورة مجوسية تريد أن تكتسح المنطقة وتقضي على الإسلام. لذلك صنعوا لها قادسية عربية،

عوامهم[٥٣]. لكن هذه الحقائق وغيرها مما كتبه قلم الشيخ، جاءت باهتة ضائعة في الكم الهائل من الدعاوي والخرافات التي نسبها للشيعة دون أن يميز بين طوائف الشيعة المختلفة. وهذا المنهج يعض عليه أتباعه اليوم بالنواجد. فهم يكتبون عن الشيعة الإمامية، لكن بتراث وعقائد الغلاة من إسماعيلية ونصيرية وغيرهم.

ثم يعرض إبن تيمية لرأي الشيعة في الصحابة. فيعيد كل ما قيل وما أخذ كذريعة لسفك دماء هؤلاء الشيعة في بغداد وغيرها، ولنا وقفة مع الشيعة والصحابة فيما سيأتي.

□ ابن تيمية وأهل البيت :

أما موقف إبن تيمية من أهل البيت فكان غريباً جداً، فعندما ستصادفه عشرات الأحاديث الصحيحة ومن في حكمها، وكلها تشهد لأهل البيت، علي وفاطمة والحسن والحسين، بالأفضلية، وتدعو لاحترامهم ومحبتهم وتقديمهم على غيرهم. وهذه الأحاديث تملأ الصحاح وكتب الحديث المختلفة، فإن شيخ الحنابلة، سيقول: «ان فكرة تقديم آل الرسول هي من أثر الجاهلية، في تقديم أهل بيت الرؤساء»[٥٤]؟!.

إذن هذا الإجتباء الإلهي لآل الأنبياء هو من أثر الجاهلية، وكل هذا الذي في القرآن هو من أثر الجاهلية؟!.

وهذه الصلاة على آل محمد وآل إبراهيم التي ترددها في صلاتك هي من أثر الجاهلية!! أتدري لماذا جدع قصير أنفه؟! لأنه لا يستريح حين يذكر لآل محمد(ص) حق في ذلك الإصطفاء[٥٥]. أما عندما يصطدم بحديث غدير

---

(٥٣) منهاج السنة ، ج١، ص١٣. أنظر صائب عبدالحميد ، م س ، ص٢٤٠ .

(٥٤) منهاج السنة ، ج٣، ص٢٦٩ .

(٥٥) أنظر صائب عبدالحميد ، ص٢٩٣ - ٢٩٤ .

نحم الواضح في ولاية علي وأهل بيته، فإنه يحذف أوله ويثبت آخره. وهذا تحريف ليس جديداً على الشيخ، وقد تكلمنا في فصله عن إتهام أهل السنة له بالتحريف لأقوال الفرق الإسلامية والكذب على أصحابها.

ويتابع الشيخ الحنبلي نقض مستمسكات الشيعة الإمامية عروة عروة. لقد أجمعت الأمة أن الرسول آخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بينه وبين علي بن أبي طالب، وروي أحمد بن حنبل في مسنده عن الرسول(ص) في حق علي: «أنت أخي وأنا أخوك»، لكن إبن تيمية ينفي ذلك، ويحكم ببطلان الأحاديث الواردة في ذلك. مع أن أحاديث المؤاخاته صحيحة وقد رواها الحاكم والترمذي وذكرها أصحاب التواريخ.

□ الحقد الأموي ورفض سنة رسول الله (ص) :

ويبلغ التهافت والتجني على الحقيقة منتهاه، عندما يرفض هذا الحنبلي حديث الطير[٥٦]. لأنه يصرح بأفضلية الإمام علي(عليه السلام) على جميع الناس ما عدا الرسول(ص). يقول إبن تيمية «ان حديث الطائر من المكذوبات الموضوعات عند أهل العلم والمعرفة بحقائق النقل» وقال: «وقد سئل الحاكم عن حديث الطير فقال: لا يصح»[٥٧].

أما إذا رجعنا إلى أهل العلم لنعرف مصداق كلام الشيخ فسنجد أن هذا الحديث، قد رواه الترمذي من طريق السدي ووثقه، ورواه النسائي، وصححه الحاكم في المستدرك وقال: رواه عن أنس أكثر من ثلاثين نفساً، وصححه الذهبي وألف جزءاً في ما صح عنده من طرقه، ورواه البغوي أيضاً وآخرون. وقال الخوارزمي اخرج إبن مردويه هذا الحديث بمئة وعشرين إسناداً... وقال

---

(٥٦) عن أنس بن مالك قال: كان عند النبي(ص) طير أهدي إليه فقال: «اللهم إئتني بأحب الخلق إليك ليأكل معي هذا الطير، فدخل علي عليه السلام فأكله معه».

(٥٧) منهاج السنة ، ج٤ ، ص٩٩ . نقلاً عن صائب عبدالحميد . م س ، ص٣٠٣ .

قادسية صدام الجديدة التي ستفتح بلاد الفرس من جديد؟!.

وغير ذلك من الأكاذيب والإفتراءات التي صنعها الإعلام العربي الموجه من طرف الدول الخائفة من الثورة الإسلامية، ورغم ما قيل من كذب وما حرف وزور من حقائق، الا أن الحق أبى إلا ان ينطق على لسانهم. فالإعلام الذي كان بالأمس يصف الجيش العراقي بأنه جيش إسلامي يقف أمام المد الفارسي المجوسي، ويدافع عن بوابة العرب الشرقية، وأن قتلاه شهداء عند ربهم يرزقون. سينقلب على هذا الجيش وعلى حاكمه، بعد ماحول جهاده لغزو الدول الخائفة من الغزو «الفارسي المجوسي»؟!.

لقد انقلبت الموازين رأساً على عقب، وأصبح صدام كافراً ومجرم حرب، وجيشه أداة إجرامية قذرة. وأعلن السلفيون الجهاد ضد هذا الكافر وجيشه، وكشفت الأوراق التي أريد لها أن تحرف وتزور. وكان مما استفادته الشعوب في المنطقة والعالم الإسلامي بأسره، أن بدأت الحكومات تكشف أسرارها. فدول الخليج أعلنت صراحة بأنها كانت تدعم العراق بالمال والسلاح اثناء حربه ضد الثورة الإسلامية. والعراق لم يبق مكتوف الأيدي وهذه الدول تستدعي الجيوش الغربية لحربه، بل كشف مجموعة من أسرار الدول الخائفة. وهكذا كانت الشعوب على موعد مع الحقيقة، في لحظة اختلطت فيها الحسابات بين الأخوة الأعداء.

فغنمت الشعوب بعضاً من الحقائق التي يمكن أن تتخد كأمثلة للتأمل وأخذ العبرة. والطريف في الأمر هو الموقف الجديد من الثورة الإسلامية، فقد تقدم زعماء الدول الخائفة بالإعتذار للدولة والثورة التي اصبحت إسلامية. بين عشية وضحاها! وتسابق القوم لإقامة علاقات ودية مع الثورة الإسلامية. أما الإعلام السلفي ومرتزقته فقد أسكتتهم المصالح السياسية وذهبت حقائقهم مع الريح الجديد. ووضعوا في الثلاجة إلى حين الإحتياج إليهم من جديد.

أكاذيب سلفيـة

□ الهجمة الإعلامية الشرسة على الجمهورية الاسلامية :

لقد ظهرت إبان الحرب العراقية الإيرانية كتب كثيرة، تطعن في الشيعة وعقائدهم، وتصفهم بالمجوس واليهود، وتنبه المسلمين من خطرهم على الإسلام. يقول عبدالله الغريب: «فمنذ أكثر من عشرين عاماً وأنا أتتبع أنشطة الرافضة ومخططاتهم في عالمنا الإسلامي... أتتبع ما يلجأون اليه من وسائل وطرق في نشر دعوتهم في المناطق الآهلة بالسنة، وأجمع الأرقام والإحصائيات عن عدد القبائل والأفراد الذين تشيعوا خلال قرن من الزمن في كل من إيران والخليج والعراق ولبنان[٧٥].

وبعد ذلك يملأ كتابه بالكذب المحض والإفتراءات الرخيصة، ولا شك ان هذا الكتاب صناعة مخابراتية لأنه مشحون بالأرقام والتقارير، كما أن قوله أجمع الأرقام والإحصائيات عن المتشيعين يثير الشكوك في شخصه.

والكتاب من أوله إلى آخره يريد أن يظهر للمسلمين السنة ان الثورة الإسلامية في إيران هي دعوة مجوسية يسعى أصحابها كما يقول إلى «اعادة مجد كسرى ونار مزدا»[٧٦]. وهذا الكلام لا يحتاج إلى رد لأن الحمق لا يناقش، ولأن الغرض من هذا الكذب الرخيص هو إبعاد أبناء الصحوة الإسلامية عن التأثر بالثورة، لأن ذلك يشكل خطراً على أنظمة وحكومات لا شرعية لها.

(٧٥) وجاء دور المجوس الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإسلامية، الدكتور عبد الله محمد الغريب، ١٩٨١م ، ص٣ ــ ٤ .

(٧٦) المرجع السابق، ص٩ .

ويظهر ذلك جلياً في قوله: «وتنافست معظم الجماعات الإسلامية في تأييد الثورة الإيرانية وهذه الجماعات التي تنتسب إلى مذهب أهل السنة متناحرة فيما بينها متخاصمة، ومن الصعوبة جداً أن توحد صفها، لكنهم جميعاً متفقون على ضرورة تأييد الثورة الإيرانية والتعاون والتنسيق مع البطل الإسلامي الخميني كما يقولون[٧٧].

وهذا الإتفاق بين الحركات الإسلامية والثورة الإيرانية هو الذي يؤرق أجهزت الأمن في العالم الإسلامي. وهذه الحركات فيها العلماء والفقهاء، وزعماء الحركات الإسلامية الكبرى، وقد أجمعوا على إسلامية هذه الثورة ووجوب الوقوف بجانبها في حربها ضد الأمبريالية وأذنابها في المنطقة. فهذا أبو الأعلى المودودي زعيم الجماعة الإسلامية في باكستان يرد على سؤال مجلة الدعوة القاهرية عدد ٢٩ أغسطس (آب) ١٩٧٩م، حول الثورة الإسلامية في إيران. أجاب العالم المجتهد الذي أجمعت الحركة الإسلامية أنه واحد من أبرز روادها في هذا القرن: «وثورة الخميني ثورة إسلامية والقائمون عليها هم جماعة إسلامية وشباب تلقوا التربية في الحركات الإسلامية وعلى جميع المسلمين عامة والحركات الإسلامية خاصة أن تؤيد هذه الثورة وتتعاون معها في جميع المجالات»[٧٨].

ويستعرض الأستاذ فتحي يكن مؤامرات الإستعمار والقوى الدولية ضد الإسلام فيقول في كتابه (أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، ص٤٨): «وفي التاريخ القريب شاهد على ما نقول ألا وهو تجربة الثورة الإسلامية في إيران هذه التجربة التي هبت لمحاربتها واجهاضها كل قوى الأرض الكافرة ولا تزال، بسبب أنها إسلامية وأنها لا شرقية ولا

(٧٧) المرجع السابق، ص٨ .

(٧٨) السنة والشيعة ضجة مفتعلة، الدكتور عزّ الدين إبراهيم منظمة الإعلام الإسلامي، ١٤٠٥هـ ص٣٢ ـ ٣٤ .

غربية»(٧٩).

وعليه ففي الوقت الذي يشهد زعماء الحركات الإسلامية قاطبة للثورة الإيرانية بالإسلام. يقول مرتزقة السلفية إن هذه الثورة مجوسية جاءت لتعيد ملك كسرى ونار مزدا؟!.

يقول الدكتور عزالدين إبراهيم وهو مفكر وزعيم حركي في فلسطين المحتلة: «بدأ بعضهم يشن حملة مشبوهة ومفاجئة ضد الثورة الإسلامية التي اكتشفوا أخيراً أنها ثورة شيعية، وان الشيعة فرقة ضالة أو كافرة وان آية الله الخميني الذي قالوا أنه هز العروش وهو يجلس فوق سجادته اصبح ايضاً ضالاً كافرا! وبدأ يتكرر أمامنا مشهد الشباب المسلم(!) الذي يحمل كتاباً سعودياً مليئاً بالمغالطات والإفتراءات. يحمله من مسجد إلى مسجد يشرحه للناس ويبشر بما فيه من أضاليل...

أُدرك ان بعض هؤلاء الشباب يتحرك بحسن نية متوهماً أنه يعمل لله، تماماً كما أدرك ان الطريق إلى جهنم مليء بمثل هذه النوايا الحسنة. فمتى يكتشف مثل هذا الشباب أنهم وبحسن نية ينفذون مخططاً إستعمارياً، وان عليهم ان ينقذوا أنفسهم قبل فوات الأوان؟...

ويضيف الدكتور قائلاً: إنني أفهم جيداً ان موقف بعض قواعد الحركة الإسلامية المعادي للثورة والمثير للضجة المفتعلة حول السنة والشيعة ليس موقفاً جذرياً أصيلاً، ولكنه موقف طارىء فرضه آخرون(!) على هذا الشباب

(٧٩) المرجع نفسه، ص٣٤. أيد أغلب رؤساء الحركات الإسلامية الثورة الإسلامية في إيران واعترفوا بها. منهم الأستاذ عصام العطار الذي أعلن تأييده للثورة وقامت مجلته«الرائد» بشرح مواقف الثورة ودعمها. وفي السودان زار زعيم الحركة الإسلامية هناك الدكتور حسن الترابي إيران وايد الثورة وزعيمها. وفي تونس كتب الأستاذ راشد الغنوشي في مجلة المعرفة، مرشحاً الإمام الخميني لإمامة المسلمين مما أدى إلى أغلاق المجلة. وفي الأردن أعلن الأستاذ محمد عبدالرحمان خليفة المراقب العام للأخوان المسلمين تأييده للثورة قبل وبعد زيارته لإيران. أما في مصر فقد وقفت مجلة «الدعوة» و «الإعتصام» و «المختار الإسلامي» إلى جانب الثورة مؤكدة إسلاميتها ومؤيدة لها ولزعيمها أنظر المرجع السابق.

المخلص الطاهر بعد أن وضعوه في دوامة الشك واليأس وهو يكتشف أخيراً ان الثورة التي أوقدت آماله وأشعلتها ليست ثورة إسلامية ولكنها شيعية وان الشيعة كفار[٨٠].

والحقيقة ان هذه الكتب إنما تخدم هذا الهدف. لقد تبين للدول الخائفة من الثورة الإسلامية ان الجيش العراقي لن يصد رياح الثورة، وأن أبناء الصحوة الإسلامية يتابعون يوميات هذه الثورة ويتشوقون لمعرفة أخبارها، خصوصاً بعدما تبين لهم ان الجيش الصدامي يمارس حرباً عدوانية، الغرض منها القضاء على هذه الثورة. لذلك إستدعى خبراء الأمن، الكتاب المرتزقة وبدأوا في تأليف الأكاذيب والأضاليل، لمحاصرة الثورة إعلامياً وفكرياً ودينياً، مستندين على تراث حشوية الحنابلة، الذين وجدوا الفرصة مناسبة، لتوزيع الكذب والخرافات، وتحقيق الإنتصارات المذهبية الوهمية.

والحقيقة ان هذا الكذب السلفي قد وجد آذاناً صاغية داخل قطاعات واسعة من أبناء الصحوة الإسلامية، لأن أغلبهم لا طاقة لهم بمعرفة المكر السياسي وأحابيل الصراع المذهبي، وهم قبل ذلك يخافون من الكفر والشرك ويبحثون عن الحق والتوحيد. وقد امتلأت كتب هؤلاء السلفية بوصم الشيعة بالكفر والشرك ومخالفة قواعد الإسلام والإيمان، فالشيعة يسبون الصحابة، ويدّعون تحريف القرآن الكريم، ولهم قرآن آخر غير الذي بيد المسلمين؟!.

وهم يفضلون أئمتهم على الرسول والأنبياء، إلى غير ذلك من الهرطقات. كل ذلك في سبيل ابعاد أبناء الصحوة عن التأثر بالثورة الإسلامية، لأن في هذا التأثر نهاية صروح عالية تمتص دماء المسلمين، وتعبث بتاريخهم ودينهم وثرواتهم الطبيعية؟!.

---

(٨٠) المرجع السابق، ص١٢ ــ ١٣ .

□ الحمق لايناقش :

من هذه الكتب التي ظهرت ونشرت على نطاق واسع، كتاب «تبديد الظلام وتنبيه النيام إلى خطر التشيع على المسلمين والإسلام لإبراهيم سليمان الجبهان، وهذا الرجل كتب كلاماً غريباً عن الشيعة، فهو يقول بعدما ذكر فرق الشيعة: «الأصل بين جميع هذه الطوائف واحد.. وهو الإلحاد المتستر بيدعة التشيع»[٨١]؟!!.

ويقول في أوجه الشبه والإختلاف بين التشيع والشيوعية: «كلاهما يجمع الأحرف الأولى من الشؤم والهدم واليأس والعناء، كلاهما من صنع يهودي. وكلاهما يهدف إلى الخراب والتدمير.. ما تبنيه الإنسانية يهدمه التشيع بلا عقل، وتهدمه الشيوعية بلا ضمير.. إئتني بشيعي صغير أخرج لك منه شيوعياً كبيراً وإئتني بشيوعي صغير أخرج منه يهودياً كبيراً، وإئتني بيهودي صغير أثبت لك أن الشيطان واحد من عملائه...

يقطع الشيعي الشجرة التي تظله، ويقطع الشيوعي الغصن الذي يجلس عليه[٨٢].

ويبلغ به الغلو في الكذب فيقول: «إن طائفة الشيعة الإمامية ياسادتي يتدينون بدين لا يمت إلى الإسلام إلا بصلة واهية هي أشبه ما تكون بخيط العنكبوت. لا بل انه دين يقف مع الإسلام على طرفي نقيض[٨٣]؟! ولا يكفيه ان يخرج فئة عريضة من الإسلام بجرّة قلم بل يذهب إلى رد سنة الرسول(ص)، فعل شيخهم إبن تيمية الذي سن لهم هذا الطريق.

يقول هذا الجبهان: زعموا أي الشيعة الإمامية ان النبي(ص) قال: تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي[٨٤]. وهذا الحديث الذي يقول

---

(٨١) تبديد الظلام، ط ٣ ١٩٨٨م، ص١١ .

(٨٢) المرجع نفسه، ص٢١٥ ــ ٢١٦ .

(٨٣) المرجع السابق، ص٤٩١ .

(٨٤) المرجع السابق، ص٥٠١ .

الكاتب السلفي بأن الشيعة زعموا ان الرسول(ص) قاله. هو في صحيح مسلم باب فضائل علي بن أبي طالب (ج٥ ص١٢٢). وصحيح الترمذي (ج٥ ص٣٢٨)، ومستدرك الحاكم (ج٣ ص١٤٨) ومسند الإمام أحمد بن حنبل (ج٣ ص١٧). وهو قول الرسول(ص): «أيها الناس إني تركت فيكم ما إن اخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي». وقال ايضاً في رواية أخرى. «يوشك ان يأتي رسول ربي فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي».

إننا لن نستطيع ان نرد على كل ما جاء في الكتاب أو نورده هنا، لأنه من الصعب على العاقل ان يناقش الجنون، جنون الحقد الأعمى. إن أفضل رد وأحسنه، هو أن ندعو أبناء الصحوة الإسلامية لقراءة كتب الشيعة، وأن يضعوا بجانبهم هذه الكتب السلفية وليقارنوا بعد ذلك.

أما إحسان إلهي ظهير المفكر السلفي الباكستاني، الذي انتدبته المؤسسة الدينية السلفية للرد على الشيعة، فقد أتى في كتبه بما يحير العقول وتشيب له الأطفال من الكذب والتحريف والتزوير للحقائق. أنظر إليه وهو يعرف الشيعة الإمامية يقول: «ويسمون أيضاً الرافضة أو الراوافض لرفضهم مناصرة أئمتهم ومتابعتهم، وغدرهم بهم وعدم وفائهم لهم كما وصفهم علي رضي الله عنه»[٨٥].

وليسارع القارىء إلى كتب الفرق الإسلامية ليبحث عن مثل هكذا تعريف للشيعة الإمامية؟! لكننا نحن ننصح القارىء بألايضيع وقته في البحث عن شيء لا وجود له إلا في عقول وأوهام كتاب السلفية. ويكفي إحسان الهي ظهير أنه أشعل فتنة طائفية بين أفراد الشعب الباكستاني الذين كانوا

(٨٥) الشيعة والتشيع فرق وتاريخ. الناشر ادارة ترجمان السنة. لاهور، باكستان، ط٤، ١٩٨٤م، ص٢٧٠ .

يعيشون في أمن وأمان مئات السنين. قبل ان يطلع عليهم قرن الدعوة السلفية وأتباعها. وأخبار القتل وأحراق المساجد في باكستان تملأ الصحف والمجلات وتتناقلها أذاعات العالم. فقد نشرت الصحف في عام (١٣٨٢هـ) ان رجال الشرطة في مدينة كراتشي أعلنوا ان (١٢٠شخصاً) من المسلمين قد قتلوا كما أصيب ١٦ شخصاً آخرين على إثر معارك دامية نشبت بين السنة والشيعة في قرية ثاري التي تبعد (٢٥ميلاً) عن العاصمة الباكسانية، وأن النيران اشتعلت في القرية التي دارت فيها المعارك، وان إشتباكاً مماثلاً وقع في لاهور راح ضحيته شخصان[٨٦].

ويستمر مسلسل القتل في باكستان والهند وتحرق المساجد إرضاءً للإسلام السلفي وأتباعه، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

إن هذه الكتب السلفية التي تنشرها المملكة السلفية للطعن في عقائد الشيعة، تساهم من جانب آخر في نشر التشيع، لأنه يكفي أن يطلع أبناء الصحوة على عقائد الشيعة في كتبهم ومجلاتهم وعند المقارنة تنهدم صروح الكذب السلفي بسرعة، ويتحول أبناء الصحوة بعد اكتشاف الحقيقة إلى أعداء للدعوة السلفية ومبادئها، ويعتنقون التشيع زرافات، وهذا ما يقع حاليا. وان كان زعماء الدعوة السلفية اكتشفوا ذلك فبدأوا يصدرون الفتاوى في حرمة قراءة كتب الشيعة، ويطلبون من أتباعهم عدم فتح النقاش مع الشيعة، وألا يقتنون أي كتاب من كتبهم. وذلك لحرمة اقتناء أو قراءة كتب الضلال.

نحن نقول لأبناء الصحوة لاتخافوا من كتب الشيعة، ان المكتبات وأسواق الكتب ممتلئة بكتب سارتر وماركس وداروين ومن هب ودَبَّ من فلاسفة الغرب والشرق، من ملحدين وفسقة وضالين، وقد كنا ونحن نواجه من يؤمن ببعض أفكار هؤلاء، نقتني مؤلفاتهم ونقرأها ونستوعب ما تحتويه، ثم نخرج أشد إيماناً بالإسلام، ونرد على من يعتنق مثل هذه الأفكار. إن الإسلام قوي

(٨٦) على دروب التقريب بين المذاهب الإسلامية، م. س، ص ٣٤.

بما فيه الكفاية، ولا يخاف من إستخدام العقل. وإذا كانت الحكمة ضالة المؤمن، فليبحث عنها أنى وجدها فهو أحق بها.

ورحم الله الشريف المرتضى حين قال: «إن المذاهب يجب أن تؤخذ من أفواه قائليها، وأصحابهم المختصين بهم ومن هو مأمون في الحكاية عنهم، ولا يرجع فيها إلى دعاوي الخصوم، فإنه إن يرجع إلى ذلك في المذهب إتسع الخرق، وجل الخطب، ولم تثق بحكاية في مذهب ولا استناد مقالة»[٨٧].

على أبناء الصحوة ألا يخافوا من البحث والقراءة واستخدام العقل في التمحيص والمقارنة. لأن هذا هو السبيل الوحيد، الذي يحفظهم من السقوط في أحابيل المصالح السياسية المختلفة والمتناقضة، والتي لا يعلمون عنها شيئا. لقد كانت البواخر أو الطائرات تفرغ حمولات ضخمة من كتب ونشرات وكتيبات، توزع في الجزائر وتكفر الشيعة وتبيح دمهم، ولم تكن تحمل توقيعاً ولا إشارة لمؤسسة أصدرتها.

لكنها تبتدئ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وبعد ذلك يأتي تكفير الشيعة وعرض عقائدهم المحرفة والرد عليها. ولم يكن أحد يتساءل من وراء هذه الشحنات الورقية، ومن يطبعها؟! ولماذا توزع في الجزائر؟!.

فليس في الجزائر طائفة شيعية مثلاً، ولا يشكل الشيعة نسبة مئوية من الشعب الجزائري، حتى يقال بأن هناك صراعاً اجتماعياً مذهبياً؟!.

لكن السياسة الماكرة كانت تخطط بطريقة إستراتيجية. الغرض منها صنع سد منيع بين أبناء الصحوة هناك والتأثر بالثورة الإسلامية في إيران، فكان لها ماأرادت وزيادة، أنظر ماذا يقول أحد الإسلامين الجزائريين: «والجماعة الإسلامية المسلحة سلفية عقيدة ومنهجا وسلوكاً وموقفها من الشيعة معروف، وهو الحكم عليهم بالردة والخروج عن شرائع الإسلام»[٨٨] ونحن على يقين

---

(٨٧) نقلاً عن المرجع السابق، ص١٤٤.

(٨٨) جريدة الحياة اللندنية، الأحد ٤ أيلول ١٩٩٤م

ان من يقول هذا الكلام، لم يقرأ يوماً ما كتابا شيعياً، ولم يعرف عن الشيعة سوى ما كتبه إبن تيمية في منهاجه، وما ينشره السلفيون من كتب كالتي ذكرنا.

□ الخلط والخبط السلفي :

وحرب الشيعة لم يقتصر فيها على الكتاب وانما هناك كم هائل من الأشرطة والمحاضرات المسجلة والتي توزع على نطاق واسع، وهذه المحاضرات يلقيها دكاترة وشيوخ من داخل المملكة السلفية، يحرفون فيها الحقائق ويشحنون عقول المستمعين لهم بالمغالطات والكذب المحض، وبما أن المستوى التعليمي بسيط جداً هناك، فإن أحداً لا يعترض على ما يقوله هؤلاء، علماً أن الشيعة لا يسمح لهم بحضور هذه المحاضرات التي غالباً ما تلقى في المساجد، في نجد والحجاز، ولو حضر شيعي وقدم اعتراضاً فإن مصيره سيكون القتل لا محالة، وإذا لم يقتل فإن السلطة ستستلمه لتزج به في السجن.

بين يدي شريط كاسيت للدكتور ناصر بن عبدالله القفاري الأستاذ في كلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم، حول «مصدر تلقي العقيدة عند الباطنية»، وهي محاضرة ألقاها في أحد المساجد، سمعت هذا الشريط مرات عدة، وجلست أفكر في المستوى العلمي لهؤلاء الدكاترة، وكيف يحصل انصاف المتعلمين على درجة الدكتوراه، وقلت في نفسي نحن العرب نمسخ كل ما نستورده من الغرب، الديمقراطية أفرغناها من محتواها وميعنا مبادئها، حتى أصبحت سنداً للإستبداد ووسيلة لإنتهاك حقوق الإنسان؟!. وهذه الدرجة العلمية «الدكتوراه» يحصل عليها الباحث والدارس في جامعات الغرب بعد سنين من البحث والمعاناة، أما نحن فنسلمها لاشخاص لم يتجاوزوا المراحل الأولى في التحصيل العلمي؟! لماذا أقول هذا الكلام؟! لأن هذا الدكتور السلفي سيخلط

المربى بالزيت، والطحين بالتراب والحابل بالنابل؟!.

يقول في تعريف الباطنية: «مجموعة فرق وطوائف تعمل في الظلام وتنشر مذهبها في الخفاء وتندرج بفريستها عبر مراحل عندهم ودرجات في الدعوة والإحتواء.. لهم كما يقول الشهرستاني إسم في كل مكان ودعوة بكل لسان، فقد يتظاهرون بالتشيع في البيئة التي تغلو في التشيع لأهل البيت وتطعن في صحابة رسول الله(ص). وقد يستخدمون العلمنة والعلمانية...

وينخرطون في سلكهم لحرب الإسلام والمسلمين. وقد يرفعون شعار البعث للوصول إلى أهدافهم. وقد يرفعون شعار الحداثة للوصول إلى أهدافهم، ولذلك قال الغزالي في فضائح الباطنية إن ظاهر مذهبهم الرفض يعني التشيع لأهل البيت وباطنه الكفر المحض. وأقول إن ظاهر مذهبهم قد يكون الرفض وقد يكون البعث، وقد يكون الحداثة وقد يكون العلمنة وقد يكون وقد يكون...(٨٩).

ماذا يقول الإنسان في هذا الهراء، سنين طويلة ونحن نتصفح كتب الفلسفة وعلم الكلام وكتب التاريخ والفكر ولم نقرأ ولم نسمع أن حزب البعث العربي الإشتراكي الحاكم الآن في العراق وسورية حزب باطني، والعلمانية والحداثة، ما علاقة هذه المفاهيم والأيديلوجيات بالباطنية؟! وهل ظاهر العلمانية والحداثة والبعث، الرفض والتشيع؟!.

من قال ذلك؟!! ما هذا الخلط والخبط يا أتباع السلف الصالح؟! وفي مملكة السلف الكثير ممن يؤمنون بالعلمانية والحداثة والبعث، ومن بينهم أفراد الأسرة الحاكمة. فهل هؤلاء باطنية؟!؟.

إن نقاش هذا الحمق يجلب الصداع للرأس. وبعد هذا يتابع الدكتور السلفي محاضرته ليبين بأن العلماء عرفوا عقائد هؤلاء الباطنية من خلال

---

(٨٩) الشريط، تسجيلات إبن الجوزي الإسلامية، الدمام شارع إبن خلدون.

كتاباتهم التي بدأوا ينشرونها ويذكر اسم مصطفى غالب. وهو يعني كتب الإسماعيلية، وهذه فرقة معروفة في التاريخ والحاضر. لكن ما علاقة هؤلاء بالحداثة والعلمانية وحزب البعث؟؟!!.

ويختم الدكتور محاضرته بمربط الفرس والهدف من هذا الهراء. ليدعي بأن هؤلاء الباطنية تمثلهم اليوم طائفة الشيعة الإثنا عشرية المتواجدة في المنطقة الشرقية داخل المملكة. وأن هذه الفرقة هي المقصود بالباطنية!!.

ويخرج البدو السذج من المحاضرة يلهجون بكفر وزندقة ملايين من المسلمين، أخرجهم هذا الدكتور بعبقريته الفذة وعلمه الواسع، من الإسلام ووضعهم ضمن الباطنية التي تسعى على حد قوله للكيد للإسلام والمسلمين.

هذه المحاضرات والكتب هي التي يتغذى عليها أبناء الصحوة الإسلامية، فيحكمون على نصف أبناء الإسلام بالردة والكفر. ويتحينون الفرصة للتقرب إلى الله بدمهم. إنه تصدير الجهل البدوي والسذاجة المعرفية المدعومة بالمكر السياسي؟! ومع الأسف وجد هذا الجهل أرضاً خصبة في أماكن من العالم الإسلامي، كالجزائر مثلاً، فنما وترعرع وبدأ يعطي ثماراً مرة، أحلاها انتكاسة الصحوة الإسلامية وتشوية الإسلام في أعين المؤمنين به وأعدائه على السواء.

نموذج آخر من نماذج نشر الجهل السلفي، يتمثل هذه المرة في محاضرة سلفي آخر سجلت على شريط وتوزع للمساهمة في «نشر الخير» كما يدعي موزعوها. ألقاها عبدالله السبت تحت عنوان: «يزيد إبن معاوية». وللسلفيين ولع ببني أمية وحب يفوق الوصف، ونحن نعجب لهذا الحب وكيف أن علماء أهل السنة أغفلوهم وتناسوهم ولم يعتدوا بهم، واعتبروا أغلب ملوكهم ـ بإستثناء عمر بن عبدالعزيز ـ فسقه ومجرمين، أساؤوا للإسلام وأهله.

لنستمع ماذا يقول عبد الله السبت بخصوص هذا الإمام السلفي الزاهد يزيد بن معاوية، يقول: إنقسم الناس في يزيد ثلاثة مذاهب منها: «قوم من بقايا مجوس وباطنية ووثنية قد كفروه وعدوه زنديقاً وتكلموا في عرضه وفي

دينه ووصفوه بأنه شارب خمر وتارك صلاة وهؤلاء هم الرافضة ومن سار على منهجهم عليهم لعائن الله(٩٠).

وهؤلاء الذين عليهم لعائن الله هم مؤرخو أهل السنة وكبار رجال السلفية المعتمدين عندهم. يقول هذا السلفي عن أبن كثير المؤرخ بأنه سيد المؤرخين، فماذا يقول إبن كثير في يزيد إبن معاوية: «اشتهر يزيد بالمعازف وشرب الخمور، والغناء والصيد، واتخاذ القيان والكلاب، والنطاح بين الأكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا ويصبح فيه مخموراً. وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل وكان إذا مات القرد حزن عليه وقيل ان سبب موته انه حمل قردة وجعل ينقزها فعضته(٩١). ويقول إبن كثير إن يزيد «كان فاسقا»(٩٢) فهو القائل:

لعبت هاشم بالملك فلا ملك جاء ولا وحي نزل

وقال البلاذري إن سبب وفاة يزيد انه حمل قردة على الأتان وهو سكران ثم ركض خلفها فسقط فاندقت عنقه أو انقطع في جوفه شيء(٩٣).

يقول نبيل فياض: قرد آخر ليزيد، إسمه أبو خلف، قال عنه البلاذري: «خرج يزيد يتصيد بحوارين وهو سكران، فركب وبين يديه أتان وحشية قد حمل عليها قرداً، وجعل يركض الأتان، ويقول:

أبا خلف احتل لنفسك حيلة فليس عليها ان هلكت ضمان

لكن أبا سمير هو القرد الذي احتل أرفع مكانة في قلب «أمير المؤمنين» يزيد، إلى درجة أنه حين مات «القرد طبعا» أمر الخليفة «أمير المؤمنين» بغسله

(٩٠) الشريط تسجيلات إبن الجوزي الإسلامية الدمام شارع إبن خلدون .

(٩١) البداية والنهاية إبن كثير مكتبة المعارف، مكتبـة النصر، ج٨، ص٢٣٦ .

(٩٢) المرجع نفسه، ج٨، ص٢٢٦، وما بعد.

(٩٣) أنساب الأشراف، ج٤، ص١ ــ ٢ .

وتكفينه والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين[٩٤].

نفس الكلام تجده في اغلب كتب التاريخ، وهذا السلفي يعلم بذلك، لكنه يحرف الحقائق جهراً ويكذب على مستمعيه؟! وتراه يقول بأن السيوطي رغم أنه من المدافعين عن بني أمية إلا أنه «تورط في سب يزيد ولعنه»؟! وبعد ذلك يأتي بالعجائب والغرائب، يقول بأن يزيد بن معاوية الفاسق كان زاهداً.

وأن الإمام أحمد بن حنبل عده من الزهاد؟! وهنا يختلط الحابل بالنابل؟! فمن نصدق، لقد نقلنا قبل قليل ان الإمام أحمد لعنه، وان طائفة من علماء الحنابلة وعلى رأسهم إبن الجوزي، لعنوه وأباحوا لعنه، وألف إبن الجوزي في ذلك كتاباً. وتبعهم علماء أهل السنة فلعنوه ورفضوه واعتبروا قتله للإمام حسين بن علي وإحراق الكعبة وقتل التابعين في مدينة الرسول(ص) من الموبقات.

كما أن إبنه خالد لما مات يزيد صعد المنبر وأعلن علمه بسوء منقلب أبيه، واعتزل الخلافة؟! وهذا مسجل في التاريخ. فلماذا المغالطات والتدجيل وتزوير الحقائق؟ لكن الكذب كان وما زال ديدن حشوية الحنابلة ومطيتهم للوصول إلى تحقيق أهدافهم. أنظر لما يقوله إبن كثير في سيرة الشيخ عبد المغيث بن زهير الحربي: «كان من صلحاء الحنابلة، وكان يزار وله مصنف في فضل يزيد بن معاوية، أتى فيه بالغرائب والعجائب، وقد رد عليه أبو الفرج إبن الجوزي فأجاد وأصاب[٩٥].

---

(٩٤) أنظر يوم إنحدر الجمل من السقيفة، بيروت ـ ليماسول، ط٣، ١٩٩٥م، ص١٧ .

(٩٥) البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٥٠، صعد معاوية الثاني المنبر بعد وفاة أبيه يزيد وخطب خطبةً ومما قال: «يا أيها الناس إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقرابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو علي بن أبي طالب وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته، فصار في قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بخطاياه، ثم قُلد أبي الأمر (يزيد)، فكان أهل لذلك وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل، وصار في قبره رهيناً بذنوبه، وأسيراً بجرمه، ثم بكى حتى جرت دموعه وقال: إن من أعظم الأمور علينا ==

وبعد، فهذا قليل من كثير في سيرة يزيد بن معاوية وأقوال العلماء فيه، وليس فيهم «رافضي» أو شيعي. إلا إذا إعتبرنا إبن كثير وإبن الجوزي والسيوطي وإبن الأثير روافض؟!. لكنه الجهل السلفي والحقد الأعمى تجاه شيعة أهل البيت، ورثه هؤلاء النجديون عن زعيمهم إبن تيمية الحراني.

إن هناك المئات من الكتب والأشرطة توزع في العالم الإسلامي مملوءة بالكذب والمغالطات. تنتصر للمذهب الحنبلي الحشوي وتهاجم خصومه من أهل السنة والشيعة الإمامية، ومن المؤسف أن غالبية إبناء الصحوة يقعون فريسة هذا الصراع المذهبي المقيت دون علمهم، ويخدمون الأغراض السياسية الخبيثة بدون قصد، فترى السلفيين الجزائريين مثلاً يرفضون الحكم السعودي ويسبون ملوكه، في الوقت الذي يعتبر إنتماؤهم السلفي جزءاً من إستراتيجية الدعوة السعودية السلفية، فمن يطبع الكتب التي يتغذى عليها سلفيوا الجزائر؟ ومن يوصل لهم آلاف الفتاوى والكتيبات والمنشورات ذات الطباعة الفاخرة؟ إنها أموال آل سعود، ولولاها لما كتب على أغلفة هذه الكتب والكتيبات «يوزع مجاناً»، «لا يباع»، «وقف لله» وغير ذلك.

□ السلفي الحائر :

وأرجع لقائمة الكتب التي ألفها السلفيون في نقض مذهب الشيعة الإمامية، لأستحضر ما وقع لي مع شاب جزائري من تلامذة علي بلحاج المرشد السلفي لجبهة الإنقاذ. فقد تعرفت عليه يوماً، وكان يتابع دراسته

= علمنا بسوء مصرعه وبؤس منقلبه، وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباح الحرم وخرب الكعبة. وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم فشأنكم وأمركم» يقول الدكتور رشدي فكار: «هكذا أورد لنا الكندي (في كتاب الولاة والقضاة ص ٤٥ وما يليها) هذه الشهادة الهامة للخليفة الثالث الأموي معاوية الثاني، وكيف كان البلاء نتيجة للخلافة وهمومها» . بلاء الوجود في ديار الإسلام ، دار البلاغ القاهرة ، ط١ - ١٩٩٥م، المجلد ٢١ ، ص ٨٩ .

الشرعية في إحدى معاهد الشام الإسلامية. ولما توطدت العلاقة بيننا، وكنا نجلس ساعات طوال نناقش قضايا التمذهب والخلافات العقائدية والفقهية بين المذاهب الإسلامية. وما كنت ألاحظه هو بساطة المعرفة وقلة الإطلاع على مذاهب أهل السنة الأصولية والفقهية، أما الشيعة الإمامية، فمعرفته بهم لا تعدو أن شيخ الإسلام إبن تيمية قد كفرهم، ولا حاجة بعد ذلك للمزيد أو الإطلاع، فهذا موضوع قد فُرغ منه.

وشيخ الإسلام قد فصل فيه فارتاح وأراح. قلت له يوماً ونحن نناقش موضوع إيمان الشيعة وكفرهم. أنا أعرف أمين المكتبة في إحدى المدارس الدينية الشيعية، فما رأيك لو زرنا هذه المكتبة؟! فقبل ولم يمانع، وكان هذا من انفتاح الشاب وجرأته. لأن دعاة السلفية يحرمون على أتباعهم قراءة كتب الشيعة أو مناقشتهم فكيف بالدخول إلى مدارسهم. وقد أعلن أحد كتابهم أن على السلفي إذا دخل حيا يسكنه الشيعة ان يقول «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث» وهذا دعاء دخول الكنيف لقضاء الحاجة.

أقول قبل صديقي السلفي زيارة المدرسة الشيعية، وفعلاً وصلنا للمدرسة و طلبنا زيارة المكتبة، فسمح لنا بالدخول. لقد كانت مفاجأة صديقي أو لنقل صدمته قوية!!.

لقد وجد كتب أهل السنة والسلفية كلها جنباً إلى جنب كتب الشيعة. وجد صحيح البخاري ومسلم والترمذي وسنن إبن ماجة والنسائي ومستدرك الحاكم ومسند الإمام أحمد بن حنبل. وجميع التفاسير القرآنية وعلى رأسها تفسير إبن كثير وسيد قطب. ومعظم الموسوعات الفقهية الخاصة بالمذاهب الأربعة، بالإضافة إلى مجمل كتب التاريخ ومصادره الأساسية.

قلت لصديقي السلفي: هذه الكتب ليست للعرض وانما للإستفادة، وعلماء الشيعة يأخذون منها كما يأخذون من كتبهم الخاصة كموسوعات الأحاديث المروية عن الرسول(ص) وأهل بيته. ووجهت انتباهه لبعض

الموسوعات الفقهية الشيعية، قائلاً: لا توجد مسألة فقهية هنا إلا ولها أساس ومصدر في فقه أهل السنة وكتب الحديث التي تعرفها.

كان الذهول باديا على صديقي السلفي، لأني كنت أعلم أن ذهنه محشو بأفكار وأوصاف للشيعة لاوجود لها إلا في بطون الكتب السلفية وعقولهم. لذلك لما فكرت في دعوته لزيارة المكتبة الشيعية كان غرضي إيصاله لهذه الحالة من الذهول والإستغراب؟! لدرجة أنه شك في نفسه وفي وجوده وهل هو حقاً داخل مكتبة شيعية أم أن في الأمر خدعة. لكني كنت أدرك تساؤلاته وإستغرابه الواضح.

كنت أقرأ عناوين الكتب التي يعرفها جيداً وأشير إلى مكانها بين الكتب والمصادر الشيعية الخاصة. لكن المفاجأة هذه المرة كانت مذهلة ولا تصدق. عندما وقفنا أمام رفوف الكتب العقائدية. لأن صديقنا ستقع عينه على مجموعة الكتب التي يُصدرها السلفيون ضد الشيعة، لقد وجد كل الكتب التي تسب الشيعة وتطعن في مذهبهم وعقيدتهم، مثل كتب إحسان إلهي ظهير والجبهان ومحمد الغريب وغيرها. مما تطبعه مطابع السعودية وتوزعه دور النشر المرتبطة بالسلفية.

أخذ صديقي السلفي يتصفح تلك الكتب ويقرأ بعض محتوياتها، وكأنه غير متيقن من وجودها هنا؟! قلت له إنها نفسها الكتب التي قرأت في الجزائر، أن ادارة المكتبة هنا حريصة على اقتناء مثل هذه الكتب، وتطلبها من داخل السعودية، ولا تكاد مكتبة شيعية تخلو من مثل هذه الكتب. وهناك ردود مكتوبة ومطبوعة تجدها بجانب هذه الكتب، ألفها علماء الشيعة وفقهاؤهم.

قلت لصديقي السلفي أنت مستغرب من وجود هذه الكتب هنا وهي تسب الشيعة وتطعن في عقيدتهم؟! وهي في نظرك قد تكون خطراً على الطلبة الشيعة وفيهم شباب صغار السن قليلو الإطلاع على المذهب؟! لكني

لن أجيبك على ذلك، وسأترك قَيِّم المكتبة يجيبك لأني سألته نفس السؤال يوماً فأجابني!!.

ذهبنا إلى قيم المكتبة وصديقي يحمل الجزء الأول من كتاب الرد على المراجعات وسألناه حول وجود هذه الكتب «الخطيرة» على مذهب التشيع، داخل مكتبة مدرسة دينية شيعية. تبسم قيم المكتبة ورد في هدوء وكأن الأمر لا يستحق السؤال والجواب قائلاً: ان أحد أئمتنا عليهم السلام قال «الحمد لله الذي جعل أعداءنا من الحمقى»، وهذه الكتب مصداق لهذا القول.

إن هذه الكتب مملوءة بالكذب والإفتراءات علينا، ونحن نأتي بها لنعرف مدى قوة اعدائنا المذهبيين وحجم أدلتهم، وماذا يقولون عنا. وهذه الكتب ألف علماء الشيعة الكثير من الردود عليها. وهي في متناول أي طالب شيعي، يأخذها أو يستعيرها، ونحن كما ترون وضعناها ضمن كتب العقائد ليستفيد منها من أراد، مثلها مثل بقية الكتب. قلت أنا سائلاً قيم المكتبة، ألا تخافون من إنحراف الطلبة الجدد عن المذهب إذا هم قرأوها واطلعوا على ما فيها؟! قال لي مبتسماً: يأأستاذ نحن نكتب إعلاناً خاصاً داخل المكتبة عندما تصلنا مثل هذه الكتب من السعودية. وليس هناك أي قرار لمنع قراءتها، ولو أردنا ذلك لما وضعناها ضمن الكتب كما شاهدتم؟! والطلبة عندما يقرأون مثل هذه الكتب يزدادون يقينا بما عندهم من الحق، وإذا إستشكل على أحدهم أمر في هذه الكتب، يسأل أحد المدرسين، فيجيبه أو يوجهه لقراءة كتاب يزيح جميع الغموض لديه. فهذه الكتب تخد منا نحن الشيعة من حيث لا يدري أصحابها. فحبل الكذب قصير كما تعلم. وأصغر الطلبة سنا ومعرفة يرد على هذه الكتب، ويسفه أحلام كتابها فأين الخطر إذن؟!.

صحيح يقول أمين المكتبة: هذه الكتب تضر إخواننا من أبناء السنة لأن غالبيتهم قد لا يعرف عن التشيع شيئاً. فتأتي هذه الكتب السلفية لتضللهم وتمنع عنهم الحقيقة، لكننا نعاتب علماءهم ومثقفيهم إذا ما تورطوا في تكرار

ما تأتي به هذه الكتب. لأن المطابع اليوم لم تترك لهم أي عذر، فالجهل بعقائد الشيعة ومذهبهم الفقهي شيء لا يمكن السكوت عنه. وقد انتشر الكتاب الشيعي في بقاع العالم كافة. كما يمكن تحصيله بسهولة ويسر؟!.

طلب صديقي السلفي من قيم المكتبة أن يعيره كتاب الرد على المراجعات فوافق لأنني تعهدت له بارجاعه، ثم غادرنا المكتبة. وقبل أن نغادر المدرسة جلسنا مع جمع من الطلبة ودار بيننا حوار حول الإختلافات المذهبية. وقد أدلى كل الطلبة بدلوهم في النقاش، وشعرت أن صديقي السلفي قد انتابه الخجل وبدأ يتململ من الضيق والحرج، لأنه لم يستطع أن يجيب عن التساؤلات التاريخية والعقلية التي كان الطلبة يطرحونها، رغم تقدمه في تحصيل العلوم الشرعية، بل إنه من الأوائل المشهود لهم بالتفوق والمعرفة.

ولما غادرنا المدرسة ظل صديقي صامتا، فبادرته بالسؤال، ان شيخك إبن تيمية يكفر الشيعة، فهل الطلبة الذين جلست معهم قبل قليل كفار؟! فلم يرد جواباً!! لكنه علق مستغرباً جداً حول تنوع المكتبة الشيعية وإحتضانها الكتب السلفية المؤلفة ضد الشيعة، في الوقت الذي يستحيل ان تجد كتابا شيعياً في مكتبة سلفي أو مؤسسة سلفية؟!.

□ محاربة الكتاب الشيعي :

بل إن السلفية يحاربون الكتاب الشيعي في كل مكان، ويمنعون دخوله إلى بلدهم. ويحرمون قراءته. وفي الجزائر يتعرض أي شاب ملتزم للإهانة بل ربما للضرب والمحاكمة اذا ما وجد بحوزته كتابٌ أو مجلة شيعية؟. لماذا هذا الخوف من الكتاب الشيعي يادعاة السلفية؟!.

إذا كان ما معكم وما تدعون له هو الحق؟! فإن الحق أقوى من الباطل والضلال!! والمكتبات في العالمنا الإسلامي مملوءة بكتب الأديان والمذاهب والنحل المناهضة لكل الأديان والإسلام بالخصوص. وقد كان أبناء الصحوة

يقرأون الكتب المختلفة في جميع فروع العلوم الإنسانية فلا يزيدهم ذلك إلا تشبثاً بقيم الإسلام وعقائده العامة.

إذن لماذا هذه الحرب الضروس على الكتاب الشيعي، ففي معرض الكتاب المصري للسنة الماضية اشترى السلفيون (٢٠٠ نسخة) من كتاب شيعي معروض واحرقوه خارج المعرض. وقبله هاجم السلفيون دار البداية وحاولوا منع صاحبها من عرض كتبه، وهو مصري متشيع. يقول صالح الورداني: «كان ظهور دار البداية في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام١٩٨٧م قد شكل مفاجأة كبيرة للتيار السلفي المتربص بنا.. ولم يستطع التيار السلفي ضبط أعصابه وكظم غيظه لهذا الحدث فأعلن عن غضبه في منشور انطلق يوزعه على رواد المعرض.

وكان هذا المنشور يحوي تحذيراً من دار البداية ومن عدة كتب في مقدمتها كتاب المراجعات وأصل الشيعة وأصولها. وقد أرفق بهذا المنشور صفحة من كتاب الكافي تحوي عدد من الأحاديث الموجهة ضد الصحابة. ولم يقف رد فعل التيار السلفي والذي كان ممثلا في دور النشر السعودية والمصرية المتحالفة معه عند هذا الحد، بل تعداه في القيام بغارات ما بين الحين والآخر على جناح دار البداية لتهديد القائمين عليها وزجر المتعاملين معها، وقام السلفيون بتمزيق كل الملصقات الخاصة بدار البداية في المعرض[٩٦].

لماذا هذا العداء؟! هل دفاعاً عن الحقيقة والإسلام؟! وإذن كان على السلفيين أن يحاربوا كل الدور العارضة، لأن مما لاشك فيه أن معرض القاهرة يحتوي على آلاف العناوين التي تختلف مع الأديان بشكل عام. بل لابد من وجود قصص وكتب تدعو للتحلل من القيم الدينية وتهاجمها؟!.

لكننا لم نسمع ان السلفيين قاموا بحرقها أو إعترضوا على توزيعها

(٩٦) الشيعة في مصر من الإمام علي حتى الإمام الخميني ، مكتبة مدبولي الصغير ، ط١، ١٩٩٣م ، ص ١٤٥ ــ ١٤٨ .

وبيعها؟! لكن الواقع أصرح وأوضح، فالمقصود هو منع الكتاب الشيعي من الإنتشار، ليتسنى لهؤلاء نشر أكاذيبهم وهرطقاتهم، والأدعاء بأنها الحق والصواب.

ونحن نقول لدعاة السلفية اذا كان ما تكتبونه عن الشيعة صحيح ويمثل الحقيقة، فلماذا لا تفسحون المجال للكتاب الشيعي ان ينتشر؟! لأن ذلك سيؤكد ما تدعون عليهم من آراء ومعتقدات؟! وسيجعل أبناء الصحوة الإسلامية يتخذون الموقف السليم من التشيع، كما اتخذوه مع الكتب والمذاهب المادية المنحرفة التي تملأ رفوف المكتبات في مجمل بلدان العالم الإسلامي؟ لكني على يقين من أنهم لن يفعلوا؟! لأنهم يخافون من التشيع، ومن حقائق التشيع؟! لأن الشمس عندما تطلع وتحتل مكانها في كبد السماء، تنطفيء كل الشموع، وينعدم ضوؤها، وهذا هو حال التشيع مع العقيدة السلفية.

إنهم يتسترون ويختفون وراء جدران صنعوها من الكذب والتلفيق. لذلك ما ان يعرف أحد أبناء الصحوة الإسلامية بعض الحقائق حتى ينقلب عدواً لدوداً للسلفية ولدعاة مذهب السلف. لأنه سيكتشف أن غذاءه السلفي كان محشوا بالكذب وتحريف الحقائق. لقد قرأت في كتب الشيعة مراة عدة دعوتهم للمناظرة العلنية مع علماء السلف؟! وأنا أجدد هنا الدعوة لعلماء السلفية لماذا لا تناظروا علماء الشيعة الإمامية مباشرة وعلى الملأ، وتنقل ذلك وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة؟!.

إنهم كفار مرتدون عن الإسلام كما تدعون؟! وتحاربونهم في كل مكان!! وتدعون أنهم ليسوا على شيء، وأن لا حظ لهم من العلم بكتاب الله أو سنة رسوله؟! لماذا لا تكشفونهم للناس إذن؟! ليس بكتب تكتبونها من خيالكم عنهم، ولكن بالمناظرة مع علمائهم، الذين ما فتئوا ينادونكم ويطلبون المناظرة؟!.

لكنكم لن تستطيعوا تلبية الدعوة؟! لأن ذلك سيعني النصر الحقيقي أو الإفتضاح الحقيقي؟! ولعمري لو أنكم على يقين من انتصاركم للبيتم الدعوة مسرعين، كما يلبيها الشيخ أحمد ديدات الذي يحاور قساوسة النصارى ويهزمهم أمام الملأ وأمام كاميرات الإعلام.

وأرجع لصديقي السلفي الذي اختلطت عليه المعالم، فشيخه إبن تيمية يكفر أناساً، رأى بأم عينه أنهم مسلمون يؤمنون بلا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، ويشتركون مع باقي المسلمين في مجمل العقائد والفروع الفقهية. أما خصوصياتهم المذهبية فلهم أدلتهم النقلية والعقلية عليها.

ولما غادرنا المدرسة سألته ما رأيك هل هؤلاء كفار؟! كما يزعم السلفيون؟! وما قولك في أدلتهم حول الإمامة؟؟ قال صديقي: سأرد عليك عندما أنتهي من قراءة كتاب الرد على المراجعات. ضحكت وافترقنا، وأنا على يقين من ان صديقي قد تعرض اليوم لصدمة عنيفة لم يتعرض لها من قبل في حياته. فهو قد إستعار من مكتبة شيعية كتاب سيجد فيه ما سينتصر به على الشيعة؟!.

إنه سيزداد تخبطاً وتطوحاً، لأن هذا الكتاب لو كان يشكل فعلاً خطراً على عقائد التشيع، أو يستطيع هدم عقائده لما كان هناك في المكتبة وبين الكتب العقائدية!! فالتشيع قد يهزمه السيف، وقد يُسكته القهر والإضطهاد، لكن الحوار المنطقي المستند لحقائق التنزيل ووقائع التاريخ، يرفع عقائده ويسمو بها في سماء الحقيقة. وينسخ كل ما قيل أو اختلق من أكاذيب وتحريفات وانحرافات.

ونحن عندما نتصفح الكتب السلفية الخاصة بنقض التشيع، نجد إجماعاً مكرراً لما قيل قبل ذلك، من أن التشيع ليس من الإسلام في شيء، وإنما هو من صنع وإختلاق يهودي إسمه عبدالله بن سبأ. كما أن بعض كتاب السلفية اليوم يربطون بين التشيع والفرس، سكان إيران. والذي يدعي دعاة السلفية

أنهم إعتنقوا التشيع للكيد للإسلام والعرب، إنتقاماً لملكهم الضائع. سنقوم بالرد على هذه الأفكار بإختصار وإجمال. لكننا لن نستدعي كتب الشيعة الإمامية وأقوال علمائهم الذين فندوا هذه الإدعاءات، وانما سنستقي الرد من كتب مجموعة من علماء أهل السنة وأبناء السلفية. الذين درسوا المذاهب الإسلامية الأصولية والفقهية، وانتهى بهم المطاف إلى اعتناق التشيع عن قناعة وتمحيص، ومن ثم أصدروا كتباً تؤرخ لرحلتهم الفكرية في رحاب المذاهب والإختلاف. كي تكون الحجة أبلغ وأجدى في الحوار مع أبناء الصحوة الإسلامية الذين يضللهم الإعلام السلفي اليوم ويحجب عنهم ضوء الحقائق التاريخية والدينية.



* * *

المستبصرون يردون على دعاة السلفية

□ إمامة أهل البيت عليهم السلام:

يقول العلامة الشيخ محمد مرعي الأمين الأنطاكي: الأسباب التي دعتنا إلى الأخذ بمذهب أهل البيت عليهم السلام، هي أمور كثيرة نذكر منها:

أولاً: رأيت أن العمل بمذهب الشيعة مجز وتبرء به الذمة بلا ريب، وقد أفتى به كثير من علماء السنة من السابقين واللاحقين وأخيراً منهم الشيخ الأكبر «زميلنا الشيخ محمود شلتوت(ر) شيخ الجامع الأزهر بفتواه الشهيرة المنتشرة في العالم الإسلامي»[97].

---

(97) مكتب شيخ الجامع الأزهر:

بسم الله الرحمن الرحيم

نص الفتوى التي أصدرها السيد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر في شأن جواز التعبد بمذهب الشيعة الإمامية:

قيل لفضيلته:

إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكي تقع عبادته ومعاملاته على وجه صحيح ان يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة وليس بينها مذهب الشيعة الإمامية ولا الشيعة الزيدية، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأي على إطلاقه، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية مثلاً؟

فأجاب فضيلته:

١ ــ ان الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه مذهب معين بل نقول: أن لكل مسلم الحق في ان يقلد بأدىء ذي بدء المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة. ولمن قلد مذهباً من هذه المذاهب ان ينتقل إلى غيره ــ أي مذهب كان ــ ولا حرج عليه في شيء من ذلك.

٢ ــ ان مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية مذهب يجوز =

ثانيا: ثبت عندي بالأدلة القوية والبراهين القاطعة والحجج الدامغة الرصينة الواضحة التي هي كالشمس الساطعة في ضاحية النهار ليس دونها سحاب أحقية مذهب أهل البيت عليهم سلام الله. وانه هو المذهب الحق الذي أخذه الشيعة عن أئمة أهل البيت عن جدهم رسول الله(ص) عن جبريل عن الرب الجليل. وليس فيه دخيل، ولن يرضون عنه بديلاً حتى يلقون الرب الجليل. وأخذه الثقات عن الثقات من يوم البعثة إلى يوم البعث لا يختلف آخرهم عن أولهم.

ثالثاً: أن الوحي نزل في بيتهم واهل البيت أدرى وأعرف بما في البيت من غيرهم.

فالجدير بالعاقل المتدبر ان لا يترك ما صح لديه من الأدلة منهم ويأخذ من الأجانب الدخلاء.

= التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنة.

فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وان يتخلوا من العصبية بخير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب، أو مقصورة علي مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز لمن ليس أهلاً للنظر والإجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقهم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات.

التوقيع

السيد صاحب السماحة العلامة الجليل الأستاذ محمد تقي القمي السكرتير العام لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية.

سلام الله عليكم ورحمته.

أما بعد.

فيسرني أن أبعث إلى سماحتكم بصورة موقع عليها بامضائي من الفتوى التي أصدرتها في شأن جواز التعبد بمذهب الشيعة الإمامية راجياً ان تجعلوها في سجلات دار التقريب بين المذاهب الإسلامية التي أسهمنا معكم في تأسيسها ووفقنا الله لتحقيق رسالتها.

والسلام عليكم ورحمة الله.

شيخ الجامع الأزهر

التوقيع

رابعاً: كثير من الآيات الواردة في الذكر الحكيم والقرآن المجيد الدالة على مدعانا وسنبين جملة منها عن قريب ان شاء الله.

خامساً: كثير من الأحاديث المأثورة والأخبار الواردة عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم الدالة على ذلك وقد ذكرها الفريقان «السنة والشيعة» في كتبهم وسنعرض إلى ذكر جملة منها أيضاً قريباً إنشاء الله، إلى غير ذلك مما لا يسعنا في هذا المختصر[٩٨].

وبدأ المؤلف يصرد الأدلة على أحقية مذهب الشيعة الإمامية مستدلاً ببعض الآيات الواردة في حق أهل البيت وأفضليتهم. يقول: جاء في القرآن المجيد آيات عديدة تؤيد مدعى الشيعة وقد فسرها علماء الفريقين وفقاً لما ذهب إليه الشيعة جمعاء منها:

آية الولاية: وهي قوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ (المائدة، آية٥٥). اتفق جميع أهل البيت(ع) وعلماء التفسير والحديث الشيعة بقضها وقضيضها وكثير من مفسري السنة بل جميعهم على أن هذه الآية الكريمة نزلت في علي أمير المؤمنين(ع) عندما تصدق بخاتمه على المسكين وهو يصلي في مسجد رسول الله(ص).. قال السيوطي في الدر المنثور (م٢ ص٢٢٣) أخرج الخطيب في المتفق عن إبن عباس قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكع فقال النبي(ص) من أعطاك هذا الخاتم قال ذلك الراكع فأنزل الله ﴿إنما وليكم الله ورسوله..﴾...الخ.

وأخرج الطبراني في الأوسط وإبن مردويه عن عمار بن ياسر قال وقف بعلي سائل وهو راكع في صلاة تطوع فنزع خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله(ص) فأعلمه بذلك فنزلت على النبي(ص) هذه الآية ﴿إنما وليكم

(٩٨) لماذا إخترت مذهب الشيعة مذهب أهل البيت عليهم السلام ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ص٢٢ ــ ٢٣ .

الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ فقرأها رسول الله(ص) على أصحابه ثم قال من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه[٩٩].

وممن نص على ذلك فخرالدين الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب. قال نقلاً عن جماعة أن هذه الآية دالة على أن الإمام بعد رسول الله(ص) هو علي بن أبي طالب عليه السلام وتقريره ان نقول إن هذه الآية دالة على أن المراد بهذه الآية إمام، ومتى كان الأمر كذلك وجب أن يكون ذلك الإمام هو علي بن أبي طالب عليه السلام. وقد تعرض صاحب غاية المرام للأحاديث الواردة في نزول هذه الآية في أمير المؤمنين علي(ع) فأورد في (ص١٠٣) أربعة وعشرين حديثاً من طرق أهل السنة. كما وقد أورد في (ص١٠٧) تسعة عشر حديثاً من طرق الشيعة[١٠٠].

ثم يستطرد المؤلف في إيراد الآيات والأحاديث الدالة على كون أهل البيت أحق بالخلافة والإمامة من غيرهم ويأتي بأقوال العلماء والمحدثين، التي تصب كلها في نصرة مذهب الإمامية وأحقيته.

يقول الشيخ الأنطاكي: ومنها آية التطهير: وهي قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ (الأحزاب، الآية٣٣)...

وقد روى السيوطي في تفسير الدر المنثور (ج٥ ص١٩٨) ان نزول الآية في الخمسة أهل الكساء وذلك بعشرين طريقاً كما رواها إبن جرير الطبري

---

(٩٩) المرجع السابق، ص٤٣ - ٤٤ . أنظر الآية ونزولها في الإمام علي عليه السلام شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي (ج١ ص١٦١) . وترجمة الإمام علي في تاريخ دمشق لإبن عساكر الشافعي (ج٢ ص٤٠٩)، وأسباب النزول للواحدي (ص١١٣)، وكفاية الطالب للكنجي الشافعي (ص٢٢٨)، والكشاف للزمخشري (ج١ ص٦٤٩)، وغير ذلك من المصادر.

(١٠٠) المرجع السابق، ص٤٩ .

في تفسيره جامع البيان (ج٢٢ ص٥) بستة عشر طريقاً. ورواها جل المفسرون والمؤرخون وأهل السير وعولوا عليها في تصريحاتهم باختصاص الآية الشريفة بالخمسة أهل الكساء.. وأخرج مسلم في باب فضائل أهل البيت(ع) من صحيحه (ج٢ ص٣٣١) عن عائشة قالت خرج رسول الله غداة وعليه مرط من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً[101]. وكذا آية المباهلة[102]، وآية المودة[103] وآية الصلوات[104]. إلى غير ذلك من

---

(١٠١) المرجع السابق، ص٦٠ ــ ٦١، وأنظر صحيح مسلم، ج٢ ص٣٦٨، ط عيسى الحلبي، وج١٥، ص١٩٤، مصر، بشرح النووي، وصحيح الترمذي، ج٥، ص٣٠، ح ٣٢٥٨. و ج٥، ص٣٢٨، ح٣٨٧٥، طبع دار الفكر. ومسند أحمد بن حنبل، ج١، ص٣٣٠، طبع الميمنية بمصر. والمستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، ج٣، ص١٣٣. والمعجم الصغير للطبراني، ج١، ص٦٥ و ١٣٥. وغيرهم من المصادر الكثيرة والمتعددة.

(١٠٢) وهي قوله تعالى ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ (آل عمران: الآية٦١). أجمعت الأمة الإسلامية على أن الآية نزلت في النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام راجع صحيح مسلم كتاب الفضائل، فضائل علي بن أبي طالب (ج٢ ص٣٦٠) ط عيسى الحلبي. و(ج١٥ ص١٧٦) مصر بشرح النووي، وصحيح الترمذي (ج٤ ص٢٩٣ ح٣٠٨٥ و ج٥ ص٣٠١ ح٣٨٠٨). وشواهد التنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي (ج١ ص١٢٠ ــ ١٢٩). والمستدرك على الصحيحين للحاكم (ج٣ ص١٥٠) وصححه. أنظر لمزيد من المصادر الراوية للحديث المراجعات للإمام عبدالحسين شرف الدين، تحقيق الشيخ حسين الراضي، المجمع العالمي لأهل البيت.

(١٠٣) وهي قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى﴾ (الشورى الآية:٢٣) هذه الآية نزلت في قربى الرسول(ص) وهم: علي وفاطمة والحسن والحسين(ع). راجع شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي (ج٢ ص١٣٠) وذخائر العقبى للطبري الشافعي (ص٢٥ ــ ١٣٨) والفصول المهمة لإبن الصباغ المالكي ص١١ومستدرك الحاكم (ج٣ ص١٧٢) وغيرهم انظر المراجعات.

(١٠٤) راجع صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ان الله وملائكته يصلون على لنبي﴾ (ج٦ ص٢٧) ط دار الفكر و (ج٦ ص١٥١)، مطابع الشعب، وصحيح. مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي(ص)(ج٢ ص١٦) ط. شركة الإعلانات ==

الآيات والأحاديث الدالة على أهل البيت وأفضليتهم وأحقيتهم.

واخيراً يقول الشيخ الأنطاكي: إن ما قدمناه لقراء كتابنا من الآيات القرآنية والأحاديث الثابتة النبوية في كتب القوم (السنة) وعنهم، فيها إثبات أحقية علي أمير المؤمنين(ع) بالخلافة الفورية بلا فصل لو أنصف المخالف. أنظر بدقة وإمعان، إلى ما أوردناه لك من الحجج والبراهين في هذا الكتاب كيف تجلى الحق واتضح السبيل لسالكيه الذين أخلصوا النية وتجردوا عن العصبية المذهبية والنعرات الطائفية العمياء المهلكة. أما من بقي مصراً على عناده فلا تفيده الروايات وإن كثرت وكثرت ولو قدمنا له ألف دليل ودليل(١٠٥).

وبعد لم يكن باستطاعتنا تلخيص تجربة هذا الشيخ الأزهري الذي وصل يوماً من الأيام أن يكون قاضياً، في المذهب الشافعي، لكن البحث أوصله أخيراً إلى إعتناق مذهب أهل البيت. وقد أورد المئات من الأحاديث والشروح والأقوال، كلها مستقاة من تراث أهل السنة والسلفية. فهل بعد ذلك يمكن أن نقول بأن التشيع من صنع يهودي يمني للكيد للإسلام والعرب؟؟.

ننتقل إلى متشيع آخر وهو الدكتور محمد التيجاني السماوي الذي كتب قصة تشيعه وقدم الأدلة الدامغة التي جعلته يختار مذهب أهل البيت دون غيره من المذاهب الإسلامية.

يقول: أما الأسباب التي دعتني للإستبصار فكثيرة جداً... منها النص على الخلافة: والباحث في هذا الموضوع إذا تجرد للحقيقة فإنه سيجد النص على علي بن أبي طالب واضح جلي كقوله(ص) «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» قال ذلك بعد ما انصرف من حجة الوداع، فعقد لعلي موكب التهنئة حتى أن أبا بكر نفسه وعمر كانا من جماعة المهنئين للإمام يقولان: «بخ بخ

= وج١ ص١٧٣، ط عيسى الحلبي مصر.

(١٠٥) المرجع السابق، ص٣١٦.

لك يابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة[١٠٦].

ومن الأحاديث التي اخذت بعنقي ودفعتني للإقتداء بالإمام علي هي تلك التي اخرجتها صحاح أهل السنة والجماعة وأكدت صحتها. والشيعة عندهم أضعافها ولكن ـ وكالعادة ـ سوف لا استدل ولا أعتمد إلا الأحاديث المتفق عليها من الفريقين. ومن هذه الأحاديث:

أ ـــ حديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها» رواه الحاكم في مستدركه (ج٣ ص١٢٧) وإبن كثير في تاريخه (ج٧ ص٣٥٨). ورواه أحمد بن حنبل في المناقب.

ب ـــ حديث: «ياعلي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبي بعدي».

ج ـــ حديث: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار».

د ـــ حديث: « علي مني وأنا من علي، ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي» سنن إبن ماجة (ج١،ص٤٤) خصائص النسائي (ص٢٠) صحيح الترمذي (ج٥ ص٣٠٠).

هـ ـــ حديث الدار يوم الإنذار: قال رسول الله(ص) مشيراً إلى علي: «إن هذا أخي، ووصي، وخليفتي من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا»[١٠٧].

---

(١٠٦) ثم إهتديت، مؤسسة الفجر لندن، ص١٣٥. أنظر مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٤، ص٢٨١. تذكرة الخواص لإبن الجوزي، ص٢٩، الرياض النضرة للطبري، ج٢، ص١٦٩، كنز العمال، ج٦، ص٣٩٧، البداية والنهايـــة لإبن كثير، ج٥، ص٢١٢، تاريخ إبن عساكر، ج٢، ص٥٠. تـفسير الـرازي، ج٣، ص٦٣. الحاوي للفتـاوي للسيوطي، ج١، ص١١٢.

(١٠٧) تاريخ الطبري، ج٢، ص٣١٩، تاريخ إبن الأثير، ج٢، ص٦٢. السيرة الحلبية، ج١، ص٣١١. شواهد التنزيل للحسكاني، ج١، ص٣٧١. كنز العمال، ج١٥، ص١٥. =

وهذا الحديث هو أيضاً من الأحاديث الصحيحة التي نقلها المؤرخون لبداية البعثة النبوية وعدّوها من معجزات النبي، ولكن السياسة هي التي أبدلت وزيفت الحقائق والوقائع، ولا عجب من ذلك لأن ما وقع في ذلك الزمان المظلم يتكرر اليوم في عصر النور فهذا محمد حسين هيكل أخرج الحديث بكامله في كتابه «حياة محمد» في صفحة (١٠٤) من الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هجرية. وفي الطبعة الثانية وما بعدها حذف من الحديث قوله(ص): «وصيي وخليفتي من بعدي»، كذلك حذفوا من تفسير الطبري (الجزء ١٩، صفحة١٢١) قوله: (وصيي وخليفتي) وأبدلوها بقوله إن هذا أخي وكذا وكذا..!! وغفلوا عن أن الطبري ذكر الحديث بكامله في تاريخه (الجزء٢ صفحة ٣١٩). أنظر كيف يحرفون الكلم عن مواضعه ويقلبون الأمور، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره...

ولكن الباحث المنصف عندما يقف على شيء من هذا التحريف والتزييف يزداد عنهم بعداً ويعرف بلا شك أنهم لا حجة لديهم غير التضليل والدس وتقليب الحقائق بأي ثمن، ولقد إستأجروا كتاباً كثيرين وأغدقوا عليهم الأموال كما أغدقوا عليهم الألقاب والشهادات الجامعية المزيفة ليكتبوا لهم ما يريدون من الكتب والمقالات التي تشتم الشيعة وتكفرهم[١٠٨].

أما الباحث صائب عبدالحميد فيقدم أدلة إضافية ويزيد على ما ذكراه، يقول: لقد تناول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر الإمامة في العديد من الأحاديث الشريفة المقطوع بصحة إسنادها.. من تلك النصوص حديث الثقلين، وهو من أشهر الأحاديث الشريفة، ذلك الحديث الذي يلخص الأمانة الكبرى التي تركها رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في أعناقنا. من

== تاريخ إبن عساكر، ج١، ص٨٥. تفسير الخازن لعلاء الدين الشافعي، ج٣، ص٣٧١. حياة محمد لحسين هيكل الطبعة الأولى، باب وأنذر عشيرتك الأقربين.

(١٠٨) ثم أهتديت، ص١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩، بتصرف.

أجل حفظ هذا الدين، وحفظ هذه الأمة بحفظ دينها.

وهو كما في صحيح مسلم: عن زيد بن أرقم، قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطيباً بماء يدعى (خمّاً) بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ـ فحث على كتاب الله ورغب فيه ـ وأهل بيتي، أذكركم الله في اهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي».

وفي سنن الترمذي: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما». وهذا النص أخرجه الحاكم في المستدرك ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفي مسند أحمد: «إني تارك فيكم خليفتين، كتاب الله وأهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض جميعاً». وقد ورد هذا الحديث في أغلب السنن وبطرق عديدة، يمتنع معها تسرب الشك إليه بأي شكل من الأشكال. وقد يكون هذا النص النبوي الشريف لوحده كافياً في تعيين خلفاء الرسول، وأئمة المسلمين[١٠٩]. ويستدل الباحث المتشيع على أحقية الإمام علي في الإمامة والخلافة بأحاديث عديدة نقلها من المصادر الموثوقة لدى أهل السنة والسلفية مثل: قوله(ص): «ياعلي أنت تبين لأمتي ماختلفوا فيه بعدي» رواه الحاكم في المستدرك (ج٣، ص١٢٢) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وذكره صاحب حلية الأولياء (ج١، ص٦٤) وكنز العمال

(١٠٩)منهج في الإنتماء المذهبي ، دار المودة ، بيروت، ط١ - ١٩٩٣م ، ص٦٧- ٦٨- ٦٩.

(ج١١/٣٢٩٨٣).

وعن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب، فمن تولاه فقد تولاني، ومن أحبه فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عزوجل» تاريخ إبن عساكر ترجمة الإمام علي (ج٢، ص٥٩٧ - ٥٩٨) بهذا النص. وكذا مجمع الزوائد (ج٩، ص١٠٩) والمنتخب من كنز العمال بهامش مسند أحمد (ج٥، ص٣٢) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أحب أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن غرسها ربي فليتول علي بن أبي طالب، فإنه لن يُخرجكم من هدى، ولن يُدخلكم في ضلالة»[١١٠].

أما الباحث والصحفي إدريس الحسيني صاحب كتاب «لقد شيعني الحسين» فيتكلم عن التدابير النبوية في تركيز الإمامة فيقول: كانت هناك طرق كثيرة ومختلفة إعتمدها الرسول(ص) في تركيز الإمامة وترسيخها في وجدان المسلمين وهي كالتالي:

١ ــ العمل على إشاعة الإمامة لعلي بن أبي طالب(ع).. وأهم تلك المواقف التي كان يرمي من خلالها الرسول(ص) إلى إظهار إمامة علي(ع) في المستقبل ما يلي:

أ ــ يوم الدار.

ب ــ أحاديث الوصية.

ج ــ يوم الغدير.

وبخصوص يوم الدار يقول الحسيني: وهو موقف جرى تحت سمع وبصر

(١١٠) المرجع السابق، ص١٢٦ ــ ١٢٧. الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك، ج٣، ص١٢٨، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ولسان الميزان، ج٢، ص١٤، ومجمع الزوائد، ج٩، ص١٠٨.

صناديد قريش وكبرائها، وعلي(ع) يومها لايزال في طور الغرارة والصبا. إذ قرع الرسول(ص) مسامعهم، معلنا إختيار علي(ع) وزيراً له وخليفة من بعده. وملخص الحادثة كالتالي:

إنه عندما نزل قوله تعالى: ﴿أنذر عشيرتك الأقربين﴾ (الحجر، آية٩٤ - ٩٥). قام الرسول(ص) يدعو أقرباءه، وفيهم أبو لهب فقال(ص): «يا بني عبدالمطب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله عزوجل أن أدعوكم إليه. فأيكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم»؟. فسكت القوم ولم يجيبوا إلا علي(ع) قال: «أنا يارسول الله أكون وزيرك على ما بعثك الله. وبعد أن كررها ثلاثاً، إلتفت إليهم وقال: ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم (أو عليكم)، فاسمعوا له، وأطيعوا. فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب، قد أمرك أن تسمع لإبنك وتطيع وجعله عليك أميراً». أنظر تاريخ الطبري (ج٢، ص٣١٩ - ٣٢١) وفرائد السبطين (ج١ ص٨٥) وشواهد التنزيل (ج١ ص٤٢٠) وكفاية الطالب (ص٢٠٤)، وينابيع المودة (ج١ ص١٢٢).

كان هذا هو أول موقف رسالي في الدعوة إلى الإسلام، قدم فيه علي(ع) بقوة. وكان الأمر بانذار العشيرة، وهي أول خطوة للدعوة تزامنت مع عرض إمامة علي(ع)، لما في ذلك من تلازم وتكامل بين الدعوة والإمامة[111].

□ أسطورة عبدالله بن سبأ:

أما فيما يتعلق بموضوع إبن سبأ والسبئية الذي تلوكه السنة السلفيين فيقول الباحث الحسيني: «يحاول الكثير من المؤرخين إبراز «السبئية» كمفتاح لفهم

(١١١) الخلافة المغتصبة أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ. إدريس الحسيني دار النخيل ببروت، ط٢، ١٩٩٥م ص٢٦ - ٢٧.

الظاهرة «الشيعية» وذلك لأنها أقرب إلى المؤرخ «البهلواني» حيث لاتكلفه عناء البحث فيكتفي بالقشور، ويستنكف عن الغوص في الأعماق.

إنني لا أزال أتتبع حقيقة السبئية، حتى وجدتها أبأس «تلفيقة» في تاريخ الإسلام. بحيث سرعان ما تلاشى تماسكها، وتداعى صرحها التلفيقي. لينتهي إلى مصدر مجهول، كمجهولية «إبن سبأ» نفسه. والذين ربطوا بين التشيع والسبئية، ليسوا إلا مستهلكين لبضاعة أموية عتيقة. يقول د. إبراهيم بيضون: «والسبئية، أسطورة كانت أم حقيقة، فهي على هامش التشيع ومتناقضة في الصميم مع الفكر الشيعي، بخلفيته السياسية البحتة». ويضيف الباحث: «إني مازلت أبحث عن هذا الشخص الأسطوري الهارب بين فجاج التاريخ «المفبرك» وأضرب الرأي هنا بالرأي هناك، عسى أن أحصل على جواب يشفي غليلي من الجهل ونهمي إلى اليقين، من هذه الأمية التاريخية. ويجعلني أعبد الله على يقين من أمري.

وبعد بحث تاريخي طويل وعميق، تتبع فيه الباحث شخصية هذا الرجل الأسطورية واكتشف خلفيات ظهورها وإنتشارها. يقول: «وعلى هذا الأساس تنقشع غيوم «البؤس» التاريخي المتلبس بأيديولوجيا البلاط الأموي. وهكذا تنكمش «تلفيقة» السبئية، لتلقى على كاهل محرف وضاع، مرفوض الرواية، وهو سيف بن عمر، وتتوضح بعدها الأسباب التاريخية لنشوء «فكرة السبئية» وتنقشع الغيوم، ولا تنقشع على الذين ما زالوا ممسكين بالعظام التاريخية. لقد تبين لي أن في تاريخنا مبدعين، لايعجزون عن حبك الأساطير في أرقى خيالاتها. لقد كان للسياسة في تاريخنا خيال، يظللها من الشموس الكاشفة.

وليست هذه أول خرافة، تُلقى بهذا الشكل «التهريجي» على التشيع. بل هناك أخريات من تلكم الشبهات المحبوكة بالأصابع المأجورة والمسيئة،

بالترغيب والترهيب الأموي، لابد من الوقوف على هزالها»[١١٢].

ويقول الباحث الحسيني ناقضاً فكرة إرتباط التشيع بالقومية الفارسية: «لم يكتف خصوم الشيعة بشبهة ـ السبئية ـ فحسب بل أوردوا شبهات أخرى دعموا بها مسلمتهم الأيديولوجية. ومن تلك الشبهات الكثيرة والمتناقضة تهمة «التأثير الفارسي في التشيع»[١١٣]. وفي دحض فكرة «فارسية» التشيع، قال ـ أي المؤرخ أحمد أمين ـ: «والذي أرى ـ كما يدلنا التاريخ ـ أن التشيع لعلي بدأ قبل دخول الفرس في الإسلام. ولكن بمعنى ساذج، وهو ان علياً أولى من غيره من وجهتين، كفايته الشخصية وقرابته للنبي».

فالذين لا يعلمون ـ من اخواننا السنة ـ يجيب ان يدركوا، كما أدركت ـ منذ فتحت قلبي للحقيقة ـ ان أغلب علمائهم من «فارس». إنني مازلت أقتفي آثار علماء السنة الكبار، في البلاغة والنحو والفقه والحديث والتصوف.. فأجد الأغلبية الغالبة منهم فرساً ومنهم: الترمذي والنسائي وإبن ماجة والقزويني والقاضي البيضاوي وابو زرعة الرازي، والفيروز آبادي (صاحب القاموس المحيط) والزمخشري والإمام فخرالدين الرازي، والكازروني وأبو القاسم البلخي والقفال المروزي والتفتازاني والراغب الأصفهاني والبيهقي والتبريزي الخطيب، والجرجاني وابو حامد الغزالي.. وغيرهم مما يعجز عن عدهم اللسان ويضيق عنهم المقام. فأعلام «السنة والجماعة» الفطاحل، وعلماؤهم النحارير ومحدثوهم النقاريس، كانوا من بلاد «فارس».

والتشيع أدخل إلى فارس، من بلاد العرب، وساهم في نشر التشيع في

---

(١١٢) لقد شيعني الحسين، دار النخيل العربي، بيروت، ط٤ - ١٩٩٦م ص٧٨ - ٨٣ و٨٨ - ٨٩ بتصرف. وأنظر لمزيد التفصيل في قصة إبن سبأ الأسطورة. عبدالله بن سبأ وأساطير أخرى . لمرتضى العسكري العميد السابق لكلية أصول الدين في بغداد.

(١١٣) المرجع السابق ، ص٩١.

بلاد فارس علماء من العراق، وجبل عامل، والأحساء، والمدينة المنورة(١١٤).

◻ الشيعة والصحابة:

أما ما يردده السلفية من أن الشيعة يسبون الصحابة ويتبرأون منهم. فإن في القضية ملابسات شائكة جداً. وتتجاوز فكرة السب والشتم، فليس للشيعة عداء شخصي مع الصحابة!! وان كان لهم بعض الإعتراض على مجموعة ممن اطلق عليهم المؤرخون إسم صحابة. فالخلاف ينطلق من تعريف الصحابي. فإبن حجر العسقلاني في إصابته يعرف الصحابي: «من لقي النبي(ص) مؤمناً به ومات على الإسلام، طالت مجالسته معه أو قصرت روى عنه أم لم يروِ، غزا أو لم يغز، من رآه ولم يجالسه، ومن لم يراه لعارض»(١١٥).

وإذا كان كل هؤلاء يعتبرون صحابة فإن المشكل هو في إعتبارهم كلهم عدولا، لا يتطرق اليهم الجرح والتعديل كما يدعي إبن عبدالبر. وهذا بخلاف الواقع والعقل. فأهل السنة والسلفية مجمعون على أن الصحابة ليسوا معصومين. وعليه فوقوعهم في الخطأ والزلل أمر ممكن. بل حدث فعلاً. وهو مستمسك الشيعة. ومن يراجع كتب التاريخ والسير سيجدها تتحدث عن أخطاء مجموعة من الصحابة. فخالد بن الوليد الصحابي، قتل مالك إبن النويرة الصحابي ظلماً وعدواناً وزنا بزوجته، وأراد عمر بن الخطاب أن يقيم عليه الحد لكن أبا بكر رفض.

---

(١١٤) المرجع السابق، ص٣٨، والذي يراجع تراجم كبار رجال الحديث والتفسير واللغة يجدهم من الفرس. ومنهم كبار رجال المذهب الحنبلي وعلى رأسهم الامام أحمد بن حنبل. والفرس اعتنقوا التشيع مؤخراً خلال القرن السابع الهجري لما سيطر الصفويون الشيعة على الحكم في إيران؟!.

(١١٥) نقلاً عن النظام السياسي في الإسلام رأي السنة رأي الشيعة حكم الشرع، المحامي أحمد حسين يعقوب، ط١ - ١٩٩٠م، ص ١١٢ .

ولعمر بن الخطاب اجتهادات خاطئة خالف فيها النصوص القرآنية والنبوية، كإلغائه سهم المؤلفة قلوبهم، واجازته الطلاق الثلاث بلفظ واحد. مما دفع بإبن تيمية زعيم السلفية إلى رفض هذه الفتوى واعتبار الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع الا طلقة واحدة، وهو مذهب الشيعة الإمامية. وحرم عمر متعتي الحج والنساء، وقد عمل بهما الصحابة على عهد الرسول وخلافة أبي بكر وشطرا من خلافة عمر إلى أن قام قائلاً: إنهما متعتان على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما، إحداهما متعة النساء، ولا أقدر على رجل تزوج امرأة إلى أجل الا غيبته بالحجارة، والأخرى متعة الحج[116]. مع أن القرآن صريح في حليتها. فإذا رفض الشيعة إجتهاد عمر بن الخطاب وتمسكوا بالنصوص، قيل لهم أنتم تسبون الصحابة. وقد خالف الخليفة الثالث عثمان بن عفان الكثير من أحكام الإسلام مما ادى إلى مقتله، وقد كانت أم المؤمنين عائشة تنادي وتقول «اقتلوا نعثلاً فقد كفر».

يقول الدكتور إمام عبدالفتاح: «كان عثمان لا يريد أن يلزم نفسه بسياسة خاصة يطمئن إليها المسلمون، وغيرهم من أهالي الدول الإسلامية في عهده. وكان هذا أول خروج عن المثال! وفي خلافته عين عثمان أقرباءه منهم عمه الحكم بن العاص ـ وهو الذي طرده الرسول من المدينة ـ ومنهم الوليد بن عقبة أخو عثمان لأمه الذي عيّنه والياً على الكوفة، وكان يشرب حتى الفجر، فيصلي بالناس أربعاً! وقد روينا قصته من قبل، وهو ممن أخبر النبي(ص) أنه من أهل النار! وعبدالله بن أبي سرح على مصر، ومعاوية على الشام، وعبدالله بن عامر على البصرة.. الخ، فكان هو الخروج الثاني عن المثال[117].

---

(١١٦) سنن البيهقي، ج٧، ص٢٠٦، نقلاً عن الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني، الدار الإسلامية، ط١، ١٩٩٠م، ج٢، ص٩٥٩.

(١١٧) الطاغية، د.إمام عبدالفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة الكويتية ، عدد رقم١٨٣ ، مارس / أذار ١٩٩٤م ، ص١٩٥ .

ويتكلم الدكتور عن أخطاء كثيرة إرتكبها عثمان وأضرت بالإسلام والمسلمين، والدكتور ليس شيعياً، لكنه استقى ذلك من مصادر التاريخ المعتمدة. وكذا محققي الشيعة اليوم وعلمائهم، يأخذون من تاريخ كتبه رجالات أهل السنة والسلفية، فليس للشيعة تاريخ عام يخصهم، وإنما هو تاريخ مشترك بالإضافة إلى خصوصيات مروية عن أئمة اهل البيت.

وهؤلاء الصحابة الذي يُتهم الشيعة بسبهم أو الطعن فيهم، إنما سبهم التاريخ وطعن فيهم، وكشف أخطاءهم القظيعة. فهذا المغيرة بن شعبة صحابي، لكنه ودفاعاً عن مصالحه الخاصة فتح على أمة الإسلام باب من الشر لم يغلق بعد. فهو الذي شجع معاوية بن ابي سفيان على أخذ البيعة لإبنه يزيد الفاسق، أنظر ماذا قال بعدما خرج من عند معاوية وقد اوحى له ببيعة يزيد: فخرج من عنده، فلقي كاتبه، فقال: ارجع بنا إلى الكوفة. والله لقد وضعت رجل معاوية في غرز لا يخرجها منه إلا سفك الدماء[١١٨].

وعمر بن العاص صحابي جليل لكنه باع دينه لمعاوية بن أبي سفيان وأخذ الثمن ولاية مصر، وفعلاً حاربا الإمام الشرعي وإنتهى بهما المطاف إلى تحقيق أهدافهما.

ومعاوية بن أبي سفيان أليس صحابياً؟! لكنه قتل عمار بن ياسر وحجر بن عدي والحسن بن علي وهؤلاء صحابة، وأزهق المئات من أرواح المسلمين ظلماً وعدوانا. ماذا يقول فيها دعاة السلف؟! سيقولون لم يقتل أحداً!! واذن تكذبهم جميع التواريخ ومصادر الحديث السنية والسلفية.

لكنهم دربوا على الدفاع عن الظلم وتصويغه، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم على نفسه وهو جبار السماوات والأرض، ولا يُسأل عما يفعل؟. سيقولون إنه قتل الصحابة والمسلمين متأولا مجتهداً، فله أجر على ذلك فوق

---

(١١٨) منهج في الإنتماء المذهبي، م . س ص٢٤٢، نقلاً عن تاريخ إبن خلدون،ج٣ ص١٣.

كل هذا القتل والظلم؟!.

وأمر بلعن الإمام علي على المنابر طيلة ملكه، لكن السلفية لا يبيحون دمه ولا يكفرونه مع ان الإمام علي صحابي جليل عندهم وخليفة شرعي رابع. لكنهم يكفرون الشيعة لأنهم ينتقدون بعض الصحابة!! هل يحق لمعاوية أن يلعن الإمام علي ويقتل الصحابة، ومع ذلك يبقى أميراً للمؤمنين وعندما يذكر إسمه يقال «رضي الله عنه» ولا يحق لأحد من الناس أن يقول ان معاوية فعل كذا وكذا.

وكم إنتابتني الدهشة والإستغراب وأنا أقرأ سيرة معاوية في مصادر التاريخ السنية. كنت أجد بعض القضايا والقصص التي لا تفسير لها لكن القوم أثبتوها في كتبهم وآمنوا بها. انظر مثلاً ما يقوله صاحب الفكر السامي: «قال إبن عباس: ما رأيت أحداً أحلى للملك من معاوية. وكان رزقه أيام عمر ألف دينار في كل سنة، فكان رزقه أعظم من رزق الخليفة وغيره بكثير»..[١١٩].

ماذا يعني هذا الكلام؟! عطاؤه السنوي أكثر من الخليفة ومن غيره، فأين العدل العمري إذن؟!. لكن دعاة السلف سيردون علينا بالإرهاب والتكفير إذا ما تساءلنا حول ذلك وأردنا ان نعرف الحق من الباطل.

وهل كان سيد قطب شيعياً أو رافضياً عندما تكلم عن معاوية وبني أمية، يقول يحيى أبوهموس إنه «يرمي معاوية خصوصاً وبني أمية عموماً بالكفر، ففي الصحيفة (١٧٢) من كتابه «العدالة الإجتماعية في الإسلام (مطابع دار الكتاب العربي شارع فاروق بمصر) يقول: «فلما أن جاء معاوية وصير الخلافة الإسلامية ملكاً عضوضاً في بني أمية، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية، فأمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها، وما كان الإسلام إلا رداء تخلعه وتلبسه حسب المصالح والملابسات. وفي الصحيفة

(١١٩) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي، ج١، ص٢٧٦.

(١٧٤) يقول السيد قطب مصرحاً بكفر معاوية وبني أمية: «فمعاوية هو إبن أبي سفيان وإبن هند بنت عتبة. وهو وريث قومه جميعاً وأشبه شيء بهم في بعد روحه عن حقيقة الإسلام، فلا يأخذ أحد الإسلام بمعاوية أو بني أمية، فهو منه ومنهم بريء»(١٢٠).

إن الذي يقرأ سيرة الصحابة في مصادرها المعتمدة، لا يستطيع إلا أن يطرح ألف سؤال وسؤال؟! ومن حق أي باحث أن يسأل ويبحث؟! وأن يستخلص النتائج فهذا حق شرعي وعقلي. ولا يمكن لدعاة السلفية أن يُرهبوا الناس والباحثين ويرمونهم بالكفر والإنحراف؟! لمنعهم من البحث والتحقيق.

وقد صدرت عدة كتب تتناول حياة الصحابة وتاريخهم، ووصل أصحابها إلى نفس النتائج التي توصل إليها الشيعة من قبل. وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على أن الشيعة يأخذون جل إعتراضاتهم على الصحابة من كتب ومصادر التاريخ الإسلامي العامة.

فإذا ما قرأت في أسد الغابة عن صحابي أنه أخطأ أو إقترف ذنباً، وتحدثت بذلك، فإن دعاة السلفية سيهبون لمطاردتك وسبك واباحة دمك؟! ولا ندري لماذا هذا الدفاع والإندفاع، فمعاوية يحق له أن يلعن ويقتل الصحابة!! أما نحن اليوم فلا نستطيع أن نقول لقد أخطأ الصحابي فلان في هذه المسألة!!؟.

إن التعرض لحياة الصحابة بالنقد والتحليل لا يضر الإسلام أبداً بل يقويه ويزيح عنه الشوائب الرديئة التي إلتصقت به. إن الإسلام يحارب الظلم وينهى عنه، وكل إنسان ظالم أو مقترف لظلم هو مذموم في الإسلام سواء أكان صحابياً أو إنساناً يعيش في أدغال افريقيا.

وبعد نحن نعرف لماذا يخاف دعاة السلفية من دراسة حياة الصحابة؟! لأن ذلك سيزيح الستار عن بني أمية واجرامهم وانحرافهم، وبالتالي

---

(١٢٠) مجلة منار الهدى البيروتية، عدد ٣٥ أيلول ١٩٩٥م ص٤٩.

سيفتضحون. وفي انفضاحهم، انفضاح كثير من المذاهب الفقهية والأصولية التي أسسها بنو أمية وشادوا بنيانها. ونحن هنا لم يتسن لنا ان نناقش نظرية الصحابة وعدالتهم وموقف الشيعة منهم بشيء من التفصيل. وما ذكرناه لم يكن سوى أمثلة لواقع هذا السجال الذي يؤخذ اليوم كذريعة لتكفير ملايين من المسلمين. فالشيعة لا يسبون الصحابة، مطلق الصحابة.

أولاً ليس هناك سب وإنما دراسة وتحليل لتاريخ بعض الصحابة ومواقفهم المخالفة للإسلام وللعدالة والحق. ومصادر الشيعة في ذلك كما قلنا هي كتب أهل السنة والسلفية على حد سواء. والشيعة يلتقون مع كل عقلاء الإسلام ومفكريه وباحثيه، بخصوص الكثير من الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب.

لينظروا إلى رجالات المعتزلة وموقفهم من عدد كبير من الصحابة. وقبل ذلك ليقفوا أمام تقييم إمامهم إبن تيمية، لقد طعن في الإمام علي واستهان به وعرض به لدرجة ان علماء السنة اتهموه بالنفاق، لأن الحديث صريح في ذلك، فلا يبغض الإمام علي الا منافق كذاب. ورد اجتهاد عمر بن الخطاب وهذا عين ما يقوله الشيعة، واتهم عثمان بن عفان بحبه للمال.

وبعد نعود لنكرر، إن نقد أفعال الصحابة المخالفة للإسلام هو إنتصار للحق وللرسالة التي عانى محمد بن عبدالله(ص) سنين طويلة من أجل إبلاغها، ليس للعرب فقط وإنما للإنسانية جمعاء.

يقول المحقق السبحاني: ان الشيعة تبعاً للدلائل المتقدمة، واقتداءً بأئمتهم، يقدسون الصحابة الذين عملوا بكتاب الله سبحانه وسنة نبيه، ولم يتجاوزوهما، كما أنهم يتبرؤون ممن خالف كتاب الله وسنة رسوله، وفي هذا المقام كلمة مباركة للإمام زين العابدين قال في دعاء له: «اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث

أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته. وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به، ومن كانوا منطوين على محبته، يرجون تجارة لن تبور، والذين هجرتهم العشائر، إذا تعلقوا بعروته، وانتفت منهم القربات، إذا سكنوا في ظل قرابته. فلا تنس اللهم ما تركوا لكل وفيك، وارضهم من رضوانك... إلى أن يقول عليه السلام: اللهم وأوصل إلى التابعين لهم باحسان الذين يقولون ربنا إغفر لنا ولإخواننا...»(١٢١).

وأخيراً ندعو أبناء الصحوة الإسلامية للتأمل في هذه الأحاديث النبوية التي احتضنتها الصحاح السنية. فقد اخرج البخاري عن موسى بن إسماعيل، قال: حدثنا أبو عوانة عن مغيرة عن أبي وائل، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا فرطكم على الحوض، ليُرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم إختلجوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»(١٢٢).

وأخرج أيضاً عن يحيى بن كثير، عن يعقوب بن عبدالرحمان، عن أبي حازم، قال: سمعت سهل بن سعد يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أنا فرطكم على الحوض، من ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً. لَيَرِدُ علي أقوامٍ أعرفهم ويعرفوني. ثم يحال بيني وبينهم». قال ابو حازم: فسمعني النعمان بن ابي عياش وأنا أحدثهم هذا، فقال: هكذا سمعت سهلاً؟ فقلت: نعم. قال وانا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيه، قال: «إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك»(١٢٣).

وأما مسلم فأخرج هذا الحديث من طرق عديدة، منها: عن أبي بكر إبن شيبة وابي كريب، وإبن نمير، قالوا: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن

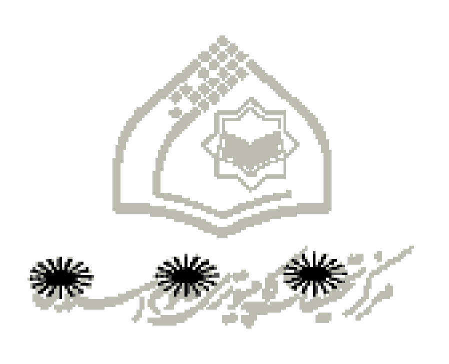
(١٢١) الإلهيات، ج٢، ص٩٤٠، نقلاً عن الصحيفة السجادية. وانظر لمزيد من التفصيل نظرية عدالة الصحابة للمحامي الأردني أحمد حسين يعقوب.

(١٢٢) صحيح البخاري ، ج٩، ص٨٣ ، كتاب الفتن.

(١٢٣) صحيح البخاري، ج٩، ص٨٣ / ٣، وأخرجه بنصه أحمد في مسنده، ج٥، ص٣٣٣.

شقيق، عن عبدالله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا فرطكم على الحوض، ولأُنازعن أقواماً ثم لأغلبن عليهم، فأقول: يارب أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[١٢٤].

وقول الرسول(ص) في حجة الوداع: «فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[١٢٥]؟!.



(١٢٤) صحيح مسلم، ج٤ : ١٧٩٦ / ٣٢ / ٢٢٩٧، حديث الحوض.

(١٢٥) صحيح البخاري كتاب الفتن، ج٩، ٩٠ / ٢٦٢٩، مسلم كتاب الإيمان باب معنى قول النبي: «لا ترجعوا بعدي كفاراً» (ج١ ص١١٨/٨١)، ومسند أحمد أيضاً من اربعة عشر طريقاً منها في الجزء الخامس ٣٧ - ٤٤ - ٧٣. أنظر منهج في الإنتماء المذهبي، ص٢٣٨ - ٢٣٩.

أهل السنة والإمامية في مواجهة السلفية

□ مواجهة التحريف والتلاعب بعقائد الإسلام :

إن وقوف أهل السنة والشيعة الإمامية اليوم في صف واحد أصبح ضرورة لابد منها لمواجهة الدعوة السلفية، أولاً: لأن دعاة السلفية يكفرون الفريقين ويستحلون دماءهم وأموالهم وأعراضهم. والنصوص التي اوردناها من قبل دليل على ما نقول والواقع الحالي يؤكد ذلك.

ثانياً: هذا الوقوف هو دفاع عن الإسلام والمسلمين في نفس الوقت، فالإسلام يشهد موجة من التحريف والتلاعب بعقائده لم يشهد لها مثيلاً من قبل، أطفال ومراهقون وعوام الناس أصبحوا بفضل المنهج السلفي يمارسون الإجتهاد والإستنباط للإحكام، ويفتون في الدماء والأعراض.

ومن يريد أن يرى ويسمع الأمثلة الواقعية على ذلك، فليزر الجزائر وليلتقي بدعاة السلفية هناك، ليرى كيف يعقد أتباع إبن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب عقود الزواج بالإكراه وتحت ضغط الإرهاب، وكيف يفسرون الكثير من تعاليم الإسلام، وكيف يمارسونها، وكيف يتصرفون مع من يخالفهم، في هذا التفسير والشرح والممارسة؟. كيف يهجم المراهقون المتمسلفة على بعض الشبان الملتزمين ويأخذونهم للمحاكمة. فإذا نجا البعض منهم بالكذب ونفعه ذكاؤه، فإن البعض الآخر ينفذ فيه حكم الإعدام مباشرة، لأنه كافر زنديق مخالف لما كان عليه السلف؟!.

ولولا أن يقال إننا نخدم النظام العسكري الدموي في الجزائر، لنقلنا من القصص والروايات الواقعية والصحيحة، ما يندى له جبين الصحوة الإسلامية

التي حرفها هؤلاء الدعاة عن الصراط القويم. ففتاوى التكفير تطال كل من يخالف دعاة السلفية؟! وفي هذا الجو التكفيري الإرهابي الخانق تضيع الحقائق وينعق الغراب في الخرابات التي يحدثها نشر الفكر السلفي الوافد من نجد والحجاز.

كل ذلك على حساب الإسلام والصحوة الإسلامية، فإذا كان الناس والشباب خاصة، قد اقبلوا في العقود المنصرمة على الإلتزام بالإسلام أفواجاً وجماعات، فإننا نُسجل اليوم وبفضل الدعوة السلفية هروب وتراجع الناس أفواجاً وجماعات عن الإلتزام بالإسلام. فهذا يخاف من الحكومات والأنظمة السياسية، التي قد تحشره في صف الإرهابيين، والآخر يقول إذا كان الإسلام هو هذا التشدد السلفي في الملبس والمظهر، فأنا غير مستعد للذهاب إلى الصحراء واعتناق عادات وتقاليد البداوة؟! وبالجملة هناك نكوص حقيقي وإرتداد للصحوة الإسلامية!!.

□ انتشار «موجة التكفير»:

وفي مصر مثلاً كانت الشرطة قد قبضت على ١٣ تاجراً وفي حوزتهم ٢٨٤٧ شريط كاسيت تحوي فتاوى بتكفير المجتمع وبعض المسؤولين والشخصيات العامة وعدد من رجال الدين والمثقفين. وأكد الدكتور محمد سيد طنطاوي مفتي الديار المصرية لمجلة «الوسط» وجود «حملة في لبنان ومصر وغيرهما تستهدف تكفير كبار الأئمة والعلماء القدامى منهم والمحدثين، وبخاصة أهل السنة والجماعة ونحن نستنكرها كل الإستنكار»[١٢٦].

---

(١٢٦) مجلة الوسط، مقال بعنوان الأزهر: حملة مضادة على الكاسيتات وفتاوى التكفير. عدد أبريل ١٩٩٤ ص١٥ .

وهذه الحملة قد أثمرت فعلا قتل الشيخ نزار الحلبي زعيم جمعية المشاريع الخيرية مؤخراً. والذين قتلوه أعلنوا سلفيتهم، وقد تحركت الحكومة اللبنانية وأقفلت إحدى جمعياتهم العاملة في طرابلس.

وهؤلاء الذين تسميهم المجلة بالمتطرفين ليسوا سوى أتباع السلفية الوهابية، الذين كما تقول عنهم: لم يستثنوا عالماً واحداً من علماء الإسلام البارزين في مصر، حتى الشيخ محمد الغزالي هاجموه بدعوى أنه أباح الإستماع إلى الموسيقى والغناء، كما حلل عمل المرأة.

وشنوا هجوماً على المفكرين الإسلاميين الدكتور محمد عمارة والدكتور أحمد كمال أبو المجد وخالد محمد خالد وفهمي هويدي.

واتهمتهم ورقة كانت تروج في حي إمبابة الشعبي الشهير، وعثرت عليها أجهزة الأمن وضمتها إلى وثائق الإتهام في «قضية الإرهابيين» في حي إمبابة، بأنهم يروجون «العلمانية الإسلامية» أو «الإسلام العلماني»[127].

إن موجة التكفير التي تنطلق من نجد في المملكة السلفية، وتجوب العالم الإسلامي، لا تستثني أحداً، فعلماء أهل السنة كفار؟! ومثقفيهم أكفر؟! بل كل من كان سلفيا وخالف سلفياً آخر في اجتهاد آخر أو رأي فهو كافر[128]؟!.

---

(127) المرجع السابق، ص ١٦ .

(128) عن جريدة الحياة اللندنية بتاريخ السبت ١٣ كانون الثاني ١٩٩٦م : أعلن أمير «الجماعة الإسلامية المسلحة» أبو عبدالرحمن أمين (جمال زيتوني) في بيان وزع أمس تبني «الجماعة» عملية قتل الشيخين محمد السعيد وعبدالرزاق رجام ومجموعة من تيار «الجزأرة».

ويتحدث زيتوني في البيان الذي نشرته «الأنصار» وحصلت «الحياة» على نسخة منه، عن عقوبة من يخرج على «الجماعة» وأشار تحديداً إلى دخول جماعة الجزأرة» في «الجماعة المسلحة» في ربيع العام ١٩٩٤م متهماً إياها بأنها من «الطوائف المبتدعة» وبأنها «إخترقت صفوف الجماعة الإسلامية المسلحة منذ عهد، كما كان في منطقة الكالتوس وخميس مليانة وغيرهما، وحاولت الوصول إلى قيادتها (الجماعة) =

ناهيك عن الشيعة الإمامية فهم ليسوا كفاراً فحسب بل أخطر من اليهود والنصارى والمجوس وكل الملل والنحل الموجودة في العالم: أنظر ماذا يقوله هذا السلفي الذي طبع كتابه باذن من رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة السلفية: «إن من يعتنق التشيع يسمى ملحداً هداماً سواء أكان سبئياً أو إمامياً إو إسماعيلياً أو خطابياً أو بيانياً أو إثني عشريا أو غير ذلك. لأن من وطيء عتبة الكفر فهو كمن أوغل فيه. ولأن المرء لايكون شيعياً بالمعنى الصحيح عندهم إلا إذا شك في الإسلام، وفي دستور الإسلام، وفي حملة رسالة الإسلام. والأدهى من ذلك، أنه لا يبلغ ذروة التشيع عندهم: إلا من يتطاول على الله، فيقيسه بخلقه ويتصدر على منصة الحكم، فيوجب على الله، ما أوجبه الله على عباده، ويحرم عليه ما حرمه الله على عباده، حتى ليكاد أن يجعله في عداد المكلفين. وفي حين أنه يرفع نفسه فوق مرتبة الألوهية تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً..»[١٢٩].

هذا ما يقوله رجالات السلفية عن الشيعة، عن فرقة لا وجود لها في العالم بأسره تعتقد أو تؤمن بما قاله هذا السلفي ويدعيه؟!!.

إن الشيعة والسنة اليوم، مطالبون بالوقوف أمام هذه الموجة السلفية، لأنها تستهدفهما معاً، ولا ينعقن ناعق في آذان أهل السنة. بأن الشيعة يكفرونهم!! ان علماء الشيعة موجودون في كل مكان ويكتبون ويعلنون صباح مساء بأن علماء أهل السنة وجماهيرهم العريضة مسلمون موحدون. إنما الخلاف حول النواصب الذين يبغضون أهل البيت وشيعتهم، وينادون بقتل الشيعة وسفك

= واحتوائها بعد الوحدة(...) ولما لم يمكنهم الله تعالى من ذلك وافتضح أمرهم وظهر مكرهم، رموا شق الجماعة وتفريق المجاهدين بحجة أن أمير الجماعة الإسلامية المسلحة أصبح يجور ويظلم ويفتك الدماء بغير حق حسب زعمهم فقرروا الخروج عن الجماعة وتوقيف السمع والطاعة»وأكد ان الخروج على الجماعة «لا يجوز».

(١٢٩) تبديد الظلام وتنبيه النيام، م . س ص١٨ .

دمائهم ويثيرون الفتن المذهبية والطائفية(١٣٠).

□ أعداء الوحدة الاسلامية :

لقد كان للشيخ محمود شلتوت رحمه الله دور مهم في محاربة الفتن الطائفية، والتقريب بين صفوف المسلمين. وله الكثير من الأحاديث الصحافية وغيرها التي تحض على الوحدة والإتحاد ونبذ التطرف والتعصب. كان رحمه الله يقول: «لقد مضى زمان العصبية... كلنا مسلمون.. ومذاهبنا جميعاً تنبثق من أصل واحد هو رسالة محمد(ص) كتاب الله وسنة رسوله.. ان بيني وبين كثير من أئمة الشيعة رسائل تهدف وجوب التقريب، ونزع ما بين السنة والشيعة من عصبية إنتهزها الأعداء والمستعمرون للتفريق بين الشعوب الإسلامية الواحدة... ان الإستعمار يحاول ان يجد ثقوباً ينفذ منها إلى وحدة المسلمين...

ولقد رجحت مذهب الشيعة خضوعاً لقوة الدليل في كثير من مسائل المسلمين، أخص منها ما تضمن قانون الأحوال الشخصية. وإن الباحث المستوعب سيجد في مذهب الشيعة ما يقوي دليله، ويلتئم مع أهداف الشريعة من صلاح الأسرة والمجتمع».

وقال الشيخ شلتوت رحمه الله عن التقريب بين المذاهب التي إشترك في تأسيس دار لها في القاهرة(١٣١)، بأن من حاربها «ضيقوا الأفق، كما حاربها

(١٣٠) من المفارقات العجيبة ان الشيعة الإمامية لا يكفرون السلفية الوهابية، رغم أن هؤلاء يلهجون ليل نهار بتكفيرهم، وقد أفتى علماء الشيعة بصحة الصلاة وراء السلفية الوهابية في الحرم في موسم الحج؟!!.

(١٣١) بدأت دعوة التقريب في مصر عام١٩٤٦م وقد دعمتها جماعة الأخوان في ذلك الوقت بقيادة حسن البنا وتبناها الكثير من رجال الأزهر الذين إرتبطوا بعلاقات حميمة مع كثير من علماء الشيعة طول تلك الفترة وحتى أواخر السبعينات. ومن علماء الأزهر ورجاله البارزين الذين ارتبطوا بتلك الدعوة الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبدالمجيد سليم والشيخ الشرباصي والشيخ الفحام، والشيخ محمد المدني الذي تولى منصب =

صنف آخر من ذوي الأغراض الخاصة السيئة. ولا تخلو أمة من هذا الصنف من الناس. حاربها من يجدون في التفرق ضماناً لبقائهم وعيشهم، وحاربها ذوو النفوس المريضة، وأصحاب الأهواء والنزعات الخاصة.. هؤلاء وأولائك ممن يؤجرون أقلامهم لسياسات مغرضة، لها أساليبها المباشرة في مقاومة أي حركة إصلاحية، والوقوف في سبيل كل عمل يضم شمل المسلمين ويجمع كلمتهم»(١٣٢).

وهؤلاء الذين يحاربون الوحدة الإسلامية ويعمقون حالة التشرذم هم دعاة السلفية الوهابية. يقول إبراهيم سليمان الجبهان السلفي يتكلم عن الميوعة الفكرية: «هي التي شجعت عملاء الماسونية الكافرة بأن يؤسسوا بين ظهرانينا وتحت أسماعنا، وأبصارنا، وفي أعز بقعة تتطلع إليها أنظارنا داراً للنصب والإحتيال، وممارسة الدعارة المذهبية أسموها (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية)(١٣٣).

إن دعاة السلفية اليوم هم الأعداء الحقيقيون لكل وحدة اجتماعية داخل الوطن الإسلامي، فهم يكفرون علماء أهل السنة ويرمون جماهيرهم بالشرك، ويخوضون حرباً ضروساً مع المتصوفة وأصحاب الطرق التعبدية، وهم فئات واسعة من المجتمع الإسلامي. ولكي يتسنى لهم ذلك يقومون بحملة واسعة لتحريف تراث الإسلام والمسلمين. ويشوهون الإسلام في أعين أتباعه ومخالفيه، عندما يصرون على الإلتزام بعادات وتقاليد البدو في الملبس

= السكرتير العام لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية. أما من الجانب الشيعي فقد ساهم فيها صاحب الدعوة الشيخ محمد تقي القمي من إيران والشيخ محمد جواد مغنية إمام القضاء الشرعي الجعفري في لبنان والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء من علماء العراق. أنظر الشيعة في مصر لصالح الورداني ، والوحدة الإسلامية ، عبد الكريم الشيرازي ، منشورات مؤسسة الأعلمي ، ط٢ - ١٩٩٢م .

(١٣٢) الشيعة في المملكة العربية السعودية، م . س، ج٢ ص٤١٣ ــ ٤١٤ .

(١٣٣) تبديد الظلام ، م س، ص١٩ .

والمأكل وطريقة التفكير والحياة.

أما الشيعة فإن فئات عريضة من المجتمع الإسلامي قد تأثرت بالدعوة السلفية التكفيرية المضللة تجاهم، ولا يمكن تغيير الصورة المشوهة للشيعة في أذهان الجماهير المسلمة السنية، إلا بجهد جهيد قد يتطلب سنوات بل ربما عقوداً من الزمن.

يقول الشيخ الغزالي في كتابه «دفاع عن العقيدة والشريعة» جاءني رجل من العوام مغضباً يتسائل: كيف أصدر شيخ الأزهر فتواه بأن الشيعة مذهب إسلامي كسائر المذاهب المعروفة؟ فقلت للرجل: ماذا تعرف عن الشيعة؟ فسكت قليلاً ثم أجاب: ناس على غير ديننا.. فقلت له: لكنني رأيتهم يصلون ويصومون كما نصلي ونصوم.. فعجب الرجل وقال: كيف هذا؟ قلت له: والأغرب أنهم يقرأون القرآن مثلنا، ويعظمون الرسول ويحجون إلى البيت الحرام».

وفي موقع آخر قال: سمعت واحداً يقول في مجلس علم: إن للشيعة قرآناً آخر يزيد وينقص عن قرآننا المعروف. فقلت له: أين هذا القرآن؟ ان العالم الإسلامي الذي امتدت رقعته في ثلاث قارات ظل من بعثة محمد(ص) إلى يومنا هذا بعد ان سلخ من عمر الزمن أربعة عشر قرناً لا يعرف إلا مصحفاً واحداً مضبوط البداية والنهاية، محدود السور والآيات والألفاظ، فأين هذا القرآن الآخر؟.

ولماذا لم يطلع الإنس والجن على نسخة منه خلال الدهر الطويل؟ لماذا يساق هذا الإفتراء؟ ولحساب من تفتعل هذه الإشاعات وتلقى بين الأغرار ليسوء ظنهم بأخوانهم وقد يسوء ظنهم بكتابهم. ان المصحف واحد يُطبع في القاهرة فيقدسه الشيعة في النجف أو في طهران ويتداولون نسخه بين أيديهم وفي بيوتهم دون ان يخطر ببالهم شيء بتة إلا توقير الكتاب ومنزله جل شأنه ومبلغه(ص)، فلم الكذب على الناس وعلى الوحي؟[١٣٤].

---

(١٣٤) الشيعة في المملكة العربية السعودية ، م س، ج٢، ص٤١٤ .

ونعود إلى موجة التكفير لنقول ان الجهود لابد ان تبذل لوقف هذا النزيف في الجسم الإسلامي. على علماء السنة أن يتدخلوا لإيقاف الكتب والكتيبات والأشرطة التي توزعها المؤسسة السلفية من داخل المملكة السعودية أو من خارجها. وان يتحرروا من الخوف المبالغ فيه من الإرهاب السلفي. وحتى إن منعوا من الحج أو العمرة فإن عذرهم عند الله سيكون مقبولاً.

أما ان يسكتوا على هذه الموجة التكفيرية التي طالت الحاضر والماضي، فإنه موقف يدل على الخنوع وانحطاط الهمم، والخوف على الدنيا، في الوقت الذي يخرب فيه الدين وتنهدم عراه؟ فما حجتهم أمام الله غداً؟!.

أما علماء الشيعة فهم جاهدون في نشر الحقائق وكشف الظلمات السلفية. لكن الكتاب الشيعي محارب في كل مكان وممنوع دخوله في أغلب الدول، وقد أحاط السلفيون والغرب الإستعماري دولة التشيع بأسلاك شائكة من الدعايات المغرضة وتزييف الحقائق الدينية والسياسية، مخافة تصدير الثورة كما يزعمون.

إن ظاهرة التكفير من جهة ونشر الفكر البدوي الساذج من جهة أخرى يعتبران إعلاناً واقعياً لإنتكاسة الصحوة الإسلامية وتقهقر الفكر الإسلامي إلى الوراء. ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، حيث التحديات الحضارية المتعددة تكاد ترمي بنا بعيداً في مزابل التاريخ الإنساني.

لأننا أمة يتطاحن أبناؤها ويتقاتلون فيما بينهم حول حلق اللحية، ومقدار رفع الثوب عن الكعب، والنفور من دراسة العلوم أو التعرف على الآخر، لأن ذلك لايقرب إلى الله. أو في أسوء الحالات بدع منهي عنها ولم يعرف عن السلف إشتغالهم بها. فهي ان لم تكن كفراً تفتح الطريق واسعاً نحو الكفر؟!!.

يقول المفكر الإسلامي حسين أحمد أمين: «التكفير سلاح من لا حجة له، وهو من قبيل إستعداد السلطة الدينية أو السياسية حتى تتصدى إدارياً

للمبادرات الفكرية الحرة. وقد أدى تكرار ظاهرة التكفير في التاريخ الإسلامي إلى نتائج عدة من بينها شل كل محاولة من أجل التجاوب مع المتغيرات في العالم المحيط بدولة الإسلام، ومن أجل مواجهة التحديات الجديدة وميل المثقفين إلى إلتماس السلامة بالتزام الصمت أو إلتزام ما يمليه المتطرفون» ويتساءل: «ألم يكفر هؤلاء القوم شارب القهوة في القرن السادس عشر، وحكموا بهدم المقاهي في ارجاء الدولة العثمانية وبجلد من يُرى وهو يحتسيها؟.

ألم يكفروا اختراع الطباعة فظل إستخدامها محرماً في أقطار الدولة العثمانية حتى أفتى شيخ الإسلام بإجازتها بعد نحو ثلاثة قرون كانت أوروبا قد أفلحت خلالها ـ وربما بفضل الإختراع نفسه ـ في أن تسبق العالم الإسلامي في مضمار الحضارة؟ فلنسألهم اذن متى كانوا على طريق الهداية والصواب، ومن أعطاهم ذلك الحق وقال انه وقف عليهم»؟.

ويرى الدكتور أحمد شلبي أستاذ التاريخ الإسلامي: «انه لايوجد من يملك استعمال كلمة التكفير الا من أعلن صراحة كفره. اما دون ذلك فإن سبيل المناقشة الفكرية هي الطريق الوحيد للإقناع والتحاور. فمن قال لا إله الا الله ليس لنا ابداً ان نكفره. فاستعمال التكفير نوع من الارهاب الفكري نرفضه علماً، مادام من يحاورنا يستعمل العلم في حججه فيكون الرد عليه بالعلم أيضا»[١٣٥].

---

(١٣٥) مجلة الوسط، م . س، ص١٧ . ويقول الشيخ عبدالله الهرري: «الذي يعرف ضلال الوهابية ثم يسكت عن التحذير منهم، هذا ذنبه أشد من الذي يعرف أن هناك كامناً يكمن للناس فيقتلهم، لأن هؤلاء إذا قتلوا تكتب لهم شهادة. اما ذاك الذي يترك الناس يأخذون الكفر من الوهابية ثم يموتون على ذلك يكونون صاروا من أهل الهلاك الأبدي. والسبب الذي يوصل إلى الكفر أقبح من الأسباب التي توصل إلى الكبائر، كالقتل ظلماً. لأن دعوة الوهابية هي دعوة لتكفير المؤمنين لغير سبب شرعي ودعوة إلى التجسيم أي تشبيه الله بخلقه». أنظر مجلة منار الهدى ، عدد ٣٥ / أيلول / ١٩٩٥م ، والمقالات السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية ، للشيخ الهرري.

وأخيراً إن العقل السلفي الحنبلي الحشوي كان فتنة ظهرت في تاريخ الإسلام، وما زالت أعراضها تنمو وتتفجر في جسم الإسلام والمسلمين، محنة للعقل المبدع الخلاق، وانتكاسة لأي ثقافة حضارية أو تطور نحو الأفضل، ودعماً للإستبداد والدكتاتورية والظلم الإجتماعي والسياسي والإقتصادي...

أما تراث الحشوية فكان ولا يزال دستوراً أبدياً ينظم الحرب الأهلية ويشرعها، ويمدها بالقوانين والأعراف، كي تستمر، ليتم هدم وتمزيق كيان الإجتماع الإسلامي، وتقطع أوصال إنسجامه ووحدته، ومن يشك في ذلك فالواقع أمامه أصدق إنباءً من الكتب.



* * *

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم.
٢ – الإبانة في أصول الديانة.
أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ط. حيدر آباد الدكن دون تاريخ .
٣ – إبن تيمية حياته وعصره، آراؤه وفقهه.
محمد أبوزهرة، دار الفكر العربي .
٤ – إبن تيمية حياته عقائده، موقفه من الشيعة واهل البيت.
صائب عبدالحميد، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط١ – ١٩٩٤م.
٥ – إبن تيمية في صورته الحقيقية.
صائب عبد الحميد، مركزالغدير للدراسات والنشر بيروت. ط١ – ١٩٩٥م.
٦ – الإحتجاج.
الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، مؤسسة الأعلمي بيروت ط٢ – ١٩٨٣م.
٧ – أحمد بن حنبل حياته وعصره .
محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي .
٨ – الإختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة.
عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. دار الكتب العلمية، بيروت.
٩ – الإستقامة.
تقي الدين أحمد بن عبدالحليم إبن تيمية، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ط٣ ١٤٠٣هـ.

١٠ - الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية.
محمد عبده، دار الحداثة. ط٣ - ١٩٨٨م.
١١ - إسلام بلا مذاهب.
الدكتور مصطفى الشكعة، الدار المصرية للطباعة والنشر بيروت.
١٢ - الأسماء والصفات.
أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تعليق الشيخ محمد زاهد الكوثري وكيل مشيخة الإسلام بالإستانة سابقاً . دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٣ - الأصول العامة للفقه المقارن.
محمد تقي الحكيم، دار الأندلس، بيروت ط٣ - ١٩٨٨م .
١٤ - أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية.
ناصر بن عبدالله الغفاري. ط١ - ١٩٩٣ .
١٥ - الإعتقاد والهداية الى سبيل الرشاد.
أبو بكر أحمد بن بن الحسين البيهقي، عالم الكتب بيروت ط٢ - ١٩٨٥.
١٦ - إفادة التيجاني.
مصطفى بن محمد بن علوي، دون تاريخ ولا مطبعة.
١٧ - الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل .
الشيخ العلامة جعفر السبحاني، الدار الإسلامية ط٢ - ١٩٨٩م.
١٨ - الألفين في إمامة أمير المؤمنين.
إبن المطهرالحلي، مؤسسة الآعلمي ط٣ - ١٩٨٢م.
١٩ - الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.
أسد حيدر، دار الكتاب العربي بيروت.
٢٠ - الإنسان والإسلام.
الدكتور علي شريعتي، دار الصحف للنشر بيروت ط١ - ١٤١١هـ.
٢١ - الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب .

أبو الفرج عبدالرحمان بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، دار الجنان بيروت.

٢٢ – **بحار الأنوار المجلسي.**

دار إحياء التراث العربي بيروت ط٣ – ١٩٨٣م.

٢٣ – **بحوث في الملل والنحل**

العلامة الشيخ جعفر السبحاني، الدار الإسلامية بيروت ط٢ – ١٩٩١ .

٢٤ – **بحوث مع أهل السنة والسلفية.**

مهدي الحسيني الروحاني، المكتبة الإسلامية ط١ – ١٩٧٩م.

٢٥ – **البدء والتاريخ.**

المقدسي مطهر بن طاهر، مكتبة الثقافة الدينية.

٢٦ – **بداية الفرق نهاية الملوك.**

الخطيب الشيخ محمد رضا الحكيمي، دار الفردوس بيروت ط١ – ١٩٩٠م.

٢٧ – **البراهين الجلية في رفع تشكيكات الوهابية.**

السيد محمد حسن الموسوي، مطبوعات النجاح بالقاهرة، ط٢ – ١٩٧٧م.

٢٨ – **بلاء الوجود في ديار الإسلام.**

الدكتور رشدي فكار، دار البلاغ – القاهرة ط١. ١٩٩٥م.

٢٩ – **البيهقي وموقفه من الإلهيات.**

الدكتور أحمد بن عطية الغامدي، المجلس العلمي لإحياء التراث الإسلامي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ط٢ .

٣٠ – **تاريخ الإسلام.**

الدكتور حسن إبراهيم حسن، دار إحياء التراث العربي ط٧ – ١٩٦٥م.

٣١ – **تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة.**

الدكتور عبدالله فياض، مؤسسة الأعلمي بيروت ط٣ – ١٩٨٦م.

٣٢ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام.
أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المكتبة السلفية المدينة المنورة / بالواسطة.
٣٣ - تاريخ الرسل والملوك.
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعارف القاهرة ١٩٦٨م.
٣٤ - التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي.
الدكتور عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، عالم المعرفة، جدة ط١ - ١٩٨٣ .
٣٥ - تاريخ العربية السعودية.
فاسيليف، دار التقدم موسكو ١٩٨٦م.
٣٦ - تاريخ العلامة بن خلدون.
دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٣م.
٣٧ - تاريخ المذاهب الإسلامية.
محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي القاهرة.
٣٨ - تاريخ نجد.
حسين إبن غنام، حققه الدكتور ناصر الدين الأسد، دار الشروق ط٢ - ١٩٨٥م.
٣٩ - تبديد الظلام وتنبيه النيام الى خطر التشيع على المسلمين والإسلام.
إبراهيم سليمان الجبهان ط٣ - ١٩٨٨م.
٤٠ - تبيين كذب المفتري فيما نسب الى الإمام أبي الحسن الأشعري.
عماد الدين إسماعيل بن عمر إبن عساكر، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٤هـ.
٤١ - تجارب محمد جواد مغنية بقلمه .
دار الجواد ، ط١ ١٩٨٠ .
٤٢ - تحرير الوسيلة .
آية الله روح الله الموسوي الخميني، دار التعارف ، بيروت ، ١٩٨٣م.

٤٣ – تذكرة الحفاظ.
شمس الدين محمد بن أحمدالذهبي، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٤٤ – تذكرة الخواص.
سبط إبن الجوزي، مؤسسة أهل البيت بيروت ١٤٠١هـ.
٤٥ – التفسير الكبير.
للإمام الفخر الرازي، دار الكتب العلمية طهران ط٢ .
٤٦ – التمهيد.
القاضي أبو بكر الباقلاني، المكتبة الشرقية بيروت ١٩٥٧م.
٤٧ – التمييز الطائفي في السعودية.
محمد عبد الحميد، رابطة عموم الشيعة في السعودية.
٤٨ – التنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل .
العلامة عبد الرحمان بن يحيى اليماني، تحقيقي الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، دار الكتب السلفية القاهرة.
٤٩ – تهذيب التهذيب.
أحمد بن علي بن حجر العسقلا ني، طبع الهند، الدكن سنة ١٣٢٥هـ.
٥٠ – التوحيد والشرك في القرآن الكريم.
العلامة الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة الفكر الإسلامي ط٢ – ١٩٨٦م.
٥١ – التوسل، مفهومه واقسامه وحكمه في الشريعة الإسلامية.
العلامة الشيخ جعفر السبحاني، معاونية التعليم والبحوث الإسلامية.
٥٢ – ثم إهتديت.
الدكتور محمد التيجاني السماوي، مؤسسة الفجر بيروت – لندن .
٥٣ – جامع الأصول.
إبن الأثير الجزري، تحقيق محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي ط٤ – ١٩٨٤م.

٥٤ – جزيرة العرب في القرن العشرين.
حافظ وهبة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٦م.
٥٥ – حجر بن عدي الثائر الشهيد.
محمد فوزي، منشورات مؤسسة الأعلمي ط١ – ١٩٧٧م.
٥٦ – الحقائق الجلية في الرد على إبن تيمية.
شهاب الدين أحمد بن جهبل الحلبي .
٥٧ – حلية الأولياء.
الحافظ أبو نعيم الأ صفهاني، دار الكتب العلمية. بيروت ط١ – ١٩٨٨م.
٥٨ – الحور العين.
سعيد بن نشوان الحميري، طهران ١٣٩٤هـ.
٥٩ – الخدعة.
رحلتي من السنة الى الشيعة، صالح الورداني . دار النخيل للطباعة والنشر، بيروت ط١ – ١٩٩٥م.
٦٠ – خطط الشام.
تقي الدين المقريزي . دار صادر بيروت.
٦١ – الخلافة المغتصبة، أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ.
إدريس الحسيني، دار النخيل بيروت ط٢ – ١٩٩٥م.
٦٢ – خلق القرآن من كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل.
تحقيق ابو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول . دار الكتب العلمية بيروت ط١ – ١٩٨٥م.
٦٣ – دائرة المعارف الإسلامية.
دار المعرفة بيروت.
٦٤ – دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها.
عبده الشمالي، دار صادر بيروت، ط٥ – ١٩٨٥م.

٦٥ – الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.
إبن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٦٦ – الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث.
الدكتور محمد كامل ظاهر، دار السلام للطباعة والنشر بيروت ط١ – ١٩٩٣م.
٦٧ – دفع شبه التشبيه والرد على المجسمة ممن ينتحل مذهب الإمام أحمد.
أبو الفرج عبدالرحمان بن الجوزي الحنبلي .
٦٨ – دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية.
العلامة الشيخ جعفرالسبحاني، معاونية شؤون التعليم والبحوث الإسلامية ط٢ – ١٤١٦هـ.
٦٩ – الذيل على طبقات الحنابلة.
الشيخ زين الدين بن رجب الدمشقي الحنبلي، دمشق ١٩٥١م.
٧٠ – رحلة إبن جبير الأندلسي.
دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت.
٧١ – رحلة شمس الدين إبن بطوطة .
دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٥م.
٧٢ – رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشير المريسي العنيد.
صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي . دار الكتب العلمية بيروت ط١ – ١٣٥٨هـ.
٧٣ – الرد على إبن تيمية من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي.
محمود محمود الغراب، مطبعة زيد بن ثابت دمشق ١٩٨١م.
٧٤ – الرد على المتعصب العنيد.
أبو الفرج عبد الرحمان بن الجوزي، تحقيق محمد كاظم المحمودي، ١٤٠٣هـ.
٧٥ – الرد الوافر.

إبن ناصرالدين الدمشقي، المكتب الإسلامي ط١ - ١٣٩٣هـ.
٧٦ - ردود على شبهات السلفية.
محمد نوري الشيخ النقشبندي الديرثوي، مطبعة الصباح ط١ - ١٩٨٧م.
٧٧ - السعوديون والحل الإسلامي.
محمد جلال كشك، المطبعة الفنية القاهرة ط٤ - ١٩٨٤م.
٧٨ - السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي.
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي . در الفكر دمشق ط١ - ١٩٨٨م.
٧٩ - السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.
الدكتور محمود عبدالحليم.
٨٠ - السنة.
عبدالله بن أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية بيروت ط١ - ١٩٨٥م.
٨١ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث.
محمد الغزالي، دار الشروق ط٥ - ١٩٨٩م.
٨٢ - السنة والشيعة ضجة مفتعلة.
الدكتور عزالدين ابراهيم، منظمة الإعلام الإسلامي ١٤٠٥هـ.
٨٣ - سنن إبن ماجة.
محمد بن يزيد، الحلبي القاهرة ١٩٥٢م.
٨٤ - سنن أبي داود.
سليمان بن اللأشعث الأزدي، دار أحياء السنة النبوية.
٨٥ - سنن الترمذي.
أبو عيسى محمد بن عيسى، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٨٦ - شرح العقيدة الطحاوية.
القاضي علي بن علي بن محمد الدمشقي، حققه الدكتور عبدالله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة ط١ - ١٩٨٧م.

٨٧ - شرح صحيح مسلم.
النووي، دار إحياء التراث العربي .
٨٨ - شرح نهج البلاغة.
الشيخ محمد عبده، منشورات اللأعلمي .
٨٩ - شرح نهج البلاغة.
إبن أبي الحديد عبدالحميد هبة الله المدائني، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي ط٢ - ١٩٦٥م.
٩٠ - الشفاعة في الكتاب والسنة.
الشيخ جعفرالسبحاني . معاوينة التعليم والبحوث الإسلامية.
٩١ - الشيعة في السعودية، الواقع الصعب والتطلعات المشروعة.
رابطة عموم الشيعة في السعودية ١٩٩١م.
٩٢ - الشيعة في مصر من الإمام علي حتى الإمام الخميني.
صالح الورداني . مكتبة مدبولي الصغير القاهرة ط١ - ١٩٩٣م.
٩٣ - الشيعة في المملكة العربية السعودية.
حمزة الحسن، مؤسسة البقيع لإحياء التراث ط١ - ١٩٩٣م.
٩٤ - الشيعة هم أهل السنة.
الدكتور محمد التيجاني السماوي، مؤسسة الفجر لندن .
٩٥ - الشيعة والتشيع فرق وتاريخ.
إحسان إلهي ظهير . إدارة ترجمان السنة باكستان .ط٤ - ١٩٨٤م.
٩٦ - الصحيح.
مسلم بن الحجاج القشيري . ط. الحلبي القاهرة.
٩٧ - الصحيح.
البخاري أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، مكتبة عبدالحميد أحمد حنفي القاهرة ١٣١٤هـ.
٩٨ - صراع الحرية في عصر المفيد (٣٤٩ - ٤٠٨هـ).

العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي، دار السيرة بيروت ط١ - ١٩٩٤م.
٩٩ - صفات الله عند المسلمين.
الشيخ حسين العايش، مؤسسة أم القرى لإحياء التراث .
١٠٠ - صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث .
الدكتور محمد عوض الخطيب، دار المعراج بيروت ط١ - ١٩٩٥م.
١٠١ - الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية.
سليمان بن عبدالوهاب النجدي .
١٠٢ - طبقات الحنابلة.
إبن أبي يعلى الفراء، المكتبة العربية، دمشق ط١ .
١٠٣ - طبقات الشافعية الكبرى.
أبو نصر عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي، مطبعة الحسينية القاهرة ١٣٢٤هـ.
١٠٤ - طبقات الفقهاء.
أبو إسحاق الشافعي الشيرازي، دار الرائد العربي بيروت ١٩٧٠م.
١٠٥ - الطبقات الكبرى.
إبن سعد الزهري، دار صادر بيروت ١٩٨٥م.
١٠٦ - ظهر الإسلام.
أحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت، ط٥ - ١٩٦٦م.
١٠٧ - العبادة وحقيقة العبودية.
تقي الدين أحمد بن عبدالحليم إبن تيمية، مكتبة تعز للنشر بغداد .
١٠٨ - العقد الفريد.
إبن عبد ربه، دار الكتاب اللبناني .
١٠٩ - العقل الفلسفي في الإسلام.
الدكتور علي شلق، دار المدى للطباعة والنشر بيروت ط١ - ١٩٨٥م.
١١٠ - عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم

الإسلامي.
الدكتور، صالح بن عبدالله العبود، المجلس العلمي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ط١ - ١٤٠٨هـ.
١١١ - على دروب التقريب بين المذاهب الإسلامية.
وقائع ندوة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية. (جامعة قطر)، دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت ط١ - ١٩٩٤م.
١١٢- علماء المسلمين والوهابيون.
حسين حلمي بن سعيد إستانبولي، تركي ١٩٨٤م.
١١٣ - العلو للعلي الغفار .
شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي،تحقيق عبد الرحمان محمد عثمان .دار الفكر، ط ٢ - ١٩٦٨م.
١١٤ - علي وبنوه.
المجموعة الكاملة، طه حسين، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
١١٥ - عنوان المجد في تاريخ نجد.
عثمان بن بشر النجدي، مكتبة الرياض الحديثة دون تاريخ .
١١٦ - العواصم والقواصم.
محمد بن إبراهيم الوزير اليماني، مؤسسة الرسالة بيروت. ط٢ - ١٩٩٢م.
١١٧ - الغدير في الكتاب والسنة والأدب .
عبد الحسين أحمد الأميني، دار الكتاب العربي بيروت ط٣ - ١٣٨٧هـ.
١١٨ - الغيث المنسجم.
للصفدي / بالواسطة.
١١٩ - فاسألوا أهل الذكر.
الدكتور محمد التيجاني السماوي . مؤسسة الفجر لندن ط١ - ١٩٩١م.

١٢٠ - فتنة الوهابية.
السيد أحمد بن زيني دحلان، إستنابول - ١٩٧٨م.
١٢١ - فتوح البلدان.
أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، مؤسسة المعارف ١٩٨٧م.
١٢٢ - الفتوحات المكية.
محيي الدين إبن عربي، دار صادر بيروت.
١٢٣ - فدك في التاريخ.
محمد باقر الصدر .
١٢٤- الفرق بين الفرق.
عبد القاهر بن طاهر البغدادي . القاهرة.
١٢٥ - فرق الشيعة.
الحسن بن موسى النوبختي، دار الأضواء . بيروت ١٤٠٤هـ.
١٢٦ - فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان .
مقدمة الشيخ سلامة القضاعي العزامي الشافعي، ملحق بالأسماء والصفات للبيهقي .
١٢٧ - الفصول المهمة.
الشيخ إبن الصباغ علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي . دار الأضواء بيروت ط٢ - ١٩٨٨م.
١٢٨ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي.
محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
١٢٩ - الفكر السلفي عند الشيعة الإثناء عشرية.
علي حسين الجابري .
١٣٠ - فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية.
لويس غرديه وج فنواتي، دار العلم للملايين بيروت ط٢ - ١٩٨٣م.
١٣١ - الكامل في التاريخ.

إبن الأثير محمد بن محمد الجزري، دار صادر بيروت، ١٩٦٦م.
١٣٢ - كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب.
السيد محسن الأمين . الطبعة الخامسة.
١٣٣ - كشف النقاب عن عقائد محمد بن عبدالوهاب.
السيد علي المنقي النقوي . المطبعة الحيدرية، النجف.
١٣٤ - الكشكول.
بهاء الدين العاملي . مؤسسة الاعلمي بيروت، ط٦ - ١٩٨٣م.
١٣٥ - لسان العرب.
إبن منظور دار إحياء التراث العربي بيروت ط١ - ١٩٨٨م.
١٣٦ - لسان الميزان.
إبن حجر العسقلا ني . مؤسسة الأعلمي بيروت، ط٢ - ١٩٨٦م.
١٣٧ - اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية.
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي . مكتبة الفارابي دمشق .
١٣٨ - لقد شيعني الحسين (ع) الإنتقال الصعب في رحاب المعتقد والمذهب.
إدريس الحسيني . دار النخيل العربي . بيروت ط٤ - ١٩٩٦م.
١٣٩ - لماذا إخترت مذهب الشيعة، مذهب أهل البيت عليهم السلام.
الشيخ محمد مرعي الأمين الأ نطاكي، منشورات الاعلمي بيروت.
١٤٠- لمع الشهاب.
حققه أحمد مصطفى أبو حاكمة بيروت ١٩٦٧م.
١٤١ - مجموع التوحيد.
رسائل إبن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب وغيرهما، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان ط١ - ١٩٨٧م.
١٤٢ - مختصر طبقات الحنابلة.
الشيخ محمد جميل المعروف بإبن الشطي . دار الكتاب العربي بيروت ن ط١ - ١٩٨٦م.

١٤٣ – المدخل الى دراسة الأديان والمذاهب.

العميد عبدالرزاق محمد أسود الدار العربية للموسوعات، بيروت ط١ – ١٩٨٠ .

١٤٤ – المدخل الى دراسة علم الكلام.

الدكتور حسن محمود الشافعي . مكتبة وهبة القاهرة ط٢ – ١٩٩١م.

١٤٥ – مذاهب الإسلاميين.

الدكتور عبدالرحمان بدوي . دار العلم للملايين بيروت ط٣ – ١٩٨٣م.

١٤٦ – المراجعات.

الإمام عبد الحسين شرف الدين، طبع المجمع العالمي لأهل البيت.

١٤٧ – مرآة الجنان.

أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعي . مؤسسة الأعلمي بيروت.

١٤٨ – مروج الذهب.

أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي . دار المعرفة بيروت ١٩٨٣م.

١٤٩ – المستدرك على الصحيحين.

الحاكم، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، طبع الهند .

١٥٠ – المستبصرون.

غلام أصغر البجبوري . دار الصفوة بيروت ط١ – ١٩٩٤م.

١٥١ – المسلمون وحوار الحضارات في العالم المعاصر .

بحث للشيخ محمد الغزالي، مقدم للدورة العاشرة لمؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن ١٩٩٥م.

١٥٢ – المسند.

الإمام احمد بن حنبل، دار الفكر بيروت ط٢ .

١٥٣ – المعارف.

إبن قتيبة الدينوري . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ط٦ – ١٩٩٢م.

١٥٤ – معجم الأدباء.

أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي . دار الفكر للطباعة والنشر، ط٣ - ١٩٨٠م.
١٥٥ - معجم البلدان، ياقوت الحموي .
دار صادر بيروت ١٩٦٨م.
١٥٦ - معجم مقاييس اللغة.
أحمد بن فارس بن زكرياء . طبع القاهرة.
١٥٧ - مع الشيعة الإمامية في عقائدهم.
العلامة جعفر السبحاني . معاونية شؤون التعليم والبحوث الإسلامية ط١ - ١٤١٣هـ.
١٥٨ - مع الوهابيين في خططهم وعقائدهم.
العلامة جعفرالسبحاني . الإرشاد الإسلامي طهران ١٩٨٦م.
١٥٩ - المقالات السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية.
الشيخ عبد الله الهرري المعروف بالحبشي . دار المشاريع ط٢ - ١٩٩٤م.
١٦٠ - المقدمة.
عبد الرحمان بن خلدون . دار الجيل بيروت.
١٦١ - مكة.
محمد هادي الأميني، ط١ - ١٩٨٨م.
١٦٢ - الملل والنحل.
أبو الفتح محمد عبدالكريم الشهرستاني، دار المعرفة، بيروت.
١٦٣ - مناظرات إبن تيمية مع فقهاء عصره.
الدكتور سيد الجميلي . دار الكتاب العربي بيروت ط١ - ١٩٨٥م.
١٦٤ - مناقب أحمد.
أبو الفرج عبدالرحمان بن الجوزي، طبع مصر .
١٦٥ - مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في الإسلام.

الدكتور علي سامي النشار . دار النهضة العربية بيروت، ط٣ - ١٩٨٤م.
١٦٦ - منهج في الإنتماء المذهبي.
صائب عبد الحميد . دار المودة بيروت ط١ - ١٩٩٣م.
١٦٧ - منهاج السنة.
تقي الدين أحمد عبد الحليم إبن تيمية . المكتبة العلمية بيروت.
١٦٨ - الموسوعة الفلسفية العربية.
معهد الإنماء العربي ط١ - ١٩٨٦م.
١٦٩ - موقف أئمة الحركة السلفية في التصوف والصوفية.
عبد الحفيظ بن ملك المكي . دار السلام للطباعة والنشر ط١ - ١٩٨٨م.
١٧٠ - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام.
الدكتور علي سامي النشار . دار المعارف ط٢ - ١٩٧٥م.
١٧١ - النظام السياسي في الإسلام، رأي السنة رأي الشيعة حكم الشرع.
المحامي أحمد حسين يعقوب ١٩٩٠م.
١٧٢ - النهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد.
مجير الدين عبدالرحمان بن محمد العليمي . عالم الكتب بيروت ط٢ ١٩٨٤م.
١٧٣ - النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل .
محمد كمال الدين بن محمد العامدي الغزي . تحقيق وجمع محمد مطيع الحافظ . نزار أباظة دار الفكر ١٩٨٢ .
١٧٤ - النفحة الزكية في الرد على شبه الفرقة الوهابية.
عبد القادر الكيلاني الاسكندراني، مطبعة الفيحاء دمشق .
١٧٥ - النهاية في غريب الحديث .
إبن الأثير محمد بن محمد الجزري المطبعة الخيرية القاهرة ١٣٢٣هـ .
١٧٦ - هذه عقيدة السلف والخلف في ذات الله .
إبن خليفة عليوي . مطبعة زيد بن ثابت. دمشق ١٩٧٩م.

١٧٧ - هذه هي الوهابية.

محمد جواد مغنية، دار الجواد بيروت ط٢ - ١٩٨٣م.

١٧٨ - هوية التشيع.

الدكتور أحمد الوائلي . مؤسسة أهل البيت بيروت ط٢ - ١٩٨١م.

١٧٩ - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول.

محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ - ١٩٨٢م.

١٨٠ - وجاء دور المجوس، الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية.

الدكتور عبدالله محمد الغريب، ١٩٨١م.

١٨١ - الوحدة الإسلامية، أو التقريب بين المذاهب السبعة.

جمع وترتيب عبد الكريم الشيرازي . منشورات الأعلمي ط٢ - ١٩٩٢م.

١٨٢ - وعاظ السلاطين.

الدكتور علي الوردي . دار كوفان لندن ط٢ - ١٩٩٥م.

١٨٣ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.

أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان . دار صادر بيروت.

١٨٤ - وقعة صفين.

المنقري نصر بن مزاحم المنقري . دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٣٦٥هـ .

١٨٥ - الوهابية نقد وتحليل.

الدكتور همايون همتي .

١٨٦ - يوم إنحدر الجمل من السقيفة.

نبيل فياض، بيروت - ليماسول ط٣ - ١٩٩٥م.

□□ المجـلات والصحــف:

١ – مجلة الأصالة.(السلفية) العددان ١٥ – ١٦ ذي القعدة ١٤١٥هـ.

٢ – مجلة تراثنا. العدد الرابع السنة الثالثة شوال ١٤٠٨هـ.

٣ – مجلة الجزيرة العربية. فبراير ١٩٩١م، وأكتوبر ١٩٩٢م ويونيو ١٩٩٣م.

٤ – مجلة روز اليوسف. عدد ٢٢٩٨ .

٥ – مجلة رسالة الإسلام. العدد ١ السنة الثالثة.

٦ – مجلة صوت الطليعة. العدد ٢٢ . السنة السادسة أيار ١٩٨٠ م رجب ١٤٠٠هـ.

٧ – مجلة العرفان. العددان ٩ – ١٠ جمادى الثانية ورجب ١٤١٤هـ.

٨ – مجلة الكفاح العربي . عدد ٨٤٧ – ٢٤ / ١٠ / ١٩٩٤م.

٩ – مجلة الكلمة ، عدد ١٠ / ١٩٩٦م .

١٠ – مجلة منار الهدى البيروتية. ٢٥ ايلول ١٩٩٥م.

١١ – مجلة الوسط. عدد ١١٦ أبريل ١٩٩٤ .

١٢ – جريدة الحياة اللندنية – ٤ أيلول ١٩٩٤ و١٣ كانون الثاني ١٩٩٦م.

١٣ – لوموند (العالم) الفرنسية – ١٩٧٩/١٢/١ .

١٤ – جريدة اللواء الأردنية. عدد ١١٥٦ السنة الرابعة والعشرون، ٢٨ حزيران ١٩٩٥م.

١٥ – محاضرات سلفية ضمن أشرطة كاسيت.



الفهـــرس

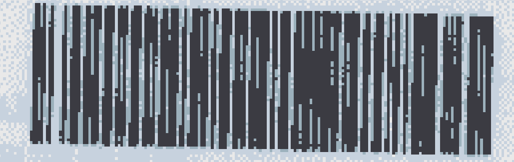
الباب الثاني:
أهل السنة والإمامية في مواجهة السلفية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

.. واستغل أولئك النفر جهل كثير أهل العصر بتاريخ هذه الفرقة الجاهلة، فأوهموا الناس أنهم يمثلون السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم من التابعين لهم بإحسان، والتاريخ يشهد والعلم بكتاب الله يناقي أنهم ما مثلوا الإسلاف سوى من أشياخ المشبّهة وأئمة المجسّمة، الذين يفسرون الكتاب بأهوائهم، ويحملون السنة على آرائهم، ويتقولون على معاني كتاب الله، ويضعون على رسول الله، ويأخذون بالضعيف إذا وافق منهم هوى، ويردون الصحيح أو يشككون في صحته إذا كان حجة عليهم ...

الشيخ سلامة القضاعي الشافعي

فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان : ص ١٥



الغدير
للطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك ـ بناية البنك اللبناني السويسري

هاتف : ٠٣/٦٤٤٦١٢ ـ تلفاكس : ٠١/٢٧٣٦٠٤ ـ ص . ب : ٢٤/٥٠ ـ بيروت ـ لبنان